

يوكيو ميشيما



نابج الربيع

ترجمة: كامل يوسف حسين

دار الآداب

ثلج الربيع

- ١ -

بحر الخصوبة

ثلج الربيع

رواية: يوكيو ميشيما

ترجمة: كامل يوسف حسين

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٠

ترجمة هذه الرباعية مهداة إلى ابنتي، دينا، النُسخ،
والنور، والندى.

كامل يوسف حسين

مقدمة المترجم

العمل المائل بين يدي القارىء، «ثلج الربيع» رواية متكاملة وقائمة بذاتها، لكنها، في الوقت نفسه، ترتبط مع شقيقتها الثلاث الأخريات: «الجياد الهاربة» و«معبد الفجر» و«سقوط الملاك» بوشائج لها قوة أمراس من فولاذ، لتشكل معاً رائعة ميثيسا نادرة المثال، في الأدب العالمي كله: رباعية «بحر الخصب».

و«ثلج الربيع»، بهذا المعنى، وسواء أنظرنا إليها في ذاتها أو بحسبانها الحركة الأولى في سيمفونية «بحر الخصب»، عمل ضاف وعمد. وليس في نيتي جعلها أكثر طولاً أو امتداداً، لا بكتابة مقدمة مسهبة بأكثر مما يحتمله المقام، ولا بإرفادها بهوامش أو شروح أو تعليقات تثقل على القارىء، وتشتت تركيزه، وتفقده استمتاعه بالرواية.

مع ذلك، فإن من حق القارىء علينا، في هذه الصفحات القلائل، التي ننزعها منه انتزاعاً، قبل أن ينطلق، في رحلته، عبر معراج الرواية، أن نحقق له حداً أدنى من الإضاءة، نعتقد أنه لا غنى عنه، بصدد موضوعين محددين، هما:

١ - موضع رواية «ثلج الربيع» من مشروعنا للتعريف بالرواية والمسرح اليابانيين.

٢ - أبعاد العالم الخلفى، الذي انبعثت منه رباعية «بحر الخصب» وقيمتها، باعتبارها من أكثر الأعمال والمشروعات الأدبية طموحاً وامتداداً، في الأدب العالمي كله، منذ مطلع القرن العشرين، وحتى الآن.

ولما كان الموضوع الأول لا يتجاوز تناولنا له مجرد الإيضاح العاجل؛ فإننا نبادر إلى البدء به، لنفرغ من بعده لمهمتنا العسيرة، المتمثلة في معالجة الموضوع الثاني.

منذ أواخر السبعينيات، على وجه التقريب، واستطرداً مع اهتمامنا برواية التراث الفلسفي الشرقي، وأبرز أدبيات الشرق، شرعنا في القيام بتنفيذ برنامج محدد الملامح؛ لتعريف القارئ العربي بالمرح والرواية اليابانيين.

وقتها، فوجئتنا، من ناحية، بالثراء الهائل لعطاء العبقريّة اليابانية، في هذين الميدانين، واهتمام العالم كله بهذا العطاء، ومن ناحية أخرى بأننا نحن العرب، نكاد، دوغماً مبالغته، لا ندري شيئاً عن هذا العطاء.

ورغم كل الجهود التي بذلناها، وبذلها كتاب آخرون، منذ ذلك الحين، لا يمكننا الزعم بأن هذه الصورة قد تغيرت كثيراً؛ فلا يزال الميدان بكراً، ولا زلنا بحاجة إلى المزيد من العمل في هذا الاتجاه.

وحتى لا يبدو كلامنا مجرداً، بالنسبة للقارئ، فإننا نضرب مثلاً عملياً واحداً، ربما يغني عن غيره. لقد أصدرت سلسلة «من المسرح العالمي» الكويتية، حتى كتابة سطور هذه المقدمة، ٢٣٢ عدداً، لم يحظ المسرح الياباني من بينها بفرصة للإطلال على القارئ العربي، إلا عبر الأعداد ١٠٠، ١٠٩، ٢٢١ - والعدد الأخير من ترجمتنا وهو يتمثل في مسرحية «السيدة دي ساد» ليوكيو ميشيما.

ما الذي يعنيه هذا؟

إنه يعني، ببساطة، أنه في أبرز سلاسل الإصدارات المسرحية على الإطلاق في العالم العربي، لا تتجاوز نسبة الإصدارات من العناوين اليابانية أكثر من ١٪ أو فوق ذلك بقليل، هذا على الرغم من أن هناك اثني عشر

شكلاً للمسرح التقليدي الياباني، إضافة إلى «الشنجيكي» أو المسرح الحديث، الذي تطور على نحو هائل خارجاً من برائن الرقابة إلى وهج ما بعد «مسرح تحت الأرض».

أياً ما كان الأمر، فإننا إذا ضربنا صفحاً الآن عن الجانب المتعلق بالمسرح من مشروعنا هذا، باعتبار أنه ليس مناط اهتمامنا هنا، لوجدنا أن تعريفنا بالرواية اليابانية الحديثة شمل تقديم ترجمتنا سيئة الحظ، والتي احتجبت سنوات طويلة قبل أن يباح لها الإطلال إلى النور، لرواية ميشيما الموسومة «اعترافات قناع»، وكذلك ترجمتنا لرواية شوساكو إندو «الصمت» و «البحر والسم» وروايته «كوبو أبي المرأة في الرمال» و «موعد سري» ومجلد «علمنا أن نتجاوز جنونا!»، الذي يضم أربع روايات لكينزورو أوي، تبدأ بالرواية التي يحمل المجلد عنوانها، جنباً إلى جنب مع روايات «يوم يكفكف دمعي بنفسه» و «الجزاء» و «أجوى المسح السحابي»، وكذلك قدما ترجمتنا لرواية جونيتشيرو تانيزاكي «التاريخ السري لأمير موساشي» في مجلد واحد مع روايته الموسومة «المنطة».

وهانحن نشرع في تنويع هذا المشروع بإصدار «ثلج الربيع» و «الجياد الهاربة» و «معبد الفجر» و «سقوط الملاك»، التي نأمل أن ندفعها إلى يدي القارئ العربي تباعاً.

فإذا ما قدر لنا، يوماً، أن تتاح لنا الظروف، التي تمكننا من أن نقدم للقارئ العربي ثلاثية موريوكيتا، الموسومة «دار ناير»، المترعة بروح السخرية والفكاهة الراحلة في متاهات الكوميديا السوداء، لكان بمقدورنا القول بأننا حققنا مشروعنا، الذي يضم أكثر من خمسة آلاف صفحة، صحتبها - حتى الآن - عشرات من المقالات المكتوبة بقلمنا والمترجمة، على السواء، عن المسرح والرواية في اليابان.

والملاحظة التي تفرض نفسها على الفور هنا هي أن هذا المشروع

للتعريف بالرواية اليابانية، رغم ارتفاع سقف طموحه، يظل، في نهاية المطاف، مشروعاً فردياً؛ ومن ثم ترد عليه كل الانتقادات التي تأخذ بأكتناف المشروع الفردي، أياً كان الجهد الذي يبذل في غمار تنفيذه، فمثل هذا التوجه إلى التعريف بالأدب العالمية إنما ينبغي، ونكرر هنا ما سبق أن قلنا - مراراً - أن يكون مهمة تضطلع بها مؤسسة، تضم في إطار عملها الجماعي، المخطط وفق رؤية كلية واضحة، شتى الجهود الفردية، التي تنصبّ لتأخذ شكل وروح عمل الفريق المتكامل.

وفي هذا الصدد، لا نملك إلا أن نحیی ما بذلته وتبذله دار الأدب من جهد رائد ومتميز، تمثل بصفة خاصة في إصدارها لسلسلة الروايات اليابانية، التي يرى هذا العمل النور في إطارها.

أما الملاحظة الأكثر أهمية، والتي ينبغي أن تضاف إلى سابقتها، فهي أن توجهنا إلى التعريف بالأدب الياباني إنما يأتي في إطار جهود عربية شاملة للإطلاع على الأدب العالمي الحديث، من نوافذ شتى، دون الاقتصار على ما كان قائماً من قبل، وهو تركز نظرنا على المصادر الغربية، والأوروبية بالتحديد، في متابعة تطور الأدب العالمي.

وغني عن البيان أن هذا الجهد يأخذ بعده الصحيح، حينما يتم في إطار إدراك أنه جزء محدود من عمل دائم، أو هكذا ينبغي أن يكون، لتحطيم ثنائية المركز - الهامش التي تضع أوروبا الغربية والولايات المتحدة تقليدياً في المركز، والعالم الثالث في الهامش.

ولعله من هنا تأتي الأهمية الخاصة والضرورة الملحة للتعريف، عن قرب أكبر، وبمزيد من الوفرة والتعمق معاً، على الأدب الحديثة في أميركا اللاتينية وأفريقيا، إضافة إلى أجزاء أخرى من آسيا، في مقدمتها الهند والصين.

فإذا انتقلنا إلى الموضوع الثاني، الذي نعالجه في هذه المقدمة، وهو

التعريف بأبعاد العالم الخلفي الذي انبثقت منه رباعية «بحر الخصب» وتحليلها، باعتبارها من أكثر الأعمال الأدبية جرأة وطموحاً، في القرن الحالي، على المستوى العالمي، لبادرنا، على الفور، إلى لفت نظر القارئ، ابتداءً، إلى أننا سنحدد ما نحاول القيام به هنا بطريقة التعريف بالسلب، قبل أن نندفع لإنجازه.

نحن، في هذه المقدمة، لسنا بين يدي التعريف بيوكيو ميشيا أو تقديم لوحة خارجية لحياته وأعماله، وحتى إذا تطرقنا إلى بعض التفاصيل، التي يمكن أن تندرج في هذا الإطار، فإن ذلك لن يكون إلا من منظور إضاءة هذه التفاصيل لبعد معين في الرباعية.

لماذا؟

الإجابة على علامة الاستفهام هذه واضحة وبسيطة ومحددة، وما نحسبها تغيب عن ذهن القارئ العربي؛ فقد سبق أن قمنا بهذه المهمة، على وجه الحصر، أي التعريف بالحقائق الأساسية المتعلقة بميشيا وعالمه الإبداعي في موضعين على الأقل، هما:

أ - تقديم ترجمتنا لرواية «اعترافات قناع».

ب - تقديم ترجمتنا لمسرحية السيدة دي ساد.^(١)

هذا فضلاً عن أنه تم التعريف بالكاتب الياباني الأكثر شهرة في العديد من المقالات، التي نشرناها في مجلات «الآداب» و«آفاق عربية» و«الأقلام». كما بذل كتاب عرب آخرون جهوداً، أكثر من رائعة، في التعريف به أيضاً.

(١) ميشيا، يوكيو - السيدة دي ساد - سلسلة «من المسرح العالمي» الصادرة عن وزارة الإعلام، الكويت - ١٩٨٨ ص ٧ إلى ٢٦. ويجد القارئ، في هذا المصدر، ثبناً بالمصادر والمراجع التي يمكنه الرجوع إليها، إذا رغب في الإلمام بالمزيد من التفاصيل عن حياة وأدب ميشيا.

هذه واحدة، وأخرى أننا لسنا، في هذه المقدمة، بين يدي تقديم تلخيص لرواية «ثلج الربيع»، ولا سرد للتضاريس الأكثر بروزاً في أحداث رباعية «بحر الخصب».

لماذا؟

مرة أخرى، لأن الإجابة على قدر كبير من الوضوح، وتتمثل في أن مثل هذه المحاولة للتلخيص بالنسبة للرواية الحالية، أو السرد الموجز للرباعية بكاملها، يندرج في صلب التحليل، الذي نحاوله هنا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن مهمة التلخيص تلك، على وجه الحصر، تم إنجازها في مصادر متوافرة بين يدي القارئ العربي بالفعل.^(٢)

إذن، ما الذي نحاوله هنا بالضبط؟

إذا انتقلنا إلى تحديد ما نحاوله في هذه المقدمة من خلال التعريف بالإنجاز، لقلنا إننا بين يدي تقديم رؤية سيميولوجية لما تمثله «بحر الخصب». إننا لا نحاول أن نقرأ النص للقارئ العربي، لكننا ببساطة ندعه يقرأه، ونساعده على هذه المهمة، من خلال تقديم سلسلة من العلامات، أو المفاتيح، أو الإطلاقات السيميولوجية - سمها ما شئت - لكنها، في النهاية، بمثابة مجموعة من معالم الطريق، يمكن للقارئ، بالاستعانة بها، أن يصل إلى رؤية أوضح، وأن يحكم قبضة أشد قوة، على هذا الكون الهائل، الذي أسماه ميشيما «بحر الخصب».

ولكن، بداية، لماذا هذا العنوان الغريب: بحر الخصب؟

إن ميشيما نفسه هو الذي سيرد على هذا السؤال، ليمنحها العلامة الدالة الأولى، التي ينبغي أن ندرك أنها لا تقرأ لنا الأسرار، ولكنها تتيح لنا

(٢) أنظر، على سبيل المثال، يورسيتار، مرجريت - ميشيما أو رؤيا الفراغ - دار التنوير - بيروت - ١٩٨٤ ص ٤٣ - ٧٧.

الحد الأدنى، الذي انطلاقاً منه نستطيع أن نحلق إلى سقف الطموح المتمثل في استكناه هذه الأسرار.

في رسالة بعث بها ميشيما إلى الباحث الأميركي الشهير، الذي يعد من أبرز المساهمين في التعريف، على المستوى العالمي، بالأدب الياباني وأسراره، رونالد كين، يشير إلى أنه أطلق هذا العنوان على رباعيته، في إشارة إلى منطقة بعينها، على سطح القمر، يدعوها دارسو الفلك بهذا الرسم، لا تبعد كثيراً عن «بحر الصمت». والسبب في هذا الاختيار هو أن العنوان «بحر الخصب» قصد به الإشارة إلى منطقة قاحلة على سطح القمر، يكذب مضمونها اسمها، أو قد يمكنني المضي إلى القول بأن هذا العنوان يدمج صورة النزعة العدمية الكونية بصورة «بحر الخصب».^(٣)

هنا تلفت نظرنا جزئية طريفة حقاً، لها دلالة الواضحة، على مدى هشاشة التراكم المعرفي، الذي حققناه، نحن العرب، فيما يتعلق بالأدب الياباني.

نلاحظ أنه في كتاب «مختارات من الأدب الياباني المعاصر»^(٤)، يشار إلى رباعية ميشيما على أنها «ثلاثية بحر الخصب». والأمر عينه يرد في كتاب «مختارات من الأدب الياباني»^(٥)، حيث يشار بثقة شديدة إلى أن ميشيما أتم آخر أعماله الكبيرة، وهي ثلاثية بعنوان «بحر الخصوبة».

ونخيل إلينا أن الخطأ، في الحالتين، مصدره عدم تدقيق المترجم، وخلطه

(٣) Stokes, Henry Scott- The Life and Death of Yikio Mishima -Peter Owen- London- 1970- P. 163.

(٤) عدد من المؤلفين - مختارات من الأدب الياباني المعاصر - وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق - ١٩٨٣ - ص: ٣٣٢.

(٥) مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء المحدثين - مختارات من الأدب الياباني - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٨ - ص: ٣٨.

بين كلمة Tetralogy التي تعني الرباعية، والتي تطلق عادة على «بحر الخسوبة»، وبين كلمة Trilogy التي تعني الثلاثية.

إذا نحننا هذا الاستطراد جانباً، وعدنا إلى طرح تلك المؤشرات السيميولوجية، التي تعنينا هنا، لأشرنا إلى أنه في الفترة من ١٢ إلى ١٩ نوفمبر ١٩٧٠، أي قبل أيام قلائل من انتحار ميشيما في ٢٥ نوفمبر ١٩٧٠، أقيم معرض كبير عن أعماله وحياته. وقد اشترط ميشيما أن يعبر هذا المعرض عما أسماه بأربعة أنهار، تصب في بحر الخصب، وتجسد حياته، وهذه الأنهار هي على التوالي: نهر الكتابة، نهر المسرح، نهر الجسد، نهر الحركة.

فما الذي قاله ميشيما عن نهر الكتابة في الكتيب التقديمي لمعرض «توبو»؟ إنه يقول:

«يساعدني هذا النهر في زراعة حقولي برحمة مياهه، يدعم حياتي، وفي بعض الأحيان يفيض عليّ، ويوشك على أن يغرقني في إندفاعاته الوافرة. ويقتضي هذا النهر معبراً لا حدود له، وعملاً شاقاً يومياً عبر الفصول المتغيرة والزمن المندفع. ألا ما أشد شبه الكتابة بالزراعة! يتعين على روح المرء أن تحذر في كل لحظة من العواصف والأعاصير الجليدية. وبعد مثل هذه المراقبة الطويلة واليقظة لحقل كتاباتي، ومثل هذا الاجتهاد للخيال والشعر، هل بمقدوري أبداً التيقن من أن حصاداً وافرأ في انتظاري؟ إن ما كتبت يفارقي، ولا يغذي خوائي قط، ولا يغدو شيئاً، اللهم إلا سوطاً، لا يفتأ ينال عليّ. وما أكثر الليالي الحافلة بالمجادلة والساعات المترعة باليأس التي ينبغي أن تنفق على مثل هذه الكتابات! ولو أي راكمت وسجلت تذكاراتي عن مثل هذه الليالي، لاستبد بي الجنون يقيناً. غير أنه ما من

سبيل أمامي لمواصلة الحياة إلا الاستمرار في الكتابة، سطرًا، سطرًا آخر، سطرًا آخر...»^(٦)

هذا الارتباط بين الحياة والكتابة، بهذا الشكل الذي لا سبيل إلى فصم عراه، اللهم إلا بانطفاء التوهج الأخير للحياة ذاتها، هو الذي جعل ميشيما يذهب، في أكتوبر ١٩٧٠، إلى القول بأن إنهاء الرباعية يجعله يشعر بأن في ذلك نهاية العالم. وهو نفسه الذي جعله يحدد موعد انتحاره باليوم الذي أنهى فيه آخر سطور «بحر الخصب» ووضع الصفحات الأخيرة في مظهره يحمل اسم الناشر، قبل أن ينطلق إلى مقر القيادة الشرقية للجيش الياباني، حيث أنهى حياته بالانتحار بطريقة «السيبوكو»، الدمية، الرهيبة.

ولكن أين مكان رباعية «بحر الخصب» في نهر الكتابة هذا على وجه الدقة؟

إن الإجابة ستأتينا، هذه المرة، من آخر مكان نتوقعها فيه؛ في مقال فريد^(٧) من كتاباته الأخيرة، يشير الروائي الأميركي هنري ميللر إلى أن «الشباب، والجمال والموت - تلك هي الموضوعات التي تمنح كتابات ميشيما جوهرها، بل قد ندعوها بأنها كانت العناصر التي استحوذت عليه تماماً، ومن أجل هذا الثالث صلب نفسه».

الآن، لنضع هذا التصور جنباً إلى جنب مع ما ينسب كثيراً إلى ميشيما، من القول بأن المثقفين الغربيين لم يتناولوا بالتقدير إلا الجانب «اللين» من الثقافة اليابانية، متجاهلين العنصر المظلم في هذه الثقافة.

لنقطع خطوة إضافية أخرى! في صيف ١٩٤٥، قرر ميشيما أن ينفذ

(٦) Stokes, Henry Scott- Op. Cit.- P. 111.

(٧) Reflections on the Death of Mishima, in: Miller, Henry- Sextet: His Later Writings- Capra press- Santa Barbara- 1977- P. 26.

عمالاً عملاقاً يجترل هذا الثالوث، ويتغلغل في قلب ذلك الجانب المظلم، أن يكتب رواية توقع أن تستغرق منه ست سنوات، بحيث ينتهي منها في صدر السبعينيات، لتغطي - من الناحية الزمنية السنوات الستين الممتدة من عام ١٩١٢ فصاعداً.

هذا القرار، الذي كان الأكثر أهمية في حياة ميشيما العملية، كان يقضي بتنفيذ الرواية في أربعة مجلدات، يضم كل منها رواية متكاملة، ولكل منها بطل متميز، لكن هؤلاء الأبطال ليسوا منفصلين تماماً أحدهم عن الآخر. كيف؟

إن بطل المجلد الأول - وهو المائل الآن بين يدي القارئ، متجسداً في رواية «ثلج الربيع» - هو الفتى «كيواكي»، سليل عائلة ماكسوجاي اليابانية النبيلة، يحيا قصة حب، من النوع الذي يستعصي على الذاكرة أن تنساه، ويقف صديقه «هوندا» شاهداً على قصة حبه الفريدة والفاثنة تلك.

في كل مجلد يعقب ذلك، نجد أن البطل لا يعدو أن يكون هو نفسه البطل الأول ولكن بعد انتقاله من خلال تناسخ الأرواح، ليبدأ دورة وجود جديدة، وليتاح لهوندا وحده أن يعرف الرابطة التي تصل الأبطال الأربعة، وذلك من خلال عنصرين محددتين، هما ثلاث شامات يحملها الأبطال جميعاً، ومجموعة الأحلام العجائبية، التي تمتد كسلسلة تنتظم حيواتهم جميعاً، بحيث أن أحدهم قد تراءى له أحلام هي ذاتها شرائع وقائع غرائبية في حياة الأبطال الذين سيلونه.

ماذا؟ تناسخ أرواح؟

علامتنا استفهام ستقفزان، على الفور تقريباً، ربما مع قدر ليس باليسير من الدهشة، إلى ذهن القارئ، وفي اعتقادنا أنه من الضروري إلقاء الضوء عليهما، وإنارة الدلالات التي تراقص حولهما تراقص النور والظل.

إننا نعلم، عملياً، أن ميشيا قد استمد جانباً من وحي عمله الهائل هذا من رواية رومانسية، تعود إلى القرن الحادي عشر، هي «حكاية همامتسو»، التي لا ترقى، رغم جمالها الفريد، إلى شهرة سابقتها التي تعود إلى القرن العاشر الموسومة «حكاية جنجي». غير أن ما يهمنا هو أن «حكاية همامتسو» تستند إلى فكرة تناسخ الأرواح، من ناحية، والأحلام - النبوءة، من ناحية أخرى.

وفي الوقت نفسه، استعان ميشيا، كخلفية فكرية للرواية، بأفكار الهوسوية اليابانية التي يؤكد في إطارها مبدأ اليوشيكى^(٨) - أو نظرية الوعي وحده - أن كل التجارب ذاتية، وأن الوجود بأسره لا سبيل إلى التحقق منه.

ونعلم أيضاً أن ميشيا قد سافر إلى الهند، وإلى العديد من أرجاء آسيا، لدراسة وفهم ومعايشة الخلفية الفكرية والمكانية للرباعية.

ومفهوم التناسخ يتجلى ويحتجب في الرباعية، بهذه الدرجة أو تلك من الوضوح، لكنه مائل هناك، وموجود دائماً.

والأهمية البالغة لهذا المفهوم هي ما أدركه الباحث الأميركي رونالد كين، وربما لهذا السبب، على وجه الدقة، يقول: لا يمكننا التصور أن ميشيا، سيد الأدب الشعبي، كما هو سيد الخرافة الجدية، لم ينتبه إلى كونه يجازف بمضجار قرائه [بالمقاطع المطولة عن التناسخ والاستطرادات الفكرية المعقدة] ولا بد أن تكون هذه المقاطع غاية في الأهمية بالنسبة له كي يصبح إقحامها ضرورة. وربما كانت السبب الرئيسي الذي دفعه لكتابة رباعيته^(٩).

(٨) ستتصدى بالإيضاح للهوسوية ومبدأ اليوشيكى، على نحو بالغ الإيجاز، على هامش طرح ميشيا لها، في غمار هذا المجلد.

(٩) كين، دونالد - العلامات الخمس للملاك الساقط - مجلة «الثقافة العالمية» - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - العدد الأول - نوفمبر ١٩٨١ ص: ٣٩.

لكن تلك ليست الرواية الوحيدة هنا؛ إذ تقول يورسينار، في هذا الصدد: «إن الموضوعية الأساسية، بالنسبة للقارئ المتوسط والقيمة الأسرة لهذه الرباعية... تكمن في فكرة التجسد بعد الموت، التي تشكل خلفية للعمل كله. وهنا ينبغي أن نوضح بعض الأمور. لنبدأ بمحو كل الخرافات الشعبية، التي لسوء الحظ كان ميشيا قد أفرد لها هامشاً كبيراً؛ ربما لاقتناعه بأن هذه الصيغة ملائمة، وربما لأن هذه الخرافات الشائعة في الأوساط اليابانية التقليدية لا توحى هناك بنفور يفوق ما توحى به للقارئ الأوروبي أي إشارة إلى الجمعة ١٣ أو إلى المملحة المقلوبة. ولا يثير الإصرار في أجزاء بحر الخصب الأربعة على الشامات الثلاث التي تسم في الموضوع ذاته بشرة كيواكي الشاحبة وبشرة إيساو [بطل الجياد الهاربة] وجلد الأميرة التايلاندية المذهبة [بطللة معبد الفجر] سوى الشعور بالغبط، أكثر منه بالافتناع. وينتهي بنا الأمر إلى التساؤل إذا لم يكن الأمر يتعلق بنوع غامض من الإثارة الجنسية»^(١٠).

أياً كان الأمر، فإن هذه القدرة على إثارة الخلاف، بل وإثارة «الشعور بالغبط» هي أكثر سمات أدب ميشيا بروزاً، وفي مقدمة المؤشرات الدالة على عظمة إنجازه الأدبي؛ فالأدب العظيم هو وحده الذي يستطيع اجترار إثارة هذا القدر الهائل من الخلافات حوله.

دعنا نتابع رحلتنا السيميولوجية، إذن، برصد المزيد من العلاقات في خضم الأدبيات الدائرة حول «بحر الخصب».

يقول ستوكس، كاتب سيرة حياة ميشيا، في معرض بسط رؤيته النقدية لرواية «ثلج الربيع»، الماثلة بين يدي القارئ، والتي تمثل المجلد الأول في الرباعية، ما يلي:

(١٠) يورسينار، مرجريت - م. س. ذ. - ص: ٥٤.

«ثلج الربيع» رواية أبدعت كتابتها؛ فالعاشقان الحلمان، والنجوم، الذين يحيطون بهما، جرى وصفهم على نحو رائع. غير أنه ما أن تبدأ قصة الحب، حتى تنقلص قدرة الكتاب على الاستقطاب، ولا تبدو النهاية - موت كيواكي - مؤثرة بصفة خاصة؛ لأن شخصيته ذات طابع سكوني، شأن شخصية يويتشي بطل رواية «ألوان محرمة». أما الصعوبة الثانية التي واجهت «ثلج الربيع» فهي توصيف ميشيما للهيكل الفكري... هنا مشكلة كبرى تواجه الكاتب: كيف يجعل فكرة مقنعة، بينما هو لا يؤمن بها. وفي المجلدات اللاحقة من روايته اضطر ميشيما لمواجهة هذه المشكلة^(١١).

إن ستوكس هنا يعمل مبضعه، في مواجهة أبرز النقاط التي ركّز النقاد ملاحظاتهم عليها. فالعمل رائع وجميل، ولكنه يواجه مشكلات. أليست تلك بالضبط أبرز سمات كل الأدب العظيم منذ ظهر إلى النور ذلك النصّ الفاتن الذي كتبه الحكيم الفرعوني أيبو - وير ووصف فيه عالمه وهو يحترق مفسحاً الطريق أمام ثورة الدولة القديمة حتى اليوم؟

ربما نفهم علاقة الاستفهام هذه بشكل أوضح، إذا علمنا أن رواية «ثلج الربيع» بيع من طبعاتها الأولى أكثر من مائتي ألف نسخة، خلال أقل من شهرين، واشترى المسرح والتلفزيون حقوق نقل وإعداد هذا العمل بشكل فوري.

هذا العالم الشفيف والرقيق والمخلق، الذي سنعيش تحت سمائه، على امتداد صفحات «ثلج الربيع» سنفارقه، على نحو مباشر، في المجلد الثاني من الرباعية، «الجياد الهاربة». فنحن هنا أمام صورة رائعة ومتقنة لليابان، في ثلاثينيات القرن العشرين، بكل ما فعلت به هذه الفترة من اضطرابات، وتحولات عنيفة، بلغت حدها الأقصى في الانقلاب وسيطرة النزعة العسكرية العدوانية.

Stokes, Henry Scott- Op. Cit. PP. 148-149. (١١)

وينعكس هذا في أن إيساو، بطل «الجياد الهاربة»، الذي يحمل العلامات الثلاث، التي كانت من قبل للفتى كيواكي في «ثلج الربيع» يتجلى لنا شاباً خلق للسيف، ينغمس حتى أطراف أصابعه في العمل السياسي، ويعلم بأن يتمجد في «السيوكو»، والشمس تتألق حمراء أمام ناظره.

وميشيا يضع إيساو موضع اختبار صار، فهو إما أن ينجرف في قصة حب شديد الحميمة مع الفاتنة ماكيو ويتعرض للفساد، وإما أن يمضي إلى المصير الدامي، الذي ينتهي به إلى «السيوكو»^(١٢).

وإذا كانت رواية «الجياد الهاربة» هي أطول المجلدات الأربعة، وأكثرها اقتضاء للجهد من ميشيا وقرائه، على السواء، فإن الرواية الثالثة في الرباعية، وهي «معبد الفجر»، هي، على نحو ما يعبر «ستوكس» عمل يختلف تماماً عن سابقه «ثلج الربيع»، و«الجياد الهاربة»؛ ذلك أن هذين المجلدين يتضمنان روايتين مطولتين، مترعتين بالدراما. أما «معبد الفجر» فهي، في المقام الأول، توصيف لإطار فكري. وفي العام السابق لتأليفه، زار ميشيا الهند بدعوة من حكومتها بصحبة زوجته، وأجرى بحثاً من أجل هذا الكتاب، وزاره كلكتا وبنارس وأجتا، على نحو ما فعل هوندا في «معبد الفجر».

بالمجلد الرابع الموسوم «سقوط الملاك» ينهي ميشيا رباعيته الهائلة، لنجد أنفسنا في مواجهة نهاية هوندا نفسه، الذي وقف شاهداً على كل النهايات، ونهاية رحلة التناسخ الهائلة ذاتها.

وتنفرد رواية «سقوط الملاك» بأنها كتبت بكاملها بعد أن اتخذ ميشيا قراره بإنهاء حياته، بعد الفراغ من رباعيته؛ ومن ثم فلإنها تعكس فلسفته

Ibid. P. 162. (١٢)

ورؤيته للعالم على نحو أكثر امتلاء وزخماً من أي عمل من أعماله المثة ، التي تركها لنا ميشيما في ستة وثلاثين مجلداً تضم أعماله الكاملة .

إن الأمر الذي يلفت نظرنا هنا حقاً أن ميشيما ينهي «سقوط الملاك» بزيارة يقوم بها هوندا إلى معبد جيشو، حيث يلتقي ساتوكو، بطلة «ثلج الربيع»، بعد أن علا بها العمر، الذي أمضته كاهنة أدارت ظهرها للعالم. ويصعق هوندا، عندما يجد أن ساتوكو لا تذكر حبيبها القديم كيواكي، بل إنها تتساءل عما إذا كان قد قدر لإنسان يحمل هذا الاسم أن يوجد قط، عندئذ يشعر هوندا بأنه إذا لم يكن هناك وجود لكيواكي، فليس هناك وجود للإساور ولا ينج سان، بل وربما لا وجود لهوندا نفسه، ربما ما مضى كان بكامله حلماً وارتحالاً في السديم. وإذا التساؤل المرير الذي يطرحه هوندا في هذا الشأن بتسم الكاهنة، مشيرة إلى أنه على كل منا أن يقرر الأمر لنفسه، إنطلاقاً مما يحدث به قلبه .

وينهي ميشيما عمله الصرحي الهائل بخروج هوندا إلى الفناء الداخلي للمعبد، وهناك. . . «كانت الحديقة خاوية. وحَدَّث هوندا نفسه بأنه جاء إلى مكان خلا من الذكريات، ومن كل شيء. تدفق سنا شمس الظهيرة الصيفية، فغمر الحديقة الساكنة.

هي ذي الرحلة تنتهي، ليقابلنا عندها السؤال الأكثر صعوبة: ما هو الجوهر الحقيقي لهذه الرحلة الهائلة؟

ربما لم يكن هناك، فيما يتعلق بالأدب الياباني الحديث، سؤال أشد صعوبة من ذلك الذي تطرحه علامة الاستفهام الدائرة حول الجوهر الحق لـ «بحر الخصب». وربما لهذا السبب، على وجه الدقة، تختلف محاولات الرد على هذا السؤال اختلاف ما بين الشرق والغرب^(١٣).

Mishima, Yukio- The Decay of the Angel- Alfned A. Knopf- (١٣) NewYork- 1974- P. 263.

إننا، مرة أخرى، لن نحاول التصدي لعلامة الاستفهام هذه بإجابة مباشرة، وإنما من خلال مجموعة من الاضاءات السيميولوجية، هي أقرب ما تكون إلى زاد يحملها القارئ، في طريقه نحو حد أدنى من الفهم الصحيح لميشيا وللعالم الذي أبدعه في رباعيته.

أولاً: نحن نلاحظ صمت دوائر المعارف العامة العالمية، وأبرزها دائرة المعارف البريطانية^(١٤) عن تناول ميشيا من قريب أو بعيد، بل والامساك حتى عن مجرد ذكره. قد يرجع ذلك، بالطبع، إلى أن الرجل لم يصبح، عكس سابقيه العتيدين تانيزاكي وكاواباتا، من الداخلين في رحاب من يدعوهم الناشرون بالكلاسيكيين الجدد، وأن أعماله لم تصل، بعد، إلى أن تصبح جزءاً من التراث الإنساني البارز، تشير إليه هذه المراجع العامة. ولكن الأقرب إلى المنطق الاعتقاد بأن هذا الامساك عن ذكر ميشيا يعكس تحفظاً معيناً في الدوائر الانجلوسكسونية بصفة خاصة، حيال أدب ميشيا، وخاصة في ضوء بعض التفسيرات السياسية، التي تحمّل نصوصه ما لا يمكن أن تحمله، إلا تعسفاً، و«بحر الخصب» ليست استثناء من هذه القاعدة.

ثانياً: هذا الرفض بالصمت يتوازى معه رفض بالصراخ، يصل إلى أقصى قممه، حينما يقول مارتن سيمور سميث، في مادة لا تتجاوز نصف صفحة من القطع المتوسط، عن ميشيا: «لا يمكن تفسير أي من كتب ميشيا، أو التزاماته السياسية، بصورة كاملة، إلا من خلال مفاهيم علم النفس العلاجي»^(١٥).

ثالثاً: مع مرجريت يورسينار تبدأ المحاولات الجدية في التفسير، وهي

(١٤) نتحدث هنا عن طبعة شيكاغو الصادرة في ١٩٨٣، وإن كان لن يدهشنا أن تستدرك طبعات جديدة مقبلة هذا النقص.

(١٥) Smith, Martin Seymour- Guide to Modern World Literature P. 820.

تعطينا مفتاحاً حقيقياً لتفسيرها في هذه الفقرة: «إن العنوان نفسه [تقصد عنوان المجلد الرابع المترجم في الفرنسية بما مؤداه «الملاك يتعفن»، هي ترجمة نعترف بأننا لم نستطع التحمس لها] يذكر بإحدى الأساطير البوذية التي تروى أن «التنان» (وهم ليسوا سوى جواهر إلهية مجسدة، عباقرة، أو ملائكة)، بدل أن يكونوا من الخالدين أو الأبديين، لا يعيشون سوى ألف عام في مثل هذه الهيئة، وبعد ذلك يشهدون أكاليل الزهر التي يعتمرونها وهي تذبل، وحلاهم تذوي، ويحسون بالعرق التّن ينضج من أجسادهم. وهذا الملك، مهما كان المظهر الإنساني الذي يتخذه ههنا، يبدو أنه اليابان نفسها، ويبدو ثانياً بالنسبة لنا، نحن القراء، رمز الكارثة المعاصرة، حيثما حلت»^(١٦).

ما الذي تريد يورسينار قوله؟

هل تريد أن تقول إن ميشيما حينما كتب، عبر سنوات من الدأب والجهد الذي لا يعرف الكلل «بحر الخصب»، إنما كتب في الواقع نوعاً من التأريخ لليابان الحديثة، بحيث نقابل في «ثلج الربيع» يابان ما بعد إصلاحات مييجي، وفي «الجياد الهاربة» يابان سنوات الاضطراب تحت وطأة المشروع العسكري لامبراطورية الرخاء المشترك، وفي «المعبد البعيد» يابان قبيل وبعيد الحرب العالمية الثانية، لنلتقي أخيراً مع اليابان الحديثة في «سقوط الملك» حيث يحذر ميشيما من أنها تندفع في مشروعها الحالي نحو الفراغ،
العدم الخواء؟

ربما.

رابعاً: لا يقل جدية عن التفسير السابق ما يطرحه رونالد كين، مقدماً في سطور قلائل تفسيره الخاص: «رغم أن العنوان [يقصد «بحر الخصب»] يوحي بالخصب، فإن البحر في الواقع عقيم. هذا على ما يبدو تلخيص لما توصل إليه ميشيما حول الحياة. لكنه مهما اعتقد أن الحياة لا معنى لها، لم

(١٦) يورسينار، مرجريت - م. س. ذ. ص: ٦٦ - ٦٧.

يكن يتصرف بوحى من هذه الفلسفة . كان افتتانه بالموت يوحي بأن أخرى تراقب موته هو . مملكة أخرى منها تراقب روحه هذه المملكة : ربما لم يكن إيمانه بتناسخ الأرواح موقفاً يتلاءم مع طبيعة رجل ليس له أي قناعة دينية أخرى فقط ، بل كان ضرورة . كان بوسع ميشيما بوصفه كاتباً التأكد من نوع من أنواع الخلود . وقد عمل ما في وسعه لتصوير هذا الخلود . وربما أراد أيضاً الحياة بعد الموت كإنسان يعرف ماذا يحل بالناس»^(١٧) .

ما الذي يريد كين قوله؟

ترى هل يقصد أن يقول بأن «بحر الخصب» إنما هي تصوير لرحلة ميتافيزيقية هائلة تقوم بها البشرية في محاولتها الممكنة - المستحيلة للانعقاد من ربقة الموت؟

مرة أخرى ، ربما .

خامساً : على امتداد أكثر من عشر سنوات ، شغلتنا رباعية «بحر الخصب» قراءة وتأملاً ومحاولة للفهم ، إن لم يكن للتفسير ، فإن سألنا سائل عما نرى أنه جوهر هذا العمل ، لأحلناه إلى ما قالت ساتوكو ، قبيل خروج هوندا إلى الفناء الداخلي للمعبد ، في نهاية الرباعية ، حيث الشمس لاهية ، وبين الجدران ليس سوى سماء فارغة ، مدهشة : على كل منا أن يقرر الأمر لنفسه ، انطلاقاً من قلبه !

إذا انتقلنا من جوهر العمل إلى إهابه الخارجي ، الذي يكسوه ، لغته ، لوجدنا أننا لسنا في معرض الحكم على الإطار اللغوي الأصلي ، الذي كتب به العمل .

ومع ذلك ، فليسمح لنا القارئ العربي بأن ننقل إليه عن بعض الباحثين اليابانيين ، الذين أجرينا حواراً مطولاً معهم ، في هذا الصدد ،

(١٧) كين ، رونالد - م . س . ذ . ص ٣٨ .

قولهم إن الرباعية مكتوبة بلغة مدهشة، شديدة الثراء في مفرداتها وتراكيبها، تعكس نوراً مذهلاً من تملك ناصية التراث الياباني القديم والسعي إلى تطويعه في خدمة أغراض المؤلف. وإن لم يمنع ذلك، على حد تعبيرهم، أن هناك بعض المقاطع في العمل تشبه قراءتها - من حيث صعوبتها وتعذرها - تكسير الأحجار، في منجم بائس، على جزيرة نائية، تأخذ شمس استوائية بخناقها.

أياً ما كان الأمر، فإنه حتى عبر الترجمة الانجليزية الممتازة، التي نقلنا عنها، يمكننا أن نلاحظ أن ميشيما يستخدم أسلوباً مختلفاً عن الأسلوب المغرق في الذاتية الذي استخدمه، من قبل، في رواية «اعترافات قناع» والأسلوب المستراخى المستخدم في «ألوان محترقة» والأسلوب المقتضب الحريص على استدامة توازن دقيق وحرص المستخدم في رواية «هدير الأمواج»، أو الأسلوب الباذخ المستخدم في رواية «معبد السرادق» الذهبي، والأسلوب الباتر المقتضب إلى حد الجفاف المستخدم في «البحار الذي لفظه البحر».

إننا، في الرباعية، أمام أسلوب لا تتردد يورسينار في وصفه بأنه: «أسلوب عارٍ، ومسطح أحياناً، وضمني، حتى في لحظات الغنائية، تشويه ثغرات يبدو أنها متعمدة للإخلال بالسياق... ثمة انقطاعات محبطة من شأنها كما في النصب الأصلي ربما أن تدع القارئ حائراً. إلى ذلك يستبدل ميشيما المدى المنظوري للرسم الأوروبي بالأبعاد العميقة، التي يتسم بها الرسم الصيني أو الرسمة المنتشرة سطحياً، التي نراها في الرشميات اليابانية، حيث ترسم الخطوط الأفقية التي تمثل، اصطلاحاً، سديماً غائياً ومكتسحاً فتقطع الأشياء وتجزئ الحيز»^(١٨).

(١٨) يورسينار، مرجريت - م. س. ذ. ص ٤٤ - ٤٥.

ويورسينار محقة، بالطبع، في إشارتها إلى ما تصفه بالانقطاعات، التي تتخلل الرباعية بأسرها، والتي تؤثر أن نصفها بأنها استطرادات. فميشيا، عبر مجلدات العمل الأربعة، لا يتردد لحظة واحدة في الخروج عن الإطار الدرامي، حتى ولو اقتضاه ذلك مفارقة حقيقية لهذا الإطار، ليستطرد مطولاً في طرح فكرة بعينها، أو إيضاح وجهة نظر، أو حتى في شرح إطار فكري، أو سرد معلومات بعينها، بحيث أن هذه المادة لا تتجانس، في النهاية، مع نسيج العمل، وتبدو، للوهلة الأولى، وكأنها لا تخدم بحال السوء الدرامي الذي تندرج فيه.

مع ذلك، فإن رونالد كين - كما رأينا في مقتطف سابق - لا يرى أن هذه الاستطرادات تؤخذ على العمل بل يرى أنها في التحليل النهائي في مصالح نص ميشيا، ويمضي قدماً إلى القول بأنها ربما كانت هي ما دفع ميشيا إلى كتابة الرباعية.

لأياً كان مدى اتسام هذا القول بالدقة، فإننا لا ينبغي علينا أن ننسى أنه قيل عن ميشيا إنه ليوناردو دافنشي اليابان، لتعدد جوانب موهبته وتنوع وعمق ألوان إبداعه. وعلينا في الوقت نفسه أن نتذكر أنه ربما لم يكن هناك كاتب أكثر إثارة للخلاف من ميشيا، في القرن العشرين.

وليس من قبيل المبالغة القول بأن هذا الحكم نفسه ينطبق على رباعية «بحر الخصوبة» بدورها؛ فمارتن سيمور سميث لا يتردد، في أقصى هجوم على ميشيا شنه ناقد، على مستوى العالم، حتى الآن في وصف الرباعية بأنها «ملحمة مضطربة» لا يستطيع ناقد الدفاع عنها!^(١٩)

Smith, Martin Seymour - Op. cit. P. 821. (١٩)

الآن، ماذا نجد لو أننا وضعنا هذه الرؤية النقدية، جنباً إلى جنب، مع تقويم ياسوناري كاواباتا، الكاتب الياباني الوحيد، حتى الآن، الفائز بجائزة نوبل للأدب؟^(٢٠)

في مقابلة مع مراسل صحفية «نيويورك تايمز» أكد كاواباتا أنه: «لا يظهر كاتب له وزن ميشيما إلا مرة كل قرنين أو ثلاثة قرون، في تاريخنا، و (بحر الخصب) هي رائعة ميشيما»^(٢١).

وفي الإطار نفسه، يرى رونالد كين أنه: «في يابان ما بعد الحرب، كان ميشيما الكاتب الأكثر موهبة والأكثر اكتمالاً. وأعماله المهمة تقربه من عظم هذا القرن، على أي حال، أكثر من أي ياباني آخر... وإن ميشيما كان على يقين من أن «بحر الخصوبة» كانت نقطة الوصول لكل ما تعلّمه بوصفه كاتباً، فقد لفت انتباه أصدقائه إلى أنه عندما ينتهي من كتابه، لن يبقى له سوى عمل شيء واحد: «الانتحار».

أخيراً بقيت هناك علامتان حرصنا على الاحتفاظ بهما حتى النهاية لتكونا في ذهن القارئ، لدى انطلاقه عبر صفحات هذا العمل، وهما:

أ- ليس بالأمر المجهول، للمهتمين بأدب ميشيما، أنه في يقاعته كان ينظم الشعر، وأنه على حرص على التردد على الشاعر رايكو كواجي؛ لعرض قصائده عليه. ومعظم هذه القصائد مقطوعات قصيرة مرحة،

(٢٠) لعله ليس بالأمر الجديد، بالنسبة للقارئ العربي، أن يعلم أنه بات معروفاً الآن، على الصعيد العالمي، أن قائمة المرشحين لنيل جائزة نوبل في الأدب تضم كاتبين محددتين من اليابان هما كوبو آبي، الذي ترجمنا له روايتي «المرأة في الرمال» و «موعد سري»، وكذلك يا سوشي إينوي، الذي أحجمنا عن ترجمة أي من أعماله المتاحة باللغة الانجليزية، التي ننقل عنها، لسبب عدد هو اعتقادنا بأن الناشرين العرب قد لا يقتنعون بنشر أعماله؛ لأسباب لا نحسبها تخفى على القارئ.

Stokes, Henry Scott - Op. Cit. P. 163. (٢١)

احتفى فيها بابتهاجه حيال عالم الخيال المترع بالنشوة. ومع ذلك فهناك استثناء بارز، يتمثل في قصيدة «أشياء مشؤومة»، تتضمن استحضاراً لليل، ويقول ميشيما في أحد مقاطعها:

واقفاً إلى جوار النافذة،
أنتظر، كل مساء،
مقدم أحداث تتوشع بالغرابة.
أرقب نُذر السوء،
عاصفة رملية تكتسح الدرب،
قوس قزح يتجلى ليلاً.

وبعد موت ميشيما، ذهب الناقد جن إيتو إلى القول بأن هذا العمل العدمي «يحمل المفتاح المفضي إلى أدب ميشيما بأسره»!

ب - في صباح ٢٥ نوفمبر ١٩٧٠، الدموي ذاك، الذي انطلق فيه ميشيما مع رفاقه إلى مقر القيادة الشرقية للجيش الياباني، حيث لقي حتفه عبر طقوس السيوكو، ترك الكاتب الياباني، قبل مغادرته داره، قصاصة ورق على مكتبه، كتب عليها «حياة البشر قصيرة، لكنني أود أن أحيى إلى الأبد».

الآن هل نستطيع، ونحن نقرأ «بحر الخصب»، القول بأن ميشيما قد حقق أمنيته؟

... وبعد، فإن «بحر الخصب» كون هائل من الغموض والسحر والجمال. ليس الإبحار فيه بالمهمة السهلة، ولكن تلك، في نهاية المطاف، هي الصعوبة الجميلة حقاً؛ ربما لأننا في هذا البحر اللّجي إنما نعبد

اكتشاف أنفسنا، بمعنى ما، ونطرح على الإنسان القابع في أعماقنا الأسئلة الأكثر أهمية، المفضية إلى الفضاء الرحب والمدهش، المطل على إمكانية تغيير العالم.

المترجم

عندما تحول مسار الحوار، في المدرسة، إلى الحرب اليابانية - الروسية، سأل كيوإكي ماتسوجاي أقرب أصدقائه إليه، شيجيكوني هوندا، عن مدى اتساع نطاق ما يمكن أن يتذكره عنها، وكانت ذكريات شيجيكوني تتشعخع بالغموض، فبالكاد تذكر اصطحابه إلى البوابة الأمامية لمشاهدة موكب لحملة المشاة. وفي العام الذي انتهت فيه الحرب، كان كلاهما في الحادية عشرة من العمر، ويبدو لكيوإكي أنه كان حرياً بهما أن يتذكرا الحرب، ولو بقدر يفوق هذا بقليل من الدقة. أما زملاؤهما، الذين راحوا يتحدثون حديث العارف عن الحرب، فما كانوا، في الغالب، إلا عاكفين على تجميل ذكريات غائمة بما التقطوه من أبناء سارة، نقلوها عن الكبار.

وقد لقي اثنان من أبناء عائلة ماتسوجاي، هما عمّا كيوإكي، مصرعهما في الحرب. ولا تزال جدته تتلقى معاشاً من الحكومة، بفضل هذين الابنين، اللذين فقدتهما، ولكنها لم تستخدم النقود قط، وإنما تركت المظاريف، دون أن تفضيها، على رف المقام القدسي في الدار. وربما كان هذا هو السبب في أن الصورة التي أثرت في نفس كيوإكي، أكثر من غيرها من صور الحرب، كانت صورة بعنوان «في جوار معبد توكوري: صلاة على أرواح ضحايا الحرب». وقد أرخت في ٢٦ يونيو ١٩٠٤، أي العام السابع والثلاثين من عهد الامبراطور مييجي. وهذه الصورة ذات اللون البني، الذي يشبه حبر السيدج، كانت مفارقة تماماً لذكريات الحرب العادية المتناثرة. وقد التقطها الفنان واضعاً عينه على معمارها الفني، الأمر

الذي جعلها تبدو كما لو أن آلاف الجنود، الذين تصورهم، قد تم صفهم بصورة متعمدة، شأن شخص في لوحة زيتية، بحيث يتركز انتباه الناظر إليها على النصب الشامخ من الخشب، غير المطلي، الذي انتصب وسطهم. وفي البعيد، تحدرت الجبال هوناً، وقد لفها الغمام، لتسقى على مراحل متتابعة إلى يسار الصورة، بعيداً عن السهل الرحب، الذي وقف فيه الجنود. أما إلى اليمين فقد شمخت، في البعيد، ترقشها أجسام الأشجار، لتتوارى في الغبار الأصفر، الذي خيم على الأفق. وهنا امتدت، بدلاً من الجبال، مجموعات من الأشجار، تزايد طولها مع انتقال العين يميناً، وأطلت سماء مصفرة، عبر الفواصل القائمة بينها، وشمخت ست شجرات، باللغة الطول، في مقدمة الصورة، تفصلها مسافات منتظمة، وقد بدت كما لو وضعت لتكمل التناسق الكلي لعالم الطبيعة. وكان من المستحيل تحديد نوعها، ولكن أغصانها العليا، الثقيلة، بدت منحنية مع الريح، بجلال مأساوي.

تألق المدى الرحب للسهب، على نحو خافت؛ ففي هذا الجانب من الجبال كانت الخضرة مسطحة ومتناثرة. وفي قلب الصورة، انتصب، جلي التفاصيل، النصب الخشبي، غير المطلي، والمذبح، الذي علتة الأزهار، وتموجت في الريح أطراف القماش الأبيض الذي يكسوه.

فيما بقي من الصورة، لا تقع العين إلا على الجنود، آلاف الجنود. وفي وصدرها أبعدوا عن آلة التصوير، للكشف عن الواقيات البيضاء من الشمس الممتدة من قبعاتهم، والأحزمة الجلدية المتقاطعة عند ظهورهم. لم يشكلوا صفوفاً منتظمة، وإنما انخرطوا في مجموعات، وقد انحنت منهم الرؤوس. وحوّلت قلة منهم، عند الركن الأيسر الأدنى، وجوههم نحو آلة التصوير، في التفاتة يسيرة، فبدت، وقد لوحتها الشمس، وكأنها شخص في لوحة من لوحات عصر النهضة. وفيما وراء ثلة الجنود تلك، ترمى حشد

منهم، في شبه دائرة هائلة، تمتد حتى نهايات السهل، عدد هائل من الجنود، بحيث استحال تماماً أن يميز المرء أحدهم عن الآخر، وتجمع المزيد منهم، في البعيد، وسط الأشجار.

راحت شخوص هؤلاء الجنود، سواء في المقدمة أم في الخلفية، تستحم في ضوء كاب، غريب، حذد أطراف أربطة الأرجل والأحذية العسكرية، والتقط أقواس انحناءات الجنود وأقفيتهم. وقد شحن هذا الضوء الصورة كلها بشعور بالحزن، يستعصي على الوصف.

شع من هؤلاء الرجال انفعال، ارتطم كالموجة بالمذبح الأبيض، الصغير، وبالزهور، وبالنصب الشامخ، في وسطهم. وانهلّت من هذه الكتلة الهائلة، الممتدة إلى حافة السهل، فكرة واحدة، تتجاوز كل طاقة التعبير البشري، كأنها حلقة ثقيلة وكبيرة من الحديد في المنتصف.

لأن قدم هذه الصورة، وملمح خبر السيّدج الذي يحفها، كيائها كله مناخ من الألم والوجع اللامتناهي.

* * *

كان كيواكي في الثامنة عشرة من عمره. ولم يكن هناك شيء في الدار، التي ولد بها، يرر كونه على مثل هذا القدر من الحساسية والميل إلى الحزن والاكئاب. وسيتعين على المرء أن يبذل جهداً فوق الطاقة، في تلك الدار والمترامية الأطراف، المشيدة على تل قرب شيبويا، لكي يعثر على شخص يشارك كيواكي حساسيته، على أي نحو من الأنحاء. كانت الدار لعائلة ساموراي عريقة المحتد. ولكن والد كيواكي، الأمير ماتسوجاي، وقد أخرجته المكانة المتواضعة التي احتلها أسلافه، منذ عهد قريب، يصل إلى نهاية الحكم العسكري، قبل نصف قرن، بعث بالفتى، فيما كان لا يزال طفلاً صغيراً، لكي يُربى في دار نبيل من نبلاء البلاط. ولو أنه لم يفعل ذلك، لما غدا كيواكي شاباً على مثل هذا القدر من الحساسية.

احتلت دارة الأمير ماتسوجاي مساحة واسعة من الأرض، فيما وراء شيبويا، عند مشارف طوكيو، وامتدت المباني العديدة فوق ما يزيد على مئة فدان، وشمخت أسقفها، في تناسق جذاب. كانت الدار الرئيسية ذات معمار ياباني، ولكن في ركن الحديقة انتصبت دار منيفة مشيدة على الطراز الغربي، قام بتصميمها معماري إنجليزي. وقد قيل إنها واحدة من أربع دور - كانت دار القائد أوياما أولاها - يمكن للمرء أن يدخلها دون خلع نعليه، عند الباب.

وفي قلب الحديقة، امتدت بحيرة كبيرة، يحفها تل، كسته أشجار القيقب، وهي من الضخامة بحيث تستوعب حركة القوارب فيها، وفي وسطها جزيرة وزنايق ماء مزدهرة، بل وأوعية أبواغ الأشنة المائية، التي يمكن قطعها، ونقلها إلى المطبخ، وتظل قاعة الاستقبال بالدار الرئيسية، وكذلك قاعة المآدب في الدار الغربية، على البحيرة.

تنائر حوالي مئتي مصباح حجري، بصورة عشوائية، على امتداد الضفاف وفي الجزيرة، التي تزينها ثلاثة كراكي، صنعت من الحديد المسبوك، تميل اثنتان منها بجديدها الأتلعين نحو السماء، أما الثالثة فرأسها منحنٍ نحو الأرض.

يندفع الماء من منبعه، عند قمة تل القيقب، ويهبط المنحدرات، في شلالات عديدة، ثم يمر الغوير تحت جسر خشبي، وينحدر إلى مسبح، تظله صخور من جزيرة سادو، قبل أن يتدفق إلى البحيرة، عند بقعة تزدهر فيها، خلال الموسم، سوسنات بديعة، تمتد على مساحة واسعة. وقد امتلأت البحيرة بكل من أسماك الشبوط والضبوط الأسود الشتوي. ويسمح الأمير ماتسوجاي، مرتين في كل عام، لتلاميذ المدارس بالقدوم إلى هناك في نزعات خلوية.

وفي طفولة كيواكي، كان الخدم يخيفونه بأقاصيص عن السلاحف
النهاشة. فعند زمان طويل، حينما ألم المرض بجده، أهدها صديق له مثة
من هذه السلاحف، على أمل أن يعيد له لحمها قوته، وعندما أطلقت في
البحيرة تكاثرت بسرعة، وكان الخدم يحدثون كيواكي، قائلين إنه إذا
أطبقت سلحفاة نهاشة على أصبعك فقل عليه السلام!

وكانت هناك مقصورات عديدة، تستخدم لحفلات الشاي، وقاعة بليارد
فسيحة. وخلف الدار الرئيسية، نمت بطاطا اليام البرية بكثافة لتملأ
الأرض، وشمخت أجمة من أشجار السرو، التي غرسها جد كيواكي لأبيه،
وشققها طريقان متقاطعان، يفضي أحدهما إلى البوابة الخلفية، أما الآخر
فيمضي صعداً، عبر تل صغير، وصولاً إلى قمة هضبة، يعلوها مزار، يقع
في ركن مساحة رحبة من الأرض المعشبة. وقد كان هذا هو المكان الذي
دفن فيه جده واثان من أعمامه. وكان الدرج والمصاييح والحل المحذبة،
وكل ذلك من الحجر، شيئاً تقليدياً، ولكن على جانبي الدرج كليهما،
وبدلاً من الأسود المألوفة الجائمة بمخم الكلب، طليت قنبلتان من قنابل
المدافع من مخلفات الحرب اليابانية - الروسية بطلاء أبيض ونصبت على
الأرض. وعلى نحو أكثر انخفاضاً، كان هناك مزار لإيناري، رب
الحصاد، وراء تعريشات رائعة من الوستارية، بزهورها العنقودية الزرقاء
والبيضاء والأرجوانية. وكانت ذكرى وفاة جده تحل في نهاية مايو، وهكذا
كانت الوستارية، على الدوام، في أوج تألقها، لدى تجمع العائلة هنا
للصلاة على روحه، وكانت النسوة يقفن في ظلها، تجنباً لوقدة الشمس.
فترقش وجوههن البيضاء، التي نثر عليها الذرور الأبيض، بمزيد من
التدقيق يفوق المعتاد لمواكبة المناسبة، باللون البنفسجي، كأنما ظل فريد
للموت ترامى على وجناتهن.

النساء. ما من أحد كان بوسعه أن يحصى على وجه الدقة كم منهن

يقمن في دارة ماتسوجاي . وجدة كيواكي تحتل مرتبة الأولوية، بالطبع، عليهن جميعاً، وذلك على الرغم من أنها أثرت أن تحيا معتكفة على مبعدة عن الدار الرئيسية، تحيط بها ثنائي خادمتان، يلين طلباتها. وصبيحة كل يوم، ممطراً كان هذا اليوم أو مشرقاً، تنتهي أم كيواكي من أخذ زينتها، وتمضي نواً، وبصحبتها خادمتان، لتحيي الجدة العجوز. وكل يوم تمحص هذه الأخيرة مظهر كنتها.

تقول، وقد تقاربت عيناها في ود:

- تلك التسريحة ليست مناسبة تماماً. لم لا تجربين تسريح شعرك ليتناسب مع الياقة العالية غداً؟ إني على تمام اليقين من أن منظرك سيكون أحسن حالاً.

ولكن عندما يصفّف الشعر على الطريقة الغربية، في اليوم التالي، تعقب الجدة قائلة:

- حقاً، يا تسوجيكو، إن تصفيف الشعر مع الياقة العالية لا يناسب حسناء يابانية، متمسكة بالطراز العتيق، مثلك. جرّبي، لطفاً، تسريحة ماروميچ غداً!

وهكذا دواليك، وبقدر ما يسع كيواكي أن يتذكر، فقد كان مصفّف شعر أمه يعكف دوماً على تغيير أساليب تصفيف شعرها.

كان مصفّفو الشعر ومساعدوهم في حالة عمل لا تكل؛ فلم يكن شعر أمه وحده هو الذي يتطلب خدماتهم، وإنما كان عليهم الاعتناء بشعر ما يزيد على أربعين وصيفة وخادمة. ومع ذلك، فقد أظهروا اهتماماً بشعر عضو واحد من الذكور في العائلة، وذلك في مناسبة واحدة فحسب. وقد وقع ذلك عندما كان كيواكي في عامه الأول من المدرسة الوسيطة التابعة

لمدرسة النبلاء، فقد نال شرف اختياره ليقوم بمهام الوصيف، في احتفالات العام الجديد بالقصر الامبراطوري.

قال أحد المصفّين:

- أعلم أنهم في المدرسة يرغبون في أن تظهر بمظهر الكاهن الصغير، لكن ذلك الرأس الحليق لن يبدو متناسباً مع حلتك البديعة اليوم.
- لكنهم سيكيلون لي اللوم، إذا كان شعري مسترسلاً.
قال المصفّف:

- طيب. طيب. دعني أرى ما يمكنني القيام به لتحسينه، وعلى أية حال فسوف تعتمَر قبعة، ولكنني أظن أن بمقدورنا أن نرتب الأمور، بحيث أنك، حتى إذا نزعت قبعتك، ستبَرّ كل النبلاء الشبان الآخرين.

على هذا النحو تحدث، ولكن كيواكي في الثالثة عشرة من عمره كان شعره يقص فيغدو قصيراً للغاية، حتى يبدو رأسه أزرق، وحينما فرق مصفّف الشعر شعره أوجعه المشط، ولسع زيت الشعر جلده، ورغم براعة المصفّف، التي يتباهى بها، فإن الرأس لم يَبْدُ في صقال المرأة مختلفاً عن رؤوس الفتية الآخرين. ومع ذلك، فقد اشيّد به في المأدبة لبهائه المتميز.

كان الإمبراطور ميجي نفسه قد شَرَفَ دارة ماتسوجاي، ذات مرة، بحضوره، وترفيهاً عن سموه الأمبراطوري أقيم عتْرض لمصارعي السومو، تحت شجرة جنكة هائلة، أسدلت الستائر حول المنطقة المحيطة بها، فعزلتها عما سواها. وراح الأمبراطور يتابع العرض، من شرفة في الطابق الثاني من الدار الغربية. وقد أفضى كيواكي لمصفّف الشعر بأنه، أي كيواكي، سمح له بهذه المناسبة بالمثل في حضرة الأمبراطور، وكلف سموه نفسه عناء الترييت على رأسه. وكان ذلك قبل أربع سنوات، ولكنه رغم

ذلك كان من المستحيل أن يتذكر الأمباطور رأس وصيف من الوصفاء في احتفالات العام الجديد.

صاح المصقّف، وقد غلبه الانفعال، قائلاً:

- حقاً؟ أتعني، أيها السيد الشاب، القول بأن الأمباطور نفسه قد ربت على رأسك!

قالها، متراجعاً عبر الأرضية، المكسوة بالحصير، وقد مدّ كفيه متطابقين أمامه في إجلال أصيل للفتى.

كان الزي، الذي يرتديه وصيف لإحدى سيدات البلاط، يتألف من سترة وسروال متناسق من المخمل الأزرق، ويصل الأخير إلى أسفل الركبتين مباشرة. وفي أسفل كل من جانبي السترة، يمتد صف، مؤلف من أربع كريات بيضاء، رقيقة الملمس، ومجّلت الأكمام والسروال بالمزيد منها. وكان الوصيف يتوشح سيفاً، والخذاء الذي تنقله قدماء بأربطتها البيضاء يثبت بأزرار مطلية باللون الأسود، وقد عقدت ربطة عنق بيضاء عند وسط ياقته العريضة ذات الشريط الزخرفي، وتدلّت قبعة مثلثة، تزينها ريشة كبيرة على ظهره، مشدودة بخيط حريري. وفي مطلع كل عام، يتم اختيار حوالي عشرين من أبناء النبلاء ذوي التقارير المدرسية المتميزة، ليتسابعوا، أربعة فأربعة، على حمل طرف رداء الأمباطورة، أو اثنين فائنين، على حمل طرف رداء أميرة من أميرات العائلة الأمباطورية، خلال الأيام الثلاثة التي تقام فيها الاحتفالات. وقد حمل كيواكي طرف رداء الأمباطورة مرة، وحمل طرف رداء الأميرة كاسوجا مرة كذلك. وعندما حان دوره في حمل طرف رداء الأمباطورة، مضت تشق طريقها قدماً بكبرياء وقور، عبر الأبهاء التي يضوع فيها عقب البخور المسكي، الذي أطلقه القائمون على رعاية شؤون القصر، وقد وقف خلفها، خلال الاحتفال. كانت امرأة شديدة الأناقة والذكاء، ولكنها كانت في ذلك الحين قد علا بها العمر، فبلغت الستين.

أما الأميرة كاسوجا فلم تتجاوز الثلاثين بكثير وقتذاك، وفي حسنها وأناقتها وتميزها، بدت كأنها زهرة في لحظة كمالها.

وحتى الآن، لا يزال بوسع كيواكي أن يتذكر عن طرف رداء الأميرة العريض، المصنوع من فراء القاقم الأبيض، بنقاطه البيض، واللالء التي تزين حافته، أكثر مما يذكر عن طرف الرداء البالغ القتامة، الذي كانت الأميرة تؤثره، وكانت له أربع أنشوطات ليمسكه منها الوصفاء، بينما كان لرداء الأميرة أنشوطتان. وقد تدرب كيواكي والآخرين تدريباً بالغ الكثافة على مهامهم، حتى أنهم لم يواجهوا أية مشكلات في الإمساك بالرداء بثبات، فيما هم يتقدمون بإيقاع ثابت.

كان لشعر الأميرة كاسوجا ذلك السواد الفاحم والتألق، الذي يتميز به اللك البديع، ولدى النظر إليها من الخلف، بدت تسريحتها الضافية وكأنها تنحل مناسبة إلى البشرة البيضاء الفائقة لقفائها، تاركة جدائل متفردة على كتفيها العاريتين، اللتين كانت فتحة ثوبها تطبق على تالفهما الخافت.

مضت منتصبة القامة، وانطلقت قدماً بخطى ثابتة، دون أن تند عنها اختلاجة تصل إلى حملة أطراف رداؤها، ولكن بالنسبة لعيني كيواكي بدت تلك المعجبة العظيمة بالفراء الأبيض، وكأنها تتوهج وتخبو على صوت الموسيقى، كأنها قمة جبلية يكسوها الجليد، يحجبها أولاً، ثم يكشفها للناظرين، دفق مناسب من السحب. وفي تلك اللحظة، وللمرة الأولى في حياته، فاجأته القوة الكاملة لحسن المرأة - دفق باهر من الأناقة ترنحت له حواسه.

امتد استخدام الأميرة كاسوجا للكثيف للعطر الفرنسي إلى طرف رداؤها، وقد فاق عبقه الرائحة المسكية المنبعثة من البخور. وعلى مسافة ما من بداية الدهليز، تعثر كيواكي للحظة، جاذباً دوغماً قصد طرف الرداء، فالتفتت

الأميرة قليلاً، وفي معرض الإيماء إلى أن الأمر لم يثر ضيقها على الإطلاق، ابتسمت، في رفق، للصبي مصدر الإزعاج. مرت إيماءتها دون أن يلحظها أحد، وإذ ظل جسمها على تمام الانتصاب، في غمار تلك الالتفاتة العابرة، منحت كيواكي لمحة من ركن فمها. في تلك اللحظة، انزلقت خصلة واحدة من شعرها فوق خدها الأبيض الصافي، ومن الركن البديع التكهيل لإحدى عينيها، تألقت ابتسامة متوهجة، في شرار من نار فاحمة. لكن خط أنفها الدقيق لم يختلج. بدا الأمر كأن شيئاً لم يقع... وقد جعلت هذه الزاوية المنفلتة سريعاً لوجه الأميرة، والتي كانت أضيق من أن تسمح بالحديث عن صورة جانبية، كيواكي يحس كأنه رأى قوس قزح يتوهج، للحظة عجلى، عبر منشور بلوري نقي.

راح أبوه، الأمير ماتسوجاي، يرقب دور ابنه في الاحتفالات، مستوعباً المظهر المتألق للصبي، في حلته المراسيمية الجميلة، ومستشعراً الاعتبار الذي يخالج رجلاً يرى حلم عمره وقد تحقق. ونحى هذا الفوز تماماً مخاوفه المتأرجحة من أنه لا يزال يبدو دعيّاً، رغم كل محاولاته لتكريس نفسه باعتباره شخصاً مؤهلاً لاستقبال الإمبراطور في داره. أما الآن، فقد رأى في شخص ولده الانصهار المطلق لتقاليد الساموراي والأعراف الأرستقراطية، والانسجام الكامل بين نبلاء البلاط القدامى والنبالة الجديدة.

ولكن مع استمرار الاحتفال، انقلب اعتبار الأمير، حيال المديح الذي كاله الناس لمظهر الصبي، إلى مشاعر قوامها عدم الارتياح؛ فقد كان كيواكي، في الثالثة عشرة من عمره، أنيقاً أكثر مما ينبغي، في مجمل مظهره. وإذ نحى جانباً العاطفة الطبيعية التي يكنها لولده، فإنه لم يملك إلا أن يلاحظ أنه كان متفوقاً، حتى على رفاقه من الوصفاء، فقد كان خداه الشاحبان يتضرجان بالحمرة، حينما يأخذ الانفعال، وحاجباه يلوحان ممددين تماماً، وعينه النجلاوان، اللتان لا يزال يسكنهما الفضول على نحو طفولي،

تؤطرهما أهداب طويلة. كانتا سوداوين، ولهما لمعة فاتنة. وهكذا، فإن فيض المجاملات دفع الأمير إلى ملاحظة الحسن الاستثنائي، الذي يتميز به ولده ووريثه، واستشعر شيئاً يشير القلق في ذلك الحسن، ومسه هاجس مزعج، لكنه كان رجلاً متفائلاً، على نحو مفرط، فتخلص من انزعاجه بمجرد انتهاء الحفل.

كانت هناك مخاوف مماثلة أكثر إلحاحاً، في ذهن إينوما الشاب. . الذي أقبل للإقامة في دارة ماتسوجاي، وهو فتى في السابعة عشرة من عمره، قبل عام من قيام كيواكي بمهمة الوصيف الإمبراطوري، وقد أوصت المدرسة الوسطى في قريته، كاجوشيما، به ليكون مدرساً خصوصياً لكيواكي، وأرسل إلى آل ماتسوجاي مزوداً بشهادات تدل على قدراته الذهنية والبدنية. وكان والد الأمير الحالي يحظى بالتوقير باعتباره رباً، قوياً وصارماً، في كاجوشيما. وقد نظر إينوما إلى الحياة في دارة ماتسوجاي بصورة كلية، من خلال ما سمعه في قريته أو في المدرسة عن منجزات الأمير الراحل. غير أنه، في العام الذي أمضاه مع أهل الدارة، وضع أسلوب حياتهم المترفع حداً لتوقعه، وجرح حساسيته التطهيرية، على نحو صياني.

لم يستعص عليه أن يغمض عينيه عن الأمور الأخرى، ولكن ذلك لا ينطبق، فيما يتعلق بكيواكي، الذي كان مسؤولاً عنه مسؤولية شخصيته. وكان كل شيء فيه يثير ضيقه - مظهره، رفته، حساسيته، مساره الذهني، اهتماماته - كما كان كل شيء يتعلق بموقف الأمير والأميرة حيال تعليم ابنهما يثير شعوراً مماثلاً لديه بالتعاسة، فيمضي محدثاً نفسه: «لن أربي ابني قط على تلك الشاكلة، حتى ولو جعلت أميراً. ترى أي قدر من الاكتراث تعتقد أن الأمير يبيده حيال معتقدات أبيه؟».

في الليلة التي عاد فيها كيواكي إلى الدار، بعد الاضطلاع بواجباته باعتباره وصيفاً إمبراطورياً، أقام الأمير وزوجته مأدبة عشاء عائلية خاصة،

احتفالاً بهذه المناسبة . وعندما جاء وقت إسراع كيواكي ليأوى إلى فراشه ، ساعده إينوما في التوجه إلى غرفته . كان خدا إلفتي ، الذي يجتاز الثالثة عشرة من عمره ، متخرجين بالحمرة ، جراء النبذ الذي جعله أبوه ، بين الجلد والهزل ، يحسسه راغماً . اندس في الأعطية الحريرية ، وترك رأسه يتراجع إلى الوسادة ، فيها ترددت أنفاسه ثقيلة ، دافئة . درت أوردته ، الممتدة تحت شعره القصير ، حول شحمتي أذنيه ، وبدا الجلد شفافاً ، على نحو بالغ الغرابة ، إلى حد أن المرء كان بمقدوره ، أن يرى الآلية الهشة الدائرة داخله . وحتى في عتمة الغرفة لاحت شفتاه حمراوين . وترددت أصوات التنفس الصادرة عن الصبي ، الذي بدا وكأنه لم يجرب العناء يوماً ، وكأنها الصدى الساخر لأغنية شعبية .

تطلع إينوما إلى محياه ، إلى العينين الحساستين ، البراقتين ، بأهدابهما الطويلة - كأنهما عينا ثعلب ماء - وعرف أنه لا أمل يرجى من توقع أن يقوم بأداء قسم الولاء للمعجم بالحاس للإمبراطور ، الذي كان حرياً أن تدفع ليلة كهذه أي فتى ياباني ، عادي ، يشق طريقه نحو الرجولة ، حظي بأداء مثل هذه المهمة المجيدة ، إلى تأديته .

كانت عينا كيواكي الآن مفتوحتين تماماً ، فيما هو راقد على ظهره ، يحدق في السقف ، وقد اغرورقتا بالدموع . وعندما تحولت هذه النظرة المتألقة نحو إينوما ، ازداد شعوره بالاستياء عمقاً . لكن هذا جعل إيمانه بولائه يزداد إلحاحاً . وعندما شعر كيواكي ، فيما يبدو ، بالحر ، وجذب ذراعيه العاريين المتخرجين قليلاً من تحت الغطاء ، وشرع في طيهما خلف رأسه ، أتبه إينوما ، وأغلق ياقة منامته المفتوحة :

- ستصيبك نوبة برد . عليك بالنوم الآن !
- إينوما ، أتعرف . . . أتيت أمراً سيئاً ، اليوم . لئن وعدت ألا تبلغ أمني أو أبي ، فإني محدثك به .

- وما ذاك؟

- اليوم، فيما كنت أحمل طرف رداء الأميرة، تعثرت قليلاً، لكنها لم تحر إلا الابتسام، وصفحت عني.

أثارت هذه الكلمات اللعوب، وغياب أي شعور بالمسؤولية، ونظرة النشوة الدامعة المرتسمة في هاتين العينين، وكل شيء، شعور إينوما بالغثيان.

لم يكن من المدهش، إذن، أنه ببلوغ كيواكي الثامنة عشرة من عمره أفضت اهتماماته، على نحو متزايد، إلى عزله عما يحيط به، فهو لم يتباعد عن عائلته وحدها، ذلك أن المدرسين في مدرسة النبلاء كانوا قد غرسوا في نفوس طلابهم المثال الفائق النبيل، الذي ضربه الناظر، القائد نوجي، الذي انتحر، ليتبع امبراطوره في رحاب الموت. ومنذ ذلك الحين شرعوا في التأكيد على أهمية ما قام به، مشيرين إلى أن عرفهم التربوي ما كان يمكن أن يكون على هذا القدر من الثراء، لو أن القائد نوجي مات حتف أنفه، وسيطر مناخ من البساطة الاسبرطية على كل ما في المدرسة، ولهذا السبب استشعر كيواكي، الذي اتسم بنفور من كل ما يوحى بالنزعة العسكرية، كراهية تصل حد المقت للمدرسة.

كان صديقه الوحيد هو زميله في الصف شيجيكوني هوندا. وبالطبع تعدد من كان يعدهم أن يكونوا أصدقاء له، لكنه ضاق ذرعاً بفجاعتهم الصبيانية، ولم يطق صبراً حيال أساليبهم الخشنة، المترعة بالمزاح، بل وثار شعوره بالغثيان، حيال نزعتهم العاطفية الغليظة، التي تبدى حينها يجأرون، دوغما اكتراث، بالنشيد المدرسي. لم يجتذبه إلا هوندا، بمزاجه الهادئ، المتحفظ، والعقلاني، وهو المزاج غير المألوف في فتي في مثل عمره. ومع ذلك، فلم يكن يربطهما إلا القليل من القواسم المشتركة، في المظهر أو المزاج.

بدا مظهر هوندا موحياً بسنوات أكبر من عمره. وعلى الرغم من أن

ملاحظه كانت عادية تماماً، فقد سيطر عليه ميل إلى اتخاذ هيئة توحى بالفخامة والأبهة. وقد احتذبتة دراسة القانون، وأوتي موهبة الحدس الدقيق، لكنها قوة كان يميل إلى حجبها، وبدت هيئته موحية بأنه يلتزم اللامبالاة حيال المتع الحسية، غير أنه أتى عليه حين من الدهر بدا فيه وقد ألهته بسياطها عاطفة جارفة من نوع ما، وفي مثل هذه اللحظات يفجأ المرء وقد انفرجت شفتاه قليلاً، وهو الذي يطبق شفتيه، في حزم، على الدوام، فيما هو يضيق ما بين عينيه، في قسوة، يستجيب لها حاجباه في تقطيع جلية.

وبما كان كيواكي وهوندا مختلفين في تركيبهما، مثلما تختلف الزهرة وورقة نبتة وحيدة، فقد اتسم الأول بالعجز عن حجب طبيعته الحققة، وتجرد من أساليب الدفاع حيال قدرة المجتمع على الإيلام. وقد هجعت نزعته الحسية، التي لما تستيقظ من مرقدتها في أعماقه، دوغما حماية، كأنها جرو تنهمر عليه شآبيب مطر مارس، فتأخذه الرعدة، وينساب الماء من خطمه. وبالمقابل، أدرك هوندا في مرحلة باكرة من عمره مكنم الخطر، فاخترار الاحتماء من كل العواصف، مهما كانت جاذبيتها.

غير أنهما، على الرغم من هذا، ربطتهما عرى صداقة وثيقة، فلم يكتفيا باللقاء في المدرسة، وإنما راحا يقضيان كذلك أيام الأحاد معاً في دار أحدهما، ولأن ضيعة ماتسوجاي تضم مجالاً أرحب للنزهات وضروب الترفيه؛ فغالباً ما كان هوندا يزور كيواكي في داره.

ذات يوم أحد، من شهر أكتوبر ١٩١٢، وهو العام الأول في عهد تايشو، وفي أصيل أوشكت أوراق أشجار القيقب أن تبلغ فيه كمالها، وصل هوندا إلى غرفة كيواكي، ليقترح الذهاب لركوب القارب في البحيرة. ولو أن هذا العام كان كأى عام غيره لأقبل عدد متزايد من الزوار لتأمل أوراق أشجار القيقب، ولكن آل ماتسوجاي لزموا الحداد، منذ وفاة الامبراطور،

في الصيف السابق، وأجلوا الأنشطة الاجتماعية العادية، فهيمن صمت غير مألوف على الحديقة.

- طيب، إذا كانت تلك رغبتك، القارب يتسع لثلاثة أشخاص،
وسنصحب إينوما ليجذب لنا.

قال هوندا، متذكراً التعبير الصارم، الذي ارتسم على ملامح الشاب،
الذي رافقه بلا داع، بخنوع صامت لا يتراجع إلى غرفة كيواكي:
- وما حاجتنا لمن يجذب لنا؟

ابتسم كيواكي، قائلاً:

- إنك لا تكن له ودأ، يا هوندا! أليس كذلك؟
- ليست المسألة أنني لا أكن له ودأ، كل ما في الأمر أنني، طوال معرفتي
له، لم أستطع معرفة ما يدور داخل رأسه.

- لقد أمضى هنا ست سنوات، فأصبحت اعتبر وجوده من الأمور المسلم
بها، شأن الهواء الذي أتنفسه. من المؤكد أننا لا نتفق تماماً في نظرتنا
للأمور، ولكنه مع ذلك مخلص لي. ويكن لنا الولاء، ويعكف جاداً على
دراسته. بمقدورك الركون إليه.

تقع غرفة كيواكي، في الطابق الثاني، في مواجهة البحيرة. وقد أثبتت،
في الأصل، على الطراز الياباني، إلا أنها أعيد تصميم محتوياتها لتبدو
غربية، حيث استخدمت سجادة وأثاث غربي. اقتعد هوندا حافة النافذة،
والتفت متأملاً امتداد البحيرة بأسرها، الجزيرة، ووتد القيقب المترامي
وراءها. بدا الماء ساكناً تحت شمس الأصيل، وتحت موضعه مباشرة كان
بمقدوره أن يرى القوارب، وقد أرسيت في خور صغير.

في الوقت نفسه، راح يمعن التفكير في افتقار صديقه للحماس، فلم
يحدث أن أخذ كيواكي بزمام المبادرة قط، وإن كان في بعض الأحيان

يشارك، وقد بدا عليه الضجر التام، لا لشيء إلا ليمتع نفسه على طريقته الخاصة. وإذن، فقد وقع دور الناصح المتصدي للقيادة على كاهل هوندا دوماً، في حالة قيامهما بأي شيء على الإطلاق.

قال كيواكي:

- باستطاعتك رؤية القوارب. أليس كذلك؟

ردّ «هوندا»، ملقياً نظرة مترددة وراءه:

- بلى، أستطيع ذلك، بالطبع.

* * *

ما الذي قصده كيواكي بسؤاله؟ لو أن المرء قُدِّر له أن يخاطر بالقيام بتخمين ما، لذهب إلى أنه كان يحاول القول بأنه ليس مكتئباً بأي شيء على الإطلاق، فقد كان ينظر إلى نفسه باعتباره شوكة، شوكة صغيرة سامية غرست في يد عائلته الصنّاع. وكان هذا قدره؛ لأنه أحرز قليلاً من التائق ورغد العيش. فقبل ما لا يزيد على نصف قرن. كان آل ماتسوجاي يكسبون عيشهم بمزيد من المشقة في الأقاليم، ولكن في فترة قصيرة من عمر الزمن صعد نجمهم، وعلا، وفي الوقت الذي أطل فيه كيواكي على الدنيا راحت الآثار الأولى للرغد تهدد بإحكام قبضتها على العائلة، التي تمتعت، على العكس من نبلاء البلاط، بقرون من الحصانة ضد الرفاه والدعة. وشأن غلة تستشعر مقدم الفيضان، كان كيواكي يعايش أولى التهديدات بالانهيار العاجل لعائلته.

كانت رهافة حسه هي الشوكة. وقد أدرك حق الإدراك أن نفوره من الخشونة وابتهاجه بكل ما هو مصقول ومتألق كانا بلا طائل؛ ذلك أنه نبته ماها من جذور. فدون أن يقصد تقويض دعائم عائلته، وبغير رغبة منه في انتهاك تقاليدها، قُدِّر له، بحكم طبيعته ذاتها، القيام بذلك، وأحسن الفتى الوسيم بأن هذا التجرد من الجدوى قد وسم وجوده بميسمه.

شكل اقتناعه بأنه ليس هناك قصد من حياته إلا أن يتصرف كما لو كان سباً زعافاً جزءاً من ذات فتى في الثامنة عشرة من العمر، وقرراً قراره على أن يديه البيضاء البديعتين لن تلتطخا قط، ولن تعلوهما التسلخات، أراد أن يكون مثل راية ترفرف بحسب الريح. والشيء الوحيد الذي بدا له قائماً، لا يأتيه الشك، هو أن يحيا من أجل العواصف، المجردة من المبرر، والبعيدة عن الثبات، التي لا تختصر إلا لتبعث من مرقدها ثانية، تراجع، وتتوهج دون اتجاه ولا هدف ترمي إليه.

في الوقت الراهن، لم يكن هناك من يشير اهتمامه. التجديف؟ لقد حسب أبوه أن القارب، الذي يجمع بين اللونين الأخضر والأبيض، والمستورد من الخارج، مواكباً للصراعات الحديثة، وبالنسبة لهذا الأب كان القارب ثقافة، ثقافة اكتست إهاباً ملموساً. ولكن ماذا إن كانت كذلك؟ منذ الذي يكثرث بقارب؟

فهم هوندا بحدسه الداخلي سر صمت كيواكي المفاجيء؛ فعلى الرغم من أنها كانا من عمر واحد، إلا أن هوندا كان أكثر نضجاً، وفي حقيقة الأمر، كان شاباً يرغب في أن يحيا حياة بناءة، وقد اتخذ قراره، فيما يتعلق بالدور الذي سيضطلع به مستقبلاً. غير أنه كان مع كيواكي يحرص على أن يبدو أقل حساسية وحقاً مما هو عليه بالفعل، لعلمه بأن صديقه يرصد بدقة إفصاحاته الحريضة عن تبلد ذهنه - ذلك الطعم الوحيد، الذي لاح أنه يجتذب انفعال كيواكي. وقد امتد خيط الخديعة هذا، عبر صداقتها بأسرها.

قال هوندا، بحدة:

- سيفيدك القيام ببعض النشاط البدني. أعلم أنك لم تقرأ كل هذا القدر، ولكنك تبدو كما لو كنت قرأت مكتبة بأكملها.

ابتسم كيواكي، في معرض الرد؛ فقد كان هوندا على حق، ولم تكن كتبه هي التي استنزفت طاقته، وإنما أحلامه. وما كانت مكتبته بأسرها لترهقه على نحو ما يفعل انغماسه في الأحلام ليلة إثر الأخرى.

راوده الباردة حلم عن تابوته، وقد صنع من خشب لم يمسه طلاء. جثم في منتصف غرفة خاوية، ذات نوافذ رحبة، وفي الخارج كانت ظلمة ما قبل الفجر تستحيل ظلالاً من زرقة عميقة، امتلأت بتغريد الطيور، تشبثت امرأة في مقبل العمر بالتابوت، وقد انسدل شعرها الفاحم من رأسها المنكس، وتهافت كتفها الرشيقتان، مع موجات انخراطها في البكاء أراد التطلع إلى محياها، لكنه لم يستطع أن يميز أكثر من جبينها الشاحب الوضيء بطرة الشعر الرقيقة، الفاحمة، التي تتوجه. كان التابوت شبه مغطى بجلد فهد، زينت اللآلئ حوافه، اتقد الوهج الأول الصامت للفجر على امتداد صف الحل، وبدلاً من البخور الجنازري، ملأ عقب عطر غربي الغرفة بعبير فاكهة انضجتها الشمس. بدا كأن كيواكي يرقب هذا من أعلى، على الرغم من اقتناعه بأن جثمانه مسجى داخل التابوت، ورغم يقينه، فقد ظل يستشعر الرغبة في أن يراه هنالك، على سبيل التأكد. غير أنه، شأن بعوضة في سنا الصباح، فقد جناحاه كل قوتها، وكفًا عن الرفرفة في الهواء، وعجز على نحو مطلق عن التطلع إلى داخل التابوت المغطى والمثبت بالمسامير. وعندئذ، ومع تفاقم حدة إحباطه، استيقظ من منامه، والتقط مذكراته السرية، ودون فيها هذا كله.

أخيراً، هبطا كلاهما، إلى المرسى، وفكّا الحبل، الذي يربط القارب إلى الشاطئ. عكست صفحة الماء الساكنة الحمرة الصارخة لأشجار القيقب، التي شرعت في الاندياح على التل في البعيد. وعندما ركب الزورق، أثار ارتجاجه العنيف في نفس كيواكي مشاعره الأثيرة، حول هشاشة الحياة

وتقلبها. في تلك اللحظة، بدت أفكاره الداخلية، كما لو كانت تصف قوساً هائلة، انعكست بجلاء في الخافة الشهباء الجديدة للقارب، فارتفعت معنوياته.

دفع هوندا بالمجذاف في اتجاه معاكس للمرسى الحجري، وناور للانطلاق بالقارب. فيما كانت المقدمة ترعش صفحة الماء المتألقة باللون الأحمر الوهاج، حلقت التموجات الناعمة عالياً بإحساس كيواكي بالتححرر والانطلاق. بدا الماء القاتم وكأنه يتحدث بصوت عميق وقور. ومضى كيواكي يحدث نفسه قائلاً: «خريفى الثامن عشر، اليوم، هذا الأصل، هذه اللحظة: لن يعود مجدداً قط، شيء ما ينزلق، على نحو لا مجال للاسترداد معه، إلى البعيد».

- أنلقي نظرة على الجزيرة؟

- وما الطريف في ذلك؟ ليس هناك ما يرى.

- لا تفسد علينا فرحتنا، هلم، لنمض، ولنلق نظرة!

قالها هوندا مستحثاً، تردد صوته عميقاً في صدره، فيما هو يجدف بقوة مترعة بالعافية تناسب سنوات عمره.

فيما كيواكي يحذق في البحيرة، مثبتاً نظره إلى أسفل، تنهى إلى سمعه الصوت الخافت المنساب من الشلال البعيد. على الجانب الآخر من الجزيرة، لم يكن بوسع رؤيته الكثير؛ بسبب الغبش الضارب أطنابه على الماء وحمرة أشجار القيقب المنعكسة على صفحته. كان يعلم أن الشبوط يسبح في الأسفل هنالك، وعند القاع ذاته تجثم السلاحف النهاشة في حمى الصخور، وللحظة توهجت مخاوف طفولته، ثم انكفأت إلى العدم.

لطمت الشمس الدافئة قفاهما الحليقين. كان أصيل أحد مجيئاً، مترعاً بالسلام، خلا من الحوادث. ومع ذلك، فقد ظل كيواكي على اقتناعه بأنه

في قرارة هذا العالم، الذي يشبه قرية جلدية مليئة بالماء، كان هناك ثقب صغير، وبدا له أن بمقدوره سماع الزمن، وهو ينسرب منه قطرة فأخرى.

بلغا الجزيرة، عند موضع تنتصب فيه شجرة قيقب وحيدة، وسط أشجار الصنوبر، وصعدا الدرج الحجري إلى المنطقة المعشبة، التي اجتثت أشجارها عند القمة ذات الكراكي الثلاثة من الحديد الزهر، واقتعدا الأرض عند الكركيين، اللذين يمدان عنقيهما في صيحة صامتة، خالدة، ثم استلقيا على النجيل ليحدقا في سماء أواخر الخريف. اخترق النجيل الخشن ظهري كيمونيهما، باعثاً شعوراً بعدم الارتياح في نفس كيواكي. غير أنه منح هوندا إحساساً بألم منعش، على نحورائع، يتشظى، وينتشر تحت ظهره. وكان بمقدورهما أن يلمحا من أطراف أعينهما الكركيين، وقد تعاورهما المطر والريح، ولطختهما فضلات الطيور ذات اللون الطباشيري الأشهب، وبدا عنقا الطائر اللدن، المقوسان، الممتدان حيال السماء، وكأنهما يتحركان على مهل على إيقاع السحب، التي لا تني تغير أماكنها.

قال هوندا، وقد حركه هاجس ما:

- إنه يوم جميل. وقد لا نتاح لنا في حياتنا بأسرها أيام كهذا، على مثل هذا القدر من الكمال.

تساءل كيواكي:

- هل نتحدث عن السعادة؟

- لا أذكر أنني قلت أي شيء عن السعادة.

- طيب، ليكن، إذن. إنني أشد شعوراً بالخوف من أن أقول أموراً

كالتى نتحدث بها. لست أملك زمام هذا النوع من الشجاعة.

- كلي اقتناع بأن مشكلتك هي أنك شره، على نحو فظيع. والرجال

الشرهون عرضة لأن يبدوا بؤساء. انظر، ما الذي يمكنك أن تتطلع إليه

أكثر من يوم كيومنا هذا؟

- شيء محدد. أما ما هو كنهه فليست لدي فكرة عن ذلك.

هكذا رد الشاب، في سأم، جامعاً بين الوسامة والافتقار للحزم. ويقدر ولع كيواكي بهوندا إلا أنه كانت تأتي عليه أوقات يجد فيها أن عقلية صديقه الحادة في طابعها التحليلي وحديثه الموحى بالثقة في النفس - وهما الصورة المجسدة لوعد الشباب بالعطاء الآتي - اختبار عسير لطبيعته القلب.

فجأة، تقلب على بطنه، فوق النجيل، ورفع رأسه، محدّقاً عبر الماء في بقعة نائية، باتجاه الحديقة، التي تواجه قاعة الاستقبال في الدار الرئيسية. كان درج حجري مثبت في الرمل الأشهب يفضي منها إلى حافة البحيرة، التي تميزت بنتوءات دائرية، تتداخل معها خيران صغيرة، تعبرها سلسلة من الجسور الحجرية. ولاحظ وجود مجموعة من النساء هناك

ربت على كتف هوندا، وأشار إلى ذلك الاتجاه، فرفع هوندا رأسه، وتطلع عبر الماء إلى أن رصد النساء بدورهن. هكذا راحا يحذقان من مكمنهما، كأنهما قناصان فتيان. كانت أمه تنطلق في نزعتها اليومية، حينها يحلو لها ذلك، لكن رفيقاتها اليوم لم يقتصرن على وصيفاتها وحدهن، وإنما سارت وراءها تماماً ضيفتان، إحداهما علا بها العمر، والأخرى في ميعة الصبا. كانت النسوة جميعهن، فيما عدا الفتاة، ترتدين كيموناهات ذات ألوان هادئة فاترة. ورغم أنها كانت ترتدي كيمونو شاحب الزرقة، فإن القماش كان مطرزاً على نحو وفير. وفيما عبرت الرمل الأشهب لتسير على حافة الماء، تألق ثوبها حريراً شاحباً، كأنه السماء عند انبلاج النور. وكشف ضحك النساء، الذي حمله نسيم الخريف عن تردددها في السير على الدرج الحجري غير المنتظم، ولكنه تردد ضحكاً بالغ النقاء ورنٌ في الأذان على شيء من الافتعال. وكان كيواكي دائماً يضيق ذرعاً بسماع نسوة الدار يضحكن، على ذلك النحو، ولكنه أدرك تماماً طبيعة الأثر الذي خلفه في نفس هوندا، الذي تألقت عيناه، كأنه ديك حفزته قوقاة الدجاجات. راحت السوق الهشة للنجيل الخريفي الجاف تتكسر تحت صدرها.

خالج كيواكي شعور يقيني بأن الفتاة ذات الكيمونو الشاحب الزرقة ما كانت لتضحك قط على ذلك النحو. في دفع من المرح، مضت وصيفات أمه بسيدتهن والضيفتين يداً بيد من حافة البحيرة إلى تل أشجار القيقب على امتداد طريق جرى تعقيده عمداً، من خلال متاهة من الجسور

الحجرية، أمتدت، مثلما الحيط، فوق الخيران. وسرعان ما احتجب عن أنظار كيواكي وهوندا الجائمين وراء النجيل الكث.

- لديكم، بالتأكيد، العديد من النسوة في أرجاء داركم، أما نحن فليس لدينا إلا الرجال.

قالها هوندا، مخفياً اهتمامه، الذي كان من الحدة بحيث يدفعه إلى النهوض والانتقال إلى الجانب الآخر من الجزيرة. كان بمقدوره من هنا، من ذلك المخبأ بين أشجار الصنوبر، أن يتابع التقدم غير المطرد للنساء على الطريق. وإلى يساره احتضن تجويف في المنحدر الشلالات الأربعة الأولى من الشلالات التسعة، ثم يتبع الغدير عقب ذلك انحناء التل، وفي نهاية المطاف يتحدر إلى الأمام نحو البحيرة أسفل صخور سادو الحمراء. شقت النسوة طريقهن أسفل هذه الشلالات الأخيرة، وهن يتخيرن مواضع أقدامهن، على الأحجار المنحدرة. كانت أوراق أشجار القيقب جميلة، على نحو خاص، في ذلك الموضع، وشديدة الكثافة، حتى لترقش شريط الشلالات الأشهب، وتصبغ الماء عند حافة البحيرة باللون القرمزي القاتم. مضت الوصيفات بالفتاة ذات الكيمونو الأزرق الشاحب عبر المنحدر الحجري، وقد انحنى رأسها إلى الأمام، وحتى من على ذلك البعد لاح قفاها الأبيض واضحاً لكيواكي، فجعله يعود بأفكاره إلى الأميرة كاسوجا وجيدها الحليبي، وهو شيء لم يقدر له أن يفارق ذهنه قط.

بعد امتداد الطريق أسفل الشلالات، انبسط لمرحلة ما، متبعاً تعانق البر مع الماء، لدى شروع الشاطئ في الدنو من الجزيرة. وكان كيواكي قد تابع، بمزيد من التركيز، تقدّم مسيرة النسوة، لكنه لمح الآن المشهد الجانبي للمرأة، التي ترتدي الكيمونو الشاحب الزرق، فأدرك أنها ساتوكو، وتبددت نثاراً أخيلته الحاملة. ترى لم عجز عن تعرفها قبلاً؟ ربما كان السر في ذلك

يكنم في رغبته، الأقرب إلى النزوة، في أن تكون الفتاة الحسنة غريبة تماماً بالنسبة له.

أما الآن، وقد قضت على الوهم، الذي ساوره، فلم يعد هناك مبرر للبقاء طي الخفاء. نفص أطراف النجيل الخشنة عن رداءه، وانبعث واقفاً، ونحى الفروع السفلى لأشجار الصنوبر، التي يختفي وراءها.

هتف:

- مرحباً!

أذهل هذا المرح المباغت هوندا، فما ليلقي نظرة أفضل، وإذ أدرك أن الروح المعنوية العالية التي يبدو عليها صديقه ليست إلا رد فعل منعكساً لما أصاب تيار أحلامه من انقطاع لم يكثرث بإمساك هذا الصديق لزمام المبادرة.

- من هناك؟

- إنها ساتوكو. ألم أطلعك على صورتها أبداً؟

على هذا النحورد كيواكي، متلفظاً باسمها في لامبالاة فاترة، ومن المؤكد أن ساتوكو، الفتاة الواقفة على الشاطئ، كانت حسنة باهرة الجلال. غير أن كيواكي بدا مصمماً على تجاهل هذا، إذ كان يدرك أنها واقعة في هواه.

كان هذا الرفض الغريزي لكل من يظهر عاطفة حياله، وهذا الاحتياج إلى الاستجابة بنفور فاتر، هما عيب في كيواكي ما كان أحد ليعرفه خيراً من هوندا، الذي نظر إلى هذا التكبر باعتباره نوعاً من الورم الخبيث، أنشب غخاله في كيواكي، وهو لما يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، عندما اضطرب لأول مرة إلى احتمال الناس، وهم يشيرون ضجة كبرى حول مظهره الخلاب. وشأن كتلة فضية من الفطر، كان ينتشر لدى أدنى لمسة.

وفي حقيقة الأمر، أنه ربما كانت جاذبية صداقة كيواكي بالنسبة لهوندا تضرب جذورها في الدافع نفسه. فقد حاول كثيرون مصادقة كيواكي، فكان جزءاً ما تكبّده من عنت هو الهزء والازدراء. وفي غبار تحدي تحفظ كيواكي اللاذع السخرية، كان هوندا وحده هو الذي بلغ من الحذق حدّاً جعله يفلت من برائن الكارثة. ولربما جافاه الصواب، ولكنه طالما تساءل عما إذا كانت كراهيته الحادة لمعلم كيواكي، الجهم المحيا، تنبع من تعبير الهزيمة الدائمة المرتسم على ملامح الأخير. على الرغم من أن هوندا لم يلتق بساتوكو قط، إلا أن قصص كيواكي مليئة بها. كانت عائلة أياكورا، وهي واحدة من ثنائي وعشرين عائلة من طبقة النبلاء تحمل لقب «أورين» الرفيع، منحدره من صلب سلف يدعى نامبا يوريسوكي، وهو لاعب حاذق لـ «كيباري»، أو نوعية كرة القدم، التي كانت رائجة في البلاط الإمبراطوري في عهد آل فوجيوارا. وقد عُيِّنَ كبير العائلة حاجباً للبلاط الإمبراطوري، عندما استقر في طوكيو في عهد إصلاح مييجي. وانتقل آل أياكورا إلى المدينة، وأقاموا في دارة بحيّ أزابو كان يقطنها في السابق أحد مساعدي الشوجون. وامتازت العائلة في «الكيباري» وفي نظم شعر «الواكا». وبما أن الإمبراطور قد رأى من المناسب أن يكرم وارث العائلة الشاب بمنحه مرتبة الجدارة «من الدرجة الخامسة، طبقة الشباب»، فقد غدا لقباً رفيعاً كمستشار الدولة العظيم غير البعيد المنال.

وقد عهد الأمير ماتسوجاي، الذي لم يغيب عنه افتقار عائلته إلى الصقل، وعُلق الأمال على أن يمنح الجيل التالي، على الأقل، لمسة من التألق والدعة، بالوليد كيواكي إلى آل أياكورا، بعد الحصول على موافقة أبيه. وهكذا نشأ كيواكي في مناخ نبالة البلاط مع ساتوكو، التي كانت تكبره بعامين، وأغدقت من عاطفتها عليه، وقد ظلت الرفيق الوحيد له حتى التحاقه بالمدرسة. وقام النبيل أياكورا نفسه، وهو رجل عذب

الحديث، رقيق الحاشية، بتعليم كيواكي في صدر عمره الخط ونظم قصائد «الواكا». وكانت العائلة تلعب لعبة «السوجوروكو»، وهي شكل عتيق من أشكال نرد الطاولة، حتى وقت متأخر من الليل، كما كان الحال في العهد الهايبي^(١)، ويتلقى الفائزون، الذين حالفهم الحظ، الجوائز التقليدية، ومن بينها حلوى غُلِّفت كهدايا من الأمباطورة.

وعلاوة على ذلك، فقد رتب النبيل أياكورا مواصلة كيواكي تدريبه المبكر بالذهاب إلى القصر مع حلول كل عام جديد لحضور حفل المناظرات الشعرية الأمباطوري، الذي كان أياكورا نفسه من المبرزين فيه. في البداية، نظر كيواكي إلى هذا بحسبانه مهمة روتينية بغية، ولكنه لما نضج أصبح إسهامه في هذه الطقوس الرائعة، العتيقة، مصدر فنة معينة بالنسبة له.

بلغت ساتوكو العشرين من عمرها الآن. وإذا ما تصفح المرء دفتر صبور كيواكي، لاستطاع رؤية التغيرات، التي طرأت عليها، وهي تنمو، شاقة طريقها نحو النضج، منذ طفولتها، التي كانت خلالها تلتصق خدها في ود بخد كيواكي، وصولاً إلى مايو الماضي، عندما شاركت في مهرجان ماتسوجاي أومياساما. وفي العشرين من عمرها، كانت قد تجاوزت المرحلة التي يفترض بصورة شائعة أنها تشكل أعلى قمم الجمال التي تصل إليها الفتاة، لكنها لم تتزوج بعد.

- إذن، فتلک هي ساتوكو. والأخرى، المرأة ذات الرداء الكهنوتي

(١) العهد الهايبي: من أبرز مراحل تطور المجتمع الياباني، يمتد بين السنوات ٧٩٤ - ١١٨٥، وللتدليل على أهمية هذا العصر، يشار إلى أنه، على الصعيد الأدبي، هو العصر الذي ترك لنا أهم الآثار الأدبية اليابانية القديمة: «حكاية جينجي» و«كتاب الوسادة». (هـ. م.)

الرمادي، التي يحتفى بها الجميع أي احتفاء، من عساها تكون؟
- هي؟ آو، نعم، إنها عمة والد ساتوكو، رئيسة دير جيشو. لم أتعرفها
توآ؛ بسبب غطاء الرأس المثلث الغريب ذاك.

كانت قداسة رئيسة الدير ضيفة غير متوقعة حقاً؛ فتلک هي زيارتها
الأولى لآل ماتسوجاي؛ ومن هنا جاءت تلك الجولة التعريفية في الحديقة،
وهي شيء ما كانت أمه لتقوم به من أجل ساتوكو وحدها، ولكنها أسعدها
القيام به لرئيسة الدير. ولا شك أنه بالنظر إلى ندرة زيارات عمة أبيها
لطوكيو، حرصت ساتوكو على إحضارها لمشاهدة أوراق القيقب. وكانت
رئيسة الدير قد سعدت سعادة كبرى بكيواكي حينما قدم إلى آل أياكورا
لأول مرة، لكنه لم يتمكن من تذكر ذلك العهد البعيد. وفي وقت لاحق،
عندما كان بالمدرسة الوسطى، وقامت كبيرة الكاهنات بزيارة طوكيو، دعي
إلى دار آل أياكورا، لكنه لم تتح له إلا فرصة تحيتها فحسب. ومع ذلك،
فقد ترك محيا رئيسة الدير الشاحب، بهالة الكبرياء الهادئة التي تحيط به،
والسلطة الخالية من التعسف، التي تخالج صوتها، أثراً دائماً في نفسه.

دفع صوت كيواكي بالمجموعة الواقفة عند الشاطئ إلى التوقف، على
نحو مفاجئ. تطلعن، مأخوذات، نحو الجزيرة، كما لو كان قراصنة قد
نهضوا أمام أبصارهن من قلب النجيل الشامخ، الممتد إلى جوار الكراكي
الحديدية الزخرفية.

جذبت أم كيواكي مروحة صغيرة من حزامها، وأشارت باتجاه رئيسة
الدير، في إيماءة إلى أنه من المتوقع منه أن يقدم تحياته لها بمزيد من
الإجلال. وبناء على هذا انحنى كيواكي، حيث يقف على الجزيرة انحناء
عميقة، وحذا هوندا حذوه مسرعاً. فأومأت لهما معاً، ثم فتحت أمه
مروحتهما، ولوّحت بها في جلال، فانبعثت من سطحها الذهبي فجأة

انعكاسات ارجوانية. استحث كيواكي هوندا على الإسراع إذ علم أن عليهما الرجوع من الجزيرة على الفور.

- ساتوكو لا تفوتها فرصة للقدوم إلى هنا، وها هي تنتهز فرصة مجيء عمة أبيها.

قالها كيواكي مدمماً، وقد بدا منحرف المزاج، فيما هو يساعد هوندا بالإسراع لحل القارب. غير أن هوندا نظر إلى إسراع كيواكي وتذمره بشيء من التشكك. وكانت الطريقة التي نفذ بها صبر كيواكي حيال حركات هوندا المطردة المنتظمة، وأمسك بالحبل الغليظ بيديه البيضاء، اللتين لم تعتادا هذا العمل؛ ليحاول مساعدته في المهمة البغيضة، المتمثلة في فكه، كافية لإثارة الشكوك في أن رئيسة الدير هي سبب عجلته.

فما عكف هوندا على التجديف، عائداً بالقارب إلى الشاطئ، لاح كيواكي مشوش الذهن، واكتسى محياه بحمرة، التقطها من انعكاس أوراق القيقب الطافية على سطح الماء. وتجنب، في عصبية، الالتقاء بعيني هوندا، في غمار محاولة الإنكار ضعفه حيال ساتوكو، ذلك أن كل لحظة كانت تدنو به من الفتاة التي تعرف حق المعرفة كل شيء عنه، عن طفولته، وحتى عن أكثر تفاصيل جسمه حميمة، والتي بدا أنه تربطه بها عرى لا تفصم من العاطفة.

- مرحى يا سيدي هوندا! يالك من نوتي بارع!

قالتها أم كيواكي، بإعجاب، عندما بلغا الشاطئ. كانت لمحياتها التقليدي الشاحب إطلالة مكتئبة، على نحو دائب، حتى عندما تضحك. غير أن التعبير المرتسم على ملامحها كان واجهة أكثر مما هو مؤشر حقيقي إلى مشاعرها الأعمق غوراً. وفي حقيقة الأمر، أنها كانت مجردة من الحساسية، في كل الأحوال، على وجه التقريب. وقد ربّت ابنها على احتمال انغماس

أبيه في الملذات وفيض طاقته المحفوف بالجلالة، ولكنها لم تكن قادرة بالمرّة على إدراك تعقيدات طبيعة ابنها.

تعلقت عينا ساتوكو بكيوإكي، منذ لحظة هبوطه من القارب. وبقوتها وهذوئها وبريق العاطفة المتألق فيهما بين الحين والآخر كانتا ثققلان، في كل الأحوال، على أعصاب كيوإكي. أحس، دون أن يخلو الأمر من سبب لذلك، بأن في مقدوره أن يقرأ انتقاداً في نظرتها إليه.

- شرفتنا نياقتها بالزيارة اليوم، وسنسعد بعد قليل بالاستماع إلى كلمة منها، لكننا أردنا أولاً أن نريها أوراق القيقب، وعندئذ أزعجتنا بصيحتك الفظة تلك. ما الذي كنتما تفعلانه على الجزيرة بداية؟

- آه، كنا نتطلع إلى السماء فحسب.
قالها كيوإكي، وقد بدا غامضاً وملغزاً في نظر أمه على نحوٍ ما.
- تتطلعان إلى السماء؟ وماذا في السماء لترياه؟

لم تستشعر أمه بالمرّة حرجاً، حيال عجزها عن إدراك ما ليس محسوساً وملموساً، وهو الأمر الذي بدا له أنه سمّتها الوحيدة الجديرة بالإعجاب. ولاح له شيئاً فكاهياً أن يكون بوسعها أن تتخذ هذا المظهر الورع تأهباً لعظات رئيسة الدير. وطوال هذا الحوار لزمّت الأخيرة دورها باعتبارها ضيفة، وهي تبتسم دونما تكلف. ولم يحجر التفاتاً إلى ساتوكو، التي راحت تحدّق، بنظرة ثابتة، في الشعر الكث، المتألق، المشعث، الذي راح يداعب خديه الناعمين.

شرعت المجموعة الآن في ارتقاء الطريق، وهي تتطلع في إعجاب إلى أشجار القيقب، فيما هي تمضي، وتروّج عن نفسها بمحاولة التعرف على نوعية الطيور المغرّدة، وسط الأغصان، الممتدة فوق الرؤوس. وأياً كانت محاولة الشابين كبح جراح سرعتهم، فقد كانا يتقدمان على نحو حتمي

ليسيرا أمام المجموعة وعلى مبعدة منها. وقد انتهز هوندا هذه الفرصة،
ليناقل أمر ساتوكو للمرة الأولى، وليعرب عن إعجابه بحسنها.

- أتعقد ذلك؟

رد كيواكي، مدركاً حق الإدراك أنه على الرغم من أنه إذا وجد هوندا
ساتوكو بعيدة عن الجاذبية، فإن ذلك سيكون لطمة قاسية لكبريائه، فإنه
يتعين عليه الظهور بمظهر اللامبالاة الفاترة. وكان على تمام الاقتناع بأن أي
فتاة تربطها العُرى، التي تصله بساتوكو، يتعين أن تكون جميلة، سواء
اختار الاعتراف بها أم لم يختره.

في نهاية المطاف، انتهى صعودهم، عند الجسر الواقع أسفل أكثر
الشلالات ارتفاعاً، فوقفوا متطلعين إلى حافته. وفي اللحظة التي كانت أمه
فيها تستمتع بإطراءات رئيسة الدير، التي كانت تشاهد الشلالات للمرة
الأولى، اكتشف كيواكي اكتشافاً مشؤوماً، ألقى بظلاله على المزاج الذي
ساد اليوم بأسره.

- ماذا هنالك؟ عند القمة هناك؟ ما الذي يحجز الماء على ذلك النحو؟

استجابت أمه لتساؤلاته، على الفور. ومستخدمه مظللتها لتحمي عينيها
من وهج الشمس الباهر، الذي راح يتقد من خلل أغصان الأشجار،
حدقت إلى أعلى. كان مصمم معالم الطبيعة قد شاد، جاهداً، صرح
جدران صخرية على جانبي الحافة لضمان رشاقة الشلال، وما كان ليتمكن
له قط أن يكون قد قصد أن يتحول دفق الماء على هذا النحو المتقلقل في
منتصف القمة. وبدا بعيداً أن صخرة انحشرت هناك يمكن أن تسبب هذا
الانقطاع في تدفق الماء.

قالت أمه لرئيسة الدير وقد استبدت بها الحيرة، بجلاء:

- ترى ما الأمر؟ يبدو أن شيئاً ما قد انحسر هنالك.

لم تحر رئيسة الدير رداً، وابتسمت كمهددا، رغم أنه بدا أنها تدرك أن ثمة شيئاً مفارقاً لما هو متوقع. ولئن كان هناك من يمكنه الإفصاح عن جليلة الأمر، بغض النظر عن تأثير ذلك، فهو كيواكي، لكنه أمسك عن الحديث، خشية تأثير كلماته على المزاج الطيب للجباة، وأدرك أن الجميع عرف جليلة الأمر.

- أليس كلباً أسود؟ وقد تدلى رأسه إلى أسفل؟

قالتها ساتوكو، بوضوح تام، فشهقت السيدات، كما لو كن يلاحظن الكلب للمرة الأولى.

أصاب خدش كبرياء كيواكي، فقد أشارت ساتوكو، بجرأة يمكن أن تفسر على أنها مفارقة للطبيعة الأنثوية، إلى جثة الكلب، متجاهلة العواقب المشؤومة لذلك. وقالت كلماتها بنغمة سارة، على نحو مؤاتٍ، ومتسمة بالصراحة، الأمر الذي كان شاهداً على تربيتها الرفيعة، كانت لها طزاجة فاكهة ناضجة في إناء من البلور. خجل كيواكي من تردده، وأشعرته بالاستخذاء قدرة ساتوكو على امتلاك ناصية الأمور مباشرة.

أصدرت أمه بعض الأوامر السريعة للوصيفات، اللاتي بارحن المكان تَوّاً، للبحث عن البساتنة المهملين. لكن رئيسة الدير قاطعت اعتذاراتها العديدة لنياقتها عن هذا المشهد غير اللائق، وطرحت اقتراحاً رؤوفاً، كان غير متوقع بالمرة.

- يبدو لي وجودي هنا أمراً دبرته العناية الربانية. لئن دفتتم الكلب تحت ركام صخري، فإني سأصلي من أجله.

ربما كان الكلب قد أصابه مرض، أو جرح على نحو قاتل، عندما أقبل إلى الغدير ليشرب، وسقط في الماء. وقد دفع دفع الماء بحشته، فحشرها وسط الصخور الجائمة في قمة الشلالات. أثارت شجاعة ساتوكو إعجاب

هوندا، ولكنه في الوقت نفسه أحس بالضيق حيال مشهد الكلب، وقد تدلى نافقاً في الشلالات، تحت السماء المشرقة، التي رُقشها السحاب. لمع فرو الكلب الأسود في الرذاذ الصافي، وتألقت أسنانه في الخطم الفاجر، القاتم، الأحمر، التجويقي.

تأقلم الجميع سريعاً مع الانتقال بالانتباه من أوراق القيقب إلى دفن الكلب. ودبت الحياة في الوصيفات المرافقات فجأة، إلى حد الاحتياج، على وجه التقريب. كانوا قد عبروا جميعاً الجسر، كانوا ينالون قسطاً من الراحة، في تعريشة صُممت كنقطة متقدمة تطل على الشلالات، عندما أقبل البستاني مهرولاً، وهو يغمغم بكل عبارات الاعتذار التقليدية، التي تعيها ذاكرته. وعندئذ فحسب تسلق الوجه الصخري الزلق والمنحدر لإزالة الجثة السوداء المتدلية، ودفنها في بقعة ملائمة.

سألت ساتوكو، مستبعدة على نحو فعال أي مساعدة من الوصيفات:

- سامضي لقطف بعض الزهور، يا كيو، فهلا ساعدتني؟

رد كيواكي، وقد اجتذب تردده الواضح موجة من الضحك الفجائي من النسوة:

- أي نوع من الزهور تجمعينه من أجل كلب؟

في غضون ذلك، نُحِت رئيسة الدير رداءها الكهنوي الفضفاض، كاشفة عن زي كهنوتي أرجواني تحته والبطرشي الصغير الملتف حول عنقها. كانت تحظى بحضور يشع بهاء ورحمة على من حولها، وإشراقها يمجّ مناخاً من نذير السوء.

قالت أم كيواكي:

- قدوس! مبارك هذا الكلب إذ تؤدين نيافتك صلاة لخلاص روحه. يقيناً أنه سيبعث بشراً سوياً.

لم تكثر ساتوكو بانتظار كيواكي ، وإنما شرعت ترقى الطريق الصاعد مع التل ، منحنية بين الفينة والأخرى ، لالتقاط زهرة جنطيان تأخر ازدهارها ، بعد أن رصدت موضعها . أما كيواكي فلم يجد أفضل من بضع أزهار بابونج ذابلة .

في كل مرة تنحني ساتوكو لتقطف زهرة ، كان الكيمونو شاحب الزرقة ، الذي ترتديه ، يبدو حاجباً غير مناسب لاستدارة عجيزتها ، التي بدت وافرة ، على نحو مذهش ، مقارنة بقوامها الرشيق . فجأة ، استشعر كيواكي اضطراباً يلفه ، وأحس أن ذهنه بحيرة نائية صافية الماء تعتكر ، على حين غرة ، من جراء اضطراب في الأغوار بعيداً عن صفحة الماء .

بعد قطف زهور الجنطيان الضرورية لاستكمال باقتها ، استقامت ساتوكو واقفة ، وتوقفت فجأة في طريق كيواكي ، فيما كان يبذل أقصى ما في وسعه لينظر في اتجاه آخر . الآن واجهه أنفها البديع التكوين ، وعيناها النجلوان اللامعتان ، اللتان لم يجرؤ حتى الآن على النظر إليهما مباشرة ، عن مدى قريب يثير القلق ، بدت شبحاً مهدداً .

سألته وكلماتها تنساب همساً مندفعاً :

- كيو ، ما عساك تفعل إن لم يعد لي وجود هاهنا بعد الآن ؟

- ٤ -

كانت تلك حيلة مألوفة من حيل ساتوكو لإثارة قلق الناس واضطرابهم . وربما حققت آثارها دوغماً جهداً مقصوداً ، ولكنها لم تسمح لأدنى إيماء عابثة بأن تتسلل إلى نغمة صوتها ، حتى لا تبعث في ضحيتها الشعور بالارتياح . وكان صوتها ، في مثل هذه الأوقات ، يتردد مثقلاً بالنفحات العاطفة للقلب ، كأنها تفضي بأخطر الأسرار .

ورغم أن كيواكي كان يتعين عليه أن يكون قد تمرّس بهذا ، إلا أنه لم يملك إلا التساؤل :

- لم يعد لك وجود هاهنا بعد الآن ؟ ولم ؟

بصرف النظر عن كل جهوده ، التي بذلها للإيحاء بعدم اكتراث مدروس ، فإن رده وشئ بعدم ارتياحه . وقد كان هذا هو ما أرادته ساتوكو .

- لا أستطيع إخبارك بالسبب .

ردت ، ملقية الحبر في مياه قلب كيواكي الصافية ، ولم تنح له الوقت لإقامة التحصينات الدفاعية .

حدّق فيها متأملاً . هكذا كان الحال دوماً ؛ ولهذا السبب كان يكرهها ، فدون أدنى تحذير كان بمقدورها أن تلقي به في رحاب ألوان من القلق لا يعرف لها اسماً ، وانتشرت قطرة الحبر كثيفة ومعتمة ، لتضم في رحابها كل ما كان رائقاً وشفافاً في قلبه ، منذ لحظة واحدة لا غير .

كانت ساتوكو لاتزال تراقبه، عامدة، وفجأة تألفت عيناها، اللتان كساهما الحزن.

في طريق عودتهما، أدهش مزاج كيواكي المنحرف الجميع، ومنح النسوة في دارة ماتسوجاي موضوعاً للهمس الفضولي الثرثار.

كان كيواكي من الثقلب بحيث أنه مال إلى مقاومة ضروب القلق ذاتها، التي راحت تتناهشه. ولو أن الأمر اقتصر على الغراميات، لكان إصراره العنيد هو إصرار أي شاب في عمره، على وجه التقريب. لكن الأمر في حالته كان مختلفاً؛ وربما لهذا تعمدت ساتوكو غرس بذور الأزهار المقبضة ذات الأشواك في نفسه، بدلاً من الأزهار البهيجة الألوان، مدركة مدى الفتنة المريضة التي تشكلها الأزهار الأولى بالنسبة لكيواكي، فقد كان حقاً، وعلى الدوام، أرضاً خصبة لمثل هذه البذور، وألقى بنفسه، مستبعداً كل ما عدا ذلك، في غمار استنبات لقلقه.

استقطبت ساتوكو اهتمامه، وعلى الرغم من أنه كان، بملء إرادته، حبيس سخطه، إلا أن الغضب استبد به حيال ساتوكو، التي توافر لديها على الدوام، رصيد جاهز من الالتباسات والأحاجي الجديدة لإثارة قلقه. واستشاط غيظاً كذلك حيال افتقاره للحزم حينما يجابه بالعثر على حل لمعابثها.

عندما استلقى مع هوندا على العشب في الجزيرة، قال بالفعل إنه يبحث عن «شيء محدد بصورة مطلقة». غير أنه لم يدر له كنهها، ولكن ما إن يبدو هذا اليقين الساطع متألقاً غير بعيد عن قبضته، حتى يعترض ردنا رداء ساتوكو الشاحب الزرقة المرفرفان الطريق موقعين إياه من جديد في فخ الرمال المتحركة للتردد. وعلى الرغم من أنه قد استشعر شيئاً محدداً، برق حدس

ناء، لا يدرك، إلا أنه أثر الاعتقاد بأن ساتوكو هي الحاجز الذي يحول بينه وبين التقدم خطوة واحدة نحوه.

أثار غيظه، على نحو أكبر، اضطرابه للإقرار بأن كبرياءه ذاتها هي، على وجه الحصر، التي تعزله عن كل الوسائل الممكنة لمعالجة أحجيات ساتوكو والقلق الذي تثيره هذه الأحجيات في نفسه. فلو أنه، على سبيل المثال، سأل أحدهم: «ما الذي تعنيه ساتوكو بحديثها عن أنها لن توجد هاهنا بعد الآن؟» فإن ذلك لن يفضي إلا إلى الكشف عن مدى عمق اهتمامه بها. راح يحدث نفسه، قائلاً: «ما الذي يمكنني القيام به؟ أياً كان ما آتبه لإقناعهم بأنني لست معنياً بساتوكو، وإنما بقلق مجرد من وحي خيالي، فما من أحد سيصدقني». راح حشد من مثل هذه الأفكار يتراكض في ذهنه.

شكلت المدرسة، التي تعد في العادة شيئاً مضجراً، مصدراً لبعض الارتياح، في ظل هذه الظروف، بالنسبة لكيواكي. وعلى الدوام، كان يمضي ساعات الغداء مع هوندا، على الرغم من أن حديث الأخير اتخذ منعطفاً مضجراً، في الآونة الأخيرة. وفي يوم زيارة رئيسة الدير لدارة آل ماتسوجاي، صحب هوندا الأخريات إلى الدار الرئيسية، وهناك ألقت قداستها عظة فيهم، استقطبت خيالهم تماماً. والآن لم يطق هوندا صبراً، فراح يطرأ أذني كيواكي غير المكترئين بتفسيره لكل نقطة وردت في العظة.

من العجيب أن العظة تركت كيواكي الحالم في حالة من اللامبالاة التامة، بينما أثارت اهتمام هوندا العقلاني، بما فيها من مضاء قوة الحجة.

كان معبد جيشو، الواقع عند مشارف مدينة نارا، ديراً، وهو أمر نادر، في إطار البوذية الهوسوية. وقد خاطب لب العظة هوندا، واجتذبه بقوة، وحرصت رئيسة الكاهنات على أن تقدم لمستمعيها مبدأ اليوشيكى^(١)

(١) اليوشيكى: هو المبدأ الرئيسي في البوذية الهوسوية، ويذهب القائلون به إلى أن

بضرب أمثلة على جانب كبير من السهولة واليسر.

قال هوندا، وقد استغرقه الحديث تماماً:

- ثم جاءت القصة الرمزية، التي قالت نياقتها إنها خطرت لها عندما شاهدت جثة الكلب تتدلى من الشلال. ولست أحسب أن هناك شكاً على الإطلاق في أن استخدامها لهذه القصة يوضح مدى تعلقها بعائلتك، وهناك طريقته في سردها - العبارات البلاطية الممتزجة بلكنة كيوتو العتيقة الطراز. إنها لغة مراوغة، تحفل بكل أنواع الفروق الدقيقة بين المعاني، ومن المؤكد أنها أسهمت بالكثير من السمو بالتأثير الذي أحدثته العظة في النفوس.

ومضى هوندا، قائلاً:

- تذكر أن القصة وقعت في الصين في عهد التانج. فقد كان رجل يدعى يوان هسابو يمضي في طريقه إلى جبل كايويو الشهير لدراسة تعاليم بوذا. وعندما أرخى الليل سدوله، تصادف أنه ألقى نفسه إلى جوار مقبرة، وهكذا رقد ليحظى بقسط من النوم وسط القبور. وفي منتصف الليل،

= الوجود بأسره قائم على وعي الذات بما حولها. والموسوية في اليابان هي الصياغة اليابانية الخاصة والتميزة لمدرسة اليوجاكاره، في الهند، ومدرسة الفا-هسيانغ في الصين. ولعل القارئ العربي، المتابع لجهودنا، يذكر أننا فضلنا القول في اليوجاكاره، في شرحنا لثن كتاب أنطوني يو، الموسوم «مقدمة الهي - يوتشي». فنكتفي هنا، إذن، بالقول بأن اليوجاكاره، التي لا تعدو الموسوية أن تكون صياغة يابانية لها هي عبارة عن صياغة للمذاهب الرئيسية، التي قدر لها أن تكون الحجر الأساسي في تطور المهياننا، والمبدأ الأساسي لليوجاكاره هو أن الوعي هو وحده الحقيقي والواقعي، والفكر أو العقل هو الواقع المطلق، أما الأشياء الخارجية، فلا وجود لها؛ إذ لا شيء يوجد خارج العقل.

(هـ. م.)

استيقظ من نومه، مستشعراً ظمأ رهيباً. مَدَّ يده، واغترف بعض الماء من حفرة صغيرة إلى جانبهِ، وفيما النعاس يناوشه مجدداً، حدث نفسه بأنه لم يحدث من قبل قط أن كان الماء صافياً وعذباً وبارداً على هذا النحو. ولكن عندما طلع النهار رأى ما شرب منه في الظلام، ورغم أن الأمر بدا عصياً على التصديق، إلا أن ما بدا فواقه سائغاً، على هذا النحو، كان ماء تجمع في جمجمة بشرية. حاول التقيؤ، وقد أخذ الغثيان منه مأخذاً عظيماً، غير أن هذه التجربة علّمتَه شيئاً لم يرغب عن باله، فقد أدرك أنه طالما أن الرغبة الواعية تمارس تأثيرها، فإنها ستسمح للفوارق بأن توجد، ولكن إن عمل المرء على كفهها عن التأثير، فإن هذه الفوارق ستلاشي، فيرضى المرء بالجمجمة، شأن أي شيء آخر.

واستطرد:

- ولكن ما يثير اهتمامي هو الآتي: إذا استنارت بصيرة هسايو، على هذا النحو، هل يستطيع شرب ذلك الماء مرة أخرى آمناً في سرب معرفته بأنه ماء عذب غير؟ ألا تعتقد أن الأمر ذاته ينطبق على العفة؟ إذا كان فتي غراً، بالطبع، فإن بإمكانه أن يقع براءة في هوى عاهرة، إلى حد التوله. ولكن لدى إدراكه أن امرأته بغي، وأنه كان يجيأ في رحاب وهم لم يكن يعكس إلا براءته، هل سيكون بمقدوره أن يحب تلك المرأة على النحو ذاته من جديد؟ ولو أنه استطاع ذلك ألا تعتقد أن ذلك سيكون أمراً عجيماً ومدهشاً؟ أن تمسك بناصية مثالك الأعلى، وتحني الدنيا تجاهه، على ذلك النحو. ألا تكون تلك قوة مميزة؟ سيحاكي الأمر امتلاك ناصية المفتاح السري للحياة في قبضتك. أليس كذلك؟

كانت براءة هوندا الجنسية تعادلها براءة كيواكي، الذي عجز، لهذا السبب، عن تنفيذ مثاله الغريب. ورغم ذلك، فقد أحس؛ لسبب عناده، أنه مختلف عن هوندا، وأنه بالفعل يطبق قبضته على مفتاح الوجود،

باعتباره شيئاً مستحقاً له بحكم مولده . لم يدر ما الذي منحه هذه الثقة . كان وسيماً على نحو يحمل معه النُدْر، حالمًا، وبالغ الصلف، ومع ذلك، فهو ضحية لقلق بالغ، وساوره يقين بأنه، على نحو ما، المستأمن الشاب على كنز لا مثيل له . ولكونه في بعض الأحيان يبدو متسربلاً بتألق جشائي بالغ، كان يثقل نفسه بكبرياء رجل دمه مرض نادر، على الرغم من أنه لا يعاني من آلام الأوجاع ولا من التورمات المؤلمة .

لم يكن كيواكي يدري شيئاً عن تاريخ معبد جيشو، ولم ير أن هناك حاجة لمعالجة هذا القصور . وبالمقابل، فإن هوندا، الذي لا تربطه بالأمر روابط شخصية، على الإطلاق، تكبد عناء القيام ببعض الأبحاث في المكتبة . وقد اكتشف أن جيشو معبد حديث نسبياً، بني في بداية القرن الثامن عشر . فقد كرّست ابنة للإمبراطور هيجا شياما، كانت ترغب في الحداد لفترة ما على أبيها، الذي مات في سمت حياته، نفسها لعبادة «كأتون» ربة الرحمة في معبد كيوميزو . وسرعان ما تأثرت أشد التأثير بتفسير كاهن عجوز من معبد جوجو لفهوم هوسو عن الوجود، وبالتالي أصبحت تابعة متحمسة لهذا المذهب . وبعد طقس حلالة شعرها، رفضت تقبل أحد الامتيازات المخصصة لأميات العائلة الإمبراطورية، وقررت بناء معبد جديد، تكُرّس كاهناته أنفسهن لدراسة النصوص المقدسة . ولا يزال المعبد محتفظاً بمكانته الفريدة كدير تابع للمذهب الهوسوي . غير أن عمه والدساتوكو، على الرغم من أنها تنحدر من عائلة نبيلة، حظيت بالتميز السابع من كونها أول رئيسة للدير من غير أميرات العائلة الإمبراطورية .

فجأة، التفّت هوندا إلى كيواكي :

- ماتسوجاي ! ما الذي دهاك هذه الأيام ؟ لم تبد أدنى إكتراث لأي شيء مما قلته . أليس كذلك ؟
- لا شيء هناك .

قالها كيواكي في معرض الرد مدافعاً، بعد ضبطه لمرة متلبساً بالشروء. أطلت عيناه النجلاوان الصافيتان على صديقه. ولو أن هوندا ظن به الغطرسه لما عناه ذلك في شيء. كان ما يخشاه هو أن يدرك صديقه المعاناة التي يجتاز ذهنه غمارها، وقد علم أنه لو شجع هوندا أدنى تشجيع في هذا الصدد، لما غدا في جعبته شيء لا يحيط به صديقه علماً. وبما أن ذلك سيغدو انتهاكاً لا يغتفر، فإنه سيفقد صديقه الوحيد.

تنبه هوندا توأ لتوتر كيواكي. وكان يعرف أنه لكي يحتفظ بمودة كيواكي تجاهه يتعين عليه أن يكبح جماح الخشونة اللامبالية، التي تبيحها الصداقة عادة، تعين عليه أن يعامله بالحذر الذي يتعامل به المرء مع سور حديث الطلاب، ترك أدنى لمسة نابعة من الإهمال بصمة لا تمحى عليه، ولئن اقتضت الظروف ذلك لما تردد في المضي قدماً إلى حد التظاهر بعدم ملاحظة معاناة صديقه القاتلة، وبصفة خاصة إذا كانت تلك البلادة المزعومة من شأنها أن تشير إلى الشموخ، الذي من المؤكد أنه سيميز معاناة كيواكي المطلقة.

في مثل تلك اللحظات، كان بمقدور هوندا أن يمضي حتى إلى الشعور بمحبة صديقه، لنظرة المناشدة الصامتة المرتسمة في عينيه. بدت نظرتها الجميلة وكأنها تحمل نداء صارعاً: دع الأمور على ما هي عليه، جلييلة في استعصائها على التحديد، مثلما ساحل البحر! وللمرة الأولى في علاقتهما - وهي تفاوض ممتد وحذر التبادل حول صياغة صداقة - كان تماسك كيواكي معرضاً للتمزق إرباً؛ إذ كان يبتهل لصديقه. ولم يكن من يعتبرون كيواكي وهوندا صديقين على خطأ، ذلك أن علاقتهما، في وضعها الراهن، كانت تمنح كلاً منهما ما يريده، على وجه الدقة.

ذات مساء، بعد عشرة أيام، تصادف أن عاد الأمير ماتسوجاي إلى دارته مبكراً، على غير المعتاد. وهكذا، تناول كيواكي العشاء مع أبويه، وهو أمر

نادر الحدوث للغاية . وبما أن الأمير كان مولعاً بالطعام الغربي، فقد جرى تقديم طعام العشاء في غرفة المائدة الصغيرة بالدار الغربية الطراز، ومضى بنفسه إلى قبو الخمر لاختيار النبيذ. صحب كيواكي معه، وأوغل في إيضاح أي أنواع الخمر تتناسب مع أي أطايب الطعام، وأي الخمر لا يتعين تقديمها إلا بمناسبة زيارة أحد أعضاء العائلة الأباطورية للدارة، وما إلى ذلك، وقد تهللت أساريره طوال الوقت. لم يكن يبدو سعيداً، على هذا النحو، إلا وهو يفيضي بمعلومات لا طائل وراءها من هذا النوع.

فيما كانوا يرتشفون مقبلاتهم من المشروبات، راحت أمه، التي مضى سائق السيارة الشاب بها إلى يوكوهاما منذ يومين، تصف رحلة التسوق، كما لو كانت حدثاً كبير الأهمية.

- أذهلتني الطريقة التي راح الناس ينظرون بها إلى ملابسني الغربية، وفي يوكوهاما دون أي مكان آخر! وانطلق بعض الأطفال الصغار القذرين بالفعل وراء العربة صائحين: سيدة أجنبية! سيدة أجنبية!

غامر أبوه بالقول بما معناه أنه يفكر في اصطحاب كيواكي معه لشهود حفل تدشين السفينة الحربية «هاي»، وتحدث كما لو كان من الاستنتاجات المسلم بها أن ابنه لن يكثرث بالأمر.

هنا غابت عن الأبوين كليهما الموضوعات الحية، التي يمكن تبادل الحديث حولها، وشرعا في التعثر، وبدأ عدم إرتياحهما جلياً حتى لكيواكي. غير أنها بشكل ما صادقا، في نهاية المطاف، الموضوع الملائم للموقف، المتمثل في «الأوتاتشيا تشي» الخاص بكيواكي، أي الحفل الطقوسي المتعلق بالتنبؤ بمستقبله، والذي أقيم قبل ثلاث سنوات، عندما كان في الخامسة عشرة من عمره.

صادف هذا الحفل السابع من أغسطس، حسب التقويم القمري،

فوضع حوض خشبي ضخم مليء بالماء في الحديقة، لينعكس البدر على صفحته، وقُدِّمت أضحيان مناسبة، فإذا تلبدت السماء، في هذه الليلة من ليالي أغسطس، في العام الخامس عشر من عمره، فإن الحظ الناعس يتوقع أن يجثم على الصبي، الذي وقف أمام الحوض، طوال ما بقي من عمره.

فيما راح أبواه يتبادلان الحديث، عاد المشهد متوهجاً إلى ذاكرة كيواكي. وقف أبواه يومها كل إلى جانب من جانبيه، وقد ارتدى «الهاكاما» الخاصة به، وهي زي يلف النصف الأسفل من بدنه، وله فتحة في منتصفه، وكيمونو زُرْكَش بشعار العائلة، ووقف في قلب المرجة، التي كساها الندى، وأمامه الحوض الجديد المليء بالماء، وجوقة من الحشرات المسقسقة تتردد أصواتها في سمعه.

ارتسم انعكاس الأشجار المحيطة بالحديقة التي عمَّها الظلام الآن، وأسقف الدارة القرميدية فيما وراءها، بل وتل القيقب، وما يزيد عن هذا على السطح المتموج، الذي أدمج في دائرة الماء المحددة بحافة الحوض. أصبحت تلك الحافة المصنوعة من خشب الصنوبر الأشقر بمثابة تحوم ينتهي عندها هذا العالم، ويبدأ عالم آخر. ولما كان هذا الحفل الطقوسي، خلال العام الخامس عشر من عمر كيواكي، يقرر حظه طوال عمره، فقد أحس كما لو أن روحه ذاتها وضعت هنالك، متجردة من غلائلها، فوق العشب الندي. كانت الجوانب الخشبية للحوض تعبر عن ذاته الخارجية، وسطح الماء الذي حددته تلك الجوانب بدورها يعبر عن ذاته الداخلية.

ساد الصمت الجميع، فمالت سقسقة الحشرات على امتداد الحديقة مسامعه، على نحو لم يعهده من قبل قط. راح يحديق بشغف في الحوض. في البداية، كان الماء داخل الحوض عكراً، ارتمت عليه ظلال سحب كثيفة مشتبكة، مثلما كتلة من أعشاب البحر، وبعد لحظة بدت أعشاب البحر وكأنها تتموج، وحدث نفسه بأنه رأى وهجاً خافتاً ينتشر في الماء، لكنه

تلاشى عندئذ. لم يستطع أن يتذكر إلى متى طال انتظاره، عقب ذلك، ثم فجأة غدا الماء العكر في الحوض، الذي بدا قائماً على نحو لا سبيل إلى اختراقه، صافياً، وهنالك في وسطه تألقت صورة دقيقة للبدر.

انطلق الجمع يعبر عن فرحته، وأحست أمه، التي تصلبت طوال الوقت، بارتياح بالغ، وبدأت في تحريك مروحتها لإبعاد البعوض المتجمع حول رداثها.

قالت:

- آه! كم أنا سعيدة! الآن سيهنأ الفتى بحياته. أليس كذلك؟
عند ذلك، هنا جميع الحاضرين كيواكي.

مع ذلك، ساورته رهبة مالم يعرف كنهها، فلم يستطع حمل نفسه على التطلع إلى البدر نفسه في كبد السماء، أصل الصورة التي ارتسمت على صقال الماء، وإنما واصل التحديق في الحوض، وفي الماء الذي يحتويه بجوانبه، المقدسة، انعكاس ذاته الداخلية، الذي غاص القمر فيه عميقاً، كأنه قوقعة ذهبية. ذلك أنه في تلك اللحظة أمسك بما هو سهاوي، تألق كأنه فراشة ذهبية وقعت في شرك روجه.

راح يحدث نفسه متسائلاً: مع ذلك، هل هذه الشراك دقيقة بما فيه الكفاية لاحتجاز السهاوي؟ ولئن وقعت الفراشة في الفخ ألا تنزل بسرعة وتحلق إلى البعيد؟ كان حتى في الخامسة عشرة من عمره لا يزال يخشى فقدانها. لقد تشكلت شخصيته بالفعل، ومن شأن كل فوز يحزره أن يجلب هذا الخوف في أعقابه. بعد أن فاز بالقمر، إلى أي حد سيخشى الحياة في عالم تجرد من هذا القمر؟ يا لبطش القهر الذي يمارسه هذا الخوف! حتى هذا البدر لم يثر إلا الكراهية في أعماقه.

من المحتم أن نظام الدنيا سيختل ، حتى في تفاهة غياب ورقة واحدة من مجموعة أوراق لعب رابحة. وبالنسبة لشخص مثل كيواكي، يأخذ أدنى عدم اتساق أبعاد ساعة حرمت من دولاب مسنن. انهار نظام كونه، وألقى نفسه واقعاً في شرك عماء مفزع. وبالنسبة له تتخذ ورقة اللعب الضائعة، التي لا قيمة لها في حد ذاتها، أهمية تاج ينغمس المتنافسون عليه في صراع من شأنه أن يلقي بالعالم في وهدة أزمة طاحنة. هكذا، فإن حساسيته كانت تحت رحمة كل واقعة يحجبها الغيب، مهما كانت محدوديتها، ومهما كانت لديه دفاعات يعتصم بها.

فيما حملته أفكاره، عائدة به إلى حفل الأوتاتشيساتشي الطقوسي، الذي أقيم له في ليلة السابع عشر من أغسطس تلك، قبل ثلاث سنوات، أخذته الرعدة، فجأة، مع إدراكه أن ساتوكو قد هيمنت بشكل ما على أفكاره.

في تلك اللحظة، ولعظيم شعور كيواكي بالارتياح، دخل كبير الخدم، مرتدياً هاكامة الفاترة، التي تحدث حقيقاً نابعاً من حرير سنداي ليعلن أن طعام العشاء معدّ. فمضى كيواكي وأبواه إلى غرفة المائدة، ليجلس كل منهم أمام مكان زود بصحاف خزفية، انجليزية، بديةة، زخرفت بشعار العائلة. ومنذ طفولة كيواكي اضطر إلى تحمل الضجر الذي تثيره في نفسه دروس أبيه في آداب المائدة الغربية. وإذا صح القول، فإن أمه لم تألف الطريقة الغربية في تناول الطعام قط، فيما واصل أبوه التصرف بعناد رجل حريص على أن يبدو بالخارج كما لو كان في داره، وهكذا كان الوحيد الذي تناول طعامه بشكل طبيعي، ودونما توتر.

عندما أقبلت صحاف الحساء، لم تضع أمه وقتاً في طرح موضوع جديد للحديث، بصوتها الهادئ.

- حقاً، يمكن لساتوكو أن تثقل على الأعصاب، فلم أكتشف إلا صباح

اليوم أن آل أياكورا بعثوا برسول يحمل رفضها، ولبعض الوقت أعطت الجميع الانطباع بأنها قررت القبول.

ردُّ أبوه، قائلاً:

- إنها في العشرين. أليس كذلك؟ وإذا واصلت التشدد على هذا النحو، فقد تجدد نفسها وقد أصبحت من العوانس. لقد هممني أمرها بدوري، ولكن ما الذي أستطيع القيام به؟

أرهف كيواكي السمع، فيها واصل أبوه الحديث بلا مبالاة:

- ترى ما الذي دهاها؟ أم ترى أن أهلها يعتقدون أنه أقل مرتبة منها بأكثر مما ينبغي؟ أياً كان المدى الذي بلغته عائلة أياكورا في مدارج النبالة ذات يوم، فإن وضعها الحالي لا يسمح لها برفض شاب، مثل ذلك الشاب، ينتظره مستقبل باهر في وزارة الداخلية. كان ينبغي للعائلة أن تسعد به، دوغما اكتراث بالعائلة التي ينتمي إليها. أليس كذلك؟

- هذا، بالضبط، شعوري، حيال الأمر. وذلك هو السبب في أنني لا أميل إلى القيام بالمزيد من الجهد لمساعدة الفتاة.

- طيب، إننا ندين لأهلها بالكثير، نظراً لما قاموا به حيال كيواكي. وأحس بأنني ملتزم بالقيام بكل ما في وسعي لمساعدتهم على استرداد مكانة العائلة من جديد. ولكن ما الذي نستطيع القيام به للعثور على خطيب تقبل به زوجاً؟

- ترى هل لمثل هذا الرجل وجود؟

فيا راح كيواكي يصغي لهذا الحديث ارتفعت معنوياته. لقد حُل اللغز الذي كان يواجهه. سألته ساتوكو: «كيو، ماعساك تفعل إن لم يعد لي وجود هاهنا بعد الآن؟». كانت تشير إلى الخطبة التي تفكر في موقف تتخذه منها وقتذاك. وفي حينه كانت تميل إلى القبول، وطرحت إيماءتها حرصاً على

تلمس رد فعل كيواكي . أما الآن ، وبعد عشرة أيام ، فبين مما قالت أمه أنها قد رفضت الخطبة رسمياً . وبدا السبب الذي حدا بها لذلك جلياً بالنسبة له ؛ فقد قامت بذلك لأنها تهواه .

وبالوصول إلى ذلك ، انجابت السحب عن أفقه ، ولم تعد ضروب القلق تحكم قبضتها عليه . مرة أخرى ، غدا الماء في القدر صافياً . طوال عشرة أيام ، عزل عن الملاذ الصغير الآمن ، الذي كان ملجأه الوحيد . أما الآن فبمقدوره العودة إليه ، وأن يتنفس الصعداء .

انغمس في التمتع بلحظة نادرة من السعادة الغامرة ، سعادة نبعت ، دوغما شك ، من استعادته لوضوح رؤيته . لقد عاودت ورقة اللعب ، التي حجبت عمداً ، الظهور في يده ، واكتملت مجموعة الأوراق الراحبة . وهكذا ، غدت من جديد مجرد مجموعة من أوراق اللعب . تألقت سعادته جلية ، لا تشوبها شائبة . وللحظة ، على الأقل ، نجح في تحطيم قبضة عواطفه .

غير أن الأمير والأميرة كانا لا يزالان يتبادلان النظر ، عبر المائدة ، أحدهما إلى الآخر ، وقد حجب افتقارهما إلى الحساسية عنهما شيئاً بالغ الوضوح ، كدفع السعادة الذي حل بساحة ابنهما . واجه الأمير التجهم التقليدي لمحيّا زوجته ، وبدورها جابهت غلظ ملاعقه وخشونتها . وقد بهتت الملامح التي تناسب رجل الحركة والعمل جراء تصاريف حياة الانغماس في الملذات ، التي تركت أثرها تحت جلده .

على الرغم من المسار ، الذي يبدو عشوائياً ، الذي يشقه حوار والدي كيواكي ، إلا أنه كان على الدوام يدرك ذلك الالتزام بطقس ثابت لا يتغير ، كان محمداً كأنه الحفل الطقوسي ، الشتوي ، الخاص برفع مقدمة للأرباب ، هي غصن من أغصان شجرة الساكاكي ، الحفل الذي يؤدي فيه كل مقطع من مقاطع الترانيم بتدقيق بالغ ، ويتم اختيار كل غصن متآلق بعناية .

راقب كيواكي هذا الطقس، مرات لا حصر لها، منذ طفولته الباكرة. لا أزمات متوهجة. لا عواصف من الانفعال. كانت أمه تعرف، على وجه الدقة، الخطوة التالية. وكان الأمير يعرف أن زوجته تعرف. وبتعبيرات لا تشي بشيء على الملامح، وإنما توحى بالبراءة من المعرفة المسبقة، كانا ينزلقان مع التيار، كأنهما تويجتان تعانقتا على سطح مياه صافية، تعكس سماء زرقاء وسحباً خفيفة ليصلا إلى الانزلاق الحتمي، عبر قمة الشلال.

وعلى نحو ما هو متوقع تماماً، ترك الأمير قهوة ما بعد الغداء، دون أن يتمها، والتقت إلى ابنه:

- الآن، يا كيواكي، ما قولك في مباراة بليارد؟
قالت الأميرة:
- طيب، إذن، اسمح لي بالانصراف، لطفاً!

غير أن كيواكي كان سعيداً الليلة للغاية، حتى أن هذا الضرب من التمثيليات التحزيرية لم يثر ضيقه بحال. عادت أمه إلى الدار الرئيسية، ومضى مع أبيه إلى قاعة البليارد، وكان الزوار يعجبون أشد الإعجاب بهذه الغرفة، بأسلوبها الانجليزي في التكسية بخشب البلوط، وصورتها التي تمثل جد كيواكي، وخريطتها الممتدة المنقذة بالألوان الزيتية، الموقعة عليها المعارك الحربية للحرب اليابانية - الروسية. وقد قام أحد تلاميذ سيرجون ميليز، الذي اشتهر بالصورة الشخصية التي رسمها لجلادستون، برسم هذه الصورة، التي تحمل شبيهاً كبيراً لجدّه، وذلك خلال إقامته في اليابان. والآن بدا شخص جده متشاعخاً، وقد اتشح برداء احتفالي من الظلال.

كان تكوين اللوحة بسيطاً، لكن الفنان أظهر درجة رفيعة من المهارة، في مزجه الحكيم بين إضفاء الطابع المثالي والوقار الواقعي ليرسم صورة شخصية، لا تعبر فقط عن المناخ الذي لا يقهر المتوقع أن يحيط بأحد نبلاء

عصر الاصلاح، وإنما كذلك تلك السمات، التي يغلب عليها الطابع الشخصي، والأثرة لدى عائلته، وصولاً إلى الشائيل التي تملو خده. وبحسب العرف الجاري في الدار، فحينما تقبل خادمة جديدة للدارة، من منطقة كاجوشيا بالأقاليم، التي تنتمي إليها العائلة، يمضي بها لتمثل أمام اللوحة، لكي تظهر التوقير والإجلال لشخص صاحبها. وقبيل موت جده بسويغات قلائل، وعلى الرغم من خلو قاعة البليارد، وما كان من المحتمل أن يخط اللوحة غداً بالياً إلى هذا الحد، فقد هوت اللوحة إلى الأرض بصوت مدو، تردد صدها في الدار بأسرها.

اشتملت القاعة على ثلاثة طاولات بليارد، مكسوة بطبقات من الرخام الإيطالي. وعلى الرغم من أن اللعبة ثلاثية الكرات أدخلت في زمن الحرب مع الصين، فلم يلعبها أحد قط في قاعة بليارد آل ماتسوجاي. واستخدم كيواكي وأبوه أربع كرات، ووضع كبير الخدم الكرات البيضاء والحمراء على الطاولة، بالترتيب الصحيح، وسلم عصا بليارد لكل منهما. أطل كيواكي على سطح الطاولة، فيما هو يفرك طرف عصاته بالطباشير الإيطالي المصنوع من الرماد البركاني المسحوق. قبع الكرات العاجية الحمراء والبيضاء ساكنة على النسيج الأخضر، وكل منها تلقى ظلاً دائرياً كمحار يقوم بغزو متردد للعراء، فلم تثر فيه أدنى قدر من الاكتراث. خالجه شعور بأنه يقف وحيداً، في شارع مجهول، في سمت النهار، وفجأة يجد نفسه وجهاً لوجه مع هذه الأشكال الغريبة، المجردة من كل المعاني.

كان الأمير يستشعر على الدوام ضيقاً حيال الضجر، الذي يرتسم على محيا ولده الوسيم. وعلى الرغم من شعور كيواكي بالسعادة الليلة، فقد ارتسمت الكتابة في مقلتيه. قال أبوه لفتح مجال الحوار:

- أتعلم أن أميرين سيامين سيصلان إلى اليابان لتلقي العلم في مدرسة النبلاء؟

- كلا .

- بما أنها سيلتحقان بصفك الدراسي ، قد نستضيفها هنا لعدة أيام .

وقد ذكرت ذلك في وزارة الخارجية . إن سيام بلاد خطت خطوات عملاقة ، مؤخراً ، فقد ألغى أهلها الرق ، وهم يمدون السكك الحديدية ، وما إلى ذلك . ضع ذلك في ذهنك لدى تعاملك معها !

أعدّ أبوه لضربته ، ووقف كيواكي خلفه ، وراح يرقبه ، فيما هو يتحفز ، مثل فهد بدين يعجم عصاه في استعراض لضراوته ، فلم يستطع كبح جماح ابتسامة علت شفثيه . اختلطت في ذهنه سعادته بصورة بلاد استوائية غامضة مع قرقة ناعمة تجتذبه مثل تلامس الكرات العاجية الحمراء والصفراء على الطاولة . وعندئذ اتخذ ابتهاجه ، الذي كان صافياً كالبلّور النقي ، شكل الوفرة الخضراء للأدغال الاستوائية .

كان الأمير خبيراً في البليارد ، ولم يرق كيواكي إلى مستوى النديّة معه قط . وبعد أن أطلق كل منهما الضربات الخمس الأولى ، تحول أبوه فجأة عن الطاولة باقتراح طال توقع كيواكي له :

- أحسب أنني سأتمشى قليلاً . ما رأيك في ذلك ؟

لم يجر كيواكي رداً . وعندئذ طرح أبوه اقتراحاً غير متوقع بالمرة :

- تستطيع المجيء معي حتى البوابة . أليس بمقدورك ذلك ؟ مثلما اعتدت خلال طفولتك .

أخذ كيواكي على غرة ، فحول عينيه السوداوين ، اللامعتين نحو أبيه . على أية حال فقد أحرز الأمير نصراً في مواجهة ابنه بفضل المباغتة .

أفردت لخليلة أبيه إحدى الدور الواقعة خارج البوابة مباشرة . واستأجرت عائلتان أوروبيتان الدارين الآخرين . وكانت لكل دار بوابة خلفية خاصة بها في السور الذي يفصلها عن ضيعة ماتسوجاي . أما البوابة

الوحيدة التي أوصدت بقفل علاه الصدا فقد كانت البوابة الواقعة خلف دار الخليفة.

فصل نصف ميل الباب الأمامي للدائرة الرئيسية عن البوابة الأمامية. وعندما كان كيواكي طفلاً، اعتاد أبوه أن يمضي معه، يبدأ بيد، حتى البوابة، في طريقه إلى دار خليلته. وهنالك يفترقان، فيرجع خادم بكيواكي أدراجه.

عندما يخرج أبوه في عمل، كان يستقل في كل الأحوال العربية، أما حينها يغادر الدار مترجلاً، فإن مقصده يبدو جلياً للجميع. وكانت مرافقته لأبيه في هذه الظروف مؤلة له دوماً. وبينما استحثه غريزة ساذجة، تنتمي إلى عالم الطفولة، على إرجاع أبيه، لأجل خاطر أمه، فإن إدراك عجزه أثار فيه شعوراً مريئاً بالإحباط. ولم تكن أمه، بالطبع، مسرورة بمصاحبة لزوجها في هذه التزهات الليلية. ولكن كلما أبدت ضيقها بها زاد إصرار زوجها على مصاحبة كيواكي يبدأ بيد فيها. وسرعان ما أدرك كيواكي رغبة أبيه الخفية في جعله ضالماً معه في خيانة أمه.

غير أن هذه التزهة، في ليلة باردة من ليالي نوفمبر، كانت شيئاً جديداً تماماً. وفيما كان أبوه يرتدي المعطف، الذي قدمه له كبير الخدم، غادر كيواكي قاعة البليارد ليجلب المعطف الخاص بزيه المدرسي، ذي الإزرار المعدنية، الذي يرتديه في المدرسة. وكالمعتاد، كان كبير الخدم ينتظر عند الباب بالهدية المألوفة، التي غُلِّفت بنسيج قرمزي، ثم تبع سيده على المسافة التقليدية، وهي عشر خطوات.

لاح البدر متألقاً، ومضت الريح تنزف بين أغصان الأشجار. ورغم أن والده لم يكتث بالقاء نظرة إلى الخلف على شبح يامادا، قيّم الدار، الذي يحاكي طيف نذير، فإن كيواكي كان من القلق بحيث ألقى أكثر من نظرة

وراءه. ودون أن يكثرث بإضافة شيء إلى الهاكاما التي يرتديها يتجاوز الحرملة، سار يامادا خلفها، متأرجحاً قليلاً في مشيته، على ساقيه غير الثابتين، ويده اللتان دسهما في قفازين أبيضين كما هو الحال دائماً، ممسكاً بالهدية في غلافها القرمزي، كما لو كانت مهداً يحمله. لمعت عويناته ببريق جليدي تحت سنا البدر. عجب كيواكي من هذا الرجل، الذي يعلو ولاؤه على الشك، ولا يسمح لشيء على وجه التقريب بأن يتجاوز شفتيه. كم من العواطف قبعت مهذرة داخل بدنه كأنها نوايض مشتبكة علاها الصدا؟ خلافاً للأمير المرح الانبساطي، كان ولده المتحفظ، ذو المظهر اللامبالي، قادراً على سبر غور شعور الآخرين.

ذُكر نعيم اليوم وزفيف الريح كيواكي، الذي واصل التوهج بتأثير النيذ، بالفروع، التي لفحتها الريح، في الصورة التذكارية للجنود. وفيما هما يخوضان في الليل الشتوي الجهم، راح أبوه يتلهف على الدفء الرطب، التابع من حمية البدن الوردي، الذي ينتظره، بينما كانت خواطر ابنه تحوم حول الموت.

فيما مضى الأمير يغذ السير، متشياً بما احتسأه، وراح ينثر الحصا بطرف عصا السير، التي يستعين بها، التفت فجأة إلى كيواكي:

- لست ممن يؤثرون قضاء وقت طيب. أنت منهم؟ ليس بمقدوري أن أحدثك كم من النساء نلت عندما كنت في مثل عمرك. أعزني انتباهك! ماذا لو أنني صحبتك معي في المرة المقبلة؟ سأرتب وجود العديد من فتيات الجيشا هناك، ومقدورك، ولو مرة، أن تستمتع بوقتك. وأحضر معك بعض الأصدقاء من المدرسة، إن أردت.

- كلا، شكراً لك.

أخذت الرعدة كيواكي، فيما هو يقول ذلك، دوغماً تفكير. أحس بقدميه

وقد التصقتا، فجأة، بالأرض. حيال هذه الملاحظة من أبيه، تبذرت
نشوته، متهشمة، كأنها مزهرية، ارتطمت بالأرض.

- ماذا دهاك؟

- أسمع لي بالانصراف رجاء؟ طابت ليلتك.

انقلب كيواكي على عقبه، ومضى في طريق العودة مسرعاً، ماراً
بالمدخل الخافت الإضاءة للدار الغربية، باتجاه المقر الرئيسي، الذي كانت
أنواره البعيدة تلتهم خافتة عبر الأشجار.

جافى النوم كيواكي في تلك الليلة. لكن ما أقص مضجعه لم يكن
خواطر عن أبيه أو أمه، بل الأمر على العكس، فقد غرق في التفكير في
الانتقام لنفسه من ساتوكو. راح يحدث نفسه:

- كانت من القسوة بحيث استدرجتني إلى ذلك الفخاخ. وتركتني أعاني
طوال عشرة أيام. لم يكن في ذهنها إلا أمر واحد: أن تلقي بي في عذاب
المعاناة والعذاب. ليس بمقدوري تركها تفلت بهذا. ولكني لست بالند لها،
إذا ما تعلق الأمر بابتكار سبل تعذيب الناس. ما الذي يمكنني عمله؟ ما
هو أفضل شيء لإقناعها بأنني لا أكنُ احتراماً لكرامة الأنثى يفوق ما يكنه
أبي لها. لو أني كان بمقدوري أن أقول أو أكتب لها شيئاً بالغ الجرأة يوجه لها
طعنة نجلاء. ولكن مشكلتي هي أنني في الجانب المرجوح الكفة؛ لأنني
لست من الجرأة بحيث أعلم الآخرين صراحة بشعوري نحوهم على
حقيقته. لن يكون أمراً كافياً أن أبلغها بأنها لا تثير في أدنى اهتمام، فذلك
من شأنه أن يترك لها مجالاً واسعاً للمناورة. يتعين عليّ أن أهينها، ينبغي
عليّ إذلالها بصورة كاملة حتى لا تعود إليّ بالمرة أبداً للمزيد من
المساجلات. ذلك هو ما يتعين عليّ القيام به. وللمرة الأولى في حياتها
سأجعلها تحسّ بالأسف لما أقدمت عليه.

ورغم هذا كله، فقد كانت قرارات كيواكي واهنة. ولم تخطر على باله بعد خطة محددة يتبعها.

تدلى على كل من جانبي فراشه زوج من الستائر الثلاثة الطيات، وقد زركش كل منها بقصائد لهان شان. وعند أقصى أطراف الفراش أكل ببغاء محفور في الشب من مجثمه على الرف المصنوع من خشب الصندل. ولم يكن كيواكي يكثر كثيراً بأي شيء، ينتمي لما هو رائج الآن في عالم الصرعات كأعمال رودان أو سيزان. فقد غلب الطابع المحافظ على ذوقه. راح، مسهداً، يحذق في الببغاء. بدا له أن جميع تفاصيل يشبه الأخضر، وصولاً إلى الحفر الدقيق لريش الجناح، تتوهج بمزيد من الوضوح. وعلى هذا النحو، بدا شبح الطائر وكأنه يخلق متلاشياً في الظلام، صورة طيفية أفعمت نفس كيواكي بعدم الارتياح. أدرك أن هذه الظاهرة سببها شعاع تائه من سنا البدر، انسلّ عبر النافذة، ففتح الستار بجذبة واحدة على آخره في حركة مفاجئة. كان البدر في كبد السماء، ونوره ينسكب على الفراش.

كان البدر متألّقاً بما فيه الكفاية ليوحى بالعبث بدلاً من الجلال. راح كيواكي يفكر في كيمونو ساتوكو الحريري، المتألق، الفاتر. وبجلاء غير أرضي، رأى عينيها هنالك في البدر، هاتين العينين النجلاوين، البديعتين، اللتين رأهما قريبتين على نحو مشير للقلق من عينيه. كانت الريح قد سكنت.

ما كان يمكن تفسير حرارة جسم كيواكي المتقدة بمجرد الدفء الذي شاع في الغرفة، وبدا أن شيئاً كالحمى يصطرع في شحمتي أذنيه. نحى عنه الغطاء، وفتح ياقة منامته. كانت النار لا تزال تنقد وتهتاج تحت جلده. وأحس بأنه لن يعرف للراحة طعماً إلا بخلع منامته وتعريض جسمه لسنا البدر البارد. وفي نهاية المطاف، تقلب، وقد أنهكته خواطره، على بطنه، وورقد

دافئاً وجهه في وسادته، مستدبراً البدر والدم الساخن لا يزال يتدفق نابضاً عند صدغيه .

وعلى هذا النحور قد، وسنا البدر يحمم البياض الناعم، الذي لا نظير له، لظهره، وبريقه يحدد الخطوط الرشيقة لجسمه ليكشف عن الإيماء المراوغة والشاملة، مع ذلك، إلى الذكورة الصلبة، التي جعلته من الواضح أن هذا اللحم ليس لإمرأة، وإنما هو لشاب لما يكتمل نضجه بعد .

سطع البدر بالقي يأخذ بالألباب، على جانب كيواكي الأيسر، حيث تردد النبض بنعومة في لحمه الشاحب، متناغماً مع وجيب قلبه . وهاهنا كانت ثلاث شامات صغيرة لا تكاد تبين . وكما أن أنجم حزام الشرق الثلاث تشحب في ضوء القمر القوي، فكذلك أوشكت أشعته أن تمحو هذه الشامات الثلاث .

في عام ١٩١٠، خلف جلالة الملك راما السادس أباه الراحل، الملك راما الخامس على عرش سيام. وكان الأمير باتاناديد، الملقب ببرونج تشاو، أحد الأميرين القادمين للدراسة في اليابان، هو أخوه الأصغر. أما رفيقه، الذي كان مثله، في الثامنة عشرة من العمر، وخير أصدقائه، فهو ابن عمه الأمير كريد سادا، حفيد الملك راما الرابع، الملقب بمون تشاو. وكان الأمير باتاناديد يطلق عليه، تحبباً، اسم «كري»، لكن الأمير كريد سادا كان، مراعاة لمرتبة باتاناديد في استحقاق العرش، يخاطبه على نحو أكثر توقيراً بـ «تشاوبي».

كان الأميران كلاهما بوذيين ورعين، متحمسين لما يعتقدانه، لكنهما ما كانا يرتديان ملابس كملايس السادة النبلاء من الانجليز في غالب الأوقات فحسب، وإنما يتحدثان الانجليزية بطلاقة تامة كذلك. ومن جراء خوف العاهل الجديد من انغماسهما في النزعة الغربية، بأكثر مما ينبغي، قرر إرسالهما إلى اليابان لتلقي دراستهما الجامعية. ولم يثر أي منها اعتراضاً، على الرغم من أن أحد جوانب الأمر كان جالباً لسوء الحظ، فقد اقتضت مغادرة سيام فصل تشاوبي عن أخت كري الصغير.

شكّل حب هذين الشابين أحدهما للآخر مصدر ابتهاج للبلاط، حيث كانت خطبتهما، لدى انتهاء تشاوبي من دراسته، أمراً مسلماً به، وكان مستقبلهما آمناً من كل الوجوه. غير أن تشاوبي، عندما انطلق مبحراً استبد

به الحزن إلى حد أثار الانزعاج في بلاد لا تحبذ أعرافها مثل هذه التعبيرات الصريحة والمباشرة عن المشاعر.

ساعدت الرحلة البحرية وتعاطف ابن عمه تشاوي، بصورة ملحوظة، على التخفيف من الأسى الذي حل به، وعندما وصلا للإقامة لبعض الوقت في دارة ماتسوجاي، ألفى كيواكي محياهما الداكن البشرة يتألق بالسعادة.

أُتيحت للأميرين حرية اتباع النظام الثابت المعمول به في المدرسة، بالطريقة التي تروقهما، حتى بداية عطلة الشتاء. وعلى الرغم من أنه تعين عليهما البدء في الانتظام بصفهما الدراسي في يناير، إلا أنه تقرر ألا يتم إدراجهما رسمياً إلا بعد بداية الفصل الدراسي الجديد في الربيع، حيث يكون قد أُتيح لهما في ذلك الوقت التأقلم مع الظروف الجديدة ودراسة اللغة اليابانية بصورة مكثفة كذلك.

وخلال إقامتهما في دارة ماتسوجاي، شغلا غرفتين متجاورتين من غرف الضيوف، في الطابق الثاني من الدار غربية الطراز، التي زودت بنظام للتدفئة باستخدام البخار تم استيراده من شيكاغو. كان الوقت الممتد من فترة ما قبل تناول طعام العشاء مع أعضاء عائلة ماتسوجاي مجتمعين وحتى بداية الوجبة مريبكاً بالنسبة لكيواكي وضييفه، ولكن عندما يترك الشبان الثلاثة معاً بعد الوجبة، فإن الطابع الرسمي الصارم تخف حدته، حينها يبدأ الأميران في إطلاع كيواكي على صور المعابد الذهبية والمناظر الخلابة لبانوكو. ولاحظ كيواكي أن الأمير كريدسادا ليس أصغر سناً من ابن عمه، ومع ذلك فقد احتفظ بقدر من الثقلب الصياني، ولكنه أحس تعاطفاً حاراً مع الأمير باتاناديد، الذي استشعر فيه طبيعة حاملة، مثل طبيعته.

مثلت إحدى الصور لقطة عامة لمعبد وات - بو الشهير، بتمشاله الهائل

لبوذا المتكىء . وبما أن فنانا بارعاً قام بعملية تلوين دقيقة للصورة، فقد بدا الأمر كما لو أن المعبد مائل أمام عيني المرء . ماست أشجار النخيل في رشاقة، واكتست كل تفاصيل فروعها الملتمة باللون في دقة بالغة في مقابل خلفية قوامها سماء استوائية، شكّل لونها الأزرق النابض بالحياة مفارقة حادة مع البياض الخالص، الذي اكتست به السحب . لم يكن هناك نظير لمباني المعبد، فهي تسلب لب المشاهد بإشراقه مفاجئة، باهرة، من الذهب والأرجوان والبياض . يقف إلهان محاربان، ذهبيان، حارسين عند كل جانب من جانبي البوابة الأرجوانية، المحفوفة خطوطها بالذهب، ويمضي نقش ذهبي، بارز، دقيق التنفيذ، صاعداً عبر جدران المعبد وأعمدته الشهاء، ليشكل نوعاً من الإفريز، عند القمة، ثم يأتي السقف بحشده من القمم، التي اكتسى كل منها بنقش بارز متداخل من الذهب والأرجوان، ومن دار الخزانة، في وسطها، تشمخ القمم المستدقة، المتألقة، التي تعلو البرج الثلاثي، نحو زرقة السماء الباهرة .

ابتهج الأميران بنظرة الإعجاب، غير المتكلفة، التي رمق بها كيواكي الصورة، ثم شرع الأمير باتاناديد في الحديث، وقد لاح الشرود في عينيه النجلاوين، المنكستين، اللتين تناقضت نظرتها الحادة بقوة مع وجهه الناعم المستدير :

- لهذا المعبد خصوصية بالنسبة لي، وخلال الرحلة إلى هاهنا، راودتني غالباً أحلام تدور حوله . بدت أسقفه الذهبية كما لو كانت تطفو خارجة من رحاب البحر، الذي لفه الليل . واصلت السفينة الانطلاق، وحتى في الوقت الذي كان المعبد بأسره لا يزال ظاهراً للعيان، كان بعيداً تماماً عني . بعد أن نهض من الأمواج، راح يتألق تحت النجوم، على نحو ما يتألق سنا الهلال عبر سطح الماء . وقفت على سطح السفينة، وضممت كفي متواجهين، وانحنيت في إجلال نحوه . ومثلما يحدث في الأحلام، وعلى الرغم

من أن الليل أرخى سدوله والمعبد بعيد للغاية، فإنه كان بمقدوري تبين أصغر تفاصيل الزخرفة الذهبية والأرجوانية.

مضى قائلاً:

- حدثت كرى بهذا الحلم، وقلت إن المعبد بدا كما لو كان يتبعنا إلى اليابان، لكنه سخر مني، وقال إن ما يتبعني إلى اليابان ليس المعبد، وإنما ذكرى شيء آخر... وقد أثار غضبي وقتها، لكنني أميل الآن إلى موافقته على ما قال؛ ذلك أن كل ما هو مقدس له جوهر الأحلام والذكريات، وهكذا فإننا نعيش المعجزة المتمثلة في جعل ما فصله عنا الزمان أو المكان يتراءى لنا محسوساً ملموساً على حين غرة. الأحلام، والذكريات، والمقدس، كل ذلك يتشابه، في أنه لا تطاله قبضتنا. وما أن يتم فصلنا، حتى ولو على نحو هامشي، مع ما يمكننا لمسه، فإن هذا الشيء يكتسب قداسة، ويتحقق له بها ما لا تطاله اليد، وهو سمة الأمر المعجز والعجائبي. حقاً إن لكل شيء طابع القداسة هذا، ولكننا يمكننا تدنيسه بلمسة واحدة. ما أعجب الإنسان! إن لمسته تدنس، ومع ذلك فهو يضم بين جوانحه مصدر المعجزات.

قال الأمير كريدسادا، مقاطعاً:

- من المؤكد أنه يعبر عن الأمر بطريقة صعبة، وملتفة، ولكن ما يفكر فيه حقاً هي الفتاة التي يهاها في بانكوك. اطلع كيواكي على صورتها ياتشاي!

تضرج وجه الأمير باناتاديد بالحمرة، لكن بشرته الداكنة أخفت اندفاع الدم إلى خديه. ولدى ملاحظة كيواكي لعدم ارتياح ضيفه، حوّل دفة الحديث، عائداً إلى الموضوع السابق.

تساءل:

- هل تراودك كثيراً أحلام على هذا النحو؟ إنني احتفظ بسجل يومي لأحلامي.

تألفت عينا تشاوي. مفصحتين عن اهتمامه، وهو يرد قائلاً:

- أود لو كانت لغتي اليابانية جيدة بما يسمح لي بقراءة هذا السجل.

أدرك كيواكي أنه على الرغم من اضطراره للحديث باللغة الانجليزية، إلا أنه نجح لتوه في أن ينقل لتشاوي افتتانه بالأحلام، وهو شيء لم يجرؤ على الإفشاء به حتى لهوندا. وشعر بأنه يميل أكثر فأكثر إلى تشاوي. غير أنه منذ تلك اللحظة فصاعداً تعثر الحوار، ولاحظ كيواكي التآلق العائب في مقلتي الأمير كريدسادا، فأدرك الصعوبة التي اعترضت مجرى الحديث، فهو لم يصرّ على رؤية الصورة، وهو ما أراده تشاوي أن يفعله.

سارع إلى السؤال:

- أرجو أن تطلعي على صورة الحلم الذي تبعك من سيام إلى هنا!

- أتعني المعبد أم الفتاة؟

قالتا كريدسادا متدخلاً، على نحو عائب، كعادته أبداً، وعلى الرغم من أن تشاوي وبّخه على سلوكه العائب، المتقلب، إلا أنه لم يقلع عما درج عليه. وعندما أخرج ابن عمه الصورة في نهاية المطاف، مدّ يده في حرص، ليقول:

- الأميرة تشانترابا هي أختي الصغرى، واسمها يعني «سنا البدر»، لكننا عادة ندعوها بينج تشان.

نظر كيواكي إلى الصورة، فشعر بخيبة أمل بالغة؛ حيث شاهد فتاة أكثر عادية بكثير مما كان قد تخيل. كانت ترتدي ملابس غريبة، هي رداء أبيض مزركش، وقد عقدت شعرها بشريط أبيض، وتحلت بعقد من اللائى، بدت متواضعة، بسيطة. وربما كان أي طالب في مدرسة النبلاء يحمل صورة فتاة مثلها. وأظهر التهذل الجميل، الموجّ لشعرها على كتفيها مؤشرات الرعاية، التي تلقاها. ولكن الحاجبين البالغين القوة كانا يمتدان

عريضين، فوق عينين نجلاوين، خفرتين، والشفتان انفرجتا قليلاً، كأنهما بتلات زهرة رائعة، قبل أن تربّ بالندى. وأعطت ملاحمها، في مجملها، انطباعاً، لا تحطئه العين، بالبراءة الصبيانية، التي لا تعمي حسنهما، وبالطبع فإن ذلك له جاذبية، لكنها تشبه إلى حد كبير فرخاً جائئاً في وكنته، غافلاً عن قدرته على الطيران، فبدت مغتبطة على نحو بالغ السلبية.

حدّث كيواكي نفسه قائلاً: «إذا قورنت ساتوكو بهذه الفتاة، فإنها ستبدو أكثر أنوثة بمائة مرة، بل بألف مرة. أليس هذا هو السبب في أنها تبدو مقبّنة بالنسبة لي، لأنها تبدو مغرقة في الأنوثة؟ فضلاً عن ذلك، فإنها أجمل كثيراً من هذه الفتاة، وهي تعرف مدى جمالها. وليس هناك شيء لا تحيط به علماً، لسوء الطالع، بما في ذلك مدى افتقاري للنضج».

لما رأى تشاوي مدى استغراق كيواكي في التحديق في صورة الفتاة التي يهوي، وربما لشعوره بالانزعاج قليلاً، حول إمكانية انجذابه لها بأكثر مما ينبغي، مدّ فجأة يده الكهربائية البشرة، البديعة التكوين، واسترد الصورة. وفيما هو يقوم بذلك، اجتذب نظر كيواكي وميض أخضر، ولاحظ للمرة الأولى خاتم تشاوي الجميل. كانت جوهرته زمردة كبيرة، مصقولة بشكل رباعي. وعلى كل من جانبي الخاتم حُفرت الرؤوس الوحشية لزوج من «الياكشا»، أو الآلهة المحاربين، على نحو بديع في قلب الذهب. وإجمالاً كان خاتماً كبير الحجم، عظيم القيمة، بحيث أن عدم ملاحظة كيواكي له حتى الآن جاء برهاناً على محدودية ميله إلى ملاحظة الآخرين.

أوضح الأمير باتاناديد، وقد لقّه قليل من الحرج، مجدداً:
- ولدت في شهر مايو. إنها جوهره مولدي، وقد أعطتني نينج تشان هدية وداع.

حدّره كيواكي، قائلاً:

- لكنك إن تحليت بشيء ثمين كهذا، في مدرسة النبلاء، فلنني أخشى أنهم سيأمرونك بالكف عن هذا.

انزعج الأميران، حيال هذا الأمر، فشرعا يتداولان فيه، بحدة، بلغتهما الوطنية، لكنهما سرعان ما أدركا عدم لياقة سلوكهما، فعادا للحديث بالانجليزية؛ ليتابعهما كيواكي. حدثهما الأخير بأنه سيبلغ أباه بضرورة إجراء الترتيبات التي تكفل لهما الحصول على خزانة اللودائع في المصرف. وبعد تسوية الأمر، واكتساب المناخ بينهم للمزيد من الدفء، أبرز الأمير كريسدا صورة صغيرة لحبيبته، ثم استحث الأميران معاً كيواكي على إخراج صورة حبيبته بدوره.

قال كيواكي مسرعاً، وقد استخفّه غرور الشباب :

- إننا في اليابان لسنا معتادين على تبادل الصور، ولكنني بالتأكيد سأعرفكما بها، في القريب العاجل.

لم تواته الشجاعة لإطلاعهما على صور ساتوكو، التي يحفل بها دفتر الصور، الذي احتفظ به منذ طفولته الباكّة.

أدرك، فجأة، أنه على الرغم من أن مظهره الوسيم قوبل بالإشادة طوال عمره، إلا أنه بلغ الثامنة عشرة تقريباً في التضاعيف الكثيرة لضبيعة عائلته، دون أن تكون له صديقة واحدة، باستثناء ساتوكو.

وكانت ساتوكو تحمل طابع العداء، الذي يسم أي شيء آخر، فهي أبعد ما تكون عن المثل الأعلى للأنوثة والرقّة وتجسيد العاطفة، الذي كان حرياً بالأميرين أن يعجبوا به، فأحس بأن غضبه يتصاعد، في مواجهة الاحباطات العديدة التي تطوقه. وما قاله له أبوه الذي رنّحه السكر قليلاً، خلال تلك «النزهة الليلية»، وعلى الرغم من أن نغمة صوته كانت بالغة الرقة، بدا الآن، إذ يعي النظر فيه، متضمناً سخرية مقنعة.

فجأة، اكتسبت الأشياء عينها، التي جعله شعوره بالكبرياء يتجاهلها، حتى الآن، قدرة على إذلاله. بدا كله شيء يتعلق بهذين الأميرين المترعين بالحيوية، القادمين من المناطق الاستوائية - بشرتهما البنية، الرجولة المتدفقة من مقلتيهما، أصابعهما الكهربائية، الطويلة، الرشيقة، التي بدا أنها مخضومة فيما يتعلق بالملاحظات - كل ذلك بدا أنه يؤنخ كيواكي في سخرية: «ماذا؟ في مثل سنك هذا ولم تعشق مرة واحدة؟».

وإذ أحس كيواكي بأن رباطة جأشه تتبخر، سارع بما بقي له من احتياطي التحفظ وبراعة الحديث إلى القول: «سأعرفكما بها في القريب العاجل. ولكن كيف له أن يتدبر الأمور؟ كيف يستطيع استعراض جمال ساتوكو أمام صديقيه الأجبيين؟ ذلك أنه بالأمس فحسب، وبعد تردد طويل بعث، في نهاية المطاف، برسالة تكيل أشد الإهانات لساتوكو.

كانت كل عبارة في تلك الرسالة، وهي رسالة عكف على صياغة الإهانات الواردة بها مراراً وتكراراً، بأقصى قدر ممكن من العناية، لا تزال تتوهج في ذهنه. فقد بدأ بكتابة: «يؤسفني للغاية أن أقول إن وقاحتك حيالي ترغمني على تسطير هذه الرسالة». وانطلق من هذا الاستهلال اللفظ:

«عندما أفكر في المرات العديدة، التي طرحت فيها عليّ هذه الأحجيات العبيثة، حاجبة عني أطراف خيوط الحقيقة، لجعل الأحجيات تبدو أكثر جدية مما هي عليه حقاً، يسيطر الخدر على يدي هذه، التي تحمل فرشاة الكتابة، حتى لتكاد تشلني. وليس لدي شك في أن نزواتك العاطفية قد دفعتك للقيام بذلك حيالي. لم تكن هناك أية رقة في أسلوبك، ومن الجلي ألا عاطفة هنالك، ولا حتى ظل من صداقة. هناك بواعث عميقة تكمن في قرار سلوكك المستهجن، عميت عيناك عنها، لكنها تدفلك دفعاً إلى هدف بالغ الوضوح. لكن الأدب يحول بيني وبين الاسترسال.

غير أنّ كل جهودك ومراميك غدت الآن زبدًا على سطح الأمواج؛ ذلك أنني على الرغم من أنني كنت تعيشاً، ذات يوم، فقد تجاوزت الآن أحد المعالم على طريق الحياة، وهو انتقال أحس أنني مدين لك ببعض العرفان عنه، مهما كان ذلك على نحو غير مباشر؛ إذ دعاني والذي للذهاب معه في إحدى جولاته، في حي القصف والمرح، والآن ها قد عبرت الحاجز، الذي لا بد لكل رجل من أن يجتازه، ولكي أعبر عن الأمر صراحة أقول إنني أمضيت الليلة مع إحدى فتيات الجيشا، اختارها لي أبي. وما كانت إلا واحدة من تلك التجارب في عالم اللهو، التي يقصرها المجتمع على الرجال وحدهم.

ومن حسن الحظ أن ليلة واحدة كانت كافية لإحداث تغيير كامل في نفسي، فتبددت مفاهيمي السابقة عن المرأة، وتعلمت أن أنظر إلى الفتاة باعتبارها لا تعدو أن تكون مجرد حيوان صغير، لحيم، داعر، رفيقة عبث، جديرة بالازدراء. هذا هو الاكتشاف العجيب، الذي يمكن الوصول إليه، في مجتمع من نوعية مجتمع أبي. وبعد أن كنت لا أتعاطف، حتى تلك الليلة، مع موقفه من النساء فإنني الآن أساند هذا الموقف تماماً، وكل نسيج من أنسجة جسمي يحدثني بأني سر أبي.

وربما تشعرين الآن بأنني ينبغي تهنيتي، على أنني تجاوزت أخيراً الآراء الميتة العتيقة لعهد ميجي، لأتمسك بآراء أكثر استنارة. وربما تبسمين بازرداء، مدركة أن اشتهائي للنساء المأجورات لن يؤدي إلا إلى زيادة تقديري للنساء النقيات من أمثالك. كلا! دعيني أفند لك تماماً مثل هذا المفهوم. فمنذ تلك الليلة (الاستنارة هي ما تقوله على وجه الدقة) اجترت كل هذه المعايير إلى نطاق لا ضوابط فيه، فلا تميز هناك بين فتاة جيشا وأميرة، ولا بين عذراء وعاهر، ولا بين عاملة في مصنع وفنانة. وكل امرأة هي دون استثناء مخلوق كاذب ولا تعدو أن تكون مجرد حيوان صغير، لحيم، داعر، وكل ما بقي هو أثواب وأدوات تجميل. ويتعين علي القول

بأنني أنظر إليك باعتبارك مثل الأخريات جميعاً، على وجه الدقة. أرجو أن تصدقي أن كيو الرقيق، الذي تعتبرينه عذب الروح، شديد البراءة، مطواعاً للغاية، قد مضى إلى غير رجعة».

من المحتم أن الأميرين قد أخذوا، إلى حد ما، حينها حياهما كيواكي تحية المساء، فجأة، وهرع إلى خارج الغرفة، في وقت جد مبكر من المساء، على الرغم من أنه راعى باسم كل المجاملات، المعتادة من رجل مهذب، مثل التأكد من ترتيب فراشيهما بصورة سليمة، والاستفسار عما إذا كانا بحاجة إلى أي شيء آخر، وأخيراً الانسحاب، مؤدياً المراسم المعتادة في التحية.

غمغم كيواكي محدثاً نفسه، فيما هو يهرب مسرعاً، عبر الدهليز الطويل، المفضي إلى الدار الرئيسية، من الدار الغربية: «لم يتفق أنه في أوقات كهذه لا يوجد من يعتمد عليه قط؟». فُكر في هوندا. لكن معاييرهِ الدقيقة والمتشددة، فيما يتعلق بالصدقة، جعلته يستبعد هذا الاحتمال.

مضت الريح الليلية تدمدم عند نوافذ الدهليز، بخطه الممتد إلى البعيد من المصابيح الكابية. خشي، فجأة، أن يراه أحد، ويتساءل عن هربه وتقطع أنفاسه على هذا النحو، فكف عن السير، وفيما هو يريح مرفقيه على إطار النافذة المزخرف، ويتظاهر بالنظر إلى الحديقة، حاول يائساً ترتيب أفكاره. لم يكن من اليسر التحكم في الواقع، خلافاً لما هو عليه الحال بالنسبة للأحلام. كان عليه أن يتدبر أمر خطة، لا سبيل إلى أن تكون شيئاً غامضاً أو بعيداً عن اليقين، وإنما يتعين أن تكون متماسكة مثل حبة الدواء، وأكيدة المفعول مثلها. أثقل على كاهله شعور بضعفه، وبعد دفء الغرفة التي غادرها لتوه جعله الدهليز البارد يرتجف.

ضغط بجبينه على الزجاج الذي قارعته الريح، وحذق من خلاله في الحديقة. لم يكن هناك قمر الليلة، وشكلت الجزيرة وتل القيقب الواقع وراءها كتلة واحدة في قلب الظلام. وكان بمقدوره في الضوء الكاسي

المتسرب من مصابيح الدهليز أن يتبين سطح البحيرة، الذي مؤجته الريح .
تخيل فجأة أن السلاحف النهاشة قرأت أفكاره من قلب الماء، وراحت
تطلع باتجاهه، فأخذته الرجفة حيال هذه الفكرة .

فيما هو يعود إلى الدار الرئيسية، ويوشك أن يرقى الدرج إلى غرفته
صادف معلمه إينوما، وتطلع إليه، ببرود بالغ .

- هل أوى الأميران إلى فراشيها يا سيدي؟
- أجل .

- أيوشك سيدي الشاب على أن يأوي إلى فراشه أيضاً؟
- لدي بعض الدراسات، ينبغي إنجازها .

كان إينوما في الثالثة والعشرين من العمر، وفي العام الدراسي الأخير
من مدرسته الليلية . والحق أنه ربما كان قد عاد لتوه من الصف،
حيث كان يتأبط بعض الكتب . أما كونه شاباً، بل في ريعان شبابه، فلم
يترك على ما يبدو أثراً في نفسه، بخلاف تعميق نظرة الاكتساب المميزة له .
وكان كيانه الضخم المعتم يثير أعصاب كيواكي، ويثقل عليها .

عندما عاد الفتى إلى غرفته، لم يكثرث بإشعال جهاز التدفئة، وإنما شرع
يذرع المكان جيئة وذهاباً، في قلق، طارحاً على نفسه الخطوة بعد الأخرى .

حدث نفسه قائلاً: أيأ كان ما سأفعله، ينبغي عليّ القيام به على وجه
السرعة . ألم يفت الألوان بالفعل؟ بشكل ما، وفي المستقبل القريب للغاية،
ينبغي أن أعرف الأميرين بفتاة على أنها تربطني بها أشد الصلات حميمة،
بينما أرسلت إليها لتوي هذه الرسالة، وفضلاً عن هذا، يتعين عليّ تدبر
الأمر بشكل لا يثير القيل والقال .

كانت الصحيفة المسائية، التي لم يتح له الوقت لقراءتها، ملقاة على
المقعد . ودونما سبب وجيه، التقطها، وفتحها، فلفت نظره إعلان عن

مشرحة كابوكي تقدم على خشبة المسرح الإمبراطوري، وفجأة بدأ قلبه يخفق مسرعاً بين ضلوعه.

- تلك هي الخطئة. سأصحب الأميرين إلى المسرح الإمبراطوري. أما فيما يتعلق بتلك الرسالة، فهي لا يمكن أن تكون قد وصلت بالفعل؛ حيث لم أرسلها إلا بالأمس فحسب. لا يزال هناك أمل. لن يسمح أبواي لساتوكو بالذهاب لمشاهدة مسرحية بصحبي، ولكن إن التقينا مصادفة، فلن يكون هناك بأس في هذا.

اندفع خارجاً من الغرفة، وهبط الدرج إلى الغرفة المجاورة للمدخل الأمامي، حيث الهاتف. غير أنه قبل أن يلج تلك الغرفة تطلع بحذر في اتجاه غرفة إينوما، التي كانت خيوط الضوء تنسرب منها. لا بد أنه عاكف على الاستذكار.

التقط سماعة الهاتف، وأعطى عامل البدالة الرقم. راح قلبه يخفق بعنف، وقد طار ضجره المألوف شعاعاً.

- مرحباً! أهذه دار أياكورا؟ هل أستطيع التحدث إلى الأنسة ساتوكو رجاء؟

قالها كيواكي متسائلاً، بعد أن رد عليه صوت امرأة عجوز، مألوف له. من بعيد، تردد صوت أزابو واشياً بقدر معين من الاستياء، وإن ظل مهذباً على نحو معذب:

- أهذا هو السيد ماتسوجاي الشاب فيما اعتقد؟ آسفة أشد الأسف، لكن الوقت جد متأخر، فيما أخشى.

- أوقد آوت الأنسة ساتوكو إلى فراشها؟

- طيب، كلا، لا أعتقد أنها آوت إلى فراشها بعد.

بعد إلحاح من جانب كيواكي، أقبلت ساتوكو إلى الهاتف، في نهاية

المطاف. أبهجه، إلى أبعد الحدود، رنين صوتها الدافئ، الصافي.
- كيو، ما الذي تريده بحق السماء في هذا الوقت من الليل؟
- طيب، أقول لك الحقيقة، إنني بعثت لك برسالة أمس. أياً ما كان
الأمر لا تفضيها! أرجوك، عديني بأن تلقي بها توأ إلى النار!
- طيب، حقاً، يا كيو، لست أدري عم تتحدث!
حدثت شيء ما في صوت ساتوكو البادي الهدوء كيواكي بأنها قد شرعت
في نسج شبكتها المعتادة من الألغاز والاحجيات. وتناهى إليه صوتها، في
هذه الليلة الشتائية الباردة، دافئاً وناضجاً، كأنه ثمرة مشمش في شهر
يونيو. قال، وقد ضاق ذرعه:

- أعرف أنك لا تدريين عما أتحدث، فما عليك لطفاً إلا أن تصغي
وتعدي! عندما تصلك رسالتي فما عليك إلا أن تلقي بها في النار توأ، دون
أن تفضيها، رجاء!
- فهمت.
- أتعدين بذلك؟
- طيب.
- الآن، هناك شيء آخر أريد أن أطلبه منك...
- تبدو هذه الليلة بالتأكيد ليلة الطلبات. أليس كذلك ياكيو؟
- أيمكنك القيام بهذا من أجلي، احصلي على بطاقتي دخول للمسرحية
المعروضة بالمرح الأمباطوري لبعد غد، لك ولوصيفتك.
- مسرحية...!

جعل الصمت المفاجيء الذي حلّ على الجانب الآخر من الخط كيواكي
يخشى أن ساتوكو قد ترفض، لكنه أدرك أنه في غمار تعجله نسي شيئاً
محددًا، ففي ضوء الظروف الراهنة لآل أياكورا، يشكل دفع ثمن بطاقتي

دخول للمسرح مقابل ينين وخمسين سينا^(١) للبطاقة الواحدة تبذيراً صارخاً.
- كلا، بل انتظري، عفواً، سأبعث إليك بالبطاقتين. ولئن كان
مقعداك مجاورين لمقاعدنا فقد يتقول الناس، ولكني سأرتب الأمور بحيث
يكون مقعداك على مقربة نسبية منا، لسوف أذهب بصحبة الأميرين
السيامين، بالمناسبة.
- كم هو لطيف أن تقوم بذلك ياكيو! ستر تاديشينا، بالقطع، إني
أتوق إلى الذهاب إلى هناك.
قالتها ساتوكو، دون أن تبذل جهداً لإخفاء سرورها.

(١) غني عن البيان أن «السين» هو الوحدة الأصغر، التي تعادل واحداً من المائة من
العملة اليابانية، وهي الين، كما هو معروف.
(هـ. م.)

طلب كيواكي، في اليوم التالي، بالمدرسة من هوندا مرافقته والأميرين السياميين إلى المسرح الإمبراطوري، ليل الغد، فسرَّ هوندا، وقبل الدعوة في الحال، وإن لم يخل الأمر من شعور غامض بالخرج. ولم يشأ كيواكي، بالطبع، أن يخطر صديقه بذلك الجزء من الخطة، الذي يتيح الفرصة للقاء المصادفة مع ساتوكو.

في ذلك المساء، وعلى طعام العشاء بالدار أبلغ هوندا أبويه بالدعوة، التي وجهها إليه كيواكي. أعرب أبوه عن بعض التحفظات على المسرح، ولكنه أحس بأنه لا ينبغي أن يقيّد حرية شاب في الثامنة عشرة من عمره، في أمر كهذا.

كان أبوه قاضياً بالمحكمة العليا، وقد حرص على أن يسود داره مناخ من اللياقة والذوق الرفيع. وقد أقامت الأسرة في دارة فسيحة في هونجو، ذات غرف عديدة، أثّث بعضها بالأسلوب الغربي الخائق الذي كان ذائعاً في عصر مييجي. ومن بين خدمه كان هناك عدد من الطلاب، وامتلأت الدار بالمكتب، حتى فاضت بها المكتبة وغرفة المكتب، بل ودارت مع الدهاليز، في امتداد شاسع من الجلد البني والحروف المذهبة.

وبدورها كانت أمه نقیض الأنوثة العابثة للعب، إذ كانت تحتل منصباً في «العصبة الوطنية للنساء»، وقد أفعمها المأ أن ابنها قيد صادق صداقة وثيقة نجل الأميرة ماتسوجاي، وهي سيدة ما كانت لتطبق صبراً مع هذه الأنشطة الجديرة بالاهتمام. أما إذا ضربنا صفحاً عن هذا، فإن سجل

شيجيكوني هوندا الطيب في المدرسة، واجتهاده، ومجتمعه، وأخلاقه الحميدة، التي لا تشوبها شائبة، كانت مصدراً للفخار دائم تستشعره أمه، وما كانت لتسام قط من الإشادة به، أمام الآخرين.

كان كل شيء في حياة عائلة هوندا، حتى أقل الأنية قيمة، يخضع لمعايير دقيقة، فابتداء من شجرة البونسيه، الواقعة أمام المدخل، والستار المسدل خلفها، بالرمز الصيني الذي يزخرفها تحقيقاً للتناسق، وصندوق السجائر والنافض الموضوعة في قاعة الاستقبال، وغطاء المائدة ذي الشُرابة، وانتهاء بصندوق حفظ الأرز في المطبخ، وحامل المنشفة في المرحاض، والمقلبات في المكتب، بل وحتى ثَقَالَات الورق في المكتب، كل شيء كان هو الكمال بعينه، في النوع الذي ينتمي إليه.

وقد امتد هذا الاعتناء إلى الحوار الذي يدور بين أفراد العائلة. وفي دور أصدقاء هوندا، كان يمكن الاعتماد على شخص أو اثنين من كبار السن لطرح أقاصيص عبثية، فعلى سبيل المثال قد يستعبدان ذكرى ليلة أطل فيها قمران عبر النافذة، أحدهما غريب متكرر اتخذ في التوهيته العادية، لدى مضايقته بقسوة، وابتعد متشاقلاً الخطو. وسيكون هناك على الدوام جمهور مقدر لما يسمع. ولكن في دار هوندا، كان من شأن نظرة قاسية من أبيه أن توضح حتى لأكثر الوصيفات تقدماً في العمر أن الانغماس في مثل هذا اللغو الجاهل لا مجال له.

وكان أبوه، في شبابه، قد أمضى بعض السنوات في دراسة القانون في ألمانيا، وقد وُقِّر الاحترام الألماني للمنطق.

عندما قارن داره بدار كيواكي، بدا له جانب محدد من جوانب الاختلاف مسلماً، فعلى الرغم من أن آل ماتسوجاي بدوا وكأنهم يعيشون حياتهم على الطريقة الغربية، ومع أن دارهم كانت حافلة بالأشياء المستوردة من الخارج، فقد كان مناخ دارهم يابانياً، على نحو صارخ، وبشكل

تقليدي. ومن ناحية أخرى، فإنه في داره ربما كانت الحياة اليومية يابانية، إلا أن المناخ اتسم بالكثير مما هو غربي، في قرارة روحه، ثم إن اهتمام أبيه بتعليم الطلاب في داره كان متبايناً أشد التباين مع موقف الأمير ماتسوجاي من تعليم الطلاب في داره.

والمعتاد تحوّل هوندا بمجرد الانتهاء من واجبه المنزلي، الذي كان الليلة متعلقاً بالفرنسية، وهي لغته الثانية، إلى بعض قراءاته في القانون. وكانت هذه المواد مكتوبة بالألمانية والفرنسية والانجليزية، وقد اضطر لطلبها عن طريق مكتبة ماروزين. وقد عكف عليها ليلة بعد الأخرى، توقعاً لمتطلبات العمل في الكلية مستقبلاً، وكذلك وعلى نحو أكثر أهمية لأنه كان لديه ميل طبيعي إلى رد كل شيء إلى مصدره. وشرع مؤخراً في فقدان اهتمامه بالقانون الطبيعي الأوروبي، الذي فتنه أشد الفتنة. ومنذ ألفت رئيسة الدير جيشو عظمتها، أصبح أكثر وعياً بضروب قصور هذا الفرع العلمي.

غير أنه أدرك أنه على الرغم من أن القانون الطبيعي قد أهمل نسبياً في السنوات الأخيرة، إلا أنه ما من نقد فكري آخر قد أفصح عن مثل هذه القدرة على مواصلة البقاء، فهو قد ازدهر في أشكال متباينة، تناسب المراحل العديدة، التي توالى عبر ألفي عام من التاريخ - منذ أصول البادية عند سقراط، وتأثيره القوي على عهد تكوين القانون الروماني، مروراً بوسيط، هو كتابات أرسطو، إلى تطوره المتشابك وتنسيقه في القرون الوسطى المسيحية، ورواجه الذائع لصيت في عصر النهضة، وقد وصل هذا حقاً إلى قمة سامقة، حتى ليتمكن أن يطلق على ذلك العهد اسم عهد القانون الطبيعي. وفي الغالب، فإن تلك الفلسفة المتواترة هي التي أبقت على الإيمان الأوروبي بقوة العقل. ومع ذلك، لم يستطع هوندا الحيلولة دون التفكير في أنه على الرغم من عناده وصموده، فإن ألفي عام من نزعته

الإنسانية القوية المشرقة الأبوللونية قد كفت بالكاد لصد غارات الظلام والبربرية .

كما أن الاغارة لم تقتصر على هاتين القوتين وحدهما، فقد هدده كذلك ضوء آخر أكثر قدرة على أن يخطف البصر، حيث أن القانون الطبيعي قد استبعد بصورة متصلة كل احتمال لمفهوم عن وجود يقوم على أساس القومية الرومانسية اللاعقلانية .

أياً ما كان الأمر، فإن هوندا لم يتشبث بالضرورة بالمدرسة التاريخية في القانون، التي تأثرت بالزعة الرومانتيكية للقرن التاسع عشر، ولا بالمدرسة العرقية . حقاً إن اليابان في عهد ميجي قدمت حاجتها إلى غط قومي من القانون، غط يضرب جذوره في فلسفة المدرسة التاريخية . ولكن اهتمامات هوندا كانت مختلفة تمام الاختلاف، فقد حرص أولاً على أن يفصل المبدأ الجوهرى الكامن وراء القانون بأسره، وهو المبدأ الذي شعر بأنه لا بد من أن له وجوداً، وقد كان هذا هو السبب في أن مفهوم القانون الطبيعي قد فتنه لبعض الوقت، أما الآن فهو أكثر حرصاً على تحديد الحدود القصوى الخارجية للقانون الطبيعي، التي أشارت إليها، على نحو غير مقصود، دعاواه الخاصة بالشمول والإطلاق . وقد استمتع بإطلاق العنان لخياله في هذا الاتجاه، وحُدث نفسه بأنه لو كان القانون سيزيد القيود والضوابط، التي فرضها القانون الطبيعي والفلسفة، وينطلق إلى مبدأ أكثر إطلاقاً وشمولية (بفرض وجود مثل هذا المبدأ) ألا يصل إلى مرحلة يكفّ فيها القانون ذاته، على نحو ما عرفه، عن الوجود؟

كان هذا، بالطبع، هو ذلك النوع الخطر من التفكير الذي يستهوي الشباب . وفي ضوء ظروف هوندا، ومع مشول الهيكل الهندسي للقانون الرومانى متعملاً على نحو هائل في الخلفية ليلقي بظله على القانون الحديث المعمول به، الذي عكف الآن على دراسته، لم يكن من العجيب أن يجد

نزعته الأصولية مضجرة للغاية؛ ومن هنا كان بين الفينة والأخرى ينحى مجموعات قوانين اليابان في عهد مييجي، التي صيغت بإخلاص على غرار النماذج الغربية جانباً، ويحول ناظره إلى اتجاه آخر - إلى التقاليد القانونية الآسيوية، الأوسع نطاقاً، والأكثر امتداداً في العمر.

وفي مناخه النفسي المتشكك الراهن، تضمنت ترجمة فرنسية قام بها ديلونجشامب لقانون مانو، وصلت لتوها من مكتبة ما روزين، في لحظة مناسبة، الكثير مما وجده جذاباً، على نحو قوي.

كانت قوانين مانو، التي ربما صيغت عبر الفترة الممتدة من عام ٢٠٠ ق.م. إلى عام ٢٠٠ ب.م. أساس القانون الهندي. وفي صفوف الهندوس الملتزمين، احتفظت بسلطتها، باعتبارها تقينياً، حتى الوقت الحاضر. وقد تجمع في فصولها الاثني عشر وبندوها البالغة ٢٦٨٤ بنداً كيان هائل من المفاهيم، مستمد من الدين والعرف والأخلاق والقانون، تراوح من أصل الأكوان إلى عقوبات السرقة وقواعد تقسيم الميراث. وقد أثقلت فلسفة آسيوية. كانت كل الأشياء في إطارها واحداً، في مفارقة ملحوظة للقانون الطبيعي ورؤية المسيحية للعالم، بولمهما بإقامة ضروب التمييز والفواصل، القائمة على عوالم صغيرة وأخرى هائلة، متوافقة بصورة مرتبة.

غير أن حرية التصرف في القانون الروماني جسدت مبدأ ناقض المفهوم الحديث للحقوق. وكما أن القانون الروماني نص على أن الحقوق تسقط بتقادم عدم الاستخدام، حينما لا يكون هناك مجال للإنصاف أو الإصلاح، فكذلك قوانين مانو، بحسب القواعد الإجرائية المعمول بها في البلاطات العظيمة للراجات والبراهمة، قصرت الدعاوي، التي يمكن رفعها، على قضايا عدم سداد الديون وثماني عشرة قضية أخرى.

أفتن هوندا بالأسلوب النابض بالحياة، على نحو فريد، الذي تميزت به هذه القوانين. وحتى التفاصيل المضجرة مثل إجراءات المحاكم، صورت

من خلال استعارات وتشبيهات ملونة، فعلى سبيل المثال خلال إجراء محاكمة كان يتعين على الراجا أن يقرر حقيقة أو زيف الأمر المطروح أمامه «تماماً كما يبحث الصياد عن وجار الغزال الجريح، بتتبع أثر الدم». وفي معرض تعداد واجبات الراجا، استحث هذا الأخير على أن يسدي الأيدي البيضاء إلى شعبه «مثلما يجعل إندرا المطر، واهب الحياة، يهيم في إبريل». أوغل هوندا في القراءة، حتى النهاية ذاتها، بما في ذلك الفصل الأخير الذي يتناول المسائل الملتبسة، التي تتحدى التصنيف، سواء باعتبارها قوانين أو تفسيرات.

يقوم الإلزام المتضمن في القانون الغربي، بشكل حتمي، على قوة المنطق، أما قوانين مانو فتضرب جذورها في قانون كوني، مغلق في وجه المنطق - مذهب تناسخ الأرواح. وقد طرح هذا في القوانين بحسبانه أمراً طبيعياً:

«الأعمال تنطلق من الجسم، من الحديث، ومن العقل، وتؤدي إما إلى الخير أو الشر».

«في هذا العالم، تؤدي الروح، متوحدة مع الجسم، ثلاثة أنواع من الأعمال: الطيب، اللامبالي، والشرير».

«ما ينبع من روح الإنسان يشكّل روحه، وما ينطلق من حديثه يصوغ حديثه، والأعمال التي تنشأ من جسمه تطوّع جسمه».

«من يقترب الخطيئة بجسمه يصبح شجرة أو نجياً في الحياة المقبلة، ومن يأتيها في حديثه يغدّ طيراً أو بهيمة، ومن يرتكبها بروحه يبعث في أدنى الطبقات مرتبة».

«من يلزم الحرص، في حديثه، وعقله، وجسمه، حيال كل ما تدب فيه الحياة، ومن يلجم شهوته وغضبه سيحرز التحقيق، ويمتلك ناصية الانعتاق الكامل».

«من المناسب أن يستخدم كل إنسان الحكمة التي أوتيتها ليتبين كيف أن مصير روحه يعتمد على التزامه بالقانون من عدمه، وأنه ينبغي أن يكرس نفسه، قلباً وقالباً، للمراعاة الأمينه للقانون».

هاهنا، مثلما في القانون الطبيعي تماماً، نظر إلى الالتزام بالقانون والقيام بالأعمال الطيبة باعتبارهما شيئاً واحداً، ولكن هنا يقوم القانون على أساس تناسخ الأرواح، وهو مبدأ يعوق البحث العقلاني العادي. والقوانين يبدو أنها، بدلاً من أن تحاطب العقل البشري، تعزف على نغمة التهديد بإيقاع العقاب، وهكذا فإنها باعتبارها مذهباً في القانون تولى ثقة أقل، إلى حد ما، للطبيعة الإنسانية، مما يوليها القانون الروماني، باعتباره على قوى المنطق.^(١)

(١) حار النقاد، على اختلاف اتجاهاتهم، في تفسير مثل هذه الاستطرادات، الطويلة غالباً، التي تصادف القارئ، على امتداد صفحات رباعية «بحر الخصب»، وذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى:

أ - فهناك فريق من النقاد ذهب إلى القول بأن هذه الاستطرادات هي شروحات، كان ميشيا نفسه يعتبرها ضرورية له، مثلما هي ضرورية للقارئ.

ب - وقال فريق ثان إن ميشيا عمد إليها، في إطار تأثيره بكتاب عالمين أثيرين لديه، اعتمدوا أسلوب التضمنين هذا، وفي مقدمتهم توماس مان.

ج - وذهب فريق ثالث إلى أن ميشيا، في إطار رغبته في جعل الرباعية أعظم عمل صرحي، في الأدب الياباني الحديث، استخدم هذه الاستطرادات، دون أن يبرده كونها بمثابة المواد غير المتجانسة مع نسيج العمل نفسه.

د - وفريق رابع لم يتردد في اتهام ميشيا بأنه لجأ إلى إطالة النص؛ لأسباب عملية =

لم تراود هوندا الرغبة في إنفاق وقته في التفكير ملياً في مشكلة كهذه، أو أن يغمس نفسه في حكمة القدماء. ويحكم كونه دارساً للقانون، كان يميل إلى تأييد المؤسسة القانونية، غير أنه ضايقته بصورة دائبة شكوك وظنون حول النظام المطبق الذي كان موضوع دراسته. وقد علمته مجالداته بتركيبها المتداخل والمشتبك، على نحو مؤلم، أن رؤية أوسع نطاقاً تمس الحاجة إليها، في بعض الأحيان، وليس هذا قائماً في القانون الطبيعي بتمجيده للعقل الكامن في قرار القانون المعمول به فحسب، وإنما كذلك في الحكمة المنطوية على بذور التطور لقوانين مانو. ومن هذه النقطة المتقدمة كان بمقدوره الاستمتاع بعالمين - الزرقة الصافية للظهير، والليل الذي توشيه النجوم.

ومن المؤكد أن دراسة القانون كانت فرعاً دراسياً غريباً، فهي شبكة ذات عيون باللغة الدقيقة، حتى لتمسك بأقل أحداث الحياة اليومية شأنًا، ومع ذلك فإن امتدادها الهائل، في الزمان والمكان، شمل حتى التحركات الخالدة للشمس والنجوم. وما من صياد، يسعى إلى زيادة صيده، يمكن أن يكون أكثر شراهة من دارس القانون.

وإذ غرق هوندا طويلاً، على هذا النحو، في مطالعته، غافلاً عن انقضاء الوقت، أدرك أخيراً، ببعض القلق، أنه من الخير له أن يأوى إلى فراشه، إذا شاء ألا يبدو مجهداً، عندما يلتقي كيواكي في المسرح

= محض، ترجع إلى أن نفقاته الهائلة كان يتعين عليه أن يغطيها بدفق مالي كبير من عائد نشر نصوص مطولة.

وقد لفتت هذه الظاهرة نظرنا، على امتداد ما يزيد على عقد من الزمان من الاهتمام بالرباعية، ومع تماطفتنا مع التفسير الثالث، إلا أننا حرصنا على طرح الصورة كاملة أمام القارئ ليحكم في الأمر بنفسه.

(هـ. م.)

الأمبراطوري، ليلة الغد. وحينما فكّر في صديقه، البالغ الوسامة، والذي يصعب سبر أغواره، ثم تأمل كيف أن مستقبله هو يبدو من غير المحتمل أن يكون أي شيء آخر، إلا مستقبلاً عادياً، يمكن التنبؤ به، لم يستطع كبح جماح رعدة أخذته أخذاً، وراح، في تكاسل، يقلب في ذهنه الانتصارات التي أبهجه بها رفاقه في الصف، بمزيد من الفخار، مثل استخدام وسادة ملفوفة للعب الرجبي في مشرب شاي «جيون» مع حشد من فتيات الجيش الشابات.

وبعد قليل. حملته الأفكار على جناحها إلى حادثة وقعت في داره، هذا الربيع، كان يمكن أن تكون بعيدة عن الأهمية، في بيثة أكثر انغماساً في شؤون العالم، ولكنها فجّرت أصدقاء هائلة في دار هوندا. فقد أقيمت صلاة بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة جدته، في معبد نيبوري، حيث دفن رفات العائلة، وبعدها جرت استضافة أقرب الأقارب. وكانت فوساكو ابنة عم شيجيكوي الثاني، في وقت واحد، أصغر الضيفات سناً وأبرعهن حسناً وأكثرهن مرحاً ونشاطاً. وقد سببت ضحكاتها المتتابعة، في دار هوندا الرصينة، شعوراً بالدهشة والاستنكار.

ورغم الإطار الديني لليوم، إلا أن الوعي بالموت لم يكن كافياً للحيلولة دون الغمغمة الهائشة للحوار بين الأقارب، الذين لم يروا بعضهم البعض لوقف طويل للغاية. وهكذا، راحوا يتحدثون، ربما معرجين في حديثهم سريعاً على الجدة الراحلة بين الفينة والأخرى، وإن كانوا أشد حرصاً على أن يحدث أحدهم الآخر بأنباء الأطفال، الذين كانوا موضع فخار كل أسرة.

مضى الضيوف الثلاثون يجوبون الدار، منتقلين من غرفة إلى أخرى، مندهشين لمواجهتهم للكتب حيثما مضوا. وطلبت قلة منهم رؤية مكتب

شيجيكوني، وأطلقوا على قمطره، لبعض الوقت، ثم غادروا المكتب،
واحدًا إثر الآخر، إلى أن بقيت فوساكو وحدها معه.

اقتعدا الأريكة الجلدية، غير بعيد عن الحائط. كان شيجيكوني يرتدي
الزي المدرسي الرسمي، وفوساكو ترتدي كيمونو أرجوانياً رسمياً. وما إن
أدركا أنها تركا وحدهما، حتى حل بهما الارتباك، أحدهما حيال الآخر،
وكفت عن الانطلاق ضحكات فوساكو المسترسلة.

راح شيجيكوني يتساءل عما إذا كان من الصواب أن يطلع فوساكو على
دفتر صوره. أو شيء من هذا القبيل، ولكن من سوء الحظ أن لم يكن تحت
يديه شيء من هذا القبيل، في الوقت الراهن. وزاد الطين بلة أن فوساكو
بدت مستاءة، على حين غرة. لم يكن قد انجذب إليها، حتى الآن، بشكل
خاص، بما يحيط بها من طاقة بدنية مفرطة، وبضحكتها المجلجلة
المتقطعة، وتعودها مشاكسته، رغم أنه يكبرها بعام، وانطلاقها الدائب في
غمار النشاط. والحق يقال إنها كانت تتمتع بالازدهار الدافئ، الذي يميز
زهرة، في منتصف الصيف، ولكن شيجيكوني كان قد وصل بالفعل إلى
قرار خاص: خير له ألا يتخذ امرأة مثلها زوجة له.

- إنني متعبة، كما تعلم، وماذا عنك، يا شيجي، ألسنت مرهقاً؟
قبل أن يتمكن من الرد، بدا أنها تثني خصرها، وتهوي نحوه بزنارها
العريض، مثلما ينهار حائط فجأة، وبعد لحظة، كان رأسها قد استكن في
حجره، فألقى نفسه يتملى الثقل الدافئ، العطر، القابع عبر ركبتيه.
ارتج عليه تماماً، وتطلع إلى الوقر اللين المستكن في حجره، وظلت
الأمر على ذلك النحو لبرهة، خالها دهرأ، أحس بالعجز عن أن يحرك
عضلة واحدة من عضلاته، وبدورها فوساكو ما إن دفنت رأسها، مغتبطة،
في النسيج الصوفي المتين للزي الرسمي، الذي يرتديه ابن عمها، حتى
حجبت كل إشارة إلى أنها تنوي أن تحركها.

ولكن، عندئذ، فتح الباب فجأة، وأطلت منه أمه وإحدى العبات
وأحد الأعمام. شحب عينا أمه، وكف قلبه عن الخفقان، غير أن فوساكو
اكتفت بالتطلع، في بطاء، باتجاه القادمين الجدد، ثم، آه، بفتور همة بالغ،
رفعت رأسها.

- إني متعبة للغاية، وأعاني من صداع أيضاً.

- رباة! لا يمكننا احتمال ذلك، هل آق لك بشيء لعلاجه؟

لم يكن عبثاً أن أمه تشغل منصباً في العصبة الوطنية للنساء، وقد بدا
هذا جلياً، فيما هي تقتحم هذه الثغرة، كأنها ممرضة متطورة.

- كلا، شكراً، لا أعتقد أن الأمر على مثل هذا القدر من الخطورة.

أضافت هذه الواقعة قدراً يعتد به من البهار إلى حديث الأقارب، وعلى
الرغم من أنها لم تصل، لحسن الحظ، إلى مسامع أبيه، إلا أن أمه جعلته
يدفع الثمن غالياً. أما بالنسبة لفوساكو فعل الرغم من أنها ابنة عمه، فإنه
لم تجر دعوتها إلى الدار مجدداً قط. ومع ذلك فما كان هوندا لينسى أبداً تلك
اللحظات القصار، التي استقر فيها وقرها الدافئ في حجره.

وعلى الرغم من أنه كان يسند جزعها بكامله، ملتفّاً في الكيمونو الذي
ترتيبه والزنار الذي يحيط خصرها، فقد كان الحسن المركب على نحو
مراوغ لرأسها وشعرها هو الذي اجتذبه أكثر من سواه، فقد ضغطت عليه
كتلته البديعة بالتشبث الثقيل الذي يميز البخور، الذي أطلق عرفه، وما
استطاع حجر سرواله الأزرق حجب دفئه الملحاح، المتوغل. كان يشبه
دفع نار بعيدة، فراح يتساءل عما أضرم هذه النار التي شتت منها، كأنما من
جمرات فحم في آنية خزفية بديعة، تضمن الأمر أن عاطفتها نحوه كانت جارفة،
على نحو ما. ألم يكن ضغط رأسها توبيخاً لا دعاً كذلك؟

ثم هناك عينا فوساكو. فبينما كان جانبها على حجره، تمكن من التطلع

إلى عينيها النجلاوين، السوداوين. كانت عيناها صغيرتين، ومعرضتين أمامه، تتألقان كقطرتي مطر، مثل فراشتين راقصتين استقرتا لبرهة، وكان ارتعاش أهدابها الوطفاء هوريف أجنحتها، التي رقطت على نحو جميل كبؤبؤي عينيها.

كانتا مخادعتين، دانيتين للغاية، ولا مباليتين تماماً، بالغتي التأهب للانطلاق نحو البعيد - لم يسبق له أن رأى قط مثل هاتين العينين، اللتين راحتا تنطلقان، بلا توقف، في سخط. تركزتا أولاً، ثم شردتا، فبدتا مثل الفقاعة في ميزان البنائين.

لكنها لم تكن تغازله، فقد نقلت عيناه أقل مما كانت توحيان به عندما كانت تثرثر في مرح، قبل لحظات قلائل. فما كانتا تعبران عن شيء أكثر أهمية من العاطفة المباشرة، التي اتقدت في أعماقها. كانت القوة، المؤدية برباطة الجأش، لمثل هذه العذوبة والعبق، تنبع من شيء أكثر جوهرية من مجرد الرغبة في المغازلة.

ماذا، إذن، كان المناخ النفسي المتغلغل لهذه اللحظات من الاتصال الجسدي التي بدت وكأنها تمتد دهرًا؟

لم يكن العرض الرئيسي في المسرح الإمبراطوري، في الفترة من منتصف نوفمبر وحتى العاشر من ديسمبر، عملاً حديثاً، تشارك فيه ممثلات، وإنما تمثل في مسرحيتي كابوكي^(١)، يتألق فيها عمالقة في هذا الفنا من أمثال بايكو وكوجيرو. وقد اختار كيواكي المسرح الكلاسيكي لإحساسه بأن هذا اللون من الترفيه سيكون أكثر اجتذاباً لضييفه الأجبيين. ولكن بما أنه لم يكن على

(١) كابوكي: شكل من قرابة اثني عشر شكلاً من أشكال المسرح التقليدي في اليابان، يتميز بتأثره وأخذته العديد من عناصر المسرحين التقليديين، اليابانيين، الأكثر عراقية وأصالة، وهما «النو» و«البونراكو». وقد تطور الكابوكي إلى شكله الراهن، في أواخر القرن السابع عشر الميلادي. ومن المدهش حقاً أن تقديمه كان، في أول الأمر، يقتصر على الممثلات وحدهن، ثم انضم الممثلون إليهن، فيما بعد، إلى أن تبلور الكابوكي في شكله الراهن، الذي ينفرد الرجال بتقديمه، حتى بالنسبة لأدوار النساء. والمرجع التقليدي والأكثر أهمية، للراغبين في الإلمام بالمزيد عن الكابوكي، هو، بالطبع، كتاب جونجي الشهير، وهاك بياناته لمن يرغب في الاطلاع عليه:

Gunji, Masakatsu - Kabuki - Kodansha - Tokyo - 1986 - ISBN O - 732 - 87011 أما في اللغة العربية، فيقدر ما نعلم، هناك كتاب «المسرح في الشرق». ومن سوء الحظ أن طبعته القاصرية نفذت دون أن يعاد طبعها، ويجد القارئ مقالات متفرقة لنا، عن المسرح الياباني، في مجلتي «الأدب» البيروتية، و«الأقلام» البغدادية، نشرت في منتصف الثمانينات. (هـ. م).

كبير معرفة بالكابوكي ؛ لم يبد العملان اللذان سيسكلان صلب الأمسية مألوفين له ، وكانا مسرحية «نشأة وسقوط التايرا» ومسرحية «رقصة الأسد» ، وهكذا فقد أقنع هوندا بأن يمضي الساعة المخصصة لطعام غدائه في المكتبة في الإطلاع على المسرحيتين ، لكي يقوم بإيضاحهما للأميرين ، قبل عرضهما .

لم يبد الأميران ميلاً إلا إلى إظهار الفضول الكسول ، فيما يتعلق بالمسرحيتين الأجنبيتين . وكان كيواكي قد قدمهما لهوندا ، الذي أقبل إلى الدار معه من المدرسة . والآن ، بعد تناول طعام العشاء ، لاحظ أنها لا يبديان كبير اهتمام بالموجز الذي يقدمه صديقه باللغة الانجليزية لمسرحيتي الليلة .

وفي مثل هذه الظروف ، دفع ولاء هوندا وجديته كيواكي إلى الشعور بالذنب والاشفاق . ومن المؤكد أن أياً من فريق رواد المسرح تلك الليلة لم يكن مكثرثاً للغاية بالمسرحيات ذاتها ، وفيما يتعلق بكيواكي فقد كان مشغول البال ؛ فلربما تكون ساتوكو قد قرأت الخطاب في نهاية المطاف وربما لهذا قد لا تفي بوعدها بالحضور .

أقبل كبير الخدم ؛ ليعلن أن العربة تنتظر . صهلت الجياد ، وتآلق تنفسها أشهب اللون من مناخرها ، لينداح نحو السماء الشتوية السحباء . ابتهج كيواكي برؤية الجياد تبدي في كبرياء قوتها في الشتاء ، حيث راثحتها النفاذة أقل انتشاراً ، وحوافرها تفحص الأرض المتجمدة ، فيتردد صداها جلياً . وفي يوم ربيعي حار لا يعدو الجواد المنطلق دراكاً أن يكون بجلاء حيواناً متعرقاً من لحم ودم . ولكن الجواد الذي يندفع منطلقاً في عاصفة ثلجية يتوحد مع العناصر الطبيعية الأولية ذاتها ، وإذا يلتف الحيوان بالزيف المدوم لريح الشمال فإنه يجسد التنفس الثلجي للشتاء .

أحب كيواكي ركوب العربة التي تجرها الجياد ، وخاصة حينما يحتم عليه هم أو آخر ؛ ذلك أن ارتفاع العربة وانخفاضها من شأنه أن ينتزعه من

الإيقاع الكابي والمتواصل لما يثير قلقه . الذبول تتقوس مبتعدة عن الكفلين العاديين غير بعيد عن العربة ، المعرفات تنتشر منتفشة في الريح ، اللعاب ينثال في شريط ملتصق من الأسنان التي يصدر عنها الصرير - أحب كيواكي أن يستمتع بالمفارقة بين القوة الوحشية للحيوان والموجودات المتألقة في داخل العربة .

إرتدى كيواكي وهوندا معطفين فوق زييها المدرسين . أما الأميران فعلى الرغم من أن كلا منهما يلتفت في معطف سابغ ذي ياقة من الفراء ، إلا أنها كانا يرتعدان على نحو بائس .

قال الأمير باتاناديد ، ونظرة تعسة ترتسم في عينيه :
- لسنا معتادين على البرد ، بعض أبناء عمومتنا درسوا في سويسرا ، وحذرونا من البرد هناك ، لكن أحداً لم يحدثنا عن مدى برودة الجو في اليابان .

- لكنك ستعتاد عليها .

قالها هوندا ، مطيئاً خاطريهما ، فقد ربطتهم المودة معاً ، رغم قصر مدة تعارفهم .

وبما أنهم كانوا في ديسمبر ، موسم مشتريات نهاية العام ، فقد بدت الشوارع متألقة بالأنوار ولافتات الإعلانات ومزدحمة بالمتسوقين ، الذين التفوا بعباءات ثقيلة ، وهذا كله حدا بالأميرين إلى السؤال عن المهرجان الذي يجري الاحتفال به .

طوال اليومين الماضيين ، وربما أكثر من ذلك ، ازداد اكفهار وجه كل من الأمير باتاناديد وكريدسادا ، الذي لا يأبه لشيء ، ولا يحمل مسؤولية هما ، وبدا هذا الاكفهار دليلاً لا تحطئه العين على الحنين المرضي إلى الوطن . ومن الطبيعي أنها حرصا على عدم الوضوح البالغ فيما يتعلق بهذا الأمر ؛

حيث لم يرغب في الإساءة إلى كرم ضيافة كيواكي، لكنه كان يعلم أن أفكارهما تخلق في البعيد، طافية على سطح محيط رحب. ولكنه سعد ذلك؛ فقد كانت فكرة بقاء المشاعر الإنسانية على جودها محبوسة في البدن لا تنفصل عنه، غارقة في اللحظة الراهنة والمكان الحالي، شيئاً قاهراً ومحبطاً، على نحو لا يحتمل، بالنسبة له.

فيما هم يمشون بحديقة هيبايا، ويقترّبون من الخندق المحيط بالقصر الإمبراطوري، لاح المسرح الأشهب؛ ذو الطوابق الثلاثة، أمامهم في غبش المساء الشتوي.

عندما ولجوا المسرح، كانت المسرحية الجديدة التي تأتي في بداية البرنامج قد عرض جانب منها بالفعل. لمح كيواكي ساتوكو، حيث جلست إلى جوار خادمتها العجوز، تاديشينا. كان مقعدهما يبعدان عنهم بصفتين من المقاعد، إلى الخلف، ويميل جانباً بالنسبة لمكانهم. وإذا رآها هناك، ولمح مطالع ابتسامة متألقة على شفيتها، كان على استعداد لأن يغتفر لها كل شيء.

خلال باقي المسرحية الأولى، وفيما راح قائدان عامان من عهد كاماكورا يحشدان قواتهما أحدهما ضد الآخر على خشبة المسرح، مضى كيواكي يرقب، وكأنما في دوار، أحداث المسرحية. شحب كل شيء على خشبة المسرح، حيال اعتداده بنفسه، بعد أن تخلص هذا الاعتداد من أي خطر يتربص به.

راح يحدث نفسه، قائلاً:

- ساتوكو الليلة أجمل منها في أي وقت مضى، وقد أبدت اهتماماً أكبر بزيبتها، فجاءت تماماً على نحو ما تمنيت.

أسعده مسار الأمور على هذا النحو، وهنا نفسه مراراً وتكراراً، فيما هو

جالس هناك في غبطته، عاجزاً عن الالتفات والتطلع باتجاه ساتوكو، وإن كان قرير العين بحسبها الداني، وما كان ليرغب في أكثر من هذا.

كان ما أراده منها الليلة هو حضور جميل، وهو ما لم يسبق له قط أن طلبه منها. ولدى تأمله الأمر، أدرك أنه لم يعتد التفكير في ساتوكو، من حيث مدى ما تتمتع به من جمال. وعلى الرغم من أنه لم يفكر فيها، على وجه الدقة، باعتبارها عدداً مؤكداً، إلا أنها كانت رغم ذلك مثل حرير بديع، يخفي في طياته إبرة حادة، أو مثل قماش مقصب يخفي جانباً سفلياً حاكاً. وفي المقام الأول، كانت المرأة التي أحبته، دون أن تكثر باستشارته في الأمر على الإطلاق. وما كان بمقدوره أن يحتمل هذا، فليس من شأنه أن يلقي هبات تقدم له بتقبل مذعن، وعلى الدوام أوصد فؤاده في وجه الشمس الناهضة عالياً في إشراقها، خوفاً من أن تحترق أشعة واحدة من سناها القاسي المبالغ في الانتقاد.

حان موعد الاستراحة، ومضى كل شيء على نحو طبيعي. فقد التفت كيواكي إلى هوندا، وهمس له بأن ساتو موجودة في المسرح بالصدفة المتميزة. وعلى الرغم من أن النظرة التي ارتسمت على مقلي هوندا، بعد إطلالة سريعة إلى وراء، لم تدع شكاً في أنه عرف أن ثمة ما هو أكثر من الصدفة يأتي ثماره، إلا أن هذا لم يهز، ويا للدهشة، شعور كيواكي بالرضا بأدنى قدر؛ ذلك أن نظرة هوندا كانت برهاناً بليغاً على صدق مفهوم كيواكي عن الصدقة، وهو مفهوم لم يقتضِ قدراً مفرطاً من الصدق قط.

ماجت القاعة بالحديث والحراك، ومضى الجميع قاصدين البهو، سار كيواكي وأصدقاؤه على مهل، تحت الثريات، للقاء ساتوكو ووصيفتها، أمام نافذة تطل على خندق القلعة والأسوار الحجرية العتيقة بانفعال غير مألوف. ومدرکاً إلى أي مدى سيكون الطابع الرسمي البارد غير مناسب راعى

أصول السلوك، ولكن مع تقديم العرض ذاته للنزعة الحماسية الساذجة الذي كان قد قدمه حينها أتى على ذكر ساتوكو أمام الأميرين لأول مرة.

كان يعرف أن التدفق المائج للعاطفة والقوة المحررة النابعة من شعوره الذي اكتسبه حديثاً بالأمن قد مكناه من أن يتبنى نضجاً غريباً عنه، هكذا تخلى عن كآبته المميزة، وابتهج بحريته، ذلك أنه كان يعلم أنه ليس مغرمًا على الإطلاق بساتوكو.

آوت تاديشينا إلى ملاذ اتخذته من أحد الأعمدة، مع كل إيماءات الخضوع. واستناداً إلى إحكام ياقة الكيمونو الذي ترتديه والمرفقة بأزهار البرقوق، يمكن للمرء أن يدرك أنها قررت معاملة هذين الأجبيين بحرص. وأسعد موقفها كيواكي، الذي وفر على نفسه هكذا عناء تشكرها بصوتها الحاد النبرة، لتقديمه إياها للآخرين.

ورغم أن الأميرين أسعدهما أن يكونا بصحبة مثل هذه المرأة الجميلة، فإن تشاوي لم يكن مستغرقاً في الأمر للغاية، بحيث لا يلاحظ التغير الملحوظ في أسلوب كيواكي، عندما قدم ساتوكو. وإذ لم يخطر له على بال قط أن كيواكي يصوغ نفسه على غرار نموذج، أي نموذج تشاوي بي، الصبياني في التلهف إلى الأمور، فقد خامره شعور بالإعزاز نحو كيواكي، اعتقاداً منه بأنه يراه للمرة الأولى وهو يتصرف على نحو ما ينبغي لشاب في مقتبل العمر.

في غضون ذلك، غرق هوندا في إعجابه بساتوكو، التي رغم عدم نطقها بكلمة انجليزية واحدة، احتفظت على وجه الدقة بالدرجة الصحيحة من رباطة الجأش، أمام الأميرين. ورغم إحاطة الشبان الأربعة بها وارتدائها كيمونو رسمياً فضفاضاً، فقد تصرفت على نحو لا يشي بأذن مؤثر إلى التوتر، وتآلق حسنهما وتألقها.

وفى قام كيواكي بترجمة الحديث للأميرين، اللذين تبادلوا إمطار ساتوكو بالأسئلة، ابتسمت له، وكأنها تنشد موافقته. كانت ابتسامة تتضمن ما يفوق كثيراً مقتضيات الظروف، فأحس بعدم الارتياح.

راح كيواكي يحدث نفسه، قائلاً: «لقد قرأت الرسالة». ولكن، لا؛ فلو أنها قرأتها لما تصرفت على هذا النحو حياله الليلة، بل في حقيقة الأمر لما جاءت على الإطلاق. من المؤكد أنها ما كان يمكن أن تتلقى الرسالة، قبل أن يتصل بها هاتفياً، ولكن لم يكن هناك سبيل لمعرفة ما إذا كانت قد قرأتها بعد مكالمته الهاتفية، وسيصبح مما لا طائل وراءه أن يواجهها بسؤال مباشر، في هذا الصدد؛ لأنها سرعان ما ستنتفي ذلك. ولكن مع ذلك تفاقم سخطه على نفسه لعدم إقدامه على القيام بذلك.

حاول أن يبدو عادياً، في سلوكه، وبذل قصارى جهده لكي يكتشف ما إذا كانت هناك نغمة في صوتها تختلف عن الدفء المرح، الذي وشى هذا الصوت، قبل البارحة، أو تغير موج في التعبير الذي يكسو محياها من عدمه. ومرة أخرى غاض صفاء تملكه لزاماً أمره.

بدا أنفها بديع التكوين كأنه أنف دمية من عاج، دون أن يكون محددًا على نحو بالغ، بحيث يضيف لمسة من الغرور على ملمحها الجانبي. ولاح محياها مراوحاً بين التآلق والظل الرقيق، اللذين تجاوبا مع حركة عينيها السريعة، المترعة بالحسوية. يُعدُّ تيقظ العين عادة من السمات السوقية في النساء، لكن ساتوكو كانت لها طريقتها الجذابة، على نحو لا سبيل إلى مقاومته، في تسديد نظراتها اللامحة. وراحت ابتسامتها تلاحق كلماتها، ونظرتها تلاحق ابتسامتها - فحلَّت هذا التابع الرشيق عالياً بالفتنة الساحرة لمحيها، وعلى الرغم من أن شفتيها كانتا رفيعتين بعض الشيء، إلا أنها أخفتا شهوانية كامنة مراوغة، ولدى ضحكها، كانت على الدوام تسارع بإخفاء

بريق أسنانها بأصابعها الرشيقة اللدنة، ولكن ليس قبل أن يلحظ الشبان
التألق الأبيض، الذي ينافس الثريات المعلقة فوقهم.

وفيا كيواكي يترجم المجاملات المليئة بالإطناب التي وجهها الأميران إلى
ساتوكو، لاحظ حمرة خجل تنتشر حتى شحمتي أذنيها، وإذ غطاهما شعرها
تماماً، على وجه التقريب، بدتا مكتسيتين بالحسن المتدفق لقطرات المطر،
ومهما دقق النظر فيهما، ما كان بوسعهما أن يقرر ما إذا كانتا تدينان بلونهما
المتوهج لمادة تجميل من نوع ما، أو للشعور بالخرج.

غير أن شيئاً واحداً فيما يتعلق بساتوكو سما فوق كل تجمل، وهو مضاء
عينها المتألفتين... وقد أثار ذلك أعصابه، كعهده أبداً، وأحس بأن وحدة
هذا المضاء الماكرة تحترقه، وأن جبروته ينبع من جوهر ساتوكو ذاتها.

دوى الجرس، معلناً بدء مسرحية «نشأة وسقوط التايرا»، وشرع
الجمهور في التدفق، عائداً إلى مقاعده.

- إنها أجمل امرأة رأيتها منذ وصولي إلى اليابان. كم أنت محظوظ!
قالها تشاوي، بصوت خفيض، فيما هو ينطلق عبر الممشى بين المقاعد
مع كيواكي. وفي ضوء النظرة التي ارتسمت في مقلتيه كان يمكن للمرء
القول بأنه قد عوفي من هجمة الحنين المرضي إلى الوطن التي داهمته.

كان إينوما، معلم كيواكي، قد وصل إلى إدراك أن الفترة التي تزيد على ست سنوات، والتي أمضاها في خدمة دار ماتسوجاي، لم تطع بآمال شبابه فحسب، وإنما أخذت كذلك الحنق المترتب على ذلك الذي اعتراه في أول الأمر. وعندما أمعن التفكير في ظروفه المحبطة، قام بذلك بضيق فاطر يختلف تماماً عن الغضب المتوهج الذي استشعره ذات يوم. وبالطبع، كان للمناخ السائد في دار ماتسوجاي، وهو مناخ غير مألوف بالمرة بالنسبة له، تأثير كبير في التغيرات التي طرأت عليه. غير أنه منذ البداية ذاتها، كان المصدر الرئيسي للتغير هو كيواكي، الذي بلغ الآن الثماني عشرة من عمره.

سيبلغ الفتى التاسعة عشرة من عمره في هذا العام المقبل. ولو أن إينوما حرص على أن يتخرج كيواكي من مدرسة النبلاء بتقديرات جيدة، وأن يتم إلحاقه بكلية الحقوق في جامعة طوكيو الإمبراطورية، مع إقبال خريف العام الحادي والعشرين من عمره، لأحس بأن المسؤولية التي اضطلع بها قد أدت على مايرام. غير أنه لسبب لم يقدر لإينوما أن يسبر غوره، لم ير الأمير ماتسوجاي أن من المناسب أن يحمل ولده حملاً على أداء مهمته المتعلقة بإيجاد سجل مدرسي مشرف على أفضل وجه. وبحسب ما تبدو الأمور عليه الآن، فليست هناك فرصة كبيرة أمام كيواكي لدراسة الحقوق في جامعة طوكيو. وبعد التخرج من مدرسة النبلاء لا يبدو أن أمامه مخرجاً إلا الاستفادة من امتيازاته باعتباره عضواً في طبقة النبلاء ودخول أي من

جامعتي كيوتو أو توهوكو الأمبراطورية دون الاضطرار إلى اجتياز امتحان القبول. وقد اتسم أداؤه في المدرسة باللامبالاة، فلم يبذل جهداً في دراساته، ولم يعرض عن هذا على الإطلاق بمحاولة التفوق في الألعاب الرياضية. ولو أنه كان طالباً متميزاً، لكان بمقدور إينوما أن يشارك في الافتحار، مانحاً أقاربه وأصدقاءه في كاجوشيما سبباً للتباهي به. أما الآن فما كان بوسع إينوما إلا أن يستعيد على نحو غائم الآمال الكبار التي كانت تحده يوماً. وإضافة إلى هذا فقد أدرك، محرور النفس، أنه بغض النظر عن مدى تدني تقديرات كيواكي فإنه لا يزال يضمن مع ذلك الحصول على مقعد في مجلس النبلاء.

كانت الصداقة بين كيواكي وهوندا مصدراً آخر للشعور بالضيق، فقد احتل هوندا مرتبة الصدارة في صفه، لكنه لم يقم بأي محاولة للتأثير على صديقه باتجاه الأفضل، رغم تقدير كيواكي له، وإنما حدث العكس في حقيقة الأمر. ومن منظور إينوما كان هوندا يتصرف كأنه معجب عمي عن كل عيوب كيواكي، فلم يجر حيالها انتقاداً.

لعبت الغيرة، بالطبع، دورها في الضيق الذي خالج إينوما، فبحكم كون هوندا صديقاً وزميلًا لكيواكي كان بمقدوره أن يتقبل هذا الأخير على ما هو عليه، بينما كان بالنسبة لإينوما صرحاً خالداً يجسد إخفاقه.

كان مظهر كيواكي، تأنقه، عدم ثقته بنفسه، تعقده، وعدم ميله إلى القيام بأي جهد، ونزغته الخاملة فاترة المهمة، وجسمه الرائع، وبشرته الرقيقة، وأهدابه الوطفاء، المنسدلة فوق عينيه الخاليتين - كل سماته تأمرت لتخذل آمال إينوما بفتنة بديعة ولا مبالية نابعة من ذاتها. فنظر إينوما إلى سيده الشاب باعتباره تقريباً ساخرًا دائماً.

من شأن هذا الإحباط بالغ المرارة، والشعور بالفشل القاضم في حديثه

أن ينقلب، إذا امتد عبر فترة طويلة، إلى حماسة دينية موجهة إلى سبب الإحباط. وقد اعتري غضب هائل إينوما حيال كل من يستخف بكيواكي، وأدرك من خلال نوع من الحدس المضطرب الذي لم ينع هو نفسه حقيقة جانباً من طبيعة عزلة كيواكي، التي لا سبيل على وجه التقريب إلى اقتحامها. وبالمقابل، فلا شك أن إصرار كيواكي على الاحتفاظ بمسافة فاصلة بينه وبين إينوما قد نبع من حقيقة إدراكه بجلاء بالغ لطبيعة النزعة المتعصبة التي تتقد بين جوانح معلمه.

من بين جميع أفراد المعية في دار ماتسوجاي، كان إينوما وحده هو الذي سيطرت عليه هذه الحماسة، وهي شيء غير ملموس، غير أنه يتبدى جلياً بمجرد تطلع المرء إلى عينيه. وذات يوم، سأل أحد الضيوف مضيفه، قائلاً: «عفواً، ولكن وصيفكما هذا ليس بالاشتراكي. أهو كذلك؟». لم يستطع الأمير وزوجته منع أنفسهما من الانفجار ضاحكين، حيال هذا السؤال، إذ كانا على إلمام تام بالعالم الخلفي، الذي قدم منه إينوما، وبسلوكه الحالي، والتبتل الذي كان ينطلق به يوماً بعد يوم ليرتل صلواته في مزار «أومياساما». فقد اعتاد هذا الشاب الجهم الصوت أن يمضي إلى مزار العائلة صباح كل يوم، وهنالك يفضي بمكنون فؤاده لوالد الأمير الذائع الصيت، الذي لم يعرفه قط في حياته. وفي الأيام الأولى، كانت توسلاته تطلق بغضب جارف، ولكن مع تقدمه في العمر راح يشكلها سخط شامل، امتد الآن ليضم رحاب دنياه بأسرها.

كان أول من يستيقظ، فيغسل وجهه، ويتمضمض، ثم يرتدي كيمونوه المقلّم بالأزرق القاتم والأوكوراهاكاما، وينطلق باتجاه المزار.

كان يشق الطريق الذي يمر غير بعيد عن مهجع الوصيفات، في مؤخرة الدار الرئيسية، مخترقاً أجمة السرو اليابانية. وفي الطقس البارد، كطقس هذا الصباح، كان البرد يحول وحل الطريق إلى أكوام لولبية صغيرة، وعند

سحقها وطء قبقاب إينوما الخشبي الثقيل تناثرت إلى شظايا صافية متألقة. والتمعت شمس الصباح، الجامعة، متوهجة وشفافة فوق الوريقات الداوية والخضراء التي لاتزال تثبت بأشجار السرو، على أنفاسه المتجمدة المنطلقة في الهواء الشتائي، فاعتراه شعور بالنقاء، على نحو مطلق. وملاً شدو الطيور السماء الصباحية الشاحبة الزرقة. على أنه بالرغم من الدافع للابتهاج الذي ينبع من الهواء البارد، وهو يلطم بحدة جلده العاري، تحت كيمنوه المفتوح العنق، كان ثمة شيء ما يعتصر فؤاده بأسى مرير: «آه، لو جاء السيد الشاب معي، ولو لمرة واحدة!».

لم يقدر له أن يفلح أبداً في إيصال هذا الشعور الذكوري القوي بالرفاه إلى كيواكي. وما كان بمقدور أحد أن يحمله المسؤولية عن هذا الفشل. لم يكن هناك مجال لإجبار الفتى على مصاحبته، في هذه المسيرات الصباحية، ومع ذلك، فقد واصل إينوما توجيه اللوم إلى نفسه، ففي خلال ست سنوات لم يستطع إقناع كيواكي بالمشاركة، ولو لمرة واحدة، في هذه «الممارسة الوردية».

على القمة المسطحة للتلة، تفسح الأشجار المجال لمنطقة عريضة ينمو فيها النجيل، الذي غدا الآن هشيماً بني اللون، وعبرها يفضي طريق مرصوف بالحصى إلى المزار. وفيما إينوما يتطلع إليه وقوة شمس الصباح بأسرها تنهل على الحليتين المتخذتين من الحجر الجرانيتي أمامه وقذيفتي المدفع عند جانبي درجه الحجري، غمره شعور بتملك ناصية الذات. هاهنا، عند الفجر، وجد هواء من نقاء ينطلق، حرّاً من الضخامة الخائقة التي تتغلغل في دار ماتسوجاي. أحس كما لو كان يتنفس في تابوت جديد من الخشب الأبيض حديث العهد، فمنذ طفولته الباكرة كان كل ما لُفن توقيره باعتباره جليلاً وجميلاً، فيما يتعلق بآل ماتسوجاي، كان يوجد في جوار الموت.

بعد أن مضى إنوما صاعداً الدرج، واحتل مكانه أمام المزار، رأى عصفوراً صغيراً، لمحة من صدر أحمر قاتم، فيما هو يتوالب على أغصان شجرة ساكاسي، محدثاً حفيفاً بين الوريقات المتألقة، ثم بصيحة مصاكة إندفع دافئاً نحو البعيد، فحدث نفسه بأن ذلك العصفور كان صائد ذباب.

ضم راحتي يديه معاً، وكعده، راح يبتهل إلى جد كيواكي، باعتباره «السلف الموقر»، ثم في صمت مضى ينأشده، «لماذا قدر لعهدنا أن يكون عهد تفكك وانحدار؟ لماذا لم تزدرى الدنيا القوة والشباب والطموحات اللاتئة والاعتداد بالرأي؟ كنت ذات يوم تبطش بالرجال بسيفك، وقد جرحتك سيوف آخرين، وتحملت أشد المخاطر جسامة - كل ذلك لتقيم صرح يابان جديدة. وفي نهاية المطاف، بعد أن نلت مكانة رفيعة وتقديراً من الكافة مت، أعظم الأبطال في عهد بطولي. لماذا لا نستطيع أن نستعيد مجد عهدك؟ وحتام يستمر هذا العصر الذي يسوده ما هو عقيم وجدير بالازدراء؟ أم أن الليالي لاتزال حبل بما هو أسوأ؟ الرجال لا يفكرون إلا في المال والنساء، لقد نسوا كل ما يليق بالرجل، لقد انقضى ذلك العهد العظيم والمتألق الحافل بالآلهة والأبطال مع رحيل الأمبراطور ميجي. أترى سنشهد مثيلاً له من جديد؟ عهد تمنح فيه قوة الشباب نفسها، دون أن يعوقها عائق، من جديد؟

«في عهدنا الحالي، عندما تتناثر أماكن تدعى بالمقاهي، في كل مكان، مجتذبة الآلاف من الكسالى، الذين يحملون مالا يرغبون في تبديده، عندما يتصرف التلاميذ والتلميذات على نحو يصدم المشاعر أشد ما تكون الصدمة، بسلوكهم في الحافلات، حتى ليصبح من الضروري فصلهم بعضهم عن البعض الآخر، فقد الرجال كل أثر لتلك الحماسة، التي حدث بأسلافهم إلى قبول أفطع التحديات. أما الآن فلا جدوى منهم، اللهم إلا

في الإشارة بأيديهم العاجزة، كأنها وريقات أشجار جافة، هشة، تهزها أقل نسمة هواء.

ولماذا كل هذا؟ كيف حلّ مثل هذا العهد بساحتنا، عهد دُنس كل ما كان ذات يوم مقدّساً. يا للحسرة أيها السلف الموقر! إن حفيدك، الذي أعمل بخدمته، هو، من كل الجوانب، وليد هذا العصر المتحلل، وإني لعاجز عن القيام بأي شيء حيال ذلك. أترى يتعين عليّ أن ألقى حتفي تكفيراً عن فشلي؟ أم أن الأمور تجري في مسارها بحسب مخطط كبير من وضعك؟».

ناسياً البرد في غمار حماسة ابتهالاته، وقف إنوما هنالك، كيئناً مكتمل الرجولة، بصدرة المتلبّد الشعر، البارز من خلال كيمونوه المفتوح. وفي حقيقة الأمر، أنه شعر بالأسف، في قرارة نفسه، لأن جسده لم يستجيب لنقاء حماسه. ومن ناحية أخرى، فإن كيواكي، الذي نظر إلى جسمه باعتباره إناء مقدّساً، كان يفتقر إلى النقاد الصلب، الذي يُقتضى من كل الرجال الحقيقيين.

عندئذ، فجأة، وفي سمت إفضائه المتقد حماسة بمكنون قلبه، وفيما حرارته تتصاعد، رغم هواء الصبح البارد المدوم تحت هاكاماه، بدا في الشعور بأنه مستشار جنسياً؛ فانتزع في التومقشة، من موضعها على الأرض، وشرع في كنس المزار في دفع من الطاقة المهتاجة.

بعد وقت قصير من حلول العام الجديد، استدعي إينوما إلى غرفة كيواكي، وهنالك ألقى السيدة العجوز، تاديشينا، التي كان يعلم أنها وصيفة ساتوكو.

كانت ساتوكو نفسها قد زارت دارة ماتسوجاي بالفعل، لتبادل التهاني والتبريكات، بمناسبة حلول العام الجديد، أما اليوم فقد انتهزت تاديشينا الفرصة لإحضار بعض الهريس المنخول، التقليدي، المعد على طريقة كيوكو، كهدية منها، وانسلت دون أن يلحظها أحد إلى غرفة كيواكي. وعلى الرغم من أن إينوما كان يدرك هويتها، إلا أن تلك كانت المرة الأولى التي يدفع فيها إلى لقاءها عمداً، ولم يكن السبب في هذا واضحاً بالنسبة له.

قوبل العام الجديد على الدوام باحتفالات زاخرة في دارة ماتسوجاي حيث يجيء حوالي عشرين شخصاً أو يزيدون من كاجوشيما، وبعد المضي إلى المستقر الأخير لكبير العشيرة التقليدي لإبداء توقيهم، يشاركون في الاحتفال في دارة ماتسوجاي. وقد حظيت مآدب عشاء العام الجديد، التي كان طعامها يطهى على طريقة هوشيجوكا، ويقدم في القاعة الرئيسية ذات عروق السقف السوداء، بشهرة كبيرة، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى الحلوى مثل «الآيس كريم» والشام التي كانت ألواناً لا يكاد أبناء الريف يعرفون لها مذاقاً على وجه التقريب. غير أنه في هذا العام، وبسبب عدم انقضاء فترة الحداد على الأمباطور ميجي، لم يأت إلا ثلاثة ضيوف فحسب

من كاجوشيما، من بينهم ناظر مدرسة إينوما الوسطى، وهو سيد مهذب شرف بمعرفة جد كيواكي.

كان الأمير ماتسوجاي قد أرسى دعائم طقس معين مع الناظر المعجوز، ففياً إينوما يقوم على خدمته على المائدة يمضي الأمير في الحديث بمزيد من التلطف مع المعجوز: «أجاد إينوما العمل هنا». وفي هذا العام كذلك، استخدمت هذه الصيغة، وغمغم الناظر بمزيد من التهذيب بكلمات مألوفة توحى بتواضع ما قام به إينوما، على نحو ما هو متظر منه مثلما يضع أحدهم خاتمه على وثيقة مكرورة. ولكن في هذا العام، وربما بسبب وجود أضياف يعدون على الأصابع، بدا الاحتفال لإينوما مجرد إجراء شكلي يفتقر للحماسة والإخلاص.

وبالطبع، لم يكن إينوما قد قدر له أن يقدم نفسه لأي من السيدات الباهرات اللاتي أقبلن لزيارة الأميرة؛ ولذا فقد دهش حينما جوبه في مكتب سيده الشاب بإحدى الزائرات بمناسبة العام الجديد بغض النظر عن مدى تقدمها في العمر.

كانت تاديشينا ترتدي كيمونو أسود مرقشاً بريشات زخرفية. وعلى الرغم من أنها جلست منتصبه في مقعدها، على النحو اللائق تماماً، فقد بدا من الواضح أن الويسكي الذي راح كيواكي يهيب بها أن تحتسي المزيد منه قد ترك بعض الأثر عليها، ودون أن يفقد شعرها الضارب إلى اللون الرمادي، والذي جمع في إحكام، في عقدة واحدة - دون أن يفقد نعومته وبريقه، توهج جلد جبينها عبر طبقة مادة التجميل البيضاء بظل من لون زهر التموج الذي غطاه الجليد.

بعد أن حُيت إينوما بنظرة قصيرة، عادت إلى القصة التي كانت تروها عن الأمير سايونجاي:

«يقول الجميع إن الأمير تمتع بالطباق والكحول منذ كان في الخامسة من عمره فصاعداً. وعائلات الساموراي حريصة دوماً على تربية أبنائها على نحو معصوم من الخطأ. أما في العائلات النبيلة - وأحسب أنك تعرف ما أقصد أيها السيد الشاب - فإن الآباء لا يعملون على انضباط أبنائهم من لحظة ولادتهم. ألا توافق على ذلك؟ ذلك أن أبناءهم، في نهاية المطاف، يتلقون رتبة الدرجة الخامسة البلاطية لدى ميلادهم، الأمر الذي يؤهلهم لأن يصبحوا أتباعاً لسموه الإمبراطوري، وهكذا فإن آباءهم لا يجسرون، توقيراً للإمبراطور، على التزام الخشونة معهم. وفي دار نبيل من نبلاء البلاط، لا يتفوه أحد بكلمة عن سموه الإمبراطوري مالم تكن متسمة بالحكمة المطلقة، تماماً مثلما لا يجروء أي شخص ينتمي حتى إلى دار نبيل متواضع على التغامز علانية على هذا النبيل. وعلى هذا الحال تمضي الأمور. وسيدتي بدورها تكن هذا الإجلال العميق عينه لسموه الإمبراطوري. ولكن الأمر بالطبع لا يمتد إلى النبلاء الأجانب». كانت هذه الإشارة الأخيرة هي طعنة تاديشينا الساخرة، الموجهة إلى كرم الضيافة، الذي يعامل به آل ماتسوجاي الأميرين السيامين، ثم سارعت إلى تدارك الموقف قائلة: ولكن بفضل رقتك العظيمة حصلت على امتياز رؤية مسرحية من جديد، بعد زمن لست أدري مداه، فأحسست بأن ذلك منحني عمراً جديداً».

ترك كيواكي تاديشينا تثرثر، على هواها، حسبما اتفق. وحينما طلب منها القدوم إلى مكتبه كان في ذهنه شيء محدد بالدقة، فقد أراد التحرر من الشك الذي طارده، وأثقل كاهله منذ تلك الليلة. وهكذا، وبعد أن قدم لتاديشينا المزيد من الويسكي، سألها، بغته، عما إذا كانت ساتوكو قد تلقت رسالته، في حقيقة الأمر، وألقت بها دون أن تفتحها إلى النار تلبية لما طلبه منها.

جاء ردها عن طوعية بأكثر مما توقع : « آه ! ذلك الأمر ! حدثني سيدتي الشابة ، فور حوارك الهاتفي معها بالأمر ، وهكذا عندما وصلت الرسالة في اليوم التالي ، مضيت بها ، فأحرقتها دون فتحها ، وتم ترتيب كل شيء ، فليس لك أن تشعر بالقلق ، حيال هذا الأمر ، على الإطلاق » .

لدى سماع كيواكي بهذا ، أحس بشعور رجل كافح لساعات طوال عبر نباتات شائكة ملتفة ، وفي النهاية شق طريقه عنوة إلى العراء . تفتحت أمام عينيه آفاق من الاحتمالات البهيجة . فعدم قيام ساتوكو بقراءة الرسالة أنجز أمرين : فهو لم يعد بالأمور إلى توازنها السابق فحسب ، وإنما أصبح كيواكي الآن يشعر ، بمزيد من السعادة ، بأنه على يقين من أنه قد فتح أفقا جديداً ، يطل على الحياة .

كانت ساتوكو قد قامت بالفعل بمبادرة ذات عواقب باهرة ، فقد تزامنت زيارتها السنوية بمناسبة العام الجديد مع يوم كان الأمير يخصه تقليدياً لأبناء أقاربه الذين يجتمعون في داره ، وتتراوح أعمارهم من الثالثة إلى العشرين . وفي ذلك اليوم الواحد يضطلع بدور الأب المحب ، فيصغي بسعة صدر لما يقوله كل منهم له ، ويتقدم بالنصح عندما يطلب منه ذلك . وفي هذا العام ، أحضرت ساتوكو بعض الأطفال لمشاهدة الجياد .

مضى بهم كيواكي إلى الاسطبل ، الذي يحتفظ فيه آل ماتسوجاي بجيادهم الأربعة . كان مزيناً بمناسبة الأعياد بالحبل الملثوي التقليدي في الاحتفال الشتوي . بدت الجياد لكيواكي فجأة بأجسامها القوية اللدنة العضلات ، فيما هي تراجع ، أو تغمض الألواح الخشبية بحوافرها ، وكأنها تنبض بحياة تناسب العام الجديد . ابتهج الأطفال لمراها ، وسألوا السائس عن أسمائها ، ثم صوبوا نحو الأسنان الصفراء الكبيرة ، وألقوا بحفئات من قطع الحلوى المجروشة ، كانوا يسكونها في أيديهم . حدقت جياد المتوفرة طويلاً في معذبيها ، بأعين تقدح شرراً ، الأمر الذي زاد في بهجة الأطفال ،

حيث أن هذه النظرات المتقدة تعني أن الجياد تنظر إليهم باعتبارهم من الكبار.

غير أن ساتوكو أفرعها للعب المشال من أشواق الجياد الفاغرة؛ فانسحبت إلى شجرة دائمة الخضرة على مبعده تتخذها ملاذاً، ومضى كيواكي ليلحق بها، تاركاً الأطفال للسائس.

وشت عيناها بأثار الساكي المقبل الذي كان احتساؤه أمراً تقليدياً في احتفالات العام الجديد. ومن هنا فإن ما قالتها - في إطار من صيحات البهجة الصادرة من الأطفال - ربما يعزى إلى هذا المؤثر. وعلى أية حال، فلإنها فيما كان كيواكي يقترب من جانبها، راحت تتطلع إليه، على نحو مفارق للرزانة، وشرعت في الحديث وبحة انفعال تخالج صوتها:

- سعدت كثيراً تلك الليلة، لعلك تعلم هذا، قدمتي كما لو كنت خطيبتك. إني واثقة من أن الأميرين قد دهشا حيال تقدمي في العمر. ولكن أتدري ما كان عليه شعوري آنذاك؟ لو أنني لقيت حتفي راغمة في تلك اللحظة عينها لمت سعيدة. إن سعادي في قبضي يدك. فاحرص عليها! هل لك في ذلك؟ لم أكن سعيدة مع مقدم عام جديد كسعادي الآن. لم أتطلع على مثل هذا النحو من قبل قط لما يمكن أن يحمله العام الجديد.

لم يدر كيواكي ما عساه يقول، فتساءل أخيراً بصوت متوتر النبرات:
- لماذا لم تحدثيني بكل هذا؟

- آه، يا كيواكي، عندما تغلبي السعادة تنطلق كلماتي، كأنها الحمام الذي يطلقونه في احتفال بتدشين سفينة جديدة، فتحلّق منطلقة، عبر نثار من قصاصات الورق الملون، سرعان ما تفهم الأمر قريباً يا كيوا!

ومما زاد الطين بلة أن ساتوكو أنهت حديثها بتلك العبارة التي أعدت
لتثير ضيق كيواكي : «سرعان ما تفهم الأمر قريباً» .

حدث كيواكي نفسه ، قائلاً :
- ألا ما أشد تفاخرها واعتدادها بنفسها ! إنها أكبر سناً وأكثر حكمة .

وقع هذا كله قبل أيام . أما اليوم ، وبعد الصورة التي رسمتها تاديشينا
عن مصير الرسالة ، فقد تبددت شكوك كيواكي المتأرجحة ، وغدا الآن واثقاً
من أنه يستهل عاماً جديداً في ظل أفضل الظروف ، لسوف يتخلص من
الأحلام الكثيرة التي أرقتة الليالي ، وصمم على أنه من الآن فصاعداً
ستكفل السعادة أحلامه ، وسيتم أسلوبه دائماً بالصراحة ، وبما أنه سيتحرر
من الكتابة والقلق ، فسوف يحاول توصيل رفايته إلى الجميع . ولكن
الإعراب عن حسن النية للبشر أمر محضوف بالمخاطر في أفضل الأحوال ،
ويقتضي درجة يعتد بها من النضج والحكمة . ومع ذلك ، فقد دفع شعور
غريب بالرغبة في الإسراع كيواكي إلى المضي قدماً .

غير أنه كائناً ما كان شعوره هذا بالاضطلاع برسالة عليه أداؤها ، فإنه لم
يستدع إينوما إلى غرفته لمجرد الرغبة العطوف في تخليص معلمه من كآبته ،
ورؤية ملامحه والسعادة تكسوها .

تحالف الساكي ، الذي احتسأه ، مع شيء آخر لدفعه إلى حد التصرف
الأهوج . كانت تاديشينا ، على الرغم من طريقتها الموحية بالحياء وباللباقة
الجملة ، يحيط بها مناخ معين ، يذكر المرء بمشقة على مبعي ، وإن كان مبعي
يتمتع بشهرة قديمة ومشرفة . وبدت نزعة حسية خالصة ، لا سبيل إلى أن
تخطئها العين ، متشبثة بتجاعيد وجهها ذاتها . وقد أثار قربها على هذا النحو
عناد كيواكي الطبيعي .

قال، عامداً، وموجهاً حديثه إلى تاديشينا، على نحو يقصره عليها:
- بالنسبة للعمل الدراسي، علّمني إينوما كل شيء. ومع ذلك، فهناك
عدد من الأمور التي لم يعلمني إياها. والحقيقة هي، بالفعل، أن هناك
عدداً من الأمور لا يحيط بها إينوما علماً. ولهذا السبب، على وجه الدقة،
سيتعين عليك أنت، يا تاديشينا، أن تصبحي معلمة إينوما، كما لعلك
فهمت.

قالت تاديشينا، بمزيد من الاكتراث بالأمر:
- حقاً، يا سيدي الشاب، أيّ كان ما تعنيه بالتصرف على هذا النحو.
هذا السيد المهذب المائل هاهنا هو طالب جامعي، ومخلوقة عجوز جاهلة
مثلي...

- بالضبط. لأن ما أتحدث عنه لا علاقة له بما يتم تعلمه في المدرسة.
- هيء، هيء، أي حقاء تجعلني أبداً!

وعلى هذا النحو، استمر الحديث سجالاً، دون أن يشارك فيه إينوما.
ولما كان كيواكي لم يشر إلى أن بمقدوره الجلوس؛ فقد واصل الوقوف،
متطلعاً إلى البحيرة في البعيد. كان اليوم من الأيام المكفهرة، وراح سرب
من البط يسبح بها، قرب الجزيرة، التي ارتفعت منها تيجان أشجار
الصنوبر قائمة الخضرة، باردة، ومتوعة. وذكره النجيل الخشن البني اللون،
الذي غطى الجزيرة، بمعطف واحد من المطر، صنع من القش مما يرتديه
الفلاحون.

أخيراً، وبكلمة من كيواكي، جلس إينوما، متخشباً، في أحد المقاعد.
حتى الآن لم يبد على كيواكي أنه لاحظ في وقوفه إلى جوار الباب، الأمر
الذي بدا له غاية في الغرابة. فحدّث نفسه بأن سيده ربما كان يقوم
باستعراض لسلطته، أمام تاديشينا. ولئن كان الأمر كذلك، فإنه شيء
جديد في كيواكي يدخل السعادة على نفسه هو، إينوما.

- طيب، الآن، يا إينوما، كانت تاديشينا تتبادل لتوها الحديث الفضولي مع وصيفاتنا، وبالصدفة المحض اتفق أنها سمعت... .

- أيها السيد الشاب، أرجوك، لا تفعل ذلك!
قالتها تاديشينا، ملوَّحة بيديها، في إظهار للضييق، المفعم بالتوتر والاضطراب، وحاولت إيقافه، ولكن بلا طائل.

- اتفق أنها سمعت أن الوصيفات مقتنعات بأنك، عندما تمضي إلى المزار كل صباح، فإن ما يساورك لا يقتصر فحسب على الحماسة الدينية.

- لا يقتصر فحسب على الحماسة الدينية؟
قالها إينوما، وقد تقلصت ملامحه، واستقرت قبضته المضمومتان في حجره، وشرعنا في الارتجاف.

ناحت تاديشينا:

- أرجوك، أيها السيد الشاب، لا تفض إليه بجلية الأمر!
تمالكت في مقعدها، كأنها دمية خزفية ألفت في إهمال، ولكن على الرغم من إفصاحتها عن الكرب الشديد، كان هناك بريق خافت، لكن العين لا تخطئه، في عينيها الغائرتين في محجريها. ولاحت الخطوط المحيطة بقمها مرتخية، جنباً إلى جنب مع طاقم أسنانها، الذي لا يناسبها تماماً، كشهود على نزعة حسية غابرة.

- لكي تصل إلى المزار، يتعين عليك المرور بالجناح الخلفي للدار. أليس كذلك؟ الأمر الذي يعني، بالطبع، أنك تسير إلى جوار نافذة جناح الوصيفات تماماً. وفي طريقك، كل صباح، كنت تتبادل النظرات مع «مايني». وأخيراً، قبل أيام، دسست لها بقصاصة مكتوبة، عبر شبكة النافذة. أو هكذا يقلن. أهذا صحيح أم لا؟

قبل أن ينهي كيواكي حديثه، جثا إينوما على قدميه، وقد تقلص وجهه

الشاحب، في يأس طاع، بينما هو يكافح للسيطرة على نفسه. بدا الأمر كما لو أن حرارة متوهجة البيضاء تتصاعد في أعماقه، على أهبة الانفجار متحوّلة إلى جحيم رهيب. ابتهج كيواكي بما ارتسم على محياه، الذي انقلب من التعبير الكثيب، الرابط الجأش، الذي اعتاده. وعلى الرغم من أن إينوما بدا غارقاً في المعاناة، على نحو جلي، فإن سحته التي تقلصت متحوّلة إلى قناع بشع كانت بالنسبة لكيواكي توحى بالسعادة.

- ألا يتكرم السيد الآن بالساح لي بالانصراف؟

قالها إينوما، منقلباً على وجه السرعة نحو الباب، لكنه قبل أن يتمكن من قطع خطوة واحدة، وثبت تاديشينا من مقعدها لإيقافه، بخفة أذهلت كيواكي. ففي لحظة، انقلبت من عجوز، أقعدتها الشيخوخة، إلى فهدة تنقض على فريستها.

- لا ينبغي أن تنصرف! ألا ترى ما سيحل بي إن فعلت ذلك؟ لقد خدمت آل أياكورا، طوال أربعين عاماً، ولكن لئن اكتشفوا أنني الملوّمة في طرد شخص من خدمة آل ماتسوجاي، بسبب زلة من لساني، فإنهم سيطرّدوني كذلك. أشفق عليّ قليلاً رجاء! عليك بالتفكير فيما سيقع. أتفهم ما أقول؟ يا لطيف الشباب وتهوره! ولكن ماذا عسانا نملك حيال ذلك؟ إنه أحد مصادر جاذبية الشباب.

هكذا، تشبّت تاديشينا بردن إينوما، وراحت تتحدث في بساطة حديثاً في الصميم، معترضة برق، وبسلطة يهبها طول العمر.

تكمّلت طريقتهما المفعمّة بالثقة الراسخة على مدار السنين، وخلال ذلك المدى الزمني، أفنعت نفسها بأنها مخلوق لا غنى عنه، في إدارة شؤون الدنيا. الآن عاد محياه إلى تماسكه، وشعّ بثقة من ألف الإشراف على الإدارة المرنة للأحداث، من وراء الكواليس. في قلب حفل وقور، قد

يتمزق كيمنونو عند خط الاتصال، في مفاجأة تثير الاستياء، وقد ينسى أحدهم نسخته من خطاب التهته، الذي دبجه بمزيد من العناء. لقد ولدت ثقة تاديشينا من قدرتها المجرّبة على معالجة هذه الأزمات وآلاف غيرها، بكفاءة لا تعرف الاضطراب. والأمور التي كانت بالنسبة لمعظم الناس صواعق مدمرة انقضت من المجهول لم تعد بالنسبة لها أن تكون مما يتدبر شأنه في يوم أو نحوه. وهكذا بحذقها الحاضر في تفادي مخاطر الكوارث المباغتة كرّست مراراً جدارة دورها في الحياة. كانت هذه السيدة العجوز الهادئة تعرف أنه ما من شيء في الأمور المتعلقة بالإنسان يمكن الركون إلى وقوعه تماماً على نحو ما أريد له. ففرقة سنونو وحيد عبر سماء زرقاء خلّت من السحب قد تكون نذير عاصفة مفاجئة. هكذا ما كانت لتخالج تاديشينا، باحتياطاتها التي لا تنفد من التجارب، الشكوك حول قيمتها وجدواها.

أتيج لإينوما، فيما بعد، وقت طويل ليمعن التفكير في الأمر، ولكن في غالب الأحوال تتغير حياة إنسان بأسرها بسبب لحظة تردد. وقد عايش إينوما مثل هذه اللحظة، وبها قضي الأمر. وبما أنه كان شاباً، وما عركته الحياة، فقد غاص الافتقار إلى اليقين في أعماقه، مثلما تشق زعنفه سمكة قرش سطح الماء. أترى مايني سخرت من قصاصته وأرتها للجميع؟ أم أنها ظهرت بشكل آخر مسببة لها شعوراً هائلاً بالخلج والعار؟ أراد، على نحو يائس، أن يعرف الحقيقة.

مضى كيواكي يتفحصه، وهو يعاود الجلوس من جديد. لقد أحرز فوزاً لما يمنحه الكثير مما يتفاخر به. فتخلّى عن كل أمل في مّديد المكرمات إلى إينوما. لم يعد هناك ما يمكن القيام به إلا إطلاق العنان لشعوره بالسعادة، وإنجاز التفاصيل خلال مضيه في الأمر قدماً. خامره شعور جديد بالقوة، وأحسن بمقدرته على التصرف بالاعتدال الذي يهبه النضج :

- لم أطرح هذا الأمر، لأثير الأسى في نفسك أو لأضعك موضع السخرية. ألا ترى أنني وتاديشينا نحاول التوصل إلى خطة تناسبك على أفضل وجه؟ لن أبلغ أبي بكلمة واحدة مما سمعت، وسأعمل على التيقن من عدم وصول أي شيء إليه من مصدر آخر. أما فيما يتعلق بما سنقوم به توأ، فإنني على يقين من أن معرفة تاديشينا واسعة النطاق وخبرتها متعددة الجوانب في هذه الأمور سيكونان خير عون لنا. أليس كذلك يا تاديشينا؟ حقاً إن مايني من أجهل الفتيات بالدار، وهذا يشكل مشكلة صغيرة، ولكن ما عليك إلا أن تدعني أتدبر الأمر.

تألفت عينا إينوما، مثل عيني جاسوس وقع في فخ نصب له؛ وتثبت بكل كلمة من كلمات كيواكي، خائفاً من أن تصدر عنه نامة. وعندما حاول التغلغل في جوهر كلمات كيواكي، بدا أنه يطلق في أعماقه فيضاً جاثماً من مشاعر القلق. ومن ناحية أخرى، فإنه عندما جلس هنالك ملتزماً السلبية، بدت كلمات كيواكي وكأنها تنصبّ في روحه ذاتها.

لم يسبق لإينوما من قبل قط أن رأى مثل هذا التعبير الموحى بالتسلط على محيا الشاب، الذي واصل الحديث بعظمة لا تتناسب بالمرة مع شخصيته. كان أمله الكبير، بالطبع، أن كيواكي سيتخذ وضعاً ناضجاً كهذا ذات يوم. لكنه لم يحلم أبداً بأن ذلك سيقع في ظل ظروف كهذه. وفي غمار خسارته لكل شيء أمام كيواكي على هذا النحو - ألم تكن شهرته هي التي أوقعت به الهزيمة. على هذا النحو راح يسائل نفسه. وبعد ترده القصير قبل لحظة، ألم يحسّ بأن انطلاقه المخجل وراء اللذة قد أصبح الآن مشتبكاً بصورة لا مجال لفصمها مع الولاء والقيام بخدمة سيده؟ ذلك كان الفخ الذي نصبه له بمثل هذا القدر من الحذق. غير أنه حتى في الأعماق الراهنة لإذلاله الذي لا مجال لاحتماله فتح له باب ذهني صغير في تحقيق صفقتها الصامتة.

بعد أن فرغ كيواكي من حديثه، راحت تاديشينا تتحدث بنغمات صوتية ناعمة، كأنها الكُرَّاث الأندلسي المقشر، قائلة :
- الأمر على نحو ما قال السيد الشاب تماماً. إن له حكمة تتجاوز عمره كثيراً.

كان إينوما على الدوام يعتبر كيواكي على العكس من ذلك تماماً. أما الآن فقد أصغى إلى تاديشينا دون شعور بالمباغته .

قال كيواكي، كرة أخرى:

- والآن، بالمقابل، يا إينوما، لا بد لك من التوقف عن إلقاء المواعظ على مسامعي والتعاون مع تاديشينا لتقديم بعض العون لي. ولئن فعلت ذلك، فإني سأقوم بالمثل بالنسبة لقصة حبك. بمقدورنا نحن الثلاثة أن تربطنا صداقة وثيقة.

التقط كيواكي، مرة أخرى، المذكرات التي يسجل فيها أحلامه، وكتب: «على الرغم من أنني لم أعرف الأميرين السياميين لفترة طويلة للغاية، فقد حلمت بسيام مؤخراً. كنت أجلس على مقعد وثير في منتصف قاعة. وبدأ أنني محتجز هناك، وعاجز عن الحركة. وعلى امتداد الحلم شعرت كما لو أن صداً يعلم بي؛ وكان هذا راجعاً إلى أنني اعتمدت تاجاً ذهبياً، طويلاً، مديباً، مرصعاً بكل أنواع الأحجار الكريمة. وفوق رأسي استقر سرب هائل من الطواويس على متاهة من العروق الخشبية، دون السقف مباشرة. وبين الفينة والأخرى، كانت فضلات شهباء اللون تتساقط على تاجي.

في الخارج، كانت الشمس تنقد حارقة، تنصب أشعتها على حديقة مهجورة غدت برية تماماً. كان كل شيء ساكناً، فيما عدا الطنين الخافت الصادر عن الذباب، والصوت الثقيل العابر لأرجل الطواويس على العروق الخشبية، في أعلى القاعة، أو في بعض الأحيان الحفيف الذي تحدثه أجنحتها. كانت الحديقة محاطة بسور حجري عال، ولكن كانت هناك فتحات كبيرة فيه تشبه النوافذ، ومن خلالها كان بوسعي أن أرى جذوع أشجار النخيل، ووراءها تراكت سحب بيضاء، متألقة، لا تحير حراكاً.

ثم تطلعت إلى يدي، ورأيت أنني أضع في أحد أصابعي خاتماً تتألق فيه زمردة. كان ذلك هو بالطبع خاتم تشاوي. ولكنه بشكل ما وضع في أصبعي. من المؤكد أن التصميم كان هو ذاته تصميم الخاتم نفسه،

الوجهان الجهمان للبرين الحارسين، الياكشا، وقد نقشا في الذهب، على كل من جانبي الحجر.

رحت أهدق في الخاتم المتألق، في الشمس المنهلة من الخارج، وقد استقطب ناظري نور أبيض، صاف، مكتمل، يلتمع كأنه بلورات الثلج في قلب الزمردة. وفيما كنت عاكفاً على هذا، أدركت وجود وجه امرأة، شابة، وجيلة، تشكل تدريجياً داخل الزمردة. التفت حولي معتقداً أن ذلك انعكاس لأحد يقف ورائي، لكن لم يكن هناك أحد. الآن تحرك الوجه في الزمردة قليلاً، وتغير التعبير المرتسم عليه. وبينما كان الوجه جاداً، غدا الآن باسماً. وفي تلك اللحظة، بدأ ظهر كفي يؤلني؛ حيث استقرت ذبابة من حشد الذباب المحوم حولي عليه. أخذ مني الضيق مأخذه، فهزرت يدي لأتخلص منها، وعندئذ تطلعت إلى الخاتم ثانية. لكن عجا المرأة كان قد اختفى. وعندئذ ساورني شعور يستعصي على الوصف بالمرارة والخسران، فاستيقظت... .

لم يحدث أن كُلف كيواكي نفسه قط عناء إضافة تفسير شخصي لهذه الصور، التي تتوارد في أحلامه. وقد بذل قصارى جهده ليتذكر ما وقع، على وجه الدقة، وسجله كاملاً بقدر الإمكان، مضمناً المذكرات أحلاماً سعيدة أو أحلاماً متوعدة، تماماً على نحو ما تراءت له. ربما كان عدم الاستعداد هذا للإقرار بمعانٍ خاصة في الأحلام وحرصه على إيراد الوصف الدقيق يشيران إلى بعض الهواجس العميقة التي تساور كيواكي فيما يتعلق بالحياة ذاتها. وإذا ما قورن عالم أحلامه بعدم الاستقرار الانفعالي الذي يعايشه، في يقظته، فإن ذلك العالم يبدو أكثر أصالة. وما كان بوسعه على الإطلاق التيقن من أن هذه الانفعالات اليوم هي جزء من ذاته الحققة، لكنه كان يعرف أن كيواكي أحلامه، على الأقل، كان حقيقياً. كانت هذه الانفعالات تقاوم كل محاولات التحدي والتعین، بينما كان لأحلام كيواكي

قوام وطابع يمكن إدراكهما. كما أن كيواكي لم يستخدم مذكراته ليصب جام سخطه على مضايقات العالم الذي يحيط به، فهاهنا، على العكس من ذلك، وللمرة الأولى، تطابق الواقع المباشر مع رغباته، على وجه الدقة.

أصبح إينوما، الذي سمقت مقاومته تماماً، مطيعاً طاعة عمياء لسيده. وبلاشتراك مع تاديشينا عمل كوسيط لترتيب لقاءات كيواكي وساتوكو. وقد كان هذا النوع من الاخلاص كافياً لإرضاء كيواكي، وجعله، فضلاً عن ذلك، يتساءل عما إذا كان لشيء مثل الصداقة كل تلك الأهمية حقاً. وفي الوقت نفسه ودون إدراك كامل للأمر، تباعد تدريجياً عن هوندا. وقد أحزن هذا هوندا، ولكنه يدرك على الدوام بصورة قاطعة أنه لم يكن إلا ضرورة هامشية بالنسبة لحياة كيواكي، وعلى هذا النحو كان يعلم أن صداقتها قد افتقرت إلى عنصر حيوي للصداقة. ومن هنا فإن الوقت الذي كان من شأنه أن يمضيه متكاسلاً مع كيواكي أنفقه الآن عاكفاً على كتبه، فإلى جوار دراسته للحقوق بالألمانية والفرنسية والإنجليزية طالع باستفاضة في جوانب الأدب والفلسفة. وعلى الرغم من أنه لم يتبع الزعيم المسيحي العظيم كانزو أوتشيمورا فقد قرأ «الحائك» لكارلايل وأعجب به.

ذات صباح جليدي، وفيما كان كيواكي على وشك المغادرة إلى المدرسة، أقبل إينوما إلى مكتبه بحذر ملموس. لم يطرأ أي تغير على ملامحه ومظهره الكتيب، ولكن خنوعه الراهن جرّده من قدرته على إثارة ضيق كيواكي.

قال إنه تلقى لتوه مكالمة هاتفية من تاديشينا. وكانت الرسالة كالتالي: أحست ساتوكو بيهجة غامرة، حيال الثلج، إلى حد أنها تود ألا يمضي كيواكي إلى المدرسة، وأن يقبل لنزهة بالريكشو معها فوق الثلج، بدلاً من ذلك».

لم يسبق لأحد أن طلب مثل هذا الطلب العاث، على نحو مدهش،

من كيواكي قط . وبعد أن كان متأهباً للذهاب إلى المدرسة، وقف مذهولاً، ممسكاً بحقيبة كتبه في يده، وراح يحدّق في إينوما.

- ما هذا؟ أوقد اقترحت الأنسة ساتوكو حقاً شيئاً من هذا القبيل؟

- أجل، يا سيدي، سمعته مباشرة من الأنسة تاديشينا. لا مجال للخطأ في هذا.

بدا إينوما، على نحو عجيب، وهو يؤكد هذا، أقرب شهباً بذاته المستقلة السابقة، ولاح وكأنه على استعداد لكيل المواعظ لكيواكي إذا تحدّاه فيما يتعلق بهذا الأمر.

التفت كيواكي إلى الوراء، نحو الحديقة، حيث كان الثلج يتساقط. وفي هذه المرة لم تخرج أساليب ساتوكو المفعمّة بالقوة كبرياءه، بل على العكس، فقد ساوره شعور بالارتياح، كأنما استأصل مشرطها في حذق ورم الصلف الخبيث. وبما أن الجراحة قد انتهت قبل أن يدرك الأمر، فقد منحه هذا التجاوز لرغباته نوعاً من السرور المتوهج. قال محدقاً بمزيد من التفكير في الثلج الكثيف المتساقط: «سأقوم بما تريده تماماً». وعلى الرغم من أن الثلج لم يغد عميقاً، فقد حوّل الجزيرة وتل القيقب وراءها إلى اللون الأشهب المتألق.

- ليكن. اتصل بالمدرسة هاتفياً نيابة عني! قل لهم إنني أصبت بالبرد، وسأغيب اليوم! وتأكد من أنه لن يصل شيء من هذا إلى مسامع أمي أو أبي! ثم أمض إلى موقف عربات الريكشو، واستأجر عربة كبيرة يجرها رجلان. وتأكد أنها ممن يمكن الوثوق بهما. لسوف أمضي إلى هناك سيراً على الأقدام.

- في هذا الثلج؟

راح إينوما يرقب سيده، فيما يحياه يتضرّج حمرة. وبما أن ظهر كيواكي

كان يواجه النافذة المطلة على رحاب العاصفة، فقد غمر الظل محياه، لكن ذلك لم يقلل من وضوح احمراره. هذا الشاب الذي ساعد في تربيته لم يكن يميل على الإطلاق إلى النزعة البطولية، لكنه فوجيء بضبط نفسه متلبساً بالابتهاج للبريق الناري المتقدم في عيني كيواكي، أياً ما كان غرضه. وقد أتى حين من الدهر على إينوما لم يكن فيه إلا الازدراء لسيدته الشاب وللأساليب التي يتبعها، ولكن أياً ما كان كيواكي بصدده الآن، ومهما كان انغماسه في ذاته، فقد بدا أن هناك تصميمًا خفيًا في أعماقه لم يفصح عن ذاته من قبل قط.

كان مقر آل أياكو في أزبودة إقطاعية عتيقة، وعلى كل من جانبي البوابة الرئيسية الواسعة، نشأت النوافذ المغطاة بشبكة أسلاك من مقري الحرس عبر الجدار. غير أنها بعد أن أصبحت الآن دارة لا يزورها إلا القليلون، لم تبد مؤخراً إشارة تدل على وجود أحد في مقري الحراسة. لم يغط الثلج الامتدادات الرجة لقرميد السقف، وإنما قصر نفسه بأمانة على كل آجرة لدى سقوطه.

وقف شخص غامض الملامح ممسكاً بمظلة، تاديشينا فيما يبدو، أمام الباب الصغير الواقع إلى جوار البوابة. ولكنها اختفت فجأة لدى اقتراب الريكشو التي تقل كيواكي. وفيما العربية تقترب، وكيواكي يجلس فيها أمام البوابة، راح يحدّق عبرها، دون أن يرى شيئاً في الحديقة من خلل الثلج.

أخيراً، وتحت حماية مظلة تاديشينا نصف المفتوحة، ظهرت ساتوكو، عند البوابة، مرتدية ثوباً أرجوانياً، ضامة يديها أمام صدرها، فأخذت اللهفة بخناق كيواكي إزاء هذا التجلي المفاجيء للجمال الباهر، كأنما انتشرت سحابة مترامية من الأرجوان من قلب الباب الصغير، لتملأ رحابة الجليد المتساقط.

ساعدت تاديشينا ورجلا العربية ساتوكو على الصعود إليها، فبدا أنها تطفو لتلاقي كيواكي، فيما هو ينحني ليدفع غطاء الريكشو إلى الوراء، ولكنه عندما واجه فجأة ابتسامتها المشرقة العذبة، وندف الثلج المدومة متشبثة بشعرها وياقة ثوبها، أخذ على غرة، كما لو أن شيئاً سديماً قد هاجمه

في خدر أحلامه . وقوى هذا الانطباع دون شك الاهتزاز المفاجيء ، الذي اعترى العربية الخفيفة ، لدى ركوب ساتوكو ، تماماً كما كان شأن طيات ردائها الأرجوانية المتماوجة ، التي تراكمت ساكنة إلى جواره ، وعطرها الفواح الذي بدا أن عبيره قد اجتذب ندف الثلج ذاتها ، التي تماوجت دالفة إلى العربية ، فجعلها تصيب خديه البارين . وفيما دلفت ساتوكو إلى العربية مضت قوة اندفاعها بخذها قرب خد كيواكي لمدة ثانية ، وعندما ردت رأسها إلى السوراء في ارتباك ، فوجيء كيواكي بالقوة اللدنة الكامنة في عنقها ، وذكره ذلك بعنق البجعة الأبيض الناعم .

تساءل كيواكي ، محاولاً على نحو يائس الحفاظ على ثبات صوته :
- ما الذي طرأ على ذهنك فجأة على هذا النحو؟

- استقل أبي وأمي القطار إلى كيوتو البارحة ؛ فأحد أقاربنا مريض على نحو خطر ، فتركت وحدي ، ورحت أحدث نفسي بمدى توقي لرؤيتك ، يا كيو ، وبعد أن فكرت في الأمر طوال الليل ، رأيت الثلج هذا الصباح ، وعندئذ أردت أكثر من أي شيء آخر في الدنيا أن أمضي للتريض عبر الثلج معك . لم يسبق لي أن قمت بأي شيء على مثل هذا الاندفاع من قبل . لسوف تسامحني . أليس كذلك يا كيو؟

هكذا ، تحدثت ساتوكو بأنفاس لاهثة ، وبصوت طفلة ، لا يلائمها تمام الملاءمة .

كانوا قد شرعوا في التحرك بالفعل ، وترددت في مسامعها صيحات رجلي الريكشو ، اللذين كان أحدهما يدفع العربية من وراء والآخر يجذبها من أمام . أنفلس الثلج في أشكال تباينت من اللون الأشهب ، إلى الأصفر على نحو ما تبدد من النافذة الأمامية الصغيرة للعربة المغلقة . وفي المدخل تماوج النور في خفوت بحسب تأرجح العربية .

جلب كيواكي معه بطانية خضراء مقلمة، غطيا بها أرجلها، ومنذ أيام الطفولة تلك التي طالها النسيان، كانت تلك هي المرة الأولى التي اقتربا أحدهما من الآخر على هذا النحو، لكن كيواكي شتته النور الشاحب المنهل من خلال الصدوع في غطاء الريكشو التي راحت تضيق وتتسع، فيما دفع من الثلج ينساب عبرها، وكذلك الثلج ذاته الذي تحول إلى ماء فوق البطانية الخضراء ووقع الثلج، وهو يترامى على غطاء العربة، كما لو كان سقط على أوراق شجرة موز جافة.

- امضِ حيثما تشاء! خذنا إلى أي مكان تستطيع الذهاب إليه.

قالها كيواكي، رداً على رجل عربة الريكشو. وقد علم أن المناخ النفسي، الذي سيطر على ساتوكو، هو نفسه الذي هيمن عليه.

بينما رفع الرجلان عريش العربة، تاهباً للانطلاق، استند كلاهما إلى ظهر مقعده، وقد توترت جسداهما قليلاً. وحتى ذلك الوقت لم يقدم أي منهما حتى على محاولة الإمساك بيد الآخر. غير أن الاحتكاك الحتمي بين ركبتيهما تحت البطانية كان شبيهاً بشرارة تأتلق سراً تحت الجليد.

تواصل شك كيواكي الناهش: ألم تقرأ ساتوكو رسالته حقاً؟ راح يحدث نفسه: ولقد نفت تاديشينا الأمر بشدة على نحو لا يحتمل معه أن تكون قد قرأت الرسالة. ولكن في هذه الحالة هل تعبت ساتوكو معي الآن فحسب مقتنعة بأنني مجرد تماماً من الخبرة بالنساء؟ كيف يمكن أن أتحمّل مثل هذه الإهانة؟ كنت شديد الحرص على ألا تقرأ الرسالة، أما الآن فأني أود أن تكون قد قرأتها، لأنه عندئذ من شأن لقائني على مثل هذا النحو المجنون، وفي مثل هذا الصباح الجليدي، أن يعني أمراً واحداً فحسب: أنها ألقت القفاز في وجه رجل عركته الدنيا. ولسوف تكون لي مزايا أتمتع بها في ذلك

الوضع. والمشكلة الوحيدة هي أنني في حقيقة الأمر رجل لا خبرة له، وأحسب أنه ما من سبيل لإخفاء هذه الحقيقة.

راحت أفكار كيواكي تتقلب على جمر الغضب، فيما هو جالس داخل التخوم المحدودة والمربعة والمعتمة لعربة الريكشو المتأرجحة. وبما أنه لم يكن لينظر إلى ساتوكو، فلم يكن أمامه ما يفعله إلا التحديق في الثلج، وهو يتألق ملتصعاً من خلال النافذة الضيقة المصنوعة من مادة السليوليد الصفراء. غير أنه، في نهاية المطاف، وضع يده تحت البطانية، حيث كانت يد ساتوكو تنتظر، محتلة الملاذ الضيق الدافئ المتاح.

اندفعت ندفة ثلج، واستقرت على حاجب كيواكي، فدفعت ساتوكو إلى الصباح، ودونما تفكير، التفت كيواكي نحوها، فيما هو يستشعر انسياباً بارداً على جفنه. أغمضت عينها فجأة، فحدق كيواكي في الوجه بعينه الغمضتين، راح اللون القرمزي المخفف، الذي يكسو شفثيها، يتوهج وسط الظلال، وبسبب تأرجح العربة، كانت ملامحها مضطربة بنعومة، مثلما زهرة تمسك بها أصابع مرحة.

راح فؤاد كيواكي ينبض، بعنف بالغ، أحس كما لو كان يخفق بفعل اللياقة العالية المحكمة لسترة زيه المدرسي. لم يواجه من قبل قط بشيء على مثل غموض محيا ساتوكو الأبيض، المغمض العينين، المنتظر في هدوء. تحت البطانية أحس بقبضتها تحكم يده. أدرك أنها تنهي إليه شيئاً ما، وهكذا، وعلى الرغم من شعوره الفظيع بتعرضه للإحباط، أحس بأن شيئاً رقيقاً، لكنه يستعصي على المقاومة، يجتذبه، فضغط على شفثيها مقبلاً.

بعد لحظة، أوشك اهتزاز الريكشو على فض قبلتها، لكن كيواكي قاوم هذه الحركة، بصورة غريزية، حتى بدا أن جسمه بكامله يتوازن على تلك

القبلة، وخالجه شعور بأن مروحة هائلة، خفية، معطرة تفض طياتها، حيث التقت شفاههما.

في تلك اللحظة، وعلى الرغم من استغراقه على نحو كامل، كان لا يزال يدرك في حدة مظهره المثالي، جمال ساتوكو وحسنه: أدرك أن هذا التطابق البديع على وجه الدقة بين الاثنين هو الذي فك عرى كل القيود، وسمح لها بأن ينطلقا معاً متداخلين كمقدارين من الزئبق، فقد كان كل ما هو مفرق ومحبط ينبع من شيء مفارق للجمال. الآن أدرك كيواكي أن الإصرار المتعصب على الاستقلال التام هو مرض، لا ينبع من اللحم والدم، وإنما من الذهن.

ما إن انحسر قلقه، وشعر على نحو متعظم بالتيقن من الفتاة، التي كانت نبع سعادته، حتى غدت قلبتها حادة بصورة متزايدة، ومغرقة في العاطفة. راحت شفتا ساتوكو تتزايدان في طواعيتهما، وعندئذ، وفيما بدأ يخشى من أن جوهره ذاته قد يذوب، وينحذب إلى رضاها العذب، تأججت أطراف أصابعه بالرغبة في تلمس بدنها. جذب يده من تحت البطانية، ومررها حول كتفيها، ليمسك بذقنها، تلمس العظام الدقيقة الهشة، التي تميز فك المرأة، بأطراف أصابعه، وعلى هذا النحو اكتسب إدراكاً متجدداً لحضور جسماني، خارج حضوره تماماً. غير أن هذا الإدراك لم يؤد إلا إلى تكثيف الانفعال المصاحب للقبلة.

كانت ساتوكو قد شرعت في البكاء، على نحو ما أدرك عندما بللت دموعها وجنتيه. أحس بفيض من فخار لا يدين بشيء لمناخ حب الغير، الذي طرأ عليه مؤخراً، الرغبة المغتبطة في إفادة البشر التي استولت عليه. وبالطريقة ذاتها فقد أسلوب ساتوكو كل أثر لكياستها السابقة، التي تشبه إلى حد كبير طريقة أخت كبرى في الانتقاد. فيها هو يمرر يده على جسمها، متمسكاً أول الأمر شحمة أذنها، ثم صدرها، أثارته اللدونة التي استشعرتها

أصابه. فحدّث نفسه، قائلاً إن تلك لا بد أن تكون الطبيعة الحقّة للملاطفات. هكذا استقرت شهوانيته، التي أرخت العنان للاندياح، مثل غمامه تتعالى، على شيء ملموس. ولم يعد يملأ ذهنه الآن إلا متعته، وهذا بالنسبة لكيواكي كان قمة الاستسلام للرغبة.

اللحظة التي تنتهي فيها قبلة، تشبه الاستيقاظ، في تردد، من النوم، مع المجالدة على نحو غائم، في مواجهة ألق شمس الصباح، فيما هي تنهل على الجفون، وهي تتوق إلى التثبّت ببقية اللاوعي التي تركت. تلك هي اللحظة التي يكون فيها النوم في أعذب مراحل.

عندما تباعدت شفاههما، بدا أن صمتاً متوعداً يحلّ بهما، كأنما كفت الطيور فجأة عن الشدو بأنشودتها الجذابة. أشاح كل منهما بناظره عن الآخر، وراح يحدّق مثبّتاً نظرتيه في الفضاء. غير أن حركة الريكشو أنقذت الصمت من أن يصبح طاغياً بأكثر مما ينبغي. فكان بمقدورهما، على الأقل، أن يستشعرا جانباً من نشاط آخر.

أرخى كيواكي عينيه، وتحت أسفل البطانية الخضراء برز أصبع «تاجي» المرأة الأبيض، في خفر، شأن فأر عصبي أشهب يطلّ منسلّاً من جحره النجيلي. كان مغطى بطبقة خفيفة من الثلج. أحس بوجنتيه تتقدان، وهكذا مدّ يده بعفوية، مثل طفل، متلمساً وجنتها، وقد سعد باكتشاف الدفء نفسه فيها. بدا ذلك وكأنه وعد مصغر بالصيف.

- سأفتح سقف العربة.

أومات ساتوكو موافقة، فمدّ يده، وفك الطية الأمامية للسقف، فنهاوت طبقة الثلج، التي كانت قد تجمعت فوقها، مشكلة مربعاً مؤقتاً من البياض الأشهب، متناثرة، دون أن يندّ عنها صوت.

انحنى رجلا العربة فجأة، وقد لاحظا الحركة تحت سقفها.

- لا. لا. لا. واصلا السير!

صاح بهما كيواكي، فاستحثتهما رنة صوته، وانطلقا مسرعين من جديد.
- واصلا السير! وبأسرع ما تستطيعان!
انطلقت العربية عبر الثلج، ورجلاها يتبادلان الصياح، تشجيعاً لنفسيهما على المضي قدماً.
- قد يرانا أحد.
قالتها ساتوكو، متراجعة في مقعدها، غير راغبة في إظهار عينيها، اللتين كان الدمع لا يزال يخضلهما.
- لا أهمية لذلك.
أدهشت كيواكي النبرة الحاسمة في صوته. وفجأة، أدرك جلية الأمر، كان ما أراد القيام به حقاً هو أن يتحدى العالم.
فيما هو يتطلع إلى أعلى، بدت السماء الممتدة فوقهما غضباً من بياض يغلي، راح الثلج يرمي الآن حاداً على وجهيهما، ولوفتحا فميهما لارتمى على لسانيهما. أن يدفن المرء في مثل هذا الاندياح... بدا شبيهاً بالفردوس.
- الآن، هاهنا ثلج.
قالتها ساتوكو حاملة، وقد عنت، فيها يبدو، أن الثلج ذاب متقاطراً من عنقها إلى صدرها. غير أنه لم يكن ثمة ما هو فوضوي في الثلج المنهمر، فقد تساقط في الجلال المتواصل لطقس منظم. أحس بوجنتيه تفتران، وتدرجياً أدرك أن فؤاده يتلاشى في أعماقه.
كانت عربة الريكشو قد مضت صعوداً إلى قمة تل، في قطاع كاسومي الحديث من أزابو، وقد حفّ بالمنحدر ميدان، يسمح بالرؤية الواضحة لأرض الاستعراض وثكنات فوج أزابو الثالث في الأسفل. وعلى المدى الأشهب لأرض الاستعراض لم تقع العين على جندي واحد. فجأة، ساور كيواكي

وهم، قوامه رؤية حشد هائل من الجنود، على نحو ما هو الحال في الصورة المألوفة، في الحفل التذكاري، الذي أقيم قرب معبد توكوري، تمجيداً لضحايا الحرب اليابانية - الروسية. وقف الآلاف من الجنود برووس منكسة في مجموعات حول نصب تذكاري من الخشب الأبيض، ومذبح كُسي بقماش أبيض، تلاعبت الريح بأطرافه. لم يكن هذا المشهد يختلف عن الصورة، إلا من حيث أن أكتاف الجنود كانت مكسوة بالشلج والأغطية الأمامية لقبعاتهم باللون الأبيض. وفي اللحظة التي رأى فيها كيواكي هذه الأشباح، أدرك أنهم جميعاً لقوا حتفهم في المعركة. لم يتجمع آلاف الجنود في الأسفل ليصلوا من أجل زملائهم الذين سقطوا في ميدان القتال، وإنما حداداً على حياتهم هم أنفسهم.

في لحظة تبددت الأشباح. ووراء غلالة من الثلج، انداح مشهد وراء الآخر أمامهم. كانت الجبال الغليظة ذات لون القش التي تدعم أشجار الصنوبر، على الجانب المنحدر من الخندق الخارجي، تحمل وقرأ خطيراً من الجليد. ووراء النوافذ المحكمة الإغلاق في الدور الصغيرة راحت المصابيح تتقد خافتة، على الرغم من أن الوقت لم يتجاوز الضحى.

قالت ساتوكو:

- أغلقها!

أغلق كيواكي الطية الأمامية، فألفيا نفسيهما، مرة أخرى في الضوء الخافت المألوف. غير أن مناخ النشوة ما كان ليستعاد بمثل هذه السهولة. وكان كيواكي، كالمعتاد، ضحية للهواجس، فراح يتحدث نفسه، قائلاً: «تري ماذا كان شعورها عندما قبلتها؟ ربما غضبت حيال الطريقة التي أتيت بها ذلك، إنها تعلم أنني أمضي بعيداً، واني كنت ملتفتاً حول ذاتي، تماماً مثل طفل، وذلك صحيح، فما كان بمقدوري إلا التفكير في مدى روعة ما شعرت به.

عندئذ، انساب صوت ساتوكو إلى خواطره.

قالت، وقد تمالككت صوتها تماماً:

- ألا ينبغي أن نعود إلى الدار؟

حدث نفسه، قائلاً: «هامي ذي تمضي قدماً، فتقودني من أنفي، مرة أخرى». ولكن حتى فيما كان يدمدم، شاكياً لنفسه، كان يعرف أنه يدع الفرصة لتغيير الأمور تنقضي، عندما تكون متاحة له. كان بمقدوره أن يقول: «كلا، دعينا لا نعد أدراجنا!». ولكن القيام بذلك كان يعني مدّ يده والتقاط الرد. وكان حرياً بيده غير الحاذقة أن تتجمد لمجرد لمسه. لم يكن متأهباً لذلك.

مضى إلى الدار، واختلق قصة، حول مغادرته المدرسة مبكراً، بسبب إصابته بنوبة برد. فاندفعت أمه بسرعة إلى غرفته لقياس درجة حرارته. وفي قلب هذا الحراك، ظهر إينوما ليقول إن هوندا يرغب في محادثته على الهاتف. وعانى كيواكي صعوبة جمة في إقناع أمه بعدم تلقي المكالمات بدلاً منه، وأخيراً أفلح في إقناعها، فمضى هابطاً إلى أسفل، حيث الهاتف، ملتفتاً ببطانية من صوف الكشمير، بناء على إصرار أمه.

- الأمر كله بسيط للغاية، والقصة قوامها أنني ذهبت إلى المدرسة اليوم، ولكنني عدت مبكراً، لا أحد هنا يعرف ما يخالف ذلك. نوبة بردي؟
شاعراً بعدم الارتياح من جراء الباب الزجاجي عند ظهره، واصل كيواكي الحديث بصوت خفيض مكتوم:

- لا تقلق حول هذا. سأجيء إلى المدرسة غداً، ويمكننا الحديث عن الأمر عندئذ. لا تبدأ في الاتصال هاتفياً لمجرد تغيبي عن المدرسة - إنك تبالغ في الأمر!

عندما وضع هوندا ساعة الهاتف، كان يرتجف من فرط الغضب، حيال استجابة كيواكي الشديدة البرود لتعبيراته عن قلقه عليه، ولكن الأمر كان فيه ما يزيد على نعمة حديثه غير الودية أو خشونته، فلم يكن هوندا قد وضع كيواكي قط في موضع الاضطراب إلى الافضاء به.

غير أنه عندما استعاد رباطة جأشه، بدأ يحدث نفسه: «أن أتصل هاتفياً

لمجرد تغيبه عن المدرسة اليوم - لا يشبه هذا تماماً ما درجت عليه». وقد كان حقاً أن شيئاً يتجاوز الاهتمام الودي هو الذي حدا به إلى الاتصال هاتفياً بمثل هذه السرعة. فعندما اندفع، في الفسحة بين الحصص الدراسية، عبر فناء المدرسة، الذي كساه الجليد، إلى مكتب الإدارة للقيام بالاتصال الهاتفي، كان ما دفعه إلى ذلك هو شعور منذر بالخطر لم يستطع قمعه.

ظل قمطر كيواكي خاوياً، طوال فترة الصباح، وعندما نظر إليه هوندا، خالجه شعور بالخوف كالذي يساور رجلاً يقن من وقوع أسوأ مخاوفه. عكس القمطر العتيق، بخدوشه التي غطتها طبقة الطلاء الجديدة، البريق المباشر المنعكس عن الثلج، عبر النافذة، فحملة على أجنحة التفكير إلى تابوت في وضع رأسي مكسو بالقماش الأبيض، من النوع الذي كان يستخدم في دفن المحاربين القدامى في وضع التربع.

استمرت كآبته، حتى بعد عودته إلى الدار، ثم تلقى اتصالاً هاتفياً، كان من إينوما، الذي أبلغه برسالة من كيواكي قوامها الإعراب عن أسفه، حيال الطريقة التي تحدث بها إليه. لو أنه أرسل عربة ريكشو إلى دار هوندا الليلة فهل يفضل هوندا، لطفاً، بزيارته؟ زاد رنين صوت إينوما الثقيل، الجنائزي، من اكتثابه، فرفض الدعوة، باقتضاب، قائلاً إن بمقدورها أن يناقشا الأمور، عندما تتحسن حالة كيواكي، بما يمكنه من العودة إلى المدرسة.

عندما أبلغ إينوما كيواكي بهذه الرسالة، أحس الأخير بعدم الارتياح النابع من مرض حقيقي. وفيما بعد، استدعى إينوما إلى غرفته في وقت متأخر من تلك الليلة، ولكنه بدلاً من أن يأمره بالقيام بفعل شيء ما، أدهشه بالإفضاء إليه بما يثقل كاهله:

- لا تسبب ساتوكو إلا المتاعب. الحق فيما يقولونه، في هذا الصدد. ليس كذلك. إن المرأة تقضي على صداقة الرجال. لو أن ساتوكو لم تتصرف بمثل هذا العناد، صبيحة اليوم، لما أثرت غضب هوندا، على هذا النحو.

خلال الليل، كفّ الثلج عن التساقط، وحلّ اليوم التالي صافياً بهيجاً. تغلب كيواكي على رأي أمه وبقية أهل الدار، وانطلق إلى المدرسة، فقد اعترم الوصول إلى هناك، قبل هوندا، وأن يبادره بتحية الصباح. ولكن فيما الشمس تعلو صاعدة في السماء، أحدثت الروعة المتألقة لهذا الصباح الشتائي تغيراً في حالته المزاجية، استشعر سعادة عميقة، غامرة، بذلته تبديلاً. وفي وقت لاحق، حينما أقبل هوندا إلى حجرة الدراسة، ورد ابتسامته بابتسامة لا مبالية، تحلى هوندا فجأة عن عزمه على إبلاغه بكل شيء عن الأمس.

اغتنصت هوندا ابتسامة، لكنه لم يفه بينت شفة. بعد أن وضع حقيبة كتبه على قمطره، انحنى على حافة النافذة، لحظات قلائل، وتطلع إلى الجليد، ثم بعد نظرة سريعة إلى ساعته، يفترض أنه علم منها أنه لا تزال أمامه نصف ساعة، قبل بدء الدراسة، استدار، دوغما كلمة، ومضى إلى الخارج، فأحس كيواكي بأنه مضطر إلى أن يحذو حذوه.

كان عدد من أحواض الزهور ممتدّاً بشكل هندسي على جانب المدرسة، التي كانت مؤلفة من بناء خشبي من طابقين. ووسط الأحواض كانت هناك تعريشة، وغير بعيد عن حافة الأحواض انخفض مستوى الأرض بحدة، وأفضى ممر صغير عبر المنحدر إلى بحيرة تحيط بها أجمة من الأشجار. تيقن كيواكي، عقلاً، من أن هوندا لن ينحدر باتجاه البحيرة، حيث أن الثلج الذائب سيجعل السير بالغ المشقة. وتطاماً على نحو ما خمن، توقف هوندا

في التعريشة، وأزاح الثلج عن أحد المقاعد الخشبية، وجلس. سار كيواكي نحوه، متابعاً طريقه عبر ركام الجليد في حوض الزهور.

- لم تتبعني؟

تساءل هوندا، مغمضاً عينيه نصف إغماضة، في مواجهة الضوء الباهر، فيما هو يرفع ناظره.

اعتذر كيواكي برقة:

- لقد تصرفت على نحو بالغ السوء معك بالأمس.

- لا عليك! كانت نوبة بردك مجرد عذر. أليس كذلك؟

- بلى.

مقلداً هوندا، أزاح كيواكي بعض الثلج بعيداً عن المقعد، ثم جلس إلى جواره. واضطر كلاهما بسبب الوهج إلى إغماض أعينهما نصف إغماضة، على نحو مؤلم، ليتمكنوا من التطلع أحدهما إلى الآخر، الأمر الذي قلل، إلى حد كبير، من الشحنة الانفعالية حولهما. احتجبت البحيرة في الأسفل عن النظر، على الرغم من أنه ما كان عليهما ليرياها إلا أن يقفا، فتتخيل أمامهما من بين الأغصان المقلقة بالثلج. أحاطهما صوت تقاطر الماء، الذي جاء برهاناً على أن ركام الثلج فوق سطح المدرسة والتعريشة وعلى الأشجار آخذ بالذوبان الآن. تداعت القشرة المتجمدة التي كست أحواض الزهور هنا وهناك، مخلفة رقائق خشنة متوالية من الثلج راحت تتألق كحجر جرائيت انفلق.

توقع هوندا من كيواكي أن يكشف النقاب عن سر هائل، ومع ذلك فلم يكن راغباً في الإقرار لنفسه بأنه يحس بفضول حيال هذا السر، الأمر الذي جعله يأمل على وجه التقريب في ألا يقول كيواكي شيئاً على الإطلاق. ومن شأن أي ثقة يشوبها حتى ولو من بعيد التنازل ستكون شيئاً مجبوراً على نحو مرير.

- أتعلم أنني كنت أفكر كثيراً في الشخصية مؤخراً. خذ الأيام التي نعيشها، هذه المدرسة، وهذا المجتمع، إنني أشعر بالغربة عنها جميعها. على الأقل أود أن أعتقد أنني أشعر بهذا. والأمر نفسه يمكن أن يقال عنك. - نعم، بالطبع.

رد بها كيواكي، ونغمة حديثه توحى بعدم الاهتمام وبالنأي، كمعدها، ولكن بعذوبة تناسبه كثيراً.

- ولكن دعني أسألك هذا السؤال: ما الذي يحدث بعد قرن من الزمان؟ دون أن يكون لنا رأي في الأمر، ستدمج كل أفكارنا معاً تحت عنوان شامل: «فكر العصر». خذ تاريخ الفن، على سبيل المثال، فهو يثبت وجهة نظري، على نحو لا سبيل إلى تفنيده، شئت أم أبيت، فلكل عصر أسلوبه الخاص، ولا يستطيع فنان يحيا في فترة محددة أن يتجاوز تماماً أسلوب هذه الفترة، مهما كان منظوره الفردي.

- وهل لعصرنا أسلوبه أيضاً؟

- أعتقد أنني أميل إلى القول بأن أسلوب عصر ميجي لا يزال يحتضر، ولكن من أين لي أن أعرف؟ إن العيش في قلب عصر ما يشترك عن أسلوب هذا العصر. أنت وأنا ينبغي لنا، كما تعلم، أن ننغمس في أسلوب حياة أو آخر، ولكننا مثل سمكة ذهبية تدور سابحة في وعاء لأسماك الزينة، دون أن نلاحظ ذلك. خذ نفسك مثلاً، إن عالمك هو عالم شعور، تبدو مختلفاً عن معظم الناس، وأنت واثق تماماً أنك لم تسمح لشخصيتك قط بأن تُحمل على مالا تريد، غير أنه ما من سبيل على الإطلاق لإثبات ذلك. فليست هناك أية قيمة على الإطلاق لشهادة معاصريك. ومن يدري؟ ربما كان عالم شعورك يمثل أسلوب هذا العصر في أنقى صورته، ولكن، مرة أخرى، ما من سبيل هناك لمعرفة جلية الأمر.

- طيب، إذن، من الذي يحسم الأمر؟

- الزمن . الزمن هو الذي يهم . فيما الزمن يمر ، سيتم المضي بي وبك بلا رحمة إلى رحاب التيار الرئيسي للعصر ، حتى وإن لم تدرك طبيعته . وفيما بعد ، عندما يقولون إن الشبان في أوائل عهد تايشو كانوا يفكرون ويرتدون ويتحدثون بهذه الطريقة أو تلك ، فسوف يتحدثون عني وعنك ، لسوف ندمج معاً ، إنك تستهجن تلك الحفنة من الشباب في فريق الكندو . أليس كذلك ؟ تحقرهم ؟
- بلى .

قالها كيواكي ، شاعراً على نحو لا يدعو للارتياح بأن البرد قد شرع في اختراق مقعدة سرواله ، ولكنه راح يحدق على الرغم من ذلك في أوراق شجرة كاميليا خضراء ، إلى جوار الإطار المحيط بالتعريشة . راحت الأوراق التي تعرّت حديثاً من الثلج الذائب تلتمع على نحو متآلق . أضاف :

- بلى إنني لا أكتفي بالآ أحمل لهم ودأ ، بل أزدرهم .

مضى هوندا برده الفاتر في مسيرته الموعلة ، وواصل حديثه :

- ليكن ، إذن ، ما عليك إلا أن تتصور هذا إذا كان بمقدورك ذلك .
خلال بضع عقود قليلة من الزمن ، سينظر الناس إليك أنت وأولئك الذين تزدرهم باعتباركم شيئاً واحداً ، كياناً مفرداً . وأصدقاؤك غائبو البديهة ، بنزعتهم العاطفية ، وضيق أفقهم الضاري ، الذين يدينون أي شخص لا يشبههم باعتباره مخشاً ، ومضايقتهم لطلاب الصفوف الأدنى ، وتقديسهم المتعصب لجنرال نوجي ، والإطار الذهبي الذي يجعلهم يستمدون رضا يستعصي على التصديق من كنس الأرض كل صباح حول شجرة الساكاكي ، التي زرعها الإمبراطور ميجي - أنت بكل حساسيتك سينظر إليك باعتبارك صنواً لهؤلاء الناس ، عندما يتوقفون إلى جوهر عصرنا ، أي أخذ القاسم المشترك الأعظم . ما أن يستقر الماء المزبد ، فيغدو هادئاً

السطح، حتى يصبح بمقدورك أن ترى بقعة الزيت، التي تضم ألوان قوس قزح، طافية هنالك. وعلى ذلك النحو، سيمضي الأمر. بعد أن نلقى حتفنا جميعاً، سيكون من اليسير تحليلنا وعزل عناصرنا الأساسية، ليراها الجميع. وبالطبع، فإن هذا الجوهر، الفكر الذي هو أساس عصرنا، سيعتبر بعد قرن من الزمان من الآن فكراً يكتنفه الجهل تماماً، وليس أمامي ولا أمامك سبيل للنجاة من هذا الحكم، ما من طريق يمكننا من خلاله أن نبرهن على أننا لم نكن نشارك معاصرينا وجهات نظرهم، التي زعزعت الثقة بها. وما هو المعيار الذي سيطبقه التاريخ على ذلك المنظور؟ ماذا تعتقد؟ أفكار عباقرة عصرنا؟ أفكار الرجال العظام؟ كلا، على الإطلاق؛ فأولئك الذين سيحيئون بعدنا، ويقررون ما الذي كان يدور في أذهاننا سيتبنون معياراً قوامه أنماط التفكير غير النقدية التي يتبعها أصدقاؤك في فريق الكندو. وبتعبير آخر، فإنهم سيركزون على أكثر معتقدات زماننا بدائية ورواجاً. فكما ترى تم توصيف كل عهد على الدوام استناداً إلى مثل هذه الترهات وحدها.

لم يكن كيواكي على يقين من المسار الذي سيمضي فيه حديث هوندا، ولكن فيما كان يصغي شرعت جرثومة تفكير تنمو في ذهنه. الآن لاح عدد من زملائها في الصف، في نوافذ حجرة الدراسة المفتوحة بالطابق الثاني، كانت نوافذ الحجرات الأخرى موصدة، عاكسة وهج شمس الصباح وألق زرقاء السماء. كان ذلك مشهداً صباحياً مألوفاً. عندما فكّر في أحداث الأمس، صبيحة العاصفة، أحس كأنما اجتذب رغماً عنه من رحاب عالم مظلم، قوامه الإثارة الحسية، إلى أفنية العقل الصافية المضيئة.

قال، وقد أخرجته عدم نضج ملاحظاته، بالمقارنة بما أدلى به هوندا، ولكنه كان أخيراً يبذل جهداً لمجاراة فكر الآخر.

- طيب. ذلك هو التاريخ. وبتعبير آخر، فأياً كان ما نفكر فيه أو نتطلع إليه أو نشعر به - هذا كله ليس له أدنى تأثير على مسار التاريخ. أهذا هو ما تعنيه؟

- تماماً، فالأوروبيون يعتقدون أن رجلاً مثل نابوليون يمكن أن يُملي إرادته على التاريخ. ونحن معشر اليابانيين نفكر على النحو ذاته فيما يتعلق برجال من أمثال جوك ومعاصريه، الذين نفذوا إصلاح ميجي. ولكن أهذا صحيح حقاً؟ هل انصاع التاريخ لإرادة البشر قط؟ إن التطلع إليك يجعلني على الدوام أفكر في ذلك السؤال. إنك لست رجلاً عظيماً، ولست بالعبقري كذلك. ومع ذلك فلديك سمة تميزك عن غيرك: فليست لديك ذرة من قوة الإرادة. وهكذا يفتني على الدوام التفكير فيك من منظور التاريخ.

- أتسخر مني؟
- كلا، على الإطلاق. إنني أفكر بمعايير المساهمة غير الواعية في التاريخ. فعلى سبيل المثال، لنقل إنني أتمتع بقوة الإرادة...
- إنك تتمتع بها حقاً.

- لنقل إنني أرغب في تغيير مجرى التاريخ، وإنني أكرُس كل طاقاتي ومواردي لتحقيق هذه الغاية، وأستغل كل ذرة قوة متاحة لي لإخضاع التاريخ لإرادتي، لنقل إنني أحظى بالمكانة والسلطة الضروريتين لتحقيق ذلك. إن أياً من هذا لن يضمن أن التاريخ سيمضي بحسب مشيئتي. ثم من ناحية أخرى، فربما بعد قرن أو قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان قد ينحرف التاريخ فجأة لياخذ مساراً يتفق مع رؤيتي ومثلي العليا، وذلك دون أن يكون لي شأن على الإطلاق بذلك، لربما يتخذ المجتمع شكلاً، هو تجسيد دقيق لأحلامي قبل قرن أو قرنين. والتاريخ، إذ يستمتع بالمجد

الجديد الذي كان حلمي، سيبتسم لي بتنازل فاتر، ويسخر من طموحي .
وسيقول الناس : «طيب، ذلك هو التاريخ» .

تساءل كيواكي :

- لكن هناك شيئاً يدعى كون الوقت ملائماً لكل شيء . أليس كذلك؟
لقد حلّ أوان حلمك . هذا هو كل ما في الأمر . قد لا يستغرق الأمر
للوصول إلى ذلك قرناً من الزمان ، وإنما يقتضي ثلاثين أو خمسين عاماً ،
ذلك أمر غالباً ما يحدث ، وربما بعد موتك تستخدم إرادتك كمرشد خفي ،
لا يحيط أحد به علماً ، ذلك من شأنه المساعدة في إنجاز ما أردته طول
عمرك . ربما لو لم يوجد إنسان مثلك على قيد الحياة لما شق التاريخ مثل هذا
المنعطف قط ، مهما طال مداه .

على الرغم من أن مثل هذه التجريدات الفاترة التي لا تناسب طبيعة
كيواكي كانت بالنسبة له صراعاً ، إلا أنه دفعه دفء ما ، انفعال كان يعلم
أن عليه أن يعزو فضله إلى هوندا . تردد في الإقرار بالشعور بالاغتراب
لوروده مثل هذا النبع . ولكنه فيما كان يتطلع في أرجاء أراضي المدرسة ،
التي كساها الجليد ، بفروع أشجارها العارية من الأوراق ، التي تلقى
بالظلال على أحواض الزهور ، التي كساها الجليد ، والصوت الصافي لتقاطر
الماء ينساب في مسمعه ، أدرك أنه سعيد لأن هوندا قد بدأ هذا النقاش .
وعلى الرغم من أنه من المحتمل أنه قد علم أنه لا يزال منغمساً في ذكرى
السعادة والغبطة النابعة من الأمس ، فإن هوندا قد اختار تجاهل الأمر ، وهو
قرار بدا أنه يناسب صفاء الثلج حولهما . وفي تلك اللحظة انزلت بعض
منه ، منحدرًا من السقف ، معرّياً بضغ أقدام مربعة من القمر يد المبلل ،
المتألق باللون الأسود .

واصل هوندا حديثه :

- وهكذا ، إذا غدا المجتمع على نحو ما أردته أن يكون بعد مائة عام ،

فإنك تدعو ذلك إنجازاً؟

- لا بد أنه كذلك .

- إنجاز من؟

- إنجاز إرادتك .

- إنك تهزل . لسوف أكون في رحاب الموت . كما قلت لك لتوي ، سيحدث هذا دون أن يكون لي أي شأن به .

- طيب . ألا يمكنك القول إذن بأنه إنجاز إرادة التاريخ؟

- «إذن فللتاريخ إرادة، هه؟ من الخطورة بمكان دائماً القيام بشخصنة التاريخ . وبالنسبة لي، فليس للتاريخ إرادة ذاتية، وفضلاً عن ذلك فإنه لا يكثر أدنى اكتراث بإرادتي كذلك . وهكذا فإذ لم تكن هناك أي إرادة ضالعة في هذه العملية فلا يمكنك الحديث عن إنجازات . وكل ما يسمى بإنجازات التاريخ يبرهن على ذلك، فما أن يتم تحقيقها حتى تشرع في التداعي منهارة . فالتاريخ هو سجل الدمار . وعلى المرء دائماً أن يفسح المجال للبلورة المقبلة التي لا تدوم إلا يوماً واحداً؛ ذلك البناء والتخطيط يعينان الشيء نفسه بالنسبة للتاريخ .

- أدرك هذا تمام الإدراك . وعلى الرغم من فهمي له، إلا أنه ليس بمقدوري أن أكون مثلك، وأكف عن كوني رجل التصميم، أحسب أنها ربما كانت قوة لا تقاوم في شخصيتي، لا أحد يمكنه التيقن، لكني أقول ما يلي: إن جوهر أي إرادة هو الرغبة في التأثير في التاريخ، لست أقول بأن رغبات البشر تؤثر في التاريخ، وإنما ما أقوله هو أنها تحاول فقط التأثير فيه، ثم هناك أيضاً بعض أشكال الإرادة التي ارتبطت بالقدر، حتى على الرغم من أن هذا المفهوم هو بمثابة لعنة للإرادة . ولكن في المدى الطويل، كل إرادة بشرية مقضي عليها بالإحباط . إنها مسألة متعلقة بطبائع الأشياء

أن تصبح الأمور إلى عكس مقاصدك. وما هو الاستنتاج الذي يصل إليه الإنسان الغربي من هذا؟ إنه يقول: «لقد كانت إرادتي هي القوة العقلانية الوحيدة المدرجة في الأمر، ولم يأت الفشل إلا صدفة».

- إن الحديث عن الصدفة هو سلب لأي إمكانية لأي قانون قوامه السبب والنتيجة. فالصدفة هي اللاعقلانية الأخيرة التي يمكن للإرادة الحرة القبول بها دون مفهوم الصدفة، كما لعلك تدرك، ما كان يمكن أن تقوم قائمة للفلسفة الغربية الخاصة بالإرادة الحرة، فالصدفة هي الملاذ الجوهرى للإرادة، وبدونها ستكون فكرة المقامرة ذاتها شيئاً لا يخطر على البال، تماماً كما أن الإنسان الغربي ليست لديه طريقة أخرى لعقلنة الانتكاسات والاحباطات التي يتعين عليه أن يتحملها. وأعتقد أن مفهوم الصدفة هذا، المقامرة، هو جوهر إله الأوروبيين، وهكذا فإن لهم رباً تستمد سماته من ذلك المأوى البالغ الأهمية للإرادة الحرة، أي الصدفة - النوع الوحيد من الآلهة الذي يمكن أن يلهم حرية الإرادة الإنسانية.

ولكن ما الذي يحدث لو أننا أنكرنا وجود الصدفة كلية؟ ما الذي يقع إذا اضطرت - بغض النظر عن النصر أو الهزيمة - لأن تستبعد تماماً كل دور محتمل للصدفة في الأمر؟ في هذه الحالة ستقضي على كل ملاذ للإرادة الحرة. استبعد الصدفة، فتجد نفسك تقوِّض الدعائم، التي يستند إليها مفهوم الإرادة. تصوّر مشهداً مثل هذا: إنه ميدان عام عند الظهيرة. والإرادة تقف هناك وحيدة تماماً. إنها تتظاهر بأنها تظل مستقيمة الظهر، بفضل قوتها الذاتية، ومن ثم فإنها تواصل خداع ذاتها، الشمس تلهيها بسياطها، لا أشجار، لا نجيل، لا شيء على الإطلاق، في الميدان الهائل، يؤنس وحدتها، اللهم إلا ظلها. وفي تلك اللحظة، يدوي صوت راعد، متدفقاً

من السماء العارية من السحب في الأعالي: «الصدفة ماتت. ليس هناك شيء اسمه الصدفة، أصغي إليّ أيتها الإرادة، لقد فقدت نصيرك إلى الأبد». وبذلك الكلمات تشعر الإرادة بأن مادتها تتداعى، وتنحل. يتحلل لحمها، ويتهاوى. وفي لحظة يتعري هيكلها العظمي، ينسرب سائل رقيق منه، فتفقد العظام ذاتها صلابتها، وتشرع في التحلل. لا تزال الإرادة واقفة، غارسة قدميها بثبات في الأرض، لكن هذا الجهد الأخير يضي بلا طائل، ففي تلك اللحظة عينها تنشق السماء الساطعة المتألقة مصدرة ضجة رهيبية، ويطل إله الختمية محدقاً من الصدع. لكنني لا أستطيع مقاومة محاولة استحضار وجه قبيح لهذا الإله الرهيب، ويعود هذا الضعف دونما شك لميلني إلى النزعة التطوعية. ذلك أنه إذا كفت الصدفة عن الوجود فإن الإرادة ستصبح مجردة من المعنى، ولا تزيد أهميتها عن نقطة صدأ على السلسلة الهائلة للسبب والنتيجة، التي لا تلمحها إلا بين الحين والآخر فحسب. إذن فهناك طريقة واحدة للمساهمة في التاريخ، وتلك هي ألا تكون لنا إرادة على الإطلاق، أن نعمل فحسب. باعتبارنا ذرة متألقة جميلة، خالدة، ولا نعرف التغير. لا ينبغي لأحد أن يتطلع إلى أي معنى آخر في الوجود الإنساني. ليس من المحتمل أن تنظر إلى الأمور بهذه الطريقة. ما كنت لأتوقع أن تؤمن بمثل هذه الفلسفة - والأشياء الوحيدة التي لك أي إيمان بها - وهو إيمان لا يصاحبه الكثير من التفكير - هي مظهرك الحسن وحالاتك المزاجية المتقلبة وفرديتك، وليس شخصيتك الثابتة، وإنما على العكس من ذلك الافتقار إليها ذاته. أعلى حق أنا؟^(١)

(١) ليس هذا الطرح إلا نموذجاً آخر للاستطرادات، التي أشرنا إليها في هامش سابق. ولكن يلاحظ هنا، بصفة خاصة، أن العديد من الأفكار الواردة هنا ليست إلا تكراراً لأفكار ميشيها، الواردة في كتابه «شمس وفولاذ»، الذي يوصف بأنه سيرة =

لم يستطع كيواكي تدبر أمر رد يطرحه . ولافتقاره لأي شيء أفضل من ذلك، ابتسم، مدركاً أن هوندا لا يحاول إهانته .

- وذلك بالنسبة لي هو اللغز الأعظم .

قالها هوندا، متتهداً بلهفة بالغة، حتى لقد بدا الأمر فكاهياً. غدا هو نفسه سحابة ثلجية، تحوم لثانية في هواء الصباح الصافي، ولاحت لكيواكي تجسيداُ سرياً لقلق هوندا عليه . فتكثف في أعماقه شعوره بالسعادة .

قرع الجرس ليعلن بدء حصص الدراسة، فنهض الشابان واقفين . وعندئذ قبض أحدهم بعضاً من الثلج المتراكم على أطر نافذة الطابق الثاني، وألقى بكرة ثلج، فأصابت الدرب عند أقدامهما، في انبثاق من الشظايا المتألقة .

= الحياة الروحية الذاتية لميشيا . وهذا الكتاب، الذي لا يتجاوز عدد صفحاته، في الطبعة الانجليزية، ١٠٧ صفحات، يعد من الكتب شديدة الأهمية لميشيا، والضرورية لفهمه (هـ. م) .

كان والد كيواكي قد عهد إليه بمفتاح المكتبة، التي تقع في ركن من الجانب الشمالي للدار الرئيسية، وهي من غرف آل ماتسوجاي التي تلقى اهتماماً محدوداً؛ فما كان الأمير ليكرس طويلاً وقتاً للمكتب، ولكن هاهنا تجمعت الكتب الصينية الكلاسيكية، التي كانت لجد كيواكي، والكتب الغربية التي طلبها الأمير من ماروزين، استجابة لرغبته في أن يبدو مثقفاً، وعديد غيرها تلقاها هدايا. عندما بدأ كيواكي دراسته الثانوية سلمه أبوه المفتاح، بفخار من يعهد بأمانة كنز، قوامه مجموعة نفيسة من كتب الحكمة. وهكذا، حظي وحده بامتياز الذهاب إلى هناك، وقتها يشاء. ومن بين أقل الكتب الموجودة في المكتبة احتمالاً لإثارة اهتمام الأمير كانت هناك مجموعات عديدة من الكلاسيكيات اليابانية وكتب الأطفال. وقبل إصدارها كان كل من ناشريها قد طلب توصية موجزة من الأمير، جنباً إلى جنب مع صورة له بالزي الرسمي، ومقابل امتياز طباعة كلمات «أوصى به سمو الأمير ماتسوجاي» بحروف مذهبة على الغلاف الجلدي لكل كتاب، كانوا يهدون المجموعات إليه.

لم يكن كيواكي نفسه يميل إلى الاستخدام المتواتر للمكتبة، حيث فضل أحلام يقظته على الكتب. أما بالنسبة لإينوما، الذي كان كيواكي يدفع إليه بالمفتاح مرة كل شهر؛ ليتمكن من تنظيف الغرفة، فقد كانت المكتبة هي المكان الأكثر قداسة في الدار، وتستمد حرمتها، إن صح القول بذلك، من الكلاسيكيات الصينية الأثرية لدى جد كيواكي. وحينما يرد ذكرها على

لسانه ما كان ليشير إليها بحسبانها المكتبة فحسب، وإنما كانت على الدوام «مكتبة سمو المرحوم»، وحينما ينطق بهذه الكلمات، يَخْتَنقُ صوته لفرط الانفعال.

في المساء، بعد تصالح كيواكي مع هوندا، استدعى معلمه إلى هذه الغرفة، فيما كان إينوما يوشك على الانطلاق إلى دروسه الليلية، ووضع مفتاح المكتبة في يده، دون أن تند عنه بنت شفة. كان هناك يوم محدد لعملية التنظيف الشهرية. فضلاً عن ذلك، فقد كانت تلك مهمة لا يقوم بها إينوما ليلاً على الإطلاق؛ فراح يتساءل عن السر في إعطائه المفتاح الآن، في يوم غير صحيح، وفي المساء، فضلاً عن ذلك. قبع المفتاح على راحة يده الثقيلة، الخشنة، فبدأ أزرق اللون، معدنياً، كأنه يعسوب تمزق جناحاه.

فيما بعد، سيستعيد إينوما ذكرى هذه اللحظة، مراراً وتكراراً، لشد ما بدا المفتاح ممزقاً، وعارياً، مثل جسم انتهب انتهاباً، وهو قابض في راحة يده. وقف للحظة محاولاً تقرير معناه، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً. وعندما أوضح كيواكي له جليلة الأمر، في نهاية المطاف، اتقد بغضب لم يوجه إلى سيده بقدر ما كان موجهاً إلى نفسه؛ لكونه تحت رحمته.

- صبيحة أمس لم أذهب إلى المدرسة، ووقفت إلى جانبي. أما الليلة فقد حان دوري لمساعدتك. اخرج كما لو كنت تغادر الدار إلى المدرسة، ثم امض إلى الخلف، وادخل من الباب المواجه للمكتبة. سيفتح هذا المفتاح باب الغرفة، وبمقدورك الانتظار بداخلها، ولكن لا توقد النور. وأسلم سبيل هو غلق الباب من الداخل. لقد أصدرت تاديشينا تعليمات كاملة إلى مايني. لسوف تتصل بها لتبلغها رسالة موجهة لها، تسألها فيها عن موعد الفراغ من كيس الذرور المعطر الخاص بها. ستكون تلك هي الإشارة، فمايني حاذقة في مثل هذا العمل الدقيق، والناس دائماً يطلبون

منها القيام بشيء من هذا القبيل، وقد طلبت الأنسة ساتوكو منها صنع كيس ضرور مقصَّب بالذهب. وهكذا، فإن مثل هذا الاتصال الهاتفى لن يشير أدنى ريبة. وما إن تتلقى ماينى الرسالة، حتى تنتظر الوقت الذي يفترض أنك ستغادر فيه الدار إلى المدرسة، ثم تمضي إلى المكتبة، وتطرق الباب في رفق، آملة أن تفتحه لها. وبما أن الوقت سيكون بعد تناول طعام العشاء مباشرة، حينما ينشغل الجميع، فلن يفتقدها أحد لثلاثين أو أربعين دقيقة. تعتقد تاديشينا أن لقاءكما في الخارج سيكون أمراً بالغ الخطورة، وصعب الترتيب؛ إذ سيتعين انتحال جميع أنواع الأعذار لخروج وصيفة وحدها دون أن يتقول الجميع عليها. وعلى أية حال، فقد أتحث لنفسي حرية تقرير الأمر، دون مشاورتك. ستصل تاديشينا الليلة بماينى؛ لذا عليك بالذهاب إلى المكتبة، أما إذا لم تذهب فإن ماينى ستشعر بضيق بالغ.

فيما إينوما يقف مصغياً، وكأنما هو دب وقع في ورطة، أخذت الرجفة يده بعنف بالغ، حتى كاد المفتاح يسقط منها.



كانت المكتبة باردة للغاية، وتسرب عبر الستائر الثقيلة، المقصَّبة بالذهب، قليل من الضوء، صادر عن المصابيح المضاءة في الحديقة خلف الدار، لكنه لم يكن من الوفرة بحيث يسمح للمرء بأن يتبين عناوين الكتب. حفلت الحجرة برائحة العفن الفطري، شأن الرائحة التي تجثم على صفتي قناة مسدودة في الشتاء.

لم تشكل الظلمة عقبة بالنسبة لإينوما، فقد استظهر مكان كل كتاب على وجه التقريب في المكتبة. فاصطفت أعمال من كتابات هان فاي - تزو

الموسومة «شهادة سايكين» و«الحوليات الثاني عشرة» على الأرفف، بما في ذلك نسخة يابانية التجليد من كتاب «شروح على الأعمال الكلاسيكية الأربعة»، الذي فقد غلافه الذي يحميه. وكان هذا كتاباً قلبه جد كيواكي مرات عديدة، حتى بلي جلده.

ذات يوم، وفيما إينوما يقلّب صفحات أحد الكتب التي عكف على إزالة الغبار عنها لفتت نظره قصيدة من نظم كايو هونين. كانت متضمنة في مجموعة من الأعمال اليابانية والصينية الشهيرة، واستظهر إينوما المكان بحرص. وكان العنوان هو «أنشودة فؤاد نبيل». وكان مقطع من القصيدة يبعث العزاء في قلبه، بصفة خاصة، وهو يؤدي واجباته في تنظيف المكتبة:

رغم أنني عاكف على تنظيف غرفة صغيرة،
فما أنا بالذي يبقى على هذا الحال للأبد.

أيمكن لكايوشو أن تستوعب طموحي؟

أبمقدور سرب من السنونوات المشقشة
أن تشارك النسر طريقه الموحش؟

أدرك إينوما الآن جلية الأمر. فكيواكي، الذي يعرف توفيره العميق لـ «غرفة سمو المرحوم»، تعتمد اختيارها مكاناً لهذا اللقاء. لا شك في هذا. فعندما أوضح له الخطة، التي أعدّها، بمزيد من التدبر، كان الاغتراب البارد، الذي ينبع من أسلوبه، برهاناً كافياً، أدرك كل عواقبه، إذ كان يريد للأمر أن تمضي في سياقها، بحيث أن إينوما نفسه هو الذي يقترف الدنس في مكان يقده حد العبادة.

حينما أمعن إينوما التفكير في الأمر، أدرك أن وعيداً صامتاً قد قبع في أعماق كيواكي، منذ كان طفلاً جليلاً. ابتهاج في التدنيس! وعندما يقوم إينوما على هذا النحو بتلوين ما هو غال بالنسبة له، فإن كيواكي يتهيج كما

لو كان قد انتزع قطعة من اللحم النقي، وعلقها في قلادة شنتو مقدسة^(١). وفي العصور الأسطورية، كان الرب الوحشي سوسانو، شقيق ربة الشمس، يستشعر الاغتياب بالطريقة ذاتها.

منذ سلبت امرأة من إينوما ذاته، تزايدت إلى حد كبير سلطة كيواكي عليه. فضلاً عن ذلك - وكان الظلم المتضمن في هذا محيراً بالنسبة لإينوما - فلإن العالم يتقبل على الدوام مباحج كيواكي باعتبارها أموراً جذابة وطبيعية، بينما يدين مباحج إينوما بقسوة وصرامة، لا تعرفان حداً، باعتبارها خسيصة، إن لم نقل دنسة. وفيما هو يفكر في هذا الأمر، تفاقت بأطراد كراهيته لنفسه.

تناهى من سقف المكتبة صوت الفئران، وهي تعدو مسرعة، وصراخها الحاد المكتوم، بين الفينة والأخرى. عندما قام بالتنظيف في الشهر الماضي، نشر الكثير من الكستناء المسموم هناك، ولكن ذلك، فيما يبدو، كان بلا طائل. فجأة أخذته الرعدة، حينما تذكر ما يرغب أشد الرغبة في نسيانه.

في كل مرة يرى محيا مايبي، كانت الخاطرة الشريرة ذاتها تنتفض في ذهنه، مهما حاول قمعها. وحتى الآن، فيما جسمها الدافئ يوشك على ملاقاته، في غبش المساء، وقفت هذه الخاطرة حائلاً بينهما. كانت تدور

(١) المراد ارتكاب عمل تدنيي بالغ من منظور طقوس الشنتو، وقد أظهر ميشيا بجلاء كبير في روايته «معبد السراشق الذهبي»، أولاً، ثم عبر «بحر الخصب»، أساساً، مدى تعمقه في فهم التقاليد والطقوس الشنتوية. ورغم أن ملاحظاته في هذا الشأن، وفي أسرار البوذية، تبدو شديدة الغموض والتعقيد للقراء، في مختلف أرجاء العالم، بما في ذلك العالم العربي، فإن ذلك لا يرجع إلى أنه يطرح أحجيات أو نظريات عسيرة، وإنما يرجع إلى الافتقار شبه الكلي تقريباً لدى القارئ الخلفية، من أي نوع، عن هذه الموضوعات. فإما يطرحه ميشيا، رغم شكوى التفاد المبررة منه، في هذا الصدد، ليس إلا خطوطاً عريضة في الفكر البوذي، وخاصة في تقاليده اليابانية (هـ. م).

حول شيء ربما ألم به كيواكي بالفعل، ولكن إينوما، بما أنه لم يذكره له قط، لزم الصمت بشأنه. وكان هذا الأمر بالفعل سرّاً يلم به الكثيرون، الأمر الذي جعل كرب إينوما حياله عسير الاحتمال. عذبه أشد التعذيب، كأنما حشد من الفئران يغمره بكل قذارته. فقد كان الأمير يضاجع مايني، ولا يزال يضاجعها بين الحين والآخر. أطلقت الفئران في السقف، بأعينها القاذحة شرراً، وأبدانها الكريمة، لخياله العنان...

كان البرد قارصاً. ويغض النظر عن شجاعة إينوما، البادية لدى انطلاقه لأداء صلواته اليومية، فقد أخذته الرجفة الآن، عندما لطم البرد ظهره، وزحف متخللاً بدنه، حتى كسا جلده، كأنه كمادة ثلجية. لربما تأخرت مايني إلى أن تتاح فرصة النهوض عن المائدة، دون لفت انتباه أحد.

فيما هو ينتظر، تصاعدت رغبته حادة وملحة، ثم تحالفت كتلة من المشاعر المنفرة مع البرد المتخلل للعظام ورائحة التحلل لتهاجم أعصابه، التي غدت مشدودة بالفعل. راوده شعور بأنه يغوص كأنما مياه المجاري الراكدة ترتفع، متصاعدة على قدميه، ملطخة هاكاهام الحريرية البدعة. راح يحدث نفسه، قائلاً: «أهذه طريقي في الوصول إلى اللذة؟»

- أهي طريقة رجل في الرابعة والعشرين من العمر، جدير بأعظم قدر من الشجاعة، وموهل لنيل أسمى آيات التكريم؟

ترددت طريقة خفيفة على الباب، استجاب لها إينوما بسرعة بالغة، حتى أنه ارتطم على نحو مؤلم بخزانة كتب. غير أنه، في نهاية المطاف، أفلح في إعمال المفتاح في القفل. التفتت مايني قليلاً، وانسلت عبر الباب. عندما أوصد إينوما الباب، وأحكم إغلاق القفل وراءها، أمسك بكتفيها، ودفعها على نحو تعوزه الكياسة نحو مؤخرة المكتبة. أيّاً كان السبب في ذلك، فقد تركّز ذهنه على الثلج الأشهب الملطخ، الذي رآه منقولاً ومراكماً في أكوام

خارج جوار المكتبة، في طريق قدومه إليها. وعلى الرغم من أنه لا وقت لديه ولا ميل للتكهّن فيما يتعلق بهذا الأمر، فإنه كان مستغرقاً في احتياجه إلى ولوج ماييني، عند الركن الذي كان الأقرب إلى الثلج الملطخ.

دفعته تصوراتهِ الخيالية إلى حد الضراوة، فكان وحشياً مع الفتاة. وكلما أشفق عليها، ازداد قسوة معها. وعندما أدرك، في قلب الأمر بأسره، أن ضراوته معها كانت رغبة في الثأر لنفسه من كيواكي، غلبه شعور باليأس، يستعصي على الوصف. وبما أن الوقت كان محدوداً، والصمت ضرورة ملحة، فقد تركته ماييني يفعل ما يعن له، دون أن تقاومه. ولكن خنوع تقبلها للأمر لم يزد إلا عذاباً على عذاب؛ ذلك أن أسلوبيها الرقيق أفصح عن تفهمها لذاته باعتباره شخصاً مماثلاً لها إلى حد بعيد.

ورغم ذلك، فلم يكن هذا هو السبب الوحيد وراء إذعانها الهادئ. كانت مشوشة على نحو مرح. وبالنسبة لها كان الارتباك التام الذي يسود طريقته - محاولته إخافتها، بصمته، وبديه المرتبكتين المتخبطتين - يبرهن على الطابع الحقيقي لرغبته. لم تحلم قط بأنه ربما كان يشفق عليها.

فجأة، أحست ماييني، وهي راقدة هنالك في الظلمة، بالبرد كأنه طعنة سيف تحت كيمونوها المبسوط. تطلعت في العتمة، فلمحت الرفوف المثقلة بالكتب، وقد وضع كل منها في خزانته، وأطفأ كَرّ الأيام بريق الذهب في عناوينها. بدا أنها تطبق عليها من كل الجهات. كانت السرعة أمراً ضرورياً، وقد أطلعتها تاديشينا على كل شيء، وصولاً إلى أدق التفاصيل، بحيث يكون الأمر واضحاً في كل جوانبه، وكان كل المطلوب منها، في هذه البرهة الخاطفة، أن تتصرف دوغماً تردد. نظرت إلى دورها باعتباره دور من هي على استعداد لتهب جسمها، دوغماً مقابل، لتواسي وتهديء. وقد كان هذا كافياً بالنسبة لها. وابتهج جسمها الدقيق، الناضج، بلحمه المتناسك، وجلده الأملس الخالي من العيوب، بأن يمنح الغبطة.

ليس من قبيل المبالغة القول بأنها مولعة بإينوما. وحينما يرغب أحدهم فيها كانت تملك الموهبة العجيبة المتمثلة في اكتشاف الجوانب الطيبة فيمن يسعى وراءها. لم تشارك الحاديات الأخريات قط في سخريتهن الوضيعة من إينوما، وهكذا فإن رجولته، التي تعرضت طويلاً للمضايقة والهزؤ، تلقت أخيراً ما تستحقه في فؤادها الأنثوي.

فجأة، تراءت لها لمحة حائلة من إجازة في أحد المعابد بالمهرجان الحافل الذي يقام فيها: أضواء مصابيح الأسيتيلين بوهجها ورائحتها الحمادة، والبالونات، ودواليب الهواء، والحلوى ذات الألوان المرحية... فتحت عينيها في الظلمة.

تساءل إينوما، في ضيق:

- فيم تحديقين؟

كانت الفئران تنطلق مسرعة في السقف، مرة أخرى، وحركتها صامتة، على وجه التقريب، غير أنها تحمل ما ينم عن التعجل اليائس. بدا أنها تندفع في دعر، عبر مملكتها المظلمة، في ضيق واهتياج، يلقيان بها من طرف إلى آخر.

كان كل البريد، الذي يتلقاه أهل دائرة ماتسوجاي، يعالج وفق طقس ثابت، لا يتغير: فقيّم الدار، يامادا، يتولى مسؤوليته، ويرتبه، على نحو منسق، على صحيفة مطلية باللك الذهبي، نقش عليها شعار العائلة، ثم تحمل هذه الصحيفة إلى حضرة الأمير والأميرة. وبما أن ساتوكو كانت على علم بهذا الإجراء، فقد لجأت إلى إجراء احترازي، حيث عهدت برسالتها الموجزة إلى تاديشينا، التي كان عليها بدورها أن تعطيها لإينوما.

وهكذا، حدث أن إينوما، في قلب استعداداته لامتحاناته النهائية، وجد ما يكفي من الوقت للقاء تاديشينا أولاً، ثم سلم رسالة ساتوكو العاطفية إلى كيواكي :

«على الرغم من أن الصباح الذي أعقب تلك العاصفة الثلجية كان صافياً ومشرقاً، لم أستطع منع نفسي من التفكير فيما وقع بالأمس. بدا في فؤادي كما لو كان الثلج لم يعرف التوقف، وإنما واصل الهطول. ولاحظت ندف الثلج كما لو كانت تتوحد، متخذة صورة محيا كيو. كم وددت لو كان بمقدوري أن أحيأ في مكان ما يتساقط فيه الثلج، كل يوم من أيام العام، حتى لا أكف أبداً عن التفكير فيك، يا كيو!

«لو أننا كنا نحيا في العصر الهابيني، لنظمت قصيدة من أجلي. أليس كذلك؟ ولتعيّن عليّ أن أرد عليك بقصيدة من نظمي. يصدمني أنه على الرغم من أنني منذ طفولتي أتعلم نظم قصائد «الواكا»، فإنني في وقت كهذا

ليس بمقدوري نظم قصيدة واحدة، تعبيراً عن مشاعري. أيرجع هذا إلى افتقاري للموهبة؟

ولماذا تعتقد أنني على مثل هذا القدر من السعادة؟ أو قد سعدت لأنني وجدت إنساناً عطوفاً؛ بحيث لا يستشعر الضيق من جراء ما أقوله أو آتيه مهما كان تقلبهما؟ لسوف يكون هذا مساوياً للقول بأنني أحسب أنني اتمتع بمعاملي لكيوعمل نحو ما يحلو لي - وما من شيء يمكن أن يسبب لي المأ أعظم من أن أعرف بأنك تصدق هذا.

كلا، إن ما يجعلني سعيدة حقاً هي رقتك، فقد استطعت إدراك جوهر تلك الرغبة الطارئة، التي عنت لي بالأمس. تمكنت من أن تدرك مدى اليأس، الذي استشعرته، دونما علم من أحد، ودونما كلمة لوم واحدة، جئت معي، في تلك النزهة عبر الثلج، وحققت الحلم الذي دفتته في أعماقي، بمثل هذا الحرج. هذا هو ما أعنيه برقتك.

كيو، حتى الآن، وفيما أتذكر ما حدث، أشعر برجفة البهجة والخجل تأخذ بدني. هاهنا، في اليابان، ننظر إلى روح الثلج باعتبارها امرأة - جنية الثلج. ولكني أذكر أنني قرأت، في الحكايات الخرافية الغربية، أن روح الثلج دائماً شاب أنيق. وهكذا فإنني أفكر في كيو باعتباره روح الثلج، متالق الرجولة في زيك المدرسي. أفكر فيك وأنت تتغلب عليّ، أن أحس بنفسي ذائبة في حسنك ومتجمدة حتى الموت في الثلج - ما من مصير يمكن أن يكون أحلى من هذا.

في نهاية الرسالة كتبت «أرجو أن تكون من اللطف بحيث لا تنسى إلقاء هذه الرسالة إلى النار».

حتى السطر الأخير، كان الأسلوب رقيقاً رقيقاً، ذلك أن ساتوكو، ما كانت لتعبر عن نفسها إلا بأسلوب رائع. ومع ذلك فقد انزعج كيواكي

حيال الجبروت الحسي، الذي راح يتوهج هنا وهناك.

بعد أن قرأ الرسالة، كان رد فعله الفوري هو أنها من نوعية الرسائل التي ينبغي أن تملأ بالرجل إلى آفاق النشوة. غير أنه، لدى تأمله للأمر، بدت الرسالة له أقرب إلى تمرين مدرسي في فصول ساتوكو، التي تدرس فيها التأنق اللفظي. أحس بأنها رغبت في تعليمه ذلك التأنق اللفظي، حتى ولو دهست في طريقها إلى ذلك أي سؤال يتعلق بما يليق أو مالا يليق.

لئن كانا قد وقعا أحدهما في حب الآخر حقاً، في ذلك الصباح الثلجي، فكيف أمكنهما أن يدعا يوماً ينقضي دون أن يلتقيا، ولو للحظة أو للحظتين؟ من الذي يمكن أن يكون طبيعياً أكثر من هذا؟ ومع ذلك، فلم يكن كيوإي ميل إلى اتباع أهوائه على هذا النحو. من الغرابة بمكان أن عيش المرء من أجل انفعالاته، مثل راية تميل حيثما مال النسيم، يقتضي طريقة حياة تجعل المرء يتذمر من المسار الطبيعي للأحداث؛ لأن هذا يتضمن كون المرء خاضعاً للطبيعة كلية. فحياة الانفعالات تأبى كل الضوابط، مهما كان مصدرها، وهكذا، ويا للمفارقة، فإن هذه الحياة تكون بالفعل عرضة لتقييد شعورها الغريزي بالحرية.

أجل كيواكي رؤية ساتوكو مرة أخرى، وإن لم يكن ذلك رغبة في ممارسة نكران الذات، إذ كانت تدفعه على نحو أقل المعرفة العميقة بدقائق العاطفة التي لا يدركها إلا من تمرسوا بالحب. جاء سلوكه نتيجة لإدراكه الذي لم يكتمل لفن اللباقة، وكان بعيداً للغاية عن النضج، موشكاً على الوصول إلى تخوم الغرور، حتى أنه حسد ساتوكو على حريتها الصافية، بل وإطلاقها العنان لنفسها، فدفع إلى الشعور بالدونية.

وكما يعود الغدير إلى مساره العادي، بعد الفيضان، شرع ولع كيواكي بالمعاناة بعيد تأكيد ذاته، من جديد. كان بمقدور طبيعته الحاملة أن تكون

ملحاحة ، بقدر ما هي متقلبة ، بحيث أنه شعر بالغضب والإحباط من جراء عدم وجود عقبات تعترض حبه . وقدمت المساعدة الفضولية التي أتاحها إينوما وتاديشينا هدفاً جاهزاً للنيل منه ، فأصبح يرى في مناوراتها أموراً ضارة بنقاء مشاعره .

جُرحت كبرياؤه عندما أدرك أن هذا هو كل ما لديه ليعتمد عليه ، فيما ألم وعذاب الحب الوحشيان يتطاولان . ومثل هذا الألم يتعين أن يكون مادة ملائمة لنسج نسج رائع التصاوير ، ولكن كيواكي لم يكن لديه إلا نولٌ بيّتيّ صغير ولا شيء تحت يده إلا غزلٌ أبيض خالص .

راح يتساءل : «إلى أين يمضيان بي في هذه اللحظة عينها التي أقع فيها في الحب تدريجياً وعلى نحو أصيل ؟» .

ولكن حتى فيما قرر أن ما يستشعره هو الحب ، فإن طبيعته المعاكسة تؤكد نفسها من جديد .

بالنسبة لشاب عادي ، كان حرياً بذكرى قبلة ساتوكو أن تغدو كافية لرفعه لذرى نشوة من الفرح والبهجة . أما بالنسبة لهذا الشاب ، الذي كان الرضا من منظوره وضعاً مبتذلاً للغاية ، فقد كانت ذكرى تسبب له ألماً أعظم ، في فؤاده ، مع كل يوم ينقضي .

بغض النظر عن أي شيء آخر يمكن أن يكون حقيقياً ، فإن السعادة التي استشعرها في تلك اللحظة لها النار المتألفة التي تكمن في قرار جوهرية ثمينة . لم يكن هنالك شك في ذلك . فقد نقشت في ذاكرته نقشاً . في قلب صحراء جليدية مجردة من الشكل واللون ، وفيها عواطفه تضطرم ، ودون أن يدري كيف انطلق في هذه الرحلة أو كيف ينبغي أن تنتهي ، كان الوهج الدافئ لتلك الجوهرة مثل طرف بوصلة .

تزايد باطراد شعوره بالتضارب بين ذكرى تلك السعادة وألم فؤاده

الراهن، وتعمق تأثير هذا الشعور في نفسه، فهوى أخيراً إلى قرار تلك الكآبة السوداء، التي كانت معروفة له تماماً من قبل. كفت هذه القبله عن أن تكون أي شيء آخر، يتجاوز تذكراً آخر لسخرية ساتوكو، التي تلحق به الهوان.

قرر أن يكتب رداً على رسالتها، يجعله بارداً، بقدر ما يستطيع، ومزق العديد من الأوراق، في غمار هذه المحاولة، مستهلاً عمله من جديد في كل مرة. وحينها دبج في نهاية المطاف ما ظنه الصيغة المطلقة لرسالة غرام مجردة من المشاعر، ووضع جانباً ريشة كتابته، أدرك، فجأة، مدى إنجازها. فدون أن يقصد ذلك توصل إلى أسلوب رجل حنكته الدنيا، بعد أن استند إلى رسالة الاتهام التي سبق له أن بعث بها إليها. أما هذه المرة فإن فكرة مثل هذا الخداع الصرف ذاتها كانت مؤلمة للغاية حتى لقد استهل رسالة أخرى، وفيها، ودون أي محاولة للمواربة، نقل بهجة التقبيل للمرة الأولى. امتلات الرسالة بعاطفة صيبانية، أغمض عينيه، وهو يضعها في مظروف، ويمرر طرف لسانه على الجزء الخاص باللاصق، بدا مذاق المادة اللاصقة حلواً على نحو غامض، كالدواء.

اشتهرت ضيعة ماتسوجاي بتألقها الخريفي بأوراق أشجار القيقب، لكن براعم كرزها كانت محط إعجاب الكثيرين كذلك، وقد تناثرت أشجار الكرز وسط أشجار الصنوبر، في صفوف الأشجار الطويلة، التي تحيط بجانبي الطريق إلى البوابة الرئيسية، على امتداد ما يزيد عن نصف ميل. ويتجلى أفضل مشهد أمام عيني المرء، حينما يطل من شرفة الطابق الثاني بالدار الغربية، ويستطيع المرء، لدى وقوفه هناك، أن يرى بنظرة كاسحة كل براعم أشجار الكرز في الضيعة، التي يتألق بعضها على الطريق، والعديد منها بين أشجار الحنكة الهائلة في الحديقة الأمامية، والبعض يتحلق المرجة الصغيرة، التي أقيم فيها احتفال الأوتاتشياني الطقوسي لكيواكي، وقلة على تل القيقب، فيما وراء البحيرة. وقد فضل العديد من المشاهدين الذواقه هذا الترتيب على العرض الجارف للبراعم، متجمعة في قلب حديقة.

في الفترة ما بين الربيع، حتى مطالع الصيف، تتمثل المناسبات الرئيسية الثلاث، لدى دار ماتسوجاي، في مهرجان الدمية، الذي يقام في مارس، ومشاهدة تبرعم الكرز، في أبريل، ومهرجان الشتو في مايو. ولكن بما أن العام المقرر للحداد عقب وفاة سموه الإمبراطوري لم ينقض بعد، فقد تقرر أنه في هذا العام سيتم اقتضاب مهرجاني مارس وأبريل إلى احتفالين عائليين على وجه الحصر، الأمر الذي خيَّب كثيراً ظن مشاعر نساء الدار. ذلك أنه على امتداد الشتاء، وكما يحدث كل عام، تسربت شائعات شتى

من دوائر كبار العاملين بالدار حول خطط تعدد لمهرجان الدمية ومشاهدة التبرعم - كالرواية التي تقول إن فرقة من محترفات حفلات الترفيه سيتم جلبها إلى الدار. وقد حفلت الدار دوماً بمثل هذه الحكايات، مشكلة ذلك النوع من التكهن الذي يبعث الغبطة في نفوس البسطاء، الذين اعتادوا الاهتمام كثيراً بمقدم الربيع. وبدا أن إحباط توقعاتهم على هذا النحو إنما هو إحباط للربيع ذاته.

كان الاحتفال الكامل على طريقة كاجوشيما بمهرجان الدمية في ضيعة ماتسوجاي حدثاً مشهوداً. وبفضل الزوار الأجانب الممتنين، الذين جرت دعوتهم في السنوات الماضية، غدا هذا الاحتفال مشهوراً، في النماذج كذلك، بحيث أن عدداً كبيراً من الأميركيين والأوروبيين الموجودين في اليابان وقت الاحتفال يستخدمون كل ما يتمتعون به من نفوذ لمحاولة الحصول على دعوات لحضور الاحتفال.

تألقت الوجنات الشاحبة للدميتين العاجيتين، اللتين تمثلان الأمباطور والأمباطورة، في النور الربيعي الباكر، على الرغم من وهج الشموع المحيطة بهما، والانعكاس الصادر عن السجادة القرمزية تحتهما. ألبت الدمية، التي تمثل الأمباطور، الثياب المراسيمية، الرائعة، المخصصة لكبير كهنة الشتو، واكتست دمية الأمباطورة ثوباً بلاطياً، بالغ الضخامة، ينتمي إلى العصر الهايبي. وعلى الرغم من كبر حجم الأردية، التي لا حصر لها، التي تكسو نصفيهما السفليين، فقد كانت الأردية التي تكسو جذعيهما تنحدر في رشاقة، عند الظهر، لتكشف عن الشفافية الشاحبة لمؤخرتي عقبيهما. وغطت السجادة القرمزية كامل امتداد الأرضية المائلة لقاعة الاستقبال الرئيسية. وتدلت كرات خشبية بلا حصر ملتفة في قماش فخم التطريز من السقف ذي العروق الخشبية، وكست الجدران صور نافرة النقش لشتى أنواع الدمى الشعبية. أقبلت عجوز تدعى تسورد، طارت

شهرتها في إبداع هذا النوع من الصور، إلى طوكيو طوال فبراير لتكرس نفسها قلباً وقالباً للترتيبات، وتغمغم بردها المفعم تواضعاً: «كما ترغب سيدتي».

على الرغم من أن مهرجان الدمية قد غابت عنه هذا العام بهجته، إلا أن النساء سعدن لمقدم موسم مشاهدة ازدهار الكرز. لن يتم الاحتفال بهذا الموسم، على نحو حاشد، ولكن مع ذلك سيجري الاحتفال به بقدر يعتد به من المرح، يفوق ما دفعن في بداية الأمر إلى الاعتقاد به. وقد حلق بهذا الأمل عاليًا اتصال من سمو الأمير توين، تضمن الإعلان بأنه سيكبّد نفسه عناء الحضور، على الرغم من أن ذلك سيتم بصفته الشخصية، لا الرسمية.

وقد أبهج هذا التطور الأمير ماتسوجاي، إلى أبعد الحدود؛ إذ كان يغدو في أسعد حالاته وسط آيات الترف والتفاخر، فيما كانت ضوابط المجتمع المخملي تثقل كثيراً على طبيعته المنطلقة، فإذا كان ابن عم الأباطور نفسه يرى أن من المناسب تبني نظرة معتدلة إلى مراعاة تقاليد الحداد، فإن أحداً لن يجرؤ على القول على إحساس الأمير ماتسوجاي بما تقتضيه الأخلاق الحميدة.

وبما أن سمو الأمير هارو هيساتوين كان الممثل الشخصي للأباطور في حفل تنويع راما السادس، وبالتالي كان معروفاً بشخصه للعائلة المالكة في سيام، فقد قرر الأمير ماتسوجاي أنه سيكون من اللائق توجيه الدعوة للحضور إلى الأميرين الشابين.

قبل سنوات طويلة، في باريس، وخلال أولياد عام ١٩٠٠، أصبح ماتسوجاي على علاقة بالغة الود مع الأمير توين، في غمار تقديمه خدمة قيمة له باعتباره دليلاً إلى حياة الليل في المدينة. وحتى الآن فإن توين مولع

باستعادة ذكرى تلك الأيام الخوالي بإشارات لا يفقه لها معنى إلا ماتسوجاي وحده. فيقول: «ماتسوجاي، أتذكر ذلك المكان ذا النبع الذي تتدفق منه الشمبانيا؟ تلك كانت ليلة لا تنسى!»

كان السادس من أبريل هو اليوم الذي تحدد للمشاهدة الرسمية لبراعم الكرز، وبمجرد انتهاء الاحتفال بمهرجان الدمية، الذي تم في حدود اللغة الضيق، ازدادت سرعة إيقاع الحياة في الدار، مع توالي الاستعدادات.

غير أن كيواكي لم يقم بشيء، على الإطلاق، خلال إجازة الربيع الخاصة به، واستحثه والداه على القيام برحلة إلى مكان ما، ولكن على الرغم من أنه لم يكن يرى ساتوكو في غالب الأوقات، فإنه لم يكن في حالة مزاجية يجذب معها الرحيل عن طوكيو، بينما هي لا تزال فيها.

مع إقبال الربيع، وثيداً، يوماً بعد يوم، رغم البرد القارص، راح كيواكي يصارع سلسلة من الهواجس التي تثير القلق. وعندما أخذ ضيقه منه أخيراً كل مأخذ، قرر القيام بشيء لا يفعله إلا نادراً، حيث زار دار جدته في الضيعة. بدا أنها عاجزة عن تنحية عادة صحبتها طويلاً، هي معاملته وكأنه طفل وليد، وقد كان هذا إضافة إلى ولعها بتصنيف أخطاء أمه سبباً كافياً لترده في زيارتها. ومنذ وفاة جده أدارت جدته، بكتفيها الرجلين ومحيها الذي لا يعرف الهزل، ظهرها إلى الدنيا تماماً، وما كانت لتناول إلا حفنة من الأرز يومياً، كأنما هي تحيا في انتظار موت تأمل في قدومه. غير أنه فيما تبين ازدهرت صحتها على هذا النظام الغذائي.

حينما يأتي الناس من كاجوشيما لزيارتها كانت تحادثهم بلكنة موطنها، دون أن تبالي بما يدور في خاطر الآخرين، أما مع كيواكي وأمه فقد كانت تتحدث بأسلوب طوكيو، وإن كانت طريقتها في الحديث متصلة ومرتبكة. وفضلاً عن ذلك، فبما أنها ما كانت لتتملك ناصية النغمة الأنفية لطريقة

حديث طوكيو، فإن سمة الانسياب القوي لصوتها كانت تبدو أكثر جلاء، وقد اقتنع بأنها تحافظ في حرص على لكنة كاجوشيا كإدانة ضمنية لتمكنه اليسير من تناغمات الصوت في لهجة طوكيو.

- إذن فالأمير توين سيأتي لمشاهدة البراعم. هه؟

قالتها، دونما استهلال، فيها هو يلج القاعة. كانت تدفء قدميها في «الكوتاتسو».

- أجل. هذا ما يقولونه.

- لست بذاهبة للمشاهدة. طلبت أمك مني ذلك، ولكني أفضل أن أكون هاهنا، بعيدة عن سبيل الجميع.

ثم مبدية قلقها حيال تكاسله، مضت تسائله عما إذا كان لا يشعر بالميل إلى تعلم الجودو أو اجتياز الحواجز. كانت هناك ذات يوم قاعة للتمرينات الرياضية في المزرعة، ولكنها هدمت لتفسح المجال للدار الغربية. وأدلت الجدة بتعليق ساخر على ذلك، قوامه أن هدم هذه القاعة كان علامة بدء انحدار العائلة. غير أن هذا الرأي كان متجانساً مع طريقته في التفكير، وقد أحب كلمة «انحدار».

- لو أن عميك كانا على قيد الحياة، لما مضى أبوك في سبيله، على ما هو الآن. وبقدر ما يعنيني الأمر، فإن هذه الألفة مع العائلة الأمبراطورية وصب المال صباً على الترفيه هو مجرد استعراض كبير. حينما أفكر في ولديّ اللذين لقيتا حتفهما في الحرب دون أن يعرفا للترف معنى، أحس بأنني أرغب في ألا يكون لي شأن مع أبيك، وبقيتهم، وهم يمضون عبر الحياة طافين، دون أن يفكروا إلا في الكيفية التي يستمتعون فيها بوقتهم. أما فيما يتعلق بالمعاش الذي أتلقاه عن ولدي، فهذا هو السبب في أنني أضعه هناك

على الرف إلى جوار المذبح المنزلي دون أن أمسه. يبدو لي أن سموه
الأمبراطوري يعطيني إياه لقاء ولديّ والدم الذي سفحاه بمثل هذه الجسارة.
لسوف يكون من قبيل الخطأ إنفاقه.

استمتعت جدته بإلقائها لخطاب قصير من هذا النوع، ولكن الحقيقة
هي أن أباه كان كريماً بلا حدود في إعطائها ما تريد، سواء أكان ملابس أو
طعاماً أو إنفاقاً للمال أو خدمة. وغالباً ما تسأل كيواكي عما إذا كانت
تجمل بشدة من أصولها الريفية، وبالتالي تحاول تجنب أي نوع من الحياة
الاجتماعية الغربية.

ومع ذلك، فحينما يزورها، وعندئذ فحسب، كان يشعر بأنه يهرب من
ذاته ومن البيئة المصطنعة التي تخنقه خنقاً. واستمتع بالتواصل مع إنسانه
جد قريبة منه، لكنها في الوقت نفسه لا تزال تحتفظ بالقوة الأرضية
لأجداده. كان سروراً من نوع مفارق تماماً.

كان كل ما يحيط بجدته في تناغم جسامي مع الصورة التي رسمها عن
شخصيتها، فبداها كبيرتان، وأصابعها غليظة، وبدت خطوط وجهها كأنها
أرستها هناك ضربات مخنكة من فرشاة للكتابة، وشفتاها مطبقتان بإصرار
حازم. غير أنها بين حين وآخر تبدي استعداداً للسماح لنغمة أكثر إشراقاً
بالتسلل إلى أحاديثها معه. ففي الوقت الراهن، على سبيل المثال، راحت
ترتّب على ركبة حفيدها تحت المنضدة الخفيفة التي تغطي مدفأة القدم،
وهي تداعبه قائلة:

- لعلك تعلم أنك في كل مرة تحييء إلى هنا يعم الاضطراب النسوة
القائمات على شؤوني، فما أعود أدري ماذا عساي أصنع بهن. وأخشى
أنك، بالنسبة لي، لا تزال الصبي الصغير السائب الأنف، لكن أحسب أن
هاته الفتيات ينظرن إلى الأمور بشكل مختلف.

تطلع كيواكي إلى صورة عمي الباهتة، في زييها الرسميين، المعلقة على الجدار، بدا له أن زييها العسكريين يستبعدان أي رابطة محتملة بينها وبينه. لقد انتهت الحرب قبل ثمانية أعوام فحسب، غير أن الهوة بينها وبينه بدت مستعصية على القياس.

حدث نفسه متباهياً، وإن لم يخل الأمر من شعور واهن بعدم اليقين: «لن أسفح دماً حقيقياً قط، لن أروح شيئاً، اللهم إلا الأفتدة».

في الخارج تألقت الشمس على ستار «الشوجي»، فسيحت الغرفة الصغيرة في دفء حميم، وجعلته يشعر كأنما هو ملفوف في غطاء هائل من البياض المتألق، لا ينفذ منه شيء. وأحس كما لو كان مسترخياً، على نحو رائع، تحت سنا الشمس المباشر. شرع النعاس يداعب جفون جدته، فأدرك، في غمار الصمت الذي يلف الغرفة، طنين ساعة هائلة عتيقة الطراز. انحني رأس جدته إلى الأمام قليلاً. نأ جبينها حاداً تحت خط شعرها القصير، الذي كان ملموماً، ومثوراً عليه ذرور صبغة سوداء. لاحظ تألق جلدها بالصحة والعافية، فحدث نفسه بأنه قبل نصف قرن من الزمان كانت شمس كاجوشيا القوية تحيل بشرتها إلى اللون الخمري في كل صيف من أصياف شبابها، وبدا حتى الآن أنها قد احتفظت بتأثيره.

كان غارقاً في أحلام يقظته، وتحولت أفكاره متحركة كالبحر تدريجياً من إيقاع الأمواج إلى إيقاع المرور الممتد والوثيد للزمن، ومن ثم إلى حتمية الإيغال في العمر. فكف عن التنفس فجأة. لم يكن قد سبق له أن تطلع من قبل قط إلى الحكمة وغيرها من الفوائد التي يتبجح بها، والتي تمنحها الشيخوخة. ترى هل يستطيع الموت في ميعة الصبا - وإذا كان ذلك ممكناً - أن يلقاه متحرراً من كل ألم؟ موت رشيق، مثل كيمونو فخم النقش، ملقى في إهمال على امتداد منضدة مصقولة ينزلق ناتئاً هابطاً نحو ظلمة الأرضية في الأسفل. موت موسوم بالتألق والرفعة.

استحثته فكرة الموت على حين غرة بالرغبة في رؤية ساتوكو، ولو للحظة.

اتصل هاتفياً بتاديشينا، ثم ترك الدار مسرعاً. لم يكن هناك شك في أن ساتوكو تفيض بالحياة وبالجمال شأنه هو نفسه - بدت له هاتان الحقيقتان انعطافاً غريباً في مسيرة الحظ، شيئاً يتمسك به ويتشبث في وقت الخطر.

تظاهرت ساتوكو، متبعة خطة تاديشينا، بأنها في طريقها للقيام بنزهة، والتقت بكيواكي في مزار شتو لا يبعد كثيراً عن دارها. كان أول ما قامت به هو الإعراب عن شكرها للدعوة التي وجهت إليها لحضور الاحتفال بمشاهدة براعم الكرز. فقد اعتقدت بجلاء أنه أقنع الأمير ماتسوجاي بتوجيه هذه الدعوة. وكانت تلك، في حقيقة الأمر، هي المرة الأولى التي يسمع فيها بهذا الموضوع، ولكنه بمرواغته المألوفة لم يخلصها من هذه الفكرة، وتقبل آيات شكرها، على نحو غامض، لا يلزمه بشيء.

بعد مجالدة امتدت طويلاً، أفلح الأمير ماتسوجاي في إعداد قائمة بالضيوف، مقتضبة على نحو قاس، لدعوتهم لحضور عيد التبرعم. وقد اعتمد معياراً، قوامه دعوة عدد من الضيوف المقبولين والأكثر ملاءمة لهذه المناسبة، حيث أن المأدبة التي ستتوجها سيشرفها بحضورهما الجليل الأمير الأباطوري وزوجته. ومن ثم فإنه إضافة إلى ساتوكو وأبويها النبيل والنبيلة أياكورا، لم يدرج بالقائمة إلا الأميرين السياميين والشريف شينكاوا وزوجته، اللذين كانا من الزوار المعتادين، وصديقين حميمين لآل ماتسوجاي. وكان الشريف رئيساً لـ «زايباتسو»^(١) شينكاوا، وقد صيغت حياته بأسرها على غرار حياة السيد الانجليزي المذهب الكامل، الذي كان يقلده باهتمام مبالغ في التدقيق بأدق التفاصيل. ومن جانبها كانت الشريفة على علاقة حميمة مع أناس من نوعية راعية الحركة النسائية الشهيرة رايتشو هيراتسوكو وحلفتها، وكانت كذلك راعية لـ «نساء الغد». وهكذا كان من الممكن الاعتماد عليها في إضافة لمسة من اللون المختلف إلى هذا التجمع.

تقرر أن يصل الأمير توين وزوجته في الساعة الثالثة من بعد الظهر، وأن يتم إطلاعها على جوانب الحديقة، بعد راحة قصيرة، في إحدى قاعات الاستقبال بالدار الرئيسية، ثم يتم الترفيه عنها، حتى الساعة الخامسة، في

(١) مؤسسة صناعية كبرى، سترداد جبروتاً وتعلّقاً مع التطور الاقتصادي للمجتمع الياباني. والاسم خيالي، بالطبع، وإن كان المرء لا يغيب عنه الاسم الحقيقي لمؤسسة موازية في حياة وتطور اليابان الحديثة (هـ.م).

حفل بالحديقة، من قبل بعض فتيات الجيشا، اللاتي سينطلقن لتقديم باقة من رقصات عيد تبرعم الكرز تعود إلى عهد جينروكو.

قبل الغروب مباشرة، سيخلد الزوجان الأمبراطوريان إلى الدار الغربية الطراز، لتناول المقبلات، وبعد المأدبة ذاتها، سيقدم فاصل ترفيهي أخير: فقد تم استقدام عارض أفلام، ليعرض فيلماً أجنبياً جديداً. هكذا كان البرنامج الذي ابتكره الأمير بمساعدة يامادا، وكيله، بعد التفكير ملياً في الأذواق المتنوعة لضيوفه.

غير أن الأمير عرف لحظات من المعاناة، في غمار محاولته الاستقرار على اختيار للأفلام؛ فقد كان هناك ذلك الفيلم من «بائييه»، الذي يضطلع ببطولته نجم فرقة الكوميدي فرانسيز الشهير، جابرييل روبان، الذي كان عملاً فذاً بلا جدال. غير أن الأمير رفضه؛ لخشيته من أنه قد يطيح بالحالة المزاجية المواكبة لمشاهدة التبرعم، والتي تم الوصول إليها بمثل هذا القدر الكبير من الاهتمام. وكان «المسرح الكهربائي» قد شرع في بداية شهر مارس في عرض أفلام، في مدينة أساكوسا، انتجت في الغرب، كان أولها وهو «الفردوس المفقود» قد أحرز رواجاً كبيراً، غير أنه لا طائل من وراء تقديم فيلم متاح ببسر، في مكان كهذا، ثم هناك فيلم آخر، هو ميلودراما ألمانية مليئة بالحركة العنيفة، ولكن هذا لا يمكن توقع إحرازه قبولاً، لدى الأميرة والسيدات الأخريات. وفي نهاية المطاف، قرر الأمير أن الخيار الذي يحتمل بصورة أكبر أن يرضي ضيوفه هو فيلم انجليزي، مؤلف من خمس بكرات، مقتبس عن رواية لديكنز. قد يكون الفيلم بالغ الكآبة، لكنه يتسم برفعة المستوى، على نحو ما، وقدرته على مخاطبة الناس هائلة، كما أن التعقيبات عليه بالانجليزية من شأنها أن تساعد كل الضيوف على استيعابه.

ولكن ماذا لو أن المطر انهمر؟ في تلك الحالة، فإن قاعة الاستقبال

الفسيحة بالدار الرئيسية لن تتيح للناظر حشداً منوعاً من البراعم، والبديل الوحيد المناسب سيكون القيام بالمشاهدة من الطابق الثاني من الدار الغربية الطراز. وفي وقت لاحق يمكن لفتيات الجيشا أن يؤدبن رقصاتهن هناك، وتعقب ذلك، كما هو مقرر، المقلات والمأدبة الرسمية.

مضت الاستعدادات قدماً، مع إقامة خشبة المسرح المؤقتة، عند بقعة قريبة من البحيرة، تحت سفح التل المعشب مباشرة، فإذا ما اتضح أن الطقس جميل، فمن المؤكد أن الأمير ومعيته سيقومون دونما شك بجولة كاملة في الضيعة، حتى لا تفوتهم مشاهدة أي من البراعم. وكانت الستائر البيضاء والحمراء التقليدية، التي لا بد من إسداها على امتداد طريقه، أكبر بكثير من تلك التي تقتضيها مناسبات أكثر عادية. واقتضى العمل المتمثل في تجميل داخل الدار الغربية الطراز ببراعم الكرز وزخرفة مائدة المأدبة، لتوحي بمشهد ربيعي ريفي، كل ألوان الاهتمام، من جانب مجموعة كبيرة من المساعدين. وأخيراً، وفي اليوم السابق على الحفل، دُفع مصففو الشعر ومساعدوهم دفْعاً إلى موجة محمومة من النشاط.

كان السادس من إبريل يوماً صافياً، على نحو يدخل السعادة على القلوب، حتى وإن تآقت النفوس إلى وهج الشمس الذي احتجب، ومضى يقبل ويدبر، بل وشابت هواء الصباح برودة جاثمة.

خصصت غرفة لا تستخدم، في الدار الرئيسية، لتكون غرفة تغيير الملابس بالنسبة لفتيات الجيشا، وحشدت فيها كل المرايا المتاحة. وإذ ثار فضول كيواكي، فقد انطلق إلى هناك ليتفقد الأمر بنفسه، لكن الوصيعة المسؤولة أبعدته بسرعة، غير أن الغرفة استقطبت خياله، وقد نظفت وكنتت تاهباً لمقدم النسوة الوشيك. أسدلت الستائر، ونثرت الوسائد في كل مكان، وراحت المرايا تتألق من خلال أغطيتها الزاهية الألوان من موصلين يوزين المطبوع. في تلك اللحظة، لم يكن هناك أدنى مؤشر لعطر

مواد التجميل في هواء الغرفة، ولكن في غضون ما لا يزيد على نصف ساعة، سيقع تحول كبير، فسوف يمتلئ المكان بالأصوات البديعة، فيما النسوة يقمن، وقد تجتمعن أمام المرايا، بارتداء وخلع ثيابهن، بثقة في النفس لا تعرف التردد. وجد كيواكي هذا الاحتمال فاتناً، وخلق لبه السحر الباعث على الغواية النابع من المناسبة، الذي لم ينبعث من الخشبة المسرحية المقامة على عجل لتوها في الحديقة، وإنما تركز بالأحرى هاهنا، في هذه الغرفة، بما تعد به من عقب فائن سرعان ما يهل.

وبما أن الأميرين السياميين ما كانا ليكثرنا كثيراً بمفهوم الزمن، فقد طلب منها كيواكي القدوم بمجرد انتهاء طعام الغداء، فوصلا في حوالي الواحدة والنصف، ودعاهما إلى مكتبه للحظة، وقد أزعجه أن يرى أنها يرتديان الزي الرسمي للمدرسة.

.. أتأتي فتاتك الجميلة؟

قالها الأمير كريدسادا. متسائلاً، بصوت عالٍ، باللغة الانجليزية، قبل أن يجتازا الباب.

بهت الأمير باتاناديد، الذي كان متحفظاً على نحو رقيق دوماً، فوثخ ابن عمه، لحفته التي لا ترعوي، واعتذر لكيواكي بيابانية متعثرة.

أكد لهما كيواكي أنها ستحضر، لكنه أثار نظرات مترعة بالدهشة بطلبه منهما الامتناع عن الحديث عنه وعن ساتوكو أمام أي من الضيفين الأمباطوريين أو آل ماتسوجا أو آل أياكورا. وقد افترض الأميران، فيما يبدو، أن علاقتهما أمر معروف للكافة.

الآن ما عاد الأميران يفصحان عن دلائل حنينها المرضي السابق إلى الوطن، ولاح أنها قد استقرا على إيقاع الحياة في اليابان. وخطر لكيواكي وهو يراها في زيهما المدرسيين أنها على وجه التقريب لا يمكن تمييزهما عن

بأقي طلاب صفه . قام الأمير كريوسادا ، الذي كان موهوباً في فن التقليد الصامت ، بتقليد لناظر المدرسة ، كان من البراعة بحيث انفجر تشاوي وكيواكي ضاحكين .

سار تشاوي . حتى بلغ النافذة ، وأطل عبر أراضي الضيعة على مشهد مختلف تماماً عن المشهد الذي يراه المرء في الأيام العادية . فقد راحت الستائر الحمراء والبيضاء التي تخترقها ترفرف في الريح .
- من المؤكد أنه من الآن فصاعداً سترداد حرارة الجو .

قالها ساهماً ، وقد أفعم صوته بالحنين إلى شمس الصيف .

دهش كيواكي تماماً حيال لمسة الكآبة هذه ، فنهض ، وأوشك على المضي بنفسه إلى النافذة ، ولكنه فيما هو يهم بالنهوض ، أطلق تشاوي صيحة مفاجئة ، صبيانية ، أثارت فضول ابن عمه ودفعته إلى مغادرة مقعده .

صاح ، متقللاً بالحديث إلى الانجليزية :

- هاهي ! هاهي السيدة الجميلة التي لا ينبغي أن تأتي على ذكرها اليوم .

كانت هي ساتوكو حقاً ، لا مجال للخطأ بشأنها في كيمونوها الطويل الردين ، وهي تقبل عبر الممر إلى جوار البحيرة نحو الدار الرئيسية ، ووالدها إلى جانبها ، وحتى من بعيد كان بمقدور كيواكي أن يرى أن الكيمونو من لون أحمر وردي جميل ، يعكس براعم الكرز ، ونقوشه قريية من الوفرة الخضراء الندية لمرجة ربيعية ، فيما التفتت للحظة ، مشيرة إلى الجزيرة النفطية لمحة من جانب وجهها ، وقد حدّد شعرها الفاحم المتألق الاستدارة الرقيقة لوجنتها .

لم تعل ستائر بيضاء وحمراء في الجزيرة . كان الوقت لا يزال مبكراً على رؤية اللمسات الأولى لخضرة الربيع ، ولكن الستائر التي حددت الممر الملثوي المؤدي صعدا إلى تل القيقب فيما وراء الجزيرة ألقت انعكاسات

متهاوجة على سطح الماء، ذكرت ألوانها كيواكي بالكعكات المحلاة المجملة بالخطوط الطولية. وعلى الرغم من أن النافذة كانت موصدة، فإنه شعر بأنه بمقدوره سماع صوت ساتوكو العذب المتهلل.

سياميان شابان وياباني في ريعان العمر... وقفوا ثلاثتهم عند النافذة، وقد حبس كل منهم أنفاسه. حدث كيواكي نفسه، بقوله: ما أغرب هذا! عندما يكون بصحبة الأميرين الشابين، أترأه يجد أن طبيعتهما العاطفية معدية للغاية حتى ليغدو بمقدوره أن يصدق أنه على الحال ذاته ويشعر بأنه قادر على الإفصاح عن ذلك صراحة؟ إن بمقدوره أن يقول لنفسه في هذه اللحظة دوغما تردد: «إنني واقع في حبها، واقع في حبها بجنون».

قبل ست سنوات، أتاحت له لمحة بالغة الإيجاز من الصورة الجانبية الجميلة للأميرة الأمباطورية كاسوجا، فيما هي تلتفت إلى الورا لتتظفر إليه، وقد أفعمت قلبه بحنين يائس لا يعرف السكون، أما الآن وفيما ساتوكو تغادر البحيرة، التفتت بوجهها نحو الدار الرئيسية، بحركة رشيقة من رأسها، وعلى الرغم من أنها لم تكن تتطلع مباشرة نحو النافذة، إلا أن كيواكي أحس، فجأة، بأنه قد تحرر مما استحوذ عليه سابقاً. في لحظة واحدة عايش شيئاً تجاوز ما خلب لبه من قبل. الآن، وبعد ست سنوات، أحس بأنه أعاد الإمساك بجزئية من الزمن متألقة ومتبلرة، من منظور آخر. وفيما هو يرقب ساتوكو، وهي تسير في وهج الشمس الربيعي الشاحب والندي، ضحكت فجأة، وفيما هي تضحك رآها ترفع ذراعها في حركة طليقة، حاجبة فمها وراء الانحناء الرشيق ليدها البيضاء. بدا أن جسمها الرشيق يتذبذب، كأنه آلة موسيقية وترية رائعة.

كان الشريف شينكاوا وزوجته متكاملين، على نحو فريد، كثنائي عائلي: فالانفصال المفعم بالشroud قد رُفِّ، في هذه الحالة، بصورة حرفية، إلى الهياج، الذي يرقى للجنون المؤقت. وما كان الشريف ليلحظ، ولو على نحو عابر، أي شيء تقوله امرأته أو تأتيه، بينما كانت الشريفة تصب دفقاً لا يتوقف من الكلمات، بغض النظر عن تأثيرها على الآخرين. وقد كان هذا هو سلوكهما المعتاد، سواء أفي دارهما أم في الأماكن العامة. وعلى الرغم من أسلوب الشريف الشارد في التصرف، إلا أنه كان قديراً تماماً في الوقت الملائم عى أن يصرع شخصاً، دونما رحمة، بملاحظة واحدة بليغة متعمقة لا يكلف نفسه قط عناء إيضاحها. ومن ناحية أخرى فلإن زوجته لم يقدر لها أن تفلح قط في إعادة إحياء ذلك الشخص عينه مهما كان فيض الكلمات المنهمر الذي تغطره به.

امتلكا سيارة من طراز رولز رويس، هي الثانية من نوعها التي اشترت في اليابان، وشكلت لوناً من ألوان التميز، قدّراه باعتبارها بهاناً على مكانتهما الاجتماعية الرفيعة. وكان من عادة الشريف ارتداء سترة سموكينج حريرية، بعد العشاء، وبزيه هذا يمضي المساء متجاهلاً فيض ثروة زوجته، الذي لا يغيض له نبع.

وبدعوة من الشريفة، اعتادت حلقة رايتسو هيراتسوكا أن تجتمع في دار شينكاوا، مرة كل شهر، حيث تطلق العضوات على أنفسهن إسم «جماعة النار السماوية» تيمناً بقصيدة شهيرة من نظم الشاعرة النبيلة سانونو

تشيجامي . غير أنه بسبب هطول المطر في كل الأحوال في اليوم المحدد للقاء، درجت الصحف على عادة طريفة، هي تسمية الجماعة باسم «نادي اليوم المطير». وكان أي لون من التفكير الجاد شيئاً يتجاوز خيال الشريفة، التي أدهشتها اليقظة في صفوف النساء اليابانيات. وقد لاحظتها بالفضول المنفعل ذاته، الذي قد يثيره في نفسها قيام الدجاجات بوضع بيض جديد في شكله، يتخذ هيئة الأهرام، على سبيل المثال.

أحس الزوجان شينكاوا بالضيق والفخار معاً حيال دعوة آل ماتسوجاي لهما لحضور الاحتفال بمشاهدة البراعم. أما الضيق فلأنها أدركا مدى الضجر الذي سيحسان به. وأما الفخار، فلأن الدعوة ستتيح لهما الفرصة لكي يستعرضا على رؤوس الأشياء أساليهما الغربية على نحو أصيل. كان آل شينكاوا عائلة عريقة وثرية من التجار، وبينما كان أمراً مهماً، بالطبع، الاحتفاظ بالعلاقة التي تفيد الطرفين مع أبناء منطقتي ساتسوما وتشوشو، الذين علت بهم الأيام إلى مرتبة الصدارة في الحكومة، فإن الشريف وزوجته استشعرا في قرارة نفسيهما ازدياد نحو هؤلاء بسبب أصولهم الفلاحية. وكان هذا موقفاً وراثاً عن آبائهما، وكامناً في قرار ترفعهما، الذي اكتسباه، حديثاً وإن كان مكيناً لا يعرف الاهتزاز.

قال الشريف:

- طيب، الآن وقد دعا ماتسوجاي الأمير توين إلى داره، ربما سينظم فرقة نحاسية للترحيب به، فتلك العائلة تنظر إلى زيارة أمير من العائلة الأباطورية لها باعتباره نوعاً من الأحداث المسرحية.

تناهي إليه رد زوجته:

- ما علينا إلا الاحتفاظ بأرائنا المستنيرة لأنفسنا، فيما أخشى، واعتقد أنه من تمام الأناقة أن نظل على سجيئنا، على نحو ما نفعل دون أن يبدو علينا ذلك. ألا تعتقد ذلك؟ في الحقيقة إنه أمر مسلٍ جداً، ألا تقر بذلك، أن

نختلط دوغما فضول بأناس عتيقي الطراز مثلهم. فعلى سبيل المثال، أعتقد أنه أمر مسل على نحو مخيف ذلك الأسلوب الذي يبدو به ماتسوجاي بالغ الخنوع أمام الأمر توين في لحظة، ثم يحاول التصرف وكأنها صديقان قديمان، في اللحظة التي تليها. لكني أتساءل عما ينبغي عليّ ارتداؤه؟ سننتقل في وقت مبكر من الأصيل، ولذا أتصور أنه ليس من المناسب تماماً الذهاب في رداء مساء رسمي، وأحسب، في نهاية المطاف، أن كيمونوسيكون الخيار الأكثر حكمة، ربما يتعين عليّ أن أسارع بالتوصية على طلبية من متجر كيتايدي في كيوتو، وإعداد شيء ما، ربما على ذلك الطراز الجميل المؤلف من البراعم وضوء النار؟ ولكن لسبب ما فإنني لا أبدو بمظهر طيب في كيمونو على طراز سوسو أبداً. لست واثقة بالمرة مما إذا كنت أنا التي أعتقد أن طراز سوسو يبدو مخيفاً وأنا أرتديه أم أن الأمر كذلك حقاً أم أن آخرين يعتقدون أيضاً أنه يبدو مخيفاً. وهكذا فلست أدري ما يتعين عليّ القيام به - ولكن ما الذي أعتقد أن عليّ القيام به؟

في يوم الدعوة ذاته، تلقى آل شينكاوا رسالة موجزة من آل ماتسوجاي، حيث طُلب منها بمزيد من الإجلال أن يصلا إلى الدار في وقت سابق على وقت وصول الزوجين الإمبراطورين. وعلى الرغم من أنها اختاراً، بتعمد فاتر، أن يظهرها على الساحة بعد الوقت المتوقع لآل توينو مايا بخمس أو ست دقائق، إلا أنه أحزنهما أن يكتشفا أنها لا يزالان مبكرين، وبدا جلياً أن ماتسوجاي قد خطط مسبقاً لهذه المناورة. وقد تكدر الشريف حيال هذا الانفصاح عن الأخلاق الريفية.

- ربما أصابت نوبة قلبية جياد سموه الإمبراطوري في الطريق.

قالها الشريف، ملاحظاً، على سبيل التحية. ولكن أياً كان الطابع اللاذع لسخريته، فقد كان حديثه غمغمة، والتعبير المرتسم على وجهه لا يشي بشيء، على الطريقة الانجليزية الصرف، ولذا لم يسمع أحد ما قاله.

أعلن مبعوث من البوابة الرئيسية البعيدة ظهور العربة الأمبراطورية،
فتأخذ المضيف وجمعه في التومواقعهم، عند مدخل الدار الرئيسية؛
للترحيب بمقدم الأمير.

تبقت عربته، هنا وهناك، بطين الربيع، فيما الجياد، التي تدافعت
الحصباء تحت حوافرها، تمضي خبياً تحت شجرة الصنوبر الشاخنة في الممشى
أمام الدار. صهلت في ضيق، مشيخة برؤوسها. وللحظة أعادت معرفاتها
المتوجة في الهواء إلى ذهن كيواكي القمة المتوجة لموجة هائلة، توشك أن
تلطم الشاطئ. وفي اللحظة عينها، غامت زهرة الاقحوان الأمبراطورية
على باب العربة في دوامة من ذهب، ثم استقرت مع توقف العربة.

توازن شارب الأمير توين الرمادي البديع مع قبعة مستديرة سوداء،
توازناً طيباً. وسارت الأميرة، عقب زوجها إلى المدخل عابرة العتبة إلى
السجادة البيضاء التي مدت فوق أرضية الدار الرئيسية في ذلك الصباح
لتفادي الاضطراب إلى انتعال مداسات خاصة بالدار. ومن الطبيعي أن
الزوجين الأمبراطوريين أوماً دونما تكلف، وفي إيجاز قبل دخولهما الدار.
لكن الترحيب التقليدي تقرر أن يتم في قاعة الاستقبال.

لدى مرور الأميرة بكيواكي لفت نظره الطرفان السوداوان لنعلها،
اللذان تألقا تحت قماش ثوبها الأبيض المكشكش. كانا يشبهان قرنتي عشب
بحري، فيما راح يحذث نفسه، يطلان في دوامة مسترسلة. وقد فتنه ذلك
إلى حد دفعه إلى ما يفوق التردد في رفع بصره إلى محياها، الذي بدا في
الإفصاح عن مظاهر الإيغال في العمر.

في قاعة الاستقبال، قدم ماتسوجاي الضيوف الآخرين لآل تيونومايا.
وكان الشخص الوحيد الذي لم يسبق لها التعرف عليه متمثلاً في ساتوكو.
وجّه الأمير توين اللوم إلى أبيها:

- ما الذي دهاك، يا أياكورا فتخفي عني مثل هذه الشابة الحسنة؟
اعترت كيواكي، الذي كان يقف جانباً رجفة خفيفة، لم يفقه لها سراً.
أحسن أن ساتوكو قد تحولت إلى عمل فني نادر يعرض للجمهور.

بما أن الأمير توين كان على صلة وثيقة ببلاط سيام، فقد جرى تقديم
الأميرين السياميين له، فور وصولهما، إلى اليابان. أما الآن فقد راح يتحدث
معهما بمزيد من الألفة، سائلاً إياهما عما إذا كانا قد أحبا زملاءهما في مدرسة
النبلاء من عدمه. ابتسم تشاوي ابتسامة مشرقة وجاء رده تجسيداً لمثال
رفيع للمجاملة الحافلة بالتقدير:

- إنهم جميعاً يساعدوننا في جعل الأمور أيسر بالنسبة لنا في كل النواحي،
ويبدو الأمر كما لو كنا أصدقاء منذ سنوات بعيدة. وما من شيء ينقصنا.

وبما أن الأميرين السياميين لم يظهرأ في المدرسة حتى الآن، ولم يكن لهما
فيما يبدو أصدقاء هناك على الإطلاق باستثناء كيواكي نفسه، فقد وجد هذا
الآخر تلك الشهادة المتحمسة شيئاً طريفاً وغريباً للغاية.

كان الشريف شينكاوا يحب النظر إلى حساسيته باعتبارها جبلت من
فضة مصقولة، يتألق رونقها دون أن تشوبه شائبة في المناخ المناسب لطبيعته
في داره، ولكن ما إن ينغمس في التعامل اللفظ مع العالم الخارجي حتى
يشعر صقالها في فقد بريقه، ومن شأن مكابدة لقاء واحد مثل هذا اللقاء
أن تكسو هذا الصقال بطبقة خفيفة من الانطفاء.

بتوجيهات من ماتسوجاي مضى الضيوف، الآن، خارجين في أعقاب
الأمير والاميرة لمشاهدة البراعم. ولكن بحكم كونهم يابانيين فإن الأزواج لم
يسمحوا لأنفسهم بالاختلاط على هواهم، فقد ظلت كل زوجة وراء
زوجها. وأصاب نوبة من الشرود، لحظها الآخرون، الشريف شينكاوا.
ومع ذلك وبمجرد أن وضع هو وزوجته مسافة مناسبة بينهما وبين الضيوف
الآخرين انتزع نفسه ليقول لها ملاحظاً:

- عندما كان ماتسوجاي يدرس في أوروبا ألف أساليب السلوك الأجنبية، أما قبل ذلك فقد كان يبقى على خليلته في الدار ذاتها، التي تقيم بها زوجته، لكنه في وقت لاحق أسكنها في دار مؤجرة خارج البوابة الأمامية مباشرة، أي على بعد حوالي نصف ميل من الدار، الأمر الذي يرقى، فلنقل، إلى نصف ميل من التطبيع بعادات الغرب. إن هذا هو ما اعتقد أنه يقال له: خذ من هذا بنصيب ومن ذاك أيضاً.

ردت زوجته، منطلقة من عقاها:

- لكي يكون المرء مستتيراً على الإطلاق ينبغي أن يكون مستتيراً على طول الخط. أما قطع نصف الطريق فليس يجدي. ولئن أريد لدار أن تسير شؤونها على الطريقة الأوروبية، فينبغي، إذن، سواء أعلق الأمر بالرد على دعوة رسمية، أم كان خاصاً بمجرد الذهاب في نزهة مسائية قصيرة، أن يتدبره الزوج والزوجة معاً، على نحو ما نفعل، بغض النظر عما يقوله الآخرون. آه، انظر إلى هناك! شَفْ كيف انعكس التل على البحيرة مع شجرتين أو ثلاث من أشجار الكرز والستائر الحمراء والبيضاء؟ أليس ذلك جميلاً؟ وهل يعجبك الكيمونو الذي ارتديه؟ وبالنظر إلى ما ترتديه السيدات الأخريات، أقول إن كيمونوي يحظى بأكثر الطرز دقة وجراً واستنارة هاهنا. ولذا كم يبدو رائعاً لمن يقف على الشاطئ الآخر ويراه منعكساً على سطح الماء. ألا تظن ذلك؟ آه، كم أن الأمر محبط! لم لا يسعني أن أكون على جانبي البحيرة كليهما في وقت واحد؟ المرء مقيد على نحو مخيف. أليس كذلك. ألا تظن هذا؟

كان عزل كل زوج مع زوجته عذاباً خالصاً، على نحو رفيع، احتمله الشريف برباطة جأش مرحلة؛ ففي نهاية المطاف كان ذلك عذاباً يفضل، وفي حقيقة الأمر كان من الرواد، وقد نظر إليه باعتباره نوعاً من أنواع المحن التي قد تصبح ممارسة شائعة في حضارة مقبلة بعد قرن من الزمان من

الآن. ولم يكن الشريف من ذلك النوع من الرجال، الذي يرغب في وثام عاطفي مع الحياة، وكان على استعداد للترحيب بأي شكل من أشكال السلوك من شأنه الحيلولة دون هذا الوثام، مهما كان غير محتمل، أو مضجراً بالنسبة لرجال أقل شأنًا، وتقبل قدره بالالتزام النبيل النابع من التعمق الانجليزي.

عندما وصل الضيوف، أخيراً، إلى قمة التل، التي كان مقرراً أن يشاهدوا من فوقها الفقرات الترفيهية، حيثهم فتيات جيشا ياناجيشا، اللاتي كنّ بالفعل متكررات في هيئة الشخصيات التقليدية في رقصات جينوكو براعم الكرز. هكذا، وجدوا أنفسهم يختلطون بساموراي بزيه المدثر، روبن هود الأنثوي، المهرج، المغني الأعمى، بائع الزهور، النجار، الحطاب، البطل الشاب، فتيات المدينة والقرية، شاعر الهايكو، وكل الآخرين. وكان الأمير توين من رقة الحاشية بحيث بدا أن ذلك أدخل السرور إلى نفسه، تاركاً لما تسوجاي الذي كان إلى جانبه أن يرى ابتسامته، وراح الأميران السياميان يضغطان في ابتهاج على كتف كيواكي.

ترك كيواكي، الذي شغل أبوه بالترفيه عن الأمير توين وأمه عن الأميرة، وحيداً مع الشابين السياميين بشكل أو بآخر، وقد انشغل بما فيه الكفاية في إبعاد فتيات الجيشا، اللاتي تجمعن حوله، فيما هو يرمى شؤون الأميرين، اللذين لم يتح لهما بعد التمكن من اللغة اليابانية، ولم يتح له مجال للاهتمام بساتوكو.

قالت الجيشا العجوز، التي تنكرت في زي شاعر:

- أيها السيد الشاب، ألن تأتي لزيارتنا عما قريب؟ فتيات كثيرات وقعن صرعى حبك اليوم، أينبغي عليهن المضي دون أن تبادلهن مشاعرهن؟

كانت فتيات الجيشا الشابات، بل ومن اضطلغن بأدوار الذكور، يضعن لمسة خفيفة من اللون الأحمر حول أعينهن، الأمر الذي خلع على وجوههن

الضاحكة سمة من أوغل في الشراب. وعلى الرغم من أن لذعة البرد المترايدة في الجو حدثت كيواكي بأن المساء يؤذن بالقدوم، فقد أحس بأنه في مأمن من الرياح الليلية الحقيقية تحيط به ستارة مطوية من الحرير والتطريز والجلد الذي يعلوه الذرور الأبيض.

راح يتساءل كيف تستطيع هاته النسوة الضحك واللعب في سعادة، كأنهن يستحمن في ماء دافئ على هواهن. رصدهن عن كتب - الطريقة التي يومثن بها فيما هن يروين الحكايات، والنحو الذي يشرن به جميعهن بصورة متاثلة، كما لو أن لكل منهن مفصلة ذهبية بديعة الصياغة في عنقها الأبيض الرقيق، والأسلوب الذي يسمح به لأنفسهن بأن يتعرضن للمداعبة، تاركات لغضب مصطنع أن يتوهج للحظة في أعينهن دون الكف عن الابتسام، والطريقة التي يفتعلن فيها توأ سمة الوقار ليستكملن التفاتة مفاجئة مضجرة من أحد الضيوف، والمناخ المتعجل الذي يفتعلنه وقوامه الانفصال الفاتر، فيما هن يرتين شعرهن بلمسة يد - ومن بين كل هذه الحيل كانت الحيلة التي فتته أكثر من غيرها هي الطريقة التي يدعن بها أعينهن تطوف بلا توقف. ودون أن يدرك ما يفعله، راح يقارن عادة ساتوكو المميزة المتمثلة في إلقاء نظرات جانبية بهذه الحركة التي تقوم بها فتيات الجيشا. من المؤكد أن عيون فتيات الجيشا كانت مرحة ومفعمة بالحياة، فهي تعبرهن الوحيد عن الاستقلال، ولكن كيواكي، رغم ذلك، وجدها منفرة. لم يكن لهن خط من تناسق ساتوكو الرقيق، وهي هبة لا تأتي إلا مع الإحساس المكين بالتميز.

الآن، فيما هي تتحدث مع الأمير توين، راح كيواكي يرقب ملمحها الجانبي. أضاء عيها بوهج خفيف من الشمس الغاربة، وفيما راح يمعن النظر من الجانب الآخر من المجموعة طاف بذهنه تألق بلوري في البعيد، ونغمة خافتة مناسبة من كوتو، وواد ناء بين الجبال، كلها دوغما استثناء تحف

بها تلك الجاذبية الغريبة، التي تميز البعيد والمفارق، فلا تطاله اليد. وفضلاً عن ذلك، ففيما أخذت العتمة بأكناف الأشجار وحواشي السماء تدريجياً، غدا ملمحها الجانبي، رغم ذلك، مرتسماً بصورة أكثر تألقاً، كأنه الهيكل الذي تكتنفه العتمة لجبل فوجي وقد أمسكت الشمس الغاربة بأطرافه.

وفي غصون ذلك، راح الشريف شينكاوا والنبيل أياكورا يتبادلان الملاحظات الموجزة، دون أن تعوقهما فتيات الجيشا القائيات بالترفيه، اللاتي تقبلان خدمتهن بلا مبالاة فاترة. وتناثرت بكثافة على المرجة التي وقفا عليها البراعم، وفتن الشريف بمنظر إحدى البتلات، وقد تشببت بالطرف الملتصع لحذاء النبيل، وهو يلتصع تحت أشعة الشمس الغاربة. كان الحذاء من الصغر بحيث يصلح لامرأة، فيما راح يحدث به نفسه. وفيما وقف النبيل هنالك، ممسكاً بقدرح ساكي، بدت يده حقاً صغيرة وبيضاء للغاية، حتى تشبه يد دمية. وإذا واجه الشريف مثل هذا التجلي الواضح لسلسلة نبيلة، وهي تحتاز اضمحلالاً رفيعاً، استشعر لذعة غيرة، غير أنه كان مقتنعاً بأن امتزاج شروده «الانجليزي» الذي رعاه بعناية بما كان حالة طبيعية من التجرد المتألق في النبيل أياكورا شغّ بقيمة رفيعة لحوارهما ما كان يمكن لمحدثين آخرين أن يحرزاها.

قال النبيل أياكورا، على نحو غير متوقع:
- أما فيما يتعلق بالحيوانات، وأياً كان ما يقوله المرء، فإنني أعتقد أن عائلة القوارض تحظى بجاذبية معينة.
- عائلة القوارض...

قالها الشريف، دون أن يدرك المراد بها على الإطلاق.
- الأرنب، المراميط، السناجب، وما إلى ذلك.
- ألدك حيوانات أليفة من هذا النوع يا سيدي؟

- كلا، يا سيدي، على الإطلاق، فرائحتها نفاذة للغاية، ومن شأنها أن تنتشر في سائر أرجاء الدار.

- آه، فهمت، إنها جذابة للغاية، ولكنك ما كنت لتحفظ بها في الدار، أليس كذلك؟

- طيب، يا سيدي، يبدو في المقام الأول أن الشعراء قد تجاهلوا. وما لا مكان له في قصيدة لا موضع له في داري. تلك هي القاعدة التي تأخذ بها عائلتي.

- فهمت.

- لا، لست احتفظ بها باعتبارها حيوانات أليفة، لكنها مخلوقات صغيرة، ذات ضوضاء وخفر، بحيث أنني لا أستطيع دفعاً للتفكير في أنه ليست هناك حيوانات أكثر جاذبية.

- نعم، يا سيدي النبيل، إنني أتفق معك تماماً.
- بالفعل، يا سيدي، فإن كل مخلوق جذاب، كائن ما كان نوعه، له فيها يبدو رائحة قوية.

- نعم، حقاً، يا سيدي، أحسب أن يوسع المرء القول بذلك.
- يقولون لي، يا سيدي الشريف، إنك أمضيت وقتاً طويلاً في لندن.
- نعم، وفي لندن، وقت الشاي، تهتم ربة البيت كثيراً بسؤال الجميع:
الحليب أم الشاي أولاً؟ ورغم أن الكل سيان، في نهاية المطاف، حيث يمتزج الحليب والشاي في القدح فإن الإنجليز يعلقون أهمية كبرى على تفضيل المرء لصب أيهما أولاً. والأمر بالنسبة لهم يبدو أكثر أهمية من أحدث أزمة وزارية.

- أمر مثير للاهتمام. أمر مثير للاهتمام حقاً، يا سيدي!

لم تُنح لفتيات الجيشا فرصة المشاركة بكلمة واحدة، كما لم يبد عليهن رغم ما يدور حوله اليوم، أدنى اهتمام براعم الكرز.

راحت الأميرة ماتسوجاي تحدث الأميرة توين، التي كانت مولعة للغاية بالناجوتا، كما كانت تعزف على السامسين بحذق بالغ. وإلى جوارهما وقفت الجيشا العجوز، التي كانت أفضل مغنية في يانا جيباشي، تدلي بدلوها في الحديث. ومضت ماتسوجاي تحدثهما كيف أنها، منذ بعض الوقت، وفي حفل خطبة إحدى القريبات، عزفت «خضرة أشجار الصنوبر» على البيان بمصاحبة كوتو وسامسين، وهي مجموعة وجدتها الضيفات كافة جذابة. تابعت الأميرة القصة باهتمام فطن، وأعربت عن مدى شعورها بالأسف لعدم وجودها هناك، للمشاركة في العزف بنفسها.

تتابعت قهقهة الأمير ماتسوجاي، بين الفينة والأخرى، ومن ناحية أخرى أسعد الأمير توين أن يضحك بين الحين والآخر، لكنه قام بذلك بالاعتدال الواجب، واضعاً يده على شاربه المشذب على نحو أنيق. همست الجيشا العجوز، التي قامت بدور المغني الضريع بشيء ما في أذن الأمير ماتسوجاي، فنادى في التوضيوفه بصوته المترع بالحوية:

- طيب، الآن، حان الوقت لرقصات براعم الكرز، هل تسمحون لطفاً بالدنو من خشبة المسرح!

كان هذا النوع من النداء ينتمي، في حقيقة الأمر، إلى مجال السلطة الخاص بالوكيل يامادا. وإذ صدم لانتزاع سيده لدوره دونما سابق إنذار، راح العجوز يطرف بعينه، مسرعاً، وراء عويناته. وكان رد الفعل هذا الذي حجبته عن الجميع مألوفاً، عندما يجد أن عليه احتمال أمر غير متوقع.

ماكان يامادا ليعد يداً إلى أي شيء ينتمي للأمير ماتسوجاي قط، وقد توقع من سيده أن يبدي مراعاة له بالمقابل. فقد كانت هناك، على سبيل

المثال، حادثة وقعت في الخريف الماضي، حيث جمع أطفال الأجانب الذين يقطنون الدور الواقعة خارج البوابة بعضاً من جوز البلوط، فيما كانوا يلعبون في أراضي الضيعة. وأقبل أبناء يامادا ليلعبوا معهم، ولكن حينما قدم الأطفال الأجانب إليهم نصيباً من جوز البلوط رفضوه مستغضبين، ذلك أن أباهم قد حذرهم بقسوة من لمس أي شيء يملكه السيد. وأساء الأطفال الأجانب رد فعلهم، وفيما بعد جاء والد أحدهم إلى يامادا شاكياً. وعندما علم، على هذا النحو، بما وقع، استدعى أبناءه الجادين، الجهمي الوجوه، بأفواههم المتقلصة إلى أسفل، في توقيع مذعن دائم، وأشاد بهم كثيراً لسلوكهم هذا.

وفيما هو يفكر في هذا، اندفع قدماً بتصميم بائس إلى وسط الضيوف، والنصف الأسفل من الهاكاما التي يرتديها ينسدل فضفاضاً حول قدميه المتقلقتين، وراح يوجههم محمواً نحو خشبة المسرح.

في هذه اللحظة على وجه الدقة، ومن وراء الستار الأحمر والأبيض، الذي امتد في شبه دائرة عند مؤخرة خشبة المسرح، صدرت قرقرة حادة عن العصاتين المدويتين، اللتين تعلنان بدء العرض. فاندفع هذا المؤثر في الهواء المسائي، وبدا أنه يجعل النشارة الحديثة التي تناثرت على الألواح الخشبية تراقص للحظة.

لم تتح لكيواكي وساتوكو فرصة الانفراد بنفسيهما، إلى أن حانت فرصة استراحة قصيرة بعد الرقص، فيما كانت الظلمة تشرع أخيراً في إسدال سترها. كان هذا هو الوقت المخصص لانتقال الضيوف إلى الدار الغربية الطراز حيث ستقام المأدبة. اختلطت فتيات الجيشا مرة أخرى ليصغين إلى الإشادة الفائقة بأدائهن، فيما الجميع عاكف على الشراب بانطلاق. كانت تلك هي اللحظة الغربية الجاثمة على أكناف المساء، حينما تنضوي المضابيح فيما لا ضرورة له، عندما يجد المرء، حتى في وسط تجمع بهيج، أن شعوراً غامضاً بالتقلقل يحشم على نفسه.

التفت كيواكي عامداً إلى الوراء، في اتجاه ساتوكو، فأدرك أنها حريصة على أن تتبعه، على مسافة تشي بالحذر. عند نقطة يتفرع فيها الطريق المفضي من التل إلى فرعين، أحدهما يصل إلى البحيرة، والآخر إلى البوابة الأمامية، كانت هناك فتحة في الستار الأحمر والأبيض. انتصبت هاهنا شجرة كرز ضخمة، يكفل جذعها السميكة الحماية من العيون الفضولية المحدقة. انسل كيواكي من خلل الستار، وانتظر وراء الشجرة. غير أن ساتوكو قبل أن تتمكن من اللحاق به، أحاطت بها مجموعة من سيدات البلاط، تابعات الأميرة توين خلال إقبالهن من البحيرة في طريق عودتهن من جولة في تل القيقب. ولما كان كيواكي لا يستطيع الخروج من مكمنه في هذه اللحظة، فلم يكن هناك ما يستطيع القيام به إلا الانتظار في حمى الشجرة إلى أن تتمكن ساتوكو من الوصول إلى عذر تفلت به.

ترك كيواكي وحيداً، فمضى يتطلع إلى الشجرة التي تعلوه، وللمرة الأولى في ذلك اليوم منح بعضاً من تفكيره لبراعم الكرز التي تدلّت في تجمعات كبيرة من الخشونة السوداء للفروع كأنها كتلة من القواقع البحرية تناثرت على حيد مرجاني. جعلت الريح المسائية السناثر تنتفخ على امتداد الطريق، وعندما لمست أطراف الأغصان انثنت برشاقة في حفيف من البراعم، ثم بدأت الأغصان الكبيرة المنتشرة أنفسها في التارجح في جلال رفيق، تحت وقرها من البياض. مست شحوب الزهور هنا وهناك التجمعات الحمراء الوردية للبراعم، ويحكام يوشك أن يخفي عن الأنظار مس اللون الأحمر الوردي قلب كل برعم بشكله النجمي، بضربات حادة صغيرة، كأنها درزات تمسك بزر في موضعه.

أعتمت السماء، وشرعت الخافة الخارجية للسحب في التماوج، فيما هي تختلط بعتمة السماء، وبدأت البراعم ذاتها التي تحولت إلى كتلة هائلة واحدة في فقدان لونها المميز مكتسبة بظل لا يمكن تمييزه على وجه التقريب عن السماء المسائية. وفيما هو يرقب هذا كله، بدا أن سواد جذع الشجرة وأغصانها يتزايد باطراد ثقلاً وجهامة.

ومع مرور كل دقيقة، كل ثانية، راحت البراعم تمنع الغوص إلى قرار حميمة أكثر عمقاً وعتمة مع السماء التي جللها المساء، فأطيح بكيواكي إلى رحاب مشاعر حافلة بالندى.

ظن أنه رأى بطرف عينه الستار وهو ينتفخ من جديد أمام الريح، لكن ساتوكو هي التي كانت تدفعه، فيما هي تنسل عبر الفتحة. أمسك بيدها، التي بدت باردة حين لمسها من جراء لدغة النسيم الليلي.

قاومته، وتطلعت حولها في قلق، عندما حاول تقبيلها، ولكن بما أنها كانت تحاول كذلك حماية كيمونوها من الأشنة، التي كساها التراب على جذع الشجرة، فقد تمكن من معانقتها بسهولة.

- هذا يكسر فؤادي ، أرجوك ، إليك عني ، يا كيو!
أبقت ساتوكو صوتها خفيضاً ، خوفاً من سماع الآخرين له ، وأغضبت
سيطرتها على نفسها كيواكي ، فقد عقد العزم على أن يحظى بما لا يقل عن
تحقق فائق مترع بالنشوة في تلك اللحظة . هنالك تحت البراعم زاده زفيف
الريح الليلية المتفاقم قلقاً على قلق ، فدفع في يأس دفعاً إلى الإمساك
بناصية لحظة واحدة يقينية من السعادة لهما معاً بغض النظر عن كل ما عدا
ذلك ؛ ومن هنا جاء إحباطه حينما اكتشف أن أفكارها تعلق بجلاء في أفق
آخر ، كان شأنه شأن الزوج الذي استبدت به الغيرة حدّ الإصرار على القول بأن
زوجته تترأى لها الأحلام ذاتها التي تساوره .

لم تبد ساتوكو أكثر جمالاً قط منها الآن ، وقد أغمضت عينيها ، وهي
لاتزال تقاوم بين ذراعيه . ولكن على الرغم من أنه لم تكن هناك سمة ولا
لمحة تنتقص من رقة عجاها ، فقد وسم بميسم مراوغ وعابر من العناد . قلب
طرف شفيتها إلى أعلى قليلاً ، فحاول في قلق أن يتبين ما إذا كانت تبسم
أو تبكي ، لكن عجاها كان يسبح بالفعل في ظل غامر ، وقد خيم عليهما
تقريباً نذير من ظلام . تطلع إلى أذنها ، نصف المختبئة في شعرها ،
ويلمسة اللون الأحمر الوردي فيها واستدارتها البديعة جعلته روعتها يفكر في
تجويف مرجاني ، قد يترأى في حلم ، محتوياً أيقونة صغيرة جميلة منحوتة
لبوذا . كان ثمة ما هو غامض فيما يتعلق بتجويف أذنها ، الذي راح الآن
يتراجع في الظلام . أترى احتجب فؤادها هنالك ، أم أنه اختفى وراء
شفيتها الرفيعتين وأسنانها المتألقة ؟

راح يتساءل بشعور بالإحباط أخذ الضيق بأكنافه كيف استطاع على
الإطلاق أن يخترق دفاعات ساتوكو ، ثم فجأة ، وكأنها لم تعد تطيق احتمال
نظرتها ، دفعت بوجهها نحوه ، وقبلته . التفت إحدى ذراعيه حول خصرها ،
أحس بدفء يشع ذاته متخللاً أطراف أصابعه التي استقرت على عجزيتها ،

والتي ذكرته على نحو ما بالطقس العذب والمتجدد لصورة نباتية تختصر زهورها.

أفعم عقب الأمر خياشيمه، ومنحه شعوراً بهيجاً بالغوص في تضاعيفه. وعلى الرغم من أنها لم تغه بينت شفه، إلا أنه كان في قبضة الصور التي رسمها خياله، واقتنع تماماً بأنه على حافة لحظة من بهاء لا نظير له.

انتزعت فمها، لكن هذا ترك شعرها الغزير ملتصقاً بصدر ستره زيه المدرسي، راح يمدق فوق رأسها في أشجار الكرز على مبعده، فيسما وراء الستار، بينما اكتست حوافها بالفضة، دار رأسه من عدوية عقب زيت شعرها، الذي امتزج بعرف البراعم ذاتها. وقفاً في مواجهة آخر ضوء منحت الشمس، كأنه صوف أبيض، كثيف، خشن، ولكن لونها الذروري الضارب إلى اللون الفضي - الرمادي، ما كان بمقدوره أن يحوّل اللون الوردي الخفيف، حتى من منظور كيواكي المتطير. فجعله يفكر في مواد التجميل التي يستخدمها الخانوقي.

في غبار هذا، أدرك فجأة أن الدموع تتحدر على وجنتيها. وإذا ابتلي بالروح الخالصة للبحث، دفع دفعاً إلى محاولة تبين هوية هذه الدموع، وما إذا كانت دموع بهجة أو أسى، لكنها كانت أسرع منه.

انتزعت نفسها منه، ثم دون التوقف لتجفف دموعها، حذقت فيه، وقد تغيرت طريقة تصرفها تماماً، وانهارت عليه بكلمات لا ذعة لا أثر فيها للمودة:

- ما أنت إلا طفل، يا كيو، طفل لا أكثر! لست تفهم شيئاً، بل ولا تحاول أن تفهم. لماذا أتمسك بك كثيراً؟ كم أتمنى لو كنت علمت ما تعرفه عن الهوى. إنك تعتر بنفسك كثيراً. أليس كذلك؟ ولكن الحقيقة، يا كيو، هي أنك لا تعدو أن تكون مجرد طفل وليد. آه، لو أنني أدركت ذلك

فحسب! لو أنني حاولت بمزيد من الجد مساعدتك! الآن فات الأوان.
بعد هذا الانفجار، انسلت مخفية، عبر الستار، تاركة الشاب، وقد
سحق أي انسحاق، يضرب أخماساً في أسداس.

ماذا جرى؟ لقد انهالت عليه، بدقة لا تعرف الخطأ، هاتيك الكلمات
التي أعدت لتحدث أعمق الجراح في نفسه، كأنها سهام وجهت إلى نقاط
ضعفه، وقد سقتها سماً مقطراً من الشكوك الأكثر إيغالاً في مطاردته. عليه
أن يقلع عن التفكير في الفعالية الغريبة لهذا السم. يتعين عليه أن يحاول
التوصل على وجه الدقة إلى سبب حدوث هذا التبلور للخبث المحض.

لكن فؤاده راح ينبض مهتاجاً في صدره، ومضت يدها ترتعشان. قهره
غضب مرير للغاية، حتى أوشك على البكاء. ما كان يمكن أن يصبح
موضوعياً ويحلل برود الانفعال الذي اجتاحه. والأسوأ من ذلك أنه يتعين
عليه أن يعود مجدداً إلى الضيوف. وفي وقت لاحق من المساء، لن يكون
هناك مهرّب، فعليه أن يتبادل حديثاً ودياً كأنما لا شيء يأخذ بخناقه. لم
يستطع تخيل مهمة يشعر بأنه أقل استعداداً للاضطلاع بها.

أما فيما يتعلق بالمأدبة فقد مضى كل شيء على نحو ما أعد له، وتوجت بخاتمة ناجحة دون أن تكون هناك أية أوجه قصور ملحوظة للضيوف. وجاء تفاؤل ماتسوجاي الطبيعي برهاناً يقف ضد كل دقائق التخوف. وقد أحس هو نفسه بالاغتراب، ولم يحلم قط بأن أياً من ضيوفه سيخالجه إحساس غير ذلك. وفي مثل تلك اللحظات يدرك قيمة زوجته الباهرة، على نحو ما كشف حوارهما الذي أعقب المأدبة.

استهل ماتسوجاي الحديث بقوله:

- يبدو أن الأمير والأميرة استمتعا بوقتتهما، من البدء إلى الانتهاء. أليس كذلك؟ أحسب أنها مضيا إلى دارهما سعيدين تماماً. ألا تعتقد ذلك؟

ردت زوجته:

- ذلك أمر مسلم به. الم يكلف سمو الأمير نفسه عناء الإشارة إلى أنه لم يُمضِ مثل هذا اليوم البهيج منذ وفاة الأمباطور؟

- لم تكن تلك أفضل طريقة يستطيع بها صياغة هذا المعنى. ولكنني أعرف ما يقصده. ولكن مع ذلك - أن يمضي المرء الوقت من منتصف الأصيل حتى وقت متأخر من الليل - ألا تعتقد أن ذلك ربما كان مرهقاً للغاية بالنسبة للبعض منهم؟

- كلا، كلا، على الإطلاق. فقد قمت بترتيب الأمور بحذق بالغ، وتتابع ألوان الترفيه أحدها بعد الآخر، بحيث انساب كل شيء على نحو

طيب بصورة عجيبة. لا أعتقد أن ضيوفنا، كانت لديهم لحظة واحدة يستشعرون السأم فيها.

- ألم يقطّ أحد في النوم خلال عرض الفيلم؟
- آه، كلا. فقد كانوا جميعاً يتابعون بمزيد من الفضول، من البداية حتى النهاية، ويرصدون الأحداث بأعظم قدر من الاهتمام.
- ولكن، كما تعرفين، فإن ساتوكو تلك فتاة رقيقة القلب، إنني أعتقد أن الفيلم كان عاطفياً تماماً، ولكنها كانت الوحيدة التي بلغ بها التأثير حد البكاء.

وفي حقيقة الأمر، إن ساتوكو كانت تبكي دون أن تملك السيطرة على نفسها طوال العرض. وقد لاحظ ماتسوجاي دموعها عندما أضيئت الأنوار.

شق كيواكي طريقه إلى غرفته، وقد أخذ الإعياء منه كل مأخذ. فتح النافذة وتخيّل أن السلاحف النّهاشة تتجمع معاً في تلك اللحظة، رافعة رؤوسها الخضراء ذات البريق المعدني، فوق سطح البحيرة المعتم لتطيل النظر باتجاهه. أخيراً، دق الجرس الذي يستدعي إينوما، الذي كان بالدار على الدوام منذ تخرجه من المدرسة الليلية.

لم يحتج إينوما لدى ولوجه الغرفة إلا إلى نظرة واحدة ليدرك أن الغضب والإحباط قد عقدا وجه السيد الشاب. وكان، في الأسابيع الأخيرة، قد أحرز مهارة معينة في قراءة ما يرسم على الوجوه، وهي مهبة كانت حتى وقت قريب بعيدة تماماً عن مطاله، وأصبح حاذقاً بصفة خاصة في قراءة تعابير وجه كيواكي، الذي يحتك به يومياً، وتذكّره التعابير المرتسمة على محياه بالشظايا المدومة لكأس ملونة استقرت على نماذج متواصلة التغير في داخل منشور ضوئي.

وكنتيجة لذلك، فإن توجهه وهيبته شرعا في التغير. فحتى وقت ليس بالبعيد، كان من شأن وجه سيده الشاب، إذ يكتب على هذا النحو من جراء القلق والأسى، أن يفعم نفسه بالمقت، لما حكم عليه بأنه تراخ متكاسل من جانب كيواكي. ولكنه الآن غدا بمقدوره النظر إليه باعتباره رهافة في المشاعر.

وفي حقيقة الأمر، فإن البهجة والتدفق بالحوية لم يناسب كيواكي؛ فقد كان لجماله قلب مكتئب، ولذا كان يبدو أكثر جاذبية عندما يقع تحت طائلة الحقن أو الأسى، ومع هذين كانت هناك على الدوام إشارة نائية إلى الطفل المدلل كنوع من صورة الظل. وفي أوقات كهذه كانت وجنتاه الشاحبتان تصبحان أكثر بياضاً، وتحمّر عيناه الجميلتان، ويلتوي في تقطية حاجباه البديعا التقوس. وتبدو روحه بأسرها وكأنها ترتجف كأنما تهشم عالمه الداخلي بأسره. ويلوح أنه بحاجة إلى ما يتشبث به على نحو يائس. وعلى هذا النحو فإن لمسة العذوبة تتأرجح وسط كآبته، كأنها صدى أغنية يتردد عبر أرض يباب.

لما كان كيواكي قد لزم الصمت، فقد اقتعد إينوما المقعد الذي اعتاد مؤخراً الجلوس عليه حتى ولو لم يدعه كيواكي إلى ذلك، ثم مدّ يده، وشرع في قراءة قائمة طعام المأدبة، التي ألقاها كيواكي على المنضدة. شكلت الأطباق المدرجة بالقائمة وليمة علم إينوما أنه لن يذوق لها طعماً قط مهما تناولت السنوات التي يخدم خلالها آل ماتسوجاي.

وليمة عشاء عيد تبرعم الكرز

٦ إبريل ١٩١٣

العام الثاني من عهد تايشو

حساء

حساء السلاحف: قطع مختارة من لحم السلاحف في حساء رقيق.

حساء الدجاج : حساء رقيق مع شرائح رفيعة من الدجاج .
الأطباق الرئيسية

السلمون المرقط المهروس : معد في النيذ الأبيض واللبن .
شرائح لحم البقر المشوية : معدة مع الفطر المنضج بالبخار .
السمان المشوي : محشو بالفطر .

شرائح لحم الغنم المشوية : مجملة بالكرفس .
أكباد الأوز المهروسة : تقدم مع تشكيلة من لحوم الطيور الباردة وشرائح
الأناناس في النيذ المثلج .
ديكة المصارعة المشوية : محشوة بالفطر .
سلطات حسب الاختيار .

الخضراوات

الهليون البازلاء الخضراء

معدة مع الجبن

الحلوى

القسر الفرنسي البتي فور

الآيس كريم : أنواع حسب الاختيار .

واصل كيواكي التحديق في إينوما، بينما كان الأخير عاكفاً على قراءة قائمة الطعام، والتعابير تتوالى واحداً وراء الآخر على وجه الأول. للحظة، بدت عيناه وقد أفعمتا بالازدراء التام، وفي اللحظة التالية، لاحتا مترعتين بنداء بائس. ضايقه أن يجلس إينوما هنالك باهتمام خلا من الحساسية منتظراً أن يبدأ هو بقطع حبل الصمت. لو أن إينوما كان قادراً فحسب على نسيان علاقة السيد بالتابع، في تلك اللحظة، ووضع يده على كتف كيواكي كأخ أكبر، ما كان أسهل البدء بالحديث عنده.

لم يخطر له ببال أن الشاب الجالس أمامه كان مختلفاً عن إينوما الذي

اعتاده. وكان مالم يدركه هو أن إينوما، الذي استحوذ عليه في وقت من الأوقات الكف الحشن لعواطفه، قد توصل الآن إلى نوع من الاحتمال الهادئ حياله. وعلى الرغم من افتقاره إلى التجربة، فقد خطا خطواته الحذرة الأولى إلى عالم المشاعر الدقيقة الخفية.

قال كيواكي، في نهاية المطاف:

- لست أتصور أن لديك أدنى فكرة عما يدور في ذهني. لقد أهانتي الأنسة ساتوكو، على نحو رهيب، حدثني كما لو كنت مجرد طفل، بل وذهبت إلى حد القول بأنني في كل شيء تصرف حتى الآن كطفل صغير أحمق. لا، في حقيقة الأمر قالت ذلك بكلمات عديدة للغاية، انهالت عليّ بكل ما يمكن أن يؤلني أكثر من غيره، كأنما خططت لكل شيء بعناية. لست أفهم كيف حملت نفسها على القيام بهذا. الآن، أدرك أن تلك التزعة في ذلك الصباح الثلجي - وهي من بنات أفكارها - الآن أغرف أنني لم أكن إلا العوبة طاب لها أن تعبت بها.

صمت كيواكي لحظة، أضاف:

- ولكن ليست لديك فكرة على الإطلاق عن النحو الذي كانت عليه الأمور حقاً؟ ألم تقل لك تاديشينا على سبيل المثال أي شيء على الإطلاق بدا لك مريباً؟

أمعن إينوما التفكير للحظة، قبل أن يرد:

- طيب، لا، يا سيدي. لم أسمع أي شيء.
لكن صمته المرتبك تشبث بأعصاب كيواكي كأنه خل.
- إنك تكذب، يقيناً إنك تعرف شيئاً ما.
- لا، يا سيدي، لا أعرف.

غير أن إينوما، في نهاية المطاف، وتحت ضغط أسئلة كيواكي، كشف ما كان

قد عقد العزم على ألا يكشف النقاب عنه . إن القدرة على استشعار الحالة المزاجية لرجل ما هي شيء يختلف تمام الاختلاف عن تخمين رد فعله المحتمل . وهكذا لم يدرك أن كلماته ستتهال على كيواكي بقوة بلطة تنقُص .

- «هذا ما حدثني به مايبي ، يا سيدي ، وأنا الوحيد الذي أبلغته بذلك . وقد وعدت مخلصاً بالآ أنفوه بكلمة واحدة لأي شخص آخر . ولكن بما أن الأمر يتعلق بالسيد الشاب ، فأحسب من الأفضل أن أكشف النقاب عنه . في يوم الحفل العائلي للعام الجديد ، كانت الأنسة أياكورا هاهنا في الدار . إنه اليوم الذي يخصه والدك الأمير لدعوة كل أطفال أقاربكم إلى الدار؛ للترفيه عنهم ، والتحدث معهم ، والاستماع إلى مشكلاتهم ، كما تعلم . وهكذا ، حدث أن والدك الأمير سأل الأنسة أياكورا ، على نحو ضاحك ، عما إذا لم تكن لديها أية مشكلات ترغب في أن تناقشها معه . وقد ردّت ، على نحو ضاحك كذلك ، فيما يبدو ، «بلى ، في الحقيقة لديّ موضوع شديد الخطورة ، أريد مناقشته معك ، يا أمير ماتسوجاي ، وأتساءل عما إذا كان بمقدوري الاستفسار عن وجهات نظرك فيما يتعلق بالتربية .

«عند هذا الحدّ يتعيّن أن أحدثك ، يا سيدي ، بأن هذه الواقعة بأسرها حكايها لمايبي الأمير باعتبارها - طيب ، ما يسمى بحكاية في الفراش » .

وقد كُبدت هذه الكلمات إينوما ألماً يستعصى على الإفصاح - وهكذا حكايها لها بالتفصيل ، باعتبارها حكاية في الفراش ، مغرباً في الضحك فيما هو يروها . وهكذا حكته لي تماماً كما قال إنها حدثت . على أية حال ، فقد أثارَت الأنسة أياكورا اهتمام والدك الأمير فسألها : آرائي في التربية ، تقولين ؟

وعندئذ قالت الأنسة أياكورا : طيب ، بحسب ما سمعت من كيوفان أباه يبدو من كبار دعاة المنهاج التجريبي . لقد قال لي إنك دعوته إلى جولة

ترشده فيها في عالم فتيات الجيشا، لكي يستطيع تعلم خير سبيل للتصرف هناك. ويبدو أن كيو سعيد للغاية بالنتائج إلى حد الشعور بأنه أصبح الآن رجلاً مكتمل الرجولة. ولكن حقاً، يا أمير ماتسوجاي، أصبح أنك تصدّيت لاتباع الأسلوب التجريبي؟ حتى ولو على حساب الأخلاق؟ لقد فهمت أن الأنسة طرحت هذا السؤال المحرج بالطريقة اليسيرة، التي لا عناء فيها، والتي درجت عليها. وقد انفجر الأمير نفسه ضاحكاً، ثم ردّ قائلاً: ياله من سؤال صعب! ذلك هو نوع الأسئلة عينه الذي تطرحه هاتيك الجماعات الاصلاحية في التماسها على البرلمان. طيب. لئن كان ما قاله كيواكي صحيحاً لكان بوسعي تدبر ما أدافع به عن نفسي. ولكن الحقيقة هي ما يلي: لقد رفض كيو نفسه تلك الفرصة التربوية عينها. وكما تعلمين فإنه ممن يزدهرون متأخرين. إنه شديد الصمود، ومن العسير تصديق أنه من صلبى. من المؤكد أنني طلبت منه القدوم معي. ولكني لم يتح لي الوقت لفتح فمي، إلا وقد اتخذ موقفاً عدائياً، وانطلق مسرعاً، في حق بالغ. ولكن كم كان ذلك مسلياً! فعلى الرغم من أن هذا هو ما حدث بالفعل إلا أنه افتعل قصة ليجد ما يتباهى به أمامك حوله. غير أنني يؤلني التفكير في أنني قد ربيت فتى يسأني على ذكر الحي ذي الأضواء الحمراء، أمام فتاة أرستقراطية، مهما كان مدى صداقتها. لسوف استدعيه الآن وأعرفه مدى فخري بسلوكه، فقد يقنعه ذلك بالخروج والانطلاق إلى إحدى دور الجيشا.

«ولكن الأنسة أياكورا توسلت لأبيك الأمير، وأقنعتة، في نهاية المطاف، بالتخلي عن مثل هذه الفكرة المتسرعة. وجعلته كذلك يعد بنسيان ما حدثته به. وهكذا أحجم عن ذكر الأمر لأي شخص آخر وفاء بوعده. ولكنه، في النهاية، حدث ما بيني بالأمر، ضاحكاً طوال الوقت ومستمعاً بجلاء بالأمر كله، لكنه حذرهما أشد التحذير من أن تقول لأحد شيئاً في

هذا الصدد. ومايني امرأة، بالطبع، وهكذا لم تستطع إمساك نفسها، فأبلغتني وحدي بالأمر أخيراً. ولقد أدركت أن الأمر متعلق بشرف السيد الشاب، فهدمتها بحزم قائلاً إنه إذا ذاع أمر هذه القصة أكثر من ذلك فسوف أقطع صلتني بها في الحال. ولقد أفزعته الطريقة التي قلت بها هذا، إلى حد أنني لا أعتقد أن هناك خطراً من انتشار هذه الحكاية.

ازداد شحوب كيواكي، وهو يصغي إلى الصورة التي رسمها أينوما. كان مثل رجل يتلمس مهتاجاً في الضباب الكثيف، لاطماً رأسه بعقبة إثر الأخرى، إلى أن انحسر الضباب، فجأة، من حوله، ليكشف عن صف من الأعمدة المرمية البيضاء. لقد اتخذ القلق غير المتبلور الذي غمره شكلاً بالغ الوضوح، الآن.

لقد قرأت ساتوكو الرسالة، في نهاية الأمر، رغم انكارها لذلك، وبالطبع فقد أثارت إلى حد ما استياءها، ولكنها عندما اكتشفت من الأمير نفسه، في الحفل العائلي للعام الجديد، أن الأمر ليس إلا كذبة، أخذتها النشوة وازدهاها الفرح حيال «أسعد عام جديد» لها. الآن أدرك السر في أنها قد فتحت قلبها له بانفعال بالغ وعلى نحو مفاجئ في الاسطبل خلال ذلك اليوم. وأخيراً واتتها الجراءة، وقد بلغت ثقتها أقصاها، لدعوته إلى الذهاب لتلك الزهرة عبر ثلج فبراير.

لم يفسر هذا الكشف سر دموع ساتوكو اليوم، ولا التقرير القاسي الذي ناله منها. ولكنه كان من الواضح بجلاء له أنها كانت كاذبة، من البداية إلى النهاية، وإنها كانت تسخر منه سراً من المبتدأ إلى المنتهى. ومهما اجتهد المرء في الدفاع عنها فلم يكن هناك سبيل إلى إنكار أنها قد استشعرت لذة سادية في إلحاق الهزيمة به.

حدثت نفسها بمرارة قائلاً: إنها، من ناحية، تتهمني بالتصرف كأني طفل، ومن ناحية أخرى ما أشد وضوح حقيقة أنها قد تصرفت كما لو

كانت تريدني أن أظل على هذا الحال إلى الأبد. ما أشد دهاءها! إنها تتخذ مظهر المرأة التي تحتاج إلى من تعتمد عليه في اللحظة عينها التي تعد لإحدى مكائدها المفتقرة إلى الضمير. تتظاهر بأنها تهيم به إلى حد العبادة، ولكنها في حقيقة الأمر ترعى وليداً لم يشب عن الطوق.

لما كان الضيق قد أخذ منه كل مأخذ، فإنه لم يتوقف ليفكر في أن رسالته هي التي أطلقت كل شيء من عقاله، وأن كذبه هي التي حركت سلسلة الأحداث. وكل ما استطاع أن يتبينه هو أن يؤسه بأسره ينبع من خيانة ساتوكو.

لقد جرحت كبرياءه في مرحلة من الحياة - الانتقال المزمع من الصبا إلى الرجولة - لم يكن هنالك فيها ما هو أغلى عنده من تلك الكبرياء. وعلى الرغم من أن الأمر في حد ذاته من شأنه أن يبدو تافهاً لمن هو في سن النضج - على نحو ما أظهر ضحك أبيه بجلاء - فقد كان تضاوة ثقلت مع ذلك على اعتداده بنفسه. ولم يكن هناك بالنسبة له، وهو في التاسعة عشرة من عمره، ما هو أشد رهاقة وقابلية للتحطم من هذا الاعتداد بالذات. وسواء أكانت أدركت هذا أم لم تدركه فقد داست ذلك الاعتداد، بافتقار للحساسية، يستعصى على التصديق. خامره شعور بالغثيان من فرط الإحساس بالعار.

راح ينوما يرقب محياه الأبيض، في الصمت المتطاوّل، بإشفاق، ولكنه لم يدرك أي لطمة صاعقة كالحا له لتوه. إن هذا الفتى الوسيم لم يدع فرصة واحدة تفلت منه لإيقاع الهزيمة به، والآن ودون أي أثر للانتقام في مقاصده هاهو قد سحق كيواكي سحقاً. فضلاً عن ذلك فإنه لم يسبق له أن شعر بأي شيء على مثل هذا القدر من العاطفة الغامرة نحوه في هذه اللحظة وهو يرقبه وقد نكس رأسه.

اتخذت أفكاره سبيلاً أكثر رقة وعاطفية: لسوف يساعد كيواكي في

النهوض والرقاد في فراشه. ولئن شرع الفتى في البكاء، فإنه سيبيكي بدوره تعاطفًا. ولكن عندما رفع كيواكي رأسه، بدت ملامحه صارمة ومتصلبة، ولم يكن هناك أثر للدمع، وبددت نظراته النفاذة، الفاترة، كل التصورات الخيالية التي راودت إينوما.

قال:

- ليكن. بمقدورك الذهاب الآن، لسوف آوى إلى فراشي.
نهض واقفاً، دوغما معاونة، ودفع بإينوما دفعاً نحو الباب.

في اليوم التالي، اتصلت تاديشينا هاتفياً مرات عديدة، لكن كيواكي أبى أن يتوجه إلى الهاتف، وعندئذ طلبت محادثة إينوما، وأبلغته بأن الأنسة ساتوكو ترغب مهياً كلف الأمر في التحدث مباشرة مع السيد الشاب، وهل لإينوما في أن ينقل ذلك إليه. غير أن كيواكي أصدر إليه تعليمات مشددة، وهكذا لم يكن بمقدوره التصرف كوسيط. وأخيراً، بعد عدد من الاتصالات الهاتفية، حادثت ساتوكو نفسها إينوما، غير أن النتيجة ظلت على حالها: رفضه القاطع.

تواصلت المحادثات الهاتفية طوال عدة أيام، محدثة ضجة يُعتد بها في صفوف الخادومات. ولم تتغير استجابة كيواكي. وأخيراً جاءت تاديشينا بنفسها.

استقبلها إينوما عند مدخل جانبي معتم. جلس على عقيبه على عتبة المدخل، وكل طيبة من طيات هاكاماه القطنية في موضعها، وقد عقد العزم على ألا يدع تاديشينا تحطو خطوة واحدة داخل الدار.

- السيد الشاب غائب عن الدار؛ ومن هنا فليس بمقدوره استقبالك.
- لا أعتقد أن هذا صحيح تماماً. غير أنه إن كان كذلك فهلا تفضلت باستدعاء السيد يامادا!

- حتى وإن قابلت السيد يامادا، فلنني أخشى أن الأمر لن يختلف، فلن يراك السيد الشاب.

- ليكن إذن! إذا كان هذا هو شعورك. لسوف اسمح لنفسي بالقدوم،
دوغا دعوة، ومناقشة الأمر مباشرة مع السيد الشاب نفسه.

- أنت حرة، بالطبع، في الدخول كما تشائين، ولكنه معتكف في غرفته،
وليس هناك سبيل للوصول إليه، ثم أحسب أن مهمتك ذات طبيعة سرية،
فإن كشفت عنها للسيد يامادا، فقد يشير ذلك بعض الأقاويل في الدار،
ويصل الأمر إلى مسامع سمو الأمير. غير أنه إذا كان هذا الاحتمال لا يثير
انزعاجك على نحو ما ينبغي . . .

لم تفه تاديشينا بنت شفه، وفيما هي تحلق بكراهية في إينوما، لاحظت
مدى الوضوح الذي تبرز به بشوره، حتى في عتمة المدخل. وكانت هي
نفسها تقف في مواجهة النهار الربيعي المشرق، والأطراف الخضراء الشاحبة
لشجرة الصنوبر تتألق في سنا الشمس. ذكره وجهها العجوز، الذي لم
تختف تجاعيده تحت طبقة الذرور الأبيض، بشبح مصور على الورق
الكريبي. التمع الخبث بحدة في عينيها الغائرتين في عشيها من الجلد
المتغضن.

- أشكرك كثيراً. وأحسب أنك على الرغم من أنك تمثل فحسب لأوامر
السيد الشاب نفسه، إلا أنك لا بد على استعداد لتحمل عواقب محادثتك
لي على هذا النحو. حتى الآن أعملت خدمتي لصالحك أيضاً، إلى درجة
يعتد بها، ومن الآن فصاعداً لن يكون من الحكمة الاعتماد على ذلك أكثر
مما ينبغي، أرجو أن تتلطف بنقل تقديري للسيد الشاب!

بعد أربعة أو خمسة أيام، جاءت رسالة سميكة من ساتوكو. وكانت
تاديشينا عادة تعطي الرسائل الموجهة لكيواكي إلى إينوما مباشرة بقصد
تجنب يامادا. أما هذه المرة فقد وضعت الرسالة على صفحة مطلية باللك
الذهبي، تحمل شعار العائلة، وأوصلها يامادا علناً إلى غرفة كيواكي.

كلف كيواكي نفسه عناء استدعاء إينوما إلى الغرفة، وأطلعته على الرسالة، التي لم يفضها، ثم طلب منه فتح النافذة، وبحضوره ألقى بالرسالة في نار مدفأته. راح إينوما يرقب يده البيضاء، وهي تقلب النار في المدفأة، المحتوية على خشب البولوقينا، متجنباً السنة اللهب الصغيرة، التي اندلعت بين الفينة والأخرى، مقلباً النار حيثما هددت الرسالة بإخماد النار. ساور إينوما شعور بأن شكلاً خالصاً من أشكال الجريمة يقترب أمام عينيه. ولو أنه ساعد في الأمر لكان على يقين من أنه يمكن انجازه بكفاءة أكبر، ولكنه لم يعرض تقديم يد المساعدة، خوفاً من أن يقابل عرضه بالرفض، ذلك أن كيواكي قد استدعاه ليكون شاهداً.

لم يستطع كيواكي تجنب الدخان، الذي ارتفع من الورق المحترق، فتدحرجت دمعة على خده. كان إينوما قد علّق الآمال، ذات يوم، على أن الانضباط الشديد والدمع من شأنهما مساعدة كيواكي على الوصول إلى موقف مناسب من الحياة. أما الآن فقد جلس ناظراً إلى الدموع، التي لا تعود إلى أي جهد بذله. ومضى يتساءل: ترى لماذا يساوره الشعور بالعجز في حضور كيواكي؟



ذات يوم، وبعد حوالي أسبوع، وعندما عاد ماتسوجاي إلى الدار مبكراً، خلافاً للمعتاد، تناول كيواكي طعام العشاء للمرة الأولى منذ أسابيع عديدة مع أبويه كليهما، في قاعة الاستقبال اليابانية في الدار الرئيسية. قال الأمير، بمرح وحيوية:

- ما أسرع ما يمضي الوقت! في العام المقبل ستلتقي وسام الدرجة الخامسة من طبقة الشيبية، وبمجرد حصولك عليه سأمُر الخدم بمخاطبتك بما يليق به.

كان كيواكي يخشى بلوغه سن الرشد، الذي كان في انتظاره في العام المقبل. وربما كان تأثير ساتوكو الراهن كامناً في قرار عدم اهتمامه المشوب بالضجر، وهو في التاسعة عشرة من عمره بوصوله إلى عمر النضوج. وقد خلف وراءه مرتبة الطفولة التي تجعل الصبي يحمى على أصابعه الأشهر الباقية على العام الجديد ويحترق بنفاد صبره انتظاراً لمقدم مرحلة الرجولة. وقد أصغى إلى كلمات أبيه بمزاج فاتر جهم.

مضت الوجبة، وفقاً لعرف ثابت: أمه يقناعها من الكآبة التقليدية، ورقتها التي لا تحذلها أبداً، وأبوه بوجه المتفرج، وسخريته متعمدة المرح بالأطايب. ورغم ذلك، ونظراً للماحيته، فإنه سرعان ما لاحظ شيئاً أثار دهشته: التقت عينا أبيه مرة، وإن لم يكن ذلك على نحو يمكن القول معه بأنها تبادلًا النظرات. لم يبد أن هناك شيئاً مطروحاً أكثر من مؤامرة الصمت المعتادة بينهما، وفيما كيواكي يتطلع إلى محيا أمه، اختلج التعبير المرتسم على ملامحها بعض الاختلاج، وتلعنمت لثانية في حديثها.

- الآن... يا كيواكي... هناك شيء أريد سؤالك عنه، قد لا يكون باعثاً على السرور كلياً، رغم أن وصفه بأنه داع للاستياء من شأنه أن يكون صنماً لقبه من حبة، ولكني أود أن أعرف شعورك نحوه.
- وما هو؟

- طيب، الحقيقة أن الأنسة ساتوكو تقدم لها خطيب آخر، وهذه المرة الظروف معقدة ودقيقة للغاية، ولئن مضى الأمر قدماً أكثر من هذا، قد يكون هناك مجال للسماح برفض سهل ويسير. وكما هو الحال دائماً، فإن الأنسة ساتوكو لا تميل إلى إطلاع أحد على حقيقة مشاعرها، ولكني أشك في هذه المرة أنها ستميل إلى رفض صريح، على نحو ما فعلت في الماضي، ثم أن أبويها يملان كذلك إلى القبول. فدعنا، إذن، نتحدث عنك! لقد كنت والأنسة ساتوكو مولعين أحدهما بالآخر، منذ كنتما وليدين. فهل لديك

ما تقوله ضد زواجها؟ كل ما عليك الآن هو أن تحدثنا بمشاعرك لا أكثر،
ذلك أنه إذا كان لديك اعتراض، فأحسب أنه سيكون أمراً مفيداً للغاية أن
يعلم أبوك السبب، على وجه الدقة.

قال كيواكي، في معرض الرد، دونما تعبير محدد يرتسم على ملامحه،
وبغير تردد، بل ودون أن يكف عن إعمال عصي تناول الطعام:

- ليس لديّ اعتراض على الإطلاق. إنه أمر لا يعنيني بأي حال من
الأحوال.

أعقب ذلك صمت قصير، تحدّث بعده الأمير، بلهجة أوحّت بمدى
هدوء حالته المزاجية:

- طيب، الآن، وعن الموضوع الراهن لا يزال التراجع ممكناً، ولو أننا
افترضنا جدلاً أنك تحسب بأن الأمر يعنيك على نحو ما، ولو إلى أدنى
درجة، فما هو قولك؟

- لست أشعر بأن الأمر يعنيني بحال من الأحوال.

- قلت لنفترض جدلاً. ألم أقل ذلك؟ ولكن لئن كان الأمر كذلك فلا بأس!
أن هذه العائلة تطوق أعناقنا بدين قديم، ومن هنا فلإنني أعترّم
القيام بكل ما في وسعي للمساعدة، في إنجاز هذا الأمر، ولن أدخر جهداً
في الوصول به إلى نهاية سعيدة لائقة. طيب، على أي حال هذا هو الوضع
الراهن للأمور. في الشهر المقبل يحل عيد أومياساما، ولكن إذا أطرد تقدم
الأمور بالمعدل الراهن، فلإنني أتصور أن ساتوكو ستجد نفسها مشغولة
للتغاية ولن تشارك في الاحتفال به هذا العام.

- في تلك الحالة، ربما ستكون فكرة موفقة ألا نتكبد عناء توجيه الدعوة
لها.

قال الأمير، معرباً عن دهشته بضحكة عالية :

- طيب، هذه مفاجأة. لم تكن لدي فكرة عن أنكما تقفان لبعضكما بالمرصاد.

وكانت الضحكة هي نهاية المناقشة.

في نهاية المطاف، كان كيواكي بمثابة لغز لأبويه، واستجاباته العاطفية مختلفة تماماً عن استجاباتها، وقد حاولا مرات عديدة سبر أغوار ما يفكر فيه، وعلى الدوام كان الاحباط يتوَجَّج جهودهما، وهكذا استسلما بالفعل. وفيما يتعلق بالموضوع الحالي، وصل الأمر بهما إلى حد استشعار بعض الضيق حيال آل أياكورا لقيامهم بتعليم ولديهما، على الرغم من أنها هما اللذان عهدا به إليهم. راحا يتساءلان عما إذا لم يكن ذلك السمو البلاطي - الذي طالما تاقا إليه كلاهما - مؤلفاً على وجه الدقة من ذلك القلب المزاجي، الذي جعل من ولدهما شخصاً يصعب فهمه كأشد ما تكون الصعوبة. وعن بعد، كانت لهذا النبل جاذبية لا تنكر، ولكنها عندما ووجها به في شخص ابنهما كانت النتيجة محيرة.

درج الأمير والأميرة، على الالتفاف بانفعالاتهما كأنها ثياب صبغت بالألوان البدائية الصارخة للمناطق الاستوائية، غير أن انفصالات كيواكي كانت مركبة على نحو مراوغ، كأنها طبقة فوق أخرى من الألوان في أودية سيدات البلاط، فهي ألوان تتداخل على الدوام، واللون البني الفاتح يوغل في الظل مقترباً من اللون القرمزي، والأخير ينحل فيغدو في خضرة نجيل الخيزران. وقد أصاب الانهاك والده من جراء مجرد محاولة حل لغز حالات ابنه المزاجية. أنهكته رؤية ابنه الوسيم وقد غرق في اللامبالاة الضجرة واعتصم بصمته الفاتر. وراح يفتش في حنايا ذكريات صباه، ولكنه لم يستطع استعادة ذكرى أي عذاب أدى إلى تصاعد ذلك

النوع من عدم الاستقرار الذي يحكم ابنه . كان كيواكي مثل بحيرة تكشف مياهها الصافية عن الفقاعات ذاتها في قرارها في لحظة ، لتعسكر في اللحظة التالية ، في انقلاب مفاجئ .

بعد لحظات قلل ، حادث الأمير مرة أخرى كيواكي :
- بالناسبة ، كنت أفكر في ترك إينوما يمضي لحال سبيله ، في القريب .
- ولم ذلك ؟

قالها كيواكي متسائلاً ، وقد بدا مندهشاً بصورة حقيقية ، للمرة الأولى في ذلك المساء . فقد كان هذا أمراً غير متوقع حقاً .
- لقد كان مخلصاً لك مدة طويلة ، لكنك ستبلغ سن الرشيد ، في العام المقبل ، وهو تخرج من الكلية ؛ لذا أظن أن الوقت مناسب ، وهناك كذلك سبب أكثر تحديداً ، فقد نمت إلى علمنا شائعة تثير الاستياء إلى حد بالغ .

- أي نوع من الشائعات ؟
- إن سلوكه في الدار غير منضبط . ولكي لا نجتر الأقاويل ، يبدو أنه كان على علاقة بإحدى الخادومات ، وهي مايني ، في سالف الأيام ، كان حل الأمر يتمثل في اضطراري إلى قطع عنقه بسييفي .

فيما الأميرة تصغي إلى كلمات زوجها ، كان تحفظها الهادئ جديراً بالإعجاب ، ولسوف تكون الحليف المخلص لزوجها في كافة جوانب هذا الموضوع .

تساءل كيواكي ملحاً :
- ممن استمعت إلى هذه الشائعة يا أبي ؟
- ذاك أمر لا أهمية له .
في التو ، تراءى محيا تاديشينا أمام كيواكي .

- نعم، في الأيام الخوالي كان عليّ قطع عنقه، لكن الزمان تغير، ثم إنه جاء إلى هنا بتوصية طيبة من الناس في كاجوشيبا، وأنا أعرف الناظر المعجوز لمدرسته الوسطى، الذي يجيء إلى هنا يهتثنا بالعام الجديد. من الأفضل تركه يمضي لحال سبيله، دون إشارة أي نوع من الضجة تلحق الأذى بفرض مستقبله. لا يتوقف الأمر على ذلك، وإنما أريد أن أعالجه بحذق، بحيث أيسر الأمور بالنسبة له، سادع مايني تمضي لحال سبيلها كذلك، وعندئذ إذا كانا لا يزالان يرغبان في الزواج، فلهما الحرية، وأنا على استعداد لإيجاد عمل له. المسألة الرئيسية هي إبعاده عن الدار؛ ولذا سيكون من الأفضل أن نعالج الأمر على نحو لا يجعل لديه ما يستشعر ضعيته من أجله. هذا هو أفضل شيء. فهو في نهاية المطاف قد خدمك بإخلاص لمدة طويلة للغاية، وليس لدينا ما نشكو منه في هذا الصدد.

صاحت الأميرة، قائلة :

- ما أشد عطفك! وما أعظم كرمك!

مرّ كيواكي بإينوما، في الدهليز، في تلك الليلة، لكنه لم يحدثه بشيء.

فيما هو راقد، وقد وضع يده على وسادته، بدارأسه كتلة مدوّمة من الصور. جوبه بالإدراك الصارخ لحقيقة أنه من الآن فصاعداً سيكون وحيداً. فلم يكن له صديق إلا هوندا، وهو لم يحدثه بشيء عن مشكلته، التي تواجهه على نحو فوري.

ترأى له حلم. وفي وسط هذا الحلم خطر له أنه لن يكون قادراً قط على تسجيله في مذكراته؛ فقد كانت الأحداث أكثر تعقيداً وإيغالاً في البعد عن العقلانية من أن تسمح له بذلك.

لاحظ له كافة أنواع الوجوه. وبدت أرض الاستعراض التابعة للفوج الثالث المكسوة بالجليد ممتدة أمامه. هنالك وقف هوندا مرتدياً زي ضابط،

ثم ظن أنه رأى سرباً من الطواويس يستقر فجأة على الجليد. ورأى ساتوكو: كانت تحلي جيدها بقلادة تزينها الجواهر وعلى جانبيها وقف الأميران السياميان، يسكان بتاج ذهبي، يوشكان أن يتوجها به. وفي ركن آخر انهمك إينوما وتاديشينا في جدال محتوم، ثم رأى جسديهما المتشابكين يعضيان متدحرجين عبر الحافة، ويهويان إلى شق رحب فاغر الفوهة. أقبلت مايني راكبة عربة تجرها الجياد، وأقبل أبوه وأمه للقيها بابتسامات خائفة. ثم بدا أنه هو نفسه يجبر على طوف مظلم، فوق محيط شاسع. حدث نفسه بينما كان في قلب هذا الحلم:

- إنني غارق بأكثر مما ينبغي في عالم أحلامي، لقد تدفقت منداحة إلى الواقع. إنها فيضان يكتسحني بعيداً.

كان الأمير هارو نوري، الابن الثالث لسمو الأمير توين، عضو العائلة الإمبراطورية، قد احتفل مؤخراً بعيد ميلاده الخامس والعشرين، ومنح رتبة القائد العام في حرس الفرسان الإمبراطوري، وكان شهماً عالي الهمة بطبيعته، وعلق أبوه عليه معظم آماله. ولاختيار عروس لمثل هذا الشاب المثالي لم يطلب أبوه وساطة أحد، وهكذا جذب انتباه الشاب إلى مجموعة كبيرة من المرشحات، غير أن أيًا منهن لم تثل رضاه. وعلى هذا النحو كُرِّت الأعوام، وعندما أوشك الأيوان الإمبراطوريان على استفاد ما في جعبتهما، انتهز الأمير ماتسوجاي الفرصة، ودعاهما لزيارته والاحتفال في ضيعته بتبرعم الكرز. وهناك قدمت إليهما بصورة عرضية ساتوكو أياكورا، فلفتت انتباههما تماماً، وعندما تلقى آل أياكورا في وقت لاحق طلباً ودياً بالحصول على صورة لها، سارعوا بالاستجابة وإرسال صورة لها، وهي ترتدي كيمونو رسمياً. وعندما أطلعوا الأمير هارو نوري على الصورة لم يلق بتعليقاته الساخرة المعتادة، وإنما تطلع إليها لوقت طويل، فأصبح تقدم ساتوكو في العمر حتى سن الحادية والعشرين أمراً لا أهمية له.

أدرك الأمير ماتسوجاي حق الإدراك الدين الذي يطوق آل أياكورا عنقه به، لرعايتهم لكيواكي، في طفولته، وقد حرص منذ وقت طويل على القيام بما يساعدهم على استعادة جانب من العظمة، التي كانت لعائلتهم في السابق. وأفضل سبيل إلى تحقيق هذا، إن لم يكن مصاهرة العائلة الإمبراطورية مباشرة، هو إبرام زواج يربط آل أياكورا بالأمير توين،

واستبعد نسب آل أياكورا الرفيع، باعتبارهم عائلة نبيلة من عائلات أورين، أي تساؤل عما إذا كانت مكانتهم تشكل عقبة في هذا الصدد. غير أن ما كان آل أياكورا يفتقرون إليه بالفعل تمثل في الإمكانات المالية الكفيلة بتغطية النفقات المذهلة، التي سيتكبدونها في وضعهم الجديد. وقد تراوحت هذه النفقات بين الروطة المائلة إلى الأموال التي ستنفق بانتظام على الهدايا الموسمية التقليدية لكل أتباع البيت الأمبراطوري، وهو مبلغ يبدو طائلاً، إذا ما فكر فيه المرء. ومع ذلك، فقد كان الأمير ماتسوجاي على استعداد لتحمل النفقات بكل تفاصيلها.

برباطة جأش فاترة، راحت ساتوكو تراقب الضجيج والحراك، اللذين صاحبا هذه الأحداث، وهي تدور من حولها. لم تكن الشمس تتألق كثيراً في أبريل من ذلك العام، وفيما الأيام المعتمدة يفسح أحدها السيل إلى الآخر تحت السماء الجهمة، تراجعت لمسة الربيع الندية، لتحل محلها بوارد قدوم الصيف. تطلعت ساتوكو، عبر الحديقة الفسيحة المهملة، من نافذة ناتئة، من غرفتها المتقشفة في الدائرة الأنيقة، عتيقة الطراز، التي لا تحتفظ الآن بمظاهرها التليدة، إلا في بوابتها الشاحخة. أفصحت الأغصان المتشابكة والوريقات المدببة لأشجار الرمان، التي تحفل بالأشواك كذلك، عن براعم عمرة تنسوق إلى التفتح. انتصبت كل البراعم الجديدة، بحيث بدت الحديقة بأسرها كما لو كانت تقف على أطراف أصابعها، وتعد قامتها لتبلغ السماء. وبدأ حقاً أن كل يوم يجعلها أكثر اقتراباً من هدفها.

استشعرت تاديشينا قلقاً بالغاً، حول أن ساتوكو قد أصبحت مهمومة للغاية، وأنها غالباً ما تبدو غارقة في التفكير. ومن ناحية أخرى، كانت تصغى بانتباه لكل ما يقوله أبوها وأمها، وتليي رغباتها بحذافيرها، مثلما يتبع غدير مجراه. راحت تتقبل كل شيء بابتسامة واهنة، ولم يعد هناك أثر

لعنادها السابق، ولكن وراء ستار الاستجابة المهذبة كانت ساتوكو تحجب لامبالاة هائلة، باتساع سماء ابريل المتشحة بالرماد.

ذات يوم، في أوائل مايو، دُعيت ساتوكو لتناول الشاي في الدارة الصيفية لسمو الأمير والأميرة توين. عادة ما كانت دعوة من آل ماتسوجاي توجه إليها لحضور احتفال أومياساما، ولكن على الرغم من أن كل آمالها قد تمحورت حول هذه الدعوة، إلا أنها لم تصلها. وبدلاً منها، ظهر أحد مسؤولي دار الأمير توين، حاملاً الدعوة إلى الشاي، وسلمها على نحو عابر إلى وكيل آل أياكورا، وانطلق مغادراً.

بالرغم من ضالة الأثر والسمة الطبيعية الكاملة لهذه الحادثة، وغيرها من الأحداث المماثلة، إلا أنها كانت في حقيقة الأمر معدة بعناية بالغة وفي سرية تامة، ومع أن أبويها لم يتحدثا كثيراً، إلا أنها كانا يؤيدان المتأمرين، في محاولتهم لإيقاع ساتوكو في قبضة الرقية السحرية المعقدة، التي حيكت خطوطها حولها خلصة.

دعى النبيل والنبيلة أياكورا، بالطبع، لتناول الشاي كذلك في دارة توينومايا. وبما أن الذهاب في عربة يرسلها الأمير توين، بكل ما يحيط بها من مظاهر مناسبة، بدا أنه سيخلق مشهداً مبالغاً فيه؛ فقد قرر آل أياكورا أنه من الأفضل أن ينطلقوا في عربة يعيرهم إياها الأمير ماتسوجاي. وكانت الدارة، التي شيدت قبل سنوات قلائل، في نهاية عهد ميجي، تنتصب شاذة عند مشارف يوكوهاما. ولو أن مقصدهم كان مختلفاً، لاسمّت الرحلة بالروح المرحّة المنطلقة لنزهة عائلية لا تتم كثيراً في الريف.

للمرة الأولى منذ أيام عديدة كان الجو صحوً، وهي بادرة فأل طيب، لاحظها النبيل وزوجته، على نحو تخامره البهجة. ولما كان يوم الصبية يقترب؛ فقد علقت كل الدور التي مروا بها على وجه التقريب على امتداد

الطريق رايات ورقية أو قماشية، راية لكل ولد، وراحت هذه الرايات ترفرف بقوة في النسيم الجنوبي الحاد، وتراوحت من حيث الحجم بين راية سوداء هائلة، إلى رايات حمراء صغيرة، بدت كأنها أسماك ذهبية. وإذا كانت خمس رايات أو أكثر تتدلى من عصا واحدة، فإنها تبدو متداخلة معاً، على نحو مرتبك، عاجزة عن أن ترفرف حرة في تيار الريح القوي. وعندما مرت العربة بمنزل ريفي على حافة الجبال، بدت مجموعة الرايات المرفرفة على السطح من التعدد بحيث تحرك النبل ليرفع أصبعاً أبيض ليحصيها من النافذة، فألفاها عشر رايات.

- يا إلهي! يا له من شخص بالغ القوة!
قالها النبل مبتسماً. وبالنسبة لساتوكو، وشت هذه الملاحظة بمرح غليظ، لم يكن من خصال أبيها.

حملت الأشجار على امتداد الطريق برهان انطلاقة ملحوظة في رحاب النمو بتجمعات أوراقها الجديد وغصونها الممتدة. كانت الجبال كتلة من الخضرة، تراوحت بين ما يقارب الصفرة إلى خضرة قائمة توشك أن تأخذ بأكتاف السواد، وبرزت أوراق القيقب الصغيرة حديثة العهد، بصفة خاصة، في مواجهة التدفق العام للخضرة التي جعلت الريف بأسره يأتلق زاهياً.

- آه، قليل من الغبار...
قالت النيلة مندهشة، وهي تحدق في وجنة ساتوكو. ولكن ما إن مدت منديلها لتزيله، حتى نأت ساتوكو مسرعة واختفت ذرة الغبار، وعندئذ أدركت أمها أن ذرة الغبار على وجنة ابنتها لم تكن إلا ظلاً، ألغته بقعة تعتي النافذة على وجنتها. إبتسمت ساتوكو ابتسامة واهنة، فلم تكن قد وجدت خطأ أمها مسلماً على نحو خاص. وكرهت أن يجري لها تمحيص خاص اليوم، كما لو كانت ثوباً من الحرير يقدم هدية.

أوصدت النوافذ حتى لا يهدل النسيم شعر ساتوكو، فأصبح داخل
العربة حاراً على نحو مقيت كنتيجة لذلك. وفيما العربة تهتز، دوغما توقف،
وخضرة الجبال تتألق في انعكاسات على حقول الأرز إلى جوار الطريق، لم
تستطع ساتوكو تذكر ما تتطلع إليه بمثل هذا التوق. فمن ناحية، تركت
تقلباً مندفعاً يجتاحها بجرأة خيفة باتجاه مسار لا عودة منه. ومن ناحية
أخرى، كانت بانتظار تدخل شيء ما. في الوقت الراهن، كانت لاتزال
أمامها مهلة، قد يصدر خطاب عفو- أو هكذا كانت تأمل، ثم مرة
أخرى، هي تزدري فكرة الأمل.

انتصبت دارة آل توينومايا، وهي دار قريية من القصر، شيدت على
الطراز الغربي، فوق صخرة ساحقة، تطل على البحر. أفضى درج منحوت
من الرخام إلى المدخل الأمامي. وفيما تولى سائقه أمر الجياد، ترجل آل
أياكورا من العربة، وتبادلوا عبارات الإعجاب بمنظر المرفأ عند السفح،
الذي امتلأ بأنواع السفن كافة. قدم الشاي في شرفة رحبة، تواجه
الجنوب، تطل على الماء، وقد ازدانت بعدد من النباتات الاستوائية الرائعة،
وعلى كل من جانبي الباب المفضي إليها تدلى ناب فيل عملاق ملئ، هدية
من بلاط سيام الملكي.

هنا رحب الأميران الإمبراطوريان بضيوفهما، وقدماهم المقاعد بمزيد من
الود. وكان الشاي معداً، بالطبع، على الطريقة الانجليزية، ومصحوباً
بشطائر صغيرة، رقيقة، وبيعض الحلوى والبسكويت، وقد رتب كل ذلك
على نحو منسق على منضدة شاي، حفلت بأدوات لتناول الشاي، نقشت
عليها زهرة الاقحوان الإمبراطورية.

أشارت الأميرة إلى مدى بهاء الاحتفال الأخير بتبرعم الكرز، في دار
ماتسوجاي، ثم تدريجياً تحوّل الحديث إلى الماهجونج والناجوتا.

قال النبيل، راجباً في انقاذ ابنته الصامته من الحرج:
- إننا في الدار لانزال ننظر إلى ساتوكو باعتبارها طفلة، ولم ندعها تلعب
الماهجونج بعد.

ضحكت الأميرة بلطف، قائلة:
- آه، لا تقل هذا! إننا في بعض الأحوال غضي يوماً بكامله لا نلعب
شيئاً آخر، عندما يتاح لنا الوقت.

لم يعد بمقدور ساتوكو أن تطرح موضوعاً مثل لعبة السوجوركو العتيقة
الطراز وقطعها الاثني عشرة السوداء والبيضاء التي يلعبونها غالباً.

كان الأمير توين رائق المزاج، وبعيداً عن الطابع الرسمي، اليوم، وقد
ارتدى حلة أوروبية، وصحب النبيل أياكورا إلى النافذة بجانبه، وأشار إلى
السفن عند السفح، واستعرض معرفته بالأمور البحرية، كما لو كان يعلم
صيباً: تلك فرقاطة إنجليزية، وتلك سفينة مستوية السطح، أما تلك فهي
فرقاطة فرنسية، انظر السطح المحمي الخاص بتلك السفينة هناك، إلخ.

وإذا ما حكم المرء بالمناخ العام، فقد يصل إلى الاستنتاج بأن الزوجين
الأمبراطورين يبذلان جهوداً مشوبة بالحرص على التحدث في موضوع
مطروق لضيوفهما. ويكفي أي شيء، على الإطلاق، يوحي بأنه موضع
اهتمام متبادل. غير أن النبيل أياكورا راح يتلقى ما يطرح من موضوعات
بسلبية حميدة، ولكنها ممزوجة باللهفة. أما فيما يتعلق بساتوكو فلإنها لم تكن
واعية بجدوى الترفع الذي غرسه في نفسها المثال الذي ضربه لها أبوها على
نحو ما كانت اليوم. وفي بعض الأحيان، كانت للنبيل أياكورا طريقتة
الخاصة في طرح نكته، على نحو لا يفتقر للحفاقة، لا علاقة لها بالحديث
موضع التناول، لكنه اليوم كبح جماح نفسه، على نحو جلي.

انقضى بعض الوقت، فتطلع الأمير توين إلى الساعة، ولاحظ غرضاً،
كأنما خطر له خاطر في التو واللحظة:

- بمصادفة سعيدة، سيصل هارونوري إلى الدار في إجازة من فوجه اليوم. وعلى الرغم من أنه ابني، إلا أن مظهره يوحي بالخشونة. ولكن أرجو ألا يضايقكم ذلك، فهو رجل دمث تماماً، تحت هذا المظهر.

بعد قليل من قوله هذا، سمع صوت الخدم وهم يهرعون عند المدخل الأمامي معلنين وصول الأمير الشاب.

بعد لحظات قلائل، سمعت قعقة سيف وحذاء عسكري، وراح لدى الباب القوام الحربي المهيب لسمو الأمير الإمبراطوري هارونوري. حياً أباه تحية عسكرية، وكان الانطباع الفوري الذي تركه في نفس ساتوكو هو الوقار الأجوف. ولكن ما كان أشد فخر الأب الذي استشعره الأمير توين بهذا العرض للفخامة العسكرية! وما كان أوضح اقتناع الأمير الشاب بأنه يحقق كل تفاصيل الصورة التي رسمها أبوه له! والحقيقة هي أن شقيقه الأكبر كانا، في واقع الأمر، مختلفين عنه، وإذ لاحا مهزولين، متخشين، فلنهما كانا مناط يأس أبيهما.

غير أنه اليوم ربما كان للمسمة من الإحراج، نابعة من مواجهته لساتوكو للمرة الأولى بجهاها الخلاب، بعض الأثر على سلوك الأمير هارونوري، الذي أعقب ذلك. وعلى أية حال، فإنه لم ينظر إليها مباشرة سواء عندما قدمت إليه أو في وقت لاحق.

وعلى الرغم من أن الأمير الشاب، لم يكن طويل القامة، على نحو خاص، فإن تركيبه الجسدي كان لافتاً للنظر، وفي كل الأوقات كان يتحرك بشكل قاطع، موحياً بالأهمية، والحزم، اللذين خلعا عليه جدية غير مألوفة فيمن هم في مثل عمره. وقد راقب أبوه هذا كله سعيداً وراضياً، وقد ضاقت عيناه لفرط سروره. غير أن هذا الاغتياب الأبوي كان يثير انطباعات متزايدة لدى الكثيرين بأن الأمير توين نفسه كان يخفي ضعفاً معيناً في الإرادة تحت ذلك المظهر الخارجي المهيب والمؤثر.

أما فيما يتعلق بالهوايات، فقد كان سمو الأمير الإمبراطوري هارونوري مولعاً بمجموعة من اسطوانات الموسيقى الغربية. وقد بدا أن هذا الموضوع هو الوحيد، الذي يرى فيه آراء ترجع إليه هو وحده. وعندما سألته أمه: «هل لك في أن تدبر لنا بعض الموسيقى يا هارونوري؟» سارع بالموافقة والانتقال إلى قاعة الاستقبال، حيث الفونوجراف.

بينما هو يقوم بذلك، لم تستطع ساتوكو مقاومة رغبتها في رفع عينيها، والنظر إليه، قطع المسافة إلى الباب بخطى واسعة، وحذاؤه الأسود اللامع يتألق في الشمس، التي غمرت أشعتها الشرفة. كان الحذاء لامعاً إلى حد أنها استطاعت رؤية جوانب من السماء ذاتها متعاكسة عليه، كأنها شظايا بورسليّن أزرق. أغمضت عينيها، وراحت تنتظر انسياب الموسيقى. استشعرت التقلقات الأولى لها جس مترع بالنذر، وتردد صدى صوت وضع إبرة الفونوغراف في موضعها، كأنه الرعد في أذنيها.

فيما بعد، لم يشارك الأمير الشاب، إلا قليلاً في الحديث العابر، الذي أعقب الفاصل الموسيقي. ومع دنو المساء استأذن آل أياكورا من مضيفيهم في الانصراف.

بعد أسبوع، أقبل وكيل دار الأمير توين إلى مقر آل أياكورا، وأجرى مناقشة طويلة ومستفيضة مع النبيل، وكانت الخلاصة قراراً بالبدء في الإجراءات الرسمية للحصول على إذن الإمبراطور بإتمام الزفاف. وقد أطلعت ساتوكو نفسها على الوثيقة التي كان نصها كالتالي:

«إلى معالي وزير الديوان الإمبراطوري: بمقتضى هذا الكتاب، نتقدم بالتماس متواضع، فيما يتعلق بالمفاوضات حول زواج:

سمو الأمير الإمبراطوري هارونوري توين من الأنسة ساتوكو إبنة سعادة النبيل كوريومي أياكورا، حامل وسام الدرجة الثانية من الطبقة الصغرى، ووسام الجدارة من الطبقة الثالثة.

راجين أن يرفع التماس فيها إذا كان من الممكن المضي قدماً بما يتفق والعطف الامبراطوري إلى مقام العرش الامبراطوري .

قدم في هذا اليوم الثاني عشر من الشهر الخامس من عهد تايشو.

سابورو ياموتشي وكيل دار سمو الأمير الامبراطوري توين

وبعد ثلاثة أيام، جاء رد من وزير الديوان الإمبراطوري، نصّه كالتالي:

إلى وكيل دار سمو الأمير الامبراطوري توين .

بالإشارة إلى الملتمس المقدم إلى مسؤولي الديوان الامبراطوري، فيما يتعلق بزواج سمو الأمير الامبراطوري هارونوري توين وساتوكو ابنة سعادة النبيل كوريبومي أياكورا، حامل وسام الدرجة الثانية من الطبقة الصغرى ووسام الجدارة من الطبقة الثالثة، يتم بمقتضى هذا الإقرار بأن هذا الالتماس الذي قصد به أن يرفع إلى العرش الامبراطوري وبناء عليه يمكن لمثل هذه المفاوضات أن تمضي قدماً مصحوبة بعطف الامبراطور. قد تمّ تقديمه على النحو المناسب واللائق .

في هذا اليوم الخامس عشر من الشهر الخامس من عهد تايشو.

وزير الديوان الامبراطوري

وهكذا، بمراعاة الإجراءات الرسمية الأولية، أمكن أن يقدم التماس، بالحصول على مباركة الامبراطور إلى سموه في أي وقت .

كان كيواكي في السنة النهائية بمدرسة النبلاء وكان عليه البدء في دراسته الجامعية في الخريف المقبل، وشغل زملاء له بالاستعداد لدخول الامتحانات، طوال ما يزيد على عام ونصف العام، غير أن هوندا لم يفصح عن مثل هذا الاهتمام، وهي حقيقة بعثت السرور في نفس كيواكي.

بعثت روح الناظر نوجي في نظام الإقامة الداخلية للطلاب المعمول به في مدرسة النبلاء، ولكن رغم ذلك، فقد كانت قواعده الصارمة تسمح بتجاوزات لمن لا تسمح حالتهم الصحية بتلبية مقتضياته، فزود الطلاب من نوعية هوندا وكيواكي، الذين تبعدهم عائلاتهم عن مهاجع الإقامة الداخلية في المدرسة، كمسألة مبدأ، بشهادات طبية مناسبة من أطبائهم. وذكر أن مرض هوندا هو إصابة في صمام القلب. أما مرض كيواكي فذكر على أنه نزلة شعبية مزمنة. وشكلت أمراضهما الوهمية مصدراً لكثير من التسلية، حيث يتظاهر هوندا بالاختناق واللهث لالتقاط أنفاسه، بينما يتظاهر كيواكي بأنه يعاني من سعال جاف متقطع.

لم تكن هناك حاجة حقيقية للادعاء والتظاهر؛ فما من أحد صدّق أنها مريضان، غير أن ضباط الصف في قسم العلوم العسكرية. وكلهم من أبطال الحرب اليابانية - الروسية، أطلقوا لعدائهم العنان، بالتركيز على معاملتهما باعتبارهما مريضين. وخلال فترة التدريب العسكري كان الرقباء مولعين بتضمين حديثهم لطمات غير مباشرة للمتأخرين، فيتساءلون عما

سيضطلع به هؤلاء في خدمة بلادهم، إذا كانوا أضعف من أن يجسوا في ظل نظام الإقامة الداخلية، وما إلى ذلك من تساؤلات.

استشعر كيواكي تعاطفاً عميقاً مع الأميرين السياميين، عندما علم بأنهما سيقيان بالقسم الداخلي في المدرسة. وغالباً ما كان يزورهما في سكنهما، ويحمل لهما هدايا صغيرة. وقد أحسا بالارتباط الوثيق به؛ ولذا تناوبا صب مشكلاتهما صباً، وهما يعربان عن أسفهما، بشكل خاص، حيال الضوابط المفروضة على حرية حركتهما. وفضلاً عن ذلك، فإن الطلاب الآخرين، بالنظر إلى خشونتهم وافتقارهم للحساسية، لم يكونوا من النوع الذي يمكنها مصادقته.

وعلى الرغم من أن كيواكي أهمل هوندا لفترة طويلة، إلا أن الأخير رحب به رابط الجأش عندما عاد إليه متقافزاً وجريئاً كالسنونو. بدا كما لو كان قد نسي تماماً إهماله الأخير لهوندا. ومع بدء الفصل الدراسي الجديد، بدا وكأن شخصيته قد تبدلت، وامتلات الآن بالمرح المفتعل، أو هكذا بدا الأمر لهوندا. ومن الطبيعي أنه لم يعلق على هذا، وبالصورة الطبيعية ذاتها لم يقدم كيواكي تفسيراً.

كان بمقدور كيواكي أن يهنيء نفسه، على الأقل، على لمسة واحدة من الحكمة؛ فهو لم يطلع صديقه على دخيله نفسه قط، وقد جنبه هذا الآن القلق حيال الإحساس بأنه ترك امرأة تتلاعب به كأنه طفل أحمق. وقد أدرك أن ذلك جعله آمناً بما يكفي للتصرف بمرح عفوي حيال هوندا، وبالنسبة له كان البرهان المطلق على صداقته يتمثل في رغبته في تجنب خيبة الأمل، التي قد يسببها هوندا، وأن يشعر بالعفوية وعدم الاكتراث في حضوره، وينبغي أن تعوض هذه الرغبة عن لحظات تحفظه التي لا حصر لها.

وفي حقيقة الأمر، أنه استشعر المرح لأنه فاجأ حتى نفسه. وفي حولي ذلك الوقت بدأ أبواه في الحديث صراحة وكأمر واقع عن مسار المفاوضات الجارية بين آل أياكورا وآل توينومايا. وبدا أنه يسعدهما إلى حد كبير أن يرويا مرات ومرات أموراً عن كيف أنه «حتى تلك الفتاة الصلبة الرأس» أصبحت من التوتر، بحيث لم تفه بينت شفة، في لقاء أعد بعناية مع الأمير الشاب. ولم يكن لدى كيواكي، بالطبع، سبب يدعو للتشكك في مدى الحزن، الذي سببته تلك الواقعة لساتوكو. وأولئك الذي يفتقرون إلى الخيال ليس أمامهم خيار إلا أن يبنوا استنتاجاتهم على الواقع، الذي يروونه من حولهم. ولكن من ناحية أخرى فإن أولئك الذي أوتوا القدرة على التخيل يميلون إلى تشييد قلاع محصنة، وضعوا تصميمها بأنفسهم، وأن يوصدوا كل نافذة فيها. وهكذا كان الحال مع كيواكي.

قالت أمه:

- طيب، ما إن يتم تلقي التصديق الإمبراطوري حتى يحسم كل شيء. تأثر بكلماتها على نحو ما، وخاصة بكلمتي «التصديق الإمبراطوري»، وجعلته يفكر في دهليز معتم، ممتد ورحب، وفي نهايته باب موصد بقفل من الذهب الخالص، صغير الحجم ولكن لا سبيل إلى اغتصابه. وفجأة، وبضجة تشبه طحن الأسنان، ينفتح من تلقاء ذاته، فيثز صريف معدني خشن بجلاء في مسمعه.

استشعر رضاء تاماً عن نفسه لاعتصامه بمثل هذا الهدوء، فيما أمه وأبوه يناقشان أموراً كذلك؛ لقد انتصر على غضبه وبأسه، وهكذا ابتهج بشعور من عرف الخلود. مضى يحدث نفسه، مستشعراً ثقة لم يسبق له أن عرف ما يتجاوزها قط: «لم أحلم أبداً بأنني يمكن أن أكون على مثل هذا القدر من الصمود».

كان مقتنعاً بأن غلظ أبويه، المجرّد من المشاعر، هو شيء غريب عنه

تماماً، أما الآن فقد أسعدته فكرة أنه لم يهرب من سطوة أصوله في نهاية المطاف، فهو لا ينتمي إلى الضحايا، وإنما إلى المنتصرين.

استمد سروراً عظيماً من الفكرة القائلة بأنه، يوماً بعد الآخر، سيتراجع وجود ساتوكو أكثر فأكثر بعيداً عن ذهنه، إلى أن ينداح في نهاية المطاف بعيداً عن نطاق التذكر. ومن يضعون مصباحاً بحيث يطفو على سطح جزر الماء، على سبيل النذر، يقضون على الشاطئ ويرقبون سناه وهو يتزايد خفوتاً على سطح الماء المعتم، فيما هم يرتلون صلاة لكي ينطلق نذرهم إلى أبعد مدى ممكن لجلب الرحمة في حدودها القصوى للموت، وعلى النحو نفسه راح كيواكي يتأمل ذكرى ساتوكو المتراجعة، باعتبارها البرهان اليقيني على قوته.

الآن لم يعد هناك في الدنيا أحد متهم بالاطلاع على أغوار مشاعره، لم يبق عائق يحول بينه وبين إخفاء حقيقة عواطفه، لقد نحيي الخدم المخلصون، الذين يقفون بين يديه على الدوام بكلماتهم المعتادة: «دع كل شيء لنا، لطفاً، فنحن نعلم حقيقة مشاعر السيد الشاب، على وجه الدقة». لم يكن سعيداً فحسب للتخلص من تلك المتأمرة الحاذقة، تاديشينا، وإنما كذلك من إينوما، الذي أصبح ولاؤه جائئاً حتى هددته بالاختناق، لقد مضت إلى غير رجعة آخر العناصر التي تبعث الضيق في نفسه.

أما فيما يتعلق بقيام أبيه بطرد إينوما، بغض النظر عن الترفق الذي واكب هذا الطرد، فقد أضفى العقلانية على شعوره باللامبالاة حياله بالحجة القائلة بأن إينوما جلب ذلك على نفسه. وأكمل شعوره بالرضا عن نفسه بالقسم، الذي أوفى به في إخلاص، بفضل تاديشينا، بالا يذكّر لأبيه ما وقع قط. وهكذا توج كل شيء بخاتمة موفقة بفضل لماحيته وحموده فؤاده.

حان يوم رحيل إينوما، وعندما مضى إلى غرفة كيواكي لوداعه رسمياً، انحدرت في البكاء. لم يستطع كيواكي تقبل هذا البكاء، على نحو ما هو عليه، فلم تسعده فكرة أن إينوما يؤكد على ولاته المقتصر عليه بصورة محمومة.

وبارتبائه المألوف، لم يستطع إينوما إلا الوقوف هنالك منخرطاً في البكاء. كان يحاول من خلال صمته ذاته أن يبلغ كيواكي شيئاً ما. لقد دامت علاقتهما سبع سنوات، بدءاً من الربيع الذي بلغ فيه كيواكي الثانية عشرة من عمره. وبما أن ذكريات كيواكي وأفكاره ومشاعره، في تلك السن، كانت بالغة الغموض، فقد تكوّن لديه الانطباع بأن إينوما كان هنالك إلى جانبه على الدوام. ولو أن لصباه وشبابه ظلاً لكان هذا الظل هو إينوما مرتدياً كيمونوه المتعرق، ذا اللون الأزرق القاتم، والخط الزخرفي المتناثر. أثقل دأبه في السخط وتبرمه وموقفه السلبي من الحياة على كيواكي، أيّاً كانت محاولته إدعاء الحصانة ضد هذا الشعور. غير أنه، من ناحية أخرى، أفاد النذير المعتم القابع في عيني إينوما في تحذير كيواكي من تلك المواقف نفسها القابعة في ذاته، على الرغم من أنها كانت مألوفة بما فيه الكفاية لدى الشباب. إن شياطين إينوما الخاصة كانت تعذبه، بعنف جلي، وكلما أراد من سيده الشاب أن يحاكيه تراجع هذا الأخير إلى الانجلاء المضاد، الأمر الذي كان من الممكن التنبؤ به مسبقاً.

ربما كان كيواكي قد خطأ، من الناحية النفسية، الخطوة الأولى نحو فراق اليوم، عندما حطم القوة التي هيمنت عليه طويلاً، وحول إينوما إلى كاتم أسرار، ولعل التفاهم المتبادل بينهما كان أكثر عمقاً مما ينبغي أن يكون بين سيد وتابعه.

بينما وقف إينوما أمامه خافضاً رأسه، التمع في خفوت شعر صدره المثل من عنق كيمونوه الأزرق وقد مسته أشعة من شمس الغروب. راح كيواكي

يحدّق مكتئباً في هذا الشعر المتشابك المتلبّد، وقد ضاعف من كآبته إدراكه أيّ وعاء ثقيل خشن على نحو يبعث الضيق هو بدن إينوما وكأنه تعويض عن روح الولاء المتدفقة فيه. بل إنه في الحقيقة كان إهانة بدنية مباشرة، بل إن الوهج على خدي إينوما بجلدهما الخشن ويشورهما، رغم أنه مرقش وغير صحي بدا أنه يويخ كيواكي بإخلاص مايني، التي كانت ستغادر الدار مع إينوما، متأهبة لمشاركته مصيره. ما من شيء يمكن أن يكون مهيناً أكثر من هذا: السيد الشاب تخونه امرأة وتتركه للحزن، والتابع يؤمن بإخلاص المرأة، ويمضي متتصراً. وفضلاً عن ذلك فإن إينوما آمن في سره تماماً حيال اعتقاده بأن وداع اليوم إنما جاء متسقاً مع أداء الواجب، وهو افتراض وجده كيواكي مثيراً للحنق.

غير أنه وصل إلى أن خير سبيل هو تطويق عنق إينوما بمنة نبيلة، فراح يحدّثه بلطف، وإن يكن باقتضاب:

- هكذا، إذن، أحسب أنك بمجرد استقلالك بنفسك ستزوج من مايني؟

- نعم، يا سيدي، بما أن والدكم كان من الكرم بحيث يقترح ذلك، هذا هو على وجه الدقة ما سأقوم به.
- طيب، دعني أعرف الموعد، فينبغي أن أبعث إليك بهدية.

- شكراً جزيلاً يا سيدي!
- بمجرد أن تتخذ لك داراً دائمة، أرسل لي بطاقة بعنوانك، من يدري، فربما جئت لزيارتك ذات يوم.

- لست أتخيل شيئاً يمنحني السرور أكثر من زيارة من السيد الشاب، ولكننا حينها أقيم سيكون مكاناً أصغر وأقل قيمة من أن يصلح لاستقبالكم.

- لا تحملهما لذلك!

- كم هو كريم منك أن تقول هذا...!

وشرع إينوما في البكاء من جديد. انتزع قطعة من الورق الخشن، الذي يستخدم بديلاً للمنديل من كيمنونه، وتمخط.

خلال هذا الحديث، كان كيواكي ينتقي كلماته بعناية، حريصاً على أن تكون مناسبة للمقام، قبل أن يتفوه بها. وأوضح بجلاء أنه في موقف مثل هذا فإن أكثر الكلمات خواء هي التي تثير أقوى المشاعر. لقد أعلن بأنه يحيا من أجل العاطفة وحدها، ولكن الظروف أجبرته الآن على أن يتعلم سياسة العقل. وكان هذا التعليم مما سيطبق على حياته بما يعود عليه بالفائدة، بين الحين والآخر، إنه يتعلم استخدام العاطفة كدرع واقية وكيفية صقل هذه الدرع على أفضل وجه.

أحب، وهو في التاسعة عشرة من عمره وقد تجرد من القلق والضيق والهلم أن يرى نفسه في صورة الشاب البارد الأعصاب، ذي القدرة الفائقة، وأحس الآن بأنه تجاوز حداً فاصلاً في مسار حياته.

بعد انصراف إينوما، وقف عند النافذة المفتوحة، محدقاً إلى أسفل في الانعكاس الجميل لتل القيقب ببساطة الأخضر الجديد من الوريقات الحديثة العهد، وهو يطفو على سطح ماء البحيرة. وقريباً من النافذة ذاتها كانت خضرة أوراق شجر الزيلكوكا من الكثافة بحيث اضطر إلى الانحناء نحو الخارج، ليرى ذلك الموضع عند سفح التل، الذي ينزل فيه ماء الشلالات التسعة إلى البحيرة. وعند حافة البحيرة من كل الجوانب اكتسى سطح الماء بحشود من بنات ترس الماء بخضرته الشاحبة. لم تزدهر بعد زنباق الماء الصفراء، ولكن في زوايا الجسر الحجري، الذي ينساب متعرجاً، متجاوزاً طريقاً، قرب قاعة الاستقبال الرئيسية، راحت السوسنات تدفع براعمها

الأرجوانية والبيضاء، ناتئة من حشود من الوريقات الخضراء المستدقة الطرف.

لفت نظره ظهر خنفساء متفزحة اللون، كانت تقف عند حاجز النافذة، ولكنها مضت الآن تتقدم باضطراب نحو غرفته. امتد خطان أرجوانيان على ورقتها الزيتونية المتألقة باللوني الذهبي والأخضر. ومضت الآن تلوح بقرون استشعارها في حذر، وهي تشرع وثيدة في شق طريقها على قوائمها المنشارية، التي ذكرت كيواكي بقواطع الجوهري الدقيقة. في قلب دوامة الزمن المنحلة، ما أشد عبث تواصل هذه البقعة الدقيقة من التالق المركز في عالم آمن خاص بها! فيما هو يرقبها، افتتن بها تدريجياً، وشيئاً فشيئاً واصلت الدنو بيدنها المتألق منه، كما لو كان تقدمها العبيث درساً قوامه أنه لدى عبور عالم من التدفق الذي لا ينقطع فإن الشيء الوحيد المهم هو الإشعاع بالجمال. فماذا لو أنه تعين عليه تقويم درعه التي تحميه والمتمثلة في العاطفة في ضوء هذا الدرس. أمي لافنة للأنظار على نحو طبيعي من الناحية الجمالية مثل درع هذه الخنفساء؟ وهل هي صلدة بما فيه الكفاية لتكون جيدة مثل درع الخنفساء؟

في تلك اللحظة، أقنع نفسه، على وجه التقريب، بأن كل من يحيط بهذه الخنفساء، الأشجار ذات الأوراق والسماء الزرقاء والسحب والأسقف القرميدية، إنما وجدت على نحو خالص لخدمتها، هي التي تشكل محور الكون وبؤرته ذاتها.

لم يكن مناخ مهرجان الأميا ساماً مماثلاً له في العام السابق؛ ذلك أن إنوما قد رحل، وكان في كل عام، وقبل وقت طويل من يوم المهرجان يكرس نفسه لمهمة التنظيف وترتيب المذبح والكراسي، كل ذلك بمفرده. أما الآن فقد وقع هذا كله على كاهل يامادا، وزاده نفوراً منه أنه كان أمراً

لا عهد له به ، وإضافة إلى ذلك ، فقد كان شيئاً يناسب على نحو أكبر شاباً في صدر عمره .

وإلى جوار هذا ، لم توجه الدعوة إلى ساتوكو . هكذا ، ساد الشعور بغياب أحد الأقارب ، الذين يحضرون عادة ، ولكن الأهم من هذا - ففي نهاية المطاف لم تكن ساتوكو من الأقارب على الإطلاق - لم تكن أي من النساء الحاضرات تقترب ، ولو من بعيد ، من جامها .

بدا أن الآلهة أنفسهم ينظرون إلى هذه الظروف التي طرأ عليها التغير باستياء ، ففي منتصف الاحتفال ادلهمت السماء ، ودوى الرعد في البعيد . واستبد القلق بالنساء اللاتي كن يتابعن صلوات الكاهن خشية أن ينهمر المطر عليهن . غير أنه من حسن الحظ عندما حان أوان قيام الراهبات الصغيرات في هاكاماتهن القرمزية بتوزيع الهدايا المقدسة من النيذ للجميع صفت السماء من جديد . وفيما أحتت النساء رؤوسهن ، اجتذبت أشعة الشمس المشرقة على فتحات أعناق ثيابهن حبات من العرق ، على الرغم من كثافة الذرور الأبيض . وفي تلك اللحظة ، ألقت أفواف الوستارية على التعريشة ظلالاً عميقة ترامت مثلها البركة على الموجودين في الصفوف الخلفية .

ولو أن إينوما كان موجوداً لأغضبه مناخ مهرجان هذا العام ، دوغما شك ، حيث أن كل عام يجلب معه توفيراً وحداداً أقل على جد كيواكي ، فقد بدا الآن متميماً إلى عصر انقضى وخاصة منذ وفاة الإمبراطور ميجي نفسه ، وعلى هذا النحو غدا إلهاً نائياً ، لا تربطه صلة على الإطلاق بالعالم الحديث . حقاً أن زوجته ، جدة كيواكي ، شاركت في الحفل ، كما هو الحال بالنسبة لعدد من كبار السن ، غير أن دموعهم بدا أنها جفت منذ عهد بعيد .

كل عام، وفيما الاحتفال، المتطاول على نحو مؤلم، يتواصل، يزداد ارتفاع همس النسوة باضطراب، ولم يكلف الأمير ماتسوجاي نفسه عناء الانصاح عن عدم موافقته على هذا؛ فهو نفسه يجد الالتزام بهذا الحفل مضجراً عاماً إثر الآخر، وكان يأمل في التوصل إلى وسيلة ما لجعله أكثر مرحاً وأقل إضجاراً بالنسبة له. وخلال أداء الطقوس، انجذبت عيناه إلى كاهنة شابة كانت ملامحها الأوكيناوية البارزة أكثر قدرة على الاجتذاب، تحت طبقة الذرور الثقيلة البيضاء. وفيما هي تمسك بالوعاء الفخاري المترع بالنيذ، افتتن بانعكاس عينيها السوداءوين، الجريئين، على سطح النيذ، وبمجرد انتهاء الحفل اندفع نحو ابن عمه، الذي لم يكن قائداً بحرياً، فحسب وإنما ذؤاقة للخمر ذائع الصيت، وقد أدلى بملاحظة سوقية على الكاهنة، ذلك أن ضحكة القائد البحري كانت من الارتقاع والفجاجة، بحيث اجتذبت عدداً من النظرات المحدقة اللائمة. غير أن الأميرة ماتسوجاي، التي كانت تعلم مدى ملاءمة قناع الاكتئاب التقليدي، الذي يعلو ملامحها، للمناسبة المحتفل بها اليوم، لم تغير أدنى تغيير التعبير المرتسم على محياها.

وفي أثناء ذلك، كان كيواكي مشغولاً على نحو آخر، فقد تزامنت نسوة الدار، بأجمعهن، والعديد منهن لم يكن يدري حتى بأسمائهن، متجمعات في الظل المترف لويستريا الربيع المتهمل. وهن يتهاמשن فيما بينهن، وقد تبدد ادعاء التوقير والاجلال مع كل لحظة تنقضي، وتجردت وجوههن من التعبيرات المميزة، وخلت حتى من الحزن فيما هن يقفن متجمعات بحسب ما تلقين من تعليمات، في انتظار تمكنهن من الانصراف مجدداً، وقد هيمن عليهن تردد واهن ثقيل. ترك المناخ المتقد بالانفعال، الذي لف هاته النسوة، ذوات الوجوه البيض المسطحة، كأنها قمر في الظهيرة، أثراً عميقاً في نفس كيواكي. ودونما شك، فإن جانباً كبيراً من هذا التأثير يعود إلى

رائحتهن، التي ما من سبيل إلى فصل ساتوكو نفسها عنها. وكان ذلك شيئاً يصعب حتى على راهب الشتو المسلح بفرع شجرة السكاكي المقدسة، بثقلها من الأوراق القاتمة اللامعة وسلسلتها من الرايات الورقية البيضاء، أن يتخلص منه.

استشعر كيواكي راحة مستمدة من هدوء البال، الذي يعقب
الفقدان. وفي قرارة فؤاده، كان على الدوام يفضل الأمر الواقع المترتب على
الخسارة على الخوف من هذه الخسارة.

لقد فقد ساتوكو، وارتضى هذا؛ إذ تعلم الآن كيف يكبح حتى جماح
ضيقه اللاحق. تحكم الآن في كافة تجليات المشاعر باقتضاب رائع. وإذا
كانت شمعة قد احترقت متألفة، ولكنها أصبحت تقف الآن وحيدة في الظلام
وقد خبا لهبها، فليس ثمة ما يدعوها إلى أن تحشى انحلال مادتها لتغدو
كتلة من الشمع. وللمرة الأولى في حياته، أدرك كيواكي القدرة على
الشفاء، التي تتمتع بها العزلة.

بدأ موسم المطر. وشرع كيواكي، شأن مريض يتأثل للشفاء لا يستطيع
مقاومة تعريض صحته للخطر على الرغم من مخاوفه، في اختبار استقراره
العاطفي باستثارة ذكرياته عن ساتوكو عامداً، فافتح كراسه صوره ليلقي
نظرة على الصور القديمة، رأى نفسه وهو طفل يقف إلى جوار ساتوكو تحت
شجرة الباجورة في ضيعة أياكورا. كان كل منهما قد التف بمشزر الأطفال
الأبيض المجرد من الأكمام، لكنه اغتبط لكونه أطول منها حتى في ذلك
العمر المبكر. وقد حرص النبيل أياكورا، الذي كان خطاطاً بارعاً، على
تعليم الخط للطفلين، وفقاً لمدرسة معبد تاداميتشي فوجوارا هوشو في
الكتابة. وفي بعض الأحيان، حينما يناهما الكلل من تمرينهما المعتادة، يشير

اهتمامهما بتركهما يتعاقبان على نسخ أبيات من لعبة بطاقات مائة شاعر من
أوكورا في لفيفة ورق.

نسخ كيواكي مقطوعة من شعر شيجيوكي ميناموتو:

أحس بقوة الريح الهادرة،

فيما الأمواج تتكسر على الصخور،

تشغني الوحدة،

فتراءى لي أحلام الأيام الخالية.

وتحتها كتبت ساتوكو مقطوعة من شعر يوشينوبو أوناكاتومي:

عندما ينحسر النهار، مفسحاً الطريق لليل،

ويؤجج الحراس النار،

تنهل ذكريات عهود أخرى،

نابضة بالحياة في أعماقي.

بدا الطابع الطفولي لخطه جلياً من النظرة الأولى، لكن خط ساتوكو كان
متدفقاً ودقيقاً، بحيث أن الفرشاة ما كان يبدو أن من أمسك بها لا يعدو أن
يكون طفلة صغيرة. وفي حقيقة الأمر، أنه نادراً ما كان يفض هذه اللفيفة
الورقية؛ إذ لم يكن يسعده أن يواجه بالبرهان التعس على أن ساتوكو، التي
تكبره بعامين، كانت متفوقة عليه، حتى في ذلك الوقت. أما الآن وهو
يفحص الكتابة بدرجة من الموضوعية فقد أحس بأن خطه يتميز بقوة
صبيانية تحدث مفارقة سارة مع الجمال الصافي لخط ساتوكو الناعم المنطلق.

ولكن الأمر كان فيه ما يتجاوز ذلك، ذلك أن مجرد التفكير في نفسه، في
ذلك اليوم، وهو يضع في جساره أطراف ريشات الكتابة المثقلة بالخبر، في
مواجهة ورق اللفيفة الفاخر، المرقش بالذهب، كان كافياً لاستحضار
المشهد بأسره، بقوة المباشرة المترعة بالحياة. في ذلك الوقت، كان شعر
ساتوكو الطويل، الغزير، الأسود، مقصوفاً باستقامة عند الجهة، وفيما

هي تنحني على لفيفة الورق كانت تمسك يد فرشاة الكتابة في إحكام بأصابعها الناحلة الرقيقة، مركزة بانفعال بالغ، إلى حد أنها غفلت عن كتلة الشعر التي انسابت عبر كتفها، في شلال فاحم، مغرقة اللفيفة ذاتها على وجه التقريب، فيما أسنانها الصغيرة البيضاء تعض على شفتها السفلى. وعلى الرغم من أنها لم تكن إلا طفلة صغيرة، إلا أن أنفها كان قد تكون بالفعل على نحو بديع في ملمحها الجانبي الذي شمع بتصميم عذب في مواجهة الشعر المتهدل. راقبها كيواكي كأنما هو في حلم، ثم كان هنالك الخبر الذي تفوح منه رائحة توحى بسواده ووقاره، والصوت الذي يحدثه طرف الريشة فيما هو ينطلق مسرعاً على سطح لفيفة الورق، كأنه الريح تصدر حفيفها بين أعشاب الخيزران. وفي نهاية المطاف كان هناك البحر - كانت المحبرة هي البحر وفوقها ارتفع التل ذو الاسم الغريب. تراجع هذا البحر بحدة عن شاطئه إلى حد أنه لم يلق حتى نظرة عجل إلى قاعه السطحي. هذا البحر الأسود الساكن، الذي لا موجة فيه ولو واحدة، بحر لا يلتصق فيه إلا الذرور الذهبي الساقط من عصا تقليب الخبر، جعله على الدوام يفكر في أشعة القمر المتشظية على بحر الأبدية الليلي.

حدثت نفسه في تفاخر صامت، إن بمقدوري التمتع حتى بذكريات ما مني، دون أن يثير ذلك ضيقي على الإطلاق.

بل إن ساتوكو لم تظهر له حتى في الحلم. وإذا ما لمح في منامه شخصاً يشبهها، فإن المرأة سرعان ما تولي الادبار، وتختفي. ولكن المشهد كان غالباً تقاطع طرق عريضاً في الظهيرة مهجوراً تماماً.

ذات يوم، في المدرسة، طلب الأمير باتانديد معروفاً من كيواكي. هل له رجاء أن يعيد الخاتم الذي وضعه الأمير ماتسوجاي في خزانة إيداع إليه؟ سرت إشاعة مؤداها أن الأميرين لم يتركا انطباعاً محبذاً للغاية في المدرسة. وقد شكّل حاجز اللغة عقبة مفهومة في طريق دراستهما، ولكن ما

هو أكثر من هذا أنه لم يكن هناك سبيل إلى ما يقارب الحديث الودي بينهما وبين رفاقهما من الطلاب، الذين ضاقوا ذرعاً بالأميرين، وكنتيجة لهذا أبقيهما بعيدين عنهم. وفضلاً عن ذلك فإن زملاءهما في الصف الدراسي، نظراً لكونهم على درجة من البساطة والفجاجة، نفرتهم الابتسامات التي يستجيب بها الأميران لكل المناسبات.

كانت فكرة إقامتهما في القسم الداخلي بالمدرسة راجعة إلى وزير الداخلية، وهو قرار سمع كيواكي أنه قد أثار قدراً احتد به من القلق من جانب مدير القسم الداخلي؛ حيث أنه هو الذي ستقع على كاهله مسؤولية تقرير الترتيبات المحددة، التي ستعد لها. فقدم لها غرفتهما المؤثثة بأفضل السرر المتاحة، على نحو يليق بأميرين ينتميان إلى عائلة مالكة، ثم بذل كل الجهود الممكنة لتنمية علاقات طيبة بينهما وبين الطلاب الآخرين، ولكن مع مرور الأيام مال الأميران إلى الاعتكاف، على نحو متزايد، في غرفتهما، أو قلعتهما الصغيرة، وغالباً ما فاتتهما أمور كثيرة مثل الاستيقاظ مع البوق الصباحي وألعاب الجمباز. وهكذا تعمق الاغتراب بينهما وبين الآخرين.

وكان لهذا سبب وجيه؛ ذلك أن الفترة التمهيدية الممتدة لأقل من ستة أشهر بعد وصولهما لم تكن مناسبة لتعلمهما اللغة اليابانية، حتى إذا كانا قد كرسا نفسيهما لهذا على نحو أكثر جدية مما فعلا. وحتى في دروس اللغة الانجليزية، حيث كان ينبغي لقدرتهما أن تكون لصالحهما، أربكهما تماماً نظام الترجمة من الانجليزية إلى اليابانية ومن هذه الأخيرة إلى الانجليزية.

وبما أن الأمير ماتسوجاي كان قد رتب وضع خاتم الأمير باتاناديد في خزانته الشخصية بمصرف إتسو؛ فقد عاد كيواكي إلى الدار للحصول على خاتم أبيه قبل التوجه إلى المصرف لاسترداد الخاتم. وقد حل المساء على وجه التقريب عندما رجع إلى المدرسة، ومضى إلى غرفة الأميرين.

كان يوماً جافاً غموضياً من أيام قلب موسم المطر، تهيمت فيه السماء

وناءت الرطوبة بثقلها، فبدأ يوماً يتناسب تماماً مع الاحباط الذي يستشعره الأميران، اللذان شفهما الحنين إلى الطقس الصيفي المتألق، الذي كان لا يزال بعيد المطال، وإن بدا قريباً. أما القسم الداخلي نفسه، وهو مبنى من طابق واحد خشن المظهر تحيط به الأشجار، فقد بدا غارقاً في كآبة نابعة من ذاته وحده.

أشارت الصيحات، المنبعثة من اتجاه ساحة الألعاب الرياضية، إلى أن التدريب على الرجبي يمضي على قدم وساق. كان كيواكي يكره الصيحات المتعلقة بالمثالية المتصاعدة من تلك الحلوق الشابة. لم تكن علاقات زملائه في الصف الخشنة والجاهزة ونزعته الإنسانية التي لم يعجم عودها، ونكاتهم وتلاعباتهم المستمرة بالألفاظ وإجلالهم الذي لا يعرف التراجع لموهبة رودان ولكمال سيزان، لم يكن هذا كله إلا المعادل الحديث لصيحات الكندو التقليدية العتيقة. وهكذا مضوا، بأصواتهم الخشنة، وشبابهم المتدفق مثل أوراق شجر البولونيا الخضراء، معتمرين غرورهم، مثلما كان رجال البلاط القدامى يعتمرون القبعات العالية.

كانت الحياة شاقة للغاية بالنسبة للأميرين، حيث تعين عليهما السباحة في دفق القديم والجديد معاً. وعندما فكر كيواكي في هذا، ارتفع عن مستوى انشغالاته، وغدا بمقدوره الآن، انطلاقاً من أريحية حلت به، أن يتعاطف معهما. سار عبر دهليز معتم، خشن الصقل، في القسم الداخلي، نحو غرفة الأميرين الكائنة في نهاية الدهليز، والمختارة بعناية بالغة. وقف أمام باب عتيق، بال، علق عليه مستطيل خشبي يحمل اسميهما، وطرقه بخفة.

ابتهج الأميران لرؤيته، كأنما جاء لهما مخلصاً ومنقذاً. كان قد أحس على الدوام بأنه أقرب إلى باتاناديد - تشاوبي. الجاد والحالم، إلى حد ما، ولكن في الشهور الأخيرة أصبح كريد سادا، الذي كان في وقت من الأوقات عابثاً

لاهيأ، على شيء من التجهيم والكآبة. كانا يمضيان معظم وقتها هاهنا، في غرفتهما، يتهاامسان بلغة وطنها.

كانت الغرفة، العارية من أي زخرف، مؤثثة على نحو متقشف بفراشين وقمطرين وخزانتي ثياب، والمبنى كله يوحي بمناخ الثكنات العسكرية الأثير عند الناظر الراحل نوجي. غير أن الفراغ الأبيض المصمت على الجدار فوق الخشب الذي حلّ به خفف من جهامته رف صغير وضع عليه تمثال ذهبي لبوذا، كان الأميران يؤديان أمامه صلاتهما في الصباح والمساء. وخلع هذا المذبح لمسة من التجديد والغرابة على الغرفة، فيما انسدلت ستارة مجمدة رقشها المطر من قماش قطني رقيق على النافذة.

الآن، مع حلول الظلام، تألفت أسنان الأميرين الباسمين ناصعة البياض، في مفارقة لجلدهما الأسمر، الذي لوحته الشمس. قدما مقعداً لكيواكي، عند حافة أحد السريرين، ثم طلبا بشغف رؤية الخاتم. تألفت زمردته الخضراء اللامعة، التي يحرسها رأسا الباكشا الحيوانيان، في مفارقة تامة لمناخ الغرفة.

أخذ تشاوبي. الخاتم، بتهيدة تشي بالسعادة، ودس إصبعه الأسمر الرشيق فيه. بدا الأصبع ناحلاً ورقيقاً في يد لاه وكنائما خلقت للملاطفات، فجعل كيواكي يفكر في شعاع قمر استوائي يمد اصبعاً رشيقاً، من خلال شق في باب فيتناثر على الأرض.

قال تشاوبي.، مصعداً تهيدة مترعة بالكآبة:

- الآن عادت تشاوبي أخيراً إلى ملمسي.

في الأشهر الماضية، كان من شأن رد فعل كهذا أن يحفز الأمير كريد سادا على العبث بابن عمه، أما الآن فقد بحث في أدراج خزانة ملابسه، والتقط صورة أخته التي أخفاها بعناية بين طيات قمصانه.

قال، وقد أوشك الدمع أن يخونه:
- في هذه المدرسة، حتى إن قلت لهم إنها صورة أختك، فإنهم يسخرون منك، إن وضعتها على قمطرك؛ ولهذا نخفي صورة ينج تشان هنا.

سرعان ما استطاع تشاوي. أن يوضح لكيواكي أنه لم تصل رسائل من الأميرة ينج تشان، منذ ما يزيد على الشهرين، وقد قام باستفسارات حول هذا الموضوع لدى البعثة السيامية، غير أنه لم يتلق رداً مقنعاً. وفضلاً عن ذلك، فإن الأمير كريد سادا، شقيق الأميرة، نفسه لم يتلق كلمة واحدة عنها. ولو أن شيئاً حدث لها، لو أنها مرضت لثم إخباره بشكل عادي عن طريق برقية.. استنفد تشاوي. خياله في التفكير فيما يمكن أن تكون عائلتها قد حجبتة حتى عن أخيها. ربما يكون الأمر متمثلاً في أنه يجري دفعها دفعاً نحو زواج آخر، يضمن ميزة سياسية أكبر. وكانت الفكرة ذاتها كفيلة بأن تلقي به في رحاب الاكتئاب. وراح يفكر في أن الغد قد يحمل إليه رسالة، ولكن حتى لو كانت هناك رسالة فأي تعاسة قد لا تضمها بين سطورها؟ ويمثل هذه الخواطر في ذهنه لم يكن في حالة تسمح له بالدراسة، ولما لم يكن لديه عزاء آخر فقد انحصر تفكيره في استعادة الخاتم، الذي كان هدية الوداع من الأميرة، وأصبح زخم حنينه متركزاً على زمردته المتألقة بالبريق الأخضر للأدغال عند أول إطلالة من شمس الصباح.

بدا أن تشاوي. قد نسي أم كيواكي، فيما هو يمدّ الأصبع الذي يحمل الخاتم الزمردى، ويضعه على القمطر، إلى جانب صورة ينج تشان، التي وضعها الأمير كريد سادا هناك. لاح أنه موشك على القيام بعمل من أعمال الإرادة، ليس من شأنه فحسب أن يحو قيود الزمان والمكان، وإنما أن يدمج عالمين في عالم واحد كذلك.

عندما أضاء الأمير كريد سادا المصباح، المتدلي من السقف، التقط

زجاج الصورة انعكاس الزمردة المستقرة على إصبع تشاوي. وتالق مربع من الخضرة المتوهجة بالحوية على بياض رداء الأميرة.

تساءل تشاوي. متحدثاً بالانجليزية:

- أنظر إلى هذا - كيف يبدو لك؟ ألا يبدو كما لو كان قلبها لهباً أخضر؟ ربما كان القلب الأخضر الفاتر لثعبان أخضر صغير^(١)، ينسل من غصن إلى آخر في الأدغال، فيبدو للعيان وكأنه نبات معترش. أما ما هو أكثر من ذلك فربما عندما أعطتني الخاتم، وقد ارتسم على محياها مثل هذا التعبير الرقيق المفعم بالحب، أرادتني أن استخلص منه هذا المعنى ذات يوم. قاطعه كريد سادا بحدة.

- لا، يا تشاوي.، هذا محض هراء!

- لا تغضب، يا كري، لست أقصد للحظة إهانة أختك. كل ما أحاول القيام به هو العثور على كلمات تعبر عن غرابة وجود العاشق. دعني أعبر عن الأمر على هذا النحو: على الرغم من أنها هاهنا في هذه الصورة، فإنها تظهرها على نحو ما كانت في لحظة معينة في الماضي. لكنني أشعر بأنه في هذه الزمردة التي أعطتنيها، عندما افترقنا، تكمن روحها، على نحو ما عليه الآن، في هذه اللحظة. وفي ذهني كانت الزمردة والصورة - جسمها وروحها - منفصلتين. أما الآن فانظر: ها قد توحدتا من جديد!

وحتى عندما نكون مع من نحب، فإن الحمق يبلغ بنا حد التفكير في جسمها وروحها باعتبارهما منفصلين. وعلى الرغم من أنني بعيد عنها الآن،

(١) الثعبان الأخضر، في الميثولوجيا اليابانية، رمز للشعر المستفحل، وقد كان ميثيبا مولعاً باستخدام هذا الرمز، ليؤدي هذا المعنى، على وجه الدقة. ويروى عنه أنه قال، في أغسطس ١٩٧٠، أي قبل انتحاره المشهود بثلاثة أشهر: «إن المال والنزعة المادية هما السائدان، اليابان الحديثة بشعة، وهي ضحية الثعبان الأخضر، ولن تنجو من تلك اللعنة».

فربما أكون في وضع أفضل مما كنت عليه لتقدير البلورة الفريدة التي هي
ينج تشان. إن الانفصال مؤلم، ولكن نقيضه مؤلم بالمثل. وإذا كان التلاقي
يبعث البهجة، فإنه يغدو من الصحيح كذلك أن البعاد ينبغي أن يحدث
التأثير نفسه بطريقته الخاصة.

- ما رأيك يا ماتسوجاي؟ بالنسبة لي، أردت دائماً معرفة السر الذي يمكن
الحب من مراوغة قيود الزمان والمكان كما لو كان ذلك من خلال السحر.
أن تقف في حضرة من نحب لا يضاهي حب ذاتها الحقّة، لأننا عرضة
فحسب للنظر إلى جمالها العضوي باعتباره الشكل الذي لا غنى عنه
لوجودها. وعندما يتدخل الزمان والمكان، فمن المحتمل أن يخذلنا
كلاهما. ولكن من ناحية أخرى فمن المحتمل بالمثل أن يقربنا من ذاتها
الحقيقية أضعافاً مضاعفة.

لم يدركيواكي مدى العمق المقصود من تفلسف الأمير، ولكنه راح
يصغى إليه في انتباه. وفي حقيقة الأمر أن العديد من كلماته قد وصلت إلى
قراءة فؤاد كيواكي. ففيما يتعلق بساتوكو كان كيواكي يعتقد أنه قد اجتذب
الآن بهذا القدر إلى ذاتها الحقّة. ولكن ما هو دليله على هذا؟ أليس عرضة
للخدعة مرة أخرى؟ أليست ساتوكو التي أحبها مرة أخرى هي ساتوكو
الحقيقية في نهاية المطاف؟ هز رأسه قليلاً، دوغما وعي على وجه التقريب.
ثم فجأة تذكر الحلم، الذي ظهرت فيه فتاة حسناء، على نحو غريب، في
زمردة شاوبي. فجأة. ترى من هي تلك الفتاة؟ ساتوكو؟ ينج تشان التي
لم يرها قط؟ أم ربما فتاة أخرى؟

قال الأمير كريد سادا حزيناً، ومتطلعاً من النافذة، إلى الأجمة المحيطة
بالقسم الداخلي:

- على أية حال، أيقبل الصيف يوماً؟

كان بمقدور الفتية الثلاثة رؤية المصابيح المضاءة في مباني القسم الداخلي الأخرى، فيما هي تلتصق بين الأشجار، وسمعوا كذلك صياحاً وحواراً عالياً منبعثاً من شتى الاتجاهات. حان وقت فتح قاعة الطعام لتناول العشاء. راح طالب فيما هو يشق طريقه عبر الممشى مخترقاً أجمة الأشجار يردد أغنية قديمة، وسط قهقهة رفاقه المدوية. اتسعت عيون الأميرين السياميين، كأنما من جراء الخوف من أنه في أية لحظة يمكن أن تلوح في الظلام هولات الجبال أو الأنهار.

وقد أدت إعادة كيواكي للخاتم، في هذه المناسبة، إلى حادثة لا تبعث على الشعور بالسرور.



بعد عدة أيام، اتصلت تاديشينا هاتفياً، فأبلغت الخادمة كيواكي بذلك، لكنه لم يمض إلى الهاتف، وفي الغد اتصلت مجدداً، لم يقبل بمحادثتها كذلك.

أثارت المكالمات قلقه إلى حد ما، ولكنه اعتصم بقاعدته التي كرسها: أن ينحي ساتوكو عن ذهنه، ويركز على الخلق الذي أثارته وقاحة تاديشينا في نفسه. وكان كل ما عليه هو أن يفكر في العجوز الماكرة، الكاذبة، التي خدعته في صفاته، مراراً وتكراراً، وكان غضبه، الذي يعقب ذلك، من القوة بحيث يتجاوز أية هواجس قد تراوده، حول عدم ذهابه إلى الهاتف.

انقضت ثلاثة أيام. كان موسم المطر قد أوغل، فانهمر مدراراً. عندما عاد كيواكي من المدرسة، أقبل يامادا نحوه حاملاً صفحة مطلية باللك، وقدم له بمزيد من التوقيع رسالة استقر وجهها على الصفحة. ألقي نظرة عليها، فأذهله أن يرى أن تاديشينا قد وضعت بجلافة اسمها عليها. كان المظروف السميك، ذو الحجم الكبير، قد ختم بعناية، وإذا ما حكم المرء بلمسه،

فقد استقرت بداخله رسالة. أحس بالخوف من أنه إذا ترك وحده فقد لا يتمكن من كبح جماح نفسه، وردعها عن فتح الرسالة. وهكذا أجبر نفسه على التصرف عمداً، فمزق الرسالة إرباً عن قصد أمام يامادا، ثم أمره بالتخلص مما بقي منها؛ إذ كان يعلم أنه لو ألقاها في سلة المهملات في غرفته، لأغراه ذلك على التقاطها وتجميع مرقها. توهجت عينا يامادا دهشة خلف عويناته، لكنه لم ينبس بكلمة واحدة.

مرت بضعة أيام. وبدأ موضوع الرسالة الممزقة يثقل كاهل كيواكي، وأخذ رد فعله صورة الغضب. كان هذا شيئاً يفوق مجرد الشعور بالضيق، حول أن رسالة يفترض أنها قليلة الشأن تمتعت بمثل هذه القدرة على إثارة قلقه. أما ما كان معذباً فهو الإدراك الذي يستحيل تجاهله لكونه الآن قد ندم على قراره بعدم فتح الرسالة، ففي البداية، استطاع النظر إلى اتلاف الرسالة باعتباره برهاناً على قوة إرادته، ولكنه الآن يخامر الشعور بأن الأمر على العكس من ذلك، وأنه تصرف بدافع من الجبن.

عندما مزق ذلك المظروف الأبيض، الناصع، السميك، واجهت أصابعه مقاومة صلبة، ربما كما لو كانت الرسالة قد كتبت على ورق مقوى بنسيج كتاني. ولكن لم يكن تركيب الرسالة هو المهم، فهو يدرك الآن أنه لولا انبثاق قوة إرادته، لكان من المستحيل عليه أن يمزقها. ترى لم يتعين أن يستبد به الخوف؟ ما من رغبة تساوره في أن تكون له صلة على نحو مؤلم بساتوكو من جديد. إنه يمقت مجرد فكرة التورط مجدداً في هذه الغفلة العاطرة من القلق، التي تستطيع استحضارها حسبما تشاء، وخاصة الآن وقد حقق تملك ناصية نفسه من جديد. ولكن على الرغم من هذا كله، فإنه عندما كان يمزق ذلك المظروف السميك، ساوره شعور بأنه يمزق جرحاً بليغاً في بشرة ساتوكو بتألقها الأبيض اللدن.

في طريق عودته من المدرسة، في أصيل يوم سبت حار، خلال انقطاع

غير مألوف في الطقس المطير، لاحظ تحركاً نشطاً عند مدخل البوابة الرئيسية للدار. كان السيّاس قد أعدوا إحدى العربات، وراحوا يحملونها بطرد ضخّم، أوضح غلافه المتخذ من الحرير القرمزي، في التوّ، أنه هدية. أرهفت الجياد آذانها، وانتثرت خيوط من اللعاب اللامع من أخطامها، فيما هي تحقّق كاشفة عن أسنان صفراء. والتمعت معرفاتها القائمة تحت وهج الشمس الحار، كأنما لطخها الشحم، وبرزت أوردتها المنتفخة في أعناقها، تحت معرفاتها الكثة البديعة.

فما كان يهم بصعود الدرج إلى الدار، لاحت أمه مرتدية أثواباً رسمية، منتفخة، يزيّنها شعار العائلة.

قال:

- مرحباً!

- آه، مرحباً بك! إني في طريقي إلى آل أياكورا لتقديم التهاني.

- التهاني علام؟

لما كانت أمه تكره مناقشة الموضوعات ذات الأهمية أمام الخدم؛ فإنها لم تحب على الفور، وإنما اجتذبتّه إلى ركن معتم من أركان المدخل الفسيح، حيث مظلة قائمة، قبل أن تبدأ في الحديث بصوت خافت.

- صدر التصديق الإمبراطوري، في نهاية المطاف. أتود الذهاب معي؟

قبل أن يرد ولدها، لاحظت الأميرة أن كلماتها قد أثارت لمعة من السرور الخافي في مقلتيه. ومن الطبيعي أن الوقت لم يتح لها للتساؤل عن معناها. فضلاً عن ذلك، فقد كانت كلماتها التالية هناك إلى جوار المدخل برهاناً بليغاً على مدى ضآلة ما استشفته في تلك اللحظة.

قالت، وقد أسدلت على محياها قناع كآبتها:

- المناسبة البهيجة هي، في نهاية المطاف، مناسبة بهيجة، وهكذا، مهما

كان خلافاً مع ساتوكو، فالصواب الوحيد الذي يتعين القيام به في مثل هذه المناسبة هو أن تكون مهذباً، وتقدم لها التهنئة.

- أرجو أن تنقلي لها تحياتي، فلن أذهب إلى هناك.

وقف في المدخل، وراقب أمه، وهي تغادر المكان. نثرت حوافر الجياد الحصى، محدثة ضجة تشبه عاصفة فجائية، وبدأ أن شعار آل ماتسوجاي الذهبي على العربة يرتجف في الهواء، فيما هو يلتصق عبر أشجار الصنوبر الشاخنة، عند مدخل الدار، بينما العربة تبعد مخفية عن العيان. كان بوسع كيواكي أن يحس بترaxي الخدم، الذي أعقب انصراف سيدتهم، فقد تلاشى التوتر في عضلاتهم بهمود، كأنه تيهور جليدي صامت.

التفت نحو الدار، التي بدت خاوية، وقد غاب عنها الأمير والأميرة معاً. وقف الخدم، منكسي الرؤوس، في انتظار دخوله. وفي تلك اللحظة كان على يقين من أنه يحمل بذور مشكلة من الضخامة بحيث تكفي لملء فراغ الدار الهائل. ودونما اكتراث بالتطلع إلى الخدم، دخل، ومضى مسرعاً، عبر الدهليز، حريصاً على ألا يهدر لحظة واحدة في الوصول إلى غرفته، حيث يستطيع أن يعزل نفسه بعيداً عن الدنيا بأسرها.

كان قلبه يخفق بانفعال غريب، واستشعر حرارة لها لسع الحمى. بدت الكلمتان الوقورتان «التصديق الإمبراطوري» معلقتين أمام عينيه. لقد صدر التصديق الإمبراطوري. لا بد أن اتصال تاديشينا الهاتفيين والرسالة السمكية - كل ذلك شكل تحركاً أخيراً يائساً قبل مجيء التصديق. وكان الهدف منها الحصول على غفرانه للتخلص من الشعور بالذنب.

طوال ذلك اليوم، أطلق العنان لخياله، وغفل عن العالم الخارجي؛ فقد تهشمت الآن مرآة روحه الصافية الهادئة. ثارت في فؤاده عاصفة تأججت بعنفوان عاصفة استوائية، فقد هزته الآن عاطفة ضارية لا أثر فيها من

الكآبة، التي كانت جزءاً لا يتجزأ من العواطف الواهنة التي سبقتها. ولكن أي انفعال ذاك الذي يقبض على ناصيته الآن؟ لا بد أن يدعى بالبهجة، لكنها كانت بهجة مجردة من المنطق، طاعية في عنفوانها، إلى حد أنها كانت، على وجه التقريب، مفارقة لما هو أرضي.

ولو أن المرء قدر له أن يتساءل عن سبب هذا الانفعال، لكان الرد الوحيد الممكن هو أنه ينبع من الاستحالة، من الاستحالة المحض. وكما أن وتر آلة الكوتو الموسيقية، حينها يقطع بنصل حاد، يتراجع بصوت حاد مؤلم، فكذلك الحال بالنسبة للرابطة التي ضمته مع ساتوكو، حيث قطعها النصل اللامع للتصديق الأمبراطوري. وفي غمار تضاربه المتقلب، كان هذا شيئاً ساوره في أحلامه، وتطلع إليه سراً، منذ بدأ في مفارقة طفولته.

وبمزيد من الدقة، فقد بدأ الحلم في التشكل حينها تطلع إلى أعلى، وهو مسك بطرف رداء الأميرة كاسوجا، ففتنه جيدها الأبيض بحسنه، الذي لا نظير له، والذي يستعصى على المنال إلى الأبد. من المؤكد أن تلك اللحظة قد ألقت بظلالها على تحقيق آماله اليوم. استحالة مطلقة - وقد ساعد كيواكي نفسه في إحداثها من خلال التشكيل الأحادي للأحداث، في إطار ميوله كافة وكل انعطافة لمشاعره.

ولكن أي نوع من البهجة كانت هذه البهجة التي أحسها؟ لقد خلب شيء ما فيها له، كان ثمة شيء رهيب فيها حافل بالتهديد. لقد سبق له، منذ زمان بعيد، أن قرر الاعتراف بعواطفه وانفعالاته باعتبارها الحقيقة الوحيدة التي ترشده، وأن يعيش حياته وفقاً لذلك، حتى ولو كان معنى ذلك ضرباً متعمداً بلا هدف يجري. وقد دفعه ذلك المبدأ الآن نحو مشاعر بهجته الرهيبة، التي بدا أنها حافة دوامة متلاطمة مندفعة. وبدا أنه لم يبق شيء إلا أن يلقي نفسه في رحابها.

فكّر من جديد في نفسه وفي ساتوكو، قبل كل هذه السنوات، وهما ينسخان الأشعار من كتاب «المائة شاعر»، خلال تمريناتها على الكتابة. كان ينحني على اللقيفة، محاولاً استنشاق أثر من عبق ساتوكو، الذي ربما كان قد بقي منذ ذلك اليوم، قبل أربع عشرة سنة. وفيما هو عاكف على هذا اشتم رائحة بخور ليست بعيدة عن الفطر، شيء واهن، وناء، لا يزال يستحضر مثل هذا الحنين العارم الذي استشعر أنه قد عرّى مصدر انفعاله بأسره، مجرد من الهدف وفي الوقت نفسه مندفع بعنف عارم.

كانت كل قطعة من قطع حلوى الأمباطورة، التي تعطي جائزة للفائز في لعبة السوجوروكو، قد صيغت على شكل الشعار الأمباطوري. وحينما تقضم أسنانه الصغيرة زهرة الأقحوان الأرجوانية، فإن لون بتلاتها يتكشف قبل أن تذوب، ويلمس من لسانه فإن الخطوط المرسومة برقّة لزهرة الأقحوان البيضاء الباردة اضطربت وانحلت إلى سائل حلو. عاد كل شيء إليه - غرف دارة أياكورا المعتمة، الستائر البلاطية المجلوبة من كيوتو، بزخرفتها من الزهور الخريفية، السكون الوقور الذي يسود الليالي، انفتاح فم ساتوكو في تناؤب خفيف، شبه محتجب وراء انسياب شعرها الأسود - عاد كل شيء، تماماً كما عايشه وقتها، بكل جماله المتوحد. ولكنه أدرك أنه يقر الآن ببطء فكرة واحدة لم يسبق له أن تقبلها.

دوى شيء ما في أعماق كيواكي ، كأنه نداء نفير: إنني أحب ساتوكو. وأياً كانت رؤيته لهذا الشعور، فقد عجز عن تجريح صحته، على الرغم من أنه لم يسبق له أن عايش شيئاً يضاهيه. ثم أطلق كشف آخر العنان لفيضان رغبة، كبج جماعها طويلاً: إن الرهافة تضرب صفحاً عن الضوابط، بل عن أقصى الضوابط. كانت دوافعه الجنسية، البعيدة عن الثقة بذاتها، حتى ذلك الوقت، تفتقر على وجه الدقة إلى مثل هذا الاندفاع القوي. لقد استغرق وقتاً طويلاً واقتضى جهداً كبيراً للعشور على دوره في الحياة.

حدّث نفسه قائلاً: «الآن، أخيراً، أجديني على يقين من أنني أحب ساتوكو». وكانت استحالة تحقق هذا الحب برهاناً كافياً على صحة اقتناعه. لم يكن بوسعه البقاء ساكناً، فنهض من مقعده، ثم جلس من جديد. كانت خواطره على الدوام مוגلة في كآبتها وقلقها، ولكن اكتسحته دفقة من حيوية الشباب. أحس أن كل شيء مرّ به كان وهماً، فقد سمح لحساسيته واكتثابه بأن يسيطرا عليه، ويكبجا جماعه.

فتح النافذة، وتهد بعمرق فيما هو يقف متأملاً البحيرة، التي التمع سطحها تحت سنا الشمس الباهر. اشتّم عبق الزولكوف الغض. وفي وسط السحب، التي راحت تتجمع على أحد جانبي تل القيقب، لاحظ بادرة تآلق، دلته على أن الصيف قد أقبل أخيراً. توهج خداه، وتآلقت عيناه، فقد أصبح شخصاً جديداً، يبلغ على الأقل التاسعة عشرة من عمره.

أسلم نفسه لأحلام يقظة مفعمة بالعاطفة، فيما كان ينتظر بصبر نافذ عودة أمه من دار آل آياكورا، فلم يكن وجودها هناك متناسباً مع خطته، على الإطلاق. لم يطق مزيداً من الانتظار، فخلع عنه زيه المدرسي، وارتدى كيمونو مزخرفاً على طريقة ساتسوما مع هاكاما، ثم استدعى أحد الخدم، وأمره بجعل عربة ريكشو تنتظره.

غادر عربة الريكشو، متبعاً خطته، في أوياما، ٦ شارع تشومي حيث المحطة النهائية للحافلات التي تمضي إلى روبونجي، ركب الحافلة حتى نهاية المسار. عند منعطف في روبونجي، حيث يلتوي الطريق إلى توريزاكا، انتصبت ثلاث أشجار زيلكوفا عملاقة، هي باقي الشجرات الست التي منحت حي روبونجي اسمه. تحتها، ومثلما كان العهد قبل أن توجد الحافلات في طوكيو، ثبتت لافتة ضخمة، تحمل الكلمتين «موقف ريكشو» مكتوبتين على عجل، وتجمع في انتظار الزبائن رجال العربات معتمرين قبعات مخروطية من القش ومرتدين سترات قصيرة وسراويل زرقاء.

استدعى كيواكي أحدهم، ونفحه على التوبعية سخية، وأمره بأن يمضي به في الحال إلى دارة آياكورا، التي لم تكن تبعد أكثر من مسيرة بضع دقائق على الأقدام. لم تكن بوابة دارة آياكورا العتيقة لتسع لمرور عربة آل ماتسوجاي الانجليزية، وهكذا فإذا كانت لاتزال منتظرة في الخارج والبوابة مفتوحة، فإنه سيعلم أن أمه مازالت في الداخل، أما إذا كانت قد مضت

وأوصدت البوابة، فبمقدوره الافتراض دونما مغامرة بالتعرض للخطأ بأن أمه قد أدت التزاماتها المراسيمية، ورحلت.

عندما مرت عربة الريكشو بالبوابة، ألقاها موصدة، وتعرف في الطريق خارجها الآثار التي خلفتها العربة.

أصدر تعليماته لرجل عربة الريكشو بالعودة به إلى قمة توريزاكا. وعندما وصلا إلى هناك، أرسله مترجلاً إلى تاديشينا، بينما انتظر هو مستفيداً من الغطاء الذي كفلته له الريكشو.

تبين له أن عليه الانتظار طويلاً، ومن خلال شق في جانب الريكشو راح يتأمل أشعة شمس الصيف الغاربة وهي تغمر الأوراق الحديدية المقدسة في أطراف الأغصان. بدا أنها على مهل تغمس هذه الأوراق في ألق سائل. شمخت شجرة بنية ضاربة إلى الحمرة متمعلقة فوق السور الطوي الأحر الذي يدور مع حافة منحدر توريزاكا. ذكرته أوراقها العليا بوكر طير أبيض زينه تاج رهيف التشابك من الزهور يعلوه لون أحمر وردي. وفجأة، راح يفكر في ذلك الصباح الثلجي في شهر فبراير، ودونما سبب ظاهرة، أخذته هزة ملوؤها الانفعال. ومع ذلك فلم يكن مقصده هو فرض لقاء فوري على ساتوكو، فيما أن العاطفة وجدت الآن مساراً محدداً، لم يعد عرضة للوقوع في قبضة كل اندفاع انفعالية جديدة تعتريه.

أقبلت تاديشينا من مدخل جانبي، يتبعها سائق الريكشو. وعندما بلغت العربة، دفع كيواكي سقفها إلى الوراء، ليكشف عن وجهه، وعلى هذا النحو أخذها على غرة حتى لم يعد بوسعها إلا الوقوف هنالك وقد فغرت فاهاً أمامه. مدّ يده، وأمسك يدها بقوة، وأصعدها إلى الريكشو.

- لديّ ما أحدثك به. دعينا ننتقل إلى مكان نستطيع الحديث فيه آمين.

- ولكن، يا سيدي . . . هذه مفاجأة كبيرة! لقد رحلت والدتك الأميرة قبل دقائق قلائل، ثم إننا نعد الليل لاحتفال غير رسمي . . . إنني مشغولة للغاية حقاً.

- لا عليك! هلم وأخبري الفتى بالمكان الذي يتعين عليه أن يقصده بالريكشو!

لما كان كيواكي قد واصل قبضته الحازمة على ذراعها، لم يكن أمامها من خيار إلا الإذعان .
قال لسائق الريكشو:

- إمض نحو كاسوميتشو! قرب الرقم ثلاثة هناك طريق يمضي منحدرًا، وينعطف نحو البوابة الرئيسية لثكنات الفوج الثالث. خذنا إلى سفح المنحدر فحسب، لطفًا!

ترنحت الريكشو، وهي تنطلق إلى الأمام، وراحت تاديشينا تحديق أمامها بتركيز مترع باليأس، وهي تعيد إلى موضعها في عصبية شعرة نافرة من شعرها. كانت تلك هي المرة الأولى التي يجد فيها نفسه قريباً على هذا النحو من هذه العجوز بقناعها السميك الأبيض من الذرور، وكانت التجربة أبعد ما تكون عن إدخال السرور على نفسه. ومع ذلك، لم يستطع الحيلولة دون ملاحظة أنها أشد ضالة مما كان قد تصور، بل في حقيقة الأمر توشك ألا تتجاوز كونها قزمة. وفيما الريكشو تقلقها، واصلت الغمغمة بسيل لا ينقطع من الاحتجاج يمكن بالكاد فهمه.

قالت:

- فات الألوان، فات الألوان . . . أياً ما كان الأمر، فقد فات الألوان.

ثم أضافت:

- لو أنك أرسلت لي كلمة في معرض الرد فحسب . . . قبل أن يقع هذا. آه، لماذا . . . ؟

لم يمر كيواكي رداً، وهكذا قالت أخيراً شيئاً عن وجهتها قبيل الوصول إلى هناك:

- أحد أقاربي من بعيد يدير فندقاً للجنود غير بعيد عن هنا. ليس بالمكان الفخم، ولكن ملحقاتاً به يتاح على الدوام، وسيسمح لي هذا الملحق بالاستماع إلى ما يرغب السيد الشاب في قوله بعيداً عن الأذان.

الغد هو الأحد، وفيه يتحول رويونجي فجأة إلى حي هو بمشابة ثكنة صاخبة، وتزدحم شوارع الحي بالجنود في زهم الكاكي، والكثيرون منهم يقومون بنزهة مع عائلاتهم. ولكن الوقت كان أصيل السبت، ولم يحدث هذا التحول بعد. وفيما الريكشو تحمله عبر الشوارع نحو مقصد تاديشينا، ساوره شعور بأنه في ذلك الصباح الثلجي كذلك اجتاز مع ساتوكو أولاً هذه البقعة، ثم بقعة أخرى. وفيما وصل إلى الاقتناع بأنه قد تذكر المنحدر الذي هبطاه، أمرت تاديشينا الرجل بالتوقف.

كانوا أمام فندق عند سفح المنحدر، يرتفع جناحه الرئيسي ليلبغ الطابقين، وعلى الرغم من أنه لم يكن له بوابة أو دهليز للمدخل فقد أحاطت به حديقة رحة يلفها سور عريض.

وقفت تاديشينا خارج السور، وتطلعت إلى الطابق الثاني من المبنى الخشبي الخشن. لم تكن هناك أية معالم للحياة فيه. وكانت الأبواب الزجاجية الستة التي تواجه المدخل موصدة، ولم يلح شيء مما بداخل الفندق للعيان، وعكست الألواح الزجاجية ذات النوعية المتواضعة في الباب المزخرف بالأشكال الخشبية السماء التي جللها المساء بطريقتها الخاصة الملتوية، بل وانعكس عليها نجار يعكف على العمل فوق سطح مجاور، وشوهدت صورته، كأنها تنعكس على صفحة ماء. وبدت السماء هناك مضية مكسوة بكآبة بحيرة غشاها المساء.

- سيكون الأمر محرجاً لو أن الجنود كانوا قد عادوا، لكن الضباط وحدهم يحصلون على غرف هنا.

قالت تاديشينا، فيما هي تدفع باباً متقارب الزخارف الخشبية، علقت عليه أيقونة ربة الأطفال، ثم نادى معلنة حضورهما.

ظهر رجل طويل القامة، أشيب الشعر، كان على حافة الشيوخوخة.
- آه، الأنسة تاديشينا! أقبلي لطفاً!

قالها الرجل، بصوت يشبه الصرير، على نحو ما.
- هل الملحق خال؟
- نعم، نعم، بالطبع.

مضى ثلاثتهم، عبر الدهليز الخلفي، إلى مؤخرة الفندق، وولجوا غرفة صغيرة، ربما لا تتجاوز مساحتها عشرة أقدام مربعة، من النوع الذي يستخدم غالباً في اللقاءات الغرامية المختلسة.
قالت تاديشينا:

- ليس بوسعي البقاء وقتاً طويلاً للغاية. وفضلاً عن ذلك، ولكوني وحيدة على هذا النحو مع شاب وسيم، هكذا، لست أدري ما عسى أن يتقوله الناس.

هكذا، تحدثت فجأة، على نحو عرضي، متغنج، مخاطبة كيواكي والفندقي العجوز.

كانت الغرفة مرتبة، على نحو مريب. تدلت لفافة صغيرة تناسب حفل شاي، في ركن صغير، بل وكان هناك ستار منزلق، يحمل صورة من حكاية

جينجي^(١). كان المناخ مختلفاً تماماً عما يتوقعه المرء من المظهر الخارجي، وهو مظهر نزل رخيص يرتاده رجال الجيش.

- ما الذي ترغب إذن في قوله لي؟

تساءلت تاديشينا، بمجرد انسحاب الفندق. وعندما لم يحرك كيواكي رداً، كررت سؤالها، دون أن تبذل مزيداً من الجهد لإخفاء ضيقها.

- ما هي جلية الأمر؟ ولم اخترت هذا اليوم من بين الأيام جميعاً...؟

- لأن الأمر مناسب هكذا. أريدك أن ترتبي لقاء بيني وبين ساتوكو.

- ماذا تقصد أيها السيد الشاب؟ لقد فات الأوان. وبعدها حدث كيف

يمكن أن تطلب شيئاً كهذا؟ من الآن فصاعداً ليس هناك ما يمكن القيام

به. ينبغي أن يتم كل شيء، حسبما يروق للإمبراطور. والآن تطرح هذا-

بعد كل تلك المكالمات الهاتفية والرسالة التي بعثت بها إليك! لم تر من

المناسب أن تدلي بأي رد، كائناً ما كان. واليوم تطلب شيئاً كهذا! ليس

الأمر بالهزل.

- ما عليك إلا أن تتذكري هذا: كل ما وقع كان بسبب غلطتك.

(١) حكاية جينجي: أول رواية يابانية كاملة لا تزال بين أيدينا، مؤلفتها هي شيكاريو مورا ساكي (٩٧٨ - ١٠١٤ تقريباً) وهي سليلة عشيرة فوجيوارا القوية، عملت بالبلاط الهابني، بعد وفاة زوجها. وبعد العمل، الذي يقع في طبعة «بنجوين» الانجليزية فيما يتجاوز خمسمائة صفحة، من الروائع الكلاسيكية للأدب الياباني، ويصور حياة هيكاو جينجي، الأمير الوسيم، اللامع، الذي لا مثيل له، ويسجل غرامياته، وكذلك سقوطه من عليائه في نهاية عمره. وفي سمت العمل، يصبح جوهره هو الصراع بين العواطف الانسانية والبحث عن الحقيقة. ونحن نجد في عدم ترجمة هذا العمل الى اللغة العربية، حتى الآن نموذجاً آخر لقصور وعدم تكامل واختلال حصيلة المترجمات الى اللغة العربية من الاعمال الكلاسيكية في الآداب الشرقية.

(هـ. م.)

قالها كيواكي، بأقصى ما يستطيع من كبرياء، محدقاً في الأوردة، التي لاحت تدر تحت الذرور الذي يكسو جبين تاديشينا. اتهمها غاضباً بأنها بعد السماح لساتوكو بقراءة رسالته كذبت عليه، في وقاحة، حول هذا الأمر، وبأنها بثت تخرصات خبيثة، أفقدته تابعه المخلص إنوما. وأخيراً احتالت تاديشينا لنفسها بالانفجار باكية، وراحت تعتذر في خنوع جاثية على ركبتيها.

انترعت منديلاً ورقياً، من ردن الكيمونو، الذي ترتديه، وشرعت في تجفيف عينيها، مزيلة الذرور الأبيض حولها، ليتكشف دفق التجمعات الحمراء فوق عظمي وجنتيها، وهو البرهان الذي لا تحطئه العين لدنو الموت. لم يكن هناك على وجه التقريب أي فارق في التركيب بين ذلك الجلد المجعد والمندبل الورقي المثني، الذي لطخه أحمر الشفاه. وفي نهاية المطاف، شرعت في الحديث، وهي تحدق في الفراغ:

- صحيح. الأمر كله يعود إلى غلطتي. اعلم أنه ما من قدر من الاعتذار يمكن أن يعوّض عما أتيت، لكني ينبغي أن أعتذر لسيدتي أكثر مما اعتذر لك؛ فقد كان خطأ تاديشينا المحزن هو أنها لم تنقل للسيد الشاب، على وجه الدقة، طبيعة مشاعر ساتوكو، وكل ما أعددت له بعناية بالغة، متدبرة الأمر على أفضل أوجهه، أصابه الفشل على نحو ذريع. أرجو أياً السيد الشاب أن تفضل بالتذرع بالصبر معي للحظة. تحيّل حزن الأنسة ساتوكو عندما قرأت رسالتك، وفكر في ذلك القدر من الشجاعة الذي اقتضاه الأمر منها لتحجب أي مؤشر لذلك الحزن عندما قابلتك، ثم بعد أن قررت العمل بنصيحتي وتوجيه سؤال مباشر إلى سمو الأمير أبيك، تصوّر مدى عمق ارتياحها عندما علمت بالحقيقة منه في حفل العام الجديد العائلي. وبعد ذلك لم تكن تفكر صباحاً ومساءً في شيء إلا في السيد الشاب، إلى أن مضت أخيراً إلى حد توجيه تلك الدعوة إلى القيام بنزهة

عبر الجليد في ذاك الصباح، مهما كان قدر الاحراج، الذي قد يكلفها ذلك بحسبانها امرأة. ولبعض الوقت، عقب ذلك، سادها الشعور بالسعادة طوال اليوم، بل وراحت تهمس باسمك في منامها. لكنها أدركت أنها من خلال عطف سمو الأمير عليها ستخطب لأحد أبناء العائلة الأمباطورية ذاتها، وعلى الرغم من أنها كانت تعلق الآمال على قرارشجاع منك، وتعتمد عليه كل الاعتماد، فلإنك لم تفه بكلمة واحدة، أيها السيد الشاب. . وتركت الأمور تجري في أعنتها. أصبح قلق الأنسة ساتوكو وعذابها مما يتجاوز القدرة على الإفصاح. وأخيراً، عندما غدا إصدار التصديق الأمباطوري وشيكاً، قالت إنها كأمّل أخير ترغب في أن تبلغك بحقيقة شعورها، وعلى الرغم من كل توسلاتي، قررت أن تكتب رسالة تحت اسمي. ولكن هذا الأمل أيضاً لفظ أنفاسه الأخيرة، وكانت الأنسة ساتوكو على وشك اعتبار الأمر كله شيئاً ينتمي إلى الماضي. وهكذا، فإن طلبك اليوم هو تجسيد للقسوة. وكما تعلم، فقد ربيت سيدتي منذ الطفولة على توفير رغبات سمو الأمباطور، وليس بمقدورنا أن نتوقع تراجعها الآن، فقد فات الأوان. . . ببساطة فات الأوان. إذا كان غضبك لم يحمّد، فاضرب تاديشينا، الطمها، قم بما هو ضروري لتهدئة قلبك. ولكن ما من حل هناك، لقد فات الأوان.

فيما هو يصغي إلى حديث تاديشينا، اخترمته زجفة بهجة، كأنها السكين، غير أنه أحس في الوقت نفسه، على نحو ما، بأنه يعرف كل ذلك بالفعل، وأنه يسمع أشياء تكرر، كانت جلية في فؤاده. الآن ألقى نفسه وقد تملكك ناصيته حكمة جارفة ما كان ليعتقد بوجودها من قبل قط. وإذا تقلد أسلحته على هذا النحو، أحس بأنه من القوة بحيث يتغلب على كل ما تطرحه الدنيا من عقبات. امتلأت عيناه بوهج الشباب، وراح يحدث نفسه: «قرأت الرسالة التي توسلت إليها لتحرقها، لم لا أعيد إلى الحياة رسالتها التي مزقتها إرباً؟»

حدّق ، صامتاً ، وبتركيز بالغ ، في العجوز الضئيلة ، ذات الوجه المكسو بالذرور . مرة أخرى رفعت منديلها الورقي نحو عينيها المحمرتين . كانت الغرفة تزداد إعتاماً ، مع هبوط المساء . بدا كتفاها المتهدلتان هزيلتين للغاية ، حتى لقد استشعر يقيناً بأنه إذا أمسك بهما فجأة فإن العظام ستداعى محدثة قرقرة جوفاء .

- لم يفت الأوان بعد .

- لكنه فات وانقضى .

- لا ، لم ينقض . أتساءل عما سيحدث إذا ما أطلعت عائلة الأمير الأمبراطوري على رسالة ساتوكو الأخيرة؟ وخاصة عندما يأخذ المرء في الاعتبار أنها كتبت بعد الطلب الرسمي المقدم للحصول على التصديق الأمبراطوري .

عند سماع هذه الكلمات ، غاض الدم ، فجأة ، من وجه تاديشينا . لم يفه أحدهما بحرف ، لوقت طويل . لم يعد ما يضيء النوافذ متمثلاً في أشعة الشمس الغاربة ، وإنما الأضواء الصادرة عن غرف الطابق الثاني من المبنى الرئيسي ، فقد أخذ النزلاء في العودة . وبين الفينة والأخرى يلتمع زي كاكي عند هذه النافذة أو تلك . خارج السور ، راح بائع فاصوليا ينفخ في بوقه . اتشح هواء المساء بالدفء المعتدل ، شأن الدفء النابع من ملابس صوفية ، الذي يميز أيام الصيف القليلة ، التي تسبق نهاية موسم المطر .

بين لحظة وأخرى ، كانت تاديشينا تهمس لنفسها بشيء لم يسمع كيواكي إلا مقاطع عابرة منه : « لهذا السبب حاولت منعها . . . لهذا السبب قلت لها ألا تفعل ذلك » . بدا جلياً أنها تغمغم بكلمات حول معارضتها لقيام ساتوكو بكتابة تلك الرسالة الأخيرة .

احتفظ بصمته ، بثقة متزايدة بأنه يمسك الورقة الراححة بيده . بدا أن وحشاً برياً راح يطل برأسه تدريجياً وإن كان على نحو ظاهر بداخله .

قالت تاديشينا:

- طيب، إذن، سأرتب لقاء واحداً فحسب. والآن كلي ثقة في أن السيد الشاب سيتعطف بإعادة الرسالة.

رد كيواكي:

- رائع. ولكن اللقاء في ذاته ليس كافياً. أريد أن نلتقي بمفردنا، دون أن تكوني هناك. أما فيما يتعلق بالرسالة فسوف أعيدها فيما بعد.

انقضت ثلاثة أيام . لم يكف المطر عن المطول . بعد انتهاء اليوم الدراسي ، مضى كيواكي إلى ذلك النزل في كاسو ميتشو ، مخفياً زيه المدرسي تحت معطف وافي من المطر . كان قد تلقى رسالة من تاديشينا تشير إلى أن اليوم ستتاح فرصة ساتوكو الوحيدة لكي تنسل من الدار حيث سيتغيب أبواها .

أحس كيواكي بالتردد في نزع المعطف الواقى من المطر ، حتى بعد أن مضى به الفندقى إلى الملحق . وقد لاحظ صاحب المنزل هذا ، فيما هو يصب له شاي ، فقال له مؤكداً :

- أرجو أن تحس بالراحة التامة ، يا سيدي ، فليس هناك ما يدعو إلى القلق مع وجود شخص مثلي تحلى على الدنيا وشؤونها .

غادره صاحب النزل ، فتطلع في أرجاء الغرفة ، ولاحظ أن المصراع المصنوع من الخيزران منسدل الآن على النافذة ، التي كان قد تطلع خلالها في المرة الماضية إلى الطابق الثاني من الجناح الرئيسي . أوصدت النوافذ لإبعاد المطر ، فملأت الغرفة حرارة رطبة قاهرة . عندما فتح في تكاسل عتبة مطلية باللك ، موضوعة على القمطر ، ألقى داخلها مكسواً بقطرات من الرطوبة .

علم أن ساتوكو قد وصلت حينما سمع حفيف ثياب وصوت همسات تنتهى من الناحية الأخرى للباب المنزلق .

فتح لوح الباب، وانحنت له تاديشينا انحناء عميقة دون التفوه بكلمة، وتركت ساتوكو تلج الغرفة، وأسرعت بإغلاق لوح الباب مجدداً. وقبل أن تدفع الباب لينزلق إلى موضعه تألقت عينها المرفوعتان للحظة بياضها، في عتمة الظهيرة المتقدة، في الدهليز، كأنها عينا سبيدج.

جلست ساتوكو على الأرض، المكسوة بالحصير أمام كيواكي، وقد ضمت ركبتيها في احتشام. أحنت رأسها، وأخفت وجهها بمنديل، تاركة اليد الأخرى تستقر على الأرض. كان جسمها متيحاً جانباً، بحيث تألقت فتحة عنقها بالبياض، كأنها بحيرة صغيرة، مما قد يصادفه المرء في الجبال.

جلس أمامها في صمت، وقد داخله شعور بأنها يغمرهما كليهما المطر المنهمر على السقف. لم يستطع إلا بالكاد تصديق أن اللحظة قد حانت في آخر الأمر.

خانت الكلمات ساتوكو، وكان هو الذي وصل بها إلى هذا. كان أشد آماله توهجاً أن يراها وقد انحدرت إلى هذا الوضع، وتجردت من القوة، التي منحها لها كونها أكبر منه سناً، على إمطار بهذه العظاات الصغيرة التي كانت مولعة بها أشد الولع، فغدت عاجزة إلا عن سفح الدمع الصامت. وفي هذه اللحظة، كمنت فيها جاذبية لا تقاوم، بالنسبة له، وهي في كيمونوها، الذي يحمل لون الويستريا البيضاء، ولكنها لم تكن جاذبية جائزة قيمة استقرت في قبضته أخيراً فحسب، وإنما كانت أيضاً سحر ما هو محرم، وما لا سبيل إلى نواله على الإطلاق، والمحظور. أرادها على هذا النحو دون سواء. ومن ناحية أخرى، كانت هي نفسها على الدوام التي أرادت الاخلال بتوازنه من خلال الايغال في التلاعبات. لشد ما تغيرت الأمور الآن! كان بمقدورها أن تتخذ هذا الوضع الجميل والمقدس والمعصوم، ولكنها فضلت على الدوام الدور الزائف للأخت الكبرى، مغرقة إياه بذلك التلطف الذي يمحته أشد المقت.

أدرك الآن السر في اعتراضه، بمثل هذه القوة، على اقتراح أبيه أن يعرفه بالمسرات التي تمنحها نساء يوشيوارا. فتماماً كما يستطيع المرء رصد تحركات الخادرة داخل شرنقة، كان قد استشرّف دائماً التقطر التدريجي لجوهر مقدس على نحو لا سبيل لانتهاكه بالحديث مع ساتوكو. وما كان بمقدوره أن يمنح براءته إلا لذلك الجوهر وحده. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً سيشرع فجر من تألق لا سبيل إلى تخيله من غمر عالم الكآبة السوداء البدائية الذي سجن نفسه فيه.

أصبحت الرهافة، التي امتصها منذ طفولته تحت إشراف النبيل أياكورا، الآن، خيطاً حريراً في يديه، أنشودة لبرائه ولعصمة ساتوكو. الآن، وجد أخيراً استخداماً مناسباً للحبل المتألق، الذي حير الغرض منه طويلاً.

كان على يقين من أنه يهوى ساتوكو. وهكذا تقدم على ركبته، وأمسك كتفها بقوة، فأحس بهما تتوتران، وهما تقاومان قبضته. أبهجه هذا الصد الحازم. كانت تلك مقاومة على مستوى شامخ، طقوس مقاومة ذات مغزى كوني. كانت الكتفان اللدنتان اللتان أثارتا مثل هذه الرغبة في أعماقه تقاومانه بقوة، تستند إلى ثقل التصديق الأمبراطوري، ولهذا السبب عينه كانت لهذه المقاومة القدرة المتميزة على إثارة جنونه، وجعلت أطراف أصابعه تنبض بوجع الرغبة المحمومة. كان لشعرها الفاحم، الضائع بالعطر، والمصفف بعناية، والمراكم بخفة فوق جبينها، لمعان كامل التجسد. وإذ لمح له لفترة وجيزة على مثل هذا القرب ذكره بفقدان الطريق في غابة ذات ليلة مقمرة.

دنا بوجهه من وجنة نذاها الدمع، هربت من حماية منديلها. شرعت، وهي لاتزال على صمتها، تهز رأسها، في محاولة لإبعاده، ولكن تملصاتها كانت آلية تماماً حتى لقد عرف أنها ما كانت نابعة من قلبها، وإنما مفروضة

من الخارج. نَحَى المندبل جانباً، وحاول تقبيلها، ولكن فيما كانت شفتها راغبَتين في ذلك الصباح الجليدي من شهر فبراير، قاومتاه الآن بضراوة، وفي النهاية أحتت رأسها، ومثل عصفور وليد غاف جُمَدَت ذقنها مدفونة في عنق كيمونها.

ارتفع صوت انهمار المطر. واصل الإمساك بها، وتوقف لتقدير قوة دفاعاتها. كان كيمونها، الذي زخرفت ياقته بتصميم يأخذ شكل أشواك الصيف، مضموماً على نحو يوحى بالعفة عند العنق، كاشفاً عن مثلث ضئيل من الجلد. كان زنارها العريض الملفوف بإحكام بارداً وصلب الملمس، كأنه الباب يحول دون ولوج قدس أقداس. وفي الوسط هنالك تآلق مشبك ذهبي كأنه رأس مسمار مزخرف في عمود من أعمدة فناء معبد. ورغم ذلك فقد ضاع جسمها بالعقب الحار للحم الانشوي، وانسل ذلك العقب من فتحات الرदन الداخلية عند كتفها خارجاً من ردني الكيمونو الواسعين، فبدأ مثل نسيم دافئ يمس وجته.

أبعد إحدى يديه عن ظهرها، وأمسك ذقنها في إحكام، استقرت هنالك في نعومة كأنها قطعة شطرنج صغيرة، مستديرة، عاجية. بلل الدمع أنفها، واختلجت فتحة أنفها. وعلى هذا النحو قبلها كما ينبغي للتقبيل أن يكون.

بدأت، فجأة، كما لو التهمت نار غامضة، تماماً كاللهب المتقد في موقد يتوهج بمزيد من الضراوة حينما يفتح الباب، الآن تحررت يداها كلتاها، فضغطت بهما على وجنتي كيواكي، دافعة بقوة، لكن شفتيها ظلتا على شفتيه على الرغم من انها حاولت إبعاده، غير أنها، نتيجة لمقاومتها، واصلت شفتها بليوننة سائلة تستعصي على التصديق فوصلت به إلى حواف الثمل، الأثناء مرة في هذا الاتجاه وأخرى في الاتجاه المقابل حيال شفتيه.

راحت الحافة الصلبة لتصميمها تمنع في الذوبان مثل قطعة من السكر في شاي ساخن، والآن بدأ ذوبان رائع العذوبة في الاندياج.

لم تكن لديه أية فكرة، على الإطلاق، عن الكيفية التي يحل بها زنا امرأة. تحدى قوس الزنار المثبت في إحكام، والمتسع باتجاه الخارج عند ظهرها، جهود أصابعه، ولكن، فيها هو يتلمس على نحو عشوائي محاولاً فكك عنوة، مدت يدها وراءها، وفيها هي تبدي كل إمارات محاولتها في بأس كبح جماح محاولاته المتعمرة، قادت أصابعه على نحو مراوغ في اتجاه أكثر جدوى. تشابكت أصابعها للحظات، قابضة في طيات الزنار، ثم فيما مشبكته يتهاوى فجأة، تداعى فاقداً طياته، في حفيف حريري، متساقطاً عن جسمها، كأنما دبّت فيه حياة خاصة به، كان ذلك بداية احتياج مضطرب من الحركات، التي لا سبيل إلى السيطرة عليها. تتأرجح كيمونوها بكامله، متمرداً، فيها هو يجذب الطيات الحريرية، التي تلف ثدييها، فتصده عند كل خطوة شبكة كاملة من المشدات، التي تزداد إحكاماً، فيما تنهاوى غيرها. ولكن عندئذ وأمام عينيه مباشرة رأى المثلث الضئيل المحمي جيداً، المؤلف من البياض دون عنقها ينتشر متحولاً إلى مدى وافر وضائع بالعطر من البشرة.

لم تنبس بكلمة اعتراض واحدة بالفعل. لم يكن هناك ما يبرهن على ما إذا كان ذلك مقاومة صامتة أم إغواء ساكناً. بدا أنها تجتذبه إليها، في الوقت نفسه الذي تنافحه عن نفسها، غير أنه أحسّ بأن القوة الكامنة في قرار هجومه على عصمتها القدسية لم تكن قوته هو وحده بصورة تامة.

فماذا كان مصدرها إذن؟ فيها هو يتطلع إلى وجهها، فاض تدريجياً باللون الأرجواني، ولم يكن هناك مجال للخطأ فيما يتعلق برغبتها. وضع يده خلف ظهره لتستند إليه، وأحس بها تركز عليها بمزيد من القوة، وإن كان

ذلك في مراوغة يوشيهما الحفر، إلى أن تهاوت على الأرض. وكأنما فقدت كل أمل في المقاومة.

باعد ما بين أطراف كيمونوها السفلية، وشرع ينحني جانباً حريـر يوزين المطبوع، الذي حيكـت منه ملابسها الداخلية، في تشابك متآلق من الزخارف المتداخلة وطيور العنقاء المتألقة، المحلقة عالياً، فوق تكوينات مؤسـلبة للسحاب، اجتذبتـه رؤية نائية لفخذيها، وقد التـفا في طية وراء الأخرى من الحرير، فيما هويشـق طريقه بعناء خلال المزيد والمزيد من طبقات السحب. كان خيط سري خفي يـبقى على نحو ماكر، على تماسك تلك الأردية المعقدة، التي راح يضطرب معالجاً إياها، وظل المفتاح المؤدي إلى هذا الخيط يراوغه، فيما تنفسه يزداد خشونة واضطراباً.

غير أنه، في نهاية المطاف راح يقترـب أكثر فأكثر من جسدها مدلياً نفسه في بـطء بين فخذيها اللذين كان لهما الألق الخافق الذي يميز أفقاً شاحباً مسّته يد الفجر، وعندها رفعت يديها، وراحت تساعد في رفعه. قضت هذه الرقة المقصودة على اللحظة، ففي تلك الثانية عندما تـوحد مع الفجر، سواء أكان قد مسها أم لم يمـسها، انتهى كل شيء فجأة.

رقدا أحدهما إلى جانب الآخر، على الأرض المكسوة بالخصير، وهما يحقدان في السقف. إنهمر المطر مدراراً من جديد، ومضى يلطم السقف، لم يكـد خفق فؤاديهما يعرف التراجع. استشعر كيواكي صفاء لم يتجاوز شعوره المؤقت بالإجهاد فحسب، وإنما كذلك إدراكه أن شيئاً قد انتهى. غير أن شعوراً متأرجحاً بالندم المشترك كان لا يزال يخيم عليهما، جلياً كأنه الظلال التي شرعت في التشكل تدريجياً، في الغرفة الآخذة في الإعتام. ظن أنه سمع صوت عمجوز تتنحـنح، على الجانب الآخر من لوح الباب، غير أنه فيما كان يهم بالنهوض، مدت ساتوكو يدها لتوقفه بقبضة رقيقة على كتفه. وعندئذ، دون أن تنبس ببنت شفة، بددت كل أثر من آثار النوم،

فأسعده أن يحذو حذوها. ومنذ تلك اللحظة، لم يبق شيء ليس بوسعه أن يغتفره لها.

كان في شرخ الشباب، وسرعان ما بعثت رغبته من مرقدها، وفي هذه المرة كانت أكثر استجابة، ومضى كل شيء في رقة وسلاسة. وبارشادها الأنشوي المتمكن أحس للمرة الأولى بأن كل العقبات قد زالت، وأنه قد ألفى نفسه في عالم جديد مترف. وفي غمار حرّ الغرفة، نزع آخر قطعة من ملابسه، وأحس الآن بحميمية اللحم على اللحم، متهاسكاً ومعطاء رغم ذلك، مع المقاومة التي يبديها الماء والنباتات المائية لمقدمة الزورق الموغل فيه. رأى أن ليس في محياها أدنى أثر للأسى، بل وراحت تبتسم قليلاً، لكن ذلك لم يفعم نفسه بالهواجس الآن، فقد امتلأ قلبه بالطمأنينة.

ففي وقت لاحق، احتضنها، وقد تشعث شعرها، بين ذراعيه، وضغط وجنته على وجنتها، مستشعراً نداوة الدمع المنهل. لتوه. كان يعلم أن تلك هي دموع البهجة، ومع ذلك ما كان لشيء آخر أن ينقل على نحو أفضل وفي صمت وعيها المتبادل بأنها ارتكبا خطيئة لا مجال لاغتفارها أكثر من دموعها المنهلة على وجنته ووجنتها. أما بالنسبة لكيواكي فإن هذا الشعور بالخطيئة زاد من شجاعته، التي راح مدّها يعلو.

قالت، ملتقطه قميصه:

- هاك! فلن يفيدك أن يصيبك البرد.

فيما كان يوشك على انتزاعه في خشونة منها، راحت تتفحصه للحظة، وضمته إلى وجهها، وهي تتنفس بعمق. وعندما أسلمته له كان مبللاً بالدموع.

حينما ارتدى زي المدرسي، وانتهى من أمر ملابسه، أزعجه صوت

تصفيقها بيديها، ثم بعد برهة من السكون، إنزلق الباب قليلاً جانباً، وأطلّ رأس تاديشينا.

- أناديتني يا آنسة ساتوكو؟

أومأت ساتوكو بالإيجاب، وبنظرة سريعة أشارت الى زنارها، الذي ارتقى على الأرض ملتقاً حولها. أوصدت تاديشينا الباب وراءها ودنت عبر الأرض المكسوة بالحصير من ساتوكو، دون أن تنظر باتجاه كيواكي. وساعدتها في ارتداء ثيابها وتثبيت زنارها، ثم جلبت المرأة من ركن الغرفة، وشرعت ترجّل شعر ساتوكو. وفي غضون ذلك، ساور كيواكي شعور حاد بالحرج، وحار فيما ينبغي أن يفعله، وهكذا فيما المرأتان تعكفان على مهمتهما الممتدة التي تقارب الطقوس، أحس بأنه لا حاجة له تماماً.

عندما جرى ترتيب كل شيء أخيراً، جلست ساتوكو، وهي أكثر جمالاً من أي وقت مضى، منكسة الرأس.

شرعت العجوز في الحديث:

- أخشى، أيها السيد الشاب، أن علينا الذهاب الآن، لقد وفيت بما وعدت، ومن الآن فصاعداً أتوسل اليك، رجاء أن تحاول نسيان الآنسة ساتوكو. والآن إذا تكرمت هل لك في أن تعيد الرسالة، لطفاً كما وعدت؟ اقتعد كيواكي الأرض، متربعاً، ولم يحرج جواباً.

سألته تاديشينا، مجدداً:

- كما وعدت هل لك، لطفاً، في أن تعيد الرسالة؟

ظل كيواكي على صمته، كأنما به صمم. راح يحْدَق في ساتوكو، التي جلست هادئة، دون أن تتشعث شعرة واحدة في رأسها، وقد استعاد كيمونوها الجميل هندامه التام. رفعت عينيها، فجأة، فالتقت بعيني

كيواكي . انتقل بينهما بريق متألق، يخترق الشغاف، وفي تلك، اللحظة عرف حقيقة شعورها، على وجه الدقة .

قال، معتمداً على شجاعته التي اعتصم بها حديثاً:

- لن أعيد الرسالة . أريد مقابلتها من جديد، على هذا النحو تماماً .

لم تبذل تاديشينا جهداً في إخفاء حنقها:

- أيها السيد الشاب! ما الذي تظن أنه سيحدث؟ من شأن طفل مدلل فحسب أن يقول شيئاً كهذا! إنك تعرف ماهية الأمور الرهيبة، التي ستقع .
أليس كذلك؟ لن يحمي الدمار بتاديشينا وحدها .

عندئذ، أوقفتها ساتوكو، وصوتها متماسك النبرات، وموحٍ بأنه قادم من عالم آخر، حتى أنه بعث الرعدة في عظام كيواكي:

- لا بأس يا تاديشينا! الى أن يرغب السيد كيواكي في إعادة الرسالة ليس هناك ما يمكننا القيام به إلا الموافقة على مواصلة الالتقاء به . ليست هناك وسيلة أخرى لانقاذكما كليكما وانقاذ نفسي، هذا إن كنت ترغبين في إنقاذي بدوري .

كانت زيارة كيواكي لدار هوندا لتبادل الحديث الحميم معه بتفصيل بالغ حدثاً نادراً الى حد دفعه لا الى أن يطلب من أمه دعوة ضيفه الى البقاء لتناول طعام العشاء فحسب، وإنما مضى الى حد التغافل عن عمله في الاستعداد لامتحانات القبول بالجامعة، التي كانت تشغله عادة في المساء، فقد شحن مجرد احتمال وصول كيواكي مناخ المنزل الرصين بالتوقع على نحو ما.

تألقت الشمس، التي خفَّتْها سحابة، طوال اليوم، كأنها ذهب أبيض، أما الآن في المساء فلإن الحر الستقر، الذي خلفته وراءها، لم تخف حدثه على نحو يمكن تقديره. فيها جلس الشابان يتبادلان الحديث كانا يرتديان كيمونوين صيفيين خفيفين زخرفاً على طريقة كاسوري.

ساور هوندا هاجس ما حول زيارة كيواكي، لكن ذلك لم يؤهله بحال لما هو آت. وما إن شرع كيواكي في الحديث، حتى بوغت هوندا بأن الشاب الجالس الى جواره على الأريكة الجلدية، العتيقة، الممتدة الى جوار جدار غرفة الاستقبال، مختلف بصورة شديدة، عن كيواكي، الذي عرفه من قبل. لم يسبق له أن رأى عينين تتألقان بمثل هذا الوضوح، كانتا على نحو لا تخطئه عين تنتمي الى شاب يافع ينتمي الى هذا العالم، ولكنه شعر بالأسى يخالجه حيال العينين المنكستين اللتين اعتادهما في صديقه.

غير أنه رغم هذا ابتهج؛ لأن كيواكي قد اختار أن يفضي إليه، بدون

محفظ، بما هو سر على جانب كبير من خطورة العواقب. وكان يأمل في إيماءة من هذا النوع، منذ وقت طويل، وقد جاءت دون أدنى ضغط من جانبه. ولدى تأمله في الأمر، أدرك أن كيواكي قد حجب أسرارته حتى عن صديقه، طالما أنها لا تتعلق بشيء إلا بصراعاته الداخلية، أما الآن وقد أصبحت هذه الأسرار أمراً يتعلق بالسمعة واقتراف الخطأ، فقد صبها صبا، في دفع لا ينقطع من الكلمات. وفي ضوء خطورة الاعتراف، والثقة غير المحدودة المتضمنة فيه، ما كان بمقدور كيواكي أن يمنحه سبباً أعظم للشعور بالسعادة. وفيما هو يتفحص صديقه، ألفاه قد نضج نضجاً ملحوظاً، وتبدد من ملامحه جانب من الحسن الذي ينتمي الى محيا الفتى الناعم المترف. فقد تألفت هذه الملامح بتصميم عاشق شاب غارق في العشق، وخلت كلماته وإيماءاته من أي لمحة تردد أو افتقار للثقة.

كان كيواكي تجسيدا لشاب ازدهاه الفخر بفوزه. وفيما هو يسرد حكاياته على هوندا، خضب اللون وجنتيه، وتألقت أسنانه، وتردد صوته حازماً وصافياً، على الرغم من أنه توقف خجلاً، في عدد من المرات، وبدت جراحة جديدة عليه متجلية حتى في عقدة حاجبيه. لم يبد أن هناك شيئاً غريباً عنه أكثر من الاستبطان، أو هكذا بدا الأمر لهوندا، سواء أكان ذلك راجعاً الى أن الحكاية انتهت نهاية مفاجئة، أو الى عدم تماسك دقات إفضائه.

قال هوندا:

- فيما كنت أصغى إليك، خطر ببالي أغرب الأمور. لم؟ لست أدري. ذات يوم وفيما كنا نتجاذب أطراف الحديث، لست على يقين متى كان ذلك، سألتني عما إذا كنت أتذكر أي شيء عن الحرب اليابانية - الروسية، وفي وقت لاحق، عندما كنا في دارك، أطلعتني على مجموعة من صور الحرب. وأتذكر أنك حدثتني بأن الصورة الأثيرة لديك كتب تحتها «حرم معبد توكوري: صلاة على أرواح الموق في الحرب» - صورة غريبة، يبدو

كل الجنود فيها كأنما جرى تجميعهم كالممثلين في مهرجان مسرحي هائل .
في ذلك الوقت بدا لي تفضيلك لهذه الصورة غريباً بالنسبة لك ، حيث
أنك لا تميل الى أي شيء يوحي بالقرب من الحياة العسكرية . ولكن ، على
آية حال ، فيما كنت أصغي إليك توأ ، خطرت ببالي ذكرى ذلك السهل
المترب ، وبدا أنها تتداخل على نحو ما مع قصة حبك الجميلة .

كان هوندا قد أفلح في أن يفاجئ نفسه ، فقد بوغت لا بغموض ما
قاله والانفعال الذي قاله به فحسب ، وإنما كذلك بالإعجاب الذي
استشعره حيال مخالفة كيواكي الشهوانية لوصية مقدسة ومبدأ أخلاقي ،
إعجاب من جانبه هو ، هوندا ، الذي قرر منذ وقت طويل أن يصبح من
رجال القانون !

ولجت خادمتان الغرفة بمائدتين صغيرتين ، وضع عليهما طعام عشائهما ،
وقد ربت أمه الأمور على هذا النحو حتى يتمكننا من تناول الطعام وتبادل
الحديث كصديقين دون أية قيود . انتصبت زجاجة ساكي على كل من
المائدتين ، وقدم له هوندا بعضاً منه .

قال ، محولاً دفة الحديث الى شيء أكثر عادية :

- شغل الأمر أمني كثيراً ، فلم تكن تدري مدى ترحيبك بالطعام الذي
نقدمه ، في ضوء تعودك للأطياب من المأكولات .

أسعده أن يشرع كيواكي في تناول الطعام ، وكأنه ، في حقيقة الأمر ، قد
راق له . وهكذا ، كف الشابان بعض الوقت عن الحديث وكرسا نفسيهما
لمساهج الطعام الصحية .

في غمار استمتاعه بالصمت الإضافي الذي يعقب عادة وجبة طيبة ، راح
هوندا يسائل نفسه عن السر في أنه بعد استماعه الى اعتراف زميله بهذه
الانطلاقة البالغة الرومانسية ، أحس بالسعادة حيالها ، دون أن تتحمله لسعة

غيرة أو حسد، فقد أنعشه هذا الاعتراف، مثلما تخضّر على نحو لا ترقى إليه الحواس حديقة، على ضفاف بحيرة خلال موسم المطر.

قطع الصمت، وسأل كيواكي:

- طيب، إذن، ما الذي تعزم عمله؟

- ليست لدي أدنى فكرة. إنني أبدأ متأخراً، ولكن ما إن أشرع في الانطلاق حتى يبين أنني لست من النوع الذي يتوقف في منتصف الطريق.

حدّق فيه هوندا، بعينين اتسعتا دهشة، فلم يحلم قط بأنه سيسمع كيواكي يقول شيئاً من هذا القبيل.

- أتقصد أنك ترغب في الزواج من الأنسة ساتوكو؟

- ذلك ليس وارداً، فقد صدر التصديق الامبراطوري بالفعل.

- لكنك أتيت شيئاً منكراً. لم لا يمكنك الزواج منها إذن؟ ألا تستطيعان

الهرب معاً - تمضيان الى الخارج وتزوجان هناك؟

- إنك لا تفهم الأمر فحسب.

رد بها كيواكي. ثم غاص في قرار الصمت. وللمرة الأولى، في ذلك اليوم، لاحظ هوندا أثراً من الكآبة القديمة في الخطوط التي برزت فجأة بين حاجبيه.

ربما كان يتوقع مثل رد الفعل هذا، ولكنه الآن بعد أن رآه رأى العين، أحس بعدم إرتياح ضئيل يلقي ظله على الابتهاج الذي يحسه. فيما هو يجلس متأملاً الملمح الجانبي الأنيق لصديقه، الذي من شأن خطوطه أن تحبط الفنانين جميعاً، اللهم إلا أشدهم براعة، راح يتساءل عما ينشده كيواكي من الحياة على وجه الدقة. وأحس برعدة تخترم جسمه.

التقط كيواكي ثمار الفراولة الخاصة به، ونهض من الأريكة، وجلس أمام القمطر المرتب في عناية حيث يعمل هوندا. دفع بكوعيه على سطح

القمطر الخشن، وشرع يورجح المقعد الدوار من جانب الى آخر. فيها هو يفعل ذلك، ارتكز بقلبه على كوعيه، وأراح وضع رأسه وجذعه، مستشعراً القلق، فيما ظهر صدره العاري من عنق كتيمونوه الواسع، ثم بعد أن سلح نفسه بعود لتنظيف الأسنان، شرع في خفة يدسه في ثمار الفراولة واحدة إثر الأخرى ويلقى بها في فمه. كان ذلك تجلياً للتراضي الهنيء في الالتزام بقواعد السلوك، أظهر مدى سعادته في الهرب من الالتزام الصارم بهذه القواعد في بيته. سكب بعض السكر السائل، فسقط على صدره ذى الجلد شديد الحساسية، ولكنه أزاله، دون أن تبدو عليه علامات الحرج.

- لسوف تجتذب النمل.

قالها هوندا، ضاحكاً بفهم مليء بثمار الفراولة.

خضّب اللون الآن جفون كيواكي الرقيقة، الشاحبة عادة، بفضل الساكي الذي احتساه. وفيما واصل أرجحة الكرسي الدوار من هذا الجانب الى ذاك، وساعده العاريان المضرجان لا يزالان على ارتكازهما على القمطر، تصادف أنه تحرك أكثر مما ينبغي في أحد الاتجاهين، فانشى جسمه على نحو غريب. بدا الأمر كما لو كان قد اخترقه فجأة ألم غامض لم يكن هو نفسه مدركاً له.

لم يكن هناك مجال للخطأ، فيما يتعلق بهذه النظرة الشاردة، المرتسمة في هاتين العينين تحت حاجبيهما الرشيقين، لكن هوندا كان يدرك حق الإدراك أن نظرتيها المتألقة ليست موجهة نحو المستقبل. وخلافاً لما درج عليه ساورته رغبة قاسية في إلحاق شعوره المتفاقم بعدم الارتياح بصديقه - دافع ملجئ إلى التظاهر برفع يده للقضاء على شعور كيواكي البالغ الحداثة بالسعادة.

- طيب، ما الذي ستفعله؟ هل فكرت فيما سيصير إليه هذا الأمر؟

رفع كيواكي عينيه، وحقق فيه بنظرة ثابتة. لم يسبق لهوندا أن رأى من

قبل قط مثل هذه النظرة، التي تجمع بين اللهفة الحارقة، على هذا النحو، وفي الوقت نفسه مثل هذه الكآبة.

- ولم يتعين عليّ التفكير في الأمر؟

- لأن جميع من حولك يتحركون وتبدأ، ولكن بشكل لا يرحم، نحو نهاية هذا الوضع المعقد. لعلك لا تعتقد أنكما بمقدوركما التحليق في الهواء كالخباح غارقين في العشق؟

- أعرف أن ذلك ليس بمقدورنا.

هكذا رد كيواكي، منبهاً الجدال، وناظراً على نحو عرضي باتجاه آخر. أسلم نفسه لتمحيص الظلال في الزوايا والأركان المختلفة للغرفة، مثل الزخارف المتداخلة تحت أرفف الكتب، وتلك الموجودة أسفل سلة المهملات المجدولة من الأماليد - تلك الظلال الصغيرة المراوغة التي انسلت الى مكتب هوندا البسيط والعملي ليلة إثر أخرى، محتجبة كأنها عواطف بشرية، لتجثم حيثما وجدت ملاذاً لها.

بينما كان هوندا يتطلع إليه، لفت نظره بروز حاجبيه الرشيقيين، كانا كالظلال نفسها وقد استدارت فغدت قوسين بديعين. لاحاً كأنهما تجسيد لعاطفة، ومع ذلك كانت لهما من القوة ما يكبحان به التعبير عن هذه العاطفة. تخيلهما وهما يحرسان العينين السوداوين الحالمتين تحتها، متبعين في ولاء نظرة سيدهما، حيثما مضت مثل خادمين حريصين، تدريباً تدريباً لا تشوبه شائبة.

قرر أن يطرح بصورة مباشرة شيئاً، راح يتكون، في ركن قصي من ذهنه.

شرع يقول:

- سبق لي أن قلت قبل قليل شيئاً بالغ الغرابة. أقصد ما قلته عن

التفكير في الصورة التي تعود الى الحرب اليابانية - الروسية، بينما كنت تحدثني بأمرك مع الأنسة ساتوكو. وتساءلت عن السبب في أن ذلك خطر لي، والآن، بعد أن فكرت في الأمر قليلاً لدي رد على هذا التساؤل. لقد انتهى عصر الحروب المجيدة مع نهاية عهد مييجي. أما اليوم فقد غاصت كل قصص الحروب الماضية الى مستوى تلك الصور الإيضاحية التي نسمعها من الكهول الذين لم يخوضوا غمار القتال في إدارة العلوم العسكرية أو تباهي الفلاحين، وهم يتحلقون موقداً يمجّ دفتاً. لم تعد هناك فرص كثيرة الآن للموت في ساحة المعركة..

«ولكن الآن، وبعد أن انتهت تلك الحروب القديمة، بدأ لتوّه نوع جديد من الحروب، فذلك هو عصر الحرب العاطفية. إنها نوعية من الحروب لا يراها أحد، وإنما بمقدوره أن يحسها، وبالتالي فهي حرب لن يقدر للبليد والمفتقر للحساسية حتى أن يلحظ مجرد وجودها. ولكنها بدأت سريعة، والشباب الذين تم اختيارهم لخوض غمارها شرعوا بالفعل يتقاتلون، وأنت واحد منهم - لا شك في ذلك.

«وكما في الحروب القديمة تماماً، سيقع ضحايا في حرب العاطفة، فيما أظن، إنه مصير عصرنا - وأنت واحد ممن يمثلوننا. وماذا في الأمر إذن؟ إنك عاقد العزم كلية على الموت في هذه الحرب الجديدة.

- ألسنت على صواب؟

كان رد كيواكي الوحيد هو ابتسامة متوهجة. في تلك اللحظة، انسل نسيم قوي، مثقل بنداوة المطر، عبر النافذة، وفي غمار مروره مسٌ بنداو جبينيهما، اللذين كساهما عرق خفيف. أثار صمت كيواكي حيرة هوندا.

أكان رده من الوضوح بحيث لم تعد الاجابة ضرورية؟ أم ترى أن كلماته قد
عرفت على وتر رنان في أعماق صديقه، فيما كانت طريقته في طرح هذه
الكلمات مسرفة، بحيث أنه لم يعد أمامه من سبيل للرد صراحة؟ حدث
نفسه بأن الأمر إما هذا أو ذاك .

بعد ثلاثة أيام، وعندما أتاحت حصتان دراستان ملفيتان لهوندا فرصة قضاء أصيل بلا مشاغل، مضى لشهود جلسة تعقدها محكمة جزائية، وذلك بصحبة طالب حقوق، كان من الفتية الذين يعملون بدار العائلة. وكان المطر قد ظل ينهمر بلا إنقطاع منذ الصباح.

كان والد هوندا أحد قضاة المحكمة العليا، وحتى في إطار عائلته كان ملتزماً التزاماً صارماً بالمبادئ، وقد أسعدته الى حد كبير نجابة ولده ذي الأعوام التسعة عشر، الذي كرس نفسه للقانون حتى قبل التحاقه بكلية الحقوق. وهكذا أحس بقدر من الثقة يكفي لاستنتاج أن ابنه سيحتل مقعد القضاء من بعده. وحتى ذلك العام كان منصب القاضي منصباً يشغله صاحبه مدى الحياة، ولكن في ابريل الماضي أدخل إصلاح واسع النطاق على النظام القضائي؛ وكنتيجة لذلك أحيل أكثر من مائتي قاضٍ الى التقاعد، أو طلب منهم أن يتقدموا باستقالاتهم. وإذ رغب القاضي هوندا في إظهار تضامنه مع زملائه القدامى ناعسي الحظ، فقد عرض تقديم استقالته، ولكنها لم يتم قبولها.

غير أن هذه التجربة شكلت، فيما يبدو، نقطة تحول بالنسبة لوجهات نظره في الحياة، التي أثرت بدورها فيما كان علاقة رسمية للغاية مع ابنه، فمنذ ذلك الوقت حمل الى رحاب هذه العلاقة دفء أريحية تحاكي العاطفة التي يظهرها مسؤول كبير نحو مرؤوسه الذي اختاره ليخلفه في

منصبه. وقد صمم هوندا نفسه على العمل بدأب أكبر في دراساته ليكون جديراً بهذا العطف، الذي لم يسبق له مثيل.

وكان من نتائج تغير وجهات نظر أبيه السماح له بحضور جلسات المحاكم، على الرغم من أنه لم يبلغ سن الرشد بعد. ولم يمتص بالطبع الى حد السماح له بالتردد على محكمته، ولكنه سمح له بمتابعة أي من القضايا المدنية أو الجنائية التي تروق له، طالما أنه بصحبة التابع الشاب، الذي كان يدرس الحقوق كذلك.

أوضح له أبوه أن كل معرفته بالقانون تأتي من الكتب وبالتالي سيكون مجاله فائدة جمة أن يتصل اتصالاً مباشراً بالعملية القضائية في اليابان وأن يعايشها على مستوى عملي. غير أن القاضي هوندا كان يستهدف أكثر من ذلك، ففي حقيقة الأمر أن مناط اهتمامه الرئيسي كان تعريض ابنه ذي الأعوام التسعة عشر، والذي لا يزال على حساسيته لكل عناصر الوجود الانساني تلك، التي تتشمل بكل واقعتها الجهمية على نحو يبعث على الشعور بالصدمة في ساحة القضاء الجنائي. أراد أن يتأكد من أن ابنه قادر على الاستفادة من مثل هذه التجربة.

كان ذلك نوعاً خطيراً من التعليم. ومع ذلك، فحينما وضع القاضي موضع الاعتبار الخطر الأكبر المتمثل في السماح لشاب بأن يكون شخصيته من الاستيعاب من السلوك العام اللامبالي، ووسائل الترفيه الرخيصة، وما الى ذلك من العناصر، التي قد تجذب أو تخاطب ذوقه، الذي لم ينضج بعد، أحس بالثقة بمزايا هذه التجربة التعليمية. كانت هناك فرصة طيبة على الأقل لكي تجعل هذه التجربة ولده يدرك على نحو حاد عين القانون الراصدة التي لا تغفر. لسوف يرى كل النشار غير المنتظم، والمضرب، والقذر لعواطف البشر، وهو يمضي هنالك وفقاً للإجراءات القانونية المجردة

من الطابع الشخصي. ومن شأن الوقوف في مثل هذا المطبخ أن يعلمه الكثير حول الأسلوب الفني.

مضى هوندا مسرعاً عبر الدهايزز المعتمة، في دار القضاء، في طريقه الى المحكمة الجزئية الثامنة، وهو درب لم ينره إلا ضوء خافت، ينفذ عبر المطر الذي أغرق العشب البائس في الساحة المحاطة بالأبنية. امتص المناخ الطاغى لهذا المبنى الجوهر الحشن للروح الإجرامية. بدا له المكان باعتباره بأسره مكاناً أكثر فساداً من أن يكون قصراً للمنطق كما يفترض فيه.

ظل الاكتئاب مطبقاً عليه، بعد أن اتخذ وزميله مقعديهما، في قاعة المحكمة. ألقى نظرة عجل على طالب الحقوق المتوتر، الى حد بعيد، والذي صاحبه الى هنا باستعجاب مشوب بالقلق، والذي غرق الآن في ملف القضية الذي أحضره معه، كأنما نسي تماماً كل ما يتعلق بابن القاضي، ثم التفت بالنظرة القلقة ذاتها الى منصة القاضي التي لا تزال خاوية، وإلى قمطر نائب المدعي العام، وإلى منصة الشهود، وقمطر المحامي، وما الى ذلك. بدا له هذا الخواء الهائل معبراً عن حالته الروحية، في هذا الأصيل الرطب المطير.

لشد ما بدا يافعاً ولا مبالياً! كأنما ولد يجلس ويحدق على هذا النحو. فقد أفضى كيوإكي الى شيجيكوني، الذي كان ذكياً وواثقاً من نفسه، على نحو ما يليق بشاب قدير، بسرّه. طرأ تغير عليه، أو بالأحرى مرت الصداقة التي تربطه بكيوإكي بتحول غريب، فعلى امتداد سنوات، حرص كل منهما حرصاً بالغاً على ألا يتدخل بأي شكل من الأشكال في حياة الآخر. أما الآن، ومنذ ثلاثة أيام، فقد جاءه كيوإكي، ومثل مريض عوفي حديثاً من مرضه ينقل عدوى هذا المرض الى شخص آخر، نقل الى صديقه فيروس الاستبطان، وقد سيطر عليه عن طواعية الى حد أن

استعداد هوندا للإصابة به بدا أفضل كثيراً من استعداد كيواكي . وكان العرض الأول البارز للمرض هو شعور غامض بالخشية، والترقب .

راح يتساءل عما يتعين على كيواكي القيام به . أمن الصواب ألا يحير حراكاً . باعتباره صديقاً لكيواكي ، خلافاً للعقود في تكاسل وترك الأمور تجري في أعتتها؟

فيما كان ينتظر بدء جلسة المحكمة في الواحدة والنصف، جلس غارقاً في التأمل الذي أثاره قلقه، وقد حلّق ذهنه بعيداً عن وقائع الجلسة، التي جاء لشهودها .

مضى يحدث نفسه، قائلاً :

- لو أنني كان من شأني التصرف باعتباري صديقاً حقيقياً لئن يكون من الأفضل إقناعه بمحاولة نسيان الأنسة ساتوكو؟ ظننت حتى الآن أن من الأفضل لي بحسابي صديقه أن أتظاهر بعدم ملاحظة الأمر، حتى ولو كان يعاني من آلام الاحتضار . ولكن الآن، وقد أفضى الي بكل شيء، على هذا النحو، قبل أيام، ألا ينبغي عليّ التدخل مثلما يحق لي في إطار صداقة عادية، وأن أبذل قصارى جهدي لإنقاذه من الخطر المجلى الذي يترص به الدوائر؟ وفضلاً عن ذلك، فلإنني ينبغي ألا أحجم عن هذا، حتى ولو جعله ذلك يضيق ذرعاً بي، الى حد إنهاء صداقتنا . في غضون عقد أو عقدين من الزمان . سيتفهم السر في قيامي بذلك، وحتى اذا لم يفقه الأمر قط، فلا ينبغي ألا يؤثر في ذلك .

ليس هناك شك في أنه يتجه مباشرة نحو مأساة . سيكون ذلك شيئاً جليلاً، بالطبع، ولكن هل يتعين عليه أن يطيح بحياته بأسرها مقدمة لمثل هذا الجمال العابر، كأنه طائر محلق تلمحه العين من نافذة؟

إنني أعرف ما يتعين عليّ القيام به، فمن الآن فصاعداً، سأُنحي كل

اعتبارات اللياقة، وسأتصرف كصديق يفتقر الى الحساسية، واللماحة. وسواء أطاب له ذلك أم لم يطب، يتعين عليّ القيام بشيء يصب ماء بارداً على عاطفته المتقدة تلك، ينبغي عليّ استغلال كل ذرة في قوتي لمنعه من الانصياع لقدره.

جعل هذا الاندفاع المحموم للأفكار رأس هوندا ينبض ألماً من جراء المجهود الذي اقتضاه. لم يعد يشعر بأنه قادر على الجلوس هناك صابراً وانتظار بدء وقائع الجلسة، التي فقد كل اهتمام بها، أراد أن يغادر القاعة في الحال، ويندفع الى دار كيواكي ويصب كل ما في جعبته من حجج لإقناعه بتغيير رأيه. سبب له الإحباط الناجم عن إدراك أن هذا مستحيل فيضاً من القلق زاد في توتره.

التفت حوله، ولاحظ أن كل المقاعد قد امتلأت. الآن أدرك لماذا أحضره الفتى، الذي يعمل في دار العائلة، مبكراً على هذا النحو. وبين الحاضرين كان هناك شبان لاحوا من طلاب الحقوق ونساء ورجال في أواسط العمر، غلبت عليهم الكتابة، وصحافيون وضعوا أربطة أذرة للحماية سواعدهم، ومضوا جيئة وذهاباً، وقد بدا عليهم التعجل. راح يتطلع، فيما أولئك الذين لم يجتذبهم إلا الفضول الوضع يخفون اهتمامهم وراء أقنعة من الوقار الجهم، وهم يمسون شواربهم، ويقتلون الوقت بتحريك متكلف لمراوحهم، أو يستخدمون الأظافر الطويلة لأصبعهم الأصغر في استخراج إفرازات كبريتية اللون من أذانهم. كان مشهداً منوراً للبصيرة، مشهداً فتح عينيه أكثر من أي شيء شهده قبلاً على القبح الأخلاقي للاعتقاد بأن: «آه، لست معرضاً على الإطلاق لاقتراف خطيئة». وقد عقد العزم، أيّاً كان ما يحمله المستقبل له، على ألا يقع فريسة لذلك النوع من المواقف.

أوصدت النوافذ في وجه المطر، فسمحت بتسلل ضوء كثيب مسطح،

ارتقى على الجمهور بأسره دوغاً مبالاة، كأنه طبقة من غبار رمادي، واستثنيت منه حافات قبعات الحراس السوداء المتألقة وحدها.

أثار دخول المتهمه فيضاً من التعليقات، فقد شقت طريقها الى قفص الاتهام، وعلى جانبيها حارسان، وقد ارتدت الزي الرسمي الأزرق الخاص بالسجن. حاول أن يلقي عليها نظرة، فيما هي تمر، ولكن كان هناك قدر كبير من الحراك وامتداد الأعناق من جانب الجمهور، بحيث لم يتح له إلا أن يلمح خدين بيضاوين لحيمين وغمازتين ملحوظتين، ثم بعد أن ولجت قفص الاتهام كان كل ما استطاع أن يلمحه هو أن شعرها كان ملموماً على شكل العقصة الدائرية التي تميز السجينات. وعلى الرغم من أنها انحنت لإجلالاً، إلا أنه لاحظ أن هناك مؤشراً طفيفاً الى التوتر العصبي، تمثل في الطريقة التي بُنت بها كتفاها اللحميتان تحت زيا الرسمي.

كان المحامي قد ولج القاعة بالفعل، وراح الجميع ينتظرون مقدم نائب المدعي العام والقاضي نفسه.
قال الطالب الشاب، هامساً في أذنه:

- ألق نظرة عليها فحسب، أيها السيد الشاب، أعتقد أنها قاتلة؟
صحيح ما يقولونه من أن المرء لا يستطيع قراءة الكتاب من غلافه.

بدأت إجراءات المحاكمة بقيام القاضي المضطلع بنظر القضية بتوجيه الأسئلة المألوفة للمتهمه، عن اسمها وعنوانها وعمرها وحالتها الاجتماعية. وساد صمت بالغ قاعة المحكمة، الى حد أن هوندا تخيل أن بمقدوره سماع حفيف ريشة مسجل وقائع الجلسة، وهو عاكف على أداء عمله.

- اثنان - خمسة، سجن نيهوناشي، بمدينة طوكيو، من العامة، تومي ماسودا.

على هذا النحو ردت المرأة، بصوت واضح ومتماسك، ولكنه بالغ الانخفاض، الى حد أن الجمهور أرهف آذانه، وانحنى الى الأمام، على قلب رجل واحد، خوفاً من أن يفوته شيء، عندما تبلغ الإفادة القضايا الحسوية. تناهت الاجابات بقدر كاف من المرونة الى أن بلغت المتهمة عمرها، وهنالك ترددت سواء أعن عمد من عدمه، ثم بعد أن استحثها محاميها على الرد، استجمعت قواها، بصوت أعلى قالت:

- إنني في الحادية والثلاثين من عمري.

في تلك اللحظة التفتت برأسها نحو محاميها، فلمح هوندا صورتها الجانبية، حيث بدت عيناها نجلاوين وصافيتين، ومست شعرات نافرة خدها.

راح الجمهور يحدق في تلك المرأة، التي لم تؤت بسطة في البدن، مفتوناً، كأنما يمكن أن يكون لها الجسم نصف الشفاف، الذي تتبدى به دودة قز، أفرزت على نحو ما خيطاً على قدر من التعقد والشر لا يخطر على بال أحد. وجعلت أدنى حركة منها أفراد الجمهور يتخيلون علامات التعرق عند ابطي زينا الرسمي، وحلمتيها اللتين عقدهما الخوف وخط عجيزتها البالغة الامتلاء والجهامة والفاترة قليلاً. لقد غزل هذا الجسم خيوطاً بلا حصر الى أن لفتها هذه الخيوط في نهاية المطاف في شرنقة قبيحة. ومن منظور الجمهور كان يتعين أن يكون هناك تطابق ما بين جسمها وجريمتها، ولن يرضيه أقل من هذا. وبالنسبة للإنسان العادي، الذي تدفعه في واقع الأمر تصوراته الخيالية المتوهجة، ليس هناك، على وجه التقريب ما هو أكثر دغدغة للحواس على نحو بديع من أن يتأمل، من بعد يكفل له الأمان، الشر وقد طرح في إطار علاقة سببية. ولو أن المرأة كانت نحيلة لجسد نحوها ذاته هذا للجمهور. ولكن بما أنها كانت ممتلئة الجسم؛ فإن هذا الامتلاء أدى الغرض ذاته. وهكذا، إذ اغتبط أفراد الجمهور بأنها ليست إلا الشر وقد

تجسد، فقد راحوا يمارسون قوى خيالهم غير المؤذية، وقد أخذتهم البهجة
خيال كل التفاصيل، وصولاً الى حبات العرق التي كانوا على يقين من أنها
تكسو نهديا.

حالت وساوس هوندا دون تتبعه لأفكار الجمهور، على الرغم من أن
هذه الأفكار كانت جلية للغاية أمامه، مع أنه لم يوغل في العمر، ركز
انتباهه بكامله على إفادة المتهمه، وهي ترد على أسئلة القاضي. كانت
الصورة التي رسمتها تدنو الآن من لب الموضوع.

كانت طريقتهما في سرد الأمور مضجرة، ومختلطة، ولكن بدا من الواضح
بما فيه الكفاية أن سلسلة الأحداث المفضية الى هذه الجريمة العاطفية قد
انداحت، بلا هوادة، على نحو كان من المحتم أن يفضي الى وقوع مأساة.

- متى بدأت في الإقامة مع ماتسوكيتشي هيجيكاتا؟

- إنني... كان ذلك في العام الماضي، يا سعادة القاضي، أتذكر الموعد
جيداً. كان في الخامس من يوليو.

جعلت ذاكرتها القوية أفراد الجمهور يضحكون، لكن الحراس حملوهم
على التزام الهدوء توأ.

كانت تومي ماسودا ساقية وقعت في غرام طاه، يدعى ماتسوكيتشي
هيجيكاتا، يعمل في المطعم نفسه. كان الرجل أرمل، فقد زوجته منذ
وقت قصير، دفعتها العاطفة الى أن ترعى شؤونه، وفي العام السابق،
شرعا في السكن معاً، غير أن هيجيكاتا لم يشر الى عزمه إضفاء الطابع
الرسمي على هذا الترتيب، بل وفي حقيقة الأمر بعد أن أقاما في مسكن
واحد، أصبح أكثر نشاطاً في مطاردته للنساء الأخريات، ثم في حوالي نهاية
العام السابق ارتبط بخادمة، تعمل في خان يدعى كيشيموتو، في حي هامما
نفسه. وعلى الرغم من أن هايدي، الخادمة، لم يكن عمرها يتجاوز

العشرين عاماً، إلا أنها كانت محنكة، فيما يتعلق بالخبرة بالرجال. وكنتيجة لذلك تابعت الليالي التي يمضيها هيجيكاتا خارج الدار. وأخيراً، في الربيع الحالي، مضت تومي لمواجهة هايدي والتوسل إليها لكي تدع رجلها وشأنه، وقد عاملتها هايدي بازرداء، فعجزت تومي عن كبح جماح حقنها، وقتلتها.

باختصار، كانت قصة عن الثلاثي الشهير، انتهت على نحو عنيف، قصة مألوفة في الشوارع، لا تميزها سمة خاصة. غير أنه في ضوء التمهيص الدقيق خلال جلسة المحكمة ظهرت للفور عناصر أصيلة، دوغما شك، وتستعصى على إمكانية التنبؤ بها تماماً.

كانت المرأة قد وجدت نفسها مع طفل يتيم الأب، كان في الثامنة من عمره، ترك في رعاية بعض الأقارب في قريتها، لكنها طلبت منهم إرساله إلى طوكيو، ليستفيد من مزايا نظام دراسي أفضل. ولكن على الرغم من أنها كانت تأمل في أن تستخدم الطفل كعنصر دفع لهيجيكاتا للاستقرار، فلمإنها باعتبارها أمأ قد خطت على المسار الذي سيجبرها على أن تصبح قاتلة.

والآن بلغت إفادتها أحداث تلك الليلة.

- لا، يا سعادة القاضي، فلو أن هايدي لم تكن هناك في تلك الليلة، لسار كل شيء على ما يرام، أعرف أن هذا الأمر بأسره ما كان ليحدث. لو أنها كانت مصابة بنوبة برد، أو شيء من هذا القبيل في تلك الليلة، واعتكفت في فراشها، عندما مضيت إلى نزل كيتيمولو لمقابلتها، لسار كل شيء على ما يرام أيضاً.

كانت السكن التي استخدمتها هي السكن التي يستخدمها ماتسوكيتشي في تقطيع «الساشمي». إنه رجل من النوع الذي يفخر بعمله، ولديه جميع

أنواع السكاكين الجيدة، كان يقول لي باستمرار، هذه السكاكين بالنسبة لي كالسيوف بالنسبة للساموراي، ولم يكن يدع أياً من النساء يلمسها، وإنما كان يشحذها بنفسه، بمزيد من العناية، ولكن في حوالي الوقت الذي بدأت أحس فيه بالغيرة من هايدي، أخفاها جميعها، في مكان ما، لاعتقاده بخطورتها.

حينما أدركت الكيفية التي يفكر بها، جعلني ذلك أحس بالغضب، وبعد ذلك اعتدت إلقاء النكات، فيما يتعلق بهذا الأمر، متظاهرة بأنني أهده. كنت أقول له: لست بحاجة الى أي من سكاكينك، فهناك الكثير من السكاكين الأخرى يمكنني إستخدامها، كما تعلم. ثم في يوم من الأيام، وبعد تغيب ماتسوكيتشي فترة طويلة عن الدار، كنت أنظف العليّة، وفجأة صادفت لفة تضم السكاكين كافة، في مكان لا يمكن أن تتوقعه قط. أما ما أدهشني أكثر من أي شيء آخر، يا سعادة القاضي، فهو أن الصدا كان يعلوها جميعها، تقريباً. عندما رأيت هذا الصدا عرفت، على وجه الدقة، مدى عمق تورطه مع هايدي وأخذتني رجفة، فيما كنت أمسك بإحدى السكاكين. ولكن في ذلك الوقت، تماماً، عاد ولدي الى الدار، قادماً من المدرسة، فاستعدت سكينتي، تدريجياً، ثم حدثت نفسي بأنني ربما إذا أخذت سكينه المفضلة، التي يستخدمها في قطع «الساشامي»، لكي يتم شحذها، فسوف يقدر لي حسن صنيعي - محاولة جعل نفسي أعتقد بأنني زوجة حقيقية. نفعتها في قطعة قماش، ثم فيما كنت على وشك الخروج سألني ولدي عن مقصدي فقلت له أن عليّ الذهاب. في مهمة صغيرة وسأعود توأ، وعليه أن يكون فتى طيباً، ويرعى شؤون الدار، وعندئذ قال: «لست أكثرث إذا لم تعود قط، عندئذ يمكنني العودة إلى مدرستي في القرية.» صدمني هذا بشدة، وعندما توقفت لأسأله عما يقصده، اكتشفت أن الأطفال في الحي كانوا يسخرون منه، قائلين: «أبولك

لا يمكنه الصمود أمام توبيخ أمك، ولذا فقد هرب منها». وربما كان هذا شيئاً مما التقطه الأطفال من سماع ثرثرة آبائهم حولنا. والآن هوذا ولدي يرغب في الهرب من أم حوّلتني إلى أضحوكة، والعودة إلى أبيه بالتبني في الريف. فجأة استبد بي غضب بالغ، قبل أن أدرك للأمر كنهاً، فلطمته على وجهه، وفيما كنت أندفع خارجة من الدار، تنهى إليّ صوت بكائه من ورائي.

بحسب ما جاء فيما أعقب ذلك من الإفادة، لم تكن تومي تفكر في هايدي في هذه اللحظة، وإنما انطلقت بسرعة، عبر الطرقات، وفي ذهنها شيء واحد: أن تشد السكين لعل حالتها تتحسن. كان لدى القائم بشد السكاكين عمل كثير آخر يتعين عليه إنجازه، ولكنها أبت الانصراف. وبعد انتظار دام ما يزيد على الساعة، شدد السكين لها، في نهاية المطاف. وعندما غادرت الحانوت، لم تساورها على الإطلاق الرغبة في العودة إلى الدار، وأخيراً مضت وكأنا دونما إرادة منها في اتجاه نزل كيشيموتو.

قبل وقت قصير من ذلك، كانت هايدي قد عادت إلى كيشيموتو بعد أن أمضت ليلة من النشوة الحارقة مع ماتسوكيتشي، فأوسعتها زوجة صاحب المنزل تأنيباً لتركها للعمل. كانت قد مضت إلى المرأة، واعتذرت لها باكية، على نحو ما قال لها ماتسوكيتشي. بعد لحظات قلائل من انتهاء هذا، وصلت تومي إلى المنزل، وطلبت الحديث مع هايدي للحظة، خارج المنزل. خرجت هايدي لمقابلتها، وبدت ودودة على نحو مدهش، كانت قد غيرت ملابسها لتوها، وارتدت كيمونو للعمل، وفيما مضت مع تومي عبر الطريق، راح حذاؤها الخشبي يلطم الأرض، على نحو فاتر، بالطريقة التي تصطنعها العاهرات.

قالت: «لقد وعدت صاحبة العمل الآن توأ. من الآن فصاعداً لن يكون لي شأن بالرجال، هكذا قلت لها».

بذلت تومي جهداً كبيراً في السيطرة على نفسها، ثم عرضت عليها مشروباً، في حانوت قريب لـ «السوشي»^(١) على ضفة نهر سوميدا.

وعندما شرعت في تناول الشراب، بذلت تومي قصارى جهدها للحديث معها، كأنها تخاطب أختها الكبرى، ولكن هايدي رفضت أن تجتذب الى هذا، وكان رد فعلها الوحيد هو ابتسامة هازئة. في نهاية المطاف، وعندما دفع الساكي تومي الى الحدود القصوى للميلودراما، أحنت رأسها في ضراعة، ولكن المرأة الأصغر سناً أشاحت عنها، في ازدراء فظ. كانتا، حتى ذلك الوقت قد مكثتا حوالي الساعة، وأسدل الليل سدوله في الخارج. نهضت هايدي، قائلة إن المديرية ستغضب منها، مرة أخرى، إن لم تعد للعمل على الفور.

بعدما تركت حانوت «السوشي»، زعمت تومي أنها لا تدري السر في أنها تحولتا الى بقعة خالية سيئة الإضاءة في حي هامتا تقع الى جوار النهر. قالت إنها ربما عندما تعلق بكيمونو هايدي محاولة حملها على البقاء والحديث، بدأت هايدي السير في هذا الاتجاه وهي تنتزع نفسها منها. على أية حال، أنكرت تومي أنها قصدت الى اقتيادها بعيداً لقتلها.

عقب السير لوقت قصير، شرعت تومي في المجادلة من جديد، ولكن هايدي اكتفت بالضحك فحسب. وفيما هي تضحك، تألقت أسنانها

(١) السوشي: إحدى أشهر الأكلات اليابانية، وهي تتألف من الأرز ومكونات أخرى، في مقدمتها شرائح الكائنات البحرية المختلفة. وفي مطاعم السوشي، يقوم الطاهي بعصر الأرز المطبوخ والمبتل بالخل المصنوع من الأرز المخمر، ويجمعه على شكل كرات صغيرة، ويضع شرائح من برغوث البحر أو بيض سمك السلمون أو «الساشيمي»، والأخير عبارة عن شرائح غير مطهية لأنواع مختلفة من الأسماك مثل التونة أو الشبوط أو سمك موسى أو الأسقمري، ويوضع بين كرات الأرز وهذه الشرائح بعض «الواسابي» وهو نوع خاص من الخردل. (هـ. م.)

المنتظمة، على الرغم من أنه لم يكن هناك إلا بصيص من الضوء على سطح
نهر سوميدا، يخفف من الظلام، الذي أطبق عليها.

ردت هايدي قائلة، أخيراً:

- لا فائدة من مواصلة الحديث على هذا النحو. لا عجب أن
ماتسوكيتشي قد ضاق بك ذرعاً.

قالت تومي إن تلك كانت القشة، التي قصمت ظهر البعير، فيما هي
تصف ردود أفعالها.

- عندما سمعت هذا، اندفع الدم إلى رأسي. لست أدري كيف أصفه
على وجه الدقة... شعرت، عند ذلك، بأنني طفل يبكي في الظلام،
يائساً، ملوَّحاً بذراعيه ويديه؛ لأنه لا يستطيع القول بأنه يريد شيئاً ما، أو
لأن موضعاً ما من جسمه يؤلمه، ثم بدأت في أرجحة يديّ حولي، وبشكل
ما فكتا اللفافة القماشية، وأمسكتا بالسكين، وبينما كانتا لا تزال تلوحان
بها، اصطدم جسم هايدي بها في الظلام - ذلك هو النحو الوحيد الذي
يمكنني أن أرى الأمور عليه.

كانت كلماتها من التوتر بحيث أن أفراد الجمهور في القاعة، ومعهم
هوندا، كان بمقدورهم أن يروا بوضوح شبح الطفل الصغير، وهو يلوح
بيديه، وقدميه، يائساً.

بعد انتهاء تومي ماسودا من إفادتها، غطت وجهها بكفيها، وانخرطت
في البكاء. وبدت كتفها تحت زي السجن الذي ترتديه أكثر إثارة
للإشفاق بسبب ترهلها. وبدا المناخ النفسي للحاضرين في الانتقال تدريجياً
من الفضول الصريح إلى شيء آخر.

كان المطر لا يزال ينهمر خارج النوافذ ويلقى على قاعة المحكمة نقاباً من
ضوء خافت معتم بدا أنه يتركز على تومي ماسودا. وقفت هناك كأنها

الممثل الوحيد لكل عواطف الانسان المعقدة: الحياة، التنفس، الحزن، والصراخ المأ. وحدها وهبت ميزة الانفعال. حتى لحظات قلائل، لم يكن أفراد الجمهور يرون إلا امرأة في الحادية والثلاثين، بدينة، متعربة. أما الآن فإنهم بأنفاس مبهورة وأعين محدقة راحوا يتطلعون الى كائن بشري حطمت مشاعره، يضطرب، كأنه سمكة تمزق حية لتقدم على مائدة عشاء.

لم يكن لها ما يحميها على الاطلاق من نظرتهم. فالجريمة التي اقترفتها يوماً في الظلام تملك الآن ناصيتها لتكشف عن ذاتها أمام عيونهم جميعاً. فقد كان الطابع المتدفق بالحياة للجريمة ذاتها، وليس أي اعتبار آخر متعلق بحسن النوايا أو الفساد الأخلاقي، هو الذي فرضته بمثل هذه القوة البالغة على أفراد الجمهور. وتجاوز كشفها النقاب عن نفسها أي إنجاز يمكن أن تحققه حتى أمهر الممثلات، اللاتي لن يكشفن، في نهاية المطاف، عما قصدته هي. ارتقى الأمر الى حد مواجهة العالم بأسره، وتحويله الى جمهور واحد عملاق. بدا محاميها، الذي وقف الى جانبيها، أشد بؤساً من أن تكون لديه القدرة على تقديم يد المساعدة لها.

وقفت هنالك في هيئة قصيرة، بدينة، بلا شيء يخفف من بؤسها، لا مشط في شعرها، لا حل، لا كيمونو أنيق يجتذب نظر رجل - لكن حقيقة كونها مجرمة كانت كافية لأن ينظروا إليها باعتبارها امرأة.

قال طالب الحقوق، هامساً في أذن هوندا:

- لو كان نظام المحلفين معمولاً به في اليابان، لكانت تلك نوعية القضية التي يدع المحلفون التهمة تفلت بجريرتها. ما الذي يمكنك أن تفعله مع امرأة ذربة اللسان كهذه؟

جلس هوندا معنأ التفكير. ما إن تنطلق العاطفة، بحسب قوانينها، حتى تغدو شيئاً لا سبيل الى مقاومته. تلك كانت نظرية لن يقبلها القانون

الحديث، الذي يعتبر أنه أمر جلي بذاته أن الضمير والعقل يحكمان الانسان .

ثم تحولت خواطره باتجاه أكثر اتساماً بالطابع الشخصي، فعلى الرغم من أنه جاء لتابعة هذه القضية باعتباره مشاهداً غير معني بها على الاطلاق، إلا أنه افتتن بها الآن، غير أنها في الوقت نفسه جعلته يدرك شيئاً آخر: إنه لن ينغمس أبداً في نوعية العاطفة القاهرة الغلابة التي انطلقت مندفعة من تومي ماسودا.

في الخارج، كانت السماء الجهممة قد صفا محياها قليلاً، وتراجع المطر الى زخات قصيرة متقطعة. وتألقت على نحو خفيف قطرات الماء التي تكسو النافذة تحت سنا الشمس.

علق الآمال على أن عقله سيكون على الدوام مثل سنا الشمس ذاك. ولكن جانباً منه اجتذب على نحو لا سبيل الى مقاومته الى ظلام العاطفة البشرية. وكان هذا السواد افتتاحاً لا أكثر. وبدوره كان كيواكي افتتاحاً بدا أنه يقبل طاعياً ليهز نسيج الحياة ذاته، ولكنه بدلاً من أن يكون مانحاً للحياة، حمل معه بذور نهاية فاجعة.

في هذا المناخ النفسي، إذن، قرر هوندا ألا يتدخل في شؤون كيواكي، في الوقت الراهن.

وقع حادث عكر صفو أجواء مدرسة النبلاء، مع دنو موعد الاجازة الصيفية، حيث فقد الأمير باتانانديد خاتمه الزمردى، وغدت المسألة بالغة الخطورة، عندما أصبح معروفاً، بصفة عامة، أن الأمير كريد سادا قد أصبح غاضباً بأن الخاتم قد تعرض للسرقة. أراد الأمير باتانانديد أكثر من أي شيء آخر تسوية الأمر، بأقصى قدر ممكن من الهدوء، وويُخ ابن عمه لفظاظته. ورغم ذلك، بدا جلياً أنه في قرارة نفسه كان يعتقد، بدوره، أن الخاتم قد سُرق.

أثار اتهام الأمير كريد سادا الغاضب استجابة، ليس من العسير التنبؤ بها، من جانب ادارة المدرسة، فقد قالت إن شيئاً من قبيل السرقة هو أمر غير متصور حدوثه، في مدرسة النبلاء. وكان من شأن الاضطراب، الذي أعقب ذلك، أن يتخذ أبعاداً هائلة يقرر معها الأميران اللذان تفاقم شعورهما بالحنين الى الوطن أنها يرغبان في العودة الى سيام. وقد بدأت سلسلة الأحداث التي ستضعهما موضع الصدام مع المدرسة، عندما طلب منها المشرف على القسم الداخلي، في غمار محاولته تقديم يد المساعدة بقدر الامكان، أن يسرد عليهما الأحداث التي سبقت بصورة مباشرة اختفاء الخاتم.

فيما واصل طرح الأسئلة عليهما، بدأت رواية كل منهما تختلف عن الآخر، فقد أجمعاً على أنها انطلقا في نزهة في حرم المدرسة في صدر المساء، وعادا الى القسم الداخلي لتناول طعام العشاء، ثم اكتشفا فقدان الخاتم،

عندما عادا الى غرفتهما عقب ذلك . وذهب الأمير كريد سادا الى أن ابن عمه كان يضع الخاتم في أصبعه خلال النزهة، ثم تركه في الغرفة، قبل العشاء، ومن هنا فإنه يشير الى أن الخاتم لا بد قد تعرض للسرقة خلال تناولهما العشاء . ولكن الأمير باتاناديد نفسه لم يكن على يقين فيما يتعلق بهذه النقطة، كما بدا جلياً من شهادته المتسمة بالغموض . كان متأكداً من أنه كان يتحلى بالخاتم عندما مضى للتريض، ولكنه اعترف بأنه ليس بوسعه أن يتذكر ما إذا كان قد ترك الخاتم في غرفته، خلال وجبة العشاء من عدمه .

كان هذا الأمر شديد الأهمية، بالطبع، فيما يتعلق بتقرير ما إذا كان الخاتم قد سرق من عدمه، ثم عندما سأل المشرف عن الموضع الذي تنزها فيه اكتشف أن الأميرين، وقد اجتذبا المساء البهيج، قد عبرا السور الذي يحيط بتلة الاستعراض، ووقدا بعض الوقت فوق النجيل عند القمة، وهي فعلة تحظرها القواعد المعمول بها في المدرسة . ولم يسمع المشرف حكايتهما لما حدث إلا في اليوم التالي، في أصيل غائم تخللته زخات من المطر . ورغم ذلك فقد قرر أن هناك شيئاً واحداً يتعين القيام به، وطلب من الأميرين القدوم معه في الحال، بحيث يتمكنون ثلاثتهم من القيام بتفتيش دقيق لقمة التلة .

كانت تلة الاستعراض، شاخنة في أحد أركان ميدان التدريب ورغم أنها كانت تلة صغيرة لا تتميز عن غيرها، فإن الإمبراطور ميجي كبد نفسه ذات مرة عناء استعراض مسيرة الطلاب من قممها المعشبة، المسطحة . وهكذا، حولت فيما بعد الى نصب تذكاري لهذه الواقعة، حيث زرع العديد من أشجار الساكاكاي، المقدسة في الشتوية، على قممها، وقام الإمبراطور نفسه بغرس إحداها . واعتبرت المكان الأكثر توقيراً في مدرسة النبلاء، لا يسبقها إلا الحرم المقدس، الذي غرس فيه الإمبراطور شجرة ساكاكاي . اجتاز الأميران السور ثانية بصحبة المشرف، وهذه المرة في وضح النهار،

وتسلقا التلة حتى بلغا القمة. كان النجيل مخضراً من جراء زخات المطر، وبدا بوضوح أن المهمة التي تنتظرهم، وقوامها تفتيش حوالي مائتي متر من سطح التلة، ليست بالمهمة السهلة. وبما أنه لم يبد من المناسب البحث في البقعة، التي رقدا فيها فحسب، فقد قرر المشرف أن عليهم تقسيم المساحة الى ثلاث مساحات، حيث يقوم كل منهم بالبحث في إحداها. وهكذا ومع هطول المطر الذي تزايد الآن على ظهورهم، مضوا يفتشون العشب نبتة فأنخري.

لم يبذل الأمير كريد سادا كبير جهد في إخفاء تردده، وقام بمهمته بقدر من التذمر. غير أن الأمير باتاناديد، وفي ضوء طبيعته السمحة، بدأ تفتيشه عن طوعية، مدركاً أن البحث يدور، في نهاية المطاف عن خاتمه. شرع في البحث عند السفح في القطاع الخاص به وشق طريقه الى القمة باحثاً بدقة بالغة.

لم يسبق له من قبل قط أن أبدى مثل هذا الاهتمام الوثيق بكل نبتة في العشب، ذلك أنه ما كان يجري إلا أشد الاهتمام في البحث؛ لأنه على الرغم من إطار الخاتم الذهبي فلإن زمردته الكبيرة كانت شبه خفية في العشب تحولت زخة المطر الى تقاطر على قفاه، وانزلقت القطرات أخيراً تحت ياقته المحكمة، وتحددت على ظهره، مثيرة لديه شعوراً بالحنين الى رياح المونسون الدافئة في سيام. كان اللون الأخضر الفاتح عند جذور العشب يخلق وهماً، قوامه أن أشعة شمس قد نفذت عبر الجذور، لكن السماء بقيت على تجمهها. هناك وهناك تناثرت أزهار برية بيضاء صغيرة في العشب، وقد انحنت تويجائها تحت وقر المطر، ولكن البياض الذروري الذي يميز بتلاتها ظل على حاله من النضاعة. ولفتت نظر الأمير باتاناديد بقعة متألقة على نحو ناصع تحت ورقة مشرشرة الحافة لنبتة عالية. من المؤكد أن خاتمه ما كان يمكن أن يستقر هنالك، ومع ذلك فقد قلب

الورقة، فوجد خنفساء صغيرة ملونة بألوان براقّة وقد تشبّثت بالجانب السفلي، في محاولة لتجنب المطر.

ذكره التحديق عن مثل هذا المدى القريب في العشب الذي جعله يبدو كبيراً بأدغال بلاده في موسم المطر. وإذ ثبت عينيه على هذا النحو على العشب، استطاع أن يتخيل السحب القزعية، المتجمعة، المتألقة بحدّة يوشيهيا البياض، والسماء في لون اللازورد القاتم، في أحد الجوانب، وإن كانت مظلمة وحبل بالندير، في جانب آخر، بل كان بمقدوره أن يسمع صوت اصطفاق الرعد المدوي.

لم يكن الخاتم هو حقاً الذي جعله على استعداد لبذل هذا الجهد المؤلم. فقد تحامل على نفسه في البحث عبر العشب الذي تحدّى جهوده من أجل استرداد صورة الأميرة تشان.

مهما كان الأمل في النجاح ضئيلاً، كان يقف عند حافة الانخراط في البكاء.

مرت مجموعة من الطلاب، في طريقها الى قاعة التمرينات الرياضية، حاملة المظلات، وملقية بالسترات الواقية من المطر على أكتاف زي التدريب الرياضي الخاص بها. ولدى مشاهدة النشاط الجاري فوق التلة توقف أفراد المجموعة.

كانت شائعة تدور حول الخاتم المفقود قد انتشرت بالفعل في أرجاء المدرسة، ولكن بما أن الطلاب كانوا يعتبرون أن من قبيل التخنث أن يتحلى رجل بخاتم، لم يكن هناك إلا القلائل ممن يستشعرون أقل قدر من التعاطف، أو الاهتمام بفقده، أو البحث المحموم عنه. وبالطبع أدركوا الغرض من الأمر بمجرد رؤيتهم للأميرين، وهما يشقان طريقهما عبر العشب المبلل جاثيين على أربع. كان من الواضح أن الاتهام الذي وجهه الأمير

كريد سادا بأن الخاتم قد سرق قد بلغ مسامعهم، فانتهزوا الفرصة الآن للإعراب عن ضيقهم، بأن كالا لها تعليقات اللاذعة. ولكنهم عندما لمحوا المشرف، ينتصب واقفاً، لينظر باتجاههم، تراجعوا مذهولين. وعندما طلب منهم في هدوء المشاركة في البحث، لفهم الصمت، وولوا الادبار، وتفرقوا أيدي سباً.

أوشك الأميران والمشرف، وكل منهم يعمل من اتجاه مختلف على الوصول الى مركز التلة، وهكذا لم يعد هناك مفر من إدراك أن كل جهودهم يحتمل ألا تسفر عن شيء. لم تعد زخات المطر تنهمر الآن، وأطلت أشعة شمس أواخر الأصيل عبر السحب. راح العشب الندي يتألق فيما هو يلتقط الأشعة المنخفضة الميل، وشكلت الظلال التي ألفتها الأوراق زخارف مركبة على سطحه.

ظن الأمير باتاناديد أنه رأى البريق الذي لا تخطئه عين، والذي يميز الزمردة في كتلة متجمعة من العشب، ولكن عندما دس يديه النديتين في كتلة العشب، لم يجد إلا بريقاً واهناً، متقطعاً، تشوبه اللطخ، ولا يعدو أن يكون ناجماً عن تشابك العشب المبلل، وقد توهج بريق الذهب عند الجذور، دون أن يربطه أدنى شبه بالخاتم.

تناهت قصة البحث الفاشل، فيما بعد، الى سمع كيواكي. ومن المؤكد أن المشرف قدم الدليل على حسن النية بالمساعدة بقدر ما في إمكانه، ولكن لم يكن هناك سبيل الى إنكار أن البحث كان إذلالاً بلا داع للأميرين. وليس مما يثير كبير دهشة أنها إختاروا أن يحولوا الى قضية مثارة، وهكذا أتاحا لنفسيهما عذراً طيباً لحزم أمتعتيهما والانتقال الى فندق «الأميرال». وقد اعترفا لكيواكي بأنها قررا العودة الى سيام في أقرب وقت ممكن.

أحس الأمير ماتسوجاي بأسى بالغ، عندما علم بهذا النبأ من ابنه،

وأدرك أن السباح للأميرين بالعودة الى وطنهما، وهما في حالتها المزاجية والنفسية الراهنة، سيعني تركهما مجروحين الى الأبد، وطوال حياتيهما سيظل موقفهما من اليابان مقترنا بذكرياتهما المريرة عنها. حاول في البداية تخفيف حدة العداء القائم بينهما وبين المدرسة، ولكنه وجد أن موقف الأميرين قد بلغ من التصلب الحد الذي لم يعد معه هناك كبير أمل في القيام بوساطة ناجحة، في الوقت الحالي. ومن هنا فقد وفر على نفسه إهدار الوقت حالياً، بعد أن وصل الى أن أول شيء ينبغي القيام به هو إقناع الأميرين بعدم التوجه الى بلادهما، ثم بعد ذلك التوصل الى أفضل خطة للتخفيف من حدة عدائهما.

وفي غضون ذلك، كانت العطلة الصيفية قد دهمتهم، وبعد التشاور مع كيواكي قرر الأمير دعوة الأميرين الى دارة العائلة المظلة على البحر بمجرد بدء العطلة، على أن يذهب كيواكي معها الى هناك.

كان الأمير ماتسوجاي قد سمح لكيواكي بدعوة هوندا للقُدوم الى الدارة. وهكذا، في اليوم الأول، الذي أعقب انتهاء الدراسة، استقل الشبان الأربعة قطاراً في محطة طوكيو.

حينما كان الأمير ماتسوجاي نفسه يتوجه الى الدارة، القائمة في كاماكورا، كان يتعين أن يستقبله وفد حاشد، على رأسه عمدة المدينة وقائد الشرطة فيها، لدى وصوله إلى المحطة، لتحيته بما يليق من ألوان التكريم. فضلاً عن ذلك، فقد كانت الرمال البيضاء تنقل من الشاطئ، وتثر على امتداد الطريق من محطة كاماكورا الى الدارة القائمة في منطقة هاسي. غير أنه بما أن الأمير قد أبلغ مجلس البلدة بأنه يرغب في أن يعامل الشبان الأربعة باعتبارهم طلاباً فحسب، دون أي لجنة ترحيب، من أي نوع، رغم مكانة الأميرين السيامين، فقد تمكنوا من أن يستقلوا عربات ريكشو في المحطة، وأن يستمتعوا بالمسيرة الى الدار، دون إزعاج من أحد.

كان الطريق الضيق، الذي تلعب فيه الرياح، مكسوً بالأغصان المتدلية، المثقلة، بالخضرة. ولدى اقترابهم من قمة تل منحدر، رأوا البوابة الحجرية للدار تظهر أمامهم، وقد حفر اسمها بحروف صينية، على العمود الأيمن. وكان يطلق عليها اسم دارة شونج - نان، وهو اسم مستوحى من عنوان قصيدة للشاعر، المنتمي الى عصر التانج، وانج وي.

امتدت المزرعة الملحقة بهذه الشونج - نان اليابانية على مساحة ثمانية أفدنة، تشمل وادياً ضيقاً بكامله، ينفتح ممتداً الى شاطئ البحر. وكان

جد كيواكي قد بنى ذات يوم كوخاً مسقوفاً بالقصب هناك، ولكن بعد أن أتى عليه حريق، قبل سنوات، انتهز أبوه الفرصة، في الحال لتشييد دارة صيفية، فسيحة، تضم اثنتي عشرة غرفة للضيوف، تجمع بين الطرازين الغربي والياباني في التصميم. غير أن الحديقة الممتدة من الشرفة، على الجانب الشرقي للدار، قد صممت مناظرها الطبيعية على الطراز الغربي، بصورة كاملة. ومن هذه الشرفة عينها كان بمقدور المرء أن يرى جزيرة أوشيما، ويتألق بركائها في الليل كأنه نار غيم بعيد. وكان من شأن مسيرة لا تتجاوز خمس أو ست دقائق عبر الحديقة أن تصل بالمرء إلى شاطئ يويجها. وفي حقيقة الأمر أن الأمير ماتسوجاي كان بمقدوره بالاستعانة بنظارة ميدان أن يجلس في الشرفة ويرقب الأميرة وهي تمرح في الأمواج المتكسرة على الشاطئ، وهو ترفيه كان يبعث سروراً عظيماً في نفسه. غير أنه كان هناك حقل مزروع بالخضر بين الحديقة والشاطئ، ولإخفاء هذا العنصر من عناصر عدم التوازن غرس صف من أشجار الصنوبر على امتداد الحافة الجنوبية للحديقة. وما إن تنمو أشجار الصنوبر هذه إلى أقصى مراحل نموها، حتى تعوق امتداد الرؤية من الشرفة إلى البحر، ولن يعود بمقدور الأمير تسلية نفسه بالاستعانة بنظارة ميدانه.

يصل جمال موقع الدارة إلى قمته في أيام الصيف الصافية، حيث يمتد الوادي الضيق كأنه مروحة والدارة عند قمة المروحة وطرفاها يتأخنان الحديقة على كل من الجانبين، حيث ينتهي الطرف الأيمن بتوء يطلق عليه اسم رأس اينامورا جازاكي، ويشير الطرف الأيسر إلى جزيرة إيجيما.

لم يكن هناك ما يعوق المشهد الممتد، الذي يجعل المرء يشعر بأن كل ما يضمه المشهد - السماء، والأرض، البحر الذي يعانقه الرأسان - هو جزء من عالم ماتسوجاي. وما من صورة تطفلت على سيادة هذا العالم، اللهم إلا السحب المنتشرة، على نحور رائع، والطيور العابرة، والسفن المارة من

بعيد. وفي الصيف، عندما تكون تكوينات السحب في قمته، يبدو المكان كله كأنما تحول الى مسرح هائل، حيث يشغل النظارة الدارة، ويصبح الامتداد الرهيف للخليج الخشبة الهائلة، التي تؤدي السحب رقصات الباليه المترفة الخاصة بها فوقها.

كانت أرضية الشرفة الخارجية مكسوة بخشب الساج الثقيل، الذي جعل على هيئة مربعات. وقد اعترض المهندس المعماري على تعريض أرضية خشبية لعوادي الطقس، ولكنه أذعن عندما ذكره الأمير في حدة بأن أسطح السفن تصنع من الخشب. ومن النقطة البارزة، المتمثلة في هذه الشرفة، أمضى كيواكي أياماً بكاملها خلال الشهر الماضي وهو يفحص بدقة كل الفروق الدقيقة المراوغة في السحب المتقلبة، من حال الى حال. وغدا سنا الشمس مذهباً، فيما هو يتألق على السحب القزعية، التي تتوج عرض البحر مثل كتل هائلة من الزبد المخفوق، ويتغلغل الى تجاويها العميقة المقوسة. وبينما تقاوم المساحات الغارقة في الظلال الشمس الفاحصة فإن أشعتها الباهرة تلقى قوتها الصارمة النابعة من حوافها البارزة فيما يوشك أن يكون نحتاً بارزاً. وفي خياله اختلقت الأجزاء المعزولة عن الضوء المباشر كلية في طابعها عن تلك التي تعرضت له على نحو باهر، فقد هجعت في سكون، بينما بالمقابل قامت مثيلتها المضيفة بأداء دراما، ذات أبعاد مأساوية، تتوالى أحداثها بلا هوادة. ولكن لم يكن هناك مجال للعنصر البشري، وهكذا فإن الهجوع والتراجيديا معاً انحدار الى شيء واحد، هو لعبة كسول في أفضل الأحوال.

وإذا أمعن النظر في ثبات نحو السحب، فإنه لا يلحظ تغييراً، أما إذا تطلع الى البعيد لحظة، فإنه سيجد أنها قد تبدلت من حال الى حال. ودون إدراك من جانبه للأمر، غدت معرفتها البطولية متشابكة كأنها شعر شعته

الرقاد، وطالما هو يمعن النظر، فإن هذا الاضطراب يدوم بالطريقة الوثيدة في حركتها ذاتها.

ما الذي تحلل؟ في لحظة تسيطر أشكالها الشهباء اللامعة على السماء، وفي اللحظة التالية تنحل، فتغدو شيئاً تافهاً، كيائاً عرضياً أصابه الوهن. غير أن تحللها هو لون من التحرر، ذلك أنه فيما يرقبها تعود بقاياها المتناثرة تدريجياً إلى التشكل، وفيما هي عاكفة على هذا تلقي ظلالاً غريبة على الحديقة، كأنما جيش يحشد قواته في أعالي السماء. يطغى جبروتها أولاً على الشاطئ وحقل الخضر، ثم يتحرك نحو الدارة، فيكتسح الحد الجنوبي للحديقة. تتألق الألوان المنعمة بالحوية للأوراق والأزهار، التي تكسو منحدر الحديقة المرتبة في تقليد لقصر شوجاكوين، كأنها الفسيفساء في سنا الشمس المتألق - أشجار القيقب، الساكاسكي، شجيرات الشاي، شجيرات الأرز القزمة، أشجار الغار، الأضاليا، الكاميليا، الصنوبر، شجيرات البقس، وأشجار الصنوبر الصينية السوداء، وكل الأشجار الأخرى - ثم فجأة يهيمن الظل على كل شيء، ويسود الصمت حتى أنشودة الصرّار، كأنما من قبيل الحداد.

كانت مشاهد الغروب جميلة، على نحو خاص. وقد تخيل كيواكي أنه مع دنو كل غروب كانت كل سحابة تعرف مسبقاً ما هو اللون الذي ستشع به - الأرجواني، القرمزي، البرتقالي، الأخضر الفاتح، أو شيء آخر - ثم تحت وقر اللحظة تشحب السحابة، قبل أن تنتقل إلى ظلها الجديد.

قال تشاوي. وقد تألقت عيناه:

- يا لها من حديقة جميلة! لم يدر بخلدي أن الصيف في اليابان يمكن أن يكون على مثل هذا القدر من البهاء.

فبما وقف الأميران، ذا البشرة الداكنة، في الشرفة السابحة في سنا الشمس، ما كان بوسع كيواكي أن يتخيل أحداً غيرهما وقد بدا في مكانه وموضعه هنالك على هذا النحو. واليوم بدا بوضوح أن مناخهما النفسي المكهفر قد صفا.

وعلى الرغم من أنه وكيواكي قد اعتقدا أن أشعة الشمس أكثر إبهاراً مما يناسب ذوقيهما، فإنها بالنسبة للأميرين السياميين لم تكن إلا دفئاً بهيجاً، على نحو ما تمنيا بالضبط. ووقفوا في الشرفة غارقين فيها، كأنما لم يكن بمقدورهما الحصول على ما يكفي من حرارتها.

قال كيواكي لهما:

- بعد أن تغتسلا، تستريحاً قليلاً، سأقوم بجولة معكما؛ لأطلعكما على معالم الحديقة.

رد كريد سادا:

- ولم الاهتمام بالراحة؟ السنا أربعتنا من الشبان وعلى قدر كبير من النشاط؟

حدّث كيواكي نفسه، قائلاً بأنه أكثر من أي شيء آخر، أكثر من الأميرة تشان، الخاتم الزمردي، أصدقائهما، ومدرستهما، ربما كان ما يحتاجه الأميران هو الشمس المتألقة. وقد بدا أن الصيف لديه القدرة على شفائهما من كل ألوان الاحباط، التي أصيبا بها، وأن يخفف من حزنهما كله، ويستعيد لهما سعادتهما المفقودة.

فبما كان يفكر على هذا النحو في حرارة سيام المتقدة، التي لم يجربها قط، لاحظ في نفسه بدوره افتتاناً معيناً بالصيف، الذي تدفق معلناً حضوره بينهم فجأة. سمع أصوات حشرات الصرّار، وهي تتردد في الحديقة، كانت برودة المنطق قد تبخرت، كأنها عرق بارد على جبينه.

هبط أربعتهم من الشرفة، وتحلقوا حول المزولة العتيقة، التي امتدت في منتصف الرواق الفسيح المحيط بها.

كان النقش «١٧١٦» ظلاً عابراً، محفوراً باللغة الانجليزية على واجهة المزولة، وكانت إبرتها البرونزية المستدقة عربية بديعة على هيئة طائر وعنقه الممتد يشير مباشرة الى رقم اثني عشر بالأرقام الرومانية، بين العلامتين اللتين تشيران الى الشمالي الغربي والشمالي الشرقي تماماً، وراح الظل الذي ألقته يقترب من علامة الساعة الثالثة.

فيما راح هوندا يحك بأصبعه الحرف «ظ» في النقش فكر في سؤال الأميرين عن الاتجاه الذي تقع فيه بلادهما، ولكنه قرر ألا يندفع في مخاطرة لا ضرورة لها بإثارة حنينها الى الوطن ثانية. وفي الوقت نفسه، ودون أن يعتمد ذلك، غير وضعه قليلاً، فحجب الشمس بحيث أن ظله غطى الظل الذي كان يوشك على أن يشير الى الساعة الثالثة.

قال تشاوي. عندما رأى ما فعله هوندا:

- هذا هو المقصود. ذلك هو السر. لو أنك قمت بهذا، طوال اليوم، فإن الزمن سيضطر للوقوف. عندما أعود الى الوطن، سأقيم مزولة في الحديقة، ثم في الأيام التي أشعر فيها بسعادة بالغة، سأمر خادماً بالوقوف الى جوارها، من الصباح حتى الليل، ويغطيها بظله. سأوقف مرور الزمن.

قال هوندا، متنجياً جانباً، ليدع سنا الشمس اللاهبة يسترد الساعة الى المزولة:

- لكنه سيلقى حتفه من جراء ضربة شمس.

رد كريد سادا:

- لا، لا، إن خدماً يمكنهم الوقوف في الشمس طوال النهار، دون أن

يؤثر ذلك فيهم على الإطلاق. والشمس في الوطن أقوى بثلاثة أمثال منها هنا.

استقطب جلد الأميرين الخمري الدافء، تحت سنا الشمس، خيال كيواكي، وأحس بأن مثل هذا الجلد يحتفظ في داخله بظلمة باردة، تنعش على الدوام هذين الشابين، كأنها ظل شجرة باذخة.

ما كان عليه إلا أن يشير إشارة عابرة الى متعة التنزه في الطرقات الجبلية الواقعة خلف الدارة، وفي الحال لم يعد هناك جدوى من أي شيء إلا انطلاق أربعتهم في الحال لاستكشاف هذه الطرقات، قبل أن يتمكن هوندا من تجفيف عرقه، الذي تحذّر من جراء حر الحديقة. وفضلاً عن ذلك، فقد دهش هوندا لمراى كيواكي، الذي كان غارقاً في كسله، وهو يتصدى لقيادة هذا المشروع بمثل هذه الطاقة.

غير أنهم، على الرغم من هواجسه، شقوا طريقهم حتى الهضبة، وهب عليهم نسيم البحر البارد على نحو بهيج، مناسباً عبر غابة الصنوبر الظليلة، الأمر الذي جعلهم ينسون عرق التسلق، فيما هم يستمتعون بإطلالة رجة على شاطئ يوجياهاما.

قادهم كيواكي على امتداد الطريق الضيق، الذي يتبع خط الهضبة، وفيها هم يسرون، بمزيد من النشاط، على أوراق العام الماضي الساقطة على الأرض، ويندفعون عبر نجيل السرخس والخيزران، الذي اعترض مجرى الطريق، على وجه التقريب، استشعروا طاقة الشباب تتوهج بداخلهم، ثم على حين غرة توقف كيواكي، وأشار باتجاه الشمال الغربي.

هتف: بهم كيواكي:

- أنظروا! هذا هو المكان الوحيد الذي يمكنكم منه أن تروه.

كانت مجموعة من الدور المتهالكة، التي يصعب وصفها، منتصبة في

الوادي الذي امتد أسفلهم، ولكنهم لمحو تماثال بوذا كاماكور العظيم يطل
شلتاً ونائياً.

كان كل شيء في تماثال بوذا هذا، من كتفيه المستديرين، حتى طيات
ردائه ذاتها، هائل الحجم. لمحو من الوجه صورته الجانبية، وكان الصدر
واضحاً بصورة جزئية، فيما هو يبدو ناتشاً، الى حد ما، فيما وراء خطوط
الردن الرشيق، التي تنساب بنعومة متحدرة من الكتف، وانهل سنا
الشمس المتألق على البرونز الوهاج للكتف المستديرة وارتد أنواراً الآفة من
الصدر البرونزي العريض. كان الغروب يدنو، ووقعت الأشعة على
الحلزونات البرونزية الملتفة، كالشعر على رأس بوذا، وبرز كل منها نافراً.
وبدت شحمة الأذن متدلية، كأنها ثمرة جافة على شجرة استوائية.

فاجأ الأميران السياميان هوندا وكيواكي بجشوهما، فور مشاهدتهما
للتماثال. ودونما تفكير من سراويلهما الكتانية البيضاء الحديثة الكي، ركعا
دونما تردد على الأوراق المبللة المتحللة، التي تكسو الطريق، فيما راحت
أيديهما منبسطة في توقير باتجاه التماثال البعيد السابح في أشعة الشمس
الصيفية.

كان الشابان الآخران من الافتقار الى التوقير بحيث تبادلنا نظرة عجل.
كان التدين المتني الى هذا النوع بعيداً للغاية عن تجربتهما، الى حد أنه لم
يخطر لهما على بال قط أنها سيصادفانه في حياتيهما. لم يكن الأمر متمثلاً في
أنهما شعرا بأذن ميل الى السخرية من إخلاص الأميرين السيامين المثالي،
ولما أحسا بأن هذين الشابين، اللذين درجا على اعتبارهما مثلهما، قد حلقا
فجأة، مبتعدين الى رحاب عالم تعد مثله العليا ودينه أموراً غريبة بالنسبة
لها تماماً.

أعقت جولة شاملة في الحديقة النزهة في الجبال الواقعة وراء الدار، فامتص هذا الجهد طاقتهم، بحيث أن أربعتهم أحسوا، أخيراً، بالسعادة لنيل قسط من الراحة، في غرفة المعيشة بالدائرة. وهناك استمتعوا بنسيم البحر من الشرفة، فيما هم يرتشفون عصير الليمون، المجلوب من يوكوهاما، والمبرد في بثر الدائرة. وسرعان ما استعدوا للانطلاق مجدداً. وفي هذه المرة استسلموا للدافع الذي حداهم للعود في البحر قليلاً، قبل الغروب، وأسرعوا الى غرفهم لارتداء ملابس مناسبة، بحسب ذوق كل منهم. فارتدى كل من كيواكي وهوندا مئزرين، من النوع المستخدم للسباحة في مدرسة النبلاء، وفوقهما ارتديا رداءين صافيين من القطن، تحليهما الزخرفة التي تأخذ شكل ريشة واللذين يكملان الزي الرسمي، ثم اعتمرا قبعتين من القش، وأوشكا على شق طريقهما الى الشاطئ، ولم يعطلها الأميران السياميان. وعندما ظهر هذان الأخيران، كانا يرتديان طاقمي استحمام انجليزيين مخططين يكشفان عن أكتافهما الخمرية، على نحو يضيف عليهما جاذبية.

امتدت صداقة كيواكي وهوندا طويلاً، ولكن كيواكي لم يوجه إليه الدعوة من قبل قط لزيارة دارة العائلة خلال الصيف، وإن كان قد جاء مرة في الخريف لجمع حبات الكستناء. ومن هنا كانت تلك هي المرة الأولى التي يمضي فيها للسباحة مع كيواكي، منذ كانا صبيين في دارة المدرسة، الواقعة على شاطئ كاتاسي، عندما لم تكن علاقتهما الحميمة الحالية قد بدأت بعد.

اندفع أربعتهم، على نحو طائش، عبر منحدر الحديقة، واجتازوا حاجز أشجار الصنوبر الصغيرة، واندفعوا عبر حقل الخضراوات الضيق الى شاطئ البحر.

هنا، توقف هوندا وكيواكي، ليؤديا تمارين الجمباز، التي ينصح بها قبل السباحة، وهو إجراء شكلي جعل الأميرين السياميين ينفجران ضاحكين. وربما كان هذا نوعاً مخففاً من الرد على اليابانيين، لعدم مشاركتها لهما في الركوع لتمثال بوذا العظيم النائي. ومن منظور الأميرين، كانت هذه العقوبة الذاتية الحديثة، المتمحورة حول الذات كلية، هي أكثر الأمور طرافة في الدنيا.

غير أن طبيعة ضحكهما ذاتها، أوضحت أنهما يشعران بالارتياح أكثر من ذي قبل، فلم يسبق لهما منذ وقت طويل أن لاحا على مثل هذا القدر من المرح، وبعد أن استمتعوا بالسباحة حسبما طاب لهم، أحس كيواكي بأن بمقدوره أن ينسى الاضطلاع بدور المضيف لبعض الوقت، وابتعد الأميران السياميان ليتحدثا بلغتهما الوطنية، وراح كيواكي وهوندا يتحدثان باليابانية، الى أن لف النعاس أربعتهم على الشاطئ.

شاب صفاء الشمس الغاربة غشاء خفيف من السحب، كانت قد فقدت الكثير من حرارتها السابقة، ولكن هذا الوقت كان من الأوقات البهيجة التي يحلو فيها الرقاد تحت أشعتها الغاربة، وخاصة بالنسبة لشخص بشرته بيضاء مثل كيواكي، الذي قام، وهو لا يرتدي إلا مئزره الأحمر، بالارتقاء على الرمال، ووجهه الى أعلى، وعيناه مغمضتان.

الى يساره جلس هوندا، متربعا، على الرمال، محدقا في مياه الخليج. وعلى الرغم من أن البحر كان هادئا فإن أمواجه المتهداية قد فتنته. وفيما هو يتطلع بدا سطح البحر في مستوى ناظريه. حدث نفسه قائلاً بأنه كم يكون غريباً لو أن البحر انتهى فجأة واستسلم للبر أمام ناظريه.

واصل صب الرمل من راحة يد الى أخرى، وعندما نثر جانباً كبيراً منه، في غمار هذه العملية، مدّ يده، وبدأ فيها من جديد تلقائياً، بملء قبضة جديدة من الرمل، وقد ملأ البحر خاطره تماماً.

كان البحر ينتهي على بعد أقدام قليلة من مجلسه. كان البحر الرحب، الشاسع، بكل قوته الهائلة ينتهي هنالك أمام ناظره. ليس هناك شيء يثير الرهبة مثل الحد النهائي، سواء أكان حداً في رحاب الزمان أو المكان. بدا له أن وجوده في هذا الموضع مع رفاقه الثلاثة، عند هذا الحد العجيب بين البر والبحر، شبيهاً للغاية بكون المرء يحيا فيما عصر ينتهي ويبدأ عصر آخر، بكونه جزءاً من لحظة عظيمة في التاريخ، ثم إن مدّ العهد الذي يحيا فيه وكواكي لا بد أن يأتي عليه حين من الدهر ينحسر فيه، وأن يكون له شاطئ ينكسر عليه، وحاجز لا يملك تجاوزه.

انتهى البحر هناك أمام ناظره، وفيما هو يرقب الاندفاع الأخيرة لكل موجة، بينما هي تتداح في الرمل، الانطلاقة النهائية لقوة هائلة تهاوت عبر قرون لا حصر لها، أذهله ما يأخذ بمجامع القلب في الأمر كله. عند تلك النقطة ذاتها، أخفق مخطط هائل لعموم المحيط شمل العالم بأسره، وانتهى في رحاب العدم.

مضت الأمواج، التي تبدأ على مسافة بعيدة في عرض البحر، عند موضع تستدق فيه رؤوسها الشهباء، خلال أربع أو خمس مراحل، تبدو كل منها للعيان في اللحظة ذاتها، الاندفاع، الوصول الى القمة، الانكسار، انحلال قوتها، والانحسار، في عملية دائبة التكرار.

يصدر عن الموجة المنكسرة زثير غاضب، فيما هي تكشف عن بطنها الناعم، القاتم الخضرة، ويتطاوّل الزثير، متحولاً إلى صيحة، والصيحة إلى همسة. تراجع صف الجياد الشهباء المهاجمة، مفسحاً الطريق لصف من

جياذ أصغر، الى أن اختفت الجياذ الغاضبة تدريجياً بصفة كاملة، دون أن تخلف وراءها إلا الآثار الأخيرة لحوافرها الصاكة على الشاطئ.

اصطدم بخشونة أثران منداحان من اليسار الى اليمين مثل مروحة، وغاصاً في مرآة سطح الرمل البراقة. وفي تلك اللحظة، دبت الحياة فيما انعكس على المرآة، التي التقطت الموجة التالية ذات القمة الشهباء، فيما هي توشك على أن تهوى منداحة، صورة رأسية حادة تألفت مثل صف من الدلاء الجليدية.

وفيا وراء الانحسار، حيث واصلت أمواج أخرى التقدم واحدة إثر الأخرى، لم تتكون لأي منها قمم شهباء ناعمة، ومراراً وتكراراً تندفع مهاجمة، مترصدة هدفها بعزم. ولكن عندما تطلع هوندا نحو البعيد في البحر، لم يستطع الهرب من الشعور بأن القوة البادية لهذه الأمواج، التي تلطم الشاطئ، لا تعدو أن تكون تبدداً نهائياً، واهناً، مخففاً.

وكلما نظر المرء الى مدى أبعد، ازداد قتام اللون الذي يلف الماء، الى أن يصبح في نهاية المطاف لوناً قائماً يجمع بين الزرقة والخضرة. بدا الأمر كما لو أن المكونات غير الضارة للمياه القريبة من الشاطئ تزداد تكثفاً من خلال الضغط المتزايد للماء فيها هو يزداد عمقاً، وتتكثف خضرته مراراً وتكراراً لتفرز مادة خالدة تجمع بين الخضرة والزرقة، مادة خالصة لا سبيل الى اختراقها كاليشب البديع، تمتد حتى الأفق. وعلى الرغم من أن البحر قد يبدو شاسعاً وعميقاً، فإن هذه المادة هي لحمه المحيط وسداه. شيء يتبلور متحولاً الى الزرقة فيما وراء تصخاب الأمواج السطحي العابت - ذلك هو البحر.

راح يحرق في البعيد، وأخيراً غدت أفكاره من الكثافة والتشابك بما يكفي لإرهاق مقلتيه وذهنه، فالتفت ليلقي نظرة على كيواكي، الذي راح

يغط الآن في نومه بمزيد من الاطمئنان. بدت بشرة جسمه الرشيق أشد
بياضاً بالمقارنة بالمتزر الأحمر الذي كان هو كل ما يستتر به. فوق المتزر.
وعلى بطنه الشاحب الذي راح يصعد ويهبط بخفة في غمار تنفسه، استقر
بعض الرمل، وقد جف الآن وشظايا صغيرة من قوقعة بحرية. ولما كان قد
رفع ذراعه اليسرى، ليضعها وراء رأسه، فقد بدا جانبه الأيمن، المغطى
عادة، مكشوفاً لهوندا، ووراء الحلمة اليسرى التي ذكرته ببرعم كرز صغير
لفتت نظره مجموعة مؤلفة من ثلاث شامات. أحس بأن هناك شيئاً غريباً
فيما يتعلق بهذه الشامات الثلاث. لماذا يتعين أن يحمل لحم
كيواكي علامة من هذا القبيل؟ وعلى الرغم من أن الصداقة جمعتها منذ
وقت طويل، فإنه لم يرها من قبل قط، والآن أحرجه كثيراً أن يواصل
التطلع إليها، كأنما اعترف كيواكي له فجأة بسر كان من الخير أن يترك طبي
الكتمان. ولكنه عندما أغمض عينيه رأى الشامات السوداء وكأنما تركزت
عليها بؤرة نظره تحت جفنيه، فبدت واضحة كأنها أشكال ثلاثة طيور بعيدة
تحلق عبر السماء التي كساها المساء، وقد أنارتها الشمس الغاربة على نحو
بالغ التآلق. وفي خياله رأى الشامات الثلاث تستحيل طيوراً مصطفقة
الأجنحة، ثم تمر فوق رأسه.

عندما فتح عينيه من جديد، كان صوت واهن يتناهى من أنف كيواكي
البديع التكوين، وأسنانه تتألق ندية وصافية البياض من خلال شفثيه
المنفرجتين قليلاً. ورغماً عن إرادة هوندا وقعت عيناه على الشامات التي
تعلو جانب كيواكي من جديد. وفي هذه المرة حدث نفسه بأنها تبدو مثل
بعض حبات الرمل التي غرست نفسها في بشرته البيضاء.

انتهت المنطقة الجافة من الشاطئ عند أقدامهما مباشرة، وهنا وهناك
تلاطمت الأمواج فيما وراء حدها المعتاد وتركت أشكالاً متداخلة من الرمل
المبلل خلفها، نوعاً من النحت البارز الذي حفظ أثر الموج. انغرس ها

هنا ايضا أحجار وقواقع وأوراق أشجار ذاوية، كأنها حفريات قديمة، ودعم كل حصة بالغة الضالة من بينها جدولها الخاص المؤلف من الرمل المبلل، ليبرهن على كيفية محاربته للموج المرتد.

وكان هناك ما يزيد على الحصى والقواقع والأوراق الداوية، فقد طُوح البحر بتشابكات من الأشنة البنية والشظايا الخشبية وجزئيات القش، بل وقشور ثمار البرتقال، فثبتت في الرمال. وحدث نفسه بأن من الممكن أن يشق بعض الحبوب المبللة طريقه الى البشرة البيضاء التي امتدت مشدودة على جنب كيواكي.

وبما أنه وجد هذه الفكرة مثيرة للانزعاج للغاية، فقد حاول التفكير في طريقة ما لإبعاد الحبوب دون إيقاظ كيواكي، ولكن فيما استمر في النظر أدرك أن العلامات السوداء التي تتحرك على نحو طليق وطبيعي مع ارتفاع وانخفاض صدر كيواكي لا يمكن أن تكون مادة غريبة عن صديقه، وإنما كانت جزءاً منه، وبالتالي لا يمكن أن تكون إلا الشامات السوداء، على نحو ما ظنها في أول الأمر.

أحس بأن هذه الشامات هي بمثابة نوع من الخيانة لكمال كيواكي الجسدي.

وربما أحس كيواكي بنفاذ النظرة، لأنه فتح عينيه فجأة، فلمح تحديق هوندا، على نحو مباشر، ثم رفع رأسه وبدأ في الحديث فجأة، كأنما ليمنع صديقه المحرج من الهرب منه.

- أتفعل شيئاً من أجلي؟

- أجل.

- لم أت إلى هنا، حقيقة، لأقوم بدور الممرضة للأميرين، ذلك عذر

جيد، لكني أريد بالفعل أن أثير في نفس الجميع الانطباع بأنني لست في طوكيو. أتفهم ما أرمي إليه؟

- لقد ضمنت أنك تفكر في شيء من هذا القبيل.

- ما أريد القيام به هو تركك والأميرين هنا في بعض الأوقات والعودة الى هناك، دون أن يدري أحد من الأمر شيئاً، فليس بمقدوري قضاء مدة تصل الى ثلاثة أيام بدونها، وهكذا سيقع على كاهلك أن تتدبر الأمور مع الأميرين خلال غيبيتي، وأن تعد حبكة مقنعة في حالة إذا تصادف أن اتصل أحدٌ هاتفياً من طوكيو. الليلة سأمضي في عربة الدرجة الثالثة بالقطار الأخير المتجه الى طوكيو، وسأعود بأول قطار في الصباح. فهل تقوم بذلك من أجلي؟

قال هوندا مؤكداً:

- سأقوم بذلك.

ابتهج كيواكي بموافقة صديقه الحازمة، ومدَّ يده ليصافحه، قبل أن يستأنف الحديث.

- أحسب أن أباك سيشهد جنازة الأمير أريسو جاوا الرسمية.

- نعم أعتقد ذلك.

- كان شيئاً طيباً من الأمير أن يلقي حتفه في هذا التوقيت، وكما سمعت بالأمس، سيضطر آل توينامايا، راغمين، إلى تأجيل حفل الخطبة لبعض الوقت.

ذكرت هذه الملاحظة هوندا بأن حب كيواكي لساتوكو مختلط، على نحو لا فكاك منه، مع مصالح الأمة بأسرها، فأخذته الرعدة حيال ما في الأمر من خطر.

هنا قاطع الأميران، اللذان أقبلا عدوا في سرعة يشوبها حماس بالغ حتى
لقد أوشكا أن يتعثرا فيقع أحدهما فوق الآخر، حديث الصديقين. وتحدث
كريد سادا أولاً، مجاهداً ليلتقط، في وقت واحد، أنفاسه وليعبر عما يريد
بلغته اليابانية التي لم يتمالك نصها تماماً.

تساءل:

- أتعرفان فيم كنا نتحدث تشاوبي وأنا؟ كنا نناقش تناسخ الأرواح.

عندما سمع الشابان اليابانيان هذا نظرا، بعفوية، أحدهما الى الآخر، وهو رد فعل غريزي فانت دلالتة على كريد سادا، الذي كان من النوع المندفع، لا يميل الى قراءة التعبيرات، التي ترتسم على ملامح السامعين. أما تشاوي فقد تعلم الكثير من فترة الأشهر الستة، بما حفلت به من تعامل مع ضروب التوتر، التي تثيرها الإقامة في بيئة أجنبية. والآن وعلى الرغم من أن بشرته كانت أشد سمرة من أن تفصح عن شيء جلي، مثل التضرج بالحمرة، فقد تردد بوضوح في مواصلة مثل هذا الحوار. ورغم ذلك فقد استمر فيه مستخدماً انجليزيتة الطليقة؛ ربما لأنه أراد أن يبدو حديثه بعيداً عن السذاجة:

- عندما كنت وكري طفلين، اعتدنا أن نسمع أقاصيص شتى من «جاتاكا سوترا». وكانت مربيائنا تحكي لنا كيف أن بوذا اجتاز عمليات بعث عديدة، بينما كان لا يزال بوذيساتق^(١) في صورة تم ذهبي، طائر

(١) بوذيساتق: سبق لنا أن فضلنا القول، فيما يتعلق بالبوذيساتق، في شروحنا على هوامش كتاب أنطوني يو، الموسوم «مقدمة المس - يوتشي». ولا سبيل لفهم هذا المفهوم الدقيق في الفكر البوذي، إلا من خلال ما يسمى بـ «المثال الأعلى للبوذيساتق». وبأبسط المعاني، يمكن القول بأن المقدمة الجوهرية لهذا المثال هي ضرورة أن تتم، في نفس المرء، عملية توليد لفكرة الاستنارة، وحتمية الوفاء بالتعهد، بأن يغدو المرء هو نفسه بوذا، متخلياً عن الدخول الى النيرفانا، ليظل في العالم، طالما أن هناك مخلوقات يتعين إنقاذها من المعاناة. وبهذا يبدأ السائر في =

سيان، قرد، أيل كبير، وما الى ذلك. هكذا رحنا نخمن قبل قليل ما كان يمكن أن نكون عليه، في حيواتنا السابقة. غير أنني أخشى أننا لم نتفق على الاطلاق؛ فقد ذهب الى القول بأنه كان غزلاً، وأني كنت قرداً، وأصررت أنا على أن الأمر كان على العكس من ذلك تماماً، فقد كان هو قرداً، بينما كنت أنا غزلاً. ولكن ما قولكما في هذا؟ سنترك الحكم لكما.

أياً كانت الطريقة التي سيردان بها، فإنهما يخاطران بمضايقة أحدهما، ولذا اكتفيا بالابتسام، أملين في أن يكون ذلك بمثابة رد كاف. ثم قال كيواكي، في ضوء رغبته في تغيير الحديث باتجاه آخر، إنه لا يعرف شيئاً عن «جاناكا سوترا»، وتساءل عما إذا كان بمقدور الأميرين التكريم بسرد إحدى أقاصيصها عليه وهوندا.

قال تشاوبي.

- سيسعدنا ذلك، وهناك قصة تدور حول التمثال الذهبي، على سبيل المثال. وقد وقعت هذه القصة عندما كان جوتاها لا يزال بوذيساتق، خلال بعثته الثاني. وكما تعلم، فإن البوذيساتق هو شخص يسلك مختاراً طريق الزهد والمعاناة، قبل أن يلج رحاب الاستنارة الكاملة لكونه بوذا. وفي وجوده السابق كان جوتاما نفسه بوذيساتق. وضروب التقشف التي يعيشونها هي أعمال الـ «باراميتا»، أي الأعمال الطيبة، التي يقوم بها المرء حيال الآخرين، والتي من خلالها يعبر المرء من هذا المجتلى الى مجتلى الاستنارة الكاملة. ويقال إن بوذا، عندما كان بوذيساتق، قد أفاض بالآله على

= الطريق مسيرة البوذيساتق، التي تشمل عشر مراحل أو مستويات روحية، وتطهره من خلال ممارسة عشرة ضروب للكمال، واجتياز هذه المسيرة ليسمو بالبوذيساتق الى وضعية البوذا. لاحظ أن تفسير ميشيا لهذا المفهوم، بعد سطور، مغرق في التبسيط. (هـ. م.).

البشر، وقد بعث في أشكال عديدة، وهناك أقاصيص شتى عن الأعمال الخيرة التي قام بها.

فعل سبيل المثال، ولد بوذا، في سالف العصر والأوان، لعائلة من البراهمة، وتزوج من امرأة، تنتمي الى عائلة أخرى من البراهمة، وبعد أن أنجب منها ثلاث بنات، مات، الأمر الذي أجبر أرملة وبناته على السكن مع غرباء عنهن.

ولكن بعد موته، باعتباره من البراهمة، بعث البوذيساتق في جوف تم ذهبي، وحمل معه المعرفة التي ستجعله في وقت لاحق على تمام الوعي بوجوده السابق. وهكذا كبر البوذيساتق، فغداً نمأً كبيراً، يكسوه الريش الذهبي ولا مثيل له في بهائه. وعندما كان ينساب في الماء كان يلتمع كالبدر في تمامه، وحيناً يخلق عبر الغابة كانت أوراق الأشجار التي يسها تبدو مثل سلة ذهبية، وحين يجم على غصن كان يبدو كما لو أن الشجرة طرحت ثمرة ذهبية رائعة.

أدرك التم أنه كان في حياته السابقة رجلاً، وكذلك أن زوجته وبناته اضطرون للسكن مع غرباء، متبلغات بما يحصلن عليه من قوت، لقاء ما يستطعن العثور عليه من عمل.

قال التم لنفسه ذات يوم: إن أياً من ريشاتي يمكن أن تُطرق، فتتحول الى سبيكة من ذهب، وتباع. وهكذا سأعطي، من حين لآخر، ريشة لقريباتي، البائسات، اللاتي تركتهن يعشن مثل هذه الحياة القاسية في دنيا الرجال.

وهكذا، ظهر التم عند نافذة الدار، التي تسكنها زوجته وبناته، وعندما رأى مدى بؤس حالهن، غلبه الإشفاق.

وفي غضون ذلك، ذهلت زوجته وبناته لمراى التم المتألق، على حافة

نافذتهن. صحن: يا له من طائر جميل! من أين قدمت؟

- كنت يوماً زوجاً لأمكن وأباً لكن، وبعد مماتي بعثت في جوف تم ذهبي. والآن ها قد جئت لأبدل حياتكن البائسة، وأحيلها الى حياة تفيض بالسعادة والوفرة.

قال التم هذا، وأسقط إحدى ريشاته، وحلّق بعيداً، وفيما بعد جاء إليهن، في فترات منتظمة، وترك ريشة على النحو ذاته، وسرعان ما تحسنت حياة الأم وبناتها الثلاث كثيراً.

غير أنه في يوم من الأيام حدثت الأم البنات.

قالت لهن: ليس بمقدورنا الوثوق بالتم، حتى ولو كان والدكن حقاً. من يدري، ألا يمكن أن يكف عن المجيء ذات يوم؟ لذا فحينما يجيء في المرة المقبلة سنترع ريشه بأسره.

قالت البنات، معترضات على هذا أشد الاعتراض: أماء، ما أشد هذه القسوة!

ورغم ذلك، ففي المرة التالية، التي ظهر فيها التم في النافذة انقضت عليه المرأة الطماعة وأمسكته بكلتا يديها، وانتزعت ريشه بأسره، ولكن كل ريشة ذهبية تحولت، ويا للغرابة، الى ريشة بيضاء، كأنها ريشة مالك الحزين، فيما هي تنتزعها. ودون أن ترعوى الزوجة السابقة، أمسكت بالتم العاجز، ودفعت به الى قفص كبير، فارغ، فيما هي تنتظر، في استخداء، نمو الريش الذهبي، من جديد. ولكن عندما ظهر الريش كان ريشاً أبيض عادياً، وعندما اكتمل نمو ريشه حلّق مبتعداً، وتضاءل شبحه أكثر فأكثر في صفحة السماء، الى أن غدا نقطة بيضاء ضائعة في السحب، لا تقع عليها العين. تلك كانت إحدى أقاصيص الـ «جاتاكا سوترا» التي اعتادت مربياننا سردها على مسامعنا.

دهش هوندا وكيواكي إذ وجدا أن العديد من الحكايات الخرافية، التي رويت لهما، تماثل الى حد كبير القصة التي رواها الأمير، ثم انعطفت الحوار الى التناسخ ذاته وما إذا كان معقولاً كمذهب من عدمه.

ولما كان كيواكي وهوندا لم يسبق لهما من قبل قط الحديث عن أمر كهذا، فمن الطبيعي أنها أحسا بالحيرة والاضطراب. تطلع كيواكي الى هوندا وفي عينيه نظرة مفعمة بالتساؤل. فعلى الرغم من عناده، إلا أنه يبدأ على الدوام في الشرود، عندما تجري مناقشات مجردة. وقد استحثت نظرتة الآن هوندا على القيام بشيء ما، كأنما كان يخزّه بمناخس فضية في خفة.

شرع هوندا في الحديث، وقد شف صوته عن شغف مؤكد:

- لو كان هناك شيء من قبيل التناسخ لحبّذته الى أبعد حد، إذا كان من النوع الموجود في قصتك، حيث الرجل نفسه يدرك وجوده السابق، ولكن لو أن الأمر كان أمر انقطاع شخصية إنسان وضياح وعيه بذاته، بحيث لا يعود هناك أثر لهما في حياته المقبلة، ولو أن شخصية جديدة تماماً ووعياً مختلفاً كلية بالذات قد وجدا، في تلك الحالة، أعتقد أن عمليات التناسخ المختلفة الممتدة عبر فترة من الزمن ليست مرتبطة إحداها بالأخرى بشكل له مغزاه أكثر من حيوات كل الأفراد، الذين يتصادف وجودهم على قيد الحياة، في اللحظة عينها. وبتعبير آخر، فلإنني أحس بأنه في مثل هذه الحالة فإن مفهوم التناسخ سيكون بلا معنى، على الصعيد العملي. ينبغي أن يكون هناك شيء يجري تمريره في غمار عملية التناسخ، ولكني لا أفهم كيف يمكننا أن نأخذ أي عدد من الحيوانات المنفصلة والتميزة والتي لكل منها وعيها بذاتها ونصنفها معاً باعتبارها حياة واحدة، زاعمين أن وعياً واحداً يوحدها. ونحن حالياً لا نتذكر كل منا حتى حياة واحدة سابقة. وهكذا، من الواضح أنه سيكون من العبث أن نحاول تقديم أي دليل على التناسخ. وهناك طريقة واحدة يمكن من خلالها البرهنة عليه: وهي أن

تتمتع بوعي ذاتي بالغ الاستقلال الى حد أن هذا الوعي يمكنه أن يقف مستقلاً عن كل من هذه الحياة والحيوات السابقة، وينظر إليها على نحو موضوعي. ولكن الحال هو أن وعي كل إنسان قاصر على ماضٍ أو حاضر أو مستقبل تلك الحياة الواحدة. وفي غمار عجاج التاريخ، يبني كل منا ملاده الخاص الصغير المؤلف من الوعي الذاتي، ولا نستطيع قط أن نفارقه. ويبدو أن البوذية تشق طريقاً وسطاً، لكن الشكوك تخالجي: هل هذا الطريق الوسط مفهوم عضوي يملك الانسان إدراكه؟

«ولكن لنعد إلى الوراء قليلاً... لو أننا سلمنا بأن كل المفاهيم الإنسانية هي محض أوهام، فإنك لكي تميز بين الأوهام المختلفة الناجمة عن عمليات بعث سابقة والأوهام الخاصة بالبعث الحالي لتلك الحياة ذاتها، يتعين عليك أن تكون قادراً على مراقبتها جميعها، من منطلق مستقل تمام الاستقلال، فعندما يتنحى المرء جانباً، على هذا النحو فحسب، تتجلى حقيقة التناسخ. ولكن عندما يكون المرء نفسه في غمار وجود بعث -تياً، فإن الأمر بأسره سيظل حتماً لغزاً أبدياً. فضلاً عن ذلك، فيما أن هذا المنطلق المستقل يحتمل أنه ما يدعى بالاستنارة الكاملة، فوحدة الانسان الذي تجاوز البعث يمكنه إدراك حقيقته. ألا يعني هذا إذن أننا سنكون بإزاء حالة قوامها فهم الأمر في نهاية المطاف في وقت لم تعد لهذا الفهم جدوى؟ هناك وفرة من الموت في حيواتنا. ونحن لا نفتقر قط الى ما يذكرنا بهذا: الجنائزات، المقابر، باقات الأزهار التذكارية الذابلة، الذكريات عن الموق، وفيات الأصدقاء، ثم توقع موتنا. من يدري؟ ربما كان الموق على طريقتهم الخاصة يهتمون بالحياة كثيراً. ربما يتطلعون على الدوام باتجاهنا من أرضهم - الى كل منا نحن الذين عدنا واحداً إثر الآخر من رحاب الموت الى أرض الأحياء.

«ما أريد قوله هو أن التناسخ ربما لا يعدو أن يكون مفهوماً يقلب الطريقة

التي عادة ما ننظر بها نحن معشر الأحياء الى الموت، مفهوم يعبر عن الحياة منظوراً إليها من وجهة نظر الموت. أتفهمون ما أعني؟

رد تشاوي. ، في هدوء:

- ولكن كيف يتأتى أن أفكاراً ومثلاً معينة تنقل الى الدنيا بعد موت إنسان ما؟

- تلك مشكلة أخرى مختلفة عن التناسخ!

قالها هوندا مؤكداً، وقد وُثِّىَ صوته بمسحة من نفاذ صيبر، عادة ما يتعرض له الشباب من ذوي الألمعية.

تساءل تشاوي. ، بالصوت الرقيق ذاته:

- لماذا تختلف؟ يبدو أنك على استعداد للإقرار بأن المعنى عينه للوعي الذاتي قد يتلبس أجساماً مختلفة، بصورة متوالية، على امتداد فترة من الزمن. فلماذا تعترض إذن بمثل هذه القوة على المعاني المختلفة للوعي الذاتي إذ تتلبس الجسم ذاته على امتداد الفترة نفسها؟

- الجسم نفسه لقط ولكائن بشري، وفقاً لما سبق لك أن قلته، فالمسألة تتعلق بالضرورة إلى إنسان، ثم، سمان، غزال، وهلمّ جراً.

- نعم، الجسم نفسه، بحسب مبدأ التناسخ، حتى على الرغم من أن اللحم نفسه قد يختلف، وطالما أن الوهم نفسه مستمر، فليست هناك صعوبة في أن نطلق عليه الجسم نفسه. غير أنه، بدلاً من القيام بذلك، ربما كان من الأفضل أن نسميه بالتيار الحيوي عينه.

ولقد فقدت خاتمي الزمردي ذلك، الذي كان كنزاً من الذكريات بالنسبة لي. لم يكن شيئاً حياً بالطبع، وبالتالي فلن يولد من جديد. ولكن مع ذلك، فإن فقدان شيء ما هو أمر له أهميته ومغزاه، وأعتقد أن فقدان هو المصدر

الضروري لتجلىّ جديد. وربما أرى، ذات ليلة، خاتمي نجمة خضراء
تأتلق، في موضع ما من السماء.

فجأة، نخلى الأمير عن مناقشة هذه المسألة، وقد غلبه الحزن، على ما
يبدو.

رد كريد سادا، بسداجة بالغة:

- تشاوي. ، ربما كان الخاتم شيئاً حياً بالفعل، تعرّض لتحول خفي، ثم
انطلق عدواً على قدميه.

قال تشاوي. ، وقد بدا الآن مستغرقاً تماماً في التفكير في حبيبته:

- ثم، في تحول جديد كامل قد يبعث في هيئة مخلوق جميل، مثل الأميرة
تشان. إنهم يواصلون القول لي في رسائلهم بأنها على ما يرام. ولكن لم لا
تكتب لي هي بنفسها؟ ربما كانوا جميعاً يحاولون حمايتي من شيء ما.

في غضون ذلك، تجاهل هوندا كلمات الأمير الأخيرة، حيث غرق تماماً
في التفكير في اللغز الذي طرحه هذا الأخير، قبل دقائق قلائل. من المؤكد أن
بمقدور المرء التفكير في الإنسان لا باعتباره جسماً، وإنما بحسابه تياراً حيوياً
واحداً. ومن شأن هذا أن يسمح للمرء بإدراك مفهوم الوجود باعتباره شيئاً
حركياً ومستمرّاً أكثر منه شيئاً جامداً وساكناً. وعلى نحو ما قال تماماً فليس
هناك فارق بين وعي مفرد، له تيارات حيوية مختلفة، على التوالي، وبين
تيار حيوي مفرد، يحرك ضرورياً مختلفة من الوعي، بالتتابع. ذلك أن الحياة
والوعي الذاتي سيندمجان في كل واحد. ولو أن المرء قدّر استقراراً هذه
النظرية الخاصة بوحدة الحياة والوعي الذاتي، فإن بحر الحياة بأسره
بلا نهائية تياراته - عملية تناسخ الأرواح الهائلة التي تدعى في السنسكريتية

بـ «السمسارة»^(١) - سيمتلك ناصيتها وعي واحد.

بينما هوندا يرتب أفكاره، ازداد الظلام المخيم على الشاطئ، واستغرق كيواكي في بناء معبد من الرمال، مع كريد سادا. لم تستجب الرمال لعملية إقامة الأبراج العالية مستدقة الأطراف، وأركان الأسقف الملتوية الى أعلى التي تميز المعابد السيامية. ومع ذلك فقد أضاف كريد سادا بمهارة الرمال المبللة بالماء وأقام منها قمماً رشيقة، وبنى في حذق أطراف السقف، كأنما هو يعكف على اجتذاب أصابع امرأة خمرية، دقيقة، من ردها. وللحظة تنثني، في الهواء، ثم بمجرد أن تجف تلتوي الأصابع الرملية السمراء، في تشنج، تتداعي، وتنهار.

توقف هوندا وتشاوي. عن الحديث، ليرقبا الآخرين، وهما يلهوان بالرمل، في مرح كمرح الأطفال. كان معبدهما بحاجة الى المصاييح. وراحت سدى كل العناية، التي كرّسها للتفاصيل البديعة للواجهة وللنوافذ السامقة، فقد أحال الظلام المعبد بالفعل الى شكل خارجي مظلم في مواجهة الزبد الأبيض، الذي يتوج هامات الأمواج المتكسرة على الشاطئ، الأمر الذي بدا أنه يعكس ما بقي من ضوء متذبذب، تماماً مثلما تبدى التالقات الأخيرة للحياة في عيني انسان يحتضر.

(١) السمسارة: وفقاً لكتاب «الأوباساده» البوذي، فإن السمسارة معناها الحرفي عودة الروح، فبعد أن تنال الروح نصيبها من النار، أو من النعيم، لا تستقر هناك، وإنما تولد من جديد، وتظل كذلك مراراً، حتى تعرف حقيقتها، فتتفرد بذاتها لإلهها، وتتخلص من مسؤولياتها الدنيوية، وتعود الى ربها، في عالم البهجة والسعادة. وسبق لنا أن أشرنا في المقدمة، فإن هذا الحوار بين الزملاء الأربعة ليس مجرد استطراد آخر من استطرادات ميثيا العديدة. وإنما تلك هي المناسبة الأولى، في المتن، التي يشير فيها ميثيا الى صلب الإطار الفكري والمفاهيمي، الذي قامت عليه رباعية «بحر الخصب» بأسرها. (هـ. م.).

امتلات السماء، التي تظلمهم، دون أن يلاحظوا ذلك، بالنجوم التي هيمن عليها ألق درب التبانة. لم يكن هوندا يعرف الكثير عن النجوم، ولكن حتى هو كان بمقدوره تمييز «العذراء النساجة» وحييها «الفق الراعي» اللذين يفصلهما المسار العريض لدرب التبانة، وكذلك «صليب الشمال» و«مجموعة التم» التي مدت جناحيها الهائلين محلقة خلال وساطتها بين الحبيبين.

بدا أن هدير الأمواج قد زاد عتواً، عما كان عليه خلال النهار. كان كل من الشاطئ والماء جزءاً من عالمه الخاص، خلال النهار. أما الآن فقد بدا أنها امتزجا تحت جناح الظلام. وفتن التناثر الذي لا يصدق للنجوم، في الأعالي، الشبان الأربعة، فأن تحيط بهم مثل هذه القوة الهائلة الجليلة كان مثل أعزهم في «كوتو»^(١) هائل الحجم.

حقاً، كان الأمر كذلك، على وجه الدقة. كانوا مثل أربع حبات من الرمال، شقت طريقها على نحو ما الى قاعدة الكوتو، عالم هائل من الظلمة، وفي الخارج غمر النور كل شيء. وفوقهم شُد ثلاثة عشرة وتراً من طرف الى آخر، وراحت أصابع من بياض، تسمو فوق الكلمات تمس الأوتار، جاعلة الحياة تدب في الكوتو فيصدر موسيقى شائعة وقوراً نابعة من الأمراء، وتمز تموجاته حبات الرمل الأربع القابعة في داخله.

هَبَ نسيم من البحر، الذي كساه الليل. جعل عبق المدى الملحي ورائحة أعشاب البحر الملقاة على الشاطئ أجسامهم تختلج بالانفعال، وقد تعرضت متجردة من معظم الثياب لهواء الليل البارد. التفَّ نسيم البحر،

(١) كوتو: من أبرز الآلات الموسيقية اليابانية، الوترية، الكلاسيكية، ويعد الفارئ وصفاً تفصيلياً له في مجلد «التاريخ السري لأمبر موساشي» لجو نيشيرو تانيزاكي، من ترجمتنا، وإصدار دار «الأداب»، أيضاً. (هـ. م.).

المثقل برائحة الملح، على لحمهم العاري، ولكنه جعلهم يتوقدون، بدلاً من أن يبعث الرعدة في أجسامهم.

قال كيواكي، فجأة:

- طيب، حان وقت العودة.

كان المقصود بذلك، بالطبع، تذكيرهم بأن وقت الاستعداد لتناول طعام العشاء قد حان. غير أن هوندا كان يعرف أن ذهن كيواكي إنما تركز على رحيل القطار الأخير إلى طوكيو.

قام كيواكي برحلات سرية مرة، على الأقل، كل ثلاثة أيام. ولدى عودته، كان يفضي الى هوندا بكل تفاصيل ما وقع. فقد أجّل آل توينومايا حفل الخطبة، ولكن هذا لم يعن بحال وجود أي عقبة يقيد بها، تقف في طريق زواج الأمير الشاب من ساتوكو. وفي حقيقة الأمر، أنها غالباً ما كانت تُدعى لزيارة دارهم، وبدأ والد الأمير، سموه الامبراطوري بذاته، في معاملتها بمزيد من الود.

لم يرض كيواكي بالمرة عن الوضع الراهن. والآن مضى يفكر في إحضار ساتوكو الى كاماكورا لقضاء الليل في الدارة، وسأل هوندا عما إذا كانت لديه أية فكرة عن الكيفية التي يمكن بها تنفيذ مثل هذه الخطة الخطرة. ولكن أكثر ألوان التفكير سطحية في الأمر طرح صعوبة خطيرة وراء الأخرى.

ذات ليلة حارة، متقدة، وفيما كيواكي مسلم نفسه لنوم أتاح طوعاً، بدأ حلم يترأى له. كان مغالفاً لتجاربه السابقة تماماً. فإذا تقدم المرء متعثراً في المياه الضحلة للحلم، متموضعاً حيث الماء فاتر وملء بكل أنواع الحطام الطافي، الذي أقبل من مياه أكثر عمقاً ليتراكم مع حطام البر، في كومة متشابكة، فإن المرء يغدو عرضة لأن تصاب قدمه.

كان كيواكي يقف، في منتصف طريق، يشق حقولاً مترامية. ولسبب ما كان يرتدي كيمونو أبيض، من القطن، وهاكاما تتناسب معه، رداء لم

يسبق له أن ارتداه من قبل قط، وكان مسلحاً ببندقية صيد. كانت الأرض من حوله ريفاً ممتداً، لكنها لم تكن أرضاً مهجورة. وكان بمقدوره أن يلمح مجموعة من الدور الريفية أمامه، ومربى شخص يستقل دراجة منطلقاً على الطريق. تخلل ضوء كاب المشهد بكامله، لم تزد الاضاءة عما تتيحه اللمسات الأخيرة من ضوء النهار، وبدت منتشرة للغاية حتى ليتمكن في سر أن تكون قد نبعت من الأرض، وليس من السماء؛ فقد كان العشب في الحقول المترامية يصدر وهج أخضر عن جذوره ذاتها، ويحمم الدراجة في ألق فضي شاحب فيما هي تحتجب في البعيد. تطلع الى الأرض، فرأى أنه سيرى نعليه وعروق قدميه، العاريتين تبرز بوضوح متألق بالصف الغرابة.

في تلك اللحظة، إحتجب الضوء، ولاح رف هائل من الطيور في السماء، وعندما بلغت الطيور نقطة فوق رأسه مفعمة الهواء بصيحات صاكة، صوب بندقيته الى أعلى، وضغط على الزناد. لم يطلق النهار عمداً، وإنما كان الأمر بالأحرى أن غضباً لا يسبر له غور قملك ناصيته، ممزوجاً بالأسى، فأطلق النار، مستهدفاً عين السماء الزرقاء الهائلة ذاتها، لا الطيور.

هوى رف الطيور بأسره نحو الأرض كتلة واحدة، إعصاراً من الصرخات والدم، وصل السماء بالأرض، هوى عدد لا حصر له من الطيور الصارخة، ودمها يشخب، في دفق لا ينتهي، وتجمع في عمود واحد، غليظ شكّل قمع الإعصار، ولم يتراخ شلال الدم والحقن قط.

فيما هو يرقب هذا المشهد، تجمدت الدوامة، فجأة، أمام عينيه، وغدت شجرة عملاقة، تمتد الى عنان السماء. كان لونها في لون الصدا الموحش، وقد تجرّد من الأوراق أو الأغصان. وبمجرد تشكّل هذه الشجرة الساحقة وانتهاء الصراخ، انتشر الضوء الكابي عينه، الذي كان ينير الحقول، قبل

هبوب العاصفة، فوقها من جديد. وظهرت على الطريق دراجة فضية جديدة، دوغما راكب، وشقت طريقها، على نحو مضطرب نحوه. ساورة شعور بالفخر؛ لكونه من أزال العقبة التي كانت تعترض سبيل ضياء الشمس.

ولكنه رأى، عندئذ، في البعيد، جمعاً في الطريق يدنو منه، وقد ارتدى الجميع فيه ملابس بيضاء، مثله تماماً. ومضوا في تقدمهم الوقور المحسوب على بعد أمتار منهم، فرأى أن كلاً منهم يحمل غصناً من أغصان الساكاي، في يده.

أشاروا بأغصانهم تجاهه، فبدأ يلوح لهم، على نحو ما هو متبع في أداء طقس الطهارة، وتردد في مسامعه بوضوح حفيف أوراق الأغصان. وفيما هم يقومون بذلك، بوغت بالتعرف على محيا تابعه السابق إينوما، في وسطهم. وتحدث إينوما بنفسه إليه:

- أنت مهمل وعنيد. وقد برهنت على ذلك بما يتجاوز كل تساؤل.

أحنى رأسه، متطلعاً الى صدره، عندما تحدث إينوما. كانت قلادة من أحجار على شكل هلال كستنائية، قائمة، وأرجوانية اللون، تتدلى من رقبته. كانت الأحجار باردة، وفيما لامست جلده، بعثت الرعدة في جسمه بأسره، أحس بصدده كما لو كان صخرة مسطحة، ثقيلة.

ثم أشار الجمع المكتسي بالبياض الى الشجرة، وعندما تطلع إليها، رأى أن الجذع الهائل، المؤلف من الطيور الميتة، قد غطته الفروع الآن، وكلها مكسوة بأوراق خضراء لامعة. كانت الشجرة بأسرها خضرة تضج بالحياة، وصولاً الى أدنى فروعها من الأرض. وعندئذ، استيقظ من منامه.

لما كان الحلم بالغ الغرابة؛ فقد مدَّ يده ليفتح مذكرات أحلامه، التي

كان قد أهملها منذ بعض الوقت. وشرع في الكتابة، محاولاً تسجيل الوقائع، بأقصى ما يمكن من الدقة والموضوعية. غير أنه حتى الآن وبعد أن استيقظ مزقته ضراوة الحلم ونزعته العدائية. وأحس كما لو كان قد عاد لتوه من معركة.

تمثلت المعضلة، التي واجهت كيواكي، في الكيفية التي يمكنه بها إحضار ساتوكو من طوكيو، في قلب الليل، وإعادتها الى بيتها، عند الفجر، مرة أخرى. لم تكن العربة التي تجرها الجياد لتجدي نفعاً، والشئ عينه ينطبق على القطار. ولا موضع للحديث عن استخدام عربة ريكشو. كان عليه بشكل ما أن يستخدم سيارة ذات محرك.

من الجلي أنها لا يمكن أن تكون سيارة يملكها أحد ممن يعرفون آل ماتسوجاي. والأهم من ذلك أنه ينبغي استبعاد جميع من يدورون في فلك آل أياكورا. وينبغي أن يقود السيارة شخص مجهل تمام الجهل الموقف، ومن هم ضالعون فيه.

كانت مساحة الدارة كبيرة بما فيه الكفاية، ولكن لا يزال من المتعين اتخاذ الترتيبات الاحترازية لتجنب لقاء بالمصادفة بين ساتوكو والأميرين السياميين. فلم تكن لدى كيواكي وهوندا فكرة عما إذا كان الأميران يدركان ظروف خطبة ساتوكو من عدمها، وحتى إذا لم يدركا هذه الظروف، فإن اللقاء من شأنه ألا يفضي إلا الى كارثة.

ودون أدنى تجربة في هذا اللون من الأمور، كان على هوندا أن يشق طريقه، خلال الصعوبات على نحو ما؛ ذلك أنه وعد كيواكي بأن ساتوكو ستمكن من ترك طوكيو والعودة إليها بسلام.

عندما شرع في تقدير جوانب المعضلة، فكّر في صديق من أصدقائه، يدعى إتسوي، هو الابن الأكبر لعائلة تجارية ثرية. ولما كان إتسوي هو

الوحيد في صفه الدراسي في مدرسة النبلاء الذي يمتلك عربة خاصة به، يستخدمها كما يشاء ويسوى، فإن هوندا لم يجد أمامه خياراً إلا المضي إلى طوكيو لزيارته في كوجيماتشي، ومطالبته بإعارته السيارة الفوردي، والسائق لليلة واحدة.

ذهل إتسوي، الذي كان يتمتع بمستوى معيش رفيع، وواصلت مسيرته الدراسية في مدرسة النبلاء الاندفاع نحو الأراضي الضحلة المياه حيث حطام السفن؛ إذ يجيء إليه عبقرى الصف الدراسي الذي كان معروفاً باعتداله وانضباطه، فضلاً عن ذلك، طالباً مثل هذا الطلب! غير أنه عندما تمالك نفسه قليلاً، قرر أن يحقق أقصى استفادة من هذه الفرصة، وهكذا قال بصلف، لا يتجاوز ما يليق بالمقام، إنه إذا حدثه هوندا بأمانة عما يريد السيارة من أجله، فإنه قد يكون على استعداد لإعارته إياها.

لدى سماعه ذلك، بدأ هوندا في الحديث متلعثماً في إدلائه بالاعتراف الذي اختلقه ليبتلعه إتسوي الجلف، وفيما هو يقوم بذلك، ساوره شعور سار وغير مألوف. وقد أثار هذا الشعور فيه ما رآه مرتسماً على ملامح إتسوي من تعبير متشبه بحمل التصديق التام، ومن الواضح أنه حمل تعثر هوندا في الحديث لا على أنه مؤشر إلى أن ما يقوله كذب صراح، وإنما على أنه شهادة ناطقة بشعور زميله الحاد بالخجل.

ربما يكون من الصعب إقناع رجل ما، عن طريق الحجة المنطقية، بينما يسهل استدراجه بإبداء العاطفة، وقد شعر هوندا بأنه إزاء أمر مسل، لكن شعوره هذا شابه إحساس بالتقزز. وراح يتساءل عما إذا لم يكن كيواكي قد استغله على النحو ذاته الذي يستغل هو به إتسوي.

- طيب، لقد تبين أنك من طراز يختلف تماماً عما تخيلته. لم يخطر لي قط

على بال أنني سأرى هذا الجانب منك . لكنك لا تزال كتوماً . ألا تذكر لي اسمها على الأقل؟

- فوساكو .

قالها هوندا بعفوية ، طارحاً إسم ابنة عمه الثانية التي لم يرها منذ أشهر .
قال إتسوى محنياً رأسه في إجلال ساخر قصد به مقصد الجد مع ذلك :
- فهمت . سيقدم ماتسوجاي المكان لقضاء الليلة ، وعليّ تقديم السيارة .
وبالمقابل ، عندما يحين أوان الامتحانات ستذكر إتسوى العنيد . أليس كذلك؟

التمتع بريق المودة في عينيه . على الرغم من عبقرية هوندا الذهنية ، فإن
إتسوى يحس الآن بأنه يقف على قدم المساواة معه في العديد من الجوانب ،
بدت له وجهة نظره المفترقة للخيال في الطبيعة الانسانية مبررة تماماً .
- الناس ، في نهاية المطاف ، سواسية .

قالها إتسوى ، مختصراً الأمر ، وصوته يعبر عن حقيقة شعوره بالتوحد مع
الدنيا ، وهو على وجه الدقة ما يمثل الحالة الذهنية التي التزم هوندا منذ
البداية دفعه إليها .

وهكذا ، وبفضل كيواكي ، أمكن لهوندا أن يتوقع ، في القريب ، أن
يتمتع بسمعة رومانسية يحسده عليها أي شاب في التاسعة عشرة من عمره .
وخلاصة القول إن الصفقة سيستفيد منها جميعهم : وكيواكي وهوندا وإتسوى
كذلك .

كانت سيارة إتسوى من طراز فورد ١٩١٢ ، أي أحدث طراز . وهي من
السيارات القلائل المزودة ببادئ تشغيل تلقائي ، أي ذلك الاختراع
الحديث ، الذي أراح المضايقة المتمثلة في اضطرار من يقود السيارة الى

الترجل منها في كل مرة تتوقف فيها. كانت من الطراز الذي يحمل الحرف «تي»، لها ناقل سرعات مزدوج، مطلية باللون الأسود معه خط قرمزي حول الأبواب. وكان مقعد السائق مفتوحاً، والمقعد الخلفي مغلقاً، وهو وضع بدا أنه يحتفظ بجانب من أجواء العربة التي تجرها الجياد. وكان أنبوب لنقل التعليقات يمتد من المقعد الخلفي الى جهاز يشبه النفير قرب مقعد السائق. وثبت حامل في السقف ليحتوي الأمتعة الى جوار دولاب احتياطي. وبدأ أن السيارة قادرة على القيام برحلة طويلة.

كان السائق، موري، حوذي عربة آل إتسوى التي تجرها الجياد، وقد تعلم حرفته الجديدة على يد معلم حاذق. وقد رتب مصاحبة الرجل له الى مخفر الشرطة للحصول على رخصة قيادته. وفي كل مرة كان موري يواجه سؤالاً عسيراً في الامتحان التحريري كان يمضي إلى البهولاستشارة معلمه ويعود الى غرفة الامتحان لمواصلة مهمته.

مضى هوندا الى دار آل إتسوى، في وقت متأخر من إحدى الليالي، لاستعارة السيارة. ولإخفاء كل ما يتعلق بساتوكو عن موري بقدر الامكان، جعله يتوقف بالسيارة قرب نزل الضباط حيث انتظروا الى أن لاحت ساتوكو وتاديشينا وفقاً للخطة الموضوعة، حيث وصلت في عربة ريكشو دون أن يلحظهما أحد. كان كيواكي يأمل في ألا تقوم تاديشينا بالرحلة إلى كاماكور، ولكنها لم يكن بمقدورها الحضور حتى ولو رغبت في ذلك، فقد كان عليها البقاء في الدار والتظاهر بأن ساتوكو أمضت الليلة غارقة في النوم بغرفتها، وهي مهمة لها أولوية قصوى. نمت ملاحظتها عن شعورها بالقلق. وراحت تحذر ساتوكو مطولاً، قبل أن تعهد بها أخيراً الى هوندا.

همس في أذنها:

- سادعوك، أمام السائق، باسم فوساكو.

أدار موري السيارة الفورد بصوت صاخب، بدد صمت منتصف الليل،
في الحى السكى.

أدهش هدوء ساتوكو ورباطة جأشها هوندا، وكانت ترتدى ملابس
غربية، وبدأ أن الرداء الأبيض الذى اختارته، يضفى المزيد على هالة
الحزم الهادى التى تلقها.

كان السفر فى جوف الليل، على هذا النحو، بصحبة امرأة تمت الى
صديق، تجربة غريبة بالنسبة لهوندا. جلس فى السيارة ساكناً فيما هى تمضي
متقافزة على الطريق الوعر، وقد تجسدت الصداقة فى شخصه، فيما لفه
شذى عطر ساتوكو فى الليل الصيفى.

إنها تنتمى الى رجل آخر، وفضلاً عن ذلك، فإن أنوثتها ذاتها بدت
وكانها تسخر منه، وجعلته الثقة التى لم يسبق لها مثيل التى محضه كيواكى
إياها يدرك على نحو أكثر حدة من قبل السم الفاتر، المراوغ، الذى يتخلل
علاقتها. كان ازدراء صديقه وثقته مرتبطين على نحو وثيق كأنها قفاز
جلدى بديع واليد التى دست فيه. ولكن كيواكى أحاطت به هالة جعلت
هوندا يساعده.

الطريقة الوحيدة للتصدي لازدراء من هذا النوع هى التثبيت بالايمن
بنبله، وهذا هو ما اجترحه باعتدال، وليس بالنزعة التقليدية العمياء التى
يتمسك بها العديد من الشبان. وقد عنى ذلك أنه لن يحزن أن ينظر الى
نفسه باعتباره كائناً قبيحاً ويشعاً، مثلما حدث لإينوما، ذلك أنه لو حدث
هذا لما كان أمامه بديل إلا أن يغدو عبداً لكيواكى.

وعلى الرغم من أن النسيم، الذى يهب عبر النافذة، قد هدّل شعر
ساتوكو، على نحو طبيعى، فقد ظلت محتفظة باتزانها ورباطة جأشها طوال

الرحلة . وكان اسم كيواكي قد أصبح نوعاً من الكلمة المحرمة بينهما، من تلقاء ذاته، وتحول اسم فوساكو الى إسم خيالي للتدليل .

كانت رحلة العودة مختلفة تماماً، فقد قالت، بعد أن غادرا الدارة :
- آه، هناك شيء نسيت إبلاغه لكيو .

ولكنها إن عادا أدراجهما، فلن يكون هناك أمل في بلوغهما الدارة، قبل انبلاج فجر الصيف المبكر .

تساءل هوندا :

- هل أستطيع إبلاغه به نيابة عنك؟

ترددت ساتوكو، ثم بدا أنها حزمت أمرها، وأبلغته بالرسالة .

- طيب . . أبلغه بهذا، لطفاً: تحدثت تاديشينا مع يامادا، وكيل آل ماتسوجاي، منذ بعض الوقت، واكتشفت أن كيو كان يكذب، فقد اكتشفت أنه مزق بالفعل الرسالة التي تظاهر بأنها لا تزال لديه . ولكن . . . أبلغه بالآي يلقى حيال ذلك، فقد استسلمت تاديشينا حيال كل شيء، وقالت إنها ستغض الطرف . هل لك رجاء في إبلاغ كيو بذلك؟

استظهر هوندا الرسالة فيما هي تتحدث، ولم يطرح أية أسئلة حول معناها المحتجب . ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، وربما بعد أن أثرت فيها أخلاقه الطيبة، انحلت عقدة لسانها .

- قمت بهذا كله لأجل خاطره . أليس كذلك يا سيد هوندا؟ ينبغي على كيو أن ينظر الى نفسه باعتباره أكثر الرجال حظاً في العالم؛ إذ يحظى بصديق مثلك . إننا معشر النساء لا أصدقاء حقيقين لنا على الإطلاق .

كانت عينا ساتوكو لا تزالان على أتقادهما، بتأثير العاطفة، لكن تسريحتهما كانت دقيقة الاتساق، دون أن تنفر شعرة واحدة من موضعها .

وعندما لم يجر رداً، أحت راسها، وبعد قليل تحدثت بصوت مهموس:

- ولكن، يا سيد هوندا... إنني أعرف ما لا بد أنك تفكر فيه
بشأنى... ماذا عساي أكون إلا فاسقة؟

- لا تتحدثني على هذا النحو!

رد هوندا بقوة ملحوظة بهذه الكلمات. من المؤكد أنه لم يكن يفكر فيها
بمثل هذا الاحتقار، ولكن، على الرغم من ذلك، فقد أصابت كلماتها منه
وترأ حساساً بمحض الصدفة.

كان قد أمضى الليل دون أن يغمض له جفن ليكون موالياً لصديقه
وليؤدي الواجب الذي عهد به إليه والمتمثل في إحضار ساتوكو من طوكيو
وتوصيلها الى كيواكي، وها هو الآن يتولى مسؤولية إعادتها الى طوكيو.
ولكن مصدر شعوره بالفخر كان يكمن في إبقائه لنفسه بعيداً عن التورط
على الصعيد الانفعالي. وما كان يمكن لشيء طيب أن ينجم عن هذا الأمر.
كان موقفاً خطراً، تولى المسؤولية عنه بقدر كاف بالفعل.

عندما وقف يرقب كيواكي، وهو يمسك بيد ساتوكو، ويمضي مسرعاً عبر
الظلال المتناثرة في الحديقة التي أنارها سنا القمر ماضياً باتجاه الشاطئ،
أحس بأنه بدوره يقترف خطيئة بمساعدتها. ولكن لئن كان ذلك خطيئة،
فإنه كان أيضاً شيئاً جميلاً، صورة من الحسن لا تفتأ تعاوده، تهرب منه،
وتحتجب.

قالت ساتوكو:

- أصبت. لا ينبغي لي الحديث على هذا النحو على الإطلاق، فليس
بمقدوري التفكير فيما أتيت به باعتباره شيئاً مقبلاً. لم ذاك؟ لقد اقررت
وكيواكي خطيئة رهبة، ولكني، مع ذلك، لا أشعر بأنني تلوث، بأي
شكل من الأشكال، بل في حقيقة الأمر فإنني أشعر بأنني تطهرت. عندما

رأيت أشجار الصنوبر تلك الليلة، عرفت أنني لن أراها ثانية، مهما طال عمري. ولكن كل لحظة أمضيها هناك أحسست فيها بالنقاء البالغ، بحيث أنني الآن لا يساورني أي شعور بالندم حول أي شيء على الإطلاق. حاولت، فيها هي تحدث أن تنقل شيئاً الى هوندا، جوهر ما لكل ما حدث بينها وبين حبيبها خلال لقاءاتها، التي أحسا بأن كلا منها هو اللقاء الأخير. تاقت الى أن تلقى بالحذر جانباً وأن تحاول جعل هوندا يفهم الأمر، بإخباره كيف أنه في هذه الليلة الأخيرة، وفي رحاب مثل هذا الهدوء وفي كنف الطبيعة، حلقت مع كيواكي الى ذرى متألفة، شارفت أن تشير الرعب. ولكن تلك التجربة كانت من نوعية التجارب التي يكاد يكون من المستحيل نقلها الى الآخرين، شأن الموت، ومثل وهج جوهر، وكبهاء الغروب.

تجول كيواكي وساتوكو على الشاطئ، محاولين تجنب سنا القمر المتألق على نحو لا يثير الارتياح. الآن، وقد انتصف الليل، لم يكن هناك أثر لحياة بشرية على امتداد الشاطئ المهجور، اللهم إلا قارب صيد جائم على الشاطئ، ألقت مقدمته العالية ظللاً أسود على الرمل. وبسبب سنا القمر المتألق في كافة الأرجاء بدا أن هذا الظل يتيح ظلمة باعثة على الطمأنينة. مست أشعة القمر سطح القارب، جاعلة ألواح الخشبية تتألق كأنها عظام مبيضة. وعندما أسند كيواكي كفه على جانبه، بدا أن جلده قد غدا شفافاً في ضوء القمر.

تعانقاً، في الحال، في ظل القارب، فيما نسيم البحر يلفهما، لم تكن قد ارتدت الثياب الغربية من قبل قط، وساورها الآن شعور بكراهية الألق الأبيض، الصادر عن ثوبها، وإذ نسيت بياض بشرتها، لم يعد يدور بذهنها إلا خاطر واحد: أن تمزق ثوبها بأسرع ما يمكن، وتخبيء نفسها في رحاب الظلام.

لم يكن من المحتمل أن يراها أحد، ولكن أشعة القمر المتشظية بلا انتهاء فوق سطح البحر كانت تحاكي ملايين العيون. مضت ساتوكو تحديق في السحب المعلقة في السماء والنجوم التي بدا أنها تأخذ بنواحي أطراف السحب. كان بمقدورها الشعور بحلمتي كيواكي الصغيرتين، الصلبتين، وهما تمان حلمتيها، وتحتكان بهما في هو عابث، ثم تضغطان عليهما، في آخر الأمر، مندفعتين، هبوطاً في وفرة تُديهما الناهدين.

كانت تلك لمسة أكثر حميمة من قبلة، شيئاً يشبه المداعبة العابثة التي يقوم بها حيوان في عنفوانه. حامت عذوبة حادة عند حافة وعيها. جعلتها الإلفة غير المتوقعة عندما تحتك الأطراف ذاتها، النهايات، من جسميها بعضها ببعض الآخر تنصرف بتفكيرها الى النجوم المتلألئة وسط السحب، على الرغم من أن عينيها كانتا مغمضتين.

من هناك، استقام الطريق مباشرة نحو نشوة في عمق البحر. ولكن حتى وهي تحس بنفسها تنحل تدريجياً لتذوب في الظلمة، شعرت بالخوف من ألا يكون هذا إلا ظلاً يستند بدوره الى قارب الصيد القابع وراءهما. لم يضطجعا في حمى بناء ركين أو هضبة صخرية، وإنما شيء وجد اتفاقاً، قد يغدو في غمار سويغات منطلقاً في عرض البحر. ألم يتصادف وجود القارب على الشاطئ في تلك اللحظة، وكان يمكن ألا يكون ظله العميق إلا شبحاً. خافت من أن قارب الصيد الهائل، العتيق هذا قد يشرع في الانزلاق في سكون عبر الرمل، ربما الآن توا، وينزلق في الماء، ويبحر نحو البعيد. ولكن تتبع ظله، لكي تظل الى الأبد في رحاب ذلك الظل ينبغي عليها، هي نفسها، أن تصبح البحر، وفي تلك اللحظة، وباندفاع واحدة هائلة، اجتاحت ذلك.

حمل كل ما يحيط بهما نذير الدمار - السماء التي ينيرها القمر، الماء المتألق، النسيم الذي يهب على الشاطئ الرملي ليصدر الخفيف في أشجار

الصنوبر عند حافته . وفيما وراء أدنى وهج من الزمن دوى زئير
الراعد موحشاً . حمل حفيف الصنوبرات رسالته . أحست ساتوكو أنها
وكيواكي تحاصرهما وتراقبهما وتحرسهما روح لا تسمع ولا تصنع ، تماماً كما
أن قطرة اللسان التي سقطت في وعاء ماء ليس لها ما يبقي عليها إلا الماء
ذاته . هذا الماء أسود ، شاسع ، صامت ، وقطرة اللسان الوحيدة راحت
تطفو في عالم من عزلة مطلقة .

تلك الـ «لا!» كانت شاملة . أتراها كانت من مخلوقات الليل أم الفجر
الآخذ في الدنو؟ بدت بالنسبة لهما شيئاً يستعصي على الفهم . ولكن على
الرغم من أنها حوّمت فوقهما مهددة ، من لحظة الى أخرى ، فإنها لم توجه
ضربتها إليهما مباشرة .

جلسا منتصبين معاً ، وقد نتأ رأساهما الآن من الظل وتلألأ القمر
الغارق في البحر مباشرة في وجهيهما . أحست بأنه كان على نحو ما رمزاً
لخطيتهما ، قبع هنالك ألقاً ومتكاملاً ، ولمموساً في السماء .

كان الشاطئ لا يزال مهجوراً . نهضا ليجلبا ثيابهما ، التي وضعاهما في
جوف القارب . راح كل منهما يحدق في الآخر ، في ثمالة الظلمة التي كانت
المساحة السوداء التي تلف ما دون خاصرتيهما البيضاوين اللتين أضاءهما
القمر على نحو مشعّ . وعلى الرغم من أن ذلك لم يدم إلا لحظة فقد حدّقا
بتركيز حاد .

عندما ارتديا ملابسهما ، جلس كيواكي مدلياً بقدميه ، من فوق حافة
القارب .

قال :

- لعلك تعلمين ، أننا لو نلنا مباركة الجميع ، ربما ما جرؤنا قط على
القيام بما أتينا به .

- إنك فظيع، يا كيو، هذا هو ما أردته حقاً!

ردت بها كيو اكي في هجوم مدعى عليه. كانت ثرثرتهما على قدر كاف من الحميمية، لكنها كان لها مذاق مرير، على نحو لا يمكن تحديده. ساورها شعور بأن النهاية التي لا مجال لردّها لسعادتهما ليست بعيدة. كانت لا تزال جالسة على الرمال، محتجة في ظل القارب. تدلت قدمه، متألقة في سنا القمر، في الهواء أمامها، فمدت يدها، وأمسكتها، وقُبِلت أصابعها.

- أحسب أنه مما لا يستدعيه المقام أن أفضي إليك بهذا كله. ولكن ليس هناك أمر آخر بمقدوري أن أفكر، مجرد تفكير، في إخبارك به.

«إنني أعرف أنني أقوم بشيء فظيع. ولكن أرجوك لا تقل شيئاً ضده، لأنني أدرك أنه سينتهي في وقت ما. ولكن حتى ذلك الحين، فلإنني أريد أن أعيش كل يوم مع إقباله، لأنه ما من شيء آخر يمكن القيام به.

تساءل هوندا، وقد عجز صوته عن إخفاء الاشفاق العميق الذي يشعر به:

- إذن فأنت على استعداد تام لكل ما قد يأتي؟

- أجل، أنا على تمام الاستعداد.

- أحسب أن ماتسوجاي على استعداد كذلك.

- ذلك هو السبب في أنه ما كان ينبغي له أن يورطك بمثل هذا العمق في مشكلاتنا.

ساورت هوندا، فجأة، رغبة لا يمكن تفسيرها في فهم هذه المرأة. كان ذلك شكله الخاص المراوغ من أشكال الانتقام، فإذا كانت تريد أن تعهد إليه بدور الصديق المتفهم للموقف حقاً، وليس بدور المؤيد المتعاطف

فحسب، إذن فلا بد من أن يكون له الحق في أن يعرف كل شيء. ولكنه كان من قبيل التحدي الهائل أن يحاول فهمها - هذه المرأة الرشيقه، المتدفقة حباً، التي كانت تجلس الى جانبه، وقلبيها في موضع آخر. ومع ذلك، فإن إصراره على التمحيص المنطقي شرع يغلب على كل ما عداه.

ارتجت العربه كثيراً، ومالت الى إلقائها معاً، ولكنها حمت نفسها في حذق بالغ الى حد أن ركبها لم تحتك ببعضها مجرد احتكاك، وهو إفصاح عن اليقظة ذكره بسنجاب مستأنس، يجعل عجلة تدريبه تصدر أزيزاً، وقد ضايقه ذلك قليلاً، وحدث نفسه بأنه لو كان كيواكي الى جوارها لما كانت على مثل هذه الدرجة من الحرص والتنبه.

تساءل، دون أن ينظر إليها:

- قلت لتوك إنك على استعداد لمجابهة أي شيء. أليس كذلك؟ طيب، إذن، إني لأتساءل عن الكيفية التي يتسق بها هذا التقبل للنتائج، مع إدراك أن الأمر سينتهي يوماً ما. وعندما ينتهي ألن يكون الأوان قد فلت لاتخاذ قرار فيما يتعلق بالنتائج؟ أو، إذا شئنا التعبير بشكل آخر، ألن يؤدي تقبلك للنتائج بشكل ما الى إنهاء الأمر من تلقاء ذاته؟ إنني أعرف أني أطرح عليك سؤالاً قاسياً.

ردت في هدوء:

- أسعدني أنك سألت.

رغمًا عنه، تطلع إليها جاداً، كانت صورتها الجانبية بديعة التكوين، ولم يبد عليها ما ينم عن الشعور بالأسى. فيما كان يتطلع إليها، أغمضت عينيهما فجأة، وألقت الأهداب الوطفاء لعينها اليسرى ظلاً أطول على وجنتها في الضوء الكابي المنبعث من مصباح سقف السيارة. انداحت

الأشجار والشجيرات مسرعة نحو البعيد في ظلمة ما قبل الفجر كأنها سحب سوداء تموج حول السيارة.

ولأهما موري ظهره وقد انغمس تماماً في قيادة السيارة. وكان الزجاج الغليظ المنزلق وراءه موصداً. وما لم يتعمدا تقرب فيهما من أنبوب المخاطبة، لم تكن هناك فرصة أمامه لاستراق السمع.

- تقول إنني من ينبغي عليها إنهاء الأمر يوماً ما، وبما أنك أقرب أصدقاء كيو فلك الحق في أن تقول ذلك. إذا لم أستطع إنهاءه والبقاء على قيد الحياة، فليكن الموت إذن. . .

ربما أرادت أن تباغت هوندا، فتدفعه الى مقاطعتها، آمراً إياها بالكف عن قول مثل هذه الأشياء، ولكنه واصل صمته مدعناً، وانتظر أن تتم حديثها.

- . . . ولكن الألوان سيحين يوماً ما، وليس هذا اليوم ببعيد. وعندما يحين الأوان، فبمقدوري أن أعدك الآن توأ بأنني لن أترجع. لقد عرفت السعادة القصوى، ولست من الشراة بحيث أرغب في أن يستمر ما لديّ الى الأبد. فلكل حلم نهاية. ألن يكون من الحماقة، والمرء يعلم أنه ما من شيء يدوم الى الأبد، أن يصر على أن له الحق في القيام بشيء يدوم أبداً الدهر؟ ليس هناك ما يربطني بهاته «النسوة الجديديات». ولكن. . . لئن كان للخلود وجود فهو هذه اللحظة. وربما يقدر لك، يا سيد هوندا، أن تعود فتنتظر الى الأمر على هذا النحو، يوماً ما.

أخيراً، بدأ هوندا يفهم السر في أن كيواكي كانت ساتوكو تثير شعوره بالرهبة، ذات يوم، على نحو فظيع.

- قلت إنه ليس من الصواب أن يورطني ماتسوجاي، في مشكلاتكها، فلم لا؟

- أنت شاب كُرس نفسه لتحقيق أهداف رفيعة الشأن، ومن الخطأ أن تتورط معنا. ليس لكيو الحق في القيام بذلك على الاطلاق.

- أتمنى ألا تنظري إليّ باعتبار أن لي كل هذه القداسة. من المحتمل ألا تعثري على عائلة أشد صرامة على الصعيد الأخلاقي من عائلتي، وعلى الرغم من ذلك، فقد قمت بالفعل بشيء يجعلني متواطئاً في اقتراف خطيئة.

قاطعته غاضبة:

- لا تقل ذلك! هذه خطيئتنا، خطيئتي وكيو. . . وليس لغيرنا شأن بها.

لقد قصدت، بالطبع، أن تبلغه بأنها تريد حمايته لا غير، لكن كلماتها اتسمت بألق فاتر، فخور، ما كان ليحتمل إقحام طرف ثالث. ففي ذهنها صاغت خطيئتهما محولة إياها الى قصر صغير، بلوري، متألق، بوسعها أن تحيا فيه معه كيواكي، متحررين من العالم المحيط بهما، قصر بلوري يبلغ من الصغر حداً يتوازن معه على راحة كف المرء، بالغ الصغر بحيث أنه ما من أحد آخر غيرهما يمكن أن يلجّه. وإذا تحول للحظة قصيرة على نحو منعق من الزمن تمكنت وكيواكي من ولوجه، والآن راحا يمضيان آخر لحظاتها القلائل هنالك، يرقبهما بكل تفاصيلهما الدقيقة شخص يقف في الخارج مباشرة.

انحنت الى الأمام، فجأة، برأس منكس، فمدّ يده ليسندها، فاحتكت بشعرها.

قالت، معتذرة:

- عفواً، لكنني أحسب أنني شعرت لتوى ببعض الرمل في حذائي، رغم التزامي، الحرص. إن تاديشينا لا تقوم على الاهتمام بأمر أحذيتي، وهكذا

إذا نزعت حذائي في الدار والرمل فيه، دون أن أحظه، فإنني أخشى ما
يمكن أن تردده خادمة حين تفاجأ بوجوده.

لم تكن لديه فكرة عن الطريقة، التي يتعين عليه التصرف بها، فيما امرأة
تتفقد حذاءها، وهكذا أشاح بناظريه، وشرع في الإطلال من النافذة،
بتركيز بالغ.

كانوا قد بلغوا مشارف طوكيو بالفعل، وتحولت السماء الليلية الى زرقاء
قائمة مترعة بالحيوية. أظهر الفجر السحب المتناثرة منخفضة فوق أسطح
الدور. وعلى الرغم من أنه أراد توصيلها الى الدار بأسرع ما يمكن، إلا أنه
مع ذلك أحس بالأسى؛ لأن ضياء الصباح سينهي ما كان أغرب ليلة في
حياته. وخلفه سمع الصوت - الخافت للغاية في البداية، حتى أنه حسب
أنه من وحي خياله - الناجم عن قيام ساتوكو بإلقاء الرمل من الحذاء الذي
نزعته. وبالنسبة له تردد هذا الصوت كأنه أكثر الساعات الرملية سحراً في
الدنيا.

استمتع الأميران السياميان تماماً بوقتتهما في دارة تشونج تان . ذات ليلة ، قبيل تناول طعام العشاء ، أمر الشبان الأربعة بجلب مقاعد من الأسل الهندي خارجاً ، ووضعت في المرحّة ، ليتمتعوا بنسيم المساء البليل قبل العكوف على عشايتهم . راح الأميران يثرثران بلغتهما الوطنية ، فيما غرق كيواكي في خواطره ، وفتح هوندا كتاباً وضعه في حجره .

- أتحبان أن «تعفرا» قليلاً؟

قالها كريد سارا ، متسائلاً باليابانية ، وقد دنا من هوندا وكيواكي ، ممسكاً بعلبة من سجائر وستمنستر مذهبة الأطراف . وكان الأميران قد سارعا في التقاط «التعفير» ، وهي اللفظ الذي يستخدم بدلالته العامة ، في مدرسة النبلاء ، للإشارة الى السجائر . وقد حظرت القواعد المعمول بها في المدرسة التدخين ، لكن السلطات سمحت لطلاب الصفوف العليا بدرجة من الاسترخاء ، شريطة ألا تصل الأمور بهم الى حد التدخين علناً . وهكذا ، أصبحت غرفة المرجل الواقعة في الدور الأرضي ملاذاً للمدخين ، وعرفت باسم «غرفة التعفير» .

وحتى الآن ، وأربعتهم ينفثون دخان سجائرتهم ، تحت السماء الممتدة ، دوغما خوف من أن يرصدهم أحد ، ساورهم الشعور بالمتعة المختلصة المتأرجحة ، التي تلازم التدخين في «غرفة التعفير» . الآن ، أثرت النكهة الغنية للسجائر الانجليزية رائحة تراب الفحم ، التي تملأ غرفة المرجل ، والعيون التي يأتلق بياضها في العتمة ، فيها زملاء صفهم الدراسي يواصلون

مراقبتهم الحذرة، والأنفاس العميقة الممتعة المترعة بالدخان، والوهج المتواتر المفعم بالقلق النابع من الأطراف الحمراء للسجائر، وهي تتوهج، وغيرها كثير من الانطباعات.

أشاح كيواكي عن الآخرين، وفيما هو يقرب الدخان ينداح بعيداً نحو السماء، رأى كيف أن تكوينات السحب المهيمنة فوق المحيط قد شرعت تنحل، وقد غامت أطرافها الواضحة واكتست بلون ذهبي شاحب. فكّر في الحال في ساتوكو، اختلطت صورتها وعرفها بالعديد من الأشياء، غير أنه لم يكن هناك تحول في الطبيعة، مهما كان ضئيلاً، لا يعيدها ملء خاطره. فإذا ما سكن النسيم فجأة وأطبق عليه طقس الصيف المسائي الحار، فإنه يحس باحتكاك عري ساتوكو بعريه. وحتى الظل الأخذ في التعمق تدريجياً الذي تلقى على المرجة الخضرة العميقة لشجرة كان يوحى بإيماء منها.

أما فيما يتعلق بهوندا، فإنه ما كان يمكن له قط أن يشعر بالارتياح ما لم تكن هناك كتب في متناول يده. وبين الكتب التي كانت بقربه كتاب أعاره له سراً أحد الطلاب الذين يعملون بدار عائلته، كتاب حظرت الحكومة تداوله. كان عنوانه «النزعة الطبيعية والاشتراكية الأصيلة»، وهو من تأليف شاب يدعى تيرو جيرو كيتتا، كان ينظر إليه، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، باعتباره أوتوفاينينجر اليابان. غير أن الكتاب كان مبهرجاً، أكثر مما ينبغي، في طرحه لموقف متطرف، الأمر الذي أثار حذراً في ذهن هوندا الهادئ والمنطقي. لم يكن الأمر راجعاً إلى أنه يكنّ كراهية خاصة للفكر السياسي المتطرف. ولكنه إذ لم يسبق له أن أحس بالحقق هو نفسه بصورة حقيقة، فقد مال إلى النظر للغضب العنيف، عند الآخرين، باعتباره مرضاً رهيباً، معدياً. وكانت مصادفته في كتبهم شيئاً مثيراً، على الصعيد الذهني، لكن هذا النوع من اللذة كان يتركه مثقل الضمير.

ولكي يتأهب لأي مناقشات أخرى، تجري مع الأميرين السياميين،

١٠١

حول التناسخ، توقف في داره، في ذلك الصباح، بعد مرافقة ساتوكو في طريق العودة الى طوكيو، واستعار كتاباً من مكتبة أبيه، هو كتاب «موجز الفكر البوذي» لمؤلفه تادا نوبو سايتو. وهنا للمرة الأولى صادف صورة فاتنة للأصول المتنوعة لمبدأ الكارما^(١)، وذكر بقانون مانو الذي استغرق تفكيره للغاية في صدر الشتاء. ولكن في ذلك الوقت كانت طموحاته الخاصة بالامتحان قد أجبرته على تأجيل المزيد من الدراسة التفصيلية لكتاب سايتو.

وقد وضع هذا الكتاب والعديد من الكتب الأخرى مفتوحة على ذراعي مقعده المصنوع من الأسل الهندي، وبعد إلقاء نظرة على كتاب أو آخر منها، أطل أخيراً من رحاب الكتاب الذي كان مفتوحاً على حجره، وقد ضاقت عيناه، القصيرتا النظر قليلاً. التفت ليلقي نظرة على المنحدر الحاد الذي يشكل الحد الغربي للحديقة. وعلى الرغم من أن السماء كانت لا تزال منيرة، فقد غرق المنحدر في ظل عميق وانتصبت مسودة اجمات الشجر والشجيرات على الهضبة في مواجهة وهج السماء الأشهب، غير أن الضوء راح ينسل هنا وهناك كأنه خيط فضي نسج في حذق في سجادة كان يمكن لولاه أن تكون قاتمة اللون. وخلف الأشجار، بدت سماء الغرب كأنها شريط من المايكا. كان النهار الصيفي المتألق لفيفة مبهرجة انتهت الى مساحة خالية من أي لون.

استمتع الشبان بالايماة العذبة من الشعور بالذنب، التي تضيفي نكهة خاصة على سجاثرهم، فيما تجتمع من البعوض ينهض متعملقاً في أحد أركان الحديقة التي لفها الغروب. أحسوا بالتحليق السماوي الذهبي الذي

(١) مبدأ الكارما: يشير مفهوم هذا المبدأ، في أبسط معانيه، الى العاقبة الأخلاقية الكاملة لأعمال المرء، في طور من أطوار الوجود، بوصفها العامل الذي يقرر قدر المرء، في طور تناسخي تال، وذلك بحسب التصور البوذي.

(هـ. م.)

ينبع من يوم من الاستحمام ، وجلدهم لا يزال دافئاً من شمس الظهيرة . . .
وعلى الرغم من أن هوندا جلس هنالك في صمت ، فقد أحس بأن هذا
اليوم سيُعدّ أسعد أيام شبابهم .

بدا أن الأميرين السيامين يشعران بالاغتراب ، على نحو مماثل . كان من
الجلي أنهما يتظاهران بأنهما لم يلحظا مغامرات كيواكي العاطفية . ومن ناحية
أخرى ، اختار كل من كيواكي وهوندا تجاهل انقضاصات الأميرين العابثة
وسط بنات الصيادين ، على امتداد الشاطئ ، على الرغم من أن كيواكي
حرص على أن يتبعها بمبالغ مناسبة ، تدفع على سبيل التعويض لآباء
الفتيات . وهكذا ، انقضى الصيف في جمال مترخ ، تحت العين الحارسة
لبوذا الهائل ، الذي صلى له الأميران كل صباح فوق قمة الهضبة .

كان كريد سادا أول من لاحظ الخادم الذي انحدر الى المرجة من
الشرفة حاملاً رسالة على صفحة فضية متألفة أنفق دوغما شك معظم وقت
فراغه في تلميعها ، مستشعراً الحزن في غضون ذلك إذ لا تتاح له إلا
مناسبات قليلة لاستخدامها في الدارة بالمقارنة بالدار القائمة في شيبويا .

وثب كريد سادا للقاءه ، والتقط الرسالة منه ، ثم عندما أدرك أنها رسالة
شخصية الى تشاوي . من أمه الملكة دواجر ، مضى الى حيث كان تشاوي .
جالساً ، وقدمها له مبتهجاً ، وقد بدا ممتلئاً بالحيوية ، التي أثارها فيه اهتمامه
بالأمر .

لاحظ كيواكي وهوندا بالطبع هذا الفاصل التمثيلي الثانوي ، لكنهما
كبحا جماح فضولهما ، وانتظرا قدوم الأميرين إليهما في إندفاع عارمة من
السعادة المزوجة بالحنين . وفيما استلم تشاوي . الرسالة السمكية من
غلافها ، سمعا خشخشة الورق ، وتألقت الورقة البيضاء كأنها التساعة ريش
سهم ينطلق في الظلام . وقفاً ، فجأة ، محدقين في تشاوي . الذي صدرت
عنه صيحة مترعة بالمعاناة ، وانهار مغشياً عليه .

وقف كريد سادا محدقاً لأسفل نحو ابن عمه، والدهشة مرتسمة على محياه،
فيما اندفع كيواكي وهوندا لتقديم يد العون، ثم انحنى والتقط الرسالة التي
هوت على العشب، وشرع لتوه في قراءتها، وانخرط في البكاء، ملقياً بنفسه
الى الأرض. لم يستطع الشابان اليابانيان فهم شيء مما راح كريد سادا
يغمغم به باكياً في اندفاعه من الحديث باللغة السيامية، ولما كانت الرسالة
مكتوبة باللغة ذاتها فإنها لم تقدم أية مفاتيح لفهم الموقف لهوندا الذي
التقطها، اللهم إلا الخاتم الذهبي المتألق للعائلة المالكة في سيام الذي
علاها، بتصميمه المتداخل من المعابد والوحوش الاسطورية والورود
والسيوف والصولجانات، وغيرها من الأشكال، التي التفّت حول ثلاثة فيلة
بيضاء.

استرد تشاوي. وعيه، خلال نقله الى غرفة نومه من قبل الخدم، ولكنه
بدا مشوشاً، على نحو واضح، وتلاه كريد سادا وهو لا يزال يتأوه.

وعلى الرغم من جهل كيواكي وهوندا بالحقائق، فقد بدا واضحاً لهما أن
أخباراً رهيبة قد وصلت الأميرين السيامين. رقد تشاوي. صامتاً، ورأسه
على الوسادة، وعيناه غائمتان كأنهما لؤلؤتان، وراح يحرق في السقف. ازداد
التعبير المرتسم على وجهه الداكن البشرة غموضاً، مع انقضاء كل لحظة، فيما
تكاثفت عتمة الغرفة بسرعة. بعد بعض الوقت كان كريد سادا هو الذي
تمكن في نهاية المطاف من إيضاح الموقف باللغة الانجليزية.

- ماتت الأميرة تشان. محبوبة تشاوي. ، أختي. . لو أني أبلغت بالأمر
أولاً، لتحيت فرصة لإبلاغه بالأمر، على نحو يوفر عليه مثل هذه
الصدمة، ولكنني أحسب أن أمه، الملكة دواجر، خشيت على نحو أكبر
مضايقتي؛ ولذا كتبت الى تشاوي. ولئن كان الأمر كذلك فقد جافاها
حسن التقدير. ولكن ربما كانت قد حرصت على أمر أكثر عمقاً. . . أن
تدعم شجاعته بجعله يواجه حزنه وجهاً لوجه.

كان هذا القول أكثر حكمة وسداداً من أي شيء آخر مما كانا يسمعانه عادة من كريد سادا. أثر حزن الأميرين البالغ، والقوي كأنه مطر إستوائي يعمق في نفس كيواكي وهوندا. ولكنها أحسا أنه بعد الرعد والبرق والمطر، فإن حزنهما سيغدو دغلاً مبتلاً ومتألقاً يسترد ازدهاره سريعاً وعلى نحو مترف.

حمل طعام العشاء في ذلك المساء الى غرفة الأميرين، لكنها لم يمدا إليه يداً. غير أنه في وقت لاحق، تذكر كريد سادا بوضوح قواعد السلوك اللائق الذي ينبغي أن يتبعه المرء نحو مضيفه، واستدعى كيواكي وهوندا الى غرفتهما؛ ليترجم لهما الرسالة بأسرها الى اللغة الانجليزية.

كانت الأميرة تشان، في حقيقة الأمر، قد مرضت في الربيع، وعلى الرغم من أنها كانت أضعف من أن تكتب رسالة، فقد ابتهلت الى الجميع ألا يبلغوا أخواها وابن عمها بمرضها. وازدادت يدها البضاء الجميلة نحولاً، حتى لم تعد تستطيع تحريكها، وجثمت في موضعها باردة وساكنة، كأنها شعاع وحيد من أشعة القمر ينسل من النافذة.

جرب الطبيب الانجليزي المسؤول كل ما يعرفه، لكنه لم يستطع الحيلولة دون انتشار الشلل الضاري في جسمها بأمره. وأخيراً، أصبح حتى الحديث يشكل عبثاً كبيراً عليها. ولكن ربما لكي تدع تشاوي. وفي ذهنه صورتها في كمال صحتها، على نحو ما كانت عليه، عندما افترقا، فقد أصرت مراراً وتكراراً على ألا يقول الجميع شيئاً عن مرضها، الأمر الذي حلهم الى آفاق الدمع.

عادتها الملكة دواجر كثيراً، ولم تستطع كبح جماح دمعها لدى رؤية الأميرة الشابة. وعندما أبلغت جلالتها بموت تشان، أمرت الجميع بأن يرفعوا أيديهم عن الموضوع، قائلة في الحال: «سأبلغ باتانايد بالامر بنفسي».

استهلت الرسالة على هذا النحو:

«ما يتعين عليّ إبلاغك به محزن للغاية؛ فأرجو أن تحتمله بشجاعة بقدر ما في وسعك. لقد ماتت محبوبتك تشانترابا. سأحدثك فيما بعد كيف أن أفكارها كانت تحوم حولك حتى النهاية. وبحسباني أمك فإن ما أريد قوله لك أكثر من أي شيء آخر في التو واللحظة هو أنك ينبغي أن توائم نفسك مع هذا كله باعتباره مشيئة بوذا. وإني لأصلي من أنك ستضع موضع الاعتبار دائماً مكانتك كأمر وتتقبل بقبول حسن هذه الأنباء المأساوية. ما أشد معرفتي بما ستكون عليه مشاعرك لدى علمك بهذا النبأ في أرض أجنبية، ولكم أسف لأنني لست إلى جوارك لأخفف عنك ألمك مثلما ينبغي على الأم أن تفعل. ولكن الآن فيما يتعلق بكريد سادا، فلنني أرجو أن تتصرف باعتبارك أخاً أكبر له، وأن تبلغه بموت أخته بأعظم قدر من العناية. لقد أبلغتكم بالأنباء المأساوية، على هذا النحو، دوغما سابق إنذار، لا شيء إلا لعلمي بأن لديك القدر الكافي من الصمود، بحيث لا تستسلم للحزن. ولكن مما يبعث العزاء في نفسك، رجاء، أن تعلم على الأقل بأن الأميرة كانت تفكر فيك وحدك، حتى لفظت آخر أنفاسها، ولكن عليك أن تبذل قصارى جهدك لتقدر كيف أنها أرادت أن تحفظ للأبد في فؤادك الصورة التي حملتها عنها بحسبانها فتاة في ميعة الصبا...»

رقد تشاوبي. مصغياً بانتباه إلى أن ترجم كريد سادا آخر كلمة في الرسالة، ثم اقتعد سريرته، والتفت إلى كيوواكي وشرع يقول:

- إني محرج للغاية، فقد أهملت ما أوصتني به أمي، ولم أتمالك نفسي من الانبهار، ولكني أرجو أن تحاول فهم الموقف! لم يكن ما أصارعه خلال السويعات الماضية هو لغز موت الأميرة تشان. في الفترة التي بدأت بمرضاها وامتدت حتى موتها - لا، بل التي امتدت في هذه الأيام الاثني عشر، منذ

لحظة موتها. كنت بالطبع أحيًا في قلق دائم. ولكن رغم ذلك، وإذ لم أخط عالماً بالحقيقة، فقد عشت في هدوء، في رحاب عالم زائف، طوال ذلك الوقت. ذلك هو اللغز.

«من الواضح أنني رأيت البحر المتألق والشاطئ المتوهج على نحو ما هما عليه فحسب. لماذا لم أستطع رؤية التغير المراوغ الذي وقع عميقاً في جوهر الكون؟ كان العالم يتغير، على نحو مستمر، ومستعص على الفهم، تماماً مثل النبيذ في القنينة، وأنا مثل الرجل الذي لا يرى أبعد من السائل الأحمر، القاتم، المتوهج بدفء داخل القنينة. لماذا لم يخطر لي على بال قط أن أتذوقه ولمرة في اليوم وأحاول تبين ما إذا كان تغير محدود، نسيم الصباح الرقيق، خفيف أوراق الأشجار، صوت أجنحة العصفير وهي ترف محلقة، وشقشقاتها - كل هذه الأشياء كانت ملء سمعي وبصري، ولكني حملتها جميعها فحسب على أنها تجسيد لبهجة الحياة، الجوهر الجميل للحياة ذاتها. لم يخطر لي قط على بال أن هناك تحت السطح ما يتغير يوماً فآخر. لو أنني توقفت ذات صباح لأتذوق الدنيا، وهكذا اكتشفت أنها قد تغير مذاقها على لساني على نحو مراوغ... آه، لو أنني قمت بذلك فحسب، لما فاتني أن أدرك أن هذه الدنيا قد أصبحت فجأة بغير الأميرة تشان.»

فيما هو يقول هذا، اختنق صوته تدريجياً، وحبست العبرات كلماته. تركاه ليعنى به كريد سادا، وعادا إلى غرفتها، غير أنها لم يجدا بنفسيهما ميلاً إلى الرقاد.

قال هوندا بمجرد انفرادهما بنفسيهما:

- سيرغب الأميران في العودة إلى سيام بأقصى سرعة ممكنة. وأياً كان ما قد يقوله الآخرون، فمن المؤكد أنها لن يرغباً في مواصلة الدراسة هنا.

- نعم، إني على يقين من أنها سيعودان الى وطنهما.
ردّ كيواكي، مكتئباً، فقد ترك حزن الأمير على نحو واضح أثراً
عميقاً في نفسه، وغاص في قرارة حالة من التوجس الغامض.
أضاف:

- وبعد ذهابهما، لن يكون هناك سبب وجيه يدعونا للبقاء هنا بمفردنا.
واصل حديثه، وكأنما يحدث نفسه:

- أو ربما سيأتي أبي وأمي الى هنا، وعندئذ، سيصبح الأمر قضاء الصيف
معهما. أياً كان ما يحدث، فقد انتهى صيفنا السعيد.

وعلى الرغم من أن هوندا كان على إدراك بأن العاشق لا مجال في فؤاده
لشيء إلا للمشاعره، وأنه يفقد حتى قدرته على التعاطف مع أحزان الآخرين،
فإنه لم يستطع تخيل فؤاد يتناسب على نحو طبيعي أكثر من فؤاد كيواكي مع
كونه مثل هذا الوعاء للعاطفة المحض، وعاء بارد وخشن كالزجاج المسقى.

بعد ذلك بأسبوع، بدأ الأميران السياميان رحلة عودتهما الى الوطن على
متن سفينة إنجليزية، ومضى كيواكي وهوندا الى يوكوهاما ليكونا في
وداعهما. وبما أن الوقت كان في منتصف الإجازة الصيفية، فلم يكن هناك
مجال للاتصال بزملاء آخرين في صف الأميرين الدراسي: غير أن الأميرتين،
في ضوء علاقاته الوثيقة مع سيام، بعث بوكيله ليمثله في وداعهما. وحيا
كيواكي الرجل في فتور، دون أن يتبادل معه إلا كلمة أو كلمتين.

وفيما راحت السفينة الهائلة التي تقل الركاب والبضائع، تتبعد عن
الرصيف، تبدد ثثار الزبد الذي خلفته ورائها وحملته الريح بعيداً. وقف
الأميران على الذيل المروحي الى جانب العلم البريطاني، يستافان النسيم،
وراحا يلوحان بمنديليهما دوغماً توقف.

بعد وقت طويل من انطلاق السفينة الى القناة الملاحية وانصراف جميع
المودعين الآخرين، ظل كيواكي في مكانه رغم حرارة شمس الأصيل
الخائفة التي انصبت على الرصيف، حتى لم يعد بمقدور هوندا إلا أن
يستحثه على الانصراف. لم يكن كيواكي يودع الأميرين السياميين
الراجلين، وإنما بالأحرى أحس بأن شبابه، أو الجانب الأكثر تمجداً منه،
كان يوشك على الاختفاء، تحت الأفق.

حين أقبل الخريف، بدأت الدراسة، من جديد، وأصبحت لقاءات
كيواكي وساتوكو مقيّدة، على نحو أكبر، واضطرت تاديشينا الى اتخاذ أشد
الاحتياطات تحرزاً لتمكينها من مواصلة التنزه معاً، في صدر المساء، دون
التعرض للانكشاف.

تعين عليهما الحرص، حتى على تجنب موقدي المصابيح، الذين كانوا لا
يزالون يحبون ذلك الجانب من حي توريزاكا. دأب موقدو المصابيح أولئك
بزيهم الرسمي ذي الياقة المحكمة على حمل أعمدة طويلة يدفعونها تحت
الغطاء الواقى لكل مصباح في الطريق لتصل الى مخرج الغاز الموجود أسفل
الغطاء. ولدى اكتمال هذا الطقس الذي يؤدي على عجل كل يوم عند
الغسق تخلو الطرقات من المارة. ومن هنا كان ذلك هو الوقت الذي يمكن
فيه لكيواكي وساتوكو التنزه في الحوارى الخلفية الملتفة، وهما يشعران
بالأمان بصورة نسبية. كان صرير الحشرات يعلو، في ذلك الوقت، ولكن
الأضواء في النوافذ لم تكن باهرة، على نحو غير مناسب. ولم يكن للعديد
من الدور من البوابات ما يفصلها عن الطريق. بل كان في وسعهما أن
يسمعا وقع أقدام زوج عائد الى داره ثم ضجيج الباب وهو يوصد.

قالت ساتوكو، باعتدال بالغ، وكأنها تتحدث عن شخص آخر:

- سينتهي كل شيء في غضون شهر أو شهرين. ومن المؤكد أن آل
توينومايا لن يرغبوا في تأجيل حفل الخطبة أكثر من ذلك، وكل ليلة عندما

أوى الى فراشي أحدث نفسي بأن الأمر سينتهى في الغد، سيقع في الغد شيء لا سبيل الى رده، ثم من الغريب أنني أغفو في سلام. ذلك هو ما نفعله الآن، شيء لا سبيل الى نقضه.

- طيب، افترضى أنه حتى بعد حفل الخطبة...
- ما الذي تقوله يا كيو؟ لو أننا زدنا خطايانا عما نفعله الآن، فإن روحك الرقيقة ستسحق سحقاً. وبدلاً من التفكير في أمور كهذه، فاني أؤثر التفكير في عدد المرات التي سيكون بوسعي لقياك فيها.
- لقد اتخذت قرارك؟ أليس كذلك؟ في وقت لاحق، ستمسين كل شيء. أليس هذا صحيحاً؟

- بلى، وان كنت لا أدري على وجه الدقة كيف سأجترح هذا. ان الدرب الذي نسير فيه يا كيو ليس بطريق، وانما هو رصيف ميناء، وهو ينتهي في موضع ما يبدأ فيه البحر، ولا مفر من ذلك.

كانت تلك حقاً هي المرة الأولى التي تحدثا فيها عن النهاية. واذ واجهاها، لم يستشعرا مسؤولية تتجاوز ما يحس به طفلان، لم تكن لديها خطط يركنان اليها، ولا حل، ولا مسار للعمل - وأحسا بأن هذا كله يقف شاهداً على نقاء نواياهما. ومع ذلك فبمجرد أن أتيا على ذكر الانفصال النهائي التصقت الفكرة بذهنيهما كأنها الصدا.

هل انغمسا في كل هذا دونما تفكير في النهاية؟ أم أنها شرعا في علاقتها على وجه الدقة لأنها فكرتا في نهايتها؟ لم يدركوا كيواكي بجلية الأمر. حدث نفسه بأنها لو انقضت عليها صاعقة فحولتها إلى رماد فلا بأس. ولكن ماذا يفعل إذا لم يحل عقاب صارم من السماء وبقيت الأمور على ما هي عليه؟ جعله ذلك يحس بالاضطراب، فتساءل في قرارة نفسه: «لو أن الأمر كان كذلك ترى هل أوصل حب ساتوكو بلهفة كما أفعل الآن؟».

تلك كانت المرة الأولى التي يساوره فيها قلق من هذا النوع . فدفعه الى الإمساك بيد ساتوكو . ولكن عندما شبكت أصابعها بأصابعه في معرض الرد ، أحس بالضيق ، وأحكم قبضته بقوة تكاد تشل يدها . لم تند عنها أدنى صيحة ألم . واصل قبضته بالقوة عينها ، وعندما أظهر له ضوء شعاع منسل من نافذة نائية بطابق ثان من مبنى أثراً للدموع في مقلتيها أحس باغتناب أسود يداخله .

أدرك أن هذا كان دليلاً آخر على الجوهر الخفي والوحشي المحتجب للحساسية التي غرست في نفسه طويلاً . من المؤكد أن أبسط حل بالنسبة لهما هو أن يموتا معاً ، ولكنه أحس بأن الأمر يقتضي شيئاً أكثر مدعاة للشعور بالعذاب . فتنه ذلك المحرم المحظور الذي كانا ينتهكانه حتى في هذا الوقت مع كل لحظة تنقضي عجلي من هذا اللقاء السري ، ومضى يدفعه قدماً ، كأنه جلجلة جرس ذهبي ناء لا سبيل للأبد الى بلوغه . وكلما أوغل في الخطيئة راوغه الشعور بها . وماذا عن النهاية ؟ راح يحدث نفسه وقد أخذته رجفة : كيف يمكن أن تنتهي الأمور إلا بخديعة هائلة ؟

قالت ، بصوتها الصافي المعتاد ، الذي لا يربكه شيء :

- يبدو أنك لا تستمتع كثيراً بالتنزه معي ، على هذا النحو ، انني أرتشف كل لحظة تمضي من السعادة ، ولكن . . . يبدو لي أنك نلت كفايتك منها .
- كل ما في الأمر أنني أحبك كثيراً ، والسعادة هي شيء خلفته ورائي .

قالها كيواكي جاداً ، وحتى وهو يتفوه بهذا الطرح العقلاني أدرك أنه لم يعد بحاجة الى تجشم عناء القلق فيما يتعلق بأي أثر للطفولية في طريقة حديثه .

كانت الحارة التي يسلكانها تفضي الآن الى روبونجي بحوانيتها المتجاورة في تقارب بعضها من بعض الآخر . كانت لافنة حائلة اللون ، تسدلى حاملة

الرسم الدال على الثلج، أمام متجر لبيع الثلج مغلق المصاريع، وهو مشهد بائس في هذا الشارع الذي يردد صرير حرير الحشرات. عندما تجاوزاه قليلاً صادف نافذة ينسل منها الضوء الى الطريق. كان هذا الحانوت لتاجر أدوات موسيقية، يدعى تاي، تشير لافتة حانوته بأنه يعمل مع الفرقة الموسيقية التابعة لفوج أزابو. وبدا يعمل حتى وقت متأخر لإنجاز تكليف ما.

دارا حول دائرة الضوء، ومع ذلك، فقد بهر نظريهما، للحظة، بريق متألّق، صادر عن آلات موسيقية نحاسية. وتدلّ هنالك صف من الأبواق الجديدة، التمتع بألق يليق بأرض الاستعراض، في منتصف الصيف، تحت فيض من الأضواء المترفة. ومن داخل الحانوت تناهى إليهما نغم البوق المفاجيء، الكثيب، في نغمة واحدة تجريبية، توقفت بمجرد سماعهما لها. بدت لأذني كيواكي كأنها مقدمة لطبي صفحة الكون.

- عد أدراجك، رجاء، فهناك أناس كثيرون أمامكم!
قالتها تاديشينا همساً لكيواكي، فيما هي تنزلق خلفها، دون أن يلحظها أحد.

لم يقم آل توينومايا بأي محاولة للتطفل على حياة ساتوكو. فقد كان الأمير هارو نوري مشغولاً بواجباته العسكرية، ولم يكلف أحد غيره ممن يعينهم الأمر نفسه عناء ترتيب لقاء آخر بينه وبين ساتوكو، كما أنه هو نفسه لم يشر الى رغبته في عقد مثل هذا اللقاء. غير أن كل ذلك لم يكن ليعني بحال أن آل توينومايا يعاملونها بفتور. وبمعايير اضطراد تقدّم مثل هذه الخطبة، كان كل شيء يمضي قدماً على خير ما يرام. وقد اعتقد من يحيطون بالأمير أن اللقاءات المتعددة بين الشابين، اللذين كان زواجهما أمراً مسلماً به، لا يمكن أن يأتي من ورائها ما يفيد، بل قد تؤذن بورطة ما.

وفي غضون ذلك، كانت هناك تلك المنجزات المتوقعة من شابة توشك أن تصبح أميرة. ولو أنها كانت سليلة عائلة يدور أدنى شك حول رفعة شأنها، لتعين عليها أن تخوض غمار مسافات تدريب متنوعة، لا تأخذ بعين الاعتبار الا قليلاً التعليم السابق. ولكن تقاليد التربية الرفيعة، التي دأبت عائلة النبيل أياكورا على التمسك بها، كانت من القوة بحيث أن ابنته كان بمقدورها أن ترقى في يسر الى مرتبة الأميرة. وقد أصبح هذا الاقتدار جزءاً من ساتوكو لا يتجزأ، بحيث كان بمقدورها، وقتما تشاء، أن تنظم قصائد تليق بأميرة، تكتب بخط يليق بأميرة، وترتب الزهور، مثلما يجدر بأميرة. وما كانت لتقوم قائمة لعقبة في وجه تحولها الى مرتبة الأميرات، منذ بلوغها عامها الثاني عشر.

غير أن النبيل أياكورا وزوجته استشعرا كلاهما القلق، حيال ثلاثة

منجزات، لم تثل مكانتها في تعليم ساتوكو حتى الآن. هكذا، حرصاً على أن تتمكن من ناحية هذه المنجزات بأسرع ما يمكن، وهذه المنجزات كانت غناء «الناجوتا» ولعب الماهيمونج، التي كان الأمير توين مولعاً للغاية بها، والاستماع إلى التسجيلات الموسيقية الأوروبية، وهي وسيلة لإجاء الوقت الأثيرة عند الأمير هارونوري نفسه. وبعد أن أوضح النبيل أياكورا الموقف للأمير ماتسوجاي، وعلى الفور رتب هذا الأخير لحضور أحد أساتذة الناجوتا، لإعطاء دروس لساتوكو، وتسليم جراموفون الماني الصنع لآل أياكورا مع كل التسجيلات المتاحة. غير أن العثور على مدرب لشيء من قبيل لعبة الماهيمونج فقد شكل مهمة أكثر صعوبة. وعلى الرغم من أنه هو نفسه كان لاعباً نشطاً للبياردو على الطريقة الانجليزية إلا أنه رغم ذلك إنزعج حيال كون عائلة نبيلة على مثل هذه الدرجة من رفعة الشأن تستمع بلعبة شعبية مثل الماهيمونج.

وقد تصادف أن مالكة دار الجيشا في يانا جيباسي وكبرى فتيات الجيشا لديها كانت من لاعبات الماهيمونج البارزات. وهكذا، رتب الأمير قيامهما بزيارات متتابة لدار أياكورا وتأليفهما مع تاديشينا فريقاً رباعياً، يعرف ساتوكو باللعبة. وقد دفع هو نفسه الأتعاب الإضافية الخاصة بقيامه بهذه الزيارات.

حرى بالمرء أن يتوقع أن من شأن هذا الرباعي، الذي يشمل لاعبتين محترفتين، أن يجلب مناخاً غير مألوف من المرح إلى عالم دار آل أياكورا المتشدد. غير أن تاديشينا أصرت على معارضتها لذلك، وزعمت أن الأمر يحمل لطمة لكبريائها، ولكنها، في حقيقة الأمر، أفزعها احتمال أن تكتشف عيون هاتين المرأتين، اللتين حنكتهما الدنيا، سر ساتوكو. وحتى لو أن هذا لم يحدث، فإن ألعاب الماهيمونج تلك ستتيح رغم ذلك للأمير ماتسوجاي أن يزرع جاسوسيتين مدفوعتين الأجر في دار أياكورا.

لم تهدر مالكة الدار وكبرى فتيات الجيشا وقتاً في تفسير تصلب تاديشينا وصلفها، الذي لا يتراجع للحظة، على أنه إهانة متعمدة لهما، ولم يتطلب رد فعلهما إلا ثلاثة أيام للوصول الى مسامح الأمير ماتسوجاي، فانتظر فرصة ملائمة، وفي أول مناسبة مواتية، وجه اللوم بهدوء الى النبيل أياكورا:

- حقاً إنه لأمر يدعو الى الاعجاب البالغ أن خادماً عجوزاً مخلصاً من خادمتك تقدر كل هذا التقدير مكانة عائلتك، ولكن من المؤكد في هذه الحالة أن الهدف كله هو إدخال السرور في نفوس عائلة الأمير، ولذا فقد يقتضي الأمر بعض التحمل، ثم إن هاتين المرأتين من يانا جيياشي تنظران الى هذا باعتباره فرصة مجيدة لهما لتقدما خدمة ما، وهكذا، وרגم أنها مشغولتان، فقد أبدتا إستعدادهما للقدوم الى الدار.

نقل النبيل كل هذا الى تاديشينا، الأمر الذي وضعها في موقف بالغ الحرج.

وفي حقيقة الأمر أن ساتوكو سبق لها اللقاء بهاتين المرأتين. ففي يوم حفل تبرعم الكرز الذي أقيم في الحديقة كانت مالكة دار الجيشا تتولى تقاليد الأمور الكوليس، بينما اضطلعت فتاة الجيشا العجوز بدور شاعر الهايكو. وعندما جاءت لأول تدريب على لعبة الماهيمونج، ألقت مالكة دار الجيشا خطاب تهنئة للنبيل والنبيلة بمناسبة الخطبة، وأحضرت أيضاً هدية رائعة:

- ما أجل ابتكما! وإذ تتملك ناصية الكبرياء الرائع لأميرة على سجيتها فلا بد أنكما قد سعدتما لدى هذه الخطبة! إن ذكرى سحاكما لنا بأن تكون لنا صلة بالأمر ستظل في خاطرنا الى الأبد، ولسوف تنقلها من جيل الى جيل معتمصتين بأقصى قدر من السرية بالطبع.

غير أنها بعد هذا التعبير المبالغ في الأطناب عن تقديرهما، لم تكونا على

تمام الاستعداد لمواصلة الاحتفاظ بهذا المظهر الخارجي المناسب، عندما انسحبنا الى غرفة أخرى، وجلسنا الى مائدة الماهيمونج مع تاديشينا وساتوكو. فقد كانت العيون الدامعة بالاخلاص لساتوكو يحف دمعا بين الفينة والأخرى، كاشفة عن جفاف الانتقاد لها. وكانت تاديشينا مدركة، في استياء، للنظرة ذاتها، وهي تلفها وتلف معها مشبك زناها الفضي العتيق الطراز. ولكن حادثة وقعت منذ البداية ذاتها كانت أشد مدعاة للشعور بالقلق.

قالت فتاة الجيشا المعجوز، على نحو عرضي، وهي تخلط رقائق الماهيمونج:

- ترى كيف حال نجل الأمير ماتسوجاي؟ لا أصدق أنني رأيت شاباً أفضل مظهراً منه.

عند ذلك، وبحدق ملحوظ، حولت مالكة دار الجيشا دفعة الحديث الى أمور أخرى. ولربما لم تقم بذلك إلا تقريراً لرفيقتها لطرحها موضوعاً لا يليق الحديث عنه، لكن الحوار أثقل على أعصاب تاديشينا.

وفقاً لنصيحة تاديشينا، حاولت ساتوكو الاقتصار على أقل قدر ممكن من الحديث، ولكن المبالغة في التركيز على حماية خواطرها الدفينة أمام هاتين المرأتين، اللتين لم يكن لهما نظير في مهارتهما فيما يتعلق بتفسير دقائق سلوك المرأة أثار خطراً آخر. فلو أنها أظهرت نفسها باعتبارها متكئة أكثر مما ينبغي، فقد يطلق هذا شائعة تنذر بفضيحة، حول أنها تبدو تعيسة حيال زواجها الوشيك. وإخفاء مشاعرها كان يعني المخاطرة بأن يخونها سلوكها، والتبسط في السلوك كان يعني المخاطر بكشف مشاعرها.

وكتيجة لهذا، اضطرت تاديشينا الى الاعتماد على قدرتها الفائقة على

الاحتيايل للأمر، لإنهاء جلسات التدريب على لعبة الماهيمونج تلك على نحو باتر.

قالت للنبييل أياكورا:

- إنني مذهولة حقاً؛ إذ يكلف سمو الأمير ماتسوجاي نفسه عناء قبول تخرصات هاتين المرأتين، باعتبارها أموراً مسلماً بها. إنهما تقولان إنني الملوثة على عدم تحمس الأنسة ساتوكو. ولئن لم تقولاً ذلك لكانت هما الملوتمين لعدم تحمسها. إني واثقة من أن هذا هو السبب في أنها قالتا إني أتشامخ عليهما. وبغض النظر عن مدى توافق ذلك من رغبات سمو الأمير ماتسوجاي، فإن مجيء وذهاب امرأتين تمتهنان هذه المهنة الى دار مولايها هنا هو بمثابة فضيحة. فضلاً عن ذلك فقد تعلمت الأنسة ساتوكو بالفعل أوليات لعبة الماهيمونج. وهكذا فإنها إذا كانت ستلعبها بعد زواجها لمسيرة الحياة الاجتماعية، وإذا ما خسرت على الدوام فإن ذلك سيجعلها جذابة للغاية، ومن هنا فإنني سأعارض بشدة إعطاءها المزيد من الدروس. أما إذا أصرّ الأمير ماتسوجاي، فإنني سأطلب إعفائي من مواصلة خدمة مولاي.

لم يجد النبييل أياكورا أمامه مفرّاً من الانصياع لمثل هذا الإنذار النهائي، الذي صدر بهذه القوة.

كانت تاديشينا، في اللحظة التي علمت فيها من الوكيل يامادا بأن كيواكي لم يصدقها القول فيما يتعلق برسالة ساتوكو، قد وجدت نفسها عند مفترق طريق. وكان أمامها الخيار إما بأن تصبح عدوة لكيواكي وإما بالقيام بكل ما يريده هو وساتوكو، في إدراك كامل لعواقب ما تأتيه. وقد اختارت السبيل الأخير.

وعلى الرغم من أن دافعها الرئيسي للقيام بهذا قد تمثل في عاطفة أصيلة نحو ساتوكو، فإنها في الوقت نفسه كانت تخشى أن التفريق بين العاشقين

يمكن أن يدفع ساتوكو الى الإقدام على الانتحار، فوصلت الى أن خير سبيل تسلكه هو أن تحفظ سرهما، وتركهما يفعلان ما يحلو لهما، في انتظار أن تنتهي قصة الحب، من تلقاء ذاتها. وفي الوقت نفسه ستبذل قصارى ما في وسعها لإسدال ستار من السرية البالغة على الأمر.

كانت تفخر بأنها على تمام الإلمام بكل أسرار مسارات العاطفة. وإذا كانت من المدافعين المتشددين عن الفلسفة القائلة بأن المجهول لا وجود له، فإنها لم تنظر الى نفسها باعتبارها امرأة تخون الثقة التي محضها إياها النبيل أياكورا أو آل توينومايا أو أي شخص على الإطلاق. كان بوسعها أن تساعد في دفع قصة الحب هذه قدماً وأن تكون حليفة العاشقين تماماً كما لو كانت تجري تجربة كيميائية، وفي الوقت نفسه كان بمقدورها إنكار وجودها بتغطية كل التفاصيل التي قد تنم عنها. وكانت تعرف حق المعرفة أنها قد سارت في درب خطر، ولكنها آمنت بأنها ولدت في هذه الدنيا لتقوم بدور المخلص من كل موقف دقيق. وهكذا، كان بمقدورها أن تلقي بالعديد من الالتزامات على كاهل الآخرين، مما يجبرهم بالفعل بدورهم على القيام بما تنشده، على وجه الدقة.

حرصت على جعل اللقاءات متعددة بقدر الامكان، للتعجيل بتراجع حميا العاطفة، لكنها فشلت في إدراك أن عواطفها هي قد اندرجت في غمار الأمر. لم تكن لهذا علاقة بالانتقام من كيواكي لسلوكه القاسي. حقاً إنها كانت تنتظر مقدم اليوم الذي يبلغها فيه برغبته في هجر ساتوكو، ويطلب منها أن تودعها نيابة عنه. وعندما يحدث هذا فإنها ستذكره، في عنفوان، بمدى ما كانت عليه رغبته التي فترت اليوم من احتدام، في السابق، لكنها لم تكن تصدق هذا الحلم، إلا على نحو جزئي. ولئن تحقق فكم سيكون معذباً لساتوكو!

لماذا حدث أن هذه المرأة العجوز الرابطة الجأش التي كان ينبغي أن تنبغ

فلسفتها القائلة بأنه ما من شيء آمن في هذه الدنيا بوضع الحفاظ على نفسها في المقام الأول قد تركت نفسها تندفع بدلاً من ذلك نحو الإطاحة بكل الأفكار المتعلقة بالسلامة والأمان؟ وكيف أمكن أن تدفع نفسها الى استخدام هذه الفلسفة ذاتها كذريعة للمغامرة؟ في حقيقة الأمر أنها في لحظة لم تأخذ فيها الحوار لنفسها قد خضعت لنشوة تتحدى كل تحليل عقلائي. فمن أجل أن تكون وسيلة لجمع شبابين على مثل هذا القدر من الجمال، ومن أجل مشاهدة حبهما اليائس وهو يزداد احتراقاً وإيغالاً في عاطفته استسلمت شيئاً فشيئاً لعذاب بهجة تجاهلت كل المخاطر.

وإذ تملكته هذه المشاعر، ساورها إحساس بأن هناك شيئاً بالغ القداسة فيما يتعلق بالاتحاد الجسدي لشابين جميلين حتى أن الأمر لا يمكن الحكم عليه إلا بمقيار غير عادي. الطريقة التي تتوهج بها عيونهما عندما يلتقيان، الكيفية التي يخفق بها فؤاد كل منهما وهما يدنوان أحدهما من الآخر - تلك كانت ناراً تدفئ قلب تاديشينا المتجمد بالصقيع. من أجل ذاتها أرادت أن تبقي على وهج هذه النار وتحفظها من الموات. في كل مرة قبل أن يلتقيا كانت وجنتاهما تبدو شاحبة وغائرة من فرط الاكتئاب، ولكن ما إن يقع بصر أحدهما على الآخر حتى يشرع محياهما في التآلق بتوهج مثلما رؤوس الشعير الصقيلة في حقل خلال شهر يونيو. وبالنسبة لتاديشينا كانت تلك اللحظة معجزة لا تقل عن سير المقعد أو استرداد الأعمى لبصره.

كان دورها الفعلي هو، بالطبع، حماية ساتوكو من كل سوء. ولكن شيئاً يتوهج على هذا النحو ليس بسوء، فما يتحول الى شعر ليس بسوء. من المؤكد أن هذه العقيدة قد تحللت على نحو مراوغ تقاليد الحساسية العريقة في عائلة أياكورا!

ومع ذلك، راحت تاديشينا، صابرة، تنتظر وقوع شيء ما. فمن بعض الجوانب كانت تحاكي امرأة أطلقت سراح عصفورها الأليف، وراحت

تنتظر فرصة الامساك به من جديد، وإعادته الى قفصه . لكنه كان هناك شيء ما في ذلك التوقع يشي برائحة الدم ووقع الفجيعة . وكل يوم كانت تضع بمزيد من التدقيق طبقة الذرور البيضاء التي كانت تؤثرها سيدات البلاط منذ زمن بعيد على وجهها، وتخض أوكار التجاعيد الكامنة تحت عينيها بالذرور الأبيض ومثيلاتها المحيطة بشفتيها بلون حمرة كيوتو المفعم بالحوية . وفيما هي تقوم بهذا تتجنب فحص محياها في المرآة، وتحقق، بدلاً من ذلك وبجدية وعلى نحو متسائل، في الفضاء . بدا أن ألقى الساء الحريفية السامقة يتكف متحولاً الى قطرات صافية متألقة في عينيها، ولكن في أغوارهما كان بمقدور المرء أن يلمح ظمأ يائساً للمستقبل، ثم لكي تفقد زيتها بشكل عام تلتقط عينات عتيقة الطراز، تتجنب عادة وضعها على عينيها، وتضعها في مكانها معلقة الذراعين المعدنين الناحلين على أذنيها . وفيما هي تقوم بذلك يرفع الذراعان شحمتي أذنيها، اللتين كساهما الذرور، فتتقدان .

في بداية أكتوبر، بعث آل توينومايا بالإخطار التقليدي، وفيه أن حفل الخطبة سيقام في ديسمبر، وأرفقوا به قائمة غير رسمية بالهدايا: خمس بكرات من قماش الملابس . برميلان من الساكي الفاخر، صندوق من سمك الشبوط . وكان البندان الأخيران بالطبع متاحين في سر، أما قماش الملابس فقد تولى الأمير ماتسوجاي ترتيب أمره، فبعث برفقة ضافية الى مكتب لندن، التابع لمؤسسة إتسوى، لكي يأمرؤا بتقديم أفخر قماش إنجليزي خصيصاً، ويرسلوه في الحال .

عندما مضت تاديشينا، ذات صباح، لإيقاظ ساتوكو، لاحظت أن محياها انخطف لونه، حالما أيقظتها، ثم نَحَّت ساتوكو يدها جانباً، ونهضت من الفراش، واندفعت الى الدهليز، ووصلت بالكاد الى الحمام، فتقيات،

ولوثت رذن منامتها قليلاً. ساعدتها تاديشينا على العودة الى المخدع، وحرصت على التأكد من أن الباب موصد.

كانوا يحتفظون في الفناء الخلفي بحوالي عشر دجاجات أو أكثر، وقد اخترقت قوقاتها وصباحها أستار الشوجي وهي تنطلق كل صباح معلنة بداية يوم جديد لآل أياكور، كما أن هذه الجوقة ما كانت لتكف عن إنشادها عندما تعلو الشمس كبد السماء. وفي قلب الصباح أراحت ساتوكو وجهها على الوسادة، وأغمضت عينيها.

قالت تاديشينا، وقد دنت بفمها من أذني ساتوكو:

- أصغي إليّ رجاء! لا ينبغي إطلاع أحد على هذا. لا تعطى منامتك، لطفاً، للخادمة لتغسلها، في أي ظرف من الظروف، ساعني بها بنفسي، حتى لا يعلم أحد. ومن الآن فصاعداً سأتحذ كل الترتيبات، فيما يتعلق بطعامك، وسأحرص على ألا تتناولي إلا ما يوافقك، حتى لا تشك الخادمة في شيء. ما أقوله لك هو لصالحك فحسب، لذا عليك القيام بما أقوله على وجه الدقة.

وافقت ساتوكو، دوغما تيقن، فيما دمعة وحيدة تنحدر على خدها الأسيل.

امتلأت نفس تاديشينا جبراً؛ فقد كانت الوحيدة التي تلقت هذا المؤشر الأولي، ثم في اللحظة التي حدث فيها ذلك، تبين لها شيء: لقد كان هذا على وجه الدقة ما تنتظره. فالآن أصبحت ساتوكو في قبضتي يديها!

إذا أخذ كل شيء بعين الاعتبار، فإن تاديشينا كانت أكثر إماماً فيما يتعلق بذلك الجانب من جوانب الحياة، الذي مثلته حالة ساتوكو الراهنة، منها فيما يتعلق بدنيا العاطفة. وكما سبق أن عاجلت برصد ونصح ساتوكو قبل سنوات عندما بدأت تحيض، فقد أظهرت الآن نفسها باعتبارها اخصائية

حاذقة في كل ما يتعلق بالأمور الجسدية. وبالمقابل، فإن النبيلة أياكورا، التي كانت تكفي بالإيماء موافقة، فيما يتعلق بأمور الحياة اليومية، علمت بأن انتهت بدأت تحيض، بعد حدوث ذلك بعامين، ومن تاديشينا نفسها.

زادت تاديشينا، التي لم تحقق قط في ملاحظة كافة مؤشرات حالة ساتوكو الصحية، من يقظتها، بعد ذلك المرض الصباحي الأول، وما إن تعرفت العلامات الدالة واحدة إثر الأخرى - طريقة ساتوكو في التزين، الأسلوب الذي تقطب به وجهها كأنها تنتظر مقدم نوبة أخرى من الغثيان تنتهي من بعيد، شهيتها الشرهة، الثقل الغامض في حركاتها - حتى اتخذت قرارها دونما تردد.

قالت لساتوكو:

- ليس شيئاً صحيحاً أن تبقي في الدار طوال الوقت على هذا النحو، فلنمضِ لنترى!

كان هذا القول، عادة، إيماءة إلى أن لقاء قد تم ترتيبه مع كيواكي، ولكن لما كانت السماء لا تزال الشمس في كيدها، فقد تحيرت ساتوكو قليلاً ونظرت إليها متسائلة. كان التعبير المألوف على ملامح تاديشينا قد احتجب وحل محله تحفظ صارم، فقد أدركت تمام الإدراك أنها تمسك بيديها ناصية مسألة تتعلق بالشرف ذات أهمية قومية.

فيما خرجتا عبر الفناء الخلفي، وقفت النبيلة أياكورا هنالك، وقد عقدت ذراعيها على صدرها، وهي ترقب خادمة، فيما هي تطعم الدجاج. وقعت شمس الخريف المتألقة على الريف المتألق للدجاجات المتكاكئة، وانعكست على الغسيل المنشور ليجف، محوِّلة إياه ليغدو موكباً من البياض، وفيما مضت ساتوكو قدماً الى الأمام، تاركة لتاديشينا مهمة إفراح طريق لها وسط الدجاج، أومأت في تأدب محيية أمها، ولاحظت القوائم المتبخرة

والتي تبرز فجأة من قلب الريش . وللمرة الأولى في حياتها فكرت في هذه الكائنات بحبانها كائنات معادية - عداء طبيعياً ولو من نزعة الخصومة بين الأنواع . كان شعوراً رهيباً . طفت في الهواء متجهة نحو الأرض ريشات سائبة بيضاء . حيّت تاديشينا أم ساتوكو .

- إني أصحب الأنسة ساتوكو في نزهة سيراً على الأقدام .

- نزهة؟ طيب . شكراً على تجشم عناء ذلك .

قالتها النبيلة أياكورا، في معرض الرد . ولكن بما أن زفاف ابنتها كان يقترب موعده مع كل يوم، فقد بدا، على نحو طبيعي، أنها تشعر بعصبية بالغة . ومن ناحية أخرى فقد غدت أكثر تهدياً وتحفظاً حيال ابنتها . وكما هو معتاد في عائلات نبلاء البلاد فلم تنفوه قط بكلمة انتقاد واحدة لها؛ حيث أنها كانت بالفعل بمثابة عضو في العائلة الامبراطورية .

اجتازتا شوارع رايدو، الى أن بلغتا مزاراً صغيراً، يحيطه سور جرانيتي، مكرّس لربة الشمس . ولجتا فناء الضيق، المهجور الآن بعد إنتهاء أعياد الخريف . وبعد الانحناء أمام المزار الداخلي، الذي أسدلت عليه الستة الأرجوانية، تقدمتها تاديشينا الى مؤخرة القبة، المستخدمة للرقصات المقدسة .

- أياي كيواكي الى هنا؟

تساءلت ساتوكو، مترددة، ولسبب ما أحست بأن أسلوب تاديشينا يحملها على الشعور بالفزع اليوم .

- كلا، لن يأتي . هناك اليوم شيء أريد أن أطلبه منك، يا آنسة ساتوكو، وهذا هو السبب في مجيئنا الى هنا، ما من شيء يدعونا الى الشعور بالقلق، حول استراق أحد السمع .

كانت ثلاث أو أربع صخور، موضوعة عند أحد جوانب القبة، ليستخدما من يريد الجلوس، ومتابعة الرقصات الطقوسية. وقد نزع تاديشينا «الهاوري» الخاص بها، وطوته ووضعته على سطح إحدى الصخور والذي كسته الأشنة.

- هاك! الآن لن تصابي بالبرد.

قالتها تاديشينا، فيما ساتوكو تقتعد الصخرة.

أضافت على نحو رسمي:

- طيب، الآن، يا سيدتي الشابة، أعلم أنه ما من حاجة تدعوني الى أن أذكرك، ولكنك بالطبع تدركين حق الإدراك أن الولاء للامبراطور ينبغي أن تكون له الأولوية المطلقة. إنها خطبة توشيهيا الحساسة تلك التي يتعين على مخلوقة مثل تاديشينا أن تلقيها على مسامع الأنسة ساتوكو أياكورا التي بوركت عائلتها عبر القرون بالعطف الامبراطوري طوال خمسة وعشرين جيلاً. ولكن حتى إذا نحّينا كل ذلك جانباً، فإنه ما إن يقترح زواج ويحظى بالتصديق الامبراطوري، حتى لا يعود هناك مجال للتراجع، ورفضه إنما يعني رفض هبة من جلالة الامبراطور، وليس هناك في الدنيا بأسرها خطيئة أشد فظاعة من هذه الخطيئة.

انطلقت تاديشينا في إيضاح تفصيلي. وعلى الرغم مما تعين عليها قوله، فلم تكن بمعرض توجيه اللوم لها على أي شيء وقع بالفعل، فقد كانت هي نفسها مذنبه بالدرجة ذاتها. وفضلاً عن ذلك، فإن ما لا يلحظه الكافة لا يتعين على المرء أن يعذب نفسه من جرائمه، ويعتبره بمثابة خطيئة. إلا أنها شددت على أنه ينبغي أن يكون هناك حد يتم التوقف عنده، والآن وقد حملت ساتوكو، فقد حان أوان وضع نهاية للأمر. لقد كانت حتى الآن مراقباً صامتاً، أما وقد وصلت الأمور الى حالتها الراهنة، فقد أحست بأنه لا

معنى لترك الأمور تجري في أعتتها والسماح لعلاقة الحب تلك بأن تتواصل . وهكذا فقد حان أو ان تملكها لناسية عزمها ، وينبغي عليها أن توضح لكيواكي أن عليها أن يفترقا . ولا بد لها من القيام بكل شيء وفقاً لتعليمات تاديشينا . وهكذا ، قالت ما يتعين عليها قوله موضحة المعاني التي قصدها في سياقها الصحيح .

واعتقاداً من تاديشينا بأن في هذا الكفاية لإقناع ساتوكو ، اختصرت محاضرتها ، وراحت بمبدال طوى بعناية تحفف في خفة العرق الذي بلل جبينها .

والى جانب عقلانية منطقها ، فقد تحدثت وتعبير حزين متعاطف يعلو ملاحظها ، فيما وثى صوتها بمطالع الدموع . لقد كانت هذه الفتاة أعز عليها من ابنة لها ، ولكنها كانت تدرك أن حزنها ليس أصيلاً وحقيقياً ، وتدرك وجود حاجز بين حزنها وحبها . ولما كان إعزازها لساتوكو بالغاً ، فقد راودها أمل في أن تلك الفتاة ستشركها معها في النشوة المخيفة والتي لا يسبر لها غور التي قبع في قرار حسمها الرهيب للأمر . فلكي ينتزع المرء نفسه فبطهرها من خطيئة يداخلها التدنيس عليه أن يقترب خطيئة أخرى . وفي النهاية ، تلغى الخطيئتان إحداهما الأخرى كأنما لم توجدا قط . على المرء أن يمزج شكلاً من أشكال الظلام بآخر ، ثم ينتظر أن يوشي اللون الوردي لفجر قدرى مقبل أطراف الظلام . ولا بد له في المقام الأول من إسدال ستار السرية على كل شيء .

لما كانت ساتوكو لا تزال على صمتها ، فقد بدأت تاديشينا في الشعور بعدم الارتياح ، وتساءلت :

- ستقومين بكل شيء ، على نحو ما أقوله ، أليس كذلك ؟ ما هو شعورك حيال هذا ؟

لم تنم ملامح ساتوكو عن شيء . ولم يند عنها ما يشير الى أن كلمات

تاديشينا قد أفزعتهما. والحق أن ملاحظاتها المطنبية لم يكن لها أي معنى بالنسبة لها على الإطلاق.

ردت قائلة:

- ولكن ما الذي يتعين علي القيام به؟ ينبغي أن يكون حديثك محدداً!
تطلعت تاديشينا حولها، قبل أن ترد، مقنعة نفسها بأن الصوت الخافت الذي صدر عن الجرس المعلق أمام المزار صادر عن هبة ريح قوية، وليس عن زوار مبتلين على الإطلاق.

- لا بد لك من التخلص من الجنين بأسرع ما يمكن!

أمسكت ساتوكو أنفاسها.

- ماذا تعنين؟ لسوف يودعونني السجن.

- لا تتحدثي على هذا النحو! وحتى لو تسرب الأمر فرضاً على نحو ما فسوف يستحيل على الشرطة أن تلحق العقاب بي أو بك على حد سواء؛ فقد تم ترتيب زفافك بالفعل، وما إن يتم تقديم هدية الخطبة في شهر ديسمبر حتى تغدو الأمور أكثر أمناً، لأن الشرطة تبدي تفهماً حيال أمور من هذا القبيل. غير أن هذا، يا آنسة ساتوكو، هو ما أريد منك فهمه: إذا تلكأت في الأمر وبدأ للجميع أنك حامل، فلن يكون بمقدور جلالة الإمبراطور والدنيا بأسرها اغتفار ذلك لك، وسيتم إنهاء الخطبة دوغماً تأخير، وسيتعين على أبيك أن يخفي نفسه عن عيون العالم، كما سيجد السيد كيواكي نفسه في موقف رهيب. وبصراحة فإن آمال المستقبل بالنسبة له ولآل ماتسوجاي كذلك ستعرض لتهديد بالغ، بحيث أنه لن يكون أمامهم من سبيل إلا الادعاء بأنه لا علاقة له بالامر من قريب أو بعيد، وهكذا فسوف يكون الضياع مآل كل ما يتعلق بك. أترغبين في أن يحدث ذلك؟ ليس بمقدورك الآن إلا القيام بشيء واحد.

- ولو أن الأمر ظهر على نحو ما، حتى بفرض أن الشرطة التزمت الصمت، ربما يترامى شيء إلى مسامع آل توينومايا. ثم كيف سيمكنني الظهور في حفل الزفاف؟ وفيما بعد كيف سأجرؤ على وضع نفسي تحت تصرف الأمير؟ حدثيني بذلك!

- ما من شيء على الإطلاق يدعوا إلى الاكتراث بما لا يتجاوز مجرد شائعة. أما فيما يتعلق بما سيظنه آل توينومايا، فإن ذلك سيتوقف بالكامل عليك. وهكذا، فإذا ما تصرفت طوال الوقت كأمريرة عفيفة جميلة فإنهم لن يقولوا عنك إلا أنك كذلك. أما بالنسبة للشائعات وما إليها فسرعان ما يطويها النسيان.

- إذن فمبدورك أن تؤكد لي أنه ليس هناك سبيل إلى معاقبتي أو إلى ايداعي السجن؟

- دعيني أحاول توضيح الأمر على هذا النحو بحيث تفهمينه. فالشرطة أولاً تحمل كل الاجلال لطبقة النبلاء؛ ومن هنا فليس هناك أدنى احتمال لسماحها لأمر كهذا بأن يغدو معروفاً للكافة. وإذا كنت لا تزالين تحسّين بالقلق فإن بمقدورنا أن نطلب من الأمير ماتسوجاي كريم عونه، ولسموه نفوذ كبير، ويوسعه تحقيق أي شيء. ففي نهاية المطاف سيكون ذلك من قبيل تغطية موقف السيد الشاب.

صاحت ساتوكو، بحدة:

- لا! ليس لك أن تقومي بهذا. هذا ما لن أسمح به. لن تطلبي العون تحت أي ظرف من الظروف لا من الأمير ماتسوجاي ولا من كيو، لسوف أحس بالهوان تماماً لو أنك فعلت ذلك.

- طيب. . لقد ذكرت ذلك كمجرد احتمال فحسب. ولكن ثانياً، وحتى بالمعايير القانونية الدقيقة، فإنني مصممة على حمايتك. لسوف نجعل قوام

الأمر أنك فعلت ما قلته لك دون أن يخطر لك ببال ما أدبره، حيث شملت مادة مخدرة دون إدراك لكنهها، وهكذا أصبحت بلا حول ولا قوة. ولئن فعلنا ذلك، ويغض النظر عن مدى ذبوع الأمر، فسوف ينتهي بأن يحل العقاب بي وحدي .

- هكذا فإنك تقولين إنه مهما كان ما سيحدث فلن أودع في السجن .

- يمكنك الاطمئنان الى ذلك .

غير أن ردها لم يعد نظرة الارتياح الى ساتوكو، التي قالت :

- إنني لا أريد الذهاب الى السجن .

انفكت عرى توتر تاديشينا، وهي تنفجر ضاحكة :

- تبدين كطفلة صغيرة . لم تقولين ذلك؟

- ترى ما الذي ترتديه السجينات؟ وماذا عساه يفعل كيوان رأي على

ذلك النحو. . . أستمروا على حيي أم لا؟ لكم أود أن أعرف!

فيما هي تلقى بهذه العبارة العبيثة، تألقت عيناها، البعيدتان عن الدمع أشد البعد، باغتناب وحشي بالغ، ارتعدت تاديشينا حياله .

أيأ كان الفارق بين هاتين المرأتين، في المكانة الاجتماعية، فلم يكن هناك سبيل الى إنكار أن القوة والشجاعة ذاتيهما كانتا تجمعانها. وسواء للخديعة أم من أجل وجه الحقيقة لم تكن الحاجة ماسة قدرها الآن لشجاعتها المشتركة .

أحست تاديشينا بأنها وساتوكو كانتا مثل زورق يتقدم ضد التيار، والتيار ذاته، يتناسبان على نحو بالغ، بحيث أن الزورق يقف ساكناً، لبعض الوقت، ملتصقاً بالماء بين لحظة وأخرى في حمية نافذة الصبر. وفضلاً عن ذلك، فإنه في هذه اللحظة أحست كلتاها بالبهجة ذاتها. كان لها صوت

اصطفاق أجنحة سرب من الطيور، يلوذ بالهرب فوق الرؤوس، مفسحاً الطريق لعاصفة مقبلة. كان انفعالهما الجامح، رغم أنه يضم شيئاً من الحزن، الخوف، الرهبة، مختلفاً عن كل هذه الانفعالات، ولا يمكن أن يدعى باسم آخر إلا بالنشوة.

تساءلت تاديشينا، وهي ترقب وجنتي ساتوكو الشاحبتين، فيما هما تحمران، تحت شمس الخريف:

- طيب، على أية حال ستفعلين ما أقوله لك. أليس كذلك؟

ردت ساتوكو:

- لا أريدك أن تحدّثي كيو بشيء من هذا على الإطلاق، أقصد ما يتعلق بحالتي. أما فيما يتعلق بما إذا كنت سأفعل ما تقولينه من عدمه فلا تقلقي! دون إشراك أحد آخر في الأمر، سأناقش كل شيء معك، وسأقرر بالفعل خير سبيل للتصرف.

كانت كلماتها تحمل بالفعل كبرياء أميرة.

فبما كان كيواكي يتناول طعام عشائه مع أبيه وأمه في أوائل أكتوبر، علم أن حفل الخطبة سيقام، أخيراً، في ديسمبر. وأبدى أبواه أعظم قدر من الاهتمام بقواعد السلوك الخاصة بهذه المناسبة، وتنافساً أحدهما مع الآخر في إظهار مدى معرفتهما بقواعد وأعراف البلاط القديمة.

قالت أمه :

- سيتعين على النبيل أياكورا أن يعد قاعة رسمية عند قدوم وكيل الأميرة، ترى أي غرفة ستستخدم لهذا في اعتقادك؟

- طيب، بما أن الجميع سيشهدون الحفل، ستكون قاعة كبرى غربية الطراز مناسبة، إذا كانت لديهم قاعة من هذا النوع. سيتعين عليهم أن يكسوا بقماش خاص أرضية غرفة الاستقبال وكذلك أرضية الدهليز المفضي إليها من المدخل لاستقبال الوكيل. سيحجى في عربة تجرها الجياد مع تابعين، وستتبع على أياكورا أن يكون متأهباً ومعه خطاب القبول مكتوباً على ورق بديع، سميك موضوع في مغلف من الورق نفسه، ومربوط بخيطين مجدولين ومعقودين معاً. وسيرتدي الوكيل الثياب الرسمية للاحتفال، وكذلك حينما يلقي النبيل خطابه، فسيتعين عليه بدوره أن يكون مرتدياً الزي المناسب لدرجته في سلم طبقة النبلاء، ولكنه خبير محنك، فيما يتعلق بكل هذه التفاصيل، فما من حاجة الى قول أي شيء له في هذا الصدد. عندما تصبح النقود مشكلة، هنا فحسب يمكنني تقديم يد المساعدة.

بوغت كيواكي بالأمر بشدة، وأمضى ليلة مسهدة، تخيل أن بمقدوره أن يسمع القرعة الكثيرة الصادرة عن الأغلال، وهي تجر على الأرض، دانية شيئاً فشيئاً، لتطبق على حبه. لم يشعر بشيء من الطاقة المنطلقة، التي أحرقتها عندما صدر التصديق الإمبراطوري.

كان ما أثاره في ذلك الوقت، أي فكرة الاستحالة المطلقة، قد بدا له كأنه قطعة بديعة من الخزف الأبيض. أما الآن فقد اكتست هذه القطعة بشبكة من التشققات الدقيقة. وهكذا فإنه بدلاً من النشوة الضاربة التي تدفقت من شعوره بالتصميم في ذلك الوقت، فقد أحس الآن بالحزن الذي يساور رجلاً يرقب موسماً يحتضر.

راح يسائل نفسه عما إذا كان قد استسلم إذن. لا، لم يستسلم. ولكنه رغم ذلك أحس بأن قوة التصديق الإمبراطوري قد عملت على أن تلقي به وبساتوكو أحدهما في حضن الآخر بضراوة بالغة، بينما هذا الإعلان الرسمي لحفل الخطبة يفرقهما، على الرغم من أنه لم يكن إلا امتداداً للتصديق الإمبراطوري. لقد كانت معالجة هذا التصديق بالغة البساطة: فما كان عليه إلا أن يتبع ما غمليه عليه رغباته. ولكن كيف السبيل إلى التعامل مع هذه القوة الجديدة؟ لم تكن لديه أدنى فكرة عن ذلك.

في اليوم التالي، قام، في إطار استخدام الطريقة المعتادة في الاتصال بتاديشينا، بإجراء مكالمة هاتفية مع صاحب نزل الضباط، وقال له إن عليه إبلاغ تاديشينا برغبته في رؤية ساتوكو، في أقرب وقت ممكن. ولما لم يكن بمقدوره أن يتوقع تلقي أي رد قبل حلول المساء، فقد مضى في إذعان إلى المدرسة، ولكن الدروس التي تلقاها في ذلك اليوم لم تترك أدنى أثر في نفسه. وبعد انتهاء اليوم الدراسي، نقل صاحب النزل رد تاديشينا: في ضوء الموقف الراهن، لا بد أن كيواكي يدرك أنه في الوقت الحاضر لا يبدو أن هناك إمكانية لترتيب لقاء على الأقل في غضون عشرة أيام. غير أنه

بمجرد أن تتاح فرصة فستخبره تاديشينا بذلك في الحال. فهل له في الانتظار رجاء الى ذلك الحين؟

انقضت تلك الأيام العشرة في عذاب؛ من جراء نفاذ الصبر. أحس بأنه يعاني الآن عواقب سلوكه، في الماضي، وبخاصة ذلك الوقت الذي أبدى فيه فتوراً حياً ساتوكو.

غدا الخريف أشد تجلياً ووضوحاً. كان الوقت لا يزال مبكراً بالنسبة لبلوغ ألوان أشجار القيقب سمت اكتمالها، رغم أن أوراق أشجار الكرز قد تحولت الى لون أرجواني منطفيء، وشرعت في التساقط. لم يكن كيواكي في حالة نفسية تسمح له بالسعي بصحبة أصدقائه، ولكن قضاء أيامه وحده كان مجهداً. وكانت أيام الأحاد بصفة خاصة عسيرة، فيها راح يحدث نفسه به، وهو واقف يطل على البحيرة التي عكس سطحها السحب المتحركة. ثم مضى يحدق بنظرة خاوية في الشلال البعيد ويتساءل عن السبب في أن الماء الذي يتدفق عبر مستوياته التسعة لم يجف قط. ما أغرب ألا تنقطع هذه الاستمرارية الناعمة أبداً! أحس بأن هذا المشهد يشبه صورة لمشاعره.

طغت عليه حالة مزاجية، قوامها شعور بالإحباط الأجوف، جعلته يحس بأنه محموم ومرتعج برداً، في وقت واحد. بدا الأمر كما لو كان مصاباً بمرض جعل حركاته ثقيلة وانية، وجعله في الوقت نفسه يشعر بالقلق. انطلق يضرب وحيداً في أرجاء الضيعة، فسلك درباً يفضي عبر أجسام أشجار السرو اليابانية الى مؤخرة الدار. مر بالبستاني العجوز الكادح الذي عكف على استخراج البطاطا البرية ذات الأوراق المصفرة.

لاحظ السماء الزرقاء من خلال أغصان السرو، وسقطت قطرة من مطر الأمس على جبينه، فساوره فجأة شعور بأنه قد تلقى رسالة رائعة النقاء،

كما لو كانت قطرة المطر تلك تحفر تجميدة على جبينه، أنقذته من القلق الذي ظن أنه قد خلفه نسياناً منسياً. لم يستطع إلا الانتظار، دون أن يقع شيء. بدا كما لو كان يقف عند منعطف طريق تمضي فيه شكوكه وهواجسه مستعرضة ذاتها على الايقاع الأجوف لحشد من وقع الأقدام. بلغ به التوتر حد نسيان حسنه وجماله.

إنقضت الأيام العشرة، ووفت تاديشينا بوعدها، ولكن اللقاء كان محاطاً بالعديد من الضوابط الى حد أنه مزق فؤاده تمزيقاً.

كانت ساتوكو في طريقها إلى متجر ميتسوكوشي لشراء مجموعة من الكيمونو للزفاف. وكان من المقرر أن تذهب أمها معها الى هناك؛ ولكن بما أنها اعتكفت في الفراش لإصابتها بنوبة برد عارضة فإن تاديشينا ستصحب وحدها ساتوكو. س يلتقون في المتجر، ولكن ليس تحت أنظار الباعة، الأمر الذي لا طائل وراءه، وهكذا فإن كيواكي سينتظر عند المدخل الزين بتمثال الأسد، في الساعة الثالثة، وعندما تخرج ساتوكو وتاديشينا، فإن عليه التظاهر بتجاهلها وإن تبعهما عن بعد. وفي نهاية المطاف عندما تلجان مطعماً غير بعيد، يقدم حساء الفاصوليا، حيث لا يحتمل أن يراهم أحد، فإن بمقدوره اللحاق بهما وتجاذب أطراف الحديث مع ساتوكو، لفترة قصيرة. وفي غضون ذلك، فإن رجل عربة الريكشو، التي تستقلانها، والمتنظر أمام المدخل الأمامي لمتجر ميتسوكوشي سيظن أنها لا زالتا داخل المتجر.

غادر المدرسة مبكراً، وفي الساعة الثالثة كان في الانتظار، وسط حشد المتسوقين، أمام متجر ميتسوكوشي، مرتدياً معطفاً راقياً من المطر فوق زيه المدرسي حتى يخفي الشارة المميزة على ياقته ذاتها. وكان قد وضع قبعة في داخل حقيبته. خرجت ساتوكو، وألقت عليه نظرة تعسة ولكنها متقدمة،

ومضت في الطريق مع تاديشينا. ووفقاً للتعليمات التي تلقاها، تبعهما، وجلس معها في ركن من أركان المطعم شبه المهجور.

بدا أن ساتوكو وتاديشينا قد ضاقت إحداهما ذرعاً بالأخرى. ولاحظ أن زينة ساتوكو ليست في تمام كمالها كالمعتاد، وأدرك أنها تستخدمها لتجعل نفسها تبدو في حالة صحية طيبة، مهما كلفها ذلك. وفضلاً عن ذلك، فقد بدا صوتها مكتئباً وفقد شعرها بريقه. ساوره شعور بأنه يتطلع الى لوحة بدیعة راحت ألوانها التي كانت متألقة ذات يوم تذوي على نحو فظيع أمام ناظره. كان ما أمضى عشرة أيام ضارِعاً لكي يراه في غمار عذاب التوقع والانتظار قد تعرض لتغير مراوغ.

- أيمكننا الالتقاء الليلة؟

قالها كيواكي في صبر نافذ، ولكن حتى وهو يطرح هذا السؤال كان يحس بأن الرد سيكون سلباً.

- لا تكن على مثل هذا القدر من الافتقار للمنطق!

- ولماذا أبدو مفتقراً للمنطق؟

حملت كلماته قدراً كافياً من العدوانية، لكن فؤاده كان خاوياً. كان رأسها منكساً، وامتلاأت عيناها الآن بالدموع. التقطت تاديشينا التي خشيت أن يلاحظ الرواد الآخرون الأمر منديلاً أبيض وهزت كتف ساتوكو. بدت حركتها تلك لكيواكي فظة فحرق فيها غاضباً.

دمدمت، وقد حفلت كلماتها بالافتقار الى التهذيب والانضباط:

- لماذا تحرق فيّ على هذا النحو؟ ألا تدرك أيها السيد الشاب أنني حملت نفسي فوق الطاقة من أجلك ومن أجل الأنسة ساتوكو؟ والأمر لا يقتصر عليك وحدك، أيها السيد الشاب، وإنما كذلك الأنسة ساتوكو، إنك لا

تفهمين بدورك ما تحملته . خير للكحول من أمشالي أن يكونوا قد رحلوا بالفعل عن هذه الأرض .

كان نادل شاب قد وضع أمامهم ، على المنضدة ، ثلاثة أطباق من حساء الفاصوليا الأحمر ، لكن أحداً لم يمد لها يداً . وعلقت قطعة صغيرة من عجينة الفاصوليا الحار بحافة الغطاء الصغير ، المطلي باللك ، الخاص بأحدها كأنها قطعة جص من طينة بطيئة التصلب .

لم يكن الوقت المتاح لهم معاً طويلاً ، فافترقوا على وعد غامض باللقاء ، في غضون عشرة أيام .

في تلك الليلة انطلق عذابه الذهني متحرراً من كل عقاب . راح يتساءل عما إذا كانت ساتوكو ستوافق على لقائه ليلاً من جديد ، وأحس أن العالم كله يلفظه . لم يعد بوسعه الشك في حبه لها بعد أن ألقي به في غياهب اليأس .

عندما رأى دموعها اليوم ، أدرك أنها تنتمي إليه ، قلباً وقالباً ، ولكنه فهم في الوقت نفسه أن الوثام وحده لا يملك قوة حملها على أجنحته .

كان ما يعايشه الآن عاطفة أصيلة . وعندما قارنها بمشاعر الحب التي شغلت خياله يوماً ما علم أن عاطفته هذه شيء خشن وصارم ، عنيف وزهيب ، عاطفة هي أبعد ما تكون عن الحساسية والرفافة والتألق . لم تكن بالمادة التي تصاغ منها القصائد . وللمرة الأولى في حياته تقبل القبح الفظ باعتباره جانباً منه حقاً .

بعد ليلة قضاها مسهداً ، مضى في اليوم التالي الى المدرسة بوجه الشاحب المجهد . لاحظ هوندا ذلك في الحال ، وسأله عن جلية الأمر ، امتلأت عيناه بالدمع ، رداً على رقة القلب الخجول التي أبداها صديقه .

- هذا هو ما في الأمر : أحسب أن ساتوكو لن ترقد معي بعد الآن .

احمر وجه هوندا، من جراء انقباض من لا خبرة له بمثل هذه الأمور.

- ماذا تعني؟

- ذلك يرجع إلى أن حفل الخطبة حُدد له موعد في ديسمبر المقبل.

- وهكذا، فإنها تحس أن ليس بمقدورها بعد الآن . . . ؟

- هذا هو ما يبدو الأمر عليه تماماً.

لم يستطع هوندا التفكير في شيء يقوله ليعث العزاء في نفس صديقه؛ فقد كان هذا الموقف مما يقع خارج نطاق خبرته، وأحزنه اعتقاده أنه ليس لديه ما يطرحه ما عدا تعميته المألوفة. وحتى لو كان ما يقوله لا طائل وراءه فإنه يضع نفسه موضع صديقه ويدرس ما يراه من علة، ثم يطرح تحليلاً نفسياً.

- في تلك المرة، عندما كانت معك في كاماكورا، ألم تقل إن شعوراً

يساورك بأنك قد تسأماها ذات يوم؟

- لكن ذلك دام لحظة واحدة فحسب.

- ربما كانت تبعدك على هذا النحو لأنها تريدك أن تحبها بضاوة وعمق

أكبر.

غير أنه في هذه المرة أساء هوندا التقدير في محاولته استغلال توهجات خيلاء كيواكي كوسيلة لبعث العزاء في نفسه، فلم يعد يهتم أدنى اهتمام بجاذبيته، ولا حتى بحب ساتوكو له.

كان كل ما يعنيه هو متى وأين يمكنها أن يلتقيا، دونما شعور بالرهبة، وعلى هواهما كيفما يطيب لهما، وبغض النظر عن أي إنسان آخر. وساورته خشية من أن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا في مكان ما يتجاوز هذا العالم، وعندما يحل الهلاك بهذه الدنيا. ولم تكن القضية الجوهرية هي الشعور،

وإنما الظروف. وفي عينيه المرهقتين، الياستين، المحمرتين، امتدت رؤية للعالم وقد حلت به الفوضى من أجلهما.

- آه لو وقع زلزال هائل فحسب! لو أن الأمر كان كذلك لاستطعت، والأمر عينه إن نشبت حرب كبرى. لو أنها اندلعت، ماذا عساي لا أفعله عندئذ!... ولكن لا. إن ما أسعى إليه هو شيء يهز البلاد بأسرها وصولاً إلى قواعدها.

- ومن ذا الذي سيحدث وقائعك الكبرى هذه؟

قالها هوندا، متطلعاً إلى هذا الشاب الشديد الحساسية وقد ارتسم الإشفاق في عينيه. كان يعرف أن التهكم وقليلاً من السخرية هما أفضل سبيل لشد أزر صديقه. أضاف:

- لم لا تفكر في أن تجرب القيام بذلك بنفسك؟

لم يبذل كيواكي جهداً لإخفاء بؤسه، فالشاب الذي يستحوذ عليه العشق ليس لديه وقت لمثل هذه الأمور. ولكن التعبير الذي ارتسم على ملامحه كان يعكس ما يفوق هذا. أحس هوندا بافتتان تخالجه رجفة، عندما لمح لبرهة وجيزة تألقاً مدمراً، يلتصع في مقلتي كيواكي، وقد أجججه توبيخه الساخر له.

بدا الأمر كما لو أن زمرة من الذئاب انطلقت هادرة، عبر ظلام فناء مقدس، غير أن الغل لم يصل إلى حد التجسد، وإنما غاب حتى عن كيواكي نفسه؛ فقد ولد وهلك في عينيه - لكنهما للحظة تألقتا بصورة المدمر الوحشي.

مدمم كيواكي، كأنما يحدث نفسه:

- كيف لي أن أنطلق من أغلال، هل تنجز السلطة هذا؟ أو المال؟

ظن هوندا أنه أكثر من مشير للسخرية أن يتحدث نجل الأمير
ماتسوجاي على هذا النحو.

تساءل ببرود:

- طيب، فيما يتعلق بالسلطة ما هي نواياك؟

- سأقوم بكل ما في وسعي لأحرز شيئاً منها. ولكن مع ذلك فإن هذا
يستغرق وقتاً.

- لم تكن هناك قط أدنى فرصة لأن تجدي السلطة أو النقود نفعاً. إنك لم
تنس جليلة الأمر. أليس كذلك؟ منذ البداية ذاتها سحرتك الاستحالة -
شيء خارج مجال السلطة والمال. اجتذبتك على وجه الدقة لأن الأمر كله
كان مستحيلاً. أخطيء أنا؟ ولئن كان الأمر ممكناً الآن فهل تكون له قيمة
بالنسبة لك؟

- لكنه كان ممكناً ذات يوم.

- لقد رأيت وهم الامكانية. شاهدت قوس قزح. ما الذي تريده الآن
أيضاً؟

- ماذا أيضاً...؟

تلعثم كيواكي، وتجمدت كلماته. ووراء هذا التوقف امتد خواء عظيم،
هائل، ما من سبيل أمام هوندا لكي يسبر غوره، فأخذته الرعدة.

راح يحذث نفسه: هذه الكلمات التي تبادلناها، إنها تشبه كتلة من المباني
السكنية، تقبع متناثرة في موقع للإعمار في قلب الليل. ومع امتداد السماء
الرحبة المرقشة بالنجوم حولها وضغط صمتها الفظيع، ما الذي يمكنك أن
تتوقعه منها إلا أن تلتزم سكوتاً آخرس؟

كانا يتجاذبان أطراف الحديث في نهاية المرحلة الأولى من اليوم

الدراسي، وهما يسيران على امتداد الدرب المؤدي عبر الأجمة المحيطة ببحيرة تشياراي، ولما كانت المرحلة الثانية قد شارفت على البدء، فقد عادا الآن أدراجهما. كانت أشياء عديدة قد ارتمت على الطريق تحت الأقدام وهو يمتد عبر الغابات الخريفية. أكوام متشابكة من أوراق الأشجار البنية المخضلة، وقد بدا هيكلها بارزاً، جوزات بلوط، حبات كستناء خضراء، أعقاب سجاجير تمزقت أوراقها وتحللت. ثم في وسط هذا كله، لمح هوندا شيئاً جعله يتوقف ويحدق في الأرض. كان هذا الشيء كتلة مبيضة مجمدة من الفراء، الذي حال لونه. وفي الوقت الذي تعرف هذه الكتلة باعتبارها جثة خلد صغير نافق، كان كيواكي قد توقف بدوره، وأقمى ليفحصها، في صمت، وهي مرتمية تحت أشعة الشمس، المتسربة من بين الأغصان، فوق الرؤوس. ارتعى الخلد النافق على ظهره، وكان البياض الذي لفت نظر هوندا هو فراء بطنه، أما باقي جسمه فكان أسود قטיפياً أملس. كان الطين قد تخلل الخطوط الخاصة بمخالبه الصغيرة البيضاء المتداخلة، ليقف برهاناً على الحفر الدائب. وفيما هو مرتمٍ على ظهره، كان بوسعهما رؤية فمه المدبب كأنه قمة، كشفت فتحة فمه الناجمة عن موته عن الداخل الرقيق الأحمر لخطمه وراء قاطعيه الدقيقين.

فكر الشابان، في اللحظة عينها، في الكلب الأسود، الذي تدلت جثته من حافة الشلال، في ضيعة ماتسوجاي، الى أن أرسلت في طريقها في جنازة غير متوقعة الجلال.

التقط كيواكي الخلد الصغير من ذيله المجرد تقريباً، من الشعر، ووضعه برفق في راحته. كان قد ذوى بالفعل للغاية، ومن ثم لم يكن فيه ما يشير التقزز. غير أن ما أثار الانزعاج هو أن هذا المخلوق الصغير التعس قد حكم عليه بأن يكدح في عماء ودونما هدف. كانت العناية والدقة اللتان شكلت بهما مخالفة شيئاً رهيباً.

التقط كيواكي الخلد من ذيله مجدداً، فيما هو ينهض واقفاً. كان الدرب
عند هذا الموضع يدنو من البحيرة، فالتفت على نحو عرضي وألقى
بالمخلوق في الماء.

- لم فعلت ذلك؟

سأله هوندا ملحفاً، وقد تجهم محياه، حيال عدم اكتراث صديقه،
وسمح له هذا السلوك الخشن، الذي يعد سلوكاً غمطياً من جانب طالب
بأن يدرك، في لحظة، مدى عمق حزن صديقه وشعوره بالوحدة.

انقضى أسبوع، ثم يوم ثامن، ولكن ما من خبر من تاديشينا. وبعد عشرة أيام، اتصل كيواكي بصاحب النزل، في رويونجي، فقبل له إن تاديشينا مريضة، فيما يبدو، ومعتكفة في فراشها. وانصرم المزيد من الأيام، ثم حينما قال له صاحب النزل إنها لا تزال مريضة، ثارت شكوكه.

حلَّ به قنوط وحشي، فمضى الى أزابو وحيداً، ذات ليلة، ومضى يذرع الطرقات دونما هدف، حول دار أياكورا. وعندما مر تحت ضوء المصابيح الغازية في توريزاكا، مدَّ يديه، فبوغت بمدى شحوب ظاهريهما؛ ذلك أنه تذكر أنه سمع بأن المرضى الذين يدنون من حتفهم يتطلعون الى ظاهري أيديهم على الدوام.

كانت بوابة دار أياكورا الأمامية محكمة الاغلاق. ولم يكن الضوء الخافت فوقها كافياً حتى لقراءة حروف لافتة الاسم التي طمسها الطقس والتي أطلت من رحاب الظلام. لقد كانت هذه الدار على الدوام سيئة الاضاءة، وكان يعلم أن ما من سبيل لرؤية ضوء يلتمع في غرفة ساتوكو من الشارع.

تطلع الى النوافذ، التي تعلوها الأعمدة المتقاطعة، في المقرين الخاويين، على جانبي البوابة، وتذكر كيف كان يتسلل مع ساتوكو الى هناك، في طفولتهما، فتخيفهما الكآبة ورائحة التراب، في الغرف الخاوية. وإذا يساورهما، في الداخل، الحنين الى ضياء الشمس المنهل، في الخارج، كانا يندفعان الى النوافذ، ويمسكان بالأعمدة المتقاطعة، التي يكسوها التراب.

كانت طبقة التراب ذاتها لا تزال هناك . وكانت أوراق الأشجار المحيطة بالدار المقابلة من النعومة والخضرة بحيث أن ذلك لا بد قد وقع في شهر مايو . ورغم تقارب ما بين أعمدة الشباك ، فإن ذلك لم يجلب الخضرة ، ربما لأن الوجهين الصغيرين المطينين عبرها كانا بالغني الصغر والضالة . وحينذاك كان بائع للشتلات يمر قريباً منهما ، فيتضاحك الاثنان ، ويقلدانه ، وهما يتصارعان ، آخذين بمد المقاطع ، على نحو هزلي : «نجمات الصباح ، الباذنجان!» .

لقد تعلم الكثير في هذه الدار . وبالنسبة له كانت هناك ارتباطات كثية تعلق مع رائحة الحبر المستخدم في الكتابة . وفي حقيقة الأمر ، فإن الكتابة كانت مرتبطة على تحول لا سبيل إلى فصم عراه مع الحساسية ، إلى حد أنها أصبحت جزءاً منها ، فكل الأشياء الجميلة التي أطلعها النبيل أياكورا عليها - التراتيل المنسوخة بالذهب على لفيفات أرجوانية ، حواجز تحمل تصميم زهرة الخريف ، الأثير في القصور الإمبراطورية في كيوتو - أصبح يدرك الآن أنها قد انبعثت منها أشعة رغبة حسية ، ولكن في دار أياكو تثقل رائحة الحبر والتراب على كل شيء . أما الآن ، ففي داخل هذه الأسوار التي تبقى بعيداً الليلة ، عادت تلك الحساسية وذلك التآلق المترع بالاغواء الى الحياة من جديد ، بعد انقضاء العديد من الأعوام ، ولم يكن هناك سبيل لوصوله اليها .

لمح ضوء خافت ، في الطابق الثاني للدار ، كان مرثياً على نحو جلي من الشارع . ربما آوى النبيل والنبيلة أياكورا الى فراشهما ، فقد كان النبيل يمضي الى فراشه مبكراً على الدوام . وربما كانت ساتوكو ترقد مسهدة ، ولكن نورها لا سبيل الى مشاهدته . سار على امتداد السور الى أن وصل الى البوابة الخلفية ، وهناك ، ودونما تفكير ، مدّ يده ليضغط على جرس الباب المصغر الذي نالت منه الشروخ ، لكنه سحب يده .

وإذ باغته شعور بالعار، حيال جنبه، انكفاً عائداً ومضى الى الدار.
انقضى المزيد من الأيام، فترة رهيبة من هدوء كالموات، أعقبها مرور
المزيد، كان يمضي الى المدرسة، ولكن كوسيلة لقضاء اليوم على نحو ما،
وعندما يعود الى الدار لا يأبه لدراساته.

كان كل ما حوله يذكره على نحو دائب بأن الكثيرين من طلاب صفه،
ومن بينهم هوندا، استغرقوا تماماً في الاستعدادات للتقدم لامتحان دخول
الجامعة، في الربيع المقبل. ولم يكن من المتعذر التعرف على سلوك الطلاب
الذين يعتزمون سلوك الطريق الأكثر يسراً والمتمثل في دخول الكليات التي
لا تقتضي متطلبات معينة للالتحاق بها، فقد كان هؤلاء الطلاب منصرفين
في حماس الى رياضاتهم الأثيرة. ولما لم يكن هناك ما يربطه بأي من
المعسكرين فقد تفاقم شعوره بالوحدة، وإذا ما حدثه أحد فإنه لا يجير رداً،
وهكذا بدا أصدقاؤه في التزام موقف بعيد عن الود منه.

ذات يوم، عندما عاد الى الدار من المدرسة، وجد الوكيل يامادا في
انتظاره بالدهليز.

بادره يامادا بقوله :

- عاد سمو الأمير الى الدار مبكراً اليوم، وأعرب عن رغبته في لعب
البليارد مع السيد الشاب، وهو في انتظاركم الآن في قاعة البليارد.

أحس كيواكي بدقات قلبه تتسارع، فيما هو يصغي الى هذا الاستدعاء،
غير المألوف بالمرة. حقاً إن الأمير كانت في بعض الأحيان تواتيه رغبة في أن
يشاركه كيواكي في لعبة بليارد، ولكن ذلك كان يقتصر عادة على فترة
الخمول، التي تعقب العشاء، عندما يكون الأمير تحت تأثير النبيذ، الذي
عكف عليه.

حدث كيواكي نفسه بأنه إذا كانت مثل هذه الحالة المزاجية قد سيطرت

علي أبيه، فلا بد أنه إما في حالة جيدة، على نحو استثنائي، أو سيئة، بصورة غير عادية، ما دام الوقت لم يتجاوز منتصف الأصيل بعد.

نادراً ما كان يلج قاعة البليارد نهراً. دفع الباب الثقيل، ففتحه، ودخل القاعة. كانت الشمس تتألق في الخارج منسلة من النوافذ الغربية، وقد شوّه الزجاج أشعتها قليلاً. عندما رأى كيف تأتلق عوارض البلوط على الحائط، في ضوء الشمس، ساوره شعور بأن تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها هذه القاعة.

كان الأمير، وقد أمسك بعصاه، ودنا بوجهه قريباً من سطح مائدة البليارد، في وضع التصويب على الكرة البيضاء، ذكرت أصابع يده اليسرى التي أمسكت بطرف عصاه كيواكي بجسر شدّ عليه وتر، في آلة الكوترو الموسيقية.

- أغلق الباب!

قالها الأمير لكيواكي، الذي توقف بالكاد داخل القاعة التي ظل بابها موارباً، وهو لا يزال يرتدي زيه المدرسي. علقت بملامح وجه أبيه انعكاسات من السطح الأخضر لمائدة البليارد، القريب من الوجه، بحيث وجد كيواكي أن من العسير الحكم على التعبير الذي ارتسم على محياه.

- إقرأ هذه! إنها رسالة وداعية من ناديشينا.

قالها الأمير، وقد انتصب واقفاً، أخيراً، مستخدماً طرف عصاه للإشارة إلى مظروف، وضع على مائدة صغيرة، إلى جوار النافذة.

تساءل كيواكي، مستشعراً رجفة تعم يده، فيما هو يلتقط المظروف:

- أو قد ماتت؟

- كلا، لم تمت، إنها تسترد عافيتها. لم تمت - الأمر الذي يجعل المسألة بأسرها أشد بشاعة.

فما كان الأمير يدلي برده، بدا أنه يبذل جهده لمنع نفسه من السير الى حيث يقف ولده .

تردد كيواكي .

- هلم ، اقراه !

للمرة الأولى تردد صوت الأمير حاداً ، قاطعاً .

فضّ كيواكي الورقة المستطيلة ، التي سطرت فيها تاديشينا ما أريد له أن يكون خطاباً وداعياً ، وشرع في القراءة ، وهو لا يزال واقفاً أمام النافذة :

عندما يحين الأوان لتجشّم سموكم عناء شمول هذه الرسالة بكميم اهتمامكم ، فإنني أتوسل إليكم أن تنظروا الى تاديشينا ، التي سطرته ، باعتبارها مخلوقاً رحل بالفعل عن هذا العالم . ولكن قبل أن أقطع الخيط الواهي الذي يربط هذه المخلوقة التعسة بالدنيا - وهو الجزء العادل على ما أعترف نادمة بأنه أعمالى البشعة ، الخاطئة ، أكتب لكم هذه الرسالة في تعجل يشوبه القلق ؛ من أجل أن أعترف بخطيائي ، وكذلك لأقدم ضراعتي ، في لحظة الاحتضار لسموكم .

حقيقة الأمر هي أنه غدا جلياً في الآونة الأخيرة ، بسبب إهمال تاديشينا لواجباتها التي أنيطت بها ، أن الأنسة ساتوكو حامل . ولما كان الفزع قد ألم بي حينما عامت بذلك ، فقد عكفت على إقناعها بأنه لا بد من القيام في الحال بشيء ، فيما يتعلق بحالتها ، ولكن كلماتي ذهبت سدى ، رغم تكرار محاولاتي . وإدراكاً مني لحقيقة أن الأمر سيغدو أشد حرجاً ، مع مرور الوقت ، مضيت الى النبيل أياكورا ، بمبادرة مني ، وأبلغته بكل شيء بالتفصيل ، ولكن سيدي لم يجر إلا القول : « ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟ » . ولم يكلف نفسه عناء إبداء أي مؤشر لاعتزامه القيام بعمل محدد . وفي نهاية المطاف ، وفي ضوء معرفتي الكاملة بأنه ستصعب معالجة هذا الأمر مع

إنقضاء كل شهر جديد، وأنه قد يصبح أمراً خطيراً من أمور الدولة، بدا واضحاً أن تاديشينا، التي كان عدم ولائها مصدر كل هذا الازعاج، ليس أمامها الآن من سبيل، إلا أن تضحي بنفسها، وأن تلقى بنفسها ضارعة، عند قدمي سموكم.

أخشى أن يغضب هذا سموكم، ولكن بما أن موضوع حمل الأنسة ساتوكو هذا قد يكون شيئاً يمكن وصفه بأنه «في إطار العائلة» فلإني أرجوكم، أناشدكم، سموكم أن تضعوه في إطار اهتمامكم وحكمتكم وحرصكم. أرجوكم أن تأخذكم الشفقة بامرأة عجوز، تمضي مسرعة نحو الموت، وأن تكلفوا أنفسكم عناء التدخل في وضع سيدتي هذا. ألتمس هذا منكم من قلب ظل القبر.

«مع عظيم الاجلال».

عندما فرغ كيواكي من قراءة الرسالة، قمع الاندفاع العجيز للارتياح المشوب بالجن، حيال عدم ذكر اسمه، في الرسالة، وعلّق الآمال على أن مظهره لن يوحي لأبيه بإنكار مجرد من الشرف. ورغم ذلك لاحظ أن شفتيه كانتا جافتين، وأن صدغيه ينبضان على نحو محموم.

تساءل الأمير:

- هل قرأتها؟ أطلعت الجزء الذي يقول إنها تطلب حكمتي وحصي؛ لأن هذا موضوع «في إطار العائلة»؟ مهما كانت صلتنا وثيقة بآل أياكورا، فإن المرء لا يصف شيئاً بيننا بأنه «في إطار العائلة». لكن تاديشينا جرئت على تسجيل هذا كتابة. إذا كان بمقدورك الدفاع عن نفسك، فامضِ قدماً وقم بذلك! قل أمام صورة جدك، ها هنا مباشرة! أما إذا تصادف أنني جانبت الصواب، فسوف أعتذر. إنّ لديّ كل أسباب الدنيا التي لا تدعوني إلى عدم القيام بمثل هذه التخمينات. ودون أي شك فهذا شيء كرهه جداً، تخمين مقيت.

لم يسبق قط للأمير ماتسوجاي اللعوب، القاتل بمذهب اللذة، أن أفلح في إثارة مثل هذا الشعور بالرهبة، في نفس كيواكي، كما أنه لم يبدأ قادراً على تملك ناصية هذه الكبرياء. وقف محاطاً من جانب بصورة أبيه، ومن الجانب الآخر بلوحة معركة تسوشيما، وراح بغضب قابل للتهيج والاشتعال يلطم راحة إحدى يديه بعصا البليارد. كان نصف اللوحة الهائلة للمعركة المصورة بالألوان الزيتية، والتي تظهر طليعة الأسطول الياباني منتشرة أمام الروس، في بحر اليابان، تشغله أمواج المحيط المتلاطمة الهائلة الامتداد، ذات اللون الأخضر القاتم. وقد اعتاد كيواكي رؤيتها في الليل فحسب، وحال ضوء المصباح الشحيح دون تقديره للتفاصيل الدقيقة للأمواج، التي تداخلت ليلاً، متحولة الى كيان متداخل في الظلال غير المنتظمة التي تكسو الجوار. أما الآن، في النهار، فقد رأى كيف أن لون الأمواج الأزرق القاتم يعلو في المقدمة بقوة شديدة العنفوان، بينما في البعيد يتسلل لون أخضر فاتح، لينير الماء القاتم، وهنا وهناك اعتلت قامات من الزبد الأبيض كاهل الأمواج، ثم انتشر الماء المندفِع وراء القطع البحرية، التي تقوم بالمناورة بعدم انتظام لين على سطح هذا البحر الشمالي الغائر بتأثير رهيب. وتم تصوير خط الأسطول الياباني الرئيسي، المتجه بعيداً، في رحاب البحر، على نحو أفقي، على قياس اللوحة، وتموجات دخانها تنداح يمينا، في مواجهة سماء احتوت زرقتها المتجمدة لمسة من اللون الأخضر الشاحب، على نحو ما يليق بمايو في الشمال.

وبالمقابل، اكتست لوحة جد كيواكي في زيه الرسمي بدفء إنساني، على الرغم من جهامته البادية. وحتى الآن لم يبد أنه يقرع كيواكي، وإنما بالأحرى يعاتبه وينصحه بكبرياء وحب. أحس أن بمقدوره الاعتراف بأي شيء على وجه الإطلاق للوحة جده تلك. هنا، أمام جده، الوجه بجفنيه الثقيلين، والوجنتان بما فيهما من ثآليل، الشفة السفلى الغليظة - ساوره

شعور متسام بأن افتقاره للحسم تتم معالجته، وإن كان ذلك على نحو مؤقت فحسب.

قال، ناطقاً بكلماته، حتى دون أن ينكس عينيه:

- ليس أمامي ما أقوله. الأمر كما تحسب، فالجنين طفلي.

رغم وقفة الأمير المهذبة، كانت حالته النفسية الفعلية، حينها ألقى نفسه واقعاً في مثل هذا الموقف، حالة قوامها الحيرة الياثسة. فمعالجة مثل هذه الأمور لم تكن قط نقطة القوة فيه. هكذا، وعلى الرغم من أن المشهد بدا الآن معداً للمضي قدماً بتوبيخ صاعق من جانبه، إلا أنه شرع يدمدم محدثاً نفسه.

دمدم قائلاً:

- لم تكف مرة واحدة تاديشينا. وإنما تعين أن تحمل لي سرّاً صغيراً ثانياً. لا بأس بالنسبة للمرة الأولى - لا شيء إلا فتى شقي بالدار. أما هذه المرة فالأمر لا يتعلق بأقل من ابن أمير. ومع ذلك، فلإنها حتى لم تستطع إحراز نجاح في الانتحار. يا للكلبة العجوز المخاتلة!

كان الأمير قد راوغ على الدوام مشكلات الحياة الأكثر تعقيداً، بانفجار في الضحك، نابع من القلب، أما الآن فقد ظهرت هذه المشكلة، فلم تثر إلا الحنق الشديد. حار في أمره، فلم يدر ما عساه يصنع. كان هذا الرجل اللحيم، المحمر الوجه، يختلف عن أبيه على نحو مذهل، من حيث أنه كان عبثياً بما فيه الكفاية لدفعه إلى محاولة عدم الظهور بمظهر الخشونة والافتقار إلى المشاعر أمام الآخرين، بمن فيهم ولده. هكذا كان حريصاً على الحيلولة دون ظهور سورة غضبه بحسبانها سخطاً عتيق الطراز، ولكن حيرته اللاحقة جعلته يشعر بأن قوة التجرد من المنطق التي تدعمه يجف نبعها.

وفي الوقت نفسه، كانت في الغضب مميزة، هي عجزه عن التفكير في الأمر.

منحه تردد أبيه، الوجيز، الشجاعة. وشأن ماء صاف ينبع من قلب صخرة، تدفقت الكلمات من فم هذا الشاب باعتبارها أكثر الكلمات التي قدر له أن ينطقها عفوية وطبيعية:

- أياً ما كان الأمر، فإن ساتوكو لي.

- أقول لك؟ قل ذلك ثانية! هل لك في هذا؟ أقلت إنها لك؟

قالها الأمير ملحاً، وقد أسعده أن يرى ابنه يعفيه من مهمة تفجير غضبه. أما الآن وقد استقر فؤاده في سلام، فقد غدا بمقدوره إطلاق العنان، في عياء، لغضبه. أضاف:

- كيف تجرؤ على الحديث هكذا الآن! حينما غدا من المحتمل لأول مرة أن تخطب للأمير توين، ألم أحاول التأكد من أنك لا اعتراض لك على ذلك؟ ألم أقل لك: في هذه المرحلة يمكن العودة بالأمور الى حيث كانت، إذا كانت لمشاعرك صلة بالأمر على الإطلاق، قل لي؟

حاول الأمير أن يراوح بين السخرية والمصالحة، ولكنه في غمار تميزه غضباً أفسد هذه المحاولة. تحرك على امتداد حافة مائدة البليارد. فدنا للغاية من كيواكي، بحيث استطاع الأمير رؤية يده، وهي ترتجف حول العصا التي أطبقت عليها. وللمرة الأولى، أحس بلمسة خوف.

- وماذا قلت عند ذاك؟ هه؟ ماذا قلت؟ - لا علاقة لي بالأمر، على الإطلاق - هكذا أجبتني. تلك بالتأكيد كانت كلمة رجل. أليس كذلك؟ ولكني أتساءل: أنت رجل؟ لقد ندمت على تربيتك بهذا الشكل الناعم اليسير، لكني لم أدرك قط أنك ستصبح على هذه الشاكلة. تحل لنفسك امرأة مخطوبة لأمير من العائلة الامبراطورية، بعد أن صدق الامبراطور نفسه

على الزواج! وتمضي الى حد أنها تحمل منك! تلتطخ شرف عائلتك! تلقي بالوحد على وجه أبيك! أيمكن أن يكون هناك خروج على واجبات البنوة وشق لعصا الطاعة أسوأ من ذلك؟ لو أن ذلك وقع في الأيام الخوالي لاضطرت، بحسباني أبائك، الى بقر بطني والانتحار إعلاناً بتبوتي لدى الإمبراطور. لقد تصرفت مثل بهيمة، أتيت شيئاً منكراً. أسمعني؟ ما الذي لديك لتقوله في معرض الدفاع عن نفسك يا كيواكي؟ ألا ترد علي؟ أتواصل تحديك لي؟ أتواصله؟

في اللحظة التي أدرك فيها كيواكي الاندفاع اللاهث في كلمات أبيه، تنحى جانباً ليتجنب عصا البليارد، التي هوت عليه، لكنه رغم ذلك تلقى ضربة حادة على ظهره. أتبعها أبوه في الحال بأخرى، شلت ذراعه التي حاول أن يحمي بها ظهره. وفيما هو يسعى مضطرباً للوصول الى ملاذه الوحيد، أي باب المكتبة، هوت ضربة ثالثة، قصد بها أن تنال من رأسه، فأخطأت هدفها، وأصابت مستعرضة أرنبة أنفه. في هذا الموضع ارتطم كيواكي بمقعد كان يعترض طريقه، وهوى الى الأرض، متشبهاً بذراع المقعد، فيما هو يسعى للتخفيف من حدة سقوطه. وعندما بدأ الدم يشخب من أنفه، أقلق أبوه عن مواصلة الضرب بعصاه.

لا بد أن كل ضربة قد انتزعت صرخة حادة من كيواكي، وانفتح الآن باب المكتبة لتطل جدته وأمه في الدهليز. وقفت الأميرة ترتجف الى جوار حمايتها، فيما تصلب زوجها، الذي كان لا يزال يمسك بعصاه، ويلهث بشدة.

سألت جدته:

.. ما هذا؟

لدى ذلك، بدا أن الأمير قد لاحظ وجود أمه، للمرة الأولى، على

الرغم من أن التعبير المرتسم على ملامحه قد كشف عن أنه يجرد من المتعذر عليه أن يصدق أنها تقف في الدهليز بالفعل . وكان أكثر عجزاً عن تخمين كيفية وصولها الى هناك : أنه ربما حين أدركت زوجته مسار الأحداث، مضت لإحضارها . لم يكن وضع أمه لقدمها خارج الدار، التي اعتكفت فيها، بالحدث الذي يقع كل يوم .

- جلب علينا كيواكي العار . ستفهمين جلية الأمر، إذا قرأت رسالة تاديشينا. الوداعية الموضوعة على المنضدة، هناك .

- هل انتحرت تاديشينا؟

- جاءت الرسالة بالبريد، ثم اتصلت هاتفياً بآل أياكورا للاستفسار . . .

- وماذا وجدت؟

قالتها أمه، وقد اقتعدت كرسيّاً، الى جوار المائدة الصغيرة، فيما راحت تنتزع ببطء من زناها الكيس المخملي الأسود، الذي يضم عويناتها، التي تضعها لتقوية بصرها المتخاذل، فتحت الكيس، الذي يشبه حافظة نقود، بعناية .

فيما وقفت الأميرة ترقب حماتها، أدركت فجأة السر في أن هذه الأخيرة لم تلق حتى مجرد نظرة على حفيدها . كان ذلك مؤشراً الى إصرارها على معالجة أمر الأمير بمفردها . وإذ أحست الأميرة بذلك، اندفعت في ارتياح الى جوار ولدها . كان قد أخرج بالفعل منديله، وأمسكه واضعاً إياه على أنفه الدامي، ولم يبد أن الجرح خطير .

كررت أم الأمير قولها، وهي تفض اللفيفة :

- وماذا وجدت؟

أحس ابنها بأن شيئاً في داخله يتقرّض متداعياً .

- اتصلت هاتفياً، واستفسرت عن تاديشينا. لقد أمسكوا بها في الوقت المناسب، وهي تتأهل للشفاء. وسألني النبيل متشككاً كيف اتفق أنني علمت بالأمر. فلم يكن يدري، فيما يبدو، بأمر رسالتها. لقد تناولت جرعة زائدة من أقراص منومة، وحذرت النبيل مؤكدة أن عليه بمنع تسرب كلمة واحدة عن الأمر، الى خارج الدار. ولكن بما أن ابني هو المخطيء، إذا ما أخذنا بكل شيء في الاعتبار، فليس بمقدوري إلقاء كل اللوم على النبيل أياكورا. هكذا، أصبح الحوار بكامله أمراً لا طائل وراءه، فعلينا أن نلتقي لنحسم الأمر، فيما بيننا، هكذا قلت له، ولكن... على أية حال، هناك شيء واحد على الأقل واضح: ما لم أصل بنفسني الى قرار، فلن يتم إنجاز شيء.

- أصبت، أصبت تماماً.

قالتها السيدة العجوز، بذهن شارد، فيما هي تمر ببصرها عبر السطور.
من الغريب حقاً أن قوتها الريفية البسيطة - الجبين الثقيل المتألق بالصحة، الخطوط القوية الصريحة للوحة، البشرة التي لا تزال ضاربة الى الحمرة، من جراء الشمس اللاهبة لجبل خلا، الشعر المرفوع المصبوغ بلون أسود بسيط لامع - سيماها تناسقت تمام التناسق مع المشهد الفيكتوري العام الذي يسود قاعة البليارد.

- طيب، لا يبدو أن اسم كيواكي مذكور في أي موضع. أليس كذلك؟
- رجاء، ذلك الجزء الذي يتحدث عن «في إطار العائلة». إن نظرة واحدة ينبغي أن تكون كافية لإبلاغك بأنها غمزة مقصودة. ولكن بغض النظر عن أي شيء آخر، فقد سمعت بالأمر من بين شفتيه، واعترف بأن الجنتين طفله. وتعبير آخر، فأنت في الطريق الى أن تصبحي جدة كبرى، يا أماء، ولوليد سفاح كذلك.

- ربما كان كيواكي يحمي أحداً، واعترافه زائف.

- لسوف تقولين أي شيء على الإطلاق يا أماء. أليس كذلك؟ أرجو أن تمضي قدماً، وتسألني كيواكي بنفسك!

أخيراً، التفتت الى كيواكي، وحادثته بحب، كأنما هو طفل لم يتجاوز الخامسة أو السادسة من عمره.

- أصغ يا كيوكي! انظر الى مباشرة. انظر الى عيني جدتك مباشرة وأجب على سؤالي، وعندئذ لن يكون بمقدورك التفوه بأكاذيب مختلفة. الآن ما قاله أبوك هل هو صحيح؟

التفت إليها كيواكي، مسيطراً على الألم، الذي لا يزال يستشعره في ظهره، وممسكاً بمنديله، الذي لطحه الدم، فوق أنفه، الذي كان الدم لا يزال ينزف منه. وبالدُموع في عينيه، ولطح الدم التي تعلو أنفه، المتورم، بدا حدثاً على نحو مثير للثناء كأنه جرو سائب الأنف.

- صحيح.

قالها كيواكي مسرعاً بصوت حاد، ممسكاً في التو بمنديل جديد قدمته له أمه، ووضعته على أنفه.

عندئذ أَلَقَتْ جدته خطاباً، بدا أنه يردد أصداً وقع حوافر الجياد، وهي تنطلق حرة، خطاب مزق في بلاغة المجاملات التقليدية إرباً.

- إبداع جنين في رحم خطيبة أمير من العائلة الأمباطورية! الآن ها نحن بين يدي انجاز. كم من الفتية ذوي الابتسامات المتكلفة يستطيع القيام بأي شيء من هذا القبيل؟ لا شك في الأمر - إن كيواكي هو الحفيد الحق الذي لإنحدر من صلب زوجي. لن تندم على ذلك حتى ولو أودعوك السجن عقاباً عليه. من المؤكد على الأقل أنهم لن يعدموك.

ستكون هذه الزيارة طبيعية تماماً. وكانت رئيسة الدير مولعة بها، منذ كانت صبية صغيرة. وهكذا، فإنها ستذهب الى أوساكا لتحظى برعاية دكتور موري لها، ثم تخلد الى الراحة يوماً أو يومين. ثم تمضي الى نارا. سيكون هذا خير سبيل. وأحسب أن أمها ينبغي أن تذهب معها. . .

قالت العجوز، متجهمة:

- ليست أمها فحسب، فلن يكفي هذا؛ إذ لا يمكن توقع أن تضع النبيلة أياكورا مصالحنا نصب عينها. ينبغي على أحد من هنا أن يمضي بصحبتهم، ويرعى الفتاة قبل وبعد علاج دكتور موري لها. وينبغي أن يكون هذا الشخص امرأة. وهكذا. . .

فكرت في الأمر قليلاً، ثم التفتت الى أم كيواكي، وقالت:

- تسوجيكو، امضي معها!

- طيب.

- ويتعين أن تفتحي عينيك، طوال الوقت. لست مضطرة الى الذهاب الى نارا معها. ولكن ما إن تري الأمر الجوهري قد تم، فعليك بالعودة الى طوكيو، بأسرع ما يمكنك، لاطلاعنا على تفاصيل الأمر كله.

- مفهوم.

قال الأمير:

- أمي محقة. قومي بأداء ما قالته! سأحدث النبيل أياكورا في الأمر، وسنقرر اليوم الذي تغادر فيه طوكيو، سيتعين القيام بكل شيء بحيث لا يصل أحد الى أدنى لمحة مما يجري.

ساور كيواكي شعور بأنه أصبح جزءاً من خلفية الأحداث، وأن حياته ووجهه لساتوكو يجري التعامل معها كأمر انتهى بالفعل. وأمام عينيه بدا

أبوه وأمه وجدته وكأنهم يعدون في عناية للجنازة، دون أن يعينهم في شيء أن بمقدور الجثة سماع كل كلمة تقال. وحتى قبل جنازته بدا أن شيئاً ما قد دفن. وهكذا كان من ناحية جثة يجري الاعتناء بأمرها ومن ناحية أخرى طفلاً ليس له من يلوذ به يجري تعنيفه بقسوة.

هكذا، كان كل شيء يمضي قدماً في يسر نحو نهاية مرضية تماماً، على الرغم من أن الشخص الذي يمسه الأمر بأعظم قدر من الحميمية لم يكن له دور فيه، كما جرى تجاهل رغبات آل أياكورا أنفسهم. وحتى جدته، التي كانت منذ لحظة واحدة فحسب تتحدث بجرأة بالغة، بدا الآن أنها مستغرقة في مباحث معالجة أزمة عائلية. كانت شخصيتها مختلفة على نحو جوهري عن شخصيته بما في هذه الأخيرة من هشاشة، وبينما أوتيت من الذكاء ما أدركت معه النبل الضاري القابع في قرار سلوكه غير المشرف، إلا أنه ما إن يتعرض شرف العائلة للخطر، حتى يمكنها هذا الذكاء عينه من أن تنحى إعجابها جانباً، وأن تخفي على نحو يناسب مقتضى الحال أيًا من مثل هذه التخييلات. وبمقدور المرء أن يفترض دون أن يجانبه الصواب أن هذه السمة تعود لديها لا إلى شمس الصيف التي ألهبت خليج كاجوشيما، وإنما إلى ما تعلمته من زوجها، جد كيواكي.

نظر الأمير إلى كيواكي مباشرة، للمرة الأولى، منذ أن وجه عصا البليارد إليه.

- من الآن فصاعداً، ستعتكف في هذه الدار، وستضطلع بواجباتك باعتبارك طالباً، وستنفق طاقتك بأسرها في الدراسة، تأهباً للامتحانات. أتدرك هذا حق الإدراك؟ لن أتحدث عن هذا الأمر أكثر من ذلك. هذا هو مفترق الطرق، فإذا أن تصبح رجلاً أولاً تصبح. أما فيما يتعلق بساتوكو فلست بحاجة إلى القول بأنك لن تراها، بعد الآن، مرة أخرى.

قالت جدته:

قالت لها الجدة، وقد بدا واضحاً أنها تستمتع بالموقف، الآن تلاشت الخطوط الصارمة حول فمها، وبدا أنها تتوهج باغتياب مترع بالحياة، كأنما تحت عفها نحتت عنها عشرات السنوات من الكآبة الخائفة، نافضة بضربة واحدة الحجاب المطبق على الأعصاب الذي كسا الدار منذ أصبح الأمير الحالي سيداً لها. كما أنها لم تكن تلقي اللوم على ولدها وحده، وإنما كانت تتحدث الآن انتقاماً أيضاً من كل أولئك الآخرين، الذين أحاطوا بها في شيخوختها والذين كانت تحس بقوتهم الخؤون تطبق عليها لتسحقها. تردد صوتها مرح الأصداء، مقبلاً من عصر آخر، عصر حافل بضروب الجيشان، عصر عنيف نسيه هذا الجيل، لم يكن السجن ولا الموت يقمعان أحداً فيه، عهد كان التهديد فيه بالأمرين كليهما جزءاً من نسيج الحياة اليومية. كانت تنتمي الى جيل من النساء لا يكثرث بغسل أطباق طعام العشاء في نهر تطفو فيه الجثث، منداحة الى البعيد. تلك كانت الحياة! أما الآن فكم هو أمر جدير بالاهتمام أن هذا الحفيد، الذي يبدو للوهلة الأولى عاجزاً للغاية، قد أحيا أمام ناظريها روح ذلك العهد.

راحت السيدة العجوز تحديق في الفراغ، وفي عينيها نظرة مخمور، على وجه التقريب. موج الأمير والأميرة وجهها في صمت مترع بالصدمة - وجه عجوز بالغ الجهامة، حافل بالحسن الرفي الخشن، بحيث لا يعمل تقديمها للكافة بحسبانها سيدة دار الأمير.

قال الأمير بصوت واهن، وقد نفّض عن نفسه هذه الغيوبة، أخيراً:

- أمه، ماذا تقولين. إن هذا يمكن أن يعني هلاك آل ماتسوجاي، كما أنه أيضاً إهانة بالغة لأبي.

ردت في الحال:

- ذلك صحيح تماماً، وهكذا فإن ما ينبغي عليك التفكير فيه ليس إنزال

العقاب بكيواكي وإنما ما هو خير سبيل لحماية آل ماتسوجاي. الأمة مهمة، بالطبع، ولكن علينا أن نفكر في أمر العائلة كذلك. فنحن، في نهاية المطاف، لسنا مثل آل أياكورا، الذين تمتعوا بالعطف الإمبراطوري لما يزيد على سبعة وعشرين جيلاً. أنشبههم الآن؟ هكذا فلا بد من القيام بما تفكر فيه.

- طيب، ليس أمامنا خيار إلا أن نغضي في الأمر، كأنما لم يحدث شيء، وصولاً إلى الخطبة فالزفاف.

- هذا واضح وجميل، لكنه لا بد من القيام بشيء، فيما يتعلق بجنين ساتوكو، بأسرع ما يمكن. ولو تم ذلك في أي مكان قرب طوكيو، واكتشفته الصحف، فسوف تجد نفسك في ورطة بديعة. أليس لديك شيء عملي تقترحه؟

رد الأمير، بعد لحظة من التفكير:

- أوساكا هي المكان المناسب. وسيقوم دكتور موري بإجراء العملية، لأجل خاطرناء، في سرية تامة، وسأجزل له العطاء، بالمقابل. ولكن ساتوكو سيتعين أن يكون لديها سبب مقنع للذهاب إلى أوساكا.

- لال أياكورا العديد من الأقارب. وهكذا، ألن تكون فرصة سانحة أن نرسل ساتوكو لزيارتهم وإبلاغهم بنفسها بنبا خطبتها؟

- ولكن إذا تعين أن تزور عدداً من الأقارب، ولاحظوا حالتها... فإن ذلك لن يكون مجدياً على الإطلاق. ولكن مهلاً، فلديّ الفكرة! ماذا عن إرسالها إلى معبد جيشو، في نارا، للإعراب مرة أخيرة عن تقديرها لرئيسة الكاهنات قبل زواجها؟ ألن يكون ذلك خياراً أفضل؟ إنه معبد كان على الدوام وثيق الصلة بالعائلة الإمبراطورية، وهكذا سيكون من المناسب تشريف رئيسة الكاهنات على هذا النحو. وإذا أخذنا كل شيء في الاعتبار

- في الأيام الخوالي كانوا يدعون ذلك بتحديد الإقامة . إذا سئمت
دراستك مرة ، فتعال لزيارة جدتك !
وعندئذ ، وضح لكيواكي أنن أباه ليس بمقدوره الآن أن يتخلى عنه أبداً
- فقد كان أكثر خوفاً مما ستتقوله الدنيا .

كان النبيل أياكورا يستحيل الى مخلوق رعديد، لا أمل يرجى منه، إذا ما واجه أموراً من نوعية الإصابة بجرح أو مرض أو حالة وفاة. وقد ساد اضطراب تام في ذلك الصباح الذي لم تنهض فيه تاديشينا من مرقدها. جلبت الكلمة، التي تفيد بانتحارها، والتي تركت على وسادتها الى النبيلة أياكورا، في الحال، وعندما سلمتها بدورها الى زوجها، فتحها بأطراف أصابعه، كأنها مليئة بالجراثيم، وتبين أنها لا تعدو أن تكون رسالة وداعية تعتذر فيها عن ألوان القصور العديدة، التي شابت خدمتها للنبيل والنبيلة وساتوكو، وتعرب عن شكرها لهم لكرمهم السابق، أي تلك النوعية من الرسائل، التي يمكن أن تقع في أية يد، دون أن تثير التشكك.

بعث النبيل في استقدام الطبيب من فوره. ولم يمض بنفسه، بالطبع، لرؤية ما وقع، وإنما قنع بتلقي تقرير كامل من زوجته، في وقت لاحق.

- لقد إبتلعت مائة وعشرين قرصاً منوّمًا. لم تسترد وعيها بعد، لكن الطبيب حدثني بما أقدمت عليه. يا الهي! ترامى ذراعها وساقها، وتقلّص جسمها كأنه قوس - يا لها من فوضى! لم يدر أحد من أين لهذه العجوز بمثل هذه القوة. ولكننا جميعاً أمسكنا بها، وأعقب الحقن ذلك، ثم أفرغ الطبيب ما في معدتها - كان ذلك مشهداً مخيفاً، حاولت إبعاد ناظري عنه. وفي نهاية المطاف، أكّد لي الطبيب أنها ستحيا. ما أعجب أن يصادف المرء هذه التجربة! قبل أن يتلفظ بشيء، تشمم الطبيب نفسها، وقال: «آه، رائحة ثوم. لا بد أنها حبوب الكالموتين». عرف ذلك في التو.

- أقال كم يلزمها لكي تتعافى؟

- أجل، فقد تلطفت بإبلاغي بأنها ينبغي أن تلزم الراحة، لمدة عشرة أيام، على الأقل.

- تأكدي من أنه ما من شيء من هذا سيتسرب الى خارج الدار. سيتعين عليك تحذير النسوة بأن عليهن التزام الصمت، وسوف نتحدث مع الطبيب كذلك. ما تأثير هذا على ساتوكو؟

- لقد اعتكفت في غرفتها، ورفضت حتى مجرد رؤية تاديشينا. وفي حالتها الراهنة، أحسب أنه لن يكون مناسباً لها أن تزورها عاجلاً، ثم إنها لم تفه بحرف منذ طرحت تاديشينا علينا ذلك الموضوع، ولذا فربما لا تحس بالليل الى الاندفاع لرؤيتها. وأفضل ما يمكن القيام به هو أن ندعها وشأنها.

قبل خمسة أيام، وعندما حارت تاديشينا في أمرها، أنهت نبأ حمل ساتوكو الى النيبيل والنبيلة أياكورا، ولكن النيبيل بدلاً من أن يسيطر عليه غضب عارم، ويمطرها بالسيل العرم المتوقع من التوبيخ، استجاب للأمر بفتور همة بالغ، الى حد دفعها، في غمار يأسها، الى كتابة الرسالة للأمير ماتسوجاي، ثم الى تناول جرعة زائدة من الأقراص المنومة.

كانت ساتوكو قد أصرت على رفضها لنصيحة تاديشينا. وعلى الرغم من أن حدة الخطر كانت تتفاقم مع انقضاء كل يوم جديد، فلإنها لم تأمر تاديشينا بألا تفوه بكلمة لأحد عن الموضوع فحسب، وإنما لم تشر أدنى إشارة الى أنها ستوصل الى قرار في هذا الشأن بنفسها. وهكذا، وإذ عجزت تاديشينا عن تحمل وقر الأمر أكثر من هذا، خانت سيدها بإفشاء سرها الى أمها وأبيها. ولكن النيبيل والنبيلة - ربما لأن النبأ كان ضربة صاعقة - لم يظهرأ قلقاً يفوق ما يمكن أن يظهرأه في حالة ما إذا كان النبأ هو هرب قطة بإحدى الدجاجات في الفناء الخلفي.

تصادف، في اليوم الذي أبلغت فيه تاديشينا النبيل بالنبأ، وفي اليوم الذي تلاه كذلك، أنها قابلته، ولكنه لم يشر إلى اكترائه بالمشكلة. وفي حقيقة الأمر، فإن المشكلة هزته بعمق، ولكن بما أنها كانت أكثر تشعباً من أن يعالجها وحده، وأكثر إثارة للخرج من أن يناقشها مع الآخرين، فقد بذل قصارى جهده لإبعادها عن ذهنه.

اتفق مع زوجته على ألا يحدثا ساتوكو في الأمر، إلا بعد أن يتأهب لاتخاذ تحرك ما. غير أن ساتوكو، التي كانت الآن في أشد حالاتها لماحية، أخضعت تاديشينا لتحقيق صارم، وهكذا، اكتشفت ما وقع. ولدى توصلها الى هذا اعتكفت في غرفتها، ورفضت أن يكون لها بها أي اتصال، وساد الدار صمت رهيب. كفت تاديشينا عن تلقي أي اتصالات من خارج الدار، قائلة للخدم إنها مريضة.

تجنب النبيل تناول المشكلة حتى مع زوجته. كان يدرك تمام الإدراك الطبيعة المخيفة للظروف الراهنة، وضرورة اتخاذ تصرف فوري حيالها، ولكنه مع ذلك واصل التسويف في الأمر. غير أن ذلك لم يعن أيضاً أنه يؤمن بالمعجزات.

تميز شلل النبيل أياكورا بمصاحبه لنوع من التفكير الدقيق. فعلى الرغم من أنه لم يكن بمقدور المرء إنكار أن افتقاره الزمن للحسم تضمن نزعة معينة للتشكك، فيما يتعلق بقيمة أي قرار على الإطلاق، إلا أنه لم يكن متشككاً بالمعنى العادي للكلمة، وعلى الرغم من أنه غرق في التأمل من الصباح الى المساء، فقد كره أشد الكره أن يواجه احتياطاته الانفعالية الهائلة نحو استنتاج واحد. كان هناك الكثير من الروابط المشتركة بين التأمل وبين «الكيماري»، الرياضة التقليدية لآل أياكورا. فمهما علت الكرة عندما يضربها المرء، فمن الواضح أنها ستسقط الى الأرض ثانية. وحتى إذا كان بمقدور سلفه المجيد، نامبامونيتاتي، أن ينتزع صيحات الاعجاب لدى

التقاطه الكرة البيضاء المصنوعة من جلد الغزال من سيورها الجلدية الأرجوانية وقذفها الى ارتفاعات لا يمكن تصديقها حتى لتجاوز سقف القصر الإمبراطوري ذاته الذي يزيد ارتفاعه على تسعين قدماً، فلا بد لها حتماً من أن تسقط ثانية في الحديقة.

ولما كانت كل الحلول تترك شيئاً مرغوباً فيها يتعلق بالذوق الرفيع، فقد كان من الأفضل انتظار شخص آخر ليتخذ القرار الكريه، كان يتعين أن تمتد قدم شخص آخر لتعرض الكرة الساقطة. وحتى إذا سدّد المرء الكرة بنفسه، فمن المحتمل تماماً أن تمسك بها نزوة غير متوقعة، من تلقاء ذاتها، فيها هي تبلغ قمة قوسها، وتقبل مندفعة الى أسفل، في انحراف جديد، لا يمكن التنبؤ به.

لم يطرح احتمال الدمار قط أمام النبيل أياكورا. وإذا لم تكن أزمة خطيرة تحمل خطية أمير من العائلة الإمبراطورية، صدر تصديق من الإمبراطور نفسه على خطبتها، بجنين رجل آخر في رحمها، فإن الدنيا لن تعرف قط أزمة خطيرة. ومع ذلك فإن الكرة الهاوية لن تكون كرتة التي يتعين عليه تسديدها، ومن المؤكد أنه سيحل دور رجل آخر لمعالجة الموقف. ولم يكن النبيل بالرجل الذي تثير الهموم ضيقه طويلاً، وكنتيجة حتمية لذلك، فإن همومه انتهت بها المطاف، دائماً، إلى أن تثير ضيق آخرين.

ثم تصادف أنه في اليوم الذي أعقب ضجة محاولة تاديشينا الانتحار أن اتصل به الأمير ماتسوجاي هاتفياً.

كان أمراً يستعصي على التصديق، بالنسبة للنبيل أياكورا، أن يعرف الأمير ماتسوجاي بما وقع، على الرغم من كل الجهود التي بذلت لتكتمه. وما كان ليدهش لو علم بأن هناك مرشداً في داره. ولكن بما أن المشتبه الأول لديه، أي تاديشينا نفسها، كان في حالة غيبوبة طوال اليوم السابق، فإن أكثر تكهناته احتمالاً تركت بأسرها، وقد سحبت الأرض من تحتها.

بعد أن علم النبيل من زوجته بأن تاديشينا تتعافى بمعدل طيب، وأن بمقدورها الحديث، بل وقد استردت شهيتها، استجمع أطراف شجاعته وقرر زيارة غرفة المريضة بنفسه.

قال لزوجته :

- ما من حاجة تدعوك الى القدوم معي ، سامضي بنفسي لرؤيتها، ربما تكون المرأة أكثر ميلاً على ذلك النحو للإفشاء بالحقيقة .

- لكن الغرفة في حالة فظيعة ، وإذا ما زرتها دون سابق إنذار فإن ذلك سيكون مدعاة ضيق لها ، سامضي وأبلغها بالأمر أولاً ، وأساعدها على أن تعد نفسها للزيارة .

- كما تشائين

تعين على النبيل إحتمال ساعتين من الانتظار، فعندما سمعت المريضة النبأ من النبيلة شرعت على الفور في أخذ زينتها .

كانت قد منحت ميزة استثنائية بشغل غرفة في الدار الرئيسية، ولكن إتساعها لم يتجاوز عرض أربع حصر ونصف حصيرة، ولا تدخلها الشمس قط . وعندما رُتب فراشها شغل أرضية الغرفة بكاملها على وجه التقريب . ولم يسبق للنبيل أن ولجها من قبل .

أخيراً، أقبلت خادم لاصطحابه الى الغرفة . وضع مقعد له على الأرضية المكسوة بالحصير، نحت أغطية فراش تاديشينا . ارتدت رداء سابغاً ذا كمين طويلين، وأسندت مرفقيها الى كومة من الوسائد وضعت في حجرها، انحنى في توقير حينما دخل السيد الغرفة . وفيما هي تقوم بذلك، بدا أن جبينها يضغط على الوسائد الموضوعة أمامها، ولكنه لاحظ أنه رغم كمال انحنائها، فإنها تغلبت على ضعفها بقدر كان يتيح لها فرجة خفيفة بين جبينها والوسائد، فقد كانت تخشى من اضطراب زينتها، ذلك الامتداد

الناعم من البياض الغليظ المتجمّد، الذي يصل حتى خط شعرها المرفوع الى أعلى بمزيد من التدقيق.

استهل النبل الحديث، عقب الجلوس:

- طيب، مررت بمحنة حقاً، لكنك اجتزتها، وهذا هو الأمر المهم. ما كان يجب أن تثيري قلقنا على هذا النحو!

على الرغم من أنه وجد أن ليس هناك ما يثير الارتباك في النظر إليها من على، من مكانه في المقعد، فقد ساوره شعور بأنه لسبب ما لا يصل صوته ولا ما يقصده إليها.

- ما أقل جداتي بتلقي زيارة سعادتك! اني لفي قرار مكين من شعور بالخوف، وليس بمقدوري أن أعبر لكم على نحو مناسب عن الشعور بالعار الذي يستبد بي...

كان رأسها لا يزال منكساً، وبدا أنها تحفف عينيها بمنديل ورقي استلته من ردن ردائها، ولكنه أدرك أنها في قيامها بذلك كانت تحرص مجدداً على الحفاظ على زينتها.

- يقول الطبيب إن عشرة أيام من الراحة ستكون كافية للعودة الى ما كنت عليه من قبل ثانية، فما عليك إلا الاسترخاء ونيل نصيب طيب من الراحة الممتدة.

- رآه، شكرآ لك يا مولاي، لقد جللني العار، بعد أن أخفقت على نحو بائس في محاولة الانتحار.

فيما النبل يطل من علٍ على العجوز الملتفة بسترّة منامة خرية اللون مزينة بزهور الاقحوان، ويحسّ بالرائحة الطاغية التي تحيط بمن مضى في طريق الموت، لا شيء إلا ليعود من رحابه، اشم الرائحة الكريهة، التي علقت بكل شيء، في الغرفة الصغيرة، وحتى بالخزانة والأدراج، فتفاقم شعوره

بعدم الارتياح . لم تؤد العناية والمهارة التي تجلت في وضع الزينة البيضاء السائلة على مؤخر العنق، الذي كان لا يزال مرئياً، فيما هي تحني رأسها، والتي ربت تسريحة شعرها بحيث أنه ما من شعرة واحدة نفرت من موضعها، إلا الى مفارقة شعوره، الذي يستعصى مصدره على التحديد، بالخوف.

قال، طارحاً السؤال على نحو عرضي، بقدر ما يستطيع :

- أدهشني أن ألتقى بالفعل مكالمة هاتفية من الأمير ماتسوجاي اليوم . إنه يعرف بالفعل ما وقع، وهكذا فكرت في سؤالك عما إذا لم يكن لديك تفسير لهذا الأمر.

ولكن هناك أسئلة ترد على نفسها بمجرد صياغتها، فلم تكد الكلمات تند عن شفثيه، حتى عنت له الاجابة باندفاع مفاجئة مروعة، في اللحظة ذاتها التي رفعت فيها رأسها.

كانت الزينة العتيقة، ذات الطراز البلاطي، التي تكسو وجهها، أكثر غلظاً من ذي قبل، وقد طلت شفثيها بلون أحمر فاتح غطى أحدهما الخارجي، ولما لم تكن قد اكتفت بحجب التجاعيد بالزينة، فقد وضعت طبقة فوق أخرى من البياض للتوصل الى سطح ناعم لم يتماسك، رغم ذلك، مع بشرتها، التي أخشوشنت من جراء المحنة الأخيرة، التي تعرضت لها. وبدا التأثير النهائي كما لو أن طبقة الزينة، إذ تثبتت بجلدتها، تحاكي خطراً أبيض أفرزته المسام. أشاح النبيل بناظره، على نحو ماكر، قبل أن يشرع في الحديث ثانية.

- لقد كتبت للأمير مسبقاً. أليس كذلك؟

- بلى، يا مولاي!

ردت بها تاديشينا، ولا يزال رأسها مرفوعاً، فيما صوتها ثابت تماماً، وأضاف:

- لقد قصدت الانتحار حقاً؛ ولذا كتبت إليه متوسلة ليقوم بما هو ضروري بعد رحيلي.

- أصدّه بكل شيء في تلك الرسالة؟

- كلا، يا مولاي!

- أهنك أمور أغفلتها؟

- أجل، يا مولاي، هناك أمور عديدة أغفلتها.

قالتها، وقد بدا عليها المرح الآن.

على الرغم من أن النبيل أياكورا لم تكن لديه فكرة واضحة تمام الوضوح عن أي شيء قد يرغب في حجبته عن الأمير ماتسوجاي، إلا أنه ما إن سمع تاديشينا تأتي على ذكر ما حذفته، حتى شعر فجأة بعدم الارتياح.

- والأمور التي أغفلتها - ما هي؟

- ما الذي يقصده مولاي؟ لقد رددت عليكم على نحو ما فعلت لأنه سرهم سؤالي عما إذا كنت قد حدثت الأمير بكل شيء في الرسالة. ولا بد أن هناك شيئاً في ذهن مولاي يدفعه الى طرح مثل هذا السؤال.

- ليس هذا بوقت الحديث في الأحاجي، لقد جئت هنا، وحيداً على هذا النحو لأنني حسبت أن بمقدورنا الحديث بحرية، ودونما اعتبار للآخرين. ولذا سيكون من المناسب أن تقولي بوضوح ما عنيته.

- هناك أمور كثيرة، كثيرة، لم أناقشها في تلك الرسالة. ومن بينها الموضوع الذي طاب لمولاي أن يسرّ به إليّ، قبل ثماني سنوات، في دار كيتازاكي. وقد تقصدت الانتحار حاملة ذلك السر في فؤادي.

- دار كيتازاكي؟

أخذت أياكورا رجفة، وهو يسمع ذلك الاسم، الذي تردد في مسامعه كأنه ضربات القدر. الآن فهم ما كانت تاديشينا تلمح إليه، وفيما اتضح له الأمر ازداد قلقه عمقاً. استشعر دافعاً يحذوه لاقْتلاع أي ذرة من الشك في الأمر.

- وماذا قلت في دار كيتازاكي؟

- كان ذلك في إحدى أمسيات موسم المطر. لا يمكن لمولاي أن يكون قد نسي. كانت الأنسة ساتوكو، رغم أنها لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها بعد، تكبر على مهل لتغدو سيدة شابة. وأقبل الأمير ماتسوجاي الى هنا في ذلك اليوم للقيام بإحدى زياراته النادرة. وعندما أوشك على مغادرة الدار، لم تكن حالة مولاي المزاجية على ما ينبغي أن تكون عليه؛ ولذا فقد مضى إلى كيتازاكي من أجل قليل من الترفيه، وفي تلك الليلة طاب له إبلاغي بشيء.

أدرك أياكورا تمام الادراك ما يرمي إليه حديث تاديشينا. فقد قصّدت صنع سلاح من كلماته في تلك الليلة، وجعل قصورها مسؤولية تلقى على كاهله كلية. وفجأة ساوره شك في أنها قصّدت الانتحار حقاً.

راحت عيناها ترمقانه، من محياها المكسو في ثقل بالذرور، من فوق كومة الوسائد، كأنها فتحتا رمي في أسوار قلعة بيضاء اللون. كان الظلام القابع وراء ذلك السور يعج بأشياء من رحاب الماضي، ومن قلبها يمكن أن يندفع سهم نحوه، فيما هو يقف معرضاً في الضوء البراق في الخارج.

- لماذا تطرحين ذلك الآن؟ لقد كان شيئاً قلته على سبيل المزاح.

- أكان كذلك حقاً؟

فجأة، بدت هاتان العينان، اللتان تشبهان فتحتي رمي، تضيقان على نحو أكبر. وساوره شعور بأن الظلمة نفسها، بكل كثافتها، كانت مصوبة نحوه، ثم استطردت، بصوت مثقل، قائلة:
- ولكن، مع ذلك... تلك الليلة في دار كيتازاكي...

كيتازاكي، كيتازاكي، راح ذلك الاسم الملفت بالذكريات، التي كان أياكورا يحاول نسيانها، يتواتر، مراراً وتكراراً، بين شفتي هذه العجوز

الخبيثة . وعلى الرغم من أن ثنائي سنوات قد انصرفت، منذ وطئت قدمه تلك الدار، فقد قفزت كل تفاصيلها الآن، مترعة بالحوية، في ذهنه من جديد. كان النزول ينتصب عند سفح منحدر، وعلى الرغم من أنه لم تكن له بوابة أو دهليز، يستحقان الذكر، فقد كانت تحيط به حديقة لها سور خشبي . حفلت القاعة الأمامية، الرطبة، الكثيبة، وهي بقعة يؤثرها الكسالى والمتبطلون، بأربعة أو خمسة أزواج من الأحذية العسكرية السوداء، وحتى بطاناتها الجلدية، الملطخة، ذات اللون البني المصفر، الملوثة، والمنسخة بالعرق، راحت تلتصع أمام عينيه، شأن زوائد الاسم العريضة المخططة التي تدلت منها. في تلك الليلة، تلقاه ضجيج الغناء الحشن المعربد عند الباب الأمامي، فقد كانت الحرب اليابانية - الروسية في أوجها، وكان إيواء الجنود مصدراً محترماً ومؤكداً للحصول على الدخول. وقد خلج ذلك على النزول مظهراً له شهرته، جنباً الى جنب مع رائحة الاسطبل. وفيما جرى المضي به الى غرفة في مؤخرة النزول، سار في الممر كأنه يمر في عنبر حجر صحي، خائفاً حتى من أن كفه قد يمس عموداً في الطريق. فقد كان يكن نفوراً بالغاً للعرق البشري، وكل ما له صلة به.

في تلك الليلة من موسم الأمطار، قبل ثنائي سنوات، عجز النيل عن استعادة رباطة جأشه المعتادة بعد وداعه لضيفه الأمير ماتسوجاي. وكانت تلك هي اللحظة التي اختارتها تاديشينا للحديث، بعد أن خمنت في براعة الحالة المزاجية، التي سيطرت عليه، من خلال التعبير المرتسم على محياه.

- يحدثني كيتازاكي بأنه قد وصله شيء طريف للغاية، وأنه لا يسعى الى خير من تقديمه لمولاي مرضاة له. ألا ينظر مولاي في أمر الذهاب الى هناك الليلة من أجل قليل من الترفيه فحسب؟

ولما كانت حرة في القيام بأمر من قبيل «زيارة أقاربها»، بعد أن تأوى

ساتوكو الى فراشها، فلم يكن هناك ما يعرقل خروجها، ثم لقاءها للنبييل
اياكورا، في مكان يحدد مسبقاً.

استقبل كيتازاكي، بخضوع بالغ، النبييل، وقدم له شراب الساكي، ثم
غادر الغرفة، ليعود إليها حاملاً لفيفة عتيقة، وضعها بمزيد من التوقير على
المائدة.

قال معتذراً:

- المكان صاحب الليلة حقاً، فأحدهم على وشك الرحيل الى الجهة،
ويقيم حفل وداع. الجو حار على نحو فظيع، ولكن ربما يكون من
المناسب، يا مولاي، إغلاق مصاريع المطر.

قصد كيتازاكي أنه بالقيام بإغلاق المصاريع يمكن، إلى حد ما، تقليل
أصداء الضجة المنبعثة من الطابق الثاني بالمبنى الرئيسي في النزول. غير أن
المطر المنهمر بدا في التو وكأنه يلطم الغرفة بمزيد من الاصرار من جميع
الجوانب، محولاً إياها الى قفص محتويه. خلع عليها اللون المتألق لباب
جينجي المنزلق نوعاً من الشهوانية الخائفة اللاهتة، كأن الغرفة ذاتها صورة
ملفوفة في لفيفة محظورة.

مدّ كيتازاكي، الذي جلس أمام النبييل، في مزيد من التوقير، يديه
الكهلتين المجمعتين، وإن كان مظهرهما لا يوحي بالخبث، الى المائدة، وفك
الخطط الأرجواني الذي يربط اللفيفة، ثم شرع في فضها أمام النبييل،
كاشفاً، في أول الأمر، عن نقش حافل بالادعاء يعلو اللفيفة. كان
استهلاًلاً خاصاً:

«مضى تشاو تشو، ذات يوم، الى إحدى الكاهنات ليقول لها:
«أتأخذينه؟ أتأخذينه؟». وعندما لوحت الكاهنة بدورها بقبضتها في وجهه

غاضبة، مضى لطيته في الحال، صائحاً: «الماء الضحل لا يجيد استقبال السفن».

يا لحر تلك الليلة الخانق! لم تزد الرطوبة الجاثمة إلا تفاقمًا من جراء الهواء الذي راحت تاديشينا تحركه وراءه بمروحتها. ويدت له معادلة لما يخرج عن وعاء أرز يتصاعد منه البخار. كان الساكي قد بدأ يحدث مفعوله، فتناهى إليه وقع المطر في الخارج، كأنه يلطم مؤخرة جمجمته، ضاع العالم الخارجي في الخواطر البريئة عن الانتصار في الحرب. هكذا جلس النبيل يتطلع الى اللفيفة الخلاعية. فجأة، اندفعت يدا كيتازاكي كالبرق في الهواء، لتلطم معاً بعوضة. اعتذر في الحال لما سببته الضجة من إزعاج، ولح النبيل اللطمة السوداء الصغيرة المتمثلة في البعوضة الصغيرة، في راحة يده البيضاء الجافة، جنباً الى جنب مع بقعة دم حمراء، وهي صورة قدرة، أثارت اضطرابه. لماذا لم تلتعه البعوضة؟ أكان حقاً محمياً على نحو جيد من كل شيء؟

كانت الصورة الأولى في اللفيفة هي صورة كبير كهنة يرتدي رداء بني اللون وأرملة شابة يجلسان متقابلين، أمام ستار مسدل. كان الأسلوب المستخدم في الرسم هو أسلوب الصور الإيضاحية لقصائد الهايكو، وقد نفذ بلمسة خفيفة فكهة. وصوّر وجه كبير الكهنة على نحو هزلي بحيث يبدو مثل قضيب جسيم.

في الصورة التالية، يثب كبير الكهنة على الأرملة الشابة، دونما سابق إنذار، وقد عقد العزم على اغتصابها، وعلى الرغم من أنها تقاوم، إلا أن كيمنونها يبدو وقد فقد ترتيبيه وهندامه. وفي الصورة التي تعقبها ينغمسان في عناق عار، ويبدو التعبير المرتسم على محيا المرأة الآن متراحياً، كأنما مسته يد رحيمة. وبدا قضيب كبير الكهنة كأنه الجذر الملتوي لشجرة صنوبر عملاقة، وبرز لسانه البني، في ابتهاج عارم. ووفقاً لهذا التقليد الفني،

صورت قدماً الأرملة وأصابع قدميها باللون الأبيض الصيني وقد تقومت القدمان بشدة، وتغلغلت الاختلاجات، سارية على امتداد فخذيها الأبيضين، المتشنجين، لتصل في نهاية المطاف الى أصابع قدميها، كأنما التوتر الكامن هناك يجسد جهدها الدائب للتشبث بدفق النشوة، التي توشك أن تندلع الى الأبد. حدث النبيل نفسه بأن جهود المرأة جديرة بالاعجاب.

وفي غضون ذلك، على الجانب الآخر من الستار، اعتلى عدد من الرهبان المستجدين طبلًا خشبياً وقمطراً، ومضوا يتدافعون بالاكشاف، في بأس، في غمار حرص كل منهم على أن يشاهد ما يجري وراء الستار، بينما انغمسوا، في الوقت نفسه، في كفاح فكه، لخفض تلك الأعضاء من أجسامهم، التي انتفخت بالفعل، فاكتسبت أبعاداً جسيمة. وفي نهاية المطاف يتهاوى الستار، وفيها المرأة العارية تحاول تغطية نفسها، واللواذ بالهرب، وكبير الكهنة يرتمي أرضاً من فرط الاجهاد، دون أن يبقى لديه من القوة ما يوبخ به الرهبان الجدد، يشرع في الكشف مشهد قوامه الفوضي المطلقة.

رسمت قضبان الرهبان بحيث تبدو في طول أجسامهم، على وجه التقريب؛ حيث أن النسب المعتادة ما كانت لتبدو معقولة للفنان، من حيث قدرتها على الإيحاء بعظم القر، الذي تثقل به شهوتهم عليهم. وفيما هم ينتفضون على المرأة، يترأى وجه كل منهم دراسة فكهة في انفعال يتجاوز الوصف، ويتعثرون تحت ثقل أعضائهم المنتصبة.

بعد هذا الكدح، الذي يعد بمثابة عقاب، يكتسي جسم المرأة بلون شاحب شحوب الموت، وتلقى حتفها. تنسرب روحها من جسدها، وتتخذ لها مأوى بين أغصان شجرة حور، تهب عليها الرياح. وهنالك تصبح شبحاً مترعاً بروح الانتقام، وقد صُوِّر وجهها على هيئة الفرج.

عند هذا الموضع، فقدت الليفة ما كان يتخللها من مرح، وكستها كآبة رهيبة. لم يهاجم شبح واحد الرجال، وإنما العديد من الأشباح، وقد تشابهوا فيما بينهم، فشعرهم تأخذ الريح به، على نحو وحشي، وتفتح شفاههم القرمزية. وإذا يهرب الرجال، وقد أخذ منهم الذعر كل مأخذ، لا يجدون أنفسهم أنداداً للأشباح، التي اندفعت تهاجمهم بمجموعها مدوّمة، وراحت تمزق قضبانهم وكذلك قضيب كبير الكهنة بفكوكها القوية.

صور المشهد الأخير على شاطئ البحر، حيث يرقد الرجال المشوهون عراة على الشاطئ، وهم يصرخون في يأس، بينما زورق مقل بقضبانهم الممزقة ينطلق رافعاً شراعة، في رحاب بحر مظلم. تجمعت الأشباح على سطح الزورق، والريح تأخذ بشعرها، وأيديها الشاحبة تلوح مودعة، على نحو ساخر، ووجوهها، المصورة على هيئة فروج النساء، تسخر من الصرخات التعسة، الصادرة عن ضحاياها على الشاطئ. ونحتت مقدمة الزورق كذلك على هيئة فرج، وفيما هو يندفع نحو المياه العميقة، يتشبث شعر كشر العانة به، ونسيم البحر يداعبه.

عندما رفع أياكورا رأسه، أخيراً، عن الليفة، أحس بكآبة، تستعصي على التفسير. كان الساكي أبعد ما يكون عن بعث الشعور بالسكينة في نفسه، ولم يؤد إلا إلى تفاقم شعوره بالضيق، لكنه أمر كيتازاكي بجلب المزيد منه، وعكف عليه في صمت. كان ذهنه لا تزال تملؤه صورة المرأة المرسومة في الليفة، وقد تشنجت أصابع قدميها متقوسة الى الداخل، وواصل التألق أمام عينيهِ البياض الشهواني لقدميها اللتين أبدعهما الفنان.

أما ما أتاه، عقب ذلك، فلا يمكن إلا أن يكون عائداً إلى الحر الخائق، في تلك الليلة من ليالي الموسم المطير، وإلى شعوره بالتقزز. قبل أربعة عشر عاماً، وعندما كانت زوجته حبل بساتوكو، كان قد أثر تاديشينا باهتماماته. وبما أنها كانت في ذلك الحين قد تجاوزت الأربعين من العمر، فقد

كانت تلك نزوة غريبة، ولم تدم طويلاً. وبعد ذلك بأربعة عشر عاماً، وتاديشينا موغلة في الخمسينات من عمرها لم يدر بخاطره قط أن شيئاً من هذا القليل سيقع ثانية. على أية حال، وبسبب ما وقع هذه المرة، فإن قدمه لم تجتز مرة أخرى عتبة نزل كيتازاكي.

الأحداث والظروف - زيارة الأمير، الضربة الساحقة التي أصابت كبرياه، الليلة الماطرة، قاعة المؤخرة المنعزلة في دار كيتازاكي، شراب الساكي، التصوير الخلاعي المشؤوم - كل هذا أطبق على النبل أياكورا، ففاقم من حالته المزاجية، التي يسودها الضيق (أما كان الأمر يمكن أن يتجه على نحو يخالف ذلك)، وأشعل فيه نيران الرغبة في تحقير ذاته، الأمر الذي دفعه إلى إتيان ما قام به. وأتمت استجابة تاديشينا، المجردة من أي لوم، مشاعر كراهيته لذاته.

حدثت نفسه، قائلاً: «هذه المرأة ستنتظر أربعة عشر عاماً أو عشرين عاماً أو قرناً من الزمان - لا فرق بالنسبة لها. وبغض النظر عن وقت سماعها لصوت سيدها، فإنها أبداً لا يتناهى الصوت إليها دون أن تكون مدركة له».

عبر الظروف، التي لم يكن أي منها من صنع يديه، دفعه دفعاً ضيقه المتقد لأن يلقي بنفسه في غابة مظلمة، حيث كان ذلك الشبح الناهض من اللفيفة الخلاعية يقبع في انتظاره. فضلاً عن ذلك، فإن قوام تاديشينا الذي لم يعرف الترهل، وغزها له المترع بالتوقير، والفخر الجلي الذي كانت تستشعره، حيال معرفتها الثرة. بفن الهوى، كل ذلك أثر فيه، على نحو بالغ، تماماً كما كان الحال قبل أربعة عشر عاماً.

ربما كان هناك بعض التواطؤ بينها وبين كيتازاكي، الذي غادر الغرفة، ولم بعد. إليها فيما بعد، وفي الظلام الذي أطبق طياته وقع حبات المطر

المنتشر، لم يفه أي منهما بينت شفه . ثم تناهت أصوات الجنود من بعيد،
كرة أخرى، وفي هذه المرة سمع النبل بوضوح كلمات أغنيتهم:

إلى ساحة القتال

الممزقة بالحديد والنار؛

فمصير الدفاع عن الأمة

يقع على كاهلكم .

إلى الأمام أيها الرفاق الصناديد!

إلى الأمام أيها الجيش الإمبراطوري!

فجأة، عاد النبل طفلاً من جديد، استشعر حاجة ماسة إلى التخفف
من وقر الغضب، الذي راح ينهشه، فقدم لتاديشينا صورة مفصلة، تنتمي
إلى مجال نُحْي الخدم بعيداً عنه: ذلك أنه أحس بأن غضبه ليس نابعاً منه
وحده، وإنما هو بالأحرى انفعال يصب فيه غيظ أسلافه .

كان الأمير ماتسوجاي قد زاره في ذلك اليوم . وعندما أقبلت ساتوكو إلى
القاعة، لتحية الضيف، راح الأمير يداعب شعرها، المقصوص على نحو
يجعله قصيراً، ثم ربما بتأثير الساكي، الذي احتسأه، تحدث فجأة أمام
الطفلة: «أي أميرة صغيرة جميلة غدوت! حينما تكبرين ستكونين من الجمال
بحيث أنه ما من أحد سيجد من الكلمات ما يصفك به . أما فيما يتعلق
بالمثور على زوج وسيم، فدعي ذلك لعمك، ولا تدعي شيئاً يثير قلقك!
إذا كنت تثقين بعمك تماماً فسوف أختار لك عريساً لا نظير له، في أي
مكان في الدنيا . لن يكون لدى أبيك ما يقلق بشأنه، سأقدم لك جهاز
عرس، فوق قماش طيلساني ذهبي، عندما تصبحين عروساً . كم سيكون
موكباً ممتداً! من النوع الذي لم تقع عليه عين في كل أجيال آل أياكورا» .

كانت مسحة بالغة الضلالة من الجهامة قد علت محيا النبيلة أياكورا، في
تلك اللحظة، أما النبل فاكتفى بالابتسام . كان حرياً بأسلافه، بدلاً من
الابتسام في مواجهة الإذلال، أن يكشفوا عن قدر كافٍ من حضور البديهة،

ويردوا الضربة بمثلها . ولكن في هذه الأيام - حينما أصبحت لعبة الكياري التقليدية الأثيرة عند الأسلاف، على سبيل المثال، مجرد ذكرى - لم يكن هناك من سبيل لإظهار أنفاس هذا الرجل القوغائي . وعندما يقوم رجال من أمثال هذا الدعي، الذي يفيض بحسن النية، والبريء من أي نية لتجريح نبيل أصيل في رفعة شأنه، بطرح إهاناتهم غير المقصودة، فما من شيء يمكن القيام به، إلا الضحك على نحو ملتبس . ومع ذلك، فقد كان هناك عنصر غامض قليلاً، يتأرجح في الابتسامة، التي علت شفتي ذلك الرجل المتحضر، عندما واجهه علو الشأن الجديد المستند إلى المال والجاه .

لزم النبيل الصمت، بعض الوقت، عقب إفصائه بهذا كله إلى تاديشينا . راح يفكر في أنه إذا كان للحساسية أن تثار لنفسها فكيف يتحقق انتقامها؟ ألم يكن هناك انتقام مما يليق بنبلاء البلاط، من نوعية الانتقام الذي في إطاره يدسّ البخور في رदन سابغ لرداء بلاطي ويسمح له بأن يحترق في ببطء متحولاً إلى رماد دون أن يظهر أي أثر من آثار اللهب؟ انتقام مثل هذا يدع سماً خفياً عطراً يتخلل المادة بحيث أن فعاليته تظل على كمالها عبر السنين؟

أخيراً، التفت النبيل إلى تاديشينا، وقال:

- سأطلب منك القيام بشيء ما، قبل وقت طويل من حلول أوانه . عندما تكبر ساتوكو، فإنني أخشى أن كل شيء سيمضي وفقاً لرغبة ماتسوجاي، وهكذا فإنه سيكون الشخص الذي سيرتب أمر زواجها . ولكن حينما يكون قد قام بذلك، وقبل إتمام الزواج، أريدك أن تمضي بها إلى فراش رجل يروق لها، رجل يعرف كيف يلزم الصمت . لست أكثر بمكانته الاجتماعية - طالما أنها مولعة به . لست أعزم تسليم ساتوكو عذراء عفيفة لأي عريس يتعين عليّ شكر ماتسوجاي على إحسانه لجلبه إياها . وهكذا، سأجعل أنف ماتسوجاي راعباً دون أن يدري عن الأمر شيئاً .

ولكن ما من أحد سيعلم شيئاً عن هذا، ولا تراجعيني فيما يتعلق بهذا الأمر. إنه شيء ينبغي عليك القيام به كأنه خطيئة اقترفتها بمبادرة منك وحدك. وهناك جانب آخر في الأمر: بما أنك تعادلين خبيرة، في كل الأمور الجنسية، فليس بالأمر الجلل بالنسبة لك أن تلقي ساتوكو بدقة بالغة تحقيق إنجازين مختلفين للغاية. أليس كذلك؟ الأول أن تجعل الرجل يعتقد أنه يفترع عذراء بينما هو ليس كذلك. والثاني، على العكس من ذلك، أن تجعل الرجل يعتقد أنها قد فقدت عذريتها، بينما هي في حقيقة الأمر لم تفقدها.

ردت تاديشينا، دون أن يشي صوتها بالتردد أو الاستياء: - يكفي أن تقول هذا يا مولاي! هناك أساليب فعالة فيما يتعلق بالأمرين معاً بحيث ينتفي خطر إثارة الشكوك حتى من جانب أكثر الرجال حنكة وتهتكاً. وهكذا، فسوف أتمجشم عناء تلقين ذلك للأنسة ساتوكو. غير أنني أتساءل عما إذا كان يسمح لي بالاستفسار عما بذهن مولاي فيما يتعلق بالأمر الثاني من هذين الشئتين.

- المقصود هو ألا يزدهي الفخار، بأكثر مما ينبغي، الشخص الذي يلج عروس آخر، قبل الزفاف، حول هذا الأمر، فلو أنه علم بأنها عذراء، فقد يأخذ الغرور حول ما أقدم عليه، وذلك ما لا طائل وراءه. وهكذا، فإنني أعهد إليك بذلك أيضاً.

أجابت تاديشينا: «كل شيء فهم تماماً»، وذلك بدلاً من أن ترد قائلة ببساطة: «ما يشاء مولاي»، فقد تلقت المهمة التي أسندت إليها بجدية، ويقبول رسمي.

كانت تاديشينا تلمح الآن إلى ما وقع في تلك الليلة، قبل ثنائي سنوات. وقد أدرك أياكورا. حق الإدراك ما أرادت قوله. ولكنه كان في الوقت نفسه واثقاً تماماً من أن مغزى مجرى الأحداث الذي ما كان هناك من سبيل للتنبؤ به مسبقاً والذي تفتحت آفاقه بعد قبولها للمهمة التي كلفت بها ما كان

يمكن أن يغيب عن امرأة تحظى بلهاجية تاديشينا. فقد تبين أن العريس المنتظر هو أمير من العائلة الإمبراطورية، وعلى الرغم من أن الفضل يعود إلى الأمير ماتسوجاي، فإن زواجاً موفقاً مثل هذا سيعني بروز آل أياكورا من جديد. وباختصار، فإن الظروف كانت مختلفة للغاية عن تلك التي تصورها قبل ثماني سنوات، عندما أصدر تعليماته لتاديشينا، في غمار غضب عارم. ولئن كانت، بالرغم من هذا كله قد نفذت مهمتها في اتّساق تام مع ذلك الوعد القديم، فلا بد أن السبب في ذلك يكمن في رغبتها في القيام بذلك. وفضلاً عن هذا فقد تسرب السر إلى الأمير ماتسوجاي.

أمن المحتمل أنها قد استهدفت آل ماتسوجاي انطلاقاً من غخطط هائل من نوع ما، قاصدة جلب كارثة عليهم، تحقق الانتقام الذي وضعه جبن أياكورا وقلة حيلته بعيداً عن مطاله؟ أم ترى أن انتقامها لم يكن موجهاً إلا إلى النبيل أياكورا نفسه؟ أياً كان ما يفعله فإن كفته مرجوحة - إذ ليس بمقدوره أن يدعها تحكي للأمير قصة الفراش تلك التي تعود إلى ثماني سنوات.

ساوره شعور بأن خير سبيل هو أن يلزم الصمت. فما كان وقع وانتهى الأمر. أما فيما يتعلق بمعرفة الأمير بجلية الأمر فإن عليه أن يعد نفسه للوم قاس بشكل أو بآخر من جراء ذلك. ومع هذا فقد فكّر في أن الأمير سيستخدم نفوذه الهائل في الوصول إلى حيلة للخروج من الموقف. لقد حان الآن أوان ترك الأمر بأسره لشخص آخر.

غير أنه كان على تمام اليقين، فيما يتعلق بشيء واحد، هو حالة تاديشينا الذهنية. فمهما كان إدعاؤها بأن الذنب ذنبها، فإنها في حقيقة الأمر، لم تكن على استعداد لطلب الصفح عما أتته. جلست هنالك، تلك المرأة التي حاولت التفوق على نفسها، وهي لا تزال على عدم اكتراثها بعفوه، على كثفيها استقر الوشاح الحمري، وتشبث الطلاء الأبيض بوجهها كثيفاً، كأنها

كرة كريكيت سقطت في علبة ذرور . ورغم ضالة جرمها، فقد بدت على نحو ما كأنها تملأ الدنيا بأسرها بالكآبة .

لاحظ، فجأة، أن هذه الغرفة كانت من حيث السعة تماماً مثل الغرفة الواقعة في مؤخرة نزل كيتازاكي . وفي الحال، غدا بمقدوره سماع دمدمة المطر، وفي غير موسمه لطم الحر الخائق ، الجالب للتحلل، وجنتيه، تماماً مثلما حدث في تلك الليلة .

رفعت وجهها المبيض، مرة أخرى، لتقول شيئاً . انفجرت شفتاها الجافتان، المجعدتان، قليلاً، والتمع باطن فمها الأحمر المبتل، في ضوء المصباح الكهربائي، زاهياً مثل اللون القرمزي القاتم لأحمر شفتيها البلاطي .

كان بمقدوره أن يخمن ما أوشكت على قوله . أليس ما قامت به ناجماً على نحو ما قالت هي نفسها عن أحداث تلك الليلة قبل ثماني سنوات؟ ألم تقم به لا لشيء إلا لتمنح النبيل ما يذكره في جبروت بما وقع في تلك الليلة حيث أنه لم يظهر ثانية قط أدنى اهتمام بها؟

فجأة، استشعر دافعاً لسؤالها ذلك النوع الذي لا يرحم من الأسئلة، والذي لا يجدر إلا بطفل طرحه :

- طيب، لقد تم إنقاذك على نحو يبعث على السعادة . . . ولكن هل قصدت الانتحار حقاً؟

اعتقد أنها إما أن يعتربها الغضب أو تنخرط في البكاء، ولكنها بدلاً من ذلك ضحكت في احتشام .

- طيب، لو أن مولاي كلف نفسه عناء أن يقول لي اقتلي نفسك! لربما القيت نفسي في حالة تدفعني نحو الموت . ولئن أمرني بذلك الآن لحاولت الانتحار مجدداً . ولكن بعد ثماني سنوات من الآن فمن الطبيعي أن يكون مولاي قد نسي مجدداً ما قاله .

بوغت الأمير ماتسوجاي، عندما التقى بالنبييل أياكورا، برؤية مدى قلة الاكتراث، الذي يبديه الأخير حيال تطور الأحداث. ولكن عندما وافق النبييل مرحباً على الاقتراح الذي طرحه الأمير بقوة، عادت المعنويات إلى الارتفاع. فقد أكد له النبييل أن كل شيء سيتم القيام به على نحو ما يشاء، بل إنه شجعه في التو أن يسمع بأن الأميرة ماتسوجاي نفسها ستصاحب ساتوكو إلى أوساكا. أما فيما يتعلق بالمقدرة على تكليف دكتور موري بكل شيء، على نحو متكتم تماماً، فقد كان ذلك توفيقاً لم يدر ببال أحد قط. سينفذ كل شيء حسب تعليمات الأمير، ومن ثم فقد رجاه أن يتكرم، فيواصل جهوده الحميدة، نيابة عن آل أياكورا. تلك كانت النغمة التي سادت رده.

لم يكن لآل أياكورا إلا مطلب واحد، شديد التواضع، لم يستطع الأمير الاعتراض على تلبية، وهو أن يسمح لساتوكو وكيواكي برؤية أحدهما الآخر، قبيل مغادرتها طوكيو إلى أوساكا. لم يكن هناك مجال، بالطبع، للسماح لهما بالالتقاء منفردين. ولكن إذا كان بمقدورهما أن يلتقيا وجهاً لوجه، لبرهة قصيرة، بحضور والدتيهما، فإن ذلك سيكون مرضياً لآل أياكورا. وإذا تمت الموافقة على هذا الطلب، فإن آل أياكورا سيقدمون كل التأكيدات بعدم السماح لساتوكو قط برؤية كيواكي مرة أخرى. وكانت ساتوكو نفسها هي مصدر هذا الطلب، ولكن، كما أوضح النبييل في شيء من الحرج، فقد أحس هو وزوجته بأنه قد يكون من الأفضل أن تتم الموافقة على هذا المطلب.

الآن، أمكن استخدام ظرف مصاحبة الأميرة لساتوكو إلى أوساكا، من أجل إضفاء مظهر غير مفتعل على اللقاء مع كيواكي. فلا شيء يمكن أن يكون طبيعياً أكثر من مجيء ابن إلى المحطة لوداع أمه، وفي وقت لا يتاح فيه أي سبب ينظر أحد شزراً، إذا ما تبادل كيواكي كلمة أو كلمتين مع ساتوكو.

ومع حسم الأمور على هذا النحو، قام الأمير، بناء على اقتراح من زوجته، باستدعاء دكتور موري سراً إلى طوكيو، على الزعم من انشغاله التام بعمله في أوساكا. وقد نزل الطبيب بدار ماتسوجاي لمدة أسبوع قبل رحيل ساتوكو عن طوكيو في ١٤ نوفمبر، وهو على أهبة الاستعداد لتلبية أي استدعاء في حالة احتياجها له. وقد كان خطر سقوط الجنين الذي راح يطل برأسه من لحظة لأخرى هو الذي جعل هذه الاستعدادات ضرورية. ولو أن شيئاً من هذا القبيل وقع لتعين على دكتور موري التصدي له على نحو لا تتسرب معه نامة عن الموضوع. وإضافة إلى ذلك فإنه سيكون على مقربة خلال الرحلة الطويلة والخطرة للغاية بالقطار إلى أوساكا، حيث سيسافر دون أن يلحظه أحد في عربة أخرى بالقطار.

هكذا، أسلم أخصائي شهير في طب التوليد حريته، ووضع نفسه تحت إمرة آل ماتسوجاي وآل أياكورا، وهو شيء كان بمقدور أموال الأمير وحدها تحقيقه، وإذا سارت الأمور على نحو ما هو مأمول، فإن الرحلة إلى أوساكا ذاتها ستسهم إلى حد كبير في حجب الحقيقة عن عيون الدنيا؛ فمنذا الذي سيتخيل أن امرأة حبلت تتجشم عناء المخاطرة بالقيام بمثل هذه الرحلة بالقطار؟

على الرغم من أن ثياب دكتور موري كانت تجري حياكتها في إنجلترا، وتعد النموذج الحديث لما يرتديه السيد المذهب الغربي، فإنه كان رجلاً قصيراً بدينًا، ويدكر محياه المرء، على نحو ما، بكتائب في إحدى الهيئات

الحكومية. وقبل فحصه لكل مريضة من مرضاه، كان ينشر ما يشبه الغطاء من الورق الثمين، على الوسادة، لكي تسترخى عليه. ثم يلملمه، ويلقي به بعيداً، فيما بعد، دونما اكتراث، وهو الأمر الذي ساهم في توسيع نطاق شهرته. وكان دمثاً، على نحو لا تشوبه شائبة، لا تعرف ابتسامته الانحسار، وتنتمى مريضاته الكثيرات إلى الطبقة العليا، في أغليتين، ولم يكن هناك من يجاريه في حدقه، ثم أن فمه مطبق كأنه محارة.

كان دكتور موري يجد متعة في الحديث عن الطقس. أما خلافاً لهذا فقد بدا أنه ليس هناك موضوع آخر يمكن أن يستأثر باهتمامه. غير أنه كان قادراً على اجتذاب مرضاه بمجرد الإشارة إلى مدى فظاعة الحر اليوم أو إلى أن الطقس يزداد دفئاً بعد كل مرة ينهمر فيها المطر. وكان بارعاً في نظم الشعر الصيني، وعبر عن انطباعاته عن لندن في عشرين قصيدة سباعية صينية، أصدرها على نفقته، في ديوان بعنوان «لندنيات». وكان يتحلى بخاتم ذي ماسة ضخمة، زنتها ثلاثة قراريط، وقبل فحص المريضة، كان يوتر ملامحه في تصلب، وينزع الخاتم بصعوبة جلية، ملقياً إياه في حدة على أي منضدة قريبة، غير أنه ما من أحد لاحظ في غمار نسيانه لالتقاط الخاتم ثانية. وتميز شاربه المتصلب، بالبريق المكتوم، الذي يحظى به السرخس غب المطر.

تحم على آل أياكورا صحة ساتوكو. إلى دار آل توينومايا؛ لتتمكن من تحيتهم قبل رحيلها إلى أوساكا. ولما كان التوجه إلى هناك بعربة تجرها الجياد من شأنه أن يزيد المخاطر، فإن الأمير ماتسوجاي حرص على تزويدهم بسيارة، وإضافة إلى ذلك فقد صحبهم دكتور موري متنكراً في هيئة كبير الخدم، حيث جلس إلى جانب السائق، مرتدياً حلة من حلل يامارا العتيقة. وبضربة من ضربات الحظ تصادف أن الأمير الشاب نفسه كان بعيداً عن الدار مشغولاً بمناوراته العسكرية، فتمكن ساتوكو من تحية الأميرة توين داخل الدهليز مباشرة، ثم بادرت إلى الاستئذان منصرفة. وهكذا تم إكمال المهمة الخطرة، دون مشكلات.

وعلى الرغم من أن آل توينومايا قد اعتزموا إرسال أحد مسؤولي الدار إلى المحطة ليكون في وداع ساتوكو في ١٤ نوفمبر، فإن آل أياكورا اعتذروا في دماثة عن تلقي هذا الجميل، ومضى كل شيء وفقاً لخطة الأمير ماتسوجاي، فسوف يلتقي آل أياكورا بالأميرة وولدها في محطة شيمباشي. وعلى دكتور موري أن يستقل عربة من عربات الدرجة الثالثة بالقطار دون أن يلقي ولو نظرة واحدة باتجاههم. ولما كان الغرض من الرحلة هو الهدف المحتمل تماماً والمتمثل في القيام بزيارة وداعية لرئيسة كاهنات دير جيشو، فإن الأمير لم يتردد في حجز عربة المشاهدة بأسرها، بنوافذها العريضة التي تتيح الاستمتاع بالمشاهد، التي يمر بها القطار. وكانت هذه العربة جزءاً من قطار سريع خاص متجه إلى شيمونو سيكي، يغادر محطة شيمباشي في التاسعة والنصف صباحاً، ويصل إلى أوساكا بعد إحدى عشرة ساعة وخمسين دقيقة.

كانت محطة شيمباشي، التي صممها مهندس معماري أمريكي، قد شُيّدت في عام ١٨٧٢، في بداية عهد ميحي، وقد زودت بإطار من الخشب، ولكن جدرانها كانت من حجر أسود مرقط جلب من محاجر شبه جزيرة إيزو. والآن، في هذا الصباح المشرق المضيء من صباحات شهر نوفمبر، راح سنا الشمس يلهم بحدة الظلال التي ألقتها الأفريز البارز على أسطحها العارية من الزينة. وصلت الأميرة ماتسوجاي، وقد احتدم توترها حيال توقع الانطلاق في رحلة عليها أن تعود منها بمفردها، إلى المحطة دون أن تحدث في الطريق ولو بكلمة واحدة أبداً من يامادا، الذي كان يحمل أمتعتها بالاحترام المعهود، أو كيواكي. وقد ارتقى ثلاثتهم الدرج الحجري الممتد الذي يفضي إلى الرصيف.

لم يكن القطار قد وصل بعد. انهلت أشعة الشمس المائلة على الرصيف الفسيح وعلى القضبان الممتدة على جانبيه، وانداحت في الهواء المتألق

ذرات من الغبار. وقد اعترت حالة من القلق البالغ الأميرة من جراء الرحلة التي تواجهها إلى حد أنها راحت تصعد التهديدات بين الفينة والأخرى.

- لست أرى لهم أثراً بعد، ترى هل وقع شيء؟

هكذا، مضت تقول بين وقت وآخر، ولكنها لم تستطع انتزاع رد من يامادا. وكل ما ند عنه «آه!» ممتزجة بالتوقير ومجردة من المعنى. وعلى الرغم من أنها كانت تعرف ما يمكن توقعه إلا أنها لم تستطع الإحجام عن طرح سؤالها.

أدرك كيواكي مدى اضطراب أمه، ولكن بما أنه لم يكن في حالة نفسية تسمح له بالتخفيف عنها، فقد وقف على مبعدة، أحس بالضعف، وكانت وقفته المتصلبة معبرة عن الجهد الذي راح يبذله للسيطرة على نفسه. بدا كما لو أنه يمكن أن يتهاوى، وما زال على تصلبه، كأنه تمثال، صب في قالب واحد، لكنه يفقر للقوة الضرورية للإمساك به. كان الهواء على الرصيف شديد البرودة، لكنه دفع ب صدره إلى الأمام تحت سترة زيه المدرسي المزركشة بشرائط مجدولة. بدا أن المحنة البائسة للمتمثلة في الانتظار قد جمده حتى النخاع.

انهمر المطر على المحطة في كبرياء شاحخة، بينما انسلت الشمس إلى أسقف عربات القطار بشرائط متألقة، وبرقت من الحاجز عند مؤخرة عربة المشاهدة. وفي هذه اللحظة عينها، لمحت الأميرة دكتور موري، حيث لفت نظرها شاربه المشذب بعناية، وسط جمع ينتظر على مبعدة على الرصيف. أحست ببعض الارتياح. وقد تم الاتفاق على أنه باستثناء وقوع حالة طارئة فإن الطبيب سيظل بعيداً بمفرده. على إمتداد الرحلة إلى أوساكا.

صعد ثلاثتهم إلى عربة المشاهدة، وقد حمل يامادا أمتعة الأميرة. وفيما راحت تصدر ليامادا المزيد من التعليمات، مضى كيواكي يحرق مطلاً من النافذة في الرصيف، وعكف على التطلع إلى النبيلة أياكورا وساتوكو وهما

تقتربان وسط الجمع. كانت ساتوكو تلتف بشال يجمع ألوان قوس قزح على كتفها. وعندما بلغت فيض ضياء الشمس المنهل من حافة سقف الرصيف بدا يحياها المجرّد من أيّ تعبير في بياض الحليب المتخثر.

تردد وجيب قلبه، في جنون، من جراء الأسى والفرح معاً. وفيما هو يرقبها وأمها إلى جانبها، وهما تتقدمان باطّراد، وإن كانتا تتحركان على مهل، وبخطى محسوبة، بوغت بتصوره للحظة أنه العريس يقف هنالك في انتظار عروسه. وأثارت المسيرة الجادة الاحتفالية، كأنها إعياء يتراكم على كاهله شيئاً فشيئاً، في نفسه بهجة. حادة على نحو مؤلم تركته متوتر الأعصاب..

صعدت النبيلة أياكورا إلى العربة، وتركت الخادم يحمل متاع ساتوكو، وأبدت للأميرة اعتذارها لتأخيرهما. ومن الطبيعي أن أم كيواكي حيتها بأعظم قدر من المجاملة، ولكن تعقداً معيناً كان لا يزال جلياً في جبينها عبر على نحو مناسب عن الاستياء المتشامخ الذي تستشعره.

حجبت ساتوكو فمها بشالها المتألق بألوان قوس قزح، وأبقت نفسها مخفية خلف أمها. وتبادلت عبارة التحية المعتادة مع كيواكي، وفي ضوء دعوة الأميرة لها، جلست على نحو عاجل في أحد المقاعد، ذات اللون الأرجواني القاتم، التي انتشرت في العربة.

عندئذ أدرك كيواكي السر في وصولها متأخرة، على هذا النحو، فلا بد أنها قد أخرت وصولها إلى المحطة، لا شيء إلا لتقلل، ولو بمقدار ثانية، طول الوقت الذي سيستغرقه وداعهما. ففي ضياء هذا الصباح من صباحات نوفمبر الصافي كأنه دواء مر، لن يتاح لهما الوقت لكي يقولوا أي شيء أحدهما للآخر. وفيما انهمكت الوالدتان في الحديث راح يتطلع إليها وقد جلست منكسة الرأس. وفي غمار قيامه بهذا، بدأ يستشعر القلق حيال الاحترام المتصاعد للعاطفة الذي من المحقق أنه سيبدو جلياً في نظراته.

لقد احتوت نظرتة قلبه بأسره، ولكنه خشي من أن نظرتة، شأن أشعة شمس قوية، قد تحرق بشرة ساتوكو الهشة المتقعة. كان ينبغي للقوى التي تعتمر بداخله، العاطفة التي أراد توصيلها، أن تتسم بالليونة والرقّة، وقد أدرك إلى أي مدى خلع اندفاعه إهاباً فجاً عليها. ساوره الآن شعور بشيء لم يسبق له أن لمسه من قبل قط، وأراد أن يسألها الصفع عنه.

أما فيما يتعلق بجسمها، الذي يكسوه كيمونوها الآن، فقد كان يعرف كل ما يمكن أن يعرفه عنه، حتى أدق تفاصيله. عرف أين يحمر لحمها الأبيض أولاً بتأثير الحرج، أين يمنح ذاته، أين ينبض كأنها باصطفاق جناحي تمّ غاضب، عرف أين يفصح هذا الجسم عن النشوة وأين يعبر عن الحزن. ولأنه عرف بكلّيته، فقد بدا أنه يصدر عنه وهج خافت يمكن إدراكه حتى من خلال كيمونوها. ولكن شيئاً ما لم يتعرفه في أعماق ذلك الجسم، عميقاً في قرار فؤادها، والذي بدا أنها تقيه بردوني كيمونوها الضافيين راح يشق طريقه نحو الحياة. لم يستطع خياله، الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة، أن يتعامل مع ظاهرة كظاهرة الطفل، شيء على الرغم من ارتباطه الحميم بالدم المعتم الحار واللحم فقد بدا متجاوزاً للطبيعة إلى ما وراءها تماماً.

ومع ذلك، فإن الشيء الوحيد منه الذي ولج ساتوكو وغدا جزءاً منها تعيّن أن يكون طفلاً. غير أن هذا الجزء سرعان ما ينتزع منها، وينفصل لحماهما عن بعضهما من جديد. وبما أنه لم يكن أمامه من سبيل أيا كان لمنع هذا؛ فلم يكن هناك ما يفعله إلا الوقوف جانباً وترك الأمور تجري في أعتتها. وعلى نحو ما، كان الطفل الذي يتعلق به الأمر هو كيواكي نفسه؛ لأنه كان يفتقر إلى القدرة على العمل على نحو مستقل. ارتحفت بالوحدة المحرومة وبالإحباط المحرور الذي يستشعره طفل أجبر على البقاء في الدار عقاباً له على سوء تصرفه بينما مضى باقي العائلة بعيدين في رحلة خلوية.

رفعت عينيها، وحدثت شاردة عبر النافذة في الجانب من القطار المثل على الرصيف. بدا أنها مستغرقة تماماً في رؤية لما سينبذ منها، وكان على تمام الثقة من أن صورته لن تقع على مقلتيها مرة أخرى أبداً.

دوى تحذير؛ عبر صغير صاك، فنهضت واقفة، بدا له أن عملها هذا كان جهداً حاسماً، اقتضى حشد كل قوتها، دنت أمها القلقة، وأمسكت بذراعها.

- يوشك القطار على الانطلاق، سيتعين عليك أن تترجل منه.
قالتها ساتوكو له، وتردد صوتها مرحاً، على وجه التقريب، لكنه كان تهديجاً واهناً.

وعلى نحو حتمي، دار حوار عاجل بينه وبين أمه، تألف من التوجيهات والتمنيات الطيبة التي يتبادلها ابن مع أمه قبل انطلاقها تاركة إياه. أدهشته المهارة التي حشدتها لدعم دوره في هذه التمثيلية القصيرة.

عندما حرر نفسه أخيراً من أمه، التفت إلى النيلة أياكورا، واجتاز مسرعاً الأشكال الصحيحة لوداعها، ثم وكأنما لا يمكن أن يكون هناك شيء أكثر طبيعية من هذا، قال لساتوكو: «طيب، الآن، عليك بالاهتمام بنفسك». في تلك اللحظة، أحس أن بمقدوره أن يضيفي الخفة على كلماته، وقد انعكس هذا في دافع دعاه إلى أن يمد يده ويضعها على كتفها. ولكن في اللحظة التالية بدا أن ذراعاه قد ضربها فالحج، فندلت بلا جدوى إلى جانبه، حيث التقت عيناه بعينيها المحدثتين فيه بكامل زخم اللقاء.

من المؤكد أن الدموع نذت عينيها الجميلتين النجلوين، ولكنها دموع تختلف تمام الاختلاف عن تلك الدموع التي كان يخشاها حتى الآن. كانت شيئاً حياً يجري تمزيقه إلى أشلاء. حملت عيناها النظرة الرهيبة التي تلتصق

في عيني إنسان غريق ، وما كان بوسعه احتمال هذه النظرة . وقد انتشرت أهدابها
الوطفاء الجميلة ، كأنها نبته تزهر .

- وأنت أيضاً ، ياكيو ، وداعاً !

قالتها في نفس واحد ، وبنغمة الصوت اللائقة .

لاذ بالهرب من القطار ، كأنما يطارده مطاردون يجذّون في أثره ، في الوقت
نفسه الذي رفع فيه ناظر المحطة ، الذي يتمنطق بسيف قصير تحت
سترته السوداء ذات الأزرار الخمسة ، يده مشيراً بانطلاق القطار . ومرة أخرى
أطلق سائق القطار صفيراً تحذيرياً . وعلى الرغم من أن وجود يامادا إلى
جانب كيواكي قد كبح جماح هذا الأخير ، فقد هتف باسمها في فؤاده مراراً
وتكراراً . ارتج خط العربات ارتجاجة يسيرة ، ثم شأن خيط يتنزع من كرة
صوفية شرع في التحرك . وفي لحظات قصار ، ابتعدت عربة المشاهدة
وحاجزها الخلفي ، ولم تظهر ساتوكو ولا أي من الوالدين نفسها . وانداح
الدخان ، الذي انساب على الرصيف ، شاهداً على القوة التي أطلق سراحها
في رحيل القطار .

وأفعمت رائحته اللاذعة الظلمة ، التي حلت في غير أوانها ، والتي
خلفها وراءه .

في الصباح، بعد يومين، غادرت الأميرة ماتسوجاي المنزل الذي حلت به، ومضت إلى أقرب مكتب بريد، حيث بعثت ببرقية شخصية. وكان زوجها قد أصدر لها تعليمات صارمة بالآلا تفوض القيام بهذه المهمة إلى أحد غيرها. ولما كانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي تلج فيها مكتب بريد، فقد أحست بإرتباك بالغ، على الرغم من أنها في غمار اضطرابها تصادف أنها على نحو ما تذكرت أميرة توفيت حديثاً كانت مقتنعة بأن النقود شيء دنس وأمضت حياتها دون أن تمسها. ولكنها بشكل أو بآخر أرسلت بريقة تحمل الصيغة المتفق عليها مع زوجها: «الزيارة تمت بنجاح».

أحست بدفق من الارتياح العارم، يسري في دمها، كأنما أزيح عبء ثقیل عن كاهلها. عادت إلى المنزل، حيث دفعت قيمة فاتورة حسابها، ثم مضت إلى محطة أوساكا، حيث كانت النبيلة أياكورا تنتظر لوداعها، وهي منطلقة في رحلتها بمفردها عائدة إلى طوكيو. ولأداء واجب التحية هذا انسلت النبيلة، على نحو عاجل، من جوار فراش ساتوكو في المستشفى.

كانت ساتوكو قد دخلت عيادة دكتور موري الخاصة، تحت اسم مستعار، بناء على إصرار الطبيب على أن ترتاح راحة تامة لمدة يومين أو ثلاثة أيام. كانت النبيلة إلى جوارها على الدوام، ولكن على الرغم من أن حالتها الجسميّة كانت ممتازة، فلإنها لم تفه بكلمة واحدة لأمرها منذ إجراء العملية لها، وهو موقف كان مؤلماً بعمق بالنسبة للنبيلة.

وبما أن المكوث المريح في المستشفى تمت التوصية به كمجرد إجراء

احترازي فحسب، فقد كانت عندما أصدر الدكتور مورى إذناً لها بالمغادرة في حالة صحية طيبة تماماً، تسمح لها بالتحرك، وكأنها في تمام صحتها .

الآن، وقد أصبح إعيائها الصباحي شيئاً ينتمي إلى الماضي، كان يتعين عليها أن تفيض بالحياة جسمياً وذهنياً، ولكنها لزمت الصمت في عناد .

كان عليها، بحسب الخطة المعدة لها، أن تنطلقا إلى معبد جيشو لكي تقوم ساتوكو بزيارتها الوداعية لكبيرة الكاهنات . وستمكثان هناك ليلة وتعودان إلى طوكيو في صباح اليوم التالي .

ترجلتا كلتاها، إذن، في منتصف يوم الثامن عشر من نوفمبر من قطار على خط ساكوراى في محطة أويتوكي . كان أصيلاً خريفياً جميلاً دافئاً، وعلى الرغم من عدم شعور النبيلة أياكورا بالارتياح حيال التزام ابنتها الصمت فقد أحست بمزيد من الطمأنينة .

وبما أنها لم ترغب في أن تسبب أي إزعاج للراهبات العجائز، فلإنها لم تبلغ الدير بموعد وصولهما . غير أنها الآن، وعلى الرغم من أنها طلبت من أحد القائمين على المحطة أن يستدعي عربتي ريكشولهما، إلا أن العربتين لم يبدلها أثر . وفيما هما تنتظران، مضت النبيلة، التي كانت مولعة باستكشاف الأماكن غير المألوفة، للقيام بجولة في المنطقة المجاورة للمحطة، تاركة ابنتها لتأملاتها في قاعة الانتظار الخاصة بركاب الدرجة الأولى . وخارج المحطة مباشرة صادفتها لافتة توجه الزوار إلى معبد أويتوكي القريب :

يحظى البوذيستاش أويتوكي كوياسوجيزو بالتوقير هنا، وبعد هذا المعبد أقدم أماكن العبادة وأقدسها في اليابان لنيل البركة للأطفال وميلادهم بأمان . وقد باركته صلوات الإمبراطورين مونتوكو وسياوا والإمبراطور سوميدونو .

أحست بالارتياح لأن ناظري ساتوكو لم يقعا على هذه الكلمات. ولكي تضيق من نطاق فرصة رؤية ابتها لهذه الالفة ، سيتعين عليها جلب الريكشو إلى تحت سقف المحطة ومساعدة ابتها على ركوبها. بدا لها أن هذه الكلمات هي قطرات دم غير متوقعة تلتخ هذه المشاهد الطبيعية الجميلة المترامية تحت سماء نوفمبر البالغة التآلق.

كانت لمحطة أوبيتوكي بئر مجاورة لها وجدران بيضاء يعلوها سقف من القرميد، وقبالتها انتصبت دار عتيقة الطراز يحيط بها سور له سقف طين ومخزن فسيح في المؤخرة. وعلى الرغم من أن المخزن الأبيض والسور الطيني جعلتا سنا الشمس المتآلق يتراقص، إلا أن صمتاً خفيفاً خيم على المشهد. كان سطح الطريق رمادياً يكسوه الطين المحروق، ويلتمع بآثار جليد مما جعل المسيرة صعبة. غير أن عينها اجتذبتها دفق من اللون الأصفر الجذاب في البعيد. كان ذلك قرب جسر صغير يمتد فوق خط السكة الحديدية في بقعة تنتهي عندها الأشجار العارية السامقة التي تأخذ بأكتاف الطريق، على الرغم من أنها كانت تبدو مصطفة إلى ما لا نهاية. وهكذا، للممت أطراف ثيابها، وشرعت في الانطلاق، عبر منحدر لطيف الميل، باتجاه هذه البقعة المغايرة لما حولها.

وتبين أن المنطقة القريبة من الجسر قد زينت بآنية زهور تحتوي أزهار أقحوان منتشرة، وحشد عدد كبير منها، كيفما اتفق، في حمى شجرة حور انتصبت إلى جوار الطريق المفضي إلى الجسر. وعلى الرغم من أن الجسر كان يؤدي مهمته كحجر علوي فقد كان هيكلاً بسيطاً مصنوعاً من الخشب وبدا أنه لا يتجاور في حجمه مرتفعاً يصل بين قمتين، وتدلت بعض الألحفة المزخرفة بألوان متقابلة في الهواء من سياجه، وهي تمتص الشمس، وتشقى متأرجحة مع النسيم. وفي فناء دار قريبة علقت مناشف لتجف في الشمس، وتدلى قماش أحمر طويل مثبت بالمشابك. كانت أشجار

البرسيمون لا تزال تتمتع ببريق يحاكي وهجاً يلمع في الشمس الغاربة . ولم
يبد أحد في المكان بأسره .

لمحت بعيداً على الطريق ، مشهد السقفين المتأرجحين الأسودين لعربتي
الريكشو وهما تقبلان باتجاههما ، فسارعت عائدة إلى المحطة لتبلغ ساتوكو .
ولأن الطقس كان جميلاً للغاية ؛ فقد جعلت الرجلين ينزلان غطاءي
عربتي الريكشو . خلفتا البلدة وخاناتها الثلاثة وراءهما ، وانطلقتا راحلتين ،
لبعض الوقت ، على امتداد الطريق ، الذي تحف به حقول الأرز . ولو أن
المرء أمعن النظر في الجبال لتبدى له معبد جيشو ، في قلبها .

وعلى مبعده ، حُفَّت بالطريق أشجار البرسيمون ، التي أثقلت الثمار
أغصانها ، على الرغم من تجردها على وجه التقريب من الأوراق . وبدت
حقول الأرز متألقة كلها ، وقد امتلأت أرجاؤها بمتاهة لا نهاية لها من الحزم
الآخذة في الجفاف .

مضت النبيلة أياكورا ، التي تستقل العربة الأولى ، تلتفت من حين لآخر
لتطل على ابنتها . وكانت ساتوكو قد طوت شالها ، ووضعته على حجرها .
وعندما رأت أمها أنها تتطلع حولها ، كأنها تستمتع بمعالم الطبيعة ، أحست
بالارتياح .

فيما أحترق الطريق الجبال ، تراجعت السرعة التي ينطلق بها رجلا عربتي
الريكشو ؛ فقد كان كلاهما كهلين ، وبدا واضحاً أن أقدامهما ليست كعهدهما
من الشدة والبأس . غير أنه لم يكن هناك ما يدعوا إلى العجلة ، وحدثت
النبيلة نفسها بأن الأمر على العكس من ذلك تماماً ، فمن حسن طالعها
وساتوكو أن تتمكن من الاستمتاع بهذا التأمل على مهل للريف .

دنا من البوابة الحجرية الخارجية لمعبد جيشو ، وما أن عبرتها حتى
اقتصرت المعالم الطبيعية على الطريق الخفيف الانحدار ذاته ، ومدى عريض

من السماء الشاحبة الزرقة التي يحجب جانباً منها النجيل الأبيض الأطراف
على امتداد الطريق، ونطاق خفيض من الجبال الممتدة في البعيد.

أخيراً، توقف رجلا عربي الريكشو لينالا قسطاً من الراحة، وفيما راحا
يتبادلان الحديث، ويحفظان عرقها، رفعت النبيلة صوتها ليعلو على صوتيهما
ونادت هاتفة بساتوكو.

- خير لك أن تستمتعي إلى أقصى حد بالمشاهد الطبيعية الممتدة من هنا
حتى الدير؛ فالناس من أمثالي بمقدورهم المجيء في أي وقت إلى هنا،
لكنك سرعان ما ستكونين في وضع لن تتمكني معه من الخروج للتنزه
بسهولة.

لم ترد عليها ابتها، وإنما ابتسمت ابتسامة بطيئة، وأومات برأسها إيماءة
خفيفة.

تحركت عربتا الريكشو من جديد، وإستمر الطريق في التصاعد، الأمر
الذي قلل من سرعة الانطلاق على نحو أكبر. غير أنهم بعد أن دخلوا
أراضي الدير أصبحت الأشجار أكثر كثافة على جانبي الطريق، الأمر الذي
خفف من وقر حرارة الشمس.

راحت تتردد في مسامع النبيلة أصداء طنين الحشرات في الأصيل
الخريفي الذي كانت تصغي إليه فيما رجلا الريكشو يلتقطان أنفاسهما خلال
توقفهما للاستراحة. ولكن عندئذ لفتت نظرها أشجار البرسيمون التي
شرعت في الظهور على الجانب الأيسر من الطريق فأبهجتها بثمارها الصافية
المتوهجة. تألق بعض ثمار البرسيمون الذي ناءت به الأغصان، متوهجاً في
سنا الشمس وألقى بظلال تشبه طلاء اللك على البعض الآخر. بدت
إحدى الأشجار ثرية بثمرة برتقالية اللون، كانت على العكس من الزهور
تقاوم الريح، فما تنحرك إلا الأوراق الجافة وحدها. هكذا تجلت كتلة

نارها الناضجة في مواجهة السماء كأنما ثبتت بقوة في مواجهة حقل من الزرقة.

- لست أرى أية أوراق قيقب على الإطلاق. لست أدري السر في هذا!
هتفت بساتوكو، صارخة تقريباً، من جراء الجهد الذي بذلته، ولكنها لم تحظ بأي رد.

حتى أشجار القيقب الخفيفة كانت نادرة على إمتداد الطريق. ولم يكن هناك ما يجتذب النظر الآن إلا خضرة الحقول المزروعة بالفجل إلى اليسار وأجمات الخيزران إلى الشرق. اكتست حقول الفجل بأوراق كثيفة تخللها سنا الشمس في نماذج معقدة من الأشكال على نحو مراوغ، ثم أفسحت هذه الحقول المجال لصف من شجيرات الشاي، يفصلها مستنقع عن الطريق، غطت أجما من المجفولية الحمراء حاجز شجيرات الشاي هذا، وفيما وراءها لاحت المياه الساكنة لمستنقع أكبر. وغير بعيد من هذه البقعة أظلم الطريق فجأة، فيما عربتا الريكشو تمران في رحاب ظل أشجار أرز عتيقة. انسربت الشمس أسفل هذه الأشجار في صورة بقاع من الضوء على النجيل تحت الأشجار، وتآلق غصن طويل معزول بزخم منفرد.

أحست النيلة أياكورا بلذعة برد مفاجئة في الهواء، فالتفتت مجدداً وراءها، وقلدت في صمت حركات إسدال الشال على كتفيها. وعلى الرغم من أنها لم تحرؤ على أن تعقد الآمال على استجابة من ابتها، إلا أنها عندما التفتت إلى الورا بعد لحظات قلائل لمحت بطرف عينيها الألوان المتألقة بشال ساتوكو وهي ترفرف مع النسيم. وكان بمقدور النيلة على الرغم من أن ابتها لا تزال تميل إلى عدم الحديث أن تعزي نفسها على الأقل بأنها تطيعها.

ما إن اجتازت عربتا الريكشو بوابة مطلية باللون الأسود، حتى اتخذت

معالم الطبيعة حولها الطابع الأكثر رسمية الخاص بحديقة، على ما يمكن توقعه من المناطق المحيطة مباشرة بالدير. بوغت النبيلة أياكورا بأوراق القيقب التي كانت أول أوراق تلمحها على امتداد الطريق، فلهثت من فرط الإعجاب.

لم يكن هناك شيء جذاب على نحو مبهرج في ألوان أشجار القيقب هذه هنا، داخل البوابة السوداء، فقد كان لونها الأرجواني القاتم ظلاً يمتزج في أعماق الجبال، وهو لون بدا أنه يتحدث إلى النبيلة عن خطايا لم يتم تطهيرها بعد. فجأة، أحست بجو بارد من القلق يحز أعماقها، وفكرت في ساتوكو الجالسة في عربة الريكشو خلفها.

لم يكن نطاق أشجار الصنوبر والأرز الرشيق، الذي شكّل خلفية لأشجار القيقب من الضخامة بحيث يحجب الامتداد العريض المشرق من السماء. غمرهم تألقها، منداحاً على أشجار القيقب من خلفها، ومحولاً أغصانها الممتدة، ذات الأوراق الحمراء، إلى سحب متناثرة غارقة في وهج الشمس. وفيما هي تتطلع عالياً نحو الشمس من تحت الأغصان، أخذها الإعجاب بالنحو الرقيق في مراوغته، الذي تداخلت به الأوراق، تخيلت أنها ترى عينين، من خلال اندياح من الأرجوان القاتم.

أخيراً، توقفت عربتا الريكشو، وترجلت النبيلة وساتوكو، أمام بوابة توشي بمعمار عهد التانج، امتد وراءها طريق ممهد بالأحجار، ولاح المدخل الرئيسي لدير جيشو.

كان عام كامل قد انقضى، منذ حيت ساتوكو وأمها رئيسة الدير لآخر مرة، بمناسبة زيارتها لطوكيو. والآن، وفيما هما تنتظران في قاعة استقبال فسيحة، أكدت لها الراهبة الأقدم أن رئيسة الدير قد ابتهجت بنياً هذه الزيارة. وكانت لا تزال تتحدث عندما أقبلت رئيسة الدير ذاتها، وقد أمسكت صغرى الراهبات بيدها.

بعد أن أبلغتها النبيلة أياكورا بنياً خطبة ساتوكو، هناها قائلة:
- في المرة المقبلة التي تتكرمان فيها بتشريفنا بزيارة، فلن يكون من المناسب إلا أن تنزلا في الجناح الخاص.

وكان الجناح الخاص دارة تقع في أراضي الدير، خصصت لأعضاء العائلة الإمبراطورية.

الآن، وقد أصبحت ساتوكوها هنا في جيشو، لم يعد بمقدورها مواصلة الصمت، وقد بادرت بالرد، وإن يكن في إيجاز، لدى مخاطبة الآخرين لها. وربما حمل تحفظها على محمل الحياء. ولما كانت رئيسة الدير امرأة على جانب كبير من الفطنة والكياسة، فلإنها لم تشر إلى أنها لاحظت شيئاً غير عادي.

قالت رئيسة الدير، رداً على إشارة النبيلة المستفيضة بزهور الأقحوان الموضوعة في الآنية التي صفت في الفناء:

- هناك رجل في القرية يزرعها وهو يجلب بعضاً منها كل عام، ويحدثنا عنها حديثاً مستفيضاً.

ثم جعلت الكاهنة الأقدم تكرر إيضاحات ذلك الرجل المتحمس لزهرة الأقحوان فتلك زهرة أقحوان قرمزية أحادية الطية، غرست بحيث تزهو في شكل خطوط متوازية، وتلك زهرة أقحوان صفراء أنبوبية الشكل، غرست بالطريقة ذاتها، وهلمجرا. وأخيراً تفضلت رئيسة الدير نفسها بالمضي بساتوكو وأمها إلى قاعة الاستقبال الداخلية.

- يبدو أن أشجار قيقبنا قد تأخرت هذا العام في تبديل لونها.

قالتا بعد أن جذبت الكاهنة الأقدم الباب المنزلق ففتحته ليكشف عن جمال الحديقة الداخلية، بجبالها المقلدة ونجيلها الذي راح الآن يذوي. وقد احتوت العديد من أشجار القيقب الهائلة التي توجت باللون الأحمر، ولكن فيما يتطلع المرء إلى الأغصان السفلى فإنه يجد أنها تشعب مستحيلة إلى لون برتقالي يفسح الطريق إلى لون أصفر يمتزج في نهاية المطاف بالأخضر الفاتح. كان اللون الأحمر عند القمة ذاتها قائماً مكتسباً نوعية توحى بالدم المتجلط، وقد بدأت الساسنكوا تبرعم بالفعل، وفي أحد أركان الحديقة أضاف الانحناء اللين لفرع جاف من شجيرة اللاجرستمية الهندية لمسة جميلة من التآلق.

عدن إلى البهو الخارجي، وفيما كانت نياقتها والنبيلة أياكورا منهمكتين في حوار حافل بالمجاملة، أوشك اليوم الحريفي القصير على الانتهاء.

كان العشاء مادية حافلة، أكتملت بالأرز والفاصوليا الحمراء، التي لا تقدم إلا في أيام العطلات، وبذلت الكاهنتان قصارى جهدهما لبعث الحرارة في اللقاء، ولكنه بدا أنه ما من شيء يمكن أن يجعل المناخ النفسي الذي خيم على الأمسية أكثر انشراحاً.

- هذا هو يوم إضرام النار داخل القصر الإمبراطوري.

قالتا رئيسة الدير. كان إضرام النار من العادات المتبعة في البلاط،

وتدور حول إذكاء لهب هائل في «هيباتشي» بينما تقف إحدى سيدات البلاط أمامه مرددة رقية . وقد أنشدت الراهبة الأقدم ، التي شهدت هذا الاحتفال خلال سنوات خدمتها في القصر ، الرقية من الذاكرة .

كان ذلك الحفل التقليدي من الطقوس التي تؤدي في حضور الامبراطور في الثامن عشر من نوفمبر . وبعد اندلاع اللهب في الهيباتشي ، وارتفاعه حتى السقف ، على وجه التقريب ، تبدأ إحدى سيدات البلاط ، وهي ترفل في ثياب بيضاء احتفالية ، في ترتيل الكلمات : «عالياً عالياً» دع اللهب المقدس يتأجج ! إن كانت ثمار اليوسفي وحلوى المانجو هذه تحظى برضاك . . . » ، ثم تدس ثمار اليوسفي وحلوى الزلايبية في النار ، وتسخن ، وتقدم للإمبراطور .

يمكن للمرء أن يحس بأن قيام الراهبة بإعادة تمثيل مثل هذا الطقس الوقور يوشك أن يبلغ حدود التدنيس والانتهاك ، ولكن رئيسة الدير أدركت أن الهدف الوحيد ، الذي رمت إليه العجوز ، هو تقديم لون من ألوان المرح ، الذي تمس الحاجة إليه بشدة ، فلم تفه بكلمة لوم واحدة .

أقبل الليل مبكراً في جيشو . وبحلول الساعة الخامسة مساءً ، كانت البوابة الأمامية قد أوصدت بالفعل . وبعد وقت قصير من تناول طعام العشاء عادت الكاهنات إلى مهاجعهن ، وتم اصطحاب النبيلة أياكورا وابنتها إلى غرفتهما . وكان من المقرر أن تمكثا حتى أصيل اليوم التالي ، الأمر الذي يتيح الوقت لوداع على مهل ، ثم تستقلا قطاراً ليلياً في تلك الليلة إلى طوكيو .

كانت النبيلة قد اعتزمت لوم ساتوكو لدى انفرادهما في غرفتهما لتركها حزنها يؤثر على تهذيبها خلال اليوم . ولكنها بعد بعض التأمل في حالتها الذهنية إثر تجربة أوساكا ، قررت الإحجام عن ذلك ، ودلقت إلى الفراش ، دون توجيه كلمة إلى ابنتها .

حتى في ظلام الليل المدهم، بدا الورق، الذي يكسو الباب المنزلق، أبيض ومتراً بروح الحداد بلا هودة، في جناح الضيوف في جيشو. لاح الأمر كما لو أن الهواء المتجمد في ليل نوفمبر البارد قد اخترق بشرة الورق الرفيعة. كان بمقدور النيلة أن تميز في سر بين عناصر زخرفة الورق، المؤلفة من زهور الأقحوان ذات البتلات الست عشرة والسحب البيضاء، ومقابض الباب. عالياً، باتجاه السقف الذي حفته الظلمة، تجمعت حليات معمارية معدنية على شكل زهور تتألف من ست زهور أقحوان ملتفة حول براعم الكيكيو التي كانت غطاء مقنعاً للأوتاد، ترقش الظلمة المحيطة بها. في الخارج، سكنت الريح تماماً، دون أدنى صوت يتناهى للأسماع ولا حتى صوت النسيم، إذ يتخلل أشجار الصنوبر. ومع ذلك، فقد كان المرء يدرك إمتداد الغابة والجبل.

عمّ النيلة شعور بالارتياح؛ فأياً كان الثمن كانت هي وإبتها قد اضطلعتا بالواجب المؤلم الذي قدر لهما، والآن، أحست بأن الهدوء والسكون سيعلمان كل شيء. وهكذا، على الرغم من إدراكها أن إبتها تضطرب وتقلب في نومها، إلى جوارها، فإنها سرعان ما غفت.

عندما فتحت عينيها، لم تكن ساتوكو إلى جوارها. مدت يدها في ظلمة ما قبل الفجر، فبلغت منامة إبتها وقد طويت بعناية فوق الغطاء. احترمها شعور بالقلق، ولكنها حدثت نفسها بأن ساتوكو قد مضت إلى الحمام فحسب، فقررت ألا تحير حراكاً لعدة دقائق. ولكن على الرغم من أنها حاولت الانتظار، فقد ضاق صدرها ببرودة كثيفة، ونهضت للتحقق من الأمر. كان الحمام خاوياً. ولم يكن ثمة أثر لأحد آخر. الآن، شابت السماء زرقة مترددة بين الإقدام والإحجام.

عندئذ، سمعت صوت حركة تنهى من المطبخ. وبعد لحظات،

ركعت عند قدميها خادم استيقظت مبكرة وأفزعها ظهور النيلة المفاجيء .

- هل رأيت ساتوكو؟

سألتهما، لكن الخادم تملكها الفزع، وما كان بمقدورها إلا أن تهز رأسها نافية، في ارتباك، كما أنها لم تتحرك مقدار بوصة واحدة للمساعدة في البحث.

غير أنه عقب ذلك، وفيما كانت النيلة تذرع دهليز الدير، في يأس لا طائل وراءه، تصادف أن التقت بالكاهنة الأصغر. وقد روعت الراهبة لسماع أخبارها، وشرعت في الحال ترشدها في بحثها.

في الطرف الأقصى من دهليز فرعي، لاح وهج الشموع المتقدمة من القاعة الرئيسية للصلاة. لم يكن من المحتمل أن راهبة يمكن أن تنهمك في صلواتها، في تلك الساعة من الصباح.

كانت شمعتان متقدتان تحيط بهما زخرفة، تجمع بين شكلي الزهرة والعجلة تنيران أيقونة بوذا، التي جثت ساتوكو تحتها. لم تتعرف النيلة ابنتها عندما رأتها من الخلف، للحظات قصار؛ ذلك أن ساتوكو قد قصت شعرها، فغدا قصيراً، ووضعت الجداول المجزوزة على منصة النصوص المقدسة، كأنها مقدمة، وأمسكت بمسبحة في يدها وانغمست في الصلاة.

تمثل رد الفعل الأول، من جانب أمها، في الشعور بالارتياح لعثورها على ابنتها على قيد الحياة، وعندئذ أدركت أنها كانت حتى تلك اللحظة على يقين من أن ساتوكو قد ماتت.

صاحت، وهي تعانقها:

- لقد قصصت شعرك!

- نعم، يا أمها، ليس هناك ما يمكن القيام به غير ذلك.

ردت ساتوكو، أخيراً، وهي تحدق في عيني أمها مباشرة. تألقت السنة لهب الشموع الصغيرة المتراقصة في بؤبؤها، ولكن بياض عينيها كان يحمل بالفعل ألق الفجر. لم يسبق للنيلة أن رأت بزوغ فجر خيف للغاية، كالذي رآته الآن في نظرة ابتها. والتمع الألق الأبيض نفسه، متزايداً في جبروته كل لحظة في كل حبة من حبات المسبحة الملتفة حول أصابعها. وشأن قوة إرادة يصل بها زخم القوة إلى حد تجاوز مجرد الإرادة، بدا أن نور الفجر يتدفق بقوة معادلة من كل بلورة من البلورات الباردة.

مضت الكاهنة الأصغر لتحمل النبا إلى الكاهنة الأقدم، ويعد أن قامت بذلك، انسحبت تاركة لهذه الأخيرة أن تمضي بالنيلة أياكورا وابتها إلى رئيسة الدير.

نادت، من خارج باب غرفة رئيسة الدير:

- هل أستيقظتم نيافتكم؟

- نعم.

- أرجو أن تغتفروا لنا إزعاجكم!

ثم أزاحت الكاهنة الباب، لتبدو رئيسة الدير، وقد اقتعدت حشيتها المغطاة بالألحفة. شرعت النيلة في الحديث متعثرة:

- ما حدث، نيافتكم، هو أن ساتوكو قصّت الآن توأ شعرها، في قاعة الصلاة.

حدقت رئيسة الدير باتجاه الدهليز، فيما عيناها تستوعبان التغير الذي أحدثته ساتوكو في نفسها. لكن ملاحظتها لم تنم عن أدنى أثر للدهشة.

- طيب، طيب. كنت أتساءل عما إذا لم تكن الأمور بسبيلها إلى التحول على هذا النحو.

قالت رئيسة الدير. وبعد فترة صمت، وكأنما خطر لها خاطر جديد، مضت قائلة بما أن الظروف تبدو متدخلة للغاية في الأمر، فلإنها تعتقد أن

من الأفضل أن تتكرم النبيلة بترك ابتها وحدها معها لتمكنا معاً من تبادل حديث، من القلب إلى القلب. فأذعنت النبيلة والكاهنة الأقدم، وانسحبتا.

بذلت الكاهنة، التي تركت وحدها مع النبيلة أياكورا، قصارى ما في وسعها للتسرية عنها، ولكن النبيلة كانت مضطربة للغاية، حتى عجزت عن تناول لقمة واحدة من طعام الإفطار. وكان بمقدور الكاهنة تصور شعورها بالأسى. وعجزت عن التوصل إلى موضوع للحوار قد يجتذبها. انقضى وقت طويل، قبل أن ترسل رئيسة الدير في طلبها. وهناك، في غرفة رئيسة الدير، وبحضور ساتوكو، أبلغت رئيسة الدير النبيلة أياكورا بنسب صاعق الدلالة: بما أنه ليس هناك موضع للخطأ في أصالة رغبة ساتوكو في هجران العالم، فإن معبد جيشو سيستقبلها باعتبارها كاهنة مستجدة.

طوال معظم الصباح، وحتى الآن، استغرق ذهن النبيلة تماماً في تصور العديد من الإجراءات البديلة. لم يكن لديها شك في أن قرارا ساتوكو كان قراراً حازماً؛ ومن ثم فإن الأمر سوف يقتضي بعض الأشهر أو حتى نصف عام لكي يعود شعر ابتها إلى ما كان عليه، ولكن لو أنه أمكن فحسب إقناعها بعدم البدء بإجراءات دخول سلك الكهنوت، وأولها إزالة شعر الرأس كلية، فإن هذه الأشهر يمكن تبريرها باعتبارها فترة نقاهة من مرض ألم بها خلال الرحلة. وهكذا يمكن لآل أياكورا الحصول على تأجيل لحفل الخطبة، وعندئذ يمكن لقوى الإقناع التي يتمتع بها أبوها والأمير ماتسوجاي أن تؤقأكلها، فيما يتعلق بالتأثير عليها في غضون ذلك، وربما يمكن دفعها إلى تغيير رأيها.

والآن، وهي تستمع إلى كلمات رئيسة الدير، فإن عزمها الذي كان أبعد ما يكون عن التخاذل قد أصبح أشد مضاء. كان الإجراء المعتاد عندما يجري قبول كاهنة جديدة أن تمر بعام من الانضباط التنسكي، قبل أن

يتخذ إجراء جز شعرها بكامله في حفل الانضمام الرسمي . وأياً كان الأمر، فإن إعادة شعر ساتوكو، الذي أصابه ما أصابه إلى حالته الأولى، أمر له الأولوية القصوى. ثم في حالة ما إذا أمكن إقناعها بسرعة معقولة بالتخلي عن عزمها على دخول سلك الكهنوت... أفعم ذهن النبيلة بالأحاييل العجيبة. ولو أن الأحداث اتخذت مساراً مواتياً، فربما أمكن أن تجتاز ساتوكو حفل الخطبة بأمان، بمساعدة شعر مستعار معدّ بعناية بالغة.

وصلت النبيلة أياكورا إلى قرارها: في الوقت الراهن، فإن السبيل الوحيد أمامها هو ترك ساتوكو هنا والعودة إلى طوكيو بأسرع ما يمكن؛ لوضع خطة للتحرك.

قالت، رداً على رئيسة الدير:

- إنني أقدر المشاعر التي أعربتم عنها نيافتكم. غير أن هذا الأمر لم يحدث فجأة في غضون رحلة، وإنما هو كذلك أمر يتضمن إقلاقاً للعائلة الإمبراطورية؛ ومن هنا فإنني أعتقد أنه من الأفضل أن أستاذنكم في العودة مؤقتاً إلى طوكيو، لمشاورة زوجي، قبل العودة إلى هنا. وفي غضون ذلك، سأعهد بساتوكو إلى عنايتكم.

أصغت ساتوكو إلى أمها، دون أن تند عنها نامة. الآن، أحست النبيلة أياكورا بالخوف، حتى من الحديث مع ابنتها.

عندما علم النبيل أياكورا بهذا التطور المدهش، لدى عودة زوجته، ترك أسبوعاً بكامله يمضي دون القيام بأي شيء على الإطلاق، وهو تسويف قُدِّر له أن يثير سخط الأمير ماتسوجاي.

قبح آل ماتسوجاي آمين في سربهم، مفترضين أن ساتوكو قد عادت بالفعل إلى طوكيو، وأن إخطاراً مناسباً بهذا قد نقل إلى عائلة الأمير توين. وكان خطأ في التقدير من هذا النوع مما لا يتفق مع الأمير ماتسوجاي. ولكن عندما عادت زوجته من أوساكا، وأبلغته بأن تخطيطه المهرق قد نفذ حرفياً، غلب الرضا عن النفس على كل شيء، وأحس بالتيقن من الخاتمة الناجمة للأمر برمته.

تواصل تجريد النبيل أياكورا؛ فقد كان يعتقد أن العقلية المتسمة بالخلافة وحدها هي التي يمكن أن تقر باستحالة وقوع كارثة، ويحس بأن الاستمتاع بأوقات القيلولة أكثر فائدة من مواجهة الكوارث. ومهما كان المستقبل يبدو مفضياً إلى هاوية، فقد تعلم من لعبة الكياري أنه لا بد للكرة من أن تسقط من جديد. لم يكن هنا ما يدعو للتوتر والاضطراب. فالحزن والحنق، جنباً إلى جنب مع الاندلاعات الأخرى للعاطفة، لا تعدو أن تكون أخطاء يرتكبها، في سر، العقل الذي يفتقر إلى الحساسية والصفاء. ومن المؤكد أن النبيل أياكورا ما كان بالرجل الذي يفتقر إلى الحساسية والصفاء.

دع الأمور تجري في أعتها! لشد ما هو أفضل أن تتقبل السقوط العذب

لقطرة العسل التي هي الزمن عن أن تنحني للغوغائية الكامنة في كل قرار. ومهما كانت خطورة الأمر المطروح، فإن المرء إذا ما أهمله وقتاً طويلاً بما فيه الكفاية، فإن فعل الإهمال نفسه سيبدأ في التأثير في الموقف، وسيبرز شخص آخر باعتباره حليفاً. تلك كانت صياغة النبيل أياكورا للنظرية السياسية.

ما إن عادت النبيلة إلى كنف مثل هذا الزوج، حتى أصبحت. بصورة يومية، أقل اكتراثاً بالقلق الذي اعترها في جيشو. وفي الظروف الراهنة، فمن حسن الطالع أن تاديشينا بعيدة وعاجزة عن التحرك، في عماء، تحت تأثير إحدى اندفاعاتها الرعناء؛ فقد كان النبيل من رقة الحاشية بحيث أرسلها لتقضي فترة نقاهة في منطقة الينابيع الحارة في يوجاوارا.

غير أنه بعد أسبوع، جاءت مكالمات هاتفية من الأمير ماتسوجاي، ولم يعد حتى بمقدور النبيل أياكورا أن يبقى الأمر طي الكتمان. صعد الأمير عندما أبلغه النبيل بأن ساتوكو، في حقيقة الأمر، لم تعد، واستشعر تقلقل كافة أنواع الهواجس الكريمة.

لم يهدر الأمير وزوجته وقتاً في القيام بزيارة إلى آل أياكورا. وفي البداية، طرح النبيل رداً غامضاً بعد الآخر، فيما جرى التدقيق معه، عبر فيض من الأسئلة. ثم عندما ظهرت الحقيقة، أخيراً، بلغ الحق من الأمير حداً لطم معه المنضدة الموضوعة أمامه بقبضته.

وعلى هذا النحو، حدث أن هذه القاعة، التي تمتد عبر عشر حصر، والتي أعيد تصميمها على نحو مرتبك، لتصبح، الغرفة الوحيدة الغربية الطراز في الدارة، أصبحت ساحة لأول مناسبة، في معرفتها الممتدة، واجه الاثنان فيها أحدهما الآخر وقد تجردا من كل المجاملات. أشاحت المرأتان بعيداً، وراحتا، بين الفينة والأخرى، تحتلسان النظر كل إلى زوجها. وعلى الرغم من أن الرجلين واجه أحدهما الآخر، فإن النبيل أياكورا كان

يميل إلى تنكيس رأسه . وكانت يدها، المستندتان إلى المائدة، صغيرتين وبيضاوين، كأنهما يدا عروس، في مسرحية للعرائس . وبالمقابل، ورغم ضعف الأمير الجوهري، فإن ملامحه الخشنة المتوردة كان يمكن أن تكون قناعاً من الأتعة المستخدمة في مسرح النو^(١)، من قبل شيطان غاضب، بحاجبين مقطبين على نحو ضار . وحتى في عين الزوجتين لم تكن أمام النبيل فرصة للتفوق .

اكسح غضب الأمير كل شيء أمامه، لبعض الوقت . ولكن حتى وهو يطلق لسخطه العنان، بدأ في الشعور بقليل من الحرج إزاء إفصاحه هذا عن اعتقاده بأنه هو الوحيد الذي يلزمه الصواب؛ ذلك أنه في نهاية المطاف كان وضعه في أمان، من البداية إلى النهاية، في هذا الأمر . فضلاً عن ذلك، ما كان يمكن وضعه موضع المواجهة مع خصم أكثر ضعفاً ولا إثارة الإشفاق من الخصم الذي يواجهه الآن . كان لون النبيل يوحي بالمرض . وفيما جلس هنالك، ملتزماً الصمت، ارتسم على وجهه تعبير يجمع بين الأسى والاستياء، فيما بدا عياه وكأنه نُحت من عاج أصفر، حددت الملامح على نحو رقيق وشكلت بصورة متماسكة . أكدت الجفون المجعدة الانكسار للعينين المنكستين عادة، وكذلك الكآبة التي تلفها . ساور الأمير ماتسوجاي شعور، سبق له أن راوده من قبل، بأنهما عينا امرأة .

(١) مسرح النو: أرقى أشكال المسرح التقليدي الياباني وأقدمها، على الإطلاق، ويرجع تكامله إلى اندراج الطقوس والرقصات الدينية القديمة تدريجياً في أطر درامية مؤسسية، راقية، ووصل هذا التطور إلى مرحلة التكامل الحقيقي في أواخر القرن الرابع عشر، على يد عملاق هذا المسرح، وهما كانامي وزيامي . ونلاحظ أن بعض كتاب المسرح اليابانيين المحدثين حاولوا استغلال هذا المسرح التقليدي؛ لإبداع أعمال مسرحية، تستلهم تراثه القديم . ولعل أبرز هذه المسرحيات هي ما يضمه كتاب «خمس مسرحيات نوحديثة» لميشيها نفسه .

(هـ.م.)

أفصح تكتم النبيل أياكورا الفاتر، وطريقته في الاسترخاء في مقعده، بوضوح، عن التآلق الرشيق لتقاليد عريقة - وهي شيء لا وجود له في أصول الأمير ماتسوجاي - تبدت الآن في أوضح صورها، وقد أصابها جرح عميق. كان لها جانب مما يصيب القوادم الملوثة لطائر نافق، مخلوق كان يصرخ على نحو جميل يوماً، ولكن لحمه لا طعم له؛ وبالتالي فهو ليس مما يؤكل.

- أمر لا يصدق! أمر ما أتعس أن يقع. أي اعتذارات يمكن أن تقدم إلى الإمبراطور وإلى الأمة بأسرها؟

مضى الأمير يتحدث، على نحو خطابي، بلا اكتراث، وقد عقد العزم على أن يدع غضبه ينسرب، في دفق من المقاطع الطنانة، ولكن مع إدراك أن خط دعمه قد ينقطع في أية لحظة. لم تكن للغضب جدوى، في مواجهة النبيل أياكورا، الذي لم يكن على معرفة بالمنطق، ولا يميل من بعيد للانطلاق في أي مسار للتحرك. والأمر الأسوأ من ذلك هو أن الأمير قد أدرك أنه كلما ازداد غضباً تفاقم انقلاب قوة انفعاله بلا هوادة على ذاتها.

لم يستطع تصديق أن النبيل قد تأمر للوصول إلى هذه النتيجة، من البداية ذاتها. ولكنه مع ذلك رأى بوضوح مؤلم أن النبيل قد استطاع استخدام كسله المتوطن لطرح موقف على هذا النحو من الارتفاع فوق النقد، بحيث أنه مهما كانت جسامه الكارثة، فإن المسؤولية عنها لن تلقى على كاهله وإنما على كاهل حليفه.

في نهاية المطاف، كان الأمير هو الذي طلب من النبيل أن يربي ابنه تربية تكفل له أن يتشرب بالحساسية. ولا شك في أن رغبات البدن عند كيواكي هي التي جلبت هذه المحنة، وبوسع المرء أن يذهب إلى القول بأن هذا كان نتيجة للسلم المراوغ، الذي بدأ في نقل عدواه إلى روحه، بعد وصوله إلى دار آل أياكورا، وهو لا يزال طفلاً. ولكن المحرض المطلق على هذا لم يكن

إلا الأمير نفسه . وإضافة إلى ذلك ، ففي هذا المنعطف الأخير من الأزمة ، كان الأمير هو الذي أصرَّ على إرسال ساتوكو إلى أوساكا ، دون تبصر لإمكانية وقوع شيء من هذا القبيل . هكذا ، فقد تأمر كل شيء لكي يكفل إنقلاب قوة غضب الأمير عليه هو نفسه .

وفي النهاية ، أمسك الأمير عليه لسانه ، بعد أن أخذت منه جهوده كل مأخذ ، ونال قلقه المتفاقم من أعصابه . امتد الصمت ، الذي أعقب ذلك ، وازداد عمقاً ، حتى بدا أن أربعتهم قد اجتمعوا في هذه القاعة لممارسة التأمل الجماعي . تناهت قوافة الدجاج ، المعتادة في الظهيرة ، من الفناء الخلفي للدار . وفي كل مرة هبت فيها رياح صدر الشتاء عبر الأشجار في الخارج ، مضت تتألق أطراف أشجار الصنوبر ، التي حركتها الريح ، لدى أدنى لمسة منها . لم يند صوت عن أية حركة بشرية من أي مكان آخر في الدار . وبدا أن الصمت يساير المناخ الرهيب ، الذي ساد قاعة الاستقبال .

وإذن ، فقد أطاحت النبيلة أياكورا بالرقية السحرية .

- لقد كان إهمالي هو الذي تسبب في هذا . وما من سبيل أمامي لكي أعتذر بما يكفي لك ، أيها الأمير ماتسوجاي ، ولكن في ضوء الوضع الراهن للأمور ، أليس من الأفضل أن نحاول جعل ساتوكو تغير رأيها في أقرب وقت ممكن ، ونجعل حفل الخطبة يقام على نحو ما هو مخطط له ؟

دمدم الأمير ، على الفور :

- ولكن ماذا عن شعرها ؟

- طيب ، فيما يتعلق بذلك ، إذا سارعنا ، ورتبنا صنع شعر مستعار ، فسوف يضلل ذلك عين الكافة لبعض الوقت . . .

هتف الأمير دهشاً ، مقاطعاً النبيلة ، قبل أن تنهي حديثها ، وقد وشى صوته بتهذج الابتهاج :

- شعر مستعاراً! لم أفكر في ذلك قط.

قالت زوجته مقاطعة في الحال:

- نعم، بالطبع، لم نفكر في ذلك قط.

ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، وفيما انتقلت عدوى حماس الأمير إلى الأخرى، أصبح الشعر المستعار هو كل ما يمكنهم الحديث عنه. وللمرة الأولى تردد الضحك في القاعة، فيما أربعتهم يتنافسون في الانقضااض أولاً على هذه الفكرة النيرة، كأنما هي شريحة لحم.

غير أنهم لم يتساووا في درجة إيمانهم بفكرة النبيلة الجديدة. فلم يكن النبيل، من ناحيته، يثق بمدى فعاليتها، ولربما شاركه الأمير في نزعة تشككه هذه، ولكنه كان قادراً على ادعاء الإيمان بالفكرة بمزيد من الكبرياء. وقد سارع النبيل إلى الاستفادة من المثل الذي ضربه له.

قال الأمير، وقد خفض صوته إلى مستوى الهمس المغتصب، فيما هو منخرط في الضحك:

- وحتى إذا تشكك الأمير الشاب في أمر شعر ساتوكو قليلاً، فمن المؤكد أنه لن يمسه ليتحقق من الأمر بنفسه.

تخلل الغرفة مناخ من المودة، بغض النظر عن هشاشة الفكرة الخيالية التي يستند إليها، ذلك أن هذه الفكرة أمدتهم بعنصر ملموس بالغ الأهمية في هذه اللحظة. لم يضع أحد موضع الاعتبار روح ساتوكو، فقد كان شعرها وحده هو الذي يرتبط بالصالح القومي.

كان والد الأمير قد كرّس كل قوته وعواطفه الضارية لقضية الإصلاح الإمبراطوري. وكان من شأن جرح مشاعره أن يكون مريعاً، لو أنه علم أن المجد الذي جلبه لاسم عائلته سيعتمد، ذات يوم، على شعر مستعار لامرأة. ولم يكن هذا النوع من المناورة المركبة والغامضة هو مكن القوة

عند آل ماتسوجاي، وإنما كان في حقيقة الأمر أكثر اتساقاً مع آل أياكورا. ولكن الأمير الحالي، بدلاً من ترك ألوان الخديعة المحكمة الأعداد لآل أياكورا اقتنن بها، وهكذا اضطر آل ماتسوجاي إلى المشاركة في احتفال عبء لم يالفوه.

وحقيقة الأمر أن هذا الشعر المستعار لم يوجد، حتى ذلك الوقت، إلا في خيالهم، وكان بلا قيمة على الإطلاق في ضوء نوايا ساتوكو. غير أنهم تصوروا أنهم ما إن يضعوها في قلب ذلك الشعر المستعار حتى يتمكنوا من إقامة صرح صورة، لا تشويها شائبة، من جزئيات قطع من لغز، يعتمد على التجميع المزاوغ. هكذا، بدا أن كل شيء يعتمد على الشعر المستعار، وأسلم الأمير نفسه لهذا المشروع بحماس.

ساهم كل من أعضاء الفريق الرباعي في قاعة الاستقبال بكل طاقته في مناقشة الشعر المستعار، الذي لا وجود له. سيتعين على ساتوكو أن تضع شعراً مستعاراً مصففاً في تسريحة طويلة ممتدة، تناسب حفل الخطبة، ولكن بالنسبة للاستخدام اليومي فمن الضروري الاستعانة بشعر مستعار مصفف على الطريقة الغربية. وبما أنه لا يمكن تخمين متى يمكن لنظر أحد أن يقع عليها بدونه فلا بد ألا تخلعه إلا حينما تستحم. وشرع كل منهم يستخدم خياله أو خيالها في تصوير هذا الشعر المستعار الذي قرروا بالفعل أن يتجوها به: غزير، أسحم، أكثر لمعاناً من شعرها الطبيعي. لسوف نتاح لها هذه القوة السيادية على الرغم منها، عظمة تصفيف يشذب فيه الشعر برشاقة، ويتكلل عالياً كأنه التاج، ويشع بفتنه قائمة فوق هذا تطغى على ألن الضحى بشيء من جوهر الليل. وكان كل من الأربعة يدرك حق الإدراك أن تحقيق ذلك لن يكون بالأمر السهل، وأنه تحت هذا الشعر المستعار، الذي لا نظير له، سيكون هناك وجه يتألق بالسعادة، ولكن ما من أحد كان على إستعداد للتركيز طويلاً على هذا الجانب من المشكلة.

- في هذه المرة، سأقدر ذلك أعظم التقدير إذا قمت بنفسك يا سيدي النبيل بالذهاب لتقنع ابنتك بمدى إصرارك على المضي قدماً في الأمر. أما أنت يا سيدتي النبيلة فيؤسفني إصرارك على تحشيم نفسك عناء القيام برحلة ثانية، ولكنني سأرتب قيام زوجتي بمصاحبتك من جديد. وبالطبع، يتعين عليّ بدوري الذهاب، غير أنه. . .

هنا تعثر الأمر، الذي كان حساساً فيما يتعلق بالمظهر، وأضاف قائلاً:

- إذا تعين عليّ الذهاب فإن ذلك قد يجعل الناس يتساءلون؛ ولذا فسوف أبقى هاهنا. وأود إنجاز الرحلة بأسرها في سرية تامة هذه المرة. أما فيما يتعلق بغياب زوجتي، فإن بمقدورنا إشاعة نبأ مرضها. وفي غضون ذلك، هاهنا في طوكيو، دعوني أبحث الأمر وأكلف أشد الصناعات مهارة لإعداد شعر مستعار بديع لنا، دون أن يدري أحد عن الأمر شيئاً. وإذا ما اشتم أحد محرري الأخبار في صحيفة شيئاً، فسوف نكون في موقف لا نحسد عليه. ولكن ما عليكم إلا أن تدعوا تلك المسألة لي!

دهش كيواكي لرؤية أمه تستعد مرة أخرى للقيام برحلة، غير أنها رفضت إبلاغه عن الجهة التي ستنتقل إليها، أو الغرض من رحلتها، مكتفية بالقول إن عليه ألا يذكر شيئاً عنها لأحد من خارج الدار. وقد ساوره شعور بأن شيئاً يدعو للانزعاج قد وقع، وأنه له علاقة بساتوكو. ولكن مع ملازمة يامادا باستمرار له بغرض مراقبته، لم يكن هناك سبيل أمامه لمعرفة المزيد.

عندما بلغ آل أياكورا والأميرة ماتسوجاي معبد جيشو، قوبلوا بوضع مذهل. فقد أقيم الاحتفال لساتوكو بجز شعرها كاملاً كأول خطوة لها على طريق الكهنوت.

كانت الظروف التي أفضت إلى تخليها عن العالم على النحو التالي. عندما سمعت رئيسة الدير بالقصة كاملة من ساتوكو، في ذلك الصباح الأول، علمت، في الحال، بأن عليها أن تسمح للفتاة بأن تصبح كاهنة. كانت تدرك حق الإدراك أن من سيقنها إلى رئاسة دير جيشو كن أميرات من العائلة الإمبراطورية، فأحست بأنها ملزمة بإجلال الإمبراطور فوق الجميع. وهكذا، وصلت إلى قرار بأن عليها السماح لساتوكو بدخول سلك الكاهنات، حتى ولو كان ذلك يعني مجافاة مؤقتة لإرادة الإمبراطورية. وكانت قد وصلت إلى أنه في ضوء الظروف الراهنة ليس من سبيل آخر للوفاء بمقتضيات ولائها للإمبراطور، فقد تصادف أنها كشفت النقاب عن مؤامرة موجهة ضده، وما كان بمقدورها أن تدع هذه المؤامرة

تمضي، دون القضاء عليها، فلم تكن بالتي تسمح بالتخلي عن مبدأ الولاء،
مهما كانت جاذبية الإطار الخارجي المخادع الذي يغلف هذا التخلي.

هكذا، فإن رئيسة دير جيشو المهذبة، والحذرة عادة، حسمت أمرها،
وصممت على عدم التراجع، سواء أفي مواجهة قوة السلطة، أو التهديد
بالإجبار. وحتى لو اجتمع العالم ضدها، وإن اضطرت إلى تجاهل مرسوم
إمبراطوري بعينه، فسوف تصر على ما اضطرت للقيام به - أن تكون
حارسة صامته لشخص جلالته المقدس.

كان لتصميمها تأثير عميق على ساتوكو، التي أصبحت أشد إصراراً على
التنكر للدنيا. لم تكن قد توقعت أن تلبي رئيسة الدير طلبها، عن طوعية،
على هذا النحو. واجهت بوذا، وفي الفور صدت رئيسة الدير، بعينها
الحادة كأنها عين تم، صلابة القرار الذي اتخذته الفتاة.

على الرغم من أنه كان من المؤلف، بالنسبة لكاهنة مستجدة، أن تمضي
عاماً من الانضباط النسكي الصارم، قبل الإعلان الرسمي عن التحاقها
بالسلك الكهنوتي، فإن كلا من رئيسة الدير وساتوكو شعرتا بأنه، في ضوء
الظروف الراهنة، ينبغي الاستغناء عن هذه الفترة. ولكن رئيسة الدير لم
تستطع إجبار نفسها على تجاهل آل أياكورا كلية، بحيث تسمح لساتوكو
بأداء طقس جز الشعر، قبل عودة النبيلة أياكورا من طوكيو. وعلاوة
على ذلك، فقد كان هناك موضوع كيواكي. وحدثت نفسها قائلة: ألن
يكون من الحكمة السماح له ولساتوكو بأن يودعا أحدهما الآخر وداعاً مطولاً
قبل أن تضحي بما بقي لها من شعر حتى الآن؟

لم يكن بمقدور ساتوكو احتمال هذا التأخير. فقد جاءت إلى رئيسة الدير
كل يوم، شأن طفلة تثقل على أمها لتعطيتها قطعة من الحلوى، وراحت
تلحف في الرجاء بأن تؤدي طقس التضحية بما بقي من شعرها. وفي نهاية

المطاف، ألفت رئيسة الدير نفسها على استعداد للاستسلام لهذا الإلخاف.
سألت ساتوكو، قائلة لها:

- إذا سمحت لك بأداء هذا الطقس، فلن يؤذن لك قط برؤية كيواكي
ثانية. ألن يثير ذلك ضيقك؟
- كلا.

- طيب، ما إن تتخذي القرار بعدم رؤيته ثانية أبداً في هذا العالم،
وتتقدمي على هذا النحو إلى مرحلة دخول الكهنوت حتى يغدو أي شعور
لاحق بالندم مريراً حقاً.

- لن يساورني الشعور بالندم. ولن تقع عيني عليه ثانية قط، في هذا
العالم. أما فيما يتعلق بالفراق فقد نلنا ما يكفي من الوداع. لذا أرجوك...

كان صوتها، وهي ترد، صافياً وحازماً.

أجابت رئيسة الدير، ساعمة بمهلة مدتها يوم آخر:

- طيب، غداً صباحاً، إذن، سأتولى الرئاسة في حفل جز الشعر.
لم تعد النيلة أياكورا، خلال هذه المهلة.

منذ ذلك الصباح الأول، في جيشو، ألفت ساتوكو بنفسها، من تلقاء
ذاتها في المسيرة الصارمة لحياة الدير. كانت الخاصية المميزة لبوذية هوسو
تكمن في التركيز الأكبر على تربية الذهن، بالمقارنة بممارسة ألوان التقشف
والزهد الدينية. فضلاً عن ذلك، فإن معبد جيشو كان مكرساً تقليدياً
للصلاة من أجل رخاء الأمة بأسرها، ولم تكن هناك عائلات مسجلة فيه
باعتبارها تابعة دينياً لمنطقته. وفي بعض الأحيان كانت رئيسة الدير تقول
ملاحظة بمرح رقيق إن «صلاة الدموع» شيء لا يصادفه المرء في بوذية
هوسو، وهكذا تؤكد المفارقة مع مذهب أميدا الأحداث في الظهور المنبثق
عن بوذية الأرض النقية بتركيزه الكبير على صلوات العرفان المترعة بالنشوة
الروحية.

وليس هناك بالمثل في البوذية المهايانية ^(١)، بشكل عام، وصايا متعلقة بالقواعد السلوكية، يمكن الحديث عنها. ولكن فيما يتعلق بحياتها الكهنوتية فغالباً ما تتم استعارة قواعد البوذية المهايانية. غير أنه في أديرة، مثل دير جيشو، كانت القاعدة هي «وصايا البوذيساتفا» المتضمنة في «براهما جالا سوترا». وتبدأ نواهيها الثماني والأربعون بالأحكام العشرة الكبرى، التي تحظر خطايا من نوعية القتل والسرقة والإسراف من أي نوع والكذب، وتنتهي بالنهي عن القضاء على تعاليم بوذا.

غير أن التدريب الكهنوتي كان أقسى بكثير من أي وصية، ففي الوقت القصير، الذي أمضته ساتوكو في جيشو، استظهرت كلا من «سوترا الفؤاد المستنير» ^(٢) والأبيات الثلاثين التي تتضمن مبدأ «يوشيكى». وفي كل صباح

(١) البوذية المهايانية: بحسب القارىء أن يتذكر الحقيقة البسيطة، القائلة بأن البوذية قد نضجت، أساساً، إلى ثلاث مدارس رئيسية: هي الشرافادا، أو مذهب الكبار أو الأسلاف، وهي الصورة الباقية حتى اليوم لما يدعي بالهينايانا، أو وسيط النقل الأقل، والمهايانا، أو أداة النقل العظيمة، والفجرياما، أو أداة النقل الماسية. وتشيع المدرسة الأولى في سيلان وبورما وجنوب شرقي آسيا، بينما تنتشر الثانية في الصين وكوريا واليابان، أما الثالثة فمعقلها التبت، ومن أجل أن المتن يشير إلى المدرسة الثانية.

(هـ.م.)

(٢) سوترا الفؤاد المستنير: كلمة سوترا Sutra هي كلمة سنسكريتية، يرجع استخدامها في اللغة الإنجليزية إلى عام ١٨٠١، وهي تعني، أصلاً، الحيط أو القاعدة. وقد انصرفت، في الأدب السنسكريتي، إلى قاعدة موجزة من قواعد اللغة، أو القانون، أو الفلسفة، تقتضي تفصيل القول فيها، من خلال التعقيب عليها. وتشير دائرة المعارف البريطانية إلى أن السوترا هي مرحلة التطوير، وفق المدارس المختلفة لنص الفيدا، وهي تعني كذلك حكمة تلخص جانباً من التعاليم الدينية الهندوسية، أو مجموعة حكم، أو محاوراة من محاورات بوذا. وربما كان النص المشار إليه في المتن من

تنهض لتكنس وتزيل الغبار عن قاعة الصلاة الكبرى قبل أن تنجيء رئيسة الدير لترتيل صلواتها الصباحية، وفي غضون ذلك تتاح لها فرصة التدريب على إنشاد السوترا. لم تعد تعامل باعتبارها ضيفة. وغدت الكاهنة الأقدم التي جعلتها رئيسة الدير مسؤولة عنها امرأة أخرى مختلفة تتميز بقسوة أسلوبها.

في صبحية الاحتفال بأنخراطها في السلك الكهنوتي. قامت بمزيد من العناية بالاعتسال على النحو المفروض، قبل أن ترتدي مسوح الكاهنات الأسود. وفي قاعة الصلاة، جثت، وقد التفت مسبحتها حول كفيها، اللتين وضعتهما متشابكتين أمامها. بعد أن أمسكت رئيسة الدير نفسها بالموسى، وشرعت في جز شعرها، تولت الراهبة العجوز المسؤولة عنها باقي هذه المهمة. وفيما هي تجز الشعر بيد مخنكة، شرعت رئيسة الدير ترتل «سوترا الفؤاد المستنير» تصاحبها الراهبة الأصغر.

عندما اجترحت أعمال الكمال،

أصبحت الكليات الخمس للكائن البشري مثلما
الأشياء باطلة أمام عيني شريعة البوذيستافا،
ورفع عن كاهلها نير العذاب البشري.

شرعت ساتوكو بدورها في الترتيل، وقد أغمضت عينيها. وفيما هي تقوم بذلك، أصبح جسمها مثل زورق، يتخفف تدريجياً من كل أحماله،

= أهم النصوص البوذية. والمرجع التقليدي في دراسة هذا النص هو، بالطبع، كتاب لوبيز الموسوم «شرح سوترا الفؤاد» وللراغب، من المتخصصين في الدراسات الشرقية الكلاسيكية، في الاطلاع عليه، نورد بياناته الأساسية هنا:

Lopez- D.S.Jr. - The Heart Sutra Explained: Indian and Tibetan Commentaries - State University of New York press - 1988 - N.Y - ISBN

9 - 589 - 88706 O (هـ. م.).

ويتحرر من مرساته، وأحست بنفسها وهي تنطلق مع الموجة العميقة،
المنداحة، التي تصنعها الأصوات المرتلة.

واصلت إغماض عينيها. تخلل قاعة الصلاة الرئيسية برد يخترم العظام،
كذلك الذي يحفل به بيت من جليد. وهكذا، وعلى الرغم من أنها هي
نفسها كانت تطفو مطلقة السراح، فقد تخيلت امتداداً رجباً من الجليد
يطبق على الدنيا بأسرها، من حولها. فجأة تناهت صيحة طائر الدغناش،
مقبلة من الحديقة في الخارج، واندلع صدع عبر هذا السهل الجليدي،
بسرعة لسان مندلج من البرق، لكن الصدع التم ثانية في الحال، وأصبح
الجليد كلاً متماسكاً، مرة أخرى.

أحست بالموسى تشق طريقها بعناية بالغة عبر فروة شعرها. تخيلت
أحياناً القضم المهتاج من القوارض البيضاء الصغيرة لفأرة، وأحياناً
أخرى الطحن الهادئ من أضراس حصان أو بقرة.

فيما راحت خصلة وراء الأخرى تتساقط، أحست بفروة رأسها وقد
شرعت تتلقى وخرأً خفيفاً من برودة منعشة، كانت جديدة بالنسبة لها
تماماً. راحت الموسى تزيل كل أثر للشعر الأسود، الذي فصلها عن العالم
طويلاً، المتقد، والثقيل بوقره المؤسف من الرغبة. ولكن فروة رأسها كانت
الآن تعرى لعالم من النقاء لم تنتهك يدا أي رجل غرويته الباردة. وفيما
مدى الجزء المخلوق من رأسها يتسع، شرعت تحس بالجلد يغدو أكثر
حياة، على نحو متزايد، تماماً كما لو أن محلولاً بارداً، قوامه المتبول، كان ينشر
عليه.

تخيلت أن البرودة لا بد أنها تشبه سطح القمر، من حيث أنه معرض
مباشرة لرحابة الكون. كان العالم الذي عرفته يتداعى مع كل خصلة
تهوى، وفيما ذلك يحدث، غدت بعيدة بلا انتهاء عنه.

بدا، بأحد المعاني، كأنما شعرها يجري حصاده. تكومت كتل سوداء، مجزوزة، لا تزال متشعبة بالتألق الخائق النابغ من شمس الصيف، على الأرض من حولها. لكنه كان حصاداً لا قيمة له، ذلك أنه في اللحظة عينها التي كفت فيها كومات الشعر السوداء الرائعة عن أن تكون متمية لها، انسرب منها جمال الحياة، دون أن يترك إلا بقية بشعة. الآن يلقي جانباً بلا هوادة بشيء كان، ذات يوم، جزءاً حميماً منها، عنصراً جمالياً من كيائها الأكثر جوائية. كان يجري قطع الروابط التي ربطتها بعالم الزوال، على نحو لا عودة فيه، مثل بتر عضو من الأعضاء.

عندما تألقت فروة رأسها أخيراً بلمعة مزرقّة، خاطبتها رئيسة الدير، برقة:

- إن الهجران الأكثر أهمية للعالم يأتي بعد التخلي الرسمي عنه. ولديّ مطلق الثقة من تصميمك الراهن. من هذا اليوم فصاعداً، إن سعت بدأب وراء نقاء فؤادك، في الزهد في الحياة، فلا شك لدىّ في أنك ذات يوم ستغدين موضع فخار سلك كهنوتنا.

تلك كانت الكيفية التي تم بها الاحتفال برسامة ساتوكو. غير أنه لا النبيلة أياكورا ولا الأميرة ماتسوجاي كانتا على استعداد للاستسلام، بغض النظر عن مدى ما سببه تحول ساتوكو لهما من تمزق وانسحاق. ففي نهاية المطاف، لا زال هناك الشعر المستعار، السلاح الكامن، الذي لا يزال يحتفظ به احتياطياً.

احتفظ النبيل أياكورا وحده، من بين الزوار الثلاثة بمظهر لطف المعشر، من البداية إلى النهاية. وانهمك مع رئيسة الدير ساتوكو في حديث عرضي ومتمهل، حول الدنيا بشكل عام، ولم تند عنه، في أية لحظة، أدنى إيحاءة إلى أنه ربما يرغب في أن تعدل ساتوكو عما عقدت العزم عليه.

كانت برقية تصل يومياً من الأمير ماتسوجاي، يطالب فيها بتقرير عن الموقف، حتى تلك اللحظة. وأخيراً، انهارت النبيلة أياكورا، وانخرطت في البكاء، وهي تتوسل لابتنتها، لكن ذلك كان بلا طائل. وهكذا، في اليوم الثالث لوصولهم، غادرت النبيلة والأميرة إلى طوكيو، واضعتين كل ثقتها في النبيل الذي بقي في جيشو. وكان الالهاق قد أخذ كل مأخذ من النبيلة حتى أنها آوت إلى فراشها، بمجرد عودتها إلى الدار.

أما النبيل فقد أمضى أسبوعاً في جيشو، دون القيام بشيء على الإطلاق؛ فقد كان يخشى العودة إلى طوكيو. ولما كان قد أحجم عن القيام بأية محاولة كائنة ما كانت لإقناع ساتوكو بالعودة إلى الحياة العادية، فقد خففت رئيسة الدير من يقظتها الصارمة، ومنحته وابنته الفرصة للانفراد أحدهما بالآخر. غير أن الكاهنة الأقدم واصلت رصدتهما، على نحو عابر، من بعيد.

جلسا كلاهما، أحدهما قبالة الآخر، وقد التزما الصمت، في إحدى الشرفات، التي تحظى بنصيب من أشعة الشمس الشتوية. وفيما وراء أشجار الأغصان الجافة، أبرزت سحب متناثرة زرقة السماء. أصدر صائد

الذباب صوته على استحياء من شجرة اللاجر سترمية الهندية . كانا جالسين
دونما كلمة واحدة لوقت طويل . وفي نهاية المطاف ، تحدث النبيل أياكورا ،
وقدّ وسمت ملاحه تابشير ابتسامة مجاملة :
- من الآن فصاعداً ، لن يكون بمقدوري ، بسبيك ، الاختلاط كثيراً
بالمجتمع .

ردت ساتوكو بهدوء ، ودون أي أثر للانفعال :
- أرجو أن تساعني !
قال ، بعد لحظات قلائل :
- عجباً ! إن لديكم كافة أنواع الطيور هنا في هذه الحديقة . أليس
كذلك ؟

- بلى ، لدينا كافة أنواعها .
- قمت بنزهة قصيرة صباح اليوم . في الوقت الذي تنضج فيه ثمار
البرسيمون هنا ، بحيث تسقط ، يبدو أن الطيور قد انقضت عليها بالفعل .
ويلوح أنه ما من أحد يقوم بجمعها .
- نعم ، هذا هو ، بالضبط ، ما يحدث .
- أحسب أن المزيد من الجليلد سيهمي ، عما قريب .
قالتها ، دون أن يتلقى رداً . هكذا ، جلسا ، في صمت ، يطلان على
الحديقة .

في صباح اليوم التالي ، غادر النبيل أياكورا جيشو أخيراً . وعندما واجه
الأمير ماتسوجاي ، في طوكيو ، بعد أن أخفق تماماً في مهمته ، وجد أن الأمير
لم يعد غاضباً .

كان اليوم هو الرابع من ديسمبر ، وهو ما يعني أن حفل الخطبة لم يبق
على إقامته إلا أسبوع . وقد استدعى الأمير سراً إلى داره المفتش العام

لشرطة العاصمة. وكانت خطته هي اللجوء إلى سلطة الشرطة للقيام بنقل ساتوكو من الدير بالقوة.

بعث المفتش العام بأمر سري إلى شرطة نارا. غير أنه لما كان هذا الأمر متعلقاً باقتحام دير، كانت رئيسته تقليدياً أميرة من العائلة الامبراطورية، فقد خشيت شرطة نار أن تثير سخط وزير الديوان الامبراطوري. فطالباً أن المعبد يتلقى مساعدة من الأرصدة الامبراطورية. وحتى ولو كانت لا تتجاوز ألف ين في العام الواحد، فإن أدنى انتهاك لاستقلاله الذاتي يعدّ أمراً لا يخطر لأحد على بال؛ ومن ثم فقد مضى المفتش العام سراً إلى نارا مصحوباً بأحد مرؤوسية الموثوق بهم، في ملابسه المدنية. ولم تظهر رئيسة الدير أدنى بادرة انزعاج، عندما أطلعتها الكاهنة الأقدم على بطاقة زيارته.

بعد أن أمضى ساعة يتجاذب أطراف الحديث، ويتناول أقداح الشاي مع رئيسة الدير، اضطر في نهاية الأمر إلى الانسحاب، مستسلماً لقوة جلالها الهائلة.

كان الأمير قد لعب الورقة الأخيرة، التي بقيت في يده، ووصل إلى إدراك أنه ليس هناك شيء آخر يمكن القيام به، إلا التقدم لآل توينومايا بطلب قبول انسحاب ساتوكو من الزواج المقترح. وكان الأمير توين قد بعث، في الأسابيع الأخيرة، بأحد المسؤولين إلى دار آل أياكورا مرات عديدة، وقد داخله القلق من جراء سلوكهم الغريب.

استدعى الأمير ماتسوجاي النبيل أياكورا إلى داره، وأبلغه بأنه لم يعد أمامهما من خيار إلا قبول الموقف، ثم حدّد له معالم الاستراتيجية التي سيتبعانها. فهما سيقدمان إلى آل توينومايا شهادة موقعة من طبيب شهير يشهد فيها بأن ساتوكو قد أصيبت بانغيار عصبي قاس. ومن شأن المسؤولية الخاصة بتحمل وقر الحفاظ على هذا السر أن توحد آل توينومايا وآل أياكورا وآل ماتسوجاي، في إطار من الثقة المتبادلة، وقد يخفف هذا من

غضب الأمير توين . أما فيما يتعلق بالجمهور فكل ما ستمس الحاجة إليه هو نشر الشائعة القائلة بأن آل توينومايا قد أصدروا بياناً مقتضباً غامضاً، قالوا فيه إنه تم فض الخطبة وأن ساتوكو قد أدارت ظهرها للعالم وهربت إلى أحد الأديرة . وكنتيجة لهذا القلب للسبب والنتيجة رأساً على عقب فإن آل توينومايا، على الرغم من اضطراهم إلى حد ما للقيام بدور الشرير، سيحتفظون بماء وجههم ويمكثهم . أما آل أياكورا فعلى الرغم من أن بعض العار سيطلمهم، إلا أنهم سيستفيدون من تعاطف الرأي العام معهم .

غير أنه لن يكون مجدياً، على الإطلاق، ترك الأمور تجري في أعنتها . ولو أن ذلك وقع، فإن آل أياكورا سيحفظون بقدر أكثر مما ينبغي من التعاطف، وإذ يواجه آل توينومايا بتقلقلات عداء غير مبرر، فلإنهم سيضطرون إلى إيضاح الأمور، ومن ثم إلى إبراز شهادة حالة ساتوكو الصحية إلى العلن . كان من الأمور الجوهرية تقديم القصة إلى الصحفيين، دون التركيز كثيراً على عنصر السبب والنتيجة، فيما يتعلق بقيام آل توينومايا بفض الخطبة، ودخول ساتوكو سلك الكهنوت، فالأمران ينبغي تقديمهما باعتبارهما حديثين منفصلين، ولكن سياقهما الزمني يتعين أن يتم قلبه . غير أن الصحفيين أنفسهم لن يقتنعوا بمثل هذا الإيضاح . ولو أن الأمر غدا كذلك، فإنه سيتم الائمة إلى أنه كانت هناك بالفعل علاقة عاطفية عابرة، ولكن العائلات المعنية تطلب منهم الاحجام عن كشف النقاب عن هذا .

بمجرد حصول الأمير ماتسوجاي على موافقة النبيل أياكورا على هذه الخطة، قام، على الفور، بزيارة دكتور أوزو، مدير عيادة أوزو للأمراض العقلية، وطلب حضوره إلى دار ماتسوجاي توأ، لإجراء فحص لمرضى، مع التزام أقصى درجات السرية . وكانت هذه العيادة تتمتع بسمعة ممتازة،

فيما يتعلق بحماية خصوصيات المرضى من علية القوم، عندما تحدث حالة طارئة، من هذا النوع. وقد استغرق وصول دكتور أوزو وقتاً طويلاً، وفي غضون ذلك، لم يعد بمقدور الأمير ماتسوجاي إخفاء شعوره بالضيق عن أياكورا، الذي اضطر لانتظار قدوم الطبيب معه. ولكن لما كان من غير المناسب مع الظروف الراهنة إرسال سيارة من دار ماتسوجاي لجلب الطبيب، فما كان بوسع الأمير إلا أن يكظم غيظه.

عندما وصل الطبيب، تم اصطحابه إلى قاعة الاستقبال الصغيرة، في الطابق الثاني من الدار الغربية الطراز، حيث كانت النار تأتلق متأججة في المدفأة. قَدَّم الأمير نفسه والنبيل أياكورا على التوالي، وعرض سيجاراً على الطبيب.

- وأين ترغبان في أن أفحص المريضة؟

قالها الطبيب، متسائلاً، فتبادل الأمير والنبيل النظرات.

رد الأمير:

- طيب، في الحقيقة إن المريضة ليست هنا، في الوقت الحالي.

ما إن علم الطبيب بأن المطلوب منه هو أن يوقع، في التو واللحظة، شهادة طبية باسم مريضة لم تقع عينه عليها، حتى احمر وجهه غضباً. وتمثل ما استفزه، على نحو خاص، في النظرة التي كان على يقين من أنه لمحها في عيني الأمير: تألق قوامه افتراض مسبق بأنه توقيعه في الطريق حقاً. قال، مشدداً على كلماته:

- ما معنى هذا الطلب المنافي للعقل؟ أتحسباني من أطباء الاجتماعيات

الذين يمكن شراؤهم وابتياح ضمائرهم؟

رد الأمير:

- صدقني. أيها الطبيب، لم يحدث قط أن ظنناك على هذه الشاكلة.

انترع سيجاره من فمه، وشرع يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم محدقاً

عبرها في الطبيب، وملاحظاً كيف أن خديه المحمرين المكتنزين كانا يتميزان غيظاً حتى لتأخذهما الرجفة، خاطبه بصوت عميق، وقور:
- بالنسبة لهذه الشهادة الطبية، فهي شيء ضروري لاستمرار سكينه
جلالة الامبراطور المقدس.

عندما وضع الأمير ماتسوجاي يده على الشهادة الطبية الموقعة، طلب في الحال لقاء الأمير توين، في أقرب وقت يناسبه، ومضى في الليلة التالية إلى قصر إقامة الأمير.

من حسن الطالع أن الأمير الشاب كان، مرة أخرى، بعيداً عن الدار للمشاركة في مناورات عسكرية. وبما أن ماتسوجاي طلب بصفة خاصة لقاء الأمير هاروهيسا، فإن الأميرة لم تكن إلى جانب زوجها، عندما حيا ماتسوجاي.

بدا الأمير توين في حالة مزاجية مرحة، فيما هو يقدم لضيفه نبيذاً فرنسياً فاخراً، ويتحدث في هذا الموضوع وتلك المسألة، دون أن ينسى مرة أخرى الإعراب عن مدى ابتهاجه بروعة الترفيه الذي ساد يوم تبرعم الكرز في الربيع الماضي. وكانت مدة طويلة قد انقضت منذ أتيح لهما الحديث على هذا النحو معاً. ومن جديد، استعاد ماتسوجاي التجارب التي اشتركا فيها، خلال أوليمبياد باريس عام ١٩٠٠، ومضى في حديثه ليطرف الأمير توين بطرائف متنوعة عن ملهاهما، الذي يتذاكرانه عندنا فورة الشمبانيا. بدا كما لو أنه ليس لدى أي منهما شيء لإخريكت به في الدنيا.

ورغم ذلك، فقد كان ماتسوجاي يدرك حق الإدراك أنه تحت تماسك الأمير توين الممزوج بالكبرياء، والذي لم يعتوره وهن، كان ينتظر بقلق وتوجس أن يسمع ما يتعين عليه إبلاغه به. لم يكن الأمير توين قد تفوه بكلمة عن حفل الخطبة، الذي لم تبق عليه إلا أيام قلائل. وشأن سنا شمس ينهل على أجمة، كشف ضوء المصباح الساقط على الشارب الأنيق

تعبيراً عن عدم الارتياح، سرعان ما ينجاب، يؤدي بين الفينة والأخرى إلى توتر القم أسفله.

قال ماتسوجاي، مقترباً من الموضوع الجوهرى بنغمة لاهية، متعمدة، سريعاً ويقظاً كأنه عصفور ينطلق مباشرة إلى عشه، بعد التحليق حوله لبعض الوقت، في يسر مفعم باللامبالاة:

- طيب، فيما يتعلق بتطفلي عليكم الليلة هاهنا، فأمامي مهمة بغیضة، متمثلة في ابلاغكم ببعض الأخبار المؤسفة، التي لا يسهل التعبير عنها. لقد جئت إینه أياكورا.

اتسعت عين الأمير توين، بتأثير الصدمة، وهو يقول:
- ماذا؟

- لقد أبقي أياكورا، وهو من تعرفون، النبأ محتجباً تماماً. ودون أن يلجا حتى إلى استشارتي، أودع ساتوكو أحد الأديرة، آملاً في تجنب فضيحة، ومع ذلك، فإنه حتى الآن لم يستطع استجماع أطراف شجاعته لإبلاغ سموكم بما وقع.

- هذا أمر لا يصدق! الانتظار حتى الآن!

أطبق الأمير شفثيه بإحكام. وغاص طرفاً شاربه إلى أسفل. راح يحدق للحظات في طرفي حذائه الملتصعين في الضوء، الذي القته نار المدفأة.

- هذه شهادة طبية موقعة من دكتور أوزو. حقاً، إنها كما ترى، مؤرخة قبل شهر، لكن أياكورا لم يطلعني عليها. هذا كله راجع لإخفاق في متابعة كل شيء بدقة. وليس هناك من سبيل أمامي لأعرب على نحو مناسب عن أسفي...

- إذا كانت مريضة، فليكن، فذلك أمر لا سبيل إلى دفعه. ولكن لماذا لم يبلغني بالأمر قبلاً؟ هذا إذن ما كان وراء الرحلة إلى كانساي! الآن وقد

اتيت على ذكر الأمر، عندما أقبلوا إلى هنا لتقديم واجب التحية قبل الرحيل، لم يكن لونها طيباً على الإطلاق، وقد أثار ذلك قلق الأميرة توين.
- لم يكن ذهنها على ما يرام، منذ سبتمبر الماضي، ويقولون إنها كانت تأتي بأفانين من الغرائب، إلى أن لفت سلوكها نظري، في نهاية المطاف.
قال الأمير توين:

- طيب، هذا هو الوضع الآن، وليس من الممكن القيام بشيء حياله.
سامضي إلى القصر، في وقت مبكر من صباح الغد؛ لأقدم آيات اعتذاري
للامبراطور. ترى كيف سيتلقى جلالته الأمر؟ لسوف تترك لي هذه
الشهادة، إذن، أليس كذلك؟ سيتعين عليّ إطلاعها عليها.

تجلبت التربية الرفيعة، التي تلقاها الأمير توين، في أنه لم يقل كلمة
واحدة، عن الأمير الشاب هارونوري. أما عن ماتسوجاي فقد ركّز عينيه
الحاذقتين، على امتداد اللقاء، على كل تغير في التعبير المرتسم على محيا
الأمير توين. وقد رأى فيه موجات تهديدية مظلمة تعلو، وتهبط، وتعلو من
جديد. وبعد أن راقب هذه العملية، لبعض الوقت، أحس بأن قلقه
ينحسر، فقد انقضت لحظة أعظم الأخطار.

استدعى الأمير توين زوجته، وبعد أن أوغل ثلاثتهم في الليل ساهرين،
عاكفين على مناقشة أفضل خطة ينبغي اتباعها، استأذن الأمير ماتسوجاي
في الانصراف.

تصادف، صباح اليوم التالي، أن عاد الأمير هارونوري من المناورات،
في اللحظة الحافلة بالارتباك عينها التي كان أبوه يوشك فيها على المغادرة إلى
القصر الامبراطوري. انتحى الأمير توين بابنه جانباً، وأنهى إليه النبأ. لم
يبد مؤثر واحد على الانفعال في وجه الفتى، القوي، وهو يرد قائلًا بأنه
سيتصرف في الأمر حسبما يشاء والده. وهكذا بدا أنه أبعد ما يكون عن

الضيق، ولم يظهر حتى ما ينم عن القلق حبال المسار الذي سلكته الأحداث.

لما كان متعباً، من جراء المناورات التي استغرقت الليل بأسره؛ فقد مضى إلى فراشه بمجرد توديعه لأبيه. غير أن أمه جاءت إلى غرفته؛ وقد ساورها الشعور بأن النوم لن يجد إلى جفنيه سبيلاً.

عندما رفع ناظره إليها، لاحظت أن عينيه محمرتان قليلاً؛ من جراء السهر، لكن نظرتة كانت مباشرة وصريحة كعهدها.
قال لها:

- هكذا، فالبارحة فحسب أقبل الأمير ماتسوجاي ليلبغنا بهذا الأمر؟
- نعم، البارحة فحسب.

- أماه، تصادف أنني فكرت لتوي في شيء، وقع منذ زمن بعيد، عندما كنت ملازماً في القصر. حدثك بالأمر في حينه. أليس كذلك؟ على أية حال، كنت في طريقي لمقابلة الامبراطور وتصادف أنني التقيت بالمارشال ياماجاتا، في الدهليز. لن أنسى هذا الأمر قط، يا أماه، كان الدهليز هو ذلك الواقع على امتداد جانب قاعة الاستقبال الأمامية. كان المارشال قادماً لتوه من لقاء مع الامبراطور، فيما اعتقد. وكالمعتاد، كان يرتدي معطف الزري الرسمي ذاك ذا الطيات الواسعة عند الصدر، ومقدمة قبعته العسكرية تمتد فوق عينيه، وقد دس يديه في جيبيه. كأنه لا يكثر بأحد. كان مقبلاً نحوي في ذلك الدهليز المعتم، وهو يوشك أن يجرجر سيفه إلى جانبه. تنحيت جانباً تَوّاً، ووقفت وقفة الانتباه، وأديت التحية العسكرية له. نظروا إليّ مسرعاً من تحت مقدمة قبعته بهاتين العينين، اللتين لا تلوح فيهما ابتسامة أبداً. من المؤكد أن المارشال ياماجاتا قد عرف هويتي، يا أماه، لكنه أشاح برأسه، في حدة وقد بدا عليه الضيق، وألقى بكفيه إلى الوراء في ذلك المعطف، في اللحظة عينها، ومضى متعثراً في الدهليز، دون

حتى أن يرد تحيتي العسكرية . الآن، يا أماء، لماذا تعتقدن أنني تصادف
أن تذكرت ذلك الآن؟

أخطر مقال في صحيفة اليوم التالي الجمهور بأنه سيحرم من المهرجانات
والاحتفالات، التي كان يتوقعها، بمزيد من السرور، فلن يقام حفل
الخطبة، ذلك أن الخطبة تم فضها «بسبب ظروف في عائلة سمو الأمير
الامبراطوري هارونوري». وهكذا، في نهاية المطاف، علم كيواكي،
الذي لم يتم إبلاغه بشيء على الإطلاق عن الأحداث الأخيرة، بما وقع من
صحيفة .

بعد أن أصبح فض الخطبة أمراً معروفاً، أحكمت العائلة على نحو أكبر الرقابة التي تفرضها على كيواكي، بل وصحبه الوكيل يامادا إلى المدرسة. ولم يدر زملاؤه الذين لم يكن لهم علم بالظروف المتعلقة بالأمر ماذا عساهم يفعلون حيال مثل هذه العناية المفرطة، التي لا يحاط بها عادة إلا أصغر طلاب المدرسة سنّاً. فضلاً عن ذلك، فإن أباه وأمه التزما الصمت التام فيما يتعلق بالموضوع في وجوده، وتصرف كل من عداهما بالدار وكأن شيئاً لم يقع.

غير أن المجتمع كان يفيض بالفضول. وقد دهش كيواكي عندما وجد أنه حتى أبناء أبرز العائلات في مدرسة النبلاء لا يدرون عن الأمر شيئاً إلى حد أن بعضهم سأل، هو من بين كل الناس، عن رأيه في الموضوع. قال أحد الطلاب ملحاً:

- الكل متعاطف مع آل أياكورا. ولكن أتعرفون ما الذي أظنه؟ أظن أن هذا الأمر سيَقْوُصُ توقيف الناس للعائلة الامبراطورية. ألا يقول الجميع إنهم قد اكتشفوا، في وقت لاحق، أن الأنسة أياكورا ليست في حالة عقلية سليمة؟ ولكني أريد أن أعرف لماذا لم يظهر ذلك إلا الآن.

بينما كان كيواكي يتساءل عن أفضل كيفية للرد، تدخل هوندا الذي كان واقفاً على مقربة:

- حتى إذا كان هناك شخص يشكو من مرض، فليس هناك من سبيل

لمعرفة ذلك إلا بعد ظهور الأعراض . أليس كذلك؟ لماذا لا تكف عن
الثرثرة حول الأمر كأنك تلميذة .

ولكن هذا النوع من مناشدة الرجولة لم يكن مجدياً في مدرسة النبلاء،
فلم تكن لعائلة هوندا، ابتداءً، المكانة التي تؤهله كشخص مطلع على
بواطن الأمور يمكنه وضع نهاية محتملة لهذا النوع من الحوار . ولكي يتأهل
المرء كشخص عليم، ينبغي عليه أن يقول شيئاً من نوعية: «إنها ابنة عمي»
أو ربما «إنه ابن خليله عمي» . وفقى مثل هذا يتعين عليه أن يظهر أنه فخور
بأن تربطه روابط دم بعيدة بالجريمة والفضيحة، ومع ذلك يظهر لا مبالاته
المتسمة بالنبل . وهكذا، وإذا قلب شفته قليلاً استهانة بالأمر يلمح من
طرف خفي إلى أنه على العكس من ركام الشائعات السارية فإنه على علم
بمعلومات حجبت عن الكافة . ففي هذه المدرسة، كان بمقدور فتية، لا
يتجاوز عمرهم الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، المبالغة في التظاهر
والقول: «لقد سبب الأمر صداماً لوزير الداخلية . وقد زارنا في وقت
متأخر البارحة ليتحدث مع أبي حول الأمر» أو يقول مرة أخرى: «الجميع
يعتقد أن وزير الداخلية مصاب بنوبة برد جعلته يعتكف في فراشه، ولكن
الحقيقة هي أنه كان يتعجل لقاء الامبراطور، حتى أنه أغفل وضع قدمه
على درج عربته فالتوى كاحله» .

ومن الغريب أنه بدا أن تكتم كيواكي قد خدمه في هذا الأمر . ذلك أنه
باستثناء هوندا لم تكن لدى أحد من زملائه أدنى فكرة عن علاقته بساتوكو،
كما لم يدر أحد بدور الأمير ماتسوجاي في الأمر . غير أنه كان هناك ابن
إحدى عائلات البلاط العريقة تربطه قرابة بآل أياكورا راح يؤكد بشدة أن
فتاة في جمال وموهبة ساتوكو لا يمكن أن تكون قد جنت، ولكن كل ما أثاره
هو ابتسامات ساخرة من جانب زملائه الذين ظنوا أنه حريص فقط على
الدفاع عن أقاربه .

سبب هذا كله ألماً مستمراً لكيواكي . غير أنه بالمقارنة بما لقيته ساتوكو من إذلال، على يد الرأي العام، فإنه لم تكن أمامه إشارة استخفاف واحدة يتعين عليه التعامل معها . ومهما كانت حدة معاناته فإنها في نهاية المطاف كانت العذاب الذي يكابده الجبان .

عندما يطرح زملاؤه هذا الموضوع أو يسمع اسم ساتوكو على السنتهم، فإنه يتطلع من النافذة الواقعة في الفصل بالطابق الثاني وكأنه مستغرق في تأمل منظر الجبال البعيدة، التي وقعت الآن تماماً في قبضة الشتاء، وتألفت منحدراتها المكسوة بالجليد، في هواء الصبح الصافي . كان يتخيل ساتوكو نفسها التي غدت الآن نائية ولا سبيل إلى الوصول إليها طارحة نقاء عائلاً على الدنيا بأسرها دون أن تتفوه بكلمة واحدة دفاعاً عن نفسها . كان الألق، النائي والمثير للآلم على وجه التقريب، بادياً لكيواكي وحده . نفذ كماله إلى القلب . كانت قد تحللت من ذنبها بقبول كل شيء : الخطيئة، العار، نسبة الجنون إليها . ولكن ماذا عنه ؟

جاءت عليه أوقات أراد فيها الصراخ بأعلى صوته، مقرأً بذنبه . ولكن عندئذ ستغدو تضحياتها الرهيبة بنفسها بلا طائل . أ يكون من قبيل الشجاعة حقاً إهدار هذه التضحية لإراحة ضميره ؟ أم ترى أن الشجاعة الحققة تقتضي أن يتحمل في صمت وجوده الراهن باعتباره سجيناً بالفعل ؟ كان هذا التقويم أكثر تعقيداً مما ينبغي بالنسبة له . ولكن، على أية حال، كان الاستمرار على ما هو عليه، رغم الألم المتفاقم، ويتعبير آخر الخضوع لمشيشة أبويه والدار بأسرها، يعني الاستمرار في مسيرة غدت متفاقمة الصعوبة .

كان قد حل وقت بدا فيه الكسل والكآبة العنصرين الجوهرين في الحياة على نحو ما يريد لها أن تكون . كيف اتفق أنه فقد قدرته على مثل هذا الاستمتاع وطاقته على التمتع فيها دون أن يصيبه ضجر ؟ مضى ذلك

العهد دون أن يلحظه أحد كأنه مظلة نسيت في دار أحدهم .

الآن مست حاجته إلى شيء يأمل فيه إذا كان له أن يحتمل الكسل والكآبة . ولما لم يكن هناك شيء مشجع ، ولو من بعيد ، فيما يتعلق بموقفه ، فقد شرع في إقامة صرح أمل خاص به .

راح يحدث نفسه ، قائلاً : وإن الشائعة التي تحدث عن جنونها عصبية على التصديق ، بحيث أنها غير جديرة بالمناقشة . لست أصدقها . ولذا فلماذا لا يكون صحيحاً أن ابتعادها عن الدنيا وتحولها إلى كاهنة ليس إلا حيلة فحسب؟ ربما أدت هذه الملهاة لشيء إلا لتكسب وقتاً وتنأى عن ذلك الزواج ، أو بتعبير آخر لأجل خاطري . ولئن كان ذلك صحيحاً ، فعلينا أن نتحد من أجل التزام الصمت التام على الرغم من أن مثل هذه المسافة فصلنا أحدها عن الآخر . ذلك يبرر عدم قيامها ولو حتى بكتابة أسطر قلائل لي . الأمر واضح ! ماذا غير ذلك يمكن أن يكون معنى صمتها؟

لو أنه كان قد فهم شخصيتها حقاً ، لعرف على الفور أن رؤيته الخيالية تلك هي المستحيل بعينه . ففي نهاية المطاف ألم تكن صورة ساتوكو باعتبارها مخلوقة متسلطة وهما خرج من تحت معطف احتقاره للجرأة؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فربما لم تكن ساتوكو أكثر تجسداً من قطعة ثلج ذابت بين ذراعيه . لقد تركزت عيناه على جانب واحد من جوانب الحقيقة ، بحيث أنه آمن بالصحة الخالدة للدعاء الذي عثرت به الحقيقة في ظله على وجودها المتقلقل . هكذا فإن أمله جعله ضحية لخداع الذات .

كان أملاً تأخذ الوضاعة باكتشافه . فلو أنه كان قد استسلم حقاً لرؤيا جامها ، لما ترك مجالاً للأمل . ودون أن يلاحظ الأمر ، شرع قلبه المتألق في برود يذوب إشفاقاً وتحناً ، كالثلج تحت أشعة الشمس الغاربة . أحس بدافع يحدوه إلى أن يكون رقيقاً مع الناس ، وشرع يلقي نظرة عن كثب على الدنيا من حوله .

كان هناك طالب في مدرسة النبلاء، هو سليل عائلة شديدة العراقة، أطلق عليه لقب «المسخ». وقد سرت شائعة تفيد بأنه مصاب بالجذام.. ولكن لما كان مما لا يخاطر على بال أحد بأن مجذوماً يسمح له بالالتحاق بالمدرسة، فربما كان الأمر لا يعدو أنه مصاب بمرض آخر، غير معد. كان نصف شعره قد تساقط، وبدت بشرته رمادية اللون وجلده حائلاً. كان أحذب، ولا أحد يدري كيف تبدو عيناه لأنه كان يغطيها على نحو محكم بحافة قبعته المدرسية، التي حصل على تصريح خاص بأن يعتمرها، حتى داخل قاعة الدرس. كان سائب الأنف على الدوام. ويحدث صوتاً يشبه صوت الماء لدى بدء غليانه. ولما كان لا يحدث أحداً قط، فقد كان يحمل كتاباً خلال أوقات الراحة، ويمضي حتى الحافة القصوى للمرجة الممتدة أمام المدرسة، قبل أن يجلس ليعكف على القراءة.

لم يسبق، بالطبع، أن كان لكيواكي شأن قط بهذا الطالب، الذي كان إضافة إلى أي شيء آخر في فرع دراسي آخر. وعلى الرغم من أن أبويهما كانا على درجة واحدة من مراتب النبالة، فقد بدا أن كيواكي يمثل على نحو مجسد الجمال، أكثر من أي فتى آخر في المدرسة، بينما كان الآخر يشبه المبعوث المختار للقيح والظل الرهيب.

وعلى الرغم من أن النجيل الجاف في ذلك الركن من المرجة الذي كان البقعة الاثيرة لدى «المسخ» قد حظي بأكثر من نصيب عادل من الشمس، في ذلك اليوم من أيام صدر الشتاء بالتحديد، فقد تجنبها الجميع. وعندما أقبل كيواكي وجلس إلى جانب المسخ، طوى الأخير كتابه، واعتراه توتر بالغ وهويتأهب للهرب، على نحو ما كان يفعل عادة. ولم يقطع الصمت إلا الصوت المكتوم لأنفه السائب، الذي تردد كأنه السحب المتواصل لسلسلة خفيفة.

تساءل الابن الجميل للأمير:

- ما هذا الذي تقرأه على الدوام؟

- لا شيء.

قالها الابن القبيح للأمير، ووضع الكتاب وراء ظهره، ولكن بعد أن
لمح كيواكي اسم ليوباردي^(١) على كعب الكتاب. انعكست الحروف المذهبة
انعكاساً خفيفاً، التمع على العشب الجاف، وتبدد.

لما لم يكن المسخ على استعداد للحديث، فقد ابتعد كيواكي عنه قليلاً
دون أن ينهض واقفاً، ثم مد ساقيه ورقد على جنبه، مستنداً إلى كوعه،
متجاهلاً أطراف العشب الجافة العديدة التي تشبث الآن بزيه المدرسي
الصوفي. جلس المسخ، وهو لا يزال قبالة مباشرة متكوماً على نفسه في
كرب واضح، طاوياً الكتاب الذي انفتح أمامه مرة أخرى. أحس كيواكي
بأنه ينظر إلى صورة هزلية لبؤسه الخاص، وبدأت رفته تفسح الطريق
للغضب. وفيما واصلت الشمس الدافئة على غير ما هو مألوف في هذا
الموسم ارتحالمها رغم كل شيء رأى كيواكي الشخص القبيح لابن الأمير

(١) ليوباردي: جياكومو (١٧٩٨ - ١٨٣٨): أعظم الشعراء الرومانتيكيين الإيطاليين،
نظمت قصائده الغنائية الموحية، في الفترة من ١٨١٦ إلى ١٨٣٧. في عام ١٨٢٤،
حوّل انتباهه إلى النثر الفلسفي، وبصفة خاصة المحاورات الساخرة، وأبرز أعماله في
هذا الصدد كتاب «حكايات أخلاقية» الصادر في ١٨٢٧. تعزى نزعة التشاؤم الكوني
لديه إلى مرض مزمن أصيب به (ومن هنا مغزى الإشارة إلى كتابه، في المتن،
باعتباره الكتاب الذي كان المسخ ممسكاً به). في مراحل الفكرية الأولى، المستندة إلى
فيكو والأعمال الكلاسيكية، كان يرى أن مهمة الشعر هي استعادة طراوة الاستجابة
الاغريقية للطبيعة، غير أنه، فيما بعد، نظر إلى الطبيعة باعتبارها كياناً لا غاية له،
ولا مبالياً، بل وقاسياً. يلاحظ أن كلا من إزرا باوند ود. لويل نظما معارضات
لقصائد ليوباردي، بهذا القدر أو ذاك من التوفيق.

يتعرض لتحول تدريجي ، فقد امتدت ساقاه المجعدتان في حذر فيما هو يرقد على العشب ويتكئ على كوعه قبالة كيواكي . أصبح قوامه يشبه قوام كيواكي حتى الزاوية التي تصنعها عنقه مع كتفيه . أصبحا مثل تمثالين ، يجمعان بين أعضاء الأسد والكلب ، يحرسان بوابة معبد . وتحت الحافة الخفيفة لقبعته ، على الرغم من أن شفتيه لم تفترا عن ابتسامة على وجه الدقة ، فإنها وشتا بأن صاحبهما كان في حالة مزاجية مرحة .

وهكذا جلس أبناء الأميرين ، أحدهما جميل ، والآخر قبيح . تعامل المسخ مع نزعة كيواكي المفاجئة إلى الاشفاق والاهتمام به دون إظهار اعتراف بالجميل أو رفض ، وإنما باللجوء إلى وعيه العميق بنفسه ، وبتقليد كيواكي كما لو كان صورة له ارتسمت على صقال مرآة ، وبالتصرف على هذا النحو ، اكتسب بشكل ما هيئة مشابهة لهيئة كيواكي . وإذا تجاهل المرء محياهما ، فقد مثلاً اتساقاً ملحوظاً . فوق العشب الجاف الدافئ ، من الجديدة التي توشي سترتيهما حتى طيات سرواليهما .

ما كان يمكن لمحاولة كيواكي اختراق تحفظ الآخر أن تصد على نحو أكثر اكتمالاً ، وإن كانت برقة أعظم . وأحس بأنه مستغرق في الدفء والركة ، اللذين صحباه .

تناهى من ميدان الرماية بالأقواس والأسهم القريب صوت انطلاق الأوتار مهتزة بعد كل رمية ، وهو صوت ذكره بلذع رياح الشتاء البارد ، يعقبه صوت ارتكام كتيب ، ناجم عن اصطدام السهم بهدف ، كأنما الهدف طبلة مرتحية الجلد .

بدا له فؤاده كأنه سهم تجرد من الريشات البيضاء المتألفة ، التي توضح اتجاهه .

عندما انتهى الفصل الدراسي، وبدأت الاجازة الشتوية، كرّس المجتهدون من زملاء كيواكي أنفسهم للدراسة، استعداداً لامتحانات ما قبل إنهاء الدراسة بالمدرسة، ولكن مجرد احتمال فتح كتاب كان يدفعه بالرعب. اعتزم ما لا يزيد عن ثلث صفه الدراسي، بمن في ذلك هوندا، دخول امتحانات الالتحاق بالجامعة التي تعقد في الصيف، وذلك بعد انتهاء دراستهم في المدرسة في الربيع. أما معظمهم فقد اعتزم استغلال الامتياز المخول لهم باعتبارهم خريجين من مدرسة النبلاء للحصول على إعفاء من امتحانات الالتحاق بالجامعة، وإما أن يتقدموا بطلبات التحاق بتلك الكليات في جامعة طوكيو الامبراطورية، التي لا تحظى بإقبال كبير على الدوام، أو الالتحاق بإحدى الجامعات الامبراطورية، مثل جامعة كيوتو أو جامعة توهوكو. وبغض النظر عما قد يعتقده الأمير ماتسوجاي، فإن كيواكي ربما كان سيعمد إلى المضي في الطريق الأقل وعورة. ولئن التحق بجامعة كيوتو فإن ذلك سيعني أنه قد اقترب بهذا القدر من دير ساتوكو.

وبناء على هذا، فقد كان حراً، في الوقت الحالي، في المضي كيفما طاب له غارقاً في كسل متميز. انهمر الجليد مدراراً في ديسمبر، لكن كيواكي لم يكن في حالة مزاجية تسمح له باستشعار البهجة الطفولية لدى مرأى الأراضي التي كساها الجليد والتي تبدت له ذات صباح. أزاح ستارة النافذة القريبة من فراشه، وتطلع دوغماً مبالاة إلى المشهد الشتوي، وقد غدت الجزيرة الآن بقعة من البياض المتألق وسط البحيرة. لم يتحرك من فراشه

لعدة ساعات . في أوقات أخرى كان حرياً بأن تخطر على باله أفكار
فستلتمع عيناه حيال فكرة التخلص من يامادا، الذي كان يشرف عليه حتى
خلال تجواله في الضيعة . وقد اختار ليلة كانت ريح الشمال الباردة تهب
فيها على نحو خاص عنيفة ومندفعة، ومضى للقيام بتسلق حاد لتل
القيقب . واضطر يامادا الذي أمسك بمصباحه الكهربائي النقال في إحدى
يديه، ودفن عنقه في ياقة معطفه، إلى الانطلاق بخطى عملاقة وراءه، على
الرغم من ضعفه . وأفعم كل شيء، من قرقة الأغصان إلى نعيب البوم
والدرب الزلق تحت قدميه، نفس كيواكي بالبهجة، فيما هو يحس بنفسه
ينطلق قدماً صاعداً، على نحو لا يقاوم، كأنه لب يلتهم ما أمامه . ومع
كل خطوة يخطوها، تصوّر نفسه يسحق تحت كعبه الظلمة، كأنها شيء لين
تدب فيه الحياة . وعند قمة التل، امتدت رجة السماء الشتوية المترعة
بالنجوم .

قبيل نهاية العام، جاء أحد السادة إلى دار ماتسوجاي؛ ليلفت نظر
الأمير إلى مقال، في إحدى الصحف، كتبه إينوما، فاستشعر الأمير غضباً
كبيراً، حيال هذا الدليل على افتقاره إلى الولاء للعائلة .

كانت الصحيفة ذات توزيع محدود، وهي الناطق بلسان حال مجموعة
يمنية . واحتج الأمير بالقول إنها نوع من الاصدارات الباحثة عن الفضائح
التي رأبت على النشر من أجل انتزاع المال من علية القوم عن طريق
تهديدهم بنشر تفاصيل فضيحة أو أخرى . وكان حرياً بالأمر أن يتخذ بعداً
آخر لو أن إينوما، قد تدنّى بنفسه إلى حد المجيء طلباً للمال قبل نشر
المقال، أما المضي قدماً وكتابة شيء من هذا القبيل حتى قبل محاولة القيام
بهذا، فلم يكن بأقل من انتهاك واضح واستفزازي
لالتزاماته حيال آل ماتسوجاي .

تحت عنوان يحمل نكهة وطنية طاغية، هو «أمير مجرد من الولاء واحترام

حقوق الأسلاف»، كان ثقل الاتهام كالاتي: في حقيقة الأمر، إن الرجل المتورط، على نحو حميم، وراء الستار، في المسألة الراهنة، المتعلقة بفض الخطبة هو الأمير ماتسوجاي. وأي زواج يدخل طرفاً فيه عضو في العائلة الامبراطورية يتعين أن يخضع لتمحيص دقيق، وفقاً لمواد قانون العائلة الامبراطورية؛ لأن مثل هذا الزواج، ويغض النظر عن مدى بعد هذا الاحتمال، قد يؤثر في السلالة الامبراطورية. تلك، إذن، هي الظروف الخطيرة التي في ظلها أخذ الأمير ماتسوجاي على عاتقه أن يرعى ابنة إحدى العائلات العريقة، وهي فتاة يزعم أن اختلاها العقلي لم يكن بالأمر المعروف له، ويمضي إلى حد الحصول على تصديق إمبراطوري لإتمام زواجها، لا شيء إلا لتنهار خططه قبيل حفل الخطبة. غير أنه رغم هذا كله، فإن الأمير ماتسوجاي من خلال كونه على قدر كاف من الحظ سمح له بالإفلاح في إبعاد اسمه عن الأمر، يمضي اليوم في هدوء آمناً في سريره، وهكذا فإنه لا يكتفي بإظهار عدم ولاء حيواني لجلالة الامبراطور فحسب، وإنما يفصح كذلك عن افتقار للتوقير نحو أبيه، الذي يعد من الأعمدة، التي رفعت عالياً سقف إصلاحات عهد ميجي.

إذا كان هذا المقال قد استفز الأمير إلى حد الانتقاد غيظاً، فإنه أثار هواجس وشكوك ابنه؛ فقد لاحظ في الحال أن اينوما حرص على إبراز اسمه وعنوانه مرفقين بالمقال، وأنه على الرغم من إدراكه حق الإدراك لما وقع بين كيواكي وساتوكو، فقد كتب مقاله كما لو كان يعتقد حقاً أن ساتوكو قد تعرضت لانهيار عصبي. وحتى ذلك الوقت لم تكن لدى كيواكي أية فكرة عن مقر إقامة اينوما. أما الآن فقد خطر له أن اينوما قد كتب هذا وهو يعلم أنه سيجلب عليه وصمة العار التي تسم من افتقر لكل شعور بالولاء والالتزام؛ لأنه أراد أن يقرأه كيواكي بأي ثمن، ويعرف عنوانه، دون أن يبدو أنه قد أبلغه به على نحو مباشر. وعلى أية حال، فقد

كان على يقين من أن المقال يتضمن رسالة خفية موجهة له وحده:
لا تكن مثل أبيك!

ساورة، فجأة، شعور بدفق من الحنين حينما فُكّر في إينوما. لم يكن بوسعه أن يفكر في شيء يثير ابتهاجه وهو في حالته المزاجية الراهنة أكثر من استرداد ولائه المرتبك مرة أخرى والسخرية منه على نحو عايب. غير أن محاولة مقابلته الآن، بينما غضب أبيه في ذروته، لن يكون من شأنها إلا اجتذاب المزيد من الضربات الانتقامية، ولم يكن شعوره بالحنين من القوة بحيث يجعله راغباً في ركوب هذه المخاطرة.

وكان، من ناحية أخرى، يعلم أن ترتيب لقاء مع تاديشينا سيكون أمراً أقل خطر بكثير. غير أنه منذ فشل محاولة العجوز للانتحار لم يستطع التفكير فيها إلا باشمئزاز يفوق الوصف. وقد اقتنع، من خلال الحكم بوشايتها به لأبيه في خطاها الوداعي، بأن ارتكاساً ما في شخصيتها قد جعلها تستمد لذة شاذة، من خلال خيانة كل من جمعهم معاً، دوغما استثناء. ووصل إلى ادراك أنها كانت مثل أولئك الذي يرعون حدائقهم بدقة شديدة لا لشيء إلا للذة تمزيق الزهور شرمزق، ما إن تصل إلى قمة تفتحتها.

لم يكن أبوه يتبادل معه الحديث، على الإطلاق، تقريباً، وحاولت أمه أن تدع ابنها وشأنه، حتى لا تغضب زوجها.

كان القلق والخوف هما الحقيقة المستقرة في قرارة غضب أبيه. وقد عمد إلى استخدام تحرّ خاص لحراسة البوابة الخارجية للدار. وأمر بمراقبة اثنين في مؤخرة الدار. غير أن العام انتهى، دوغما تهديد خاص أو بروز عدا من الرأي العام، ضد آل ماتسوجاي. وقد أخفق ما كشف إينوما النقاب عنه، فيما يبدو، في إطلاق عقاب أي عواقب في الدوائر الرسمية.

اعتادت العائلتان الاجنبيتان اللتان تستأجران دارين من آل ماتسوجاي أن ترسلا بدعوتين لحضور عيد الميلاد. ولكن لما كان إرضاء إحدى العائلتين يعني تخيب أمل العائلة الأخرى، فقد درج الأمير على الاعتذار عن تلبية الدعوتين كليهما، والاكتفاء بإرسال هدايا إلى أطفال العائلتين. غير أن كيواكي إزاء شعوره بأنه قد يجد ما يرفه عنه في المناخ المرح لعيد تحتفل به عائلة أجنبية، طلب هذا العام من أمه أن تتدخل لدى أبيه لتركه يلبي إحدى الدعوتين، إلا أن الأمير رفض الاصفاء لما تقوله حول هذا الموضوع.

ولم يكن السبب الذي أبداه هو السبب المألوف، المتمثل في عدم استعدادة تخيب رجاء إحدى العائلتين، وإنما قال إنه لا يليق بمكانة أحد أبناء النبلاء قبول دعوة عائلة تستأجر داراً من أملاكه. وكانت إحدى المسلمات الضمنية في هذا القول واضحة بما فيه الكفاية، بالنسبة لكيواكي: إن أباه لا يزال بعيداً عن الثقة بقدرة ابنه على الحفاظ على مكانته.

ضجت دار ماتسوجاي يفيض من النشاط خلال الأيام الأخيرة في العام حيث أن عملية تنظيف الدار الهائلة لا يمكن أن تتم بين عشية وضحاها قبل حلول أعياد العام الجديد. ولم يكن لدى كيواكي ما يفعله. وكان الشعور بأن العام بسبيله إلى الانتهاء خنجراً في قلبه - هذا العام من بين كل الأعوام - ذلك أنه لن يعود ثانية أبداً. وفي هذه الأيام الأخيرة الراحلة، وصل إلى إدراك أن هذا العام قد شهد ذروة عمره.

غادر الدار، وخلف ضجيجها وراءه، ومضى وحيداً باتجاه البحيرة، وقد عزم على المضي للتجديف. أقبل يامادا مسرعاً وراءه عارضاً عليه مرافقته، وهو العرض الذي رفض، في غلظة.

فيما اندفعت مقدمة الزورق، عبر الاعشاب الجافة والبقايا المتكسرة لأوراق اللوتس، رَفَّ سرب من البط البري منطلقاً نحو السماء. وفي غبار

رفرفة الطيور المضطربة، رأى بطونها الصغيرة المسطحة لثانية واحدة في هواء الشتاء الصافي، دون أن تشوب قطرة ماء البريق الحريري الصادر عن أجنحتها. تسابق وهج منعكس منحنياً، عبر الأعشاب المتداخلة.

تطلع كيواكي إلى الصورة الفاترة المنعكسة على سطح الماء للحصب والسماء الزرقاء، وعجب للدوائر الواهنة، التي أثارها مجدفاه. فيما الانعكاس يهتز، بدا أن الماء العكر الموحد يحبره بشيء ما مفارق تماماً للسحب البلورية والسماء الشتوية.

أرعى مجدافيه، وتطلع ناحية غرفة الاستقبال الرئيسية في الدار، متابعاً الخادومات وهن عاكفات على العمل، كما لو كن ممثلات ينطلقن سرعات على خشبة مسرح نائية. لم يكن الشلال قد تجمد، لكن صوته تردد مكتوماً وغير منتظم. اعترضت الجزيرة نظرتيه إلى سفوحه الدنيا، ولكن عالياً، على الجانب الشمالي لتل القيقب كشفت أشجار الأغصان العادية من أوراقها عن البقايا الشهباء للجليد من على ضفتي الغدير.

أخيراً، دفع بزورقه إلى المرسى الصغير في الجزيرة، وثبته في عمود خشبي، وشق طريقه إلى أشجار الصنوبر الخضراء الباهتة التي توجت الهضبة الصغيرة المدورة. فيما هو يتطلع إلى طيور التم المعدنية الثلاثة، بدا أن منقاري الطائرين ذوي الرقبتين الممتدتين يشبهان سهمين كليلين موجّهين إلى السماء الديسمبرية.

ألقي بنفسه توأ على العشب الجاف، البني اللون، الذي نال الدفء من حرارة الشمس، ورقد هنالك، على ظهره، مدركاً أنه وحده تماماً، بعيد عن كل العيون، ثم فيما هو يستشعر تلك البرودة الزاحفة الراجعة إلى التجديف في أصابعه، التي أراح عليها رأسه، غلبه فجأة شعور عارم بالبؤس لم يملك له دفعة إلا في حضور الآخرين.

صاح محدثاً نفسه :

- هذا العام عامي ، وها هو قد انقضى ، انتهى ! تماماً كأنه سحابة انحلت عراها .

اندفعت الكلمات ، صادرة عنه قاسية ، دون أن يكبح شيء جاحها ، منهالة عليه بسياطها ، ومفاومة عذابه .

- فسد كل شيء ، لن تحملني الفرحة مخلقة بي ثانية أبداً . هناك صفاء رهيب يسود كل شيء ، كأنما العالم جُبل من بلور ، فما عليك إلا أن تنزِيل شظية منه بظفرك ، حتى تسري فيه كله رعدة واهنة . . . ثم تأتي الوحدة ، إنها شيء يتقد ، كأنها حساء حار ثقيل لا يمكنك وضعه في فمك ، إلا بعد أن تنفخ فيه مراراً وتكراراً ، وهي هنالك ، ماثلة على الدوام أمامي ، في وعائها الثقيل الأبيض من الخزف الصيني الغليظ ، أشهب وكثيب كأنه وسادة عتيقة . منذا الذي يواصل فرض هذه الوحدة عليّ؟

تركت وحدي تماماً ، أحترق بالرغبة . وإني لأمقت ما وقع لي ، ضللت طريقي ، ولست أدري إلى أين أمضي . وما يريده فؤادي لا يستطيع أن يناله . . . مباهجي الخاصة الصغيرة . طروحاتي المنطقية ، عمليات خداعي لذاتي - كل ذلك انقضى ! ولم يبق لي إلا لهب التوق إلى عهود مضت ، إلى ما فقدته . يعلو بي العمر للشيء ، لخواء رهيب تُركت . ماذا عساها تقدمه لي الحياة إلا المرارة ؟ وحيداً في غرفتي . . . وحيداً على امتداد الليالي بأسرها . . . معزولاً عن الدنيا وعن جميع من فيها بحاجز من يأس . ولئن صرخت فمنذا هنالك ليسمعني ؟ وفي غضون هذا كله ، فإن ذاتي الظاهرة للعيان تبدو رشيقة كعهداها . نبالة جوفاء - هذا هو ما بقي مني .

جثم سرب هائل من الغربان في فروع أشجار القيقب ، على التل . راح يصغي لنعيبها النشار ، وإلى خفق أجنحتها ، فيما هي تحلق فوق رأسه ماضية نحو التل الخفيض حيث مزار أو مياساما .

درج العرف على أن يقام، في وقت مبكر من كل عام يهل، الحفل الامبراطوري الشعري في القصر. ومنذ كان كيواكي في الخامسة عشرة من عمره، اعتاد النبيل أياكورا أن يرسل له دعوة، كل عام بلا استثناء، كنوع من رموز التثبيت للتدريب، الذي تلقاه كيواكي على يد النبيل. وفي هذا العام أيضاً وصلت دعوة كالمعتاد عن طريق وزارة الديوان الامبراطوري، وإن كان من شأن عدم وصولها ألا يثير الدهشة. فقد كان النبيل بسببه إلى الاضطلاع بدوره باعتباره قارئ شعر الامبراطور من جديد، دون أن تعوقه النقولات، ومن الجلي أنه رتب إرسال دعوة إلى كيواكي.

عندما أطلع كيواكي أباه على الدعوة، قُطِبَ الأمير لمراى توقيع النبيل أياكورا، بين توقعات قارئ الشعر الامبراطوري الأربعة، فقد كان يرى الترفع في ضوء جديد: ها هوذا يواجهه بعناء وصفاقة. أخيراً، قال:

- بما أنه احتفال منتظم، فخير لك أن تشهده، وإذا لم تشهده هذا العام فقد يشرع الناس في الحديث عن بعض الخلاف بين آل أياكورا وبيننا. ولا يفترض أصلاً أن تكون لنا صلة بهم فيما يتعلق بذلك الموضوع.

عاماً وراء عام، تزايدت أهمية هذا اللقاء الشعري، بالنسبة لكيواكي، وقد وصل إلى تقديره أعظم تقدير، فليس هناك وقت آخر تتجلى فيه مكانة النبيل أياكورا على نحو يفوق ما يحدث في هذه المناسبات. كما لم يكن بمقدور كيواكي تخيل دور يليق به أكثر من هذا الدور. ومن شأن مراى

النبيل الآن، بالطبع، أن يكون مؤلماً، ولكنه على الرغم من هذا شعر بأنه يريد أن يراه. أحس بالرغبة في أن يتطلع بنظرة فاحصة إلى الشظايا المهشمة لقصيدة، كانت ذات يوم تتدفق حياة بداخله أيضاً، إلى أن يكل بصره. وحدث نفسه بأنه إن شهد الحفل فإن صورة ساتوكو ستملأ ذهنه.

لم يعد كيواكي يعتقد أنه مجرد شوكة من الترفع انغرست في أصابع آل ماتسوجاي القوية، ولكنه كذلك لم يتغير إلى حد يعتقد معه أنه أحد هذه الأصابع. وكل ما حدث أن الترفع الذي كان جزءاً واعياً منه قد ذوى، وأصبح فؤاده مجرباً. لم يستطع العثور في أي موضع من نفسه على ذلك النوع من الأسى الشفيف، الذي يلهم القصائد. كان خاوياً الآن، وقد غدت روحه صحراء، تعصف بها الرياح الحارقة، لم يحدث من قبل قط أن شعر بأنه أكثر اغتراباً عن الترفع، وعن الجمال كذلك.

ومع ذلك، فربما كان هذا كله ضرورياً لإحرازه للجمال الحق - هذا الهواء الداخلي، هذا الفقدان لكل بهجة، حتى هذا العجز الكامل عن الاعتقاد بأن الوقر الطاغى لكل لحظة هوشيء حقيقي، بأن ألمه، على الأقل، هو شيء ينتمي إليه، ذلك أن الأعراض التي تظهر على رجل أصابته محنة الجمال الحقيقي تشبه كثيراً أعراض الجذام.

لما كان قد كف عن النظر في المرأة، لم يكن أمامه من سبيل إلى أن يعرف أن الشكل الحزين والمرهق الذي اتخذته ملامحه قد تطور إلى التعبير التقليدي عن الشاب الذي يأخذ النحول بخناقه من جراء الحب.

ذات مساء، عندما كان يتناول طعام العشاء، على مائدة أعدت له وحده، وضعت الخادم كأس نبيذ، إلى جوار صحفته، تتميز بجوانبها الزجاجية المشطوفة، التي غدا لونها قائماً بسبب السائل القاني الذي احتوته. ودون أن يكثر بسؤال الخادم، افترض أن السائل هو نبيذ، وأفرغ الكأس

في جوفه، دوغما تردد. ولكن، عندئذ، أحس بشعور غريب، ويمذاق ثقل
زلق على لسانه عقب ذلك.

- ماذا كان هذا الشراب؟

رد الخادم:

- دم سلحفاة نهاشة، يا سيدي! وقد أمرت بألا أخبرك بذلك، إلا إذا
سألت عما في الكأس. كان الطاهي، يا سيدي، هو الذي أمرني بذلك.
قال إنه يريد جعل السيد الشاب في تمام لياقته وصحته، من جديد؛ ولهذا
اصطاد سلحفاة من البحيرة، وأعدها لك.

فيما هو يحس بالسائل الزلق، على نحو لا يبعث على السرور، وهو
ينحدر في حلقه، تذكر قصة كثيراً ما استخدمها الخدم لإخافته، عندما كان
طفلاً. ومن جديد تراءت له الصورة الباعثة على القلق التي رسمها لنفسه،
في ذلك الوقت، وفيها ترفع سلحفاة نهاشة رأسها كأنها شبح رهيب من
قلب مياه البحيرة الكدرة، وقد ثبتت عينيها عليه، وهي مخلوق يرقد عادة
في طين القاع الدافئ، ولكنها لا تفتأ من وقت إلى آخر تشق طريقها إلى
سطح الماء، مخترقة الأعشاب المعادية في الحلم التي قهرت الزمن لتثبت
عينيها عليه، في كل مرحلة من مراحل عمره. ولكن، الآن، فجأة،
تبددت الرقية. لقد أطح الموت بالسلحفاة، وقد شرب لتوّه دمها، دون أن
يدري ذلك. وبذلك بدا أن مرحلة بأسرها قد انتهت، على حين غرة. وفي
أعماقه، تحول الرعب على نحو لين إلى طاقة غير مألوفة، راحت تشق
طريقها بداخله بقوة لم يستطع إدراك كنهها.

كان النظام المراسمي، المتبع كل عام، في الملتقى الشعري
الامبراطوري، يقضي بقراءة مختارات من الشعر، بحسب مكانة ناظمه،
ابتداءً بقصائد من نظم من هم في مرتبة أدنى. وفي حالة هذه القصائد
الأولى، فإن القارئ يبدأ بقراءة كلمات التقديم الموجزة من الشاعر ثم يعلن

عمله ومرتبته. غير أنه في حالة القصائد التي تعقب ذلك، يبدأ القارئ بإعلان العمل والمرتبة، ثم يشرع على الفور في قراءة القصيدة ذاتها.

ومن بين من يعملون بقراءة الشعر الامبراطوري، كان النبيل أياكورا حائزاً على شرف كونه القارئ الرئيسي. ومن جديد شرفه جلالة الامبراطور والامباطورة وسمو الأمير ولي العهد بأبداء اهتمامهم، فيما صوته الصافي النبرات، الجميل النغم، يتردد عبر القاعة.

لم تشب اختلاجة شعور بالذنب صفاء صوته. بل الأمر على العكس من ذلك، فقد تردد صوته بالغ التألق حتى ليشير مكامن الشجن في أفئدة سامعيه. وفيما هو يقرأ كل قصيدة، اتخذ الايقاع الوئيد لكلماته تمهل قدمي أحد كهنة الشتو المدسوسين في نعليهما الاسودين وهما ترقيان، إحداهما إثر الأخرى درج المعبد الحجري المستحم في الدفء الغريب المنبعث من الشمس الشتوية. كان صوتاً لا تتردد نغمته ذكورية ولا أنثوية.

لم تقطع سعدة واحدة صمت الجمهور. ولكن على الرغم من أن صوته كان فائقاً، في قاعة القصر، فإنه لم يتردد قط على نحو حسي، أو يجتذب الاهتمام إلى ذاته، على حساب القصيدة نفسها. كان ما ينهل من زوره هو جوهر الترفع ذاته، لا سبيل إلى الخجل للنفاذ إليه، وانساب مزيج المحير من البهجة والأسى، متدفقاً عبر القاعة، كأنه الغمامة السادرة في لفيفة تصاوير.

حتى الآن، كررت كل قصيدة مرة واحدة فحسب. ولكن عندما اختتم النبيل أياكورا قصيدة ولي العهد، بالصيغة التالية «تلك كانت المنظومة الأرفع قدراً، التي نظمها سمو وارث العرش الإمبراطوري» مضى فقرأها مرتين.

قرئت قصيدة الامباطورة ثلاث مرات. وقرأ النبيل البيت الأول، ثم ابتداء من البيت الثاني فصاعداً راح القراء الأربعة يتلون القصيدة وقد

توحدت أصواتهم، وتناسقت. وباستثناء الامبراطور نفسه، وقف باقي أفراد العائلة الامبراطورية، بمن فيهم ولي العهد، وبالطبع كافة الحاضرين يصغون إلى القصيدة.

نظم جلالة الامبراطور، هذا العام، قصيدة تميزت برهافة ونبل استثنائيين. وفيما وقف كيواكي مصغياً إليها، اختلس نظرة إلى النبيل أياكورا، الذي كان يقف على مبعده منه، ولاحظ كيف تستقر الورقة التي سطرت عليها القصيدة، مطوية، في يد النبيل الصغيرة، التي تشبه إلى حد بعيد يد امرأة. كان لون الورق البديع برقوياً فاتحاً.

على الرغم من أن قضية كان النبيل طرفاً فيها، وهزت البلاد بأسرها قد انتهت بالكاد، فإن كيواكي لم يدهش، عندما لم يسمع أي أثر لاختلاجة عصبية في صوته، دع جانباً الأسى العميق الذي يستشعره أب احتجبت ابنته عن الدنيا. تواصل الصوت نقياً، جيلاً، دون أن ترتفع نغمته إلى مستوى الحدة، مؤدياً على وجه الدقة ما عهد به إليه. دع ألف سنة تنقضي، ورغم ذلك سيظل النبيل يخدم امبراطوره، على نحو ما يفعل الآن، مثل أندر الطيور المغردة.

أخيراً، وصل الملتقى الشعري الامبراطوري إلى ذروته؛ فقد حان وقت قراءة قصيدة جلالة الامبراطور ذاته.

شق النبيل أياكورا طريقه في وقار حتى وصل إلى قرب الامبراطور مباشرة، وبجدية بالغة أخذ القصيدة الامبراطورية التي كانت موضوعة على غطاء حقيبة سوداء قائمة بالطريقة التقليدية، ورفعها إلى مستوى جبينه، ثم قرأها خمس مرات.

فيما هو يطالع القصيدة، غدا نقاء صوته أكثر جلاء، إلى أن وصل أخيراً إلى نهاية القراءة الخامسة، واختتم بهذه الكلمات: «تلك كانت القصيدة الأكثر بهاء لجلالة الامبراطور المقدس».

في غضون ذلك، تطلع كيواكي في وجل إلى محيا الامبراطور، وقد استحثت خياله ذكرى تربيت الامبراطور الراحل على رأسه حينما كان صبياً صغيراً. بدا جلالته بالغ النحول بالمقارنة مع ما كان عليه أبوه، وعلى الرغم من أنه كان يصغي إلى قراءة قصيدته، فإن محياه لم يفصح عن أي مؤشر للمشاركة، وإنما احتفظ بتناسكه الجليدي. فجأة، أخذت رعدة خوف بخناق كيواكي، حيال الفكرة غير الممكنة، على الاطلاق، المتمثلة في أن جلالة الامبراطور كان، في حقيقة الأمر، يكبح جماح غضب منصب عليه.

- لقد جرؤت على خيانة جلالته، ليس ثمة ما يمكن القيام به إلا أن ألقى حتفي.

تشبث، في عناء، بتلك الخاطرة، وهو يقف هناك، والهواء من حوله مثقل بعبق البخور الثري، وقد ساوره شعور بأنه قد ينهار في أية لحظة. أخذته رعدة، ولكنه لم يستطع القول بما إذا كانت من جراء النشوة أو الخشية.

حل شهر فبراير، واستغرق كل زملاء كيواكي في عملهم، حيث تنتظرهم امتحانات ما قبل إنهاء الدراسة، أما هو، بلا مبالاة بأي شيء من هذا القبيل، فقد ازداد عزلة عن ذي قبل. ومن المؤكد أن هوندا كان على استعداد لمساعدته في الاستعداد لاجتياز اختباره، ولكنه أحجم عن ذلك، شاعراً بأن كيواكي لن يقبل بذلك؛ فقد كان يعرف حق المعرفة كيف أن كيواكي يشعر بأعظم قدر من الاستياء حيال أي إبداء مفرط للصدقة.

في ذلك الوقت، طرح الأمير ذات يوم على ولده، فجأة، فكرة دخوله كلية ميرتون بجامعة أكسفورد. وكان من الممكن ترتيب دخوله الكلية، دونما صعوبة تذكر، خاصة وأن الأمير كان على صلة طيبة بعميد هذه الكلية الشهيرة، التي أسست في القرن الثالث عشر، ولكن لكي يتأهل كيواكي للالتحاق بها فإن عليه، في الأقل، أن يجتاز الامتحانات النهائية في مدرسة النبلاء. وفي حقيقة الأمر فإن الأمير كان يدرك بمزيد من الألم أن كيواكي قد أصبح أكثر شحوباً وارهاقاً وأن ذلك يتفاقم مع انقضاء كل يوم جديد، فابتكر أخيراً هذه الوسيلة لإنقاذ ولده، الذي أوشك على أن ينال مرتبة بلاطية من الدرجة الخامسة طبقة الشباب، على الأقل. ولما كانت خطة الانقاذ غير متوقعة بالمرّة، فقد ثار اهتمام كيواكي بها يقيناً؛ ومن هنا فقد قرر إبداء كل مظاهر الابتهاج، حيال اقتراح أبيه، في الوقت الراهن.

كان في السابق يكنّ رغبة معتدلة في أن يرى بعض معالم الحياة في الغرب. ولكن الآن، وقد تركز وجوده بأسره حول موضوع واحد، هو جزء

صغير جميل من اليابان، فإن بمقدوره أن ينظر إلى خارطة العالم المنتشرة أمامه، فتفرع نفسه بشعور بالفجاجة لا من قبل الحشد الكبير من البلاد الأجنبية، وإنما كذلك من قبل الصورة الملونة باللون الأحمر لبلاده، وقد التفت كأنها القريديس، في مواجهة جناح قارة آسيا. كانت اليابان الخاصة به خضراء اللون، بلاداً لا شكل لها مليئة بما يملأ القلب حنواً، ومنتشرة كأنها غمامة تعلو.

جلب أبوه خارطة جديدة هائلة، وأمر بها فعلقت، على جدار قاعة البليارد، ومن الجلى أن قصده كان إثارة أفكار كبار في ذهن كيواكي. غير أن بحارها المسطحة المجردة من الحياة لم تثر اهتمامه. وبدلاً من ذلك فإن ما خطر بباله تمثل في ذكرى بحر يكسوه الليل يشبه وحشاً أسود هائلاً تدب الحياة في دفته، وله نبضه الخاص، ودم يصرخ - البحر في كاماكورا، الذي عذبتة دمدمته الرهيبة حتى أقصى حدود الاحتمال ذات ليلة من ليالي الصيف.

وعلى الرغم من أنه لم يحدث أحداً بالأمر، فقد أطبقت عليه مؤخراً نوبات صداد متوالية وحالات دوار متتابعة، وتناقص نومه كل ليلة. وفيما هو راقد في الفراش كان يحدث نفسه بأن اليوم التالي سيجلب معه، يقيناً، رسالة من ساتوكو، ستحدد مكاناً وموعداً يلتقيان فيها ليهربا معاً. سيجدها في بلدة صغيرة غير مألوفة، ربما في ركن أمام متجر عتيق الطراز تم تحويله إلى مصرف. ستأتي عدواً إليه، وسيتلقاها في أحضانها، ويتشبث بها على النحو الذي طالما تاق إليه. تصوّر المشهد مراراً وتكراراً، حتى أدق تفاصيله. ولكن الصورة التي باتت أثيرة لديه، على هذا النحو، تشكلت في مرآة دعمت برقاقة معدنية مفضضة يسهل تمزيقها فلا تكشف إلا عن سواد مقيت. بللت دموعه وسادته، وهتف باسمها مراراً وتكراراً طوال الليل في إحباط مترع بالعجز.

في غمار قيامه بذلك، أتت عليه لحظات كانت صورتها تتبدى فجأة هنالك إلى جواره، في موضع ما بين الحلم والواقع. كفت أحلامه عن سرد أقاصيص تتسم بموضوعية تكفي لقيامه بتسجيلها في مذكراته. الآن، أقبل الأمل واليأس، والحلم والواقع، معاً، ليلغي أحدهما الآخر، وقد غدا الحد الفاصل بينها غامضاً، كأنه خط الماء عند الساحل، الذي تتكسر عليه الأمواج، المندفعة دوغماً توقف. هنالك، رأى للحظة، على سطح الماء الذي راح يترامى على الرمل الناعم، انعكاس محياها. لم تبد من قبل قط أكثر جمالاً وحزناً منها حينذاك. وعندما وضع شفثيه قرب هذا المحيا، الذي مضى يلتمع كأنه نجم المساء، تبدد، واختفى.

تزايدت، كل يوم، الرغبة المضطربة في الانعتاق من محتته. وعلى الرغم من أن كل شيء كان يحمل إليه رسالة واحدة - سواء أكان هذا الشيء كل ساعة، كل صباح، كل ظهيرة، وكل ليلة أو السماء، الأشجار، السحب، والريح، وكلها تحدّثه بأن عليه أن يدع ساتوكو وشأنها - فقد كان الافتقار لليقين لا يزال يعذبه. استشعر احتياجاً يائساً إلى أن يضع يديه على شيء واحد، في الأقل، مؤكد وقييني، أن يسمع ما لا يزيد عن كلمة واحدة من شفثيتها، إن كان بمقدوره أن يعلم بأنها كلمة حقيقية. وإن كانت كلمة تعد أكثر مما ينبغي أن يطلب، فإنه سيقنع بنظرة عجل يلقياها على محياها. لم يعد بمقدوره تحمل وقر قلقة الجائح.

في غضون ذلك، انجابت سريعاً عاصفة الشائعات. فلم يستغرق الناس وقتاً طويلاً لينسوا موضوعاً، لم يسبق له مثيل، ولم يطرح له تفسير، مثل فض خطبة، صدر مرسوم امبراطوري بالتصديق عليها، وذلك في عشية حفل الخطبة، خاصة وأن فضيحة رشوة في سلاح البحرية قد ظهرت لتستقطب شعورهم بالغضب.

قرّ عزمه على ترك الدار. غير أنه لما كان أبواه قد احتاطا للأمر، فإنها

كفًا عن تزويده بالمال؛ وبالتالي فلم يكن لديه حتى «سين» واحد.

بوغت هوندا، عندما طلب منه كيواكي مبلغاً من المال. ووفقاً لأفكار أبيه، كان قد فُتح له حساب مصرفي خاص به، كان حراً في التصرف به، كيفما طاب له. فقام بسحب المبلغ المودع فيه بكامله، وأعطاه لكيواكي، دوغماً سؤال واحد عما يعتزم إنفاقه فيه.

في صباح الحادي والعشرين من فبراير، جلب هوندا المال إلى المدرسة، وأعطاه إياه. بدت السماء صافية ومتألقة، لكن هواء الصباح كان بارداً على نحو مريب.

قال كيواكي، بعد أخذه المال، وقد شاب صوته شيء من الحياء:

- أمامك ثلث الساعة قبل بدء الدراسة، ألا تأتي وتودعني؟

تساءل هوندا، الذي غمره الذهول، إذ كان يعرف أن يامادا يربض، عند البوابة الامامية.

- إلى أين تمضي؟

رد كيواكي، مبتسماً، ومشيراً باتجاه الغابات.

- في ذلك الطريق.

سُرَّ هوندا لرؤيته صديقه، وقد بدت عليه علامات النشاط، للمرة الأولى خلال شهور طويلة، لكن توهج الصحة لم يعد إلى محياه، بل الأمر على العكس، فقد بدت ملامحه الهزيلة شاحبة ومتوترة، وذُكِّرت هوندا بسطح هش من الجليد في صدر الربيع.

- أتشعر بأنك على ما يرام؟

رد كيواكي، متقدماً صاحبه في مرح على الطريق الذي يخترق الغابات:

- أحسب أنني أعاني من نوبة برد، أما بخلاف ذلك فإنني في خير حال.

كان قد مرَّ وقت طويل، منذ أن رآه هوندا يسير متوفراً على هذا النحو.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان لديه فكرة طيبة عن الموضوع الذي تقوده إليه خطاه، لكنه لزم الصمت. اجتازا مستنقعا، رقت سطحه أشكال متداخلة من قطع الخشب المتجمدة وقد عكست على نحو كثيب أشعة شمس الصباح المائلة، وعندئذ خلفا الغابة وطيورها الصاخبة وراءها، وبلغا الحافة الغربية للأراضي التابعة للمدرسة.

وقفا الآن فوق قمة تل منحدر، امتد قبالة في البعيد صف من المصانع. مدت هنا وهناك دوغا عناية لفات من سلك الأسبجة الشائك كبديل لسياج فعلي، وغالباً ما كان أبناء الحي يتسللون عبرها إلى حرم المدرسة. وفيها وراء السلك الشائك، امتد التل المعشب مع امتداد الطريق، حيث رفع سياج خشبي فوق سور مجرى خفيض.

توقفا عند هذا الموضع. بعيداً، إلى اليمين، كان هناك خط ترام، وإلى وراء منه مباشرة تألقت الشمس من بين أسقف المصانع الارداوية الخشنة، فيها الأخيرة تتلقى عنفوان أشعتها الصباحية.

دارت مجموعة الآلات المتنافرة المجتمعة تحت هذه الاسقف بكل قوتها وأطلقت هديرًا كثيباً كالبحر. امتدت المداخل الكثيرة عالية نحو السماء، وترك الدخان الذي اندفع منها ظلاً راح يزحف فوق قمم المصانع، ويحجب الشمس عن الغسيل المنشور إلى جوار صف من الأكواخ. ولكن كان هناك أيضاً بعض الدور، لها أرفف نقالة مدلاة من السقف يعرض فيها عدد من شجيرات البونسية. وهنا وهناك كان المرء يرى التهامات مستمرة من الضوء. فمرة يأتي الالتصاع كانعكاس للضوء على زوج من الزرديات، استقر على ردف كهربائي، يتسلق عموداً، ومرة أخرى كان الالتصاع هو التآلق المخيف للهب، يتبدى من خلال نوافذ مصنع للمواد الكيماوية. وفي أحد المصانع، عندما توقف هدير الآلات، علا الدوي المتواصل للمطارق، وهي تنهال على مسحوب من الصلب.

في البعيد، لاحت شمس صافية، وفي الأسفل، امتد طريق، محاصراً أراضي المدرسة، كان هو الذي يوشك كيواكي على سلوكه في هربه. ارتعت ظلال الدور الصغير المصطفة بحذائه على سطحه الأبيض المترب. انطلق رجل بدراجة كثيبة صدئة، متجاوزاً مجموعة من الأطفال انهمكوا في تقاذف حجر بأقدامهم:

قال كيواكي.

- طيب. سأراك فيما بعد.

تلك كانت، بجلاء، كلمات وداع. وقد نقشت في ذهن هوندا نقشاً، ذلك أنه ولو لمرة واحدة تفوه كيواكي بتعبير مرح يليق بشاب في مثل عمره.

كان كيواكي قد ترك حقيقته المدرسية، في قاعة الدراسة. وكل ما يرتديه هو زيه المدرسي ومعطفه الذي يحمله صفان من الأزرار النحاسية والشارة المميزة، المتمثلة في زهرة الكرز المبرعمة، التي تمتد على صدره. وكان قد فتح ياقته، على نحو متأق، كاشفاً عن ياقة سترته المحكمة على طريقة البحرية مع الشريحة البيضاء من مادة السيلولويد بداخلها، والتي ضغطت على عنقه الفتى الآن، وهو يتسم لهوندا، فيما ألقت مقدمة قبعته بظلمها على وجهه، ثم التفت وهو لا يزال على ابتسامة، ولوى بعض الأسلاك الشائكة مباعداً ما بينها يديه المقفرتين، وتسلق مخترقاً الحاجز.

تم، على الفور، إبلاغ نبأ اختفائه لأبويه، اللذين أخذ الضيق منها كل مأخذ. غير أن حزم جدته هو الذي أعاد النظام من جديد.

- ألا ترون الأمر على وجهه الصحيح؟ إنه سعيد لذهابه للدراسة في انجلترا، وبما أنه يعترم الذهاب، فإنه يرغب أولاً في رؤية ساتوكو ووداعها. ولكن بما أنكم ما كنتم لتدعوه يقوم بذلك إن أبلغكم بالأمر أولاً، فقد مضى إلى هناك دون أن يبلغكم بشيء. هل هناك تفسير محتمل آخر؟ - ولكن من المؤكد أن ساتوكو لن تراه.

- لئن وقع ذلك، فإن اليأس سيساوره، ويعود إلى الدار فهو رجل في صدر العمر. عليكم بتركه وشأنه، إلى أن يبعد هذا الأمر من ذهنه. لقد كان ينبغي أن يحدث هذا النوع من الأمور؛ لأنكم حاولتم تضيق الخناق عليه.

- ولكن، يا أماء، بعد ما حدث، من الطبيعي توقع هذه الاجراءات الاحتياطية.

- ليكن، وهذا أمر من الطبيعي توقعه أيضاً.
- لتأخذ المسألة مداها، ولكن الأمر سيكون رهيباً، إذا ما تسرب نبأه.
سأنتصل بالمفتش العام، في الحال، وأوعز له ببدء البحث عنه سراً.
- بحث! ولم البحث؟ إنك تعلم إلى أين يمضي.
- ولكن ما لم يتم الامساك به وإرجاعه...
صاحت العجوز، وعيناها تتقدان غضباً:

- ستندم على ذلك! فقد يقوم بشيء فظيع، هذه المرة. لا بأس من أجل اعتبارات الأمان السعي في سبيل متابعة الشرطة للأمر في هدوء. ولئن تركونا نعلم مكانه بمجرد اكتشافهم له، فإن ذلك سيكون مفيداً، ولكن لما كنا نعلم تمام العلم إلى أين يمضي والسبب في ذلك، فعليهم أن يتعدوا عنه، وينبغي ألا يدعوه يتشكك في شيء. الآن توأ ينبغي ترك الفتى وشأنه ليمضي حراً تماماً، دون تدخل فيما يقوم به. بتعين القيام بكل شيء في هدوء، علينا أن ننتهي من هذا الأمر، دون أن نحوله إلى مأساة كبرى. هذا هو المهم. فلو وقع أي خطأ فادح الآن، فإن النتائج يمكن أن تكون في حجم الكارثة. ذلك هو ما أردتك أن تدركه.

في ليلة الحادي والعشرين من فبراير، نزل كيواكي في فندق بأوساكا، وصباح اليوم التالي دفع قيمة حسابه، واستقل قطاراً على خط ساكوراى إلى أوبيتوكي، حيث استأجر غرفة في نزل لأحد التجار يدعى نزل كوزونويا.

وما أن قام بهذا، حتى استأجر عربية ريكشو للذهاب إلى جيشو. واستحث رجل العربية للمضي عبر بوابة المعبد والانطلاق صعداً لاجتياز التل المفضي إلى المدخل الأمامي العائد إلى عهد تانج، حيث ترجل من العربية. وإذا ألقى نفسه إزاء امتداد مصمت لباب منزلق محكم الاغلاق، صاح منادياً. أطل بواب المعبد، وسأله عن اسمه وغرضه، ثم تركه واقفاً هنالك، وبعد انتظار قصير، كانت الراهبة الأقدم هي أول من أطل، ودون أن تسمح له حتى بأن يخطو خطوة واحدة إلى الدهليز الأمامي، صدّته بقولها في استياء لم تكثر بإحكام إخفائه إن نيافة رئيسة الدير لن تقابله، فضلاً عن ذلك فإنه أمر لا يخطر على بال أحد أن يسمح لكاهنة مبتدئة بمقابلته. وبما أنه كان يتوقع، بشكل أو بآخر، هذا الاستقبال فلم يلح كثيراً، وإنما غادر المكان من توه، وعاد إلى النزول.

أرجأ تحقيق آماله إلى الغد، وعندما فكر في عزلته في فشله الأول، وصل إلى استنتاج أنه يرجع إلى وقاحته المتمثلة في ركوبه عربية الريكشو حتى مدخل الدير ذاته، وقد دفعه إلى القيام بذلك حرصه وتعجله بالطبع، ولكن بما أن رؤية ساتوكو مرة أخرى كانت نوعاً من الضراعة، فقد وصل إلى أنه كان يتعين عليه الترجل عند البوابة والسير على قدميه من هناك سواء لاحظت الكاهنات ذلك أم غفلن عنه. من الخير له أن يقوم بأداء ما يعد تعبيراً عن الندم.

كانت غرفته بالنزل قذرة، والطعام لا طعم له، والليل متوشحاً برداً. لكن فكرة قرب ساتوكو منه منحته الآن شعوراً عميقاً بالاغتباط. وفي تلك الليلة، غط في نومه لأول مرة منذ شهور.

كان اليوم التالي هو الثالث والعشرون من فبراير، وقد أحس بأنه أكثر نشاطاً، ومضى إلى الدير مرتين - إحداهما في الصباح والأخرى في الاصيل - تاركاً عربية الريكشو عند البوابة، وصاعداً التل الممتد، على نحو يليق

بحاج. غير أن الاستقبال الذي لقيه لم يكن أكثر حرارة منه في الأمس. وفي طريق العودة، بدأ في السعال، واستشعر ألماً خفيفاً، في أعماق صدره. وقرر ألا يستخدم الحمام الساخن في النزول.

تبين أن عشاءه في تلك الليلة ينتمي إلى نوعية غير متوقعة بالمرة في نزل ريفي من هذا النوع. وفضلاً عن ذلك فلم يتحسن سلوك الجميع حياله فحسب على نحو ملحوظ، وإنما نقل على الرغم من احتجاجاته إلى أفضل غرفة يمكن أن يقدمها النزل. وعندما طلب تفسيراً لهذا من الخادمة، حاولت مراوغته في الإجابة. غير أنه حينما غضب منها، انحل اللغز، فقد أبلغته بأنه فيما كان بالخارج ذلك اليوم جاء رجل شرطة محلي وسأل صاحب النزل بمزيد من التدقيق عنه، ثم قال ذلك الشرطي إن كيواكي من عائلة رفيعة الشأن للغاية، وبالتالي يتعين أن يعامل بأعظم قدر من التوقير، ولكنه لا ينبغي بحال أن يعرف بأمر زيارة رجل الشرطة للنزل. وفضلاً عن ذلك فإنه إذا ما غادر الفندق يتعين إبلاغ الشرطة على الفور. داخل كيواكي شعور عارم بالخوف، وأدرك أنه ليس أمامه وقت يهدره.

عندما نهض في صباح اليوم التالي، الرابع والعشرين من فبراير، أحس بأنه ليس على ما يرام، ورأسه مثقل، وهمته فاترة. ورغم ذلك فقد عقد العزم على المضي، وإذا ما كان له أن يرى ساتوكو ثانية، فعليه أن يكرس قوته بأسرها للتوبة التي سيخوض غمارها، كائنة ما كانت المشقة التي سيتكبدها من جراء ذلك. وبهذه الحالة المزاجية انطلق من النزل، ودون أن يستأجر عربة الريكشو مضى لقطع المسيرة التي تزيد على ميلين إلى جيشو. ومن حسن الحظ أنه كان صباحاً جميلاً، غير أن الطريق نفسه لم يكن بالدرب المهد. وفضلاً عن ذلك فقد تفاقم سعاله خلال سيره وأحس في صدره كأن غباراً معدنياً يتهاوى. سيطرت عليه نوبة سعال ضارية عند مدخل جيشو ذاته. وظل التعبير المرتسم على وجه الكاهنة الأقدم التي قابلته

دوغما تغيير وهي ترفض طلبه بالكلمات ذاتها .

في اليوم التالي، الخامس والعشرين من فبراير، بدأت نوبات رعدة وحمى تأخذ بخناقها. وعلى الرغم من أنه أدرك أن الخروج مما يجافي الحكمة، فإنه استأجر عربة ريكشو مرة أخرى، ومضى إلى الدير، لا لشيء إلا ليتم صده كذى قبل تماماً. أخيراً شرع أمله في التهاوي، ورغم أنه قد أعاقته الحمى التي ترامت سحبها على ذهنه، فقد حاول تقويم الموقف، لكنه لم يخطر له سبيل عملي للتحرك. وفي نهاية المطاف، أبلغ كاتب النزل بأن يرسل برقية فحواها: «أرجو أن تأتي في الحال. إنني في نزل كوزونويا في أوبتيوكي على طريق ساكوراوي. لا كلمة لوالديّ. كيواكي ماتسوجاي».

وإذ تم القيام بذلك، أمضى ليلة بعيدة عن الراحة، قبل أن يستيقظ مترنحاً، في صبيحة السادس والعشرين من نوفمبر.

كان الصباح يضرب أطنابه، عندما تراقصت رقائق هشة من الثلج في الريح الصرصر، التي راحت تكتسح سهل ياماتو. وقد بدت بالغة الهشاشة حتى بالنسبة لثلج الربيع، ولكنها أكثر شبهاً بسرب من حشرات الصيف. وعندما ظلت السماء مكفهرة اختفت الرقائق في مواجهة السحب. وعندما تبرز الشمس مظلة بين السحب فحسب يدرك المرء الثلج الذروري المدوم. وكان البرد في الهواء أسوأ منه في يوم يهي فيه الجليد ثقيلًا مندفعاً.

فيما أراح رأسه على الوسادة، راح يتأمل في الكيفية التي يمكنه بها أن يبرهن على إخلاصه المطلق لساتوكو. كان قد قرر الباحة، في نهاية المطاف أن يناشد هوندا مساعدته، وكان على يقين من أن صديقه سيجيء اليوم لا محالة. وبوجود هوندا لمساعدته على التماسك، ربما يتمكن من تليين موقف رئيسة الدير، الذي لا يعرف اللين سبيلاً إليه. ولكن ثمة أمراً قبل ذلك يتعين القيام به، عليه أن يحاوله. وحيداً، ودون مساعدة من أحد، عليه أن يظهر نقاء إخلاصه. عندما تأمل ما مضى، أدرك أنه حتى الآن لم تنح له ولو فرصة واحدة لكي يبرهن على إخلاصه لساتوكو. وحدث نفسه بأنه ربما جعله جنبه يهرب من مواجهة أي فرصة من هذا النوع حتى الآن.

أما اليوم فهناك شيء واحد يمكنه القيام به، فأن يمضي خارجاً، رغم مرضه، ليخاطر بالتعرض لمرض أسوأ يعني تعبيراً أعظم مغزى عن توبته. والاخلاص البالغ على هذا النحو قد يثير استجابة من ساتوكو أو قد لا

يحدث ذلك مجدداً. وأياً كانت النتيجة، وحتى إن لم يكن هناك أدنى أمل في تأثيرها، فقد وصل الآن الى حالة ذهنية لن يقر معها له قرار، ما لم يقم بهذا العمل، ما لم يجترحه كعبير عن التوبة يقتضيه من نفسه. كان قد بدأ رحلته وقد استحوذت خاطرة واحدة عليه تماماً: أن يرى محياها، ولو في لمحة خاطفة. غير أنه في غضون ذلك اتخذ فؤاده قراراً من صنعه هو: أن يتجاوز مقاصده ورغباته.

كان جسمه هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تتصدى لهذا الدافع التجاوزي في فؤاده، فقد سقط في قبضة حمى موجعة، وامتد خيط ذهبي ثقيل عبر كل جزء منها مزيناً لحمه الحي بالألم والحرارة. انسابت القوة منه، وإذا رفع ذراعه فلن الجلد الشاحب يزرق في التوويغندو بارداً، ويصبح الذراع نفسه ثقيلاً كأنه بثر في دلو. وبدا أن سعاله يصدر عن بعد أكثر غوراً على نحو متفاقم في صدره، شأن الدوي الدائب لرعد بعيد، في أفق مظلم. وتمرد جسمه على مطالبه، حيث ناله الاعياء والتوتر حتى أطراف الأصابع تحت وطأة الحمى الحارقة، التي اندلعت فيه.

راح يهتف باسم ساتوكو بمزيد من اليأس، وتتابعت الساعات الجوفاء متطاولة. وقد أدرك الخدم في هذا الصباح للمرة الأولى في النزول أنه مريض، فعمدوا الى تدفئة غرفته، وانطلقوا في قلق يقومون بكل ما في وسعهم لضمان راحته، لكنه رفض في عناد أن يسمح لهم سواء بعلاجه بأنفسهم أو باستدعاء طبيب له.

أخيراً، في الأصيل، طلب من الخادمة أن تستاجر له عربة ريكشو، فترددت، ومضت لإبلاغ صاحب النزول بالأمر. وعندما أقبل الرجل الى غرفته، وحاول إقناعه بالبقاء في النزول، تجلد لكي يقف على قدميه، وارتدى زيه المدرسي، وتدثر بمعطفه دون مساعدة من أحد، لكي يوضح أنه متمتع بصحة طيبة. أقبل رجل عربة الريكشو. وانطلق كيواكي بها،

وساقاه ملفوفتان في بطانية دفعتهما خادمتان النزل إليه . ورغم ما كفلته له من حماية فقد إنقض عليه البرد بجبروته .

أطبق على عينيه دفق رقائق الثلج المدومة ، منسلأ من خلال الفتحات التي بقيت في عطاء الريكشو المصنوع من القماش الأسود . فجأة ، عاودته الذكرى المتوهجة لتلك النزهة عبر الثلج مع ساتوكو ، قبل عام على وجه التحديد ، وانقبض صدره من فرط الانفعال والألم الخائق .

لم يعد بمقدوره أن يقبع وسط العتمة داخل عربة الريكشو المتأرجحة ، دون أن يقوم بشيء ، إلا محاولة تحمل الألم الناشب في رأسه ، أرخى الطية الأمامية لسقف العربة ، ثم جذب لفاعته فوق فمه وأنفه ، وراح يتطلع الى المعالم الطبيعية التي يمر بها ، وعيناه تدمعان بتأثير الحمى . أراد أن يخلص ذهنه من أي صورة تدفع أفكاره باتجاه الألم ، الذي يسحقه سحقاً .

كانت عربة الريكشو قد اجتازت بالفعل أحياء أوبيتوكي الضيقة . همى ثلج ذروي على الحقول ومسطحات الأرز ، على جانبي الطريق المسطح ، الذي يفضي مباشرة الى حيث ينتصب دير جيشو وسط الجبال التي كستها السحب ، تساقط على أكداس حزم الأرز التي تركت في المسطحات ، وعلى أوراق التوت الداوية ، وعلى الحضرة المرتفعة لوريقات أشجار الباكشوى ، التي تفصل مسطحات الأرز عن بساتين التوت ، على الأعشاب ذات اللون الصديء ، وعلى البرديات في المستنقعات ، واصل التساقط دوغما صوت ، لكنه لم يكن كافياً ليكسو الأرض . وحتى الرقائق التي سقطت على بطانية كيواكي تبددت دون أن تترك قطرات واضحة للعيان من البلل .

شاهد بياض السماء المسطح ينمو تدريجياً في الإشراف ، الى أن سطعت شمس شاحبة ، في نهاية المطاف ، من بين السحب . تزايد امتزاج الثلج المتساقط بهذا الإشراف الجديد الى أن بدا مثل رماد أبيض يطفو في الهواء .

على امتداد الطريق ، راح العشب الطويل ، الجاف ، يتأرجح في مهب

الريح الخفيفة، وقد تألقت أطرافه الريشية ألماً فضياً خفيفاً في سنا الشمس الفاترة. وفيما وراء الحقول، اكتست سفوح التلال باللون الرمادي، ولكن في البعيد كان هناك ركن من السماء الزرقاء الصافية والجبال التي توج الجليد هاماتها ببياض يخطف الأبصار.

فيما راح كيواكي يحدق في معالم الطبيعة من حوله، وأذناه تطنان من جراء الحمى، ساوره شعور بأنه حقاً على اتصال بواقع خارجي، للمرة الأولى خلال شهور طويلة. كان العالم من حوله ساكناً تماماً. ربما أدى تأرجح العربة وثقل مقلتيه الى اختلاط جزئيات ما رآه، ولكن أياً كان التشوه العرضي في الرؤية، فقد كانت تلك مواجهة على قدر كاف من الوضوح. وبما أنه كان يضطرب، لوقت بالغ الامتداد، في ظلمة عشوائية من الحزن والقلق، فقد لطمته التجربة بكل عنفوان الجديد، وفضلاً عن ذلك لم يكن هناك أثر للحياة البشرية.

كانت عربة الريكشو تدنو بالفعل من الخيزران الكثيف الذي يكسو جانب الجبل، ويحيط بدير جيشو ذاته. وفي الأعالي، أمامه انتصبت أشجار الصنوبر التي تحف بالطريق لدى بدء إنطلاقه صعوداً داخل البوابة. عندما رأى جانبي البوابة الحجرية الخشنة، في نهاية امتداد الطريق الذي تكتسحه الرياح، تشنج من جراء انقباضة من الخوف المؤلم.

حدث نفسه قائلاً: «لئن اجتزت البوابة في عربة الريكشو ثم قطعت الأمتار الأربعمئة أو نحوها حتى الباب الخارجي، لئن مضيت راكباً طوال الطريق، فإن شعوراً يساورني بأنني لن يدعني أرى ساتوكو اليوم أيضاً. ربما تغيرت الأمور قليلاً منذ المرة الأخيرة. ربما انضمت الكاهنة العجوز الى صفي في حديثها مع رئيسة الدير، فلانت الآن قليلاً، ولئن رأيت أنني جئت صعوداً على الأقدام عبر الثلج، فربما تركتني رئيسة الدير أرى ساتوكو، ولو للحظة واحدة. ولكن إذا مضيت الطريق كله بالعربة،

فقد يترك ذلك انطباعاً سيئاً لديهن، ويشير رد فعل غريزي لديهن ضدي، وعندئذ قد تقرر رئيسة الدير ألا تدعني أرى ساتوكو قط. لا بد أن كل جهودي قد أحدثت بعض التغيير في قلوبهن. الأمر يشبه مروحة مؤلفة من مئات الألواح الرفيعة الرقيقة، التي يضمها معاً مسبار واحد. ولو أني كنت مهملًا على الإطلاق لانفك المسبار، وتداعت المروحة بأسرها. وإذن، فلو أنني مضيت راكباً العربة على امتداد الطريق بأسره حتى الباب الخارجي، ولم أتمكن من رؤية ساتوكو، فإنني سأشعر بأن الخطأ جتته يداي، وسأحدث نفسي بأن ذلك يرجع الى عدم إخلاصي، وسأعلم في قرارة فؤادي بأنني لو ترجلت من عربة الريكشو وسرت على قدمي مهما كان شعوري بالضعف، فإن مثل هذا الاخلاص - حتى وإن لم تدركه - سيؤثر فيها وستراني. هكذا الأمر، إذن. ليس هناك سبب لمشاعر الندم هذه، ليس أمامي من خيار إلا المخاطرة بحياتي إذا أردت رؤيتها. إنها بالنسبة لي جوهر الجلال.

وهذا وحده هو الذي جلبني حتى هذا المدى.

لم يعد هو نفسه يدري ما إذا كان تفكيره منتظماً، أم أن الحمى قد جعلته يضطرب. أمر رجل عربة الريكشو بالوقوف عند البوابة، وبعد أن ترجل من العربة أبلغه بأن عليه الانتظار هنالك، وشرع يرقى التل. أطلت الشمس عبر السحب من جديد، وتراقصت رقائق الثلج في أشعتها الشاحبة. ومن أجمات الخيزران على جانبيه سمع تغريداً، كأنه شقشقة قُبْرة. كانت أشنة خضراء تعلو جذوع أشجار الكرز العارية، التي تناثرت بين أشجار الصنوبر، على امتداد الطريق. ازدهرت شجرة برقوق واحدة متألقة البياض وسط الخيزران.

بعد أن سلك هذا الطريق ست مرات، خلال الأيام الخمسة الماضية، سيبدو أنه لم يعد هناك ما لم يلق عليه نظرة. ولكن فيما بدأ في شق طريقه صاعداً من حيث غادر عربة الريكشو، بساقين بعيدتين عن الثبات وقدمين

متعثرتين، راح يتطلع حوله، واكتسى العالم بصفاء يحمل سمة الحداد في عينيه المحمومتين. اكتسبت معالم الطبيعة التي أصبحت مألوفة لديه في الأيام الأخيرة طابعاً جديداً غريباً. الآن أوشك على توتر أعصابه. وفي كل لحظة إندلعت أسهم فضية حادة النصال من البرد مخترقة عموده الفقري. السرخسيات على امتداد الطريق، الزهريات الحمراء المدببة الأطراف وإبر الصنوبر، التي تصدر الريح زفيفها، إذ تحترقها، وأشجار الخيزران بجذوعها الخضراء وأوراقها المصفرة والعشب الجفاف الوفير - كل شيء تابعته عينا كيواكي، الى أن بلغت الظل الأسود، الذي ارتقى عبر الطريق أمامه، فيما الأخير يترامى عبر أجمة أرز. هوذا عالم يحفه صمت، لا تقطعه نامة، ولا تشوب صفاءه المطلق أية شائبة، من أي نوع. وكان يعلم أنه في قلب هذا العالم، وعلى نحو مؤلم يستعصي على الافصاح، وفي قراره المكين كانت هنالك ساتوكو ذاتها، وشخصها هادئ وساكن كأنه تمثال بديع من الذهب. ولكن أيمن لمثل هذا العالم الساكن والكامل، الذي يتجنب كل ألوان الحميمة أن تكون له حقاً أي علاقة بالعالم المألوف الذي عرفه؟

ازداد تنفسه صعوبة، فيها هو يسير. توقف ليلتقط أنفاسه، واقاعد صخرة ضخمة الى جوار الطريق، ليلطمه حتى العظام في التوربدها الحاد، كأنما ليس بمقدور طبقات ملابسه أن تفعل شيئاً لإعاقته. سعل سعالاً عميقاً، وفي غمار ذلك، رأى أن المنديل الذي أطبقه على فمه قد كساه بلغم صديء اللون.

بعد تراجع نوبته تدريجياً، تطلع، وقد أخذ منه الدوار، الى قمم الجبال النائية التي كساها الجليد، والتي شمخت فيما وراء كثافة الأشجار الهشة. ولما كانت عيناه مليئتين بالدموع، من جراء نوبة سعاله، فقد بدا أن رؤيته المضطربة تزيد من تألق الجليد. وفي هذه اللحظة، عاودته ذكرى عيد ميلاده الثالث عشر، ومرة أخرى كان وصيفاً إمبراطورياً يتطلع الى الأميرة

كاسوجا أمامه، فيها هو يمسك بطرف رداثها. كانت القمم الجليدية المترامية أمام ناظرية اليوم هي نفسها صورة البياض عينها التي فتنته في ذلك اليوم - اللون الصافي لمؤخرة العنق، تحت سواد شعرها الملتصع. تلك كانت اللحظة في حياته، التي دفع فيها الجمال الأنثوي القدسي به لأول مرة الى محراب عبادته.

احتجبت الشمس من جديد، وهمى الثلج تدريجياً بمزيد من الثقل، نزع قفازه، وأمسك ببعض الرقائق في إحدى يديه. كانت راحته تتوهج بتأثير الحمى، فذابت الرقائق أمام ناظرية بمجرد لمسه لها، راح يفكر في مدى اعتنائه بيده الجميلة التكوين، لم تتسخ قط، لم تعرف فرحة أبداً. لقد استخدمها، ولكن في مجال العاطفة فحسب.

نهض، أخيراً، وشرع في السير من جديد، متسائلاً عما إذا كان سيستطيع الخوض في الثلج والوصول الى المعبد. وفي الوقت الذي ارتقى فيه الى أجمة الأرض تقاوم هبوب الريح، وطنٌ زفيفها في أذنيه. خفت كثافة أشجار الأرض لتكشف عن بحيرة صغيرة، كان سطحها المتجمد تموجات ساكنة تحت سماء الشتاء ذات اللون الرصاصي. ما إن تجاوز البحيرة حتى أطبقت عليه الظلمة الجهممة لأشجار الأرض العجوز الكثيفة من جديد، وقد حجبت أغصانها جبروت الثلج المتساقط في مضاء وعزم.

في ذلك الوقت، لم يعد له إلا هدف واحد: أن يواصل وضع قدم أمام الأخرى. تداعت كل تذكارات ماضيه، وأصبح الآن يعلم أن المستقبل لن يكشف عن نفسه إلا بهذه السرعة، قدماً وراء آخر، متراً فأخر، فيما هو يجالذ على نحو مؤلم شاقاً طريقه الى الأمام.

اجتاز البوابة السوداء دون أن يدرك ذلك، وعندما تطلع أمامه ألفى بوابة التانج ذاتها قبالة. تشبث الثلج بصف القرميد الاحواني الذي شكل طنفها.

إنهار أمام الباب المنزلق، وانخرط في نوبة سعال بالغة العنف، حتى لم تعد به حاجة الى أن يهتف منادياً.

فتحت الكاهنة الأقدم الباب على الفور، وشرعت تدلك ظهره لتخفيف أزمته. وفي نوع من الغيبوبة ساوره شعور تستعصي قداسته على الوصف بأن ساتوكو قد جاءت وأن يديها تدلكانه الآن.

لم تبادر الكاهنة الأقدم الى رفضه اليوم، في التو، على نحو ما فعلت من قبل. وبدلاً من ذلك، تركته هنالك، بعد لحظات قلائل، وعادت الى الداخل مجدداً. انتظر طويلاً، شاعراً باللحظات تتساول، دوغما انتهاء. وفيما هو ينتظر بدا أن سحابة تغشى ناظره. انحل المله وأمله البهيج تدريجياً معاً ليتحوला الى حالة واحدة غامضة من حالات الوعي.

سمع أصوات نساء، تتردد في حوار متدفق، ثم ساد الصمت من جديد. عندما فتح الباب المنزلق مرة أخرى كانت الكاهنة الأقدم وحدها.

- آسفة، فلا يمكن تلبية طلبك اللقاء. كائناً ما كان عدد المرات التي تمجيء فيها الى هنا، يا سيدي، سأضطر الى الرد عليك بالاجابة نفسها، وسأرتب أمر اصطحاب خدام الدير لك؛ ولذا أرجو أن ترحل لطفاً!

عاونه البواب، الذي كان رجلاً قوياً، لحسن الحظ، فانكفأ على الطريق، عائداً الى حيث كانت عربة الريكشو تنتظر.

وصل هوندا الى النزول في أوييتوكي، في وقت متأخر من ليل السادس والعشرين من فبراير. وما إن رأى مدى خطورة حالة كيواكي، حتى انصرف همه الى اصطحابه الى طوكيو في الحال، ولكن صديقه رفض ذلك رفضاً مطلقاً. واكتشف أن الطبيب المحلي، الذي استدعي في وقت سابق في المساء، قد قال إن الاعراض تشير الى إصابته بالسل.

توسل إليه كيواكي في يأس، فهو يريد أن يمضي صديقه الى جيشو، في اليوم التالي، ليحدث رئيسة الدير، ويبذل كل جهده لتلين موقفها. ولما كان هوندا ليس طرفاً في الأمر، فإن كلماته ربما يكون لها بعض التأثير على نياقتها. وإن لان جانبها فإنه يريد أن يصحبه هوندا الى المعبد.

قاوم هوندا لبعض الوقت، ولكنه استسلم، في نهاية المطاف، موافقاً على تأخير رحيلهما يوماً واحداً، وسيحاول مهما كُبه الأمر مقابلة رئيسة الدير، في الغد، وبذل كله ما في وسعه من أجل كيواكي، لكنه جعل صديقه يعد خُلصاً بأنه إذا ظلت على رفضها فإنه سيعود الى طوكيو معه في التو. ومكث هوندا يقظان طوال الليل، عاكفاً على تغيير قطع القماش المبتلة على صدر كيواكي. وعلى ضوء المصباح الكابي في الغرفة، رأى أن جلده، رغم بياضه، قد اكتسب حمرة خفيفة، من القماش الطبي الذي يغطيه.

لم يكن قد بقى على الامتحانات النهائية الا ثلاثة أيام. وتوافرت لدى هوندا كل الأسباب التي تدعو والده الى معارضة قيامه بهذه الرحلة، على الاطلاق، الآن. ولكنه عندما اطلع أباه على برقية كيواكي، أدهشه أنه قال

له بأن يمضي في الأمر قدماً، دون أن يسأله عن المزيد من التفاصيل. وقد وافقت أمه تماماً. لقد كان القاضي هوندا على استعداد، ذات يوم، للتضحية بحياته العملية، من أجل زملائه القدامى، الذين أرغموا على التقاعد؛ لأنه تم إلغاء نظام شغل المنصب طوال العمر. والآن عزم على أن يعلم ابنه قيمة الصداقة. وعكف هوندا خلال الرحلة بالقطار الى أوساكا على العمل منكباً، وحتى الآن، وهو الى جوار فراش كيواكي، كان يمسك بكراسة المنطق الخاصة به مفتوحة الى جواره.

في دائرة واحدة من الضوء الأصفر الشاحب، التقط المصباح فوقهما الرموز المطلقة للعالمين المتعارضين رأساً، اللذين وهب هذان الشبان نفسيهما لهما. فأحدهما يرقد مصاباً بمرض خطير من أجل الحب، والآخر يعد نفسه لمتطلبات الواقع الجسام.

كان كيواكي، وهو شبه غاف، يسبح في بحر لحي من العاطفة، وقد أطبقت الأعشاب على ساقيه. أما هوندا فكان يحلم بالعالم باعتباره يستند مستقراً على أساس من النظام والمنطق. وهكذا، على امتداد ليلة مريرة في الربيع الباكر، في غرفة بنزل ريفي عتيق، تقارب رأسا هذين الشابين تحت الضوء، أحدهما عقلانيّ على نحو بارد، والآخر يتقد بالحمى، وكل منهما في نهاية المطاف ترتبط بإيقاع عالمه الخاص.

على امتداد صداقتهما، لم يكن هوندا أكثر إدراكاً منه الآن للاستحالة المطلقة لاستكناه حقيقة أفكار كيواكي. كان يرقد أمامه، ولكن روحه كانت نائية، تحوّم في مكان آخر. في بعض الأحيان كان يهتف هاذياً باسم ساتوكو، ويفيض خداه بالحمرة. فقد وجهه طابعه المرهق وبدا أكثر صحة من المألوف، وتوهج جلده كأنه عاج بديع داخله نار. ولكن هوندا كان يعلم أنه ما من سبيل أمامه للوصول الى هذا الجوهر. راح يحدث نفسه بأنه ها هنا أمامه مثلث العاطفة بأصدق معانيها. ذلك النوع من العاطفة الذي

لن يسيطر عليه أبداً، وفكر في أنه أكثر من هذا أليس صحيحاً أنه ما من عاطفة، كائنة ما كانت، ستفلح في اكتساحه والتغلب عليه؟ ذلك أنه أدرك أن طبيعته تفتقر فيما يبدو، الى شيء ما هنالك. لماذا يصب كل طاقاته على نحو غريزي في الحفاظ على مظهر داخلي وخارجي مناسب؟ لماذا عجز - على العكس من كيواكي - عن فتح روحه للعناصر الأربعة الكبرى البدائية: النار، الريح، الماء، والتراب؟

عادت عيناه الى الكراسة المفتوحة أمامه، وقرأ مكتوباً بخطه الأنيق الدقيق:

«سيطر منطق أرسطو الشكلي على التفكير الأوروبي، حتى نهاية العصور الوسطى، على وجه التقريب. ويقسم هذا الى عهدين، يسمى أولهما «المنطق القديم» والأعمال التي طرحت كانت «العبارات الجدلية» و«المقولات» من الأورجانون. وأما القسم الثاني فيسمى «المنطق الجديد». وقد يقال إن هذا العهد تلقى قوة دفعه الأولية من الترجمة اللاتينية الكاملة للأورجانون، التي تم الفراغ منها في منتصف القرن الثاني عشر...».

لم يستطع الحيلولة دون تفكيره في أن هذه الكلمات، شأن نقوش حفرت في حجر معرض لتقلبات الطقس، ستسقط من ذهنه، كالرقائق، إحداها وراء الأخرى.

كان هوندا قد سمع بأن يوم الدير يبدأ مبكراً؛ ولذا فقد انتزع نفسه من إغفاءة قصيرة، وقت بزوغ الفجر تماماً. وبعد إفطار سريع، طلب من الخادم أن تستأجر له عربة ريكشو، وتأهب للانطلاق.

تطلع إليه كيواكي من فراشه، وقد امتلأت عيناه بالدموع. وكل ما ملكه هو نظرة ضراعة، فيما هو يسند رأسه الى وسادته، لكن النظرة اخترقت هوندا كالخنجر. كان قد اعتزم حتى هذه اللحظة القيام بزيارة، يعوزها الحماس، الى جيشو، ثم الذهاب بصديقه، الذي اشتد به المرض الى طوكيو، بأسرع ما يستطيع. ولكنه ما إن رأى النظرة المرتسمة في عيني كيواكي، حتى عرف أنه أياً كان ما سيتكبد، فعليه ببذل كل جهوده لتدبير لقاء بين صديقه وساتوكو.

ومن حسن الطالع أن الصباح كان يضيوع بالدفء، وربما كان ذلك بشير خير. دنت الريكشو التي يستقلها من مدخل الدير، فلاحظ أن رجلاً عكف على الكنس هناك قد اختلس نظرة إليه من بعيد، ووضع مكنته أرضاً على حين غرة، واندفع الى الداخل، فحدث نفسه بأن الزبي المدرسي الذي يرتديه والمطابق لزي كيواكي قد جعل الرجل يلزم الحذر، ويسرع لتحذير من الداخل. ظهرت الكاهنة بالباب، وعلى ملامحها تعبير يوحي بتصميم رادع، حتى قبل أن يتمكن من الإفصاح عن هويته.

- عفواً، أيتها الأخت. اسمي هوندا، ويؤسفني أن أتطفل عليك، ولكنني جئت من طوكيو بسبب هذا الموضوع، المتعلق بكيواكي ماتسوجاي.

سأكون ممثناً أشد الامتنان، إذا وافقت نيافة رئيسة الدير على لقائي .

ردت الكاهنة :

- انتظر للحظات قلائل، لطفاً!

وقف هنالك، وقتاً متطاولاً، على العتبة الأمامية، ثم فيها هو عاكف على التفكير في الحجج المضادة المختلفة لاستخدامها في حالة الرفض، أدهشته الكاهنة ذاتها بالمجيء والمضي به الى قاعة استقبال في الداخل. بدأ الأمل، وإن كان ضئيلاً، في التحرك في أعماقه.

ترك وحيداً من جديد في قاعة الاستقبال. تناهت شقشقة الطيور المغردة من الحديقة الداخلية، على الرغم من أن الباب المنزلق كان موصداً تماماً، ولا سبيل أمامه لرؤية الحديقة. استطاع وسط الظلال بالكاد تمييز التصميم الورقي الزخرفي المؤلف من السحابة وزهرة الاقحوان على مقبض كل باب. هوى ترتيب الزهور في ركن «التوكونوما»^(١) أزاهير اللفت وبراعم الخوخ. بدت الزهور الصفراء المتألقة نابضة بقوة الريف الربيعي، وحمل اللحاء الكابي والوريقات الخضراء الشاحبة على غصن الخوخ جمال براعمه المفتحة. كانت الأبواب المنزلة بيضاء اللون، ولكنه لاحظ ستاراً مطويّاً الى جوار الحائط بدا أنه شيء ثمين، فمضى إليه.

مضى يتفحصه بالتفصيل. كان ستاراً يصوّر مشاهد كل من شهور العام الاثني عشر، نُفّذ في الجزء الأكبر منه بأسلوب مدرسة كانو، وإن كانت قد أثرت الألوان النابضة بالحياة، التي تنتمي تقليدياً الى ياماتو.

(١) التوكونوما: هو ذلك التجويف في غرف الدار اليابانية الذي يستخدم تقليدياً لحفظ المقتنيات الثمينة والأشياء التي تحظى بالتوقير أو التقديس أو التي تعد ذكراً أو تراثاً عائلياً. (هـ. م. ٠٠)

بدأ فيض المواسم، على الستار، بالربيع عند الحافة اليمنى، وراح رجال البلاط يستمتعون في الحدائق تحت أشجار الصنوبر والبرقوق البيضاء، كست كتلة من السحاب الذهبي سرادقاً يحيط به سور من أشجار السرو، عدا حيز بالغ الضيق أفلت من السحاب. وإلى اليسار قليلاً، راحت مَهْر تتقافز بألوانها العديدة. وتحولت البحيرة، في الحديقة، عند أحد المواضع إلى مسطح لزراعة الأرز، وهنا عكفت فتيات في مقتبل العمر على العمل في غرس شتلات الأرز. وانهل شلال صغير من السحاب الذهبي، وتساقط على مرحلتين إلى بحيرة أخرى. أفصح الظل الأخضر للعشب عند حافة الماء عن مقدم الصيف. علق رجال البلاط رايات ورقية بيضاء، من أجل التطهر، مع مقدم الصيف على الأشجار والشجيرات، حول البحيرة، بحضور صغار المسؤولين والخدم الذين يرتدون الثياب القرمزية. راحت الغزلان ترعى هائشة في حديقة مزار، واقتيد جواد أشهب إلى خارج بوابة مقنطرة. وانهمك الحراس الأمباطوريون، وقد تسلحوا بالأقواس والسهام في الاستعداد لموكب احتفالي، وعكست أوراق أشجار القيقب المتراصة في البحيرة لذعة برد الشتاء الوشيك القدوم الذي سرعان ما سيفرض حضوره، وبعد ذلك بقليل انطلق المزيد من رجال البلاط في الصيد بالبزة، على جليد مذهب. وكانت السماء بدورها ذهبية تتألق عبر الأغصان المثقلة بالثلج لأجمة خيزران. وانهمك كلب أشهب في مطاردة مليئة بالنباح لطائر حجل، ذي لمسة حمراء عند عنقه، اندفع عبر الأعشاب الجافة كأنه سهم وأفلت إلى رحاب السماء الشتوية، ووصلت الصقور المستقرة على أرسفة رجال البلاط بعيون مليئة بالصلف إلى الحجل الهارب.

عاد إلى موضعه، بعد أن تفحص على مهل ستار التسوكينامي. ولكن لم يظهر أي أثر لمقدم رئيسة الدير.

عادت الكاهنة، وانحنى محيية، وقدمت له الشاي والكعك، وأبلغته

بأن رئيسة الدير ستصل، في غضون لحظات قلائل، وطلبت منه أن يأخذ راحته خلال انتظاره لها.

إستقرت علبة صغيرة مزينة بصورة من النقش البارز، على المائدة. لا بد أنها كانت من منتجات الدير، وفضلاً عن ذلك فقد كانت توشي بافتقار الى الخنكة في الابداع اليدوي جعله يتساءل عما إذا كانت يد ساتوكو التي لم تصقلها التجربة هي التي تقف وراءها. كان الورق الملصق على الجوانب والصورة المبطن المركبة على الغطاء غارقين في الألوان كليهما، وفقاً للذوق السائد في البلاط الإمبراطوري، فتبدت الألوان مسرفة ومبهرجة على نحو طاغ. في الصورة، كان صبي يطارد فراشة، وفيما هو يندفع وراء الحشرة، التي تجمع أجنتها بين اللونين الأحمر والأرجواني، أوحى وجهه وبشرته الحريية البيضاء وعريه الريان بجمال حسي، لا تتمتع به إلا دمية من دمي البلاط. بعد مسيرة هوندا، عبر الظلام والحقول التي توجها صدر الربيع وصعد الجبل مخترقاً الغابات التي لا تزال على عزلتها، أحس أنه عايش، ها هنا في قاعة الاستقبال الحافلة بالظلال، تلك العذوبة الثقيلة للزجة، التي هي جوهر الأنوثة.

سمع حفيف ثياب، ثم ولجت نياقة رئيسة الدير بنفسها الباب، قادمة من الدهليز، متكئة على ذراع الكاهنة الأقدم. انتصب هوندا واقفاً، لكنه لم يستطع التحكم في خفقان قلبه.

من المؤكد أن رئيسة الدير قد أوغلت في العمر، ولكن الملامح الدقيقة، في الوجه الصافي البشرة، الذي يعلو الرداء الأرجواني الخش، بدت كما لو كانت قد نحتت من خشب البقس الأصفر البديع، ولم تفصح عما يدل على العمر. ارتسم تعبير دافئ عليها، فيما صاحبها تجلس قبالتها الآن. اقتعدت الكاهنة الأقدم كرسياً على أحد الجوانب.

- هكذا، إنهن يقلن لي إنك قدمت من طوكيو؟

- نعم، نيافتك.

قالها هوندا، مستشعراً صعوبة في نطق كلماته أمامها.

قالت الكاهنة الأقدم، على سبيل المشاركة في الحديث:

- يقول هذا السيد إنه زميل في الدراسة للسيد ماتسوجاي.

قالت رئيسة الدير:

- آه، نعم لقد كنا، في حقيقة الأمر، نشعر بالأسف لابن الأمير، غير

أنه...

أخيراً، أحس هوندا بأنه قادر على الحديث بحرية:

- أصابت حمى رهبة ماتسوجاي، وهو معتكف في الفراش بالنزل، وقد

تلقيت برقية منه فجئت الى هنا مسرعاً، بقدر ما وسعني ذلك. واليوم جئت

ها هنا بدلاً منه لأتقدم بالطلب، الذي رجاني أن أطرحه.

حدث نفسه بأن هذا هو على الأرجح الشعور الذي يساور المحامي

الشاب، لدى وقوفه أمام المحكمة. وبغض النظر عن الحالة المزاجية

للقضاة عليه أن يمضي في الأمر قدماً، حريصاً الحرص كله على دفاعه، دون

أن يكثر بشيء إلا بإنقاذ موكله.

أبلغ رئيسة الدير بالصدقة، التي ربطته بكيواكي، ووصف المرض

الذي ألم به، وأوضح لها أن كيواكي يخاطر بحياته حتى ولو من أجل أقصر

اللقاءات مع ساتوكو. ولم يتردد في القول بأنه إذا ما انتهى هذا كله نهاية

مأساوية، فإن ديرجيشولن يخلو عما يدعوه الى الندم. وازداد انفعالاً، فيما

كلماته المحمومة تتقاطر. وعلى الرغم من أن الغرفة كانت شديدة البرد، فقد

أحس باتقاد أذنيه وجبينه.

وكما يمكن توقعه، فقد أثر ما قاله في رئيسة الدير والكاهنة الأقدم ولكنها

لزمنا الصمت.

- وأود أن تكونا من الكرم بحيث تحاولان فهم موقعي . لقد أقرضت صديقي المال؛ لأنه أبلغني بحاجته إليه، وهذا المال هو ما استخدمه للقدوم الى هنا . أما الآن فقد سقط مريضاً، وإني لأشعر بالمسؤولية أمام أبويه عن هذا . فضلاً عن ذلك، وكما لا بد أنكما تحسبان، فإن التصرف السليم، بالنسبة لي، هو بوضوح العودة به الى طوكيو بأسرع ما يمكن . وإني لأدرك كذلك أن هذا هو الحل الوحيد المعقول، لكنني لم أنفذه، وإنما جثت اليكما، على هذا النحو، دون أن أجرؤ حتى على التفكير في مدى غضب أبويه مني، لأتوسل إليكما أن تلبيا طلب ماتسوجاي . أقوم بهذا لأنني، بعد أن رأيت نظرة الأمل اليائس في عينيه، لا أشعر بأن أمامي خياراً آخر . ولو أنه كان بمقدور نيافتك رؤية هذه النظرة فحسب، فإنني على يقين من أنك ستأثرين بدورك . أما عني فإنني لا أملك إلا الاعتقاد بأنه أكثر أهمية الآن أن تتم تلبية طلبه من القلق على حالته الصحية . إنه أمر رهيب أن تأتي على ذكره، لكنني أشعر على نحو ما بأنه لن يبل من مرضه أبداً، ولذا فإنني أقدم لكما طلبه على فراش الاحتضار . أترى يمكن أن يكون تركه يرى ساتوكو للحظة أو لحظتين خارجاً تماماً عن نطاق رحمة بوذا؟ ألا تسمحان له؟

واصلت نيافتها التزام الصمت . وعلى الرغم من أنه كان منفجلاً تماماً، فقد توقف عند ذلك الحد، خشية أن كلماته، إذا ما واصل الحديث، قد تجعل رئيسة الدير تغير رأيها . ساد الصمت الغرفة، التي لفها البرد . وذُكر الضوء الذي انسل من الأبواب الورقية البيضاء المزخرفة هوندا بغمامة خفيفة .

حسب في تلك اللحظة أنه سمع شيئاً ما، لم يكن بحال قريباً بحيث يحتمل أن يتناهى من الغرفة المجاورة، لكنه كان قريباً بما يكفي، وربما صدر عن ركن من أركان الدهليز أو عن الغرفة التي تعقب الغرفة التالية . تردد كأنه ضحكة مكتومة، خافتاً كأنه تفتح برعم برقوق . ولكن عندئذ،

وبعد تأمل دام لحظة، تيقن من أنه ما لم تكن أذناه قد خدعته، فإن الصوت الذي تنهى إليه عبر طقس الدير البارد في ذلك الصباح الربيعي لم يكن ضحكة مكتومة، كما حسب، وإنما النحيب المكتوم الصادر عن امرأة شابة. لم يكن يتسم بثقل مجالدة امرأة لدموعها. كان ما تنهى الى سماعه كابياً وواهنأ كأنه صوت رمية سهم هو الصدى الممتد لنحيب خفي. ولكنه عندئذ شرع في التساؤل عما إذا لم يكن الأمر مجرد انعطاف حاد مؤقت أصاب خياله.

قالت رئيسة الدير، متهكة الصمت، أخيراً.

- آه! لا شك في أنك تحسبني قاسية على نحو لا يناسب المقام، وقد يساورك شعور بأنني من تستخدم كل السبل للتفريق بين هذين الاثنين. غير أنه من المؤكد أن وسيطاً يفوق البشر هو الذي يحدث تأثيره هنا. لقد بدأ الأمر عندما أدت ساتوكو نفسها القسم أمام بوذا، وحلفت ألا تلتقي هذا الرجل ثانية قط في هذا العالم. ومن هنا فلنني أعتقد أن بوذا حريص على التيقن بحكمته من أنها ستفي بقسمها. ولكن بالنسبة للسيد الشاب فيا لها من مأساة!

- رغم كل شيء لن تسمحني نيافتك باللقاء؟

- لا.

تردد صوتها مضطجاً بكبرياء تستعصى على الوصف، وأحس هوندا بالعجز عن الرد عليها. وبدت كلمة «لا» البسيطة متمتعة بقدر من القوة يكفي غزيق السماء ذاتها، كأنها حرير رقيق.

بعد ذلك، وإذا رأت رئيسة الدير أساه العميق، راح صوتها الجميل يوجه إليه حديثاً متسامياً. وعلى الرغم من أنه لم يكن متلهفاً على مغادرة الدير والاضطرار لمواجهة اكتئاب كيواكي، فقد منعه حزنه الشديد من إبداء ما يتجاوز اهتماماً، يفتقر الى الحساس لما كانت تقوله.

أشارت رئيسة الدير الى شبكة إندرا . وكان إندرا رباً هنديةً ، ما إن يلقي شبكته ، حتى يعلق فيها كل إنسان وكل كائن حي ، دونما استثناء ، وعلى نحو لا خلاص منه . وهكذا فإنها أحاطت بكل مخلوقات الوجود على نحو لا مجال معه للهرب .

كانت شبكة إندرا ترمز لسلسلة التسبب أو باللغة السنسكريتية «براتيتيا - ساموتبادا يوشيكى» (فيجنتيتيا ترتا أو الوعي) كان المبدأ الجوهرى للمذهب هوسو، الذى ينتمى إليه دير جيشو قد لقي اهتماماً كبيراً في «القصاصد الثلاثين لليوشيكى»، وهو النص المعتمد الذى ينسب الى فوسوياندو، الذى ينظر أنصار المذهب إليه باعتباره المؤسس . وبحسب هذا النص، فإن «الآيا» هو أصل سلسلة التسبب . وتلك كلمة سنسكريتية تومىء الى «مستودع» . ذلك أنه فى داخل الـ «الآيا» تتضمن «البذور» الكارمية، التى تحمل التأثيرات التراتبية لكل الأفعال، الطيب منها والشرير معاً .

وأكثر عمقاً فى غور الانسان من الأشكال الستة للوعى - البصر، السمع، الشم، الذوق، اللمس، التفكير، التى منحت لكل الكائنات الواعية - كان هناك شكل سابع يدعى «مانا» أو الوعي الذاتى . ولكن مع ذلك يمتد الـ «الآيا»، أو الشكل المطلق للوعي على بعد أعمق .

وكما عبر هذا النص عن الأمر: «شأن وابل عنيف، يتدفق أبداً، ويتغير دوماً» فإن هذا الشكل الثامن من أشكال الوعي، مثل نهر مندفع، يتغير بلا توقف، دون أن يكف أبداً عن التدفق إلى الأمام . وفى دفع دائم، فإن الـ «الآيا» هو مصدر كل الكائنات الواعية وجميع كل التأثيرات فيها .

وقد مضى أسانجا، المؤسس المشارك مع فوسوياندو لمدرسة اليوشيكى، فى عمل مذهبي عنوانه «عناية الوسيط الأعظم»، ففصل القول على أساس الطبيعة المتحولة على نحو خالد لـ «الآيا»، واضعاً نظرية فريدة فى سلسلة التسبب من حيث البعد الزمنى . وتعالج هذه النظرية تفاعل وعي

الـ «ألايا» وقانون التدنيس الذي أدى الى وصفه بأنه «دائرة العود الأبدي لانقطاع وتجدد السببية». وبحسب مبدأ اليوشيكى «الوعي وحده» فإن كلا من الدراما^(١) المتعددة التي لا تعدو بالفعل أن تكون الوعي، وهي بعيدة عن التمتع بالدوام توجد على نحو خالص في اللحظة الراهنة. وما إن تنقضي هذه اللحظة حتى يلحقها الانقطاع أو العدم. وفي اللحظة الراهنة فإن وعي الـ «ألايا» وقانون التدنيس يوجدان على نحو مترامن ويؤدي تفاعلها الى سببية اللحظة الراهنة. وما إن تنقضي اللحظة الراهنة حتى يلحق الانقطاع أو العدم بكل من الـ «ألايا» وقانون التدنيس. ولكن مع مقدم اللحظة التالية فإنها يبعثان معاً، ومعاً يتفاعلان من جديد ليستنهض سببية جديدة. هكذا فإن الكائنات الموجودة يلحقها الانقطاع أو العدم من لحظة لأخرى، الأمر الذي ينشأ مع الزمن. والتطور الذي بمقتضاه يتولد الزمن من هذا الانقطاع بين لحظة وأخرى يمكن تشبيهه بصف من النقاط وخط.

مع كر اللحظات وانقضائها، ألقى هوندا نفسه ينجذب تدريجياً لإيضاح رئيسة الدير المذهبي العميق. ولكن ظروفه الراهنة حالت دون أي تحرك لروح البحث العقلاني الغريزية لديه. وغرّبه الاندفاع المفاجيء لفيض الاصطلاحات البوذية المركبة، ثم كانت هناك نقاط صعبة عديدة كانت له شكوك حيالها، وقد حدثت نفسه بأن الكارما ينبغي أن يعمل على نحو خالده، وأن يكون عملية لا بداية لها، تتضمن بحكم طبيعتها في داخل ذاتها عناصر الوقت. وبدا له أمراً متناقضاً أن الزمن، على العكس من ذلك، قد تعين فهمه باعتباره ينشأ من انحلال وتوالد سببية كل لحظة راهنة.

(١) الدارما: كلمة سنسكريتية، تعني، في أبسط معانيها، في التقاليد الهندوسية والبودية، الشريعة الدينية، أو العمل بأحكامها، أو الدين، أو القانون، أو الفضيلة، أو صفة جوهرية. (هـ. م.)

هكذا، فإن شكوكه العديدة حالت بينه وبين إبداء انتباه مليء بالاجلال من كل قلبه لطرح نياقتها الغزير المعرفة. كذلك ضايقتة الكاهنة الأقدم بتدخلاتها. فعلى فترات مناسبة كانت تقاطع الحديث قائلة: «ما أصدق هذا!». «الامر كذلك حقاً!». «كيف يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك؟» وما إلى هذه الأقوال. هكذا، فقد اكتفى بتذكر العنوانين «القصائد الثلاثين» و«عناية الوسيط الأعظم»، وحدث نفسه بأن بمقدوره أن يبحث عنها عندما يتاح له الفراغ، ثم يعود الى هنا لي طرح الأسئلة، ثم إنه في حالته المزاجية الراهنة لم يدرك من أي منظور وبأي قدر من الوضوح كانت كلمات رئيسة الدير تلقي الضوء على قدر كيواكي وقدره هو، على الرغم من أنها ظاهرياً كانت بعيدة عن الموضوع ولا أهمية لها. كان الأمر تماماً على نحو ما ينير القمر في قمة اكتماله المياه العكرة، في بحيرة، بشكل مراوغ. غمغم بكلمة اعتذار مهذبة واستأذن مغادراً جيشو بأسرع ما يستطيع.

خلال رحلة العودة بالقطار الى طوكيو، كان ألم كيواكي البالغ الوضوح مصدراً لحزن هوندا الشديد. نحى كتبه جانباً كلية، وغدا هم الوحيد الآن أن يمضي عائداً بصديقه الى الدار بأسرع ما يستطيع. فيما هو يتطلع الى كيواكي إذ يرقد وقد ألم به مرضه الخطير في مضجعه بالقطار، محمولا الى طوكيو دون أن يحقق اللقاء الذي تاق إليه، أحس بالندم يلتهم فؤاده، وراح يتساءل عما إذا كان إقراضه تلك النقود عملاً أتاه صديق حقاً.

أخذت كيواكي سنة من النوم. وبالمقابل كان هوندا أكثر تنبهاً من أي وقت مضى، على الرغم من أنه لم ينم منذ وقت طويل. سمح لحشد من الخواطر بأن يقبل ويمضي دون أن يكبح له جماحاً. وبين هذه الخواطر انهلث عليه ذكرى عظات رئيسة الدير في مناسبتين، كل مناسبة منهما لها تأثير مخالف تماماً للمناسبة الأخرى. كان قد سمع في خريف العام الماضي عظته الأولى منها، الحكاية الرمزية التي تتحدث عن شرب الماء من جمجمة، وقد التقط ذلك المبدأ ونسج حكاية رمزية من إبداع خياله، حكاية تعالج أمر الحب البشري، واختتمها بالتفكير في أنه سيكون أمراً رائعاً على نحو لا مجال للشك فيه إذا استطاع الانسان حقاً أن يجعل ماهية العالم تتوافق مع قرارة فؤاده. وفي وقت لاحق، في غمار دراساته القانونية، كرّس قدراً يعتد به من التفكير لمذهب البعث على نحو ما عبر عنه في قوانين مانو. وصباح اليوم سمع رئيسة الدير تتحدث مجدداً. والآن ساوره شعور كما لو أن المفتاح الوحيد لحل اللغز، الذي كان يشير غيظه قد تدلى للحظة من خيط أمام

عينه متارجحاً جيئةً وذهاباً بالعديد من الوثبات والانعطافات المحيرة بحيث أن اللغز نفسه بدا أنه أصبح أشد تعقيداً.

كان من المقرر أن يصل القطار الى محطة شيمباشي، في السادسة صباحاً. وكان الليل قد أوغل بالفعل في مسيرته واختلط تنفس الركاب الثقيل مع قرقرة عجلات القطار. لسوف يظل يقظان حتى الفجر ساهراً على كيواكي الراقد في المضجع الأسفل قبالة مباشرة. وكان قد ترك الستائر مفتوحة حتى يعرف في الحال إذا ما حدث أي تغير في حالة كيواكي، والان راح يحدق مطلاً من إحدى النوافذ في الحقول، التي اكتست بالظلام.

ورغم أن القطار كان يندفع مسرعاً عبر الليل، فإن الظلام كان دامساً، والسماء مدلهمة للغاية، حتى أن الحقول والجبال الواقعة وراءها احتجبت، على وجه التقريب، دون أن تترك شيئاً لتحديد مدى تقدم القطار في مسيرته. ومن وقت لآخر كان تألق ضوئي صغير أو وهج محدد لمصباح يحدثان شقاً باهراً في ستار الظلام، ولكن هذه الالتساعات ما كانت لتدل أحداً على الاتجاه. راح هوندا يحدث نفسه مسلماً إياها بأن القطار لم يكن هو الذي يحدث هذه الضجة الصاكة، وإنما شيء آخر، شيء يلف هذا القطار الذي هو شيء صغير فيما يقوم برحلته المجردة من المغزى عبر الليل. كان الدوي يصدر عن الظلمة نفسها.

بينما كان هوندا يحزم الأمتعة على عجل لمغادرة النزول في أويتوكي، حصل كيواكي على وريقات قلائل، من النوع الرخيص، من صاحب النزول وكتب كلمة، ثم أعطاها لهوندا طالباً منه أن يسلمها لأمه الأميرة. وقد وضعها هوندا بحرص في جيب سترته الداخلي. ولعدم وجود ما هو أفضل للقيام به أخرجها الآن، وقرأها على الضوء الشحيح المنبعث من المصباح الكهربائي المتدلي من سقف عربة القطار.

كانت مكتوبة بقلم رصاص، واليد التي سطرتها بعيدة عن الثبات،

خلفاً لما اعتاد كيواكي . لم يكن قد خط حروفه قط بجبال بارع ، ولكن كانت هناك على الدوام لمسة قوية على نحو وافر تميزها :

وأمسي العزيزة :

هناك شيء أود أن تعطينه لهوندا ، نيابة عني ، هو مذكرة الأحلام الموضوعية على قمطري ؛ ذلك أنها ستعجبه ، وبما أنه ما من أحد آخر سيرغب في مطالعتها ، فأرجو أن تحرصي على حصوله عليها .

كيواكي ،

كان بمقدور هوندا أن يرى أن كيواكي قد استخدم الاحتياطات الأخيرة من قوته لكتابة هذه الكلمة كنوع من الوصية . ولكن لو أن الأمر كان كذلك حقاً فمن المؤكد أنه كان ينبغي أن يضمها كلمة أو كلمتين لأمه نفسها ، بدلاً من أن يخاطبها على هذا النحو المقتضب والعملي .

تصاعدت أنة من المضجع المقابل ، فسارع بإبعاد الرسالة الموجزة ودنا في لمحة من كيواكي مطلقاً الى وجهه .

- خيراً؟

- صدري يؤلمني . أحس كما لو كنت أظعن هنا .

تردد تنفس كيواكي خشناً ، وبدت كلماته متناثرة . لم يدر هوندا ماذا عساه يصنع غير ذلك ، فشرع يدلك في رفق الجانب الأيسر الى أسفل من صدره ، وهي البقعة التي قال إن الألم أكثر حدة فيها . ولكنه رأى في الضوء الخافت أن وجه صديقه لا يزال متشنجاً من فرط الألم .

غير أنه على الرغم من التشنجات ، كان وجهاً جميلاً ، وقد أضفت عليه المعاناة الحادة طابعاً شديداً الغرابة ، ناحتة فيه خطوطاً ، منحته الكبرياء البعيدة عن الإسراف لقناع من البرونز . اغرورقت العينان الجميلتان بالدموع . غير أنه فوقهما تقوس الحاجبان في إحكام ، وشكلت القوة

الذكورية التي توحيان بها تقابلاً حاداً مع العناصر الآخذة بمجامع القلب الخاصة بالبؤيذين المتألقين، الأسودين، اللذين نذاهما الدمع. وفيما هو بجالد الألم، برز أنفه البديع التكوين إلى أعلى كأنما يحاول أن يخترق الظلام من حوله باحثاً، وتراجعت شفتاه المحترقتان بفعل الظمأ لتكشفاً عن أسنانه ذات لون عرق اللؤلؤ، التي تألقت، على نحو شاحب.

أخيراً، بدا أن الألم القاهر ينجاب.

- أناثم أنت؟ طيب. هذا ما تحتاجه.

قالها هوندا، وراح يتساءل عن دلالة الملمح المترع بالعذاب، الذي اكتسى به محيا صديقه، منذ لحظة. ألم يكن في حقيقة الأمر تعبيراً عن نشوة حادة من النوع الذي لا وجود له إلا عند أقصى أطراف الوجود البشري؟ ربما كان كيواكي قد تراءى له شيء ما، وحسده هوندا على ذلك، وهو انفعال أثار بدوره شعوراً غريباً بالخجل وتوبيخ الذات في أعماقه.

هز رأسه بخفة؛ فقد كان قد بدأ في الشعور بالوقر الخدر للحزن. وفي أعماقه، ومراوغاً وملحاً مثل مغزل للحريز، تشكل انفعال تدريجياً. راوغه مغزى هذا الانفعال، وأثار قلقه.

عندئذ، فتح كيواكي، الذي بدا أنه قد أغفى للحظة، عينيه على سعتهما، ومدّ يده نحو يد هوندا، فأمسك بها في إحكام، وهو يتحدث.

- الآن توأ، تراءى لي حلم. سأراك من جديد، إني أعرف ذلك، تحت الشلالات.

حدث هوندا نفسه بأن حلمه قد حمله إلى الحديقة المحيطة بدار أبيه. وهنالك لا بد أن أشد الصور توهجاً بالحوية هي الشلالات التي تهوى المياه فيها، من قمة الجبل في مراحلها التسع.

بعد يومين من عودة كيواكي إلى طوكيو، مات، في العشرين من عمره.

مؤسسة حمد للطباعة والتصوير



مقاطف، ٨٣٨١٥٧-٢-٨٣٧٧٠٢ - بـقوت - بنات

العمل المائل بين يدي القارئ، «ثلج الربيع» رواية متكاملة وقائمة بذاتها، ولكنها في الوقت نفسه، ترتبط مع شقيقاتها الثلاث الأخريات: «الجياد الهاربة» و«معبد الفجر» و«سقوط الملاك» بوشائج لها قوة أمراس من فولاذ، لتشكل معاً رائعة ميشيما النادرة المثال، في الأدب العالمي كله: رباعية «بحر الخصوبة».

إن بطل «ثلج الربيع» الفتى «كيواكي»، وهو سليل عائلة ماكسوجاي اليابانية النبيلة، يحيا قصة حب، من النوع الذي يستعصي على الذاكرة أن تنساه، ويقف صديقه «هوندا» شاهداً على قصة حبه الفريدة والفتانة تلك.

في كل مجلد يعقب ذلك، نجد أن البطل لا يعدو أن يكون هو نفسه البطل الأول ولكن بعد انتقاله من خلال تناسخ الأرواح، لبدأ دورة وجود جديدة، وليتاح لـ «هوندا» وحده أن يعرف الرابطة التي تصل الأبطال الأربعة، وذلك من خلال عنصرين محددين، هما ثلاث شامات يحملها الأبطال جميعاً، ومجموعة الأحلام العجائبية...

كان ميشيما على يقين من أن رباعيته إنما هي نقطة الوصول لكل ما تعلّمه بوصفه كاتباً. فقد لفت انتباه أصدقائه إلى أنه عندما ينتهي من كتابتها، لن يبقى له سوى عمل شيء واحد: «الانتحار». وهو ما حدث بالفعل...

تصميم الغلاف: فصيح كيسو

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

